

الكتاب: السيرة الحلبية
المؤلف: الحلبي
الجزء: ١
الوفاة: ١٠٤٤
المجموعة: مصادر سيرة النبي والائمة
تحقيق:
الطبعة:
سنة الطبع: ١٤٠٠
المطبعة: بيروت - دار المعرفة
الناشر: دار المعرفة
ردمك:
ملاحظات:

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم
حمد لمن نضر وجوه أهل الحديث وصلاة وسلاما على من نزل عليه أحسن الحديث
وعلى آله وأصحابه أهل التقدم في القديم والحديث صلاة وسلاما دائمين ما سارت
الأئمة في جمع سير المصطفى السر الحثيث
وبعد فيقول أفقر المحتاجين وأحوج المفتقرين لعفو ذي الفضل والطول المتين علي بن
برهان الدين الحلبي الشافعي إن سيرة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام من أهم ما
اهتم به العلماء الأعلام وحفاظ ملة الإسلام كيف لا وهو الموصل لعلم الحلال والحرام
والحامل على التخلق بالأخلاق العظام وقد قال الزهري رحمه الله في علم المغازي خير
الدنيا والآخرة وهو أول من ألف في السير
قال بعضهم أول سيرة ألفت في الإسلام سيرة الزهري وعن سعد بن أبي وقاص رضي
الله عنه أنه قال كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه فيقول
يا بني هذه شرف آبائكم فلا تنسوا ذكرها وأحسن ما ألف في ذلك وتداولته الأكياس
سيرة الحافظ أبي الفتح ابن سيد الناس لما جمعت من تلك الدراري والدرر ومن ثم
سماها عيون الأثر غير أنه أطال بذكر الإسناد الذي كان للمحدثين به مزيد الاعتداد
وعليه لهم كثير الاعتماد إذ هو من خصائص هذه الأمة ومفتخر الأئمة لكنه صار الآن
لقصور الهمم لا تقبله الطباع ولا تمتد إليه الأطماع وأما سيرة الشمس الشامي فهو وإن
أتى بما فيما يعد في صفائح وجوه الصحائف حسنات لكنه أتى فيها بما هو في أسماع
ذوى الأفهام كالمعادات
ولا يخفى أن السير تجمع الصحيح والسقيم والضعيف والبلاغ والمرسل والمنقطع
والمعضل دون الموضوع ومن ثم قال الزين العراقي رحمه الله

* وليعلم الطالب أن السير
* تجمع ما صح وما قد أنكرا
*

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل وغيره من الأئمة إذا روينا في الحلال والحرام شددنا وإذا روينا في الفضائل ونحوها تساهلنا وفي الأصل والذي ذهب إليه كثير من أهل العلم الترخص في الرقائق ومالا حكم فيه من أخبار المغازي وما يجري مجرى ذلك وأنه يقبل منها مالا يقبل في الحلال والحرام لعدم تعلق الأحكام بها فلما رأيت السيرتين المذكورتين على الوجه الذي لا يكاد ينظر إليه لما اشتملتا عليه عن لي أن ألخص من تينك السيرتين أنموذجا لطيفا يروق الأحداق ويحلو للأذواق يقرأ مع ما أضمه إليه بين يدي المشايخ على غاية الانسجام ونهاية الانتظام ولا زلت في ذلك أقدم رجلا وأؤخر أخرى لكوني لست من أهل هذا الشأن ولا ممن يسابق في ميدانه على خيل الرهان حتى أشار علي بذلك وبسلوك تلك المسالك من إشارته واجبة الاتباع ومخالفة أمره لا تستطاع ذو البديهة المطاوعة والفضائل البارعة والفواضل الكثيرة النافعة من إذاسئل عن أي معضلة أشكلت على ذوي المعرفة والوقوف لا تراه يتوقف ولا يخرج عن صوب الصواب ولا يتعسف ولا أخبر في كثير من الأوقاف عن شيء من المغيبات وكاد أن يتخلف وهو الأستاذ الأعظم والملاذ الأكرم مولانا الشيخ أبو عبد الله وأبو المواهب محمد فخر الإسلام البكري الصديقي كيف لا وهو محل نظر والده من نشر ذكره مالمشارك والمغارب وسرى سره في سائر المسارى والمسارب ولي الله والقائم بخدمته في الإسرار والإعلان والعارف به الذي لم يتمار في أنه القطب الفرد الجامع اثنان مولانا الأستاذ أبو عبد الله وأبو بكر محمد البكري الصديقي ولا بدع فإنه نتيجة صدر العلماء العاملين وأستاذ جميع الأستاذين والمعدود من المجتهدين صاحب التصانيف المفيدة في العلوم العديدة مولانا الأستاذ محمد أبو الحسن تاج العارفين البكري الصديقي أعاد الله تعالى على وعلى أحبائي من بركاتهم وجعلنا في الآخرة من جملة أتباعهم فلما أشار على ذلك الأستاذ بتلك الإشارة ورأيتها منه أعظم بشارة شرعت معتمدا في ذلك على من يبلغ كل مؤمل أمله ولم يخيب من قصده وأمله وقد يسر الله تعالى ذلك على أسلوب لطيف ومسلك شريف لا تمله الأسماع ولا تنفر منه الطباع والزيادة التي أخذتها من سيرة الشمس الشامي على سيرة أبي الفتح ابن سيد الناس الموسومة بعيون الأثر إن كثرت ميزتها بقولي في أولها قال وفي آخرها انتهى

وإن قلت أتيت بلفظه أي وجعلت في آخر القولة دائرة هكذا بالحمرة وربما أقول وفي السيرة الشامية وربما عبرت عن الزيادة القليلة بقال وعن الكثيرة بأي وما ليس بعده تلك الدائرة فهو من الأصل أعني عيون الأثر غالبا وقد يكون من زيادتي على الأصل والشامي كما يعلم بالوقوف عليهما وربما ميزت تلك الزيادة بقولي في أولها أقول وفي آخرها والله أعلم وقد يكون من الزيادة ما أقول وفي السيرة الهشامية بتقديم الهاء على الشين وحيث أقول قال في الأصل أو ذكر في الأصل أو نحو ذلك فالمراد به عيون الأثر ثم عن لي أن أذكر من أبيات القصيدة الهمزية المنسوبة لعالم الشعراء وأشعر العلماء وهو الشيخ شرف الدين البوصيري ناظم القصيدة المعروفة بالبردة وما تضمنته تلك الأبيات وأشارت إليه من ذلك السياق فإنه أحلى في الأذواق وربما أحل ذلك النظم بما يوضح معناه ويظهر تركيب مبناه وربما أذكر أيضا من أبيات تائية الإمام السبكي ما يناسب المقام وربما أذكر أيضا بعض أبيات من كلام صاحب الأصل من قصائده النبوية المجموعة بديوانه المسمى ب بشرى اللبيب بذكرى الحبيب وقد سميت مجموع ذلك إنسان العيون في سيرة الأمامون وأسأل من لا مسؤول إلا إياه أن يجعل ذلك وسيلة لرضاه آمين

باب نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم
هو محمد صلى الله عليه وسلم ابن عبد الله ومعنى عبد الله الخاضع الذليل له تعالى
وقد جاء أحب أسمائكم وفي رواية أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن وجاء
أحب الأسماء إلى الله ما تعبد به وقد سمي صلى الله عليه وسلم بعبد الله في القرآن
قال الله تعالى وأنه لما قام عبد الله يدعوه وعبد الله هذا هو ابن عبد المطلب ويدعى
شيبه الحمد لكثرة حمد الناس له أي لأنه كان مفرع قريش في النوائب وملجأهم في
الأمر فكان شريف قريش وسيدها كمالاتها وفعالاً من غير مدافع وقيل قيل له شيبه الحمد
لأنه ولد وفي رأسه شيبه أي وفي لفظ كان وسط رأسه أبيض أو سمي بذلك تفاقماً بأنه
سيبلغ سن الشيب قيل اسمه عامر وعاش مائة وأربعين سنة أي وكان ممن حرم الخمر
على نفسه في الجاهلية وكان مجاب الدعوة وكان يقال له الفياض لجوده ومطعم طير
السماء لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال قال وكان من
حلماء قريش وحكمائها وكان نديمه حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف والد
أبي سفيان وكان في حوار عبد المطلب يهودي فأغلظ ذلك اليهودي القول على حرب
في سوق من أسواق تهامة فأغرى عليه حرب من قتله فلما علم عبد المطلب بذلك ترك
منادمة حرب ولم يفارقه حتى أخذ منه مائة ناقة دفعها لابن عم اليهودي حفظاً لحواره
ثم نادى عبد الله بن جدعان انتهى ملخصاً
وقيل له عبد المطلب لأن عمه المطلب لما جاء به صغيراً من المدينة أردفه خلفه أي
وكان بهيئة رثة أي ثياب خلقة فصار كل من يسأل عنه ويقول من هذا يقول عبدي أي
حياء أن يقول ابن أخي فلما دخل مكة أحسن من حاله وأظهر أنه ابن أخيه وصار يقول
لمن يقول له عبد المطلب ويحكم إنما هو شيبه ابن أخي هاشم لكن غلب عليه

الوصف المذكور فليل له عبد المطلب أي وقيل لأنه تربى في حجر عمه المطلب وكان عادة العرب أن تقول لليتيم الذي يتربى في حجر أحد هو عبده وكان عبد المطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغي ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن دينيات الأمور وكان يقول لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبهم عقوبة إلى أن هلك رجل ظلوم من أهل الشام لم تصبه عقوبة فليل لعبدالمطلب في ذلك ففكر وقال والله إن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسئئ بإساءته أي فالمظلوم شأنه في الدنيا ذلك حتى إذا خرج من الدنيا ولم تصبه العقوبة فهي معدة له في الآخرة ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام ووجد الله سبحانه وتعالى وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها وجاءت السنة بها منها الوفاء بالندر والمنع من نكاح المحارم وقطع يد السارق والنهي عن قتل الموءودة وتحريم الخمر والزنا وأن لا يطوف بالبيت عريان كذا في كلام سبط ابن الجوزي ابن هاشم وهاشم هو عمرو العلاء أي لعلو مرتبته وهو أخو عبد شمس وكانا توءمين وكانت رجل هاشم أي أصبعها ملصقة بجبهة عبد شمس ولم يمكن نزعها إلا بسيلان دم فكانوا يقولون سيكون بينهما دم فكان بين ولديهما أي بين بني العباس وبين بني أمية سنة ثلاث وثلاثين ومائة من الهجرة ووقعت العداوة بين هاشم وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس لأن هاشما لما ساد قومه بعد أبيه عبد مناف حسده أمية بن أخيه فتكلف أن يصنع كما يصنع هاشم فعجز فغيرته قريش وقالوا له أتشبه بهاشم ثم دعا هاشما للمنافرة فأبى هاشم ذلك لسنه وعلو قدره فلم تدعه قريش فقال هاشم لأمية أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة والجلاء عن مكة عشر سنين فرضى أمية بذلك وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي وكان بعسفان فخرج كل منهما في نفر فنزلوا على الكاهن فقال قبل أن يخبروه خبرهم والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو من طائر وما اهتدى بعلم مسافر من منجد وغائر لقد سبق هاشم أمية إلى المفاجر فنصر هاشم على أمية فعاد هاشم إلى مكة ونحر الإبل وأطعم الناس وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأميه وتوارث ذلك بنوهما وكان يقال لهاشم وإخوته عبد شمس والمطلب ونوفل أقداح النضار أي الذهب ويقال لهم المجيرون لكرمهم وفخرهم وسيادتهم على سائر العرب

قال بعضهم ولا يعرف بنوا أب تباينوا في محال موتهم مثلهم فإن هاشما مات بغزة أي كما سيأتي وعبد شمس مات بمكة وقبر بأجياد ونوفلا مات بالعراق والمطلب مات ببرعاء من أرض اليمن أي قيل له هاشم لأنه أول من هشم الثريد بعد جده إبراهيم فإن إبراهيم أول من فعل ذلك أي ثرد الثريد وأطعمه المساكين وفيه أن أول من ثرد الثريد وأطعمه بمكة بعد إبراهيم جد هاشم قصي ففي الإمتاع وقصي أول من ثرد الثريد وأطعمه بمكة وفيه أيضا هاشم عمرو العلاء أول من أطعم الثريد بمكة وسيأتي أن أول من فعل ذلك عمرو بن لحي فليتأمل

وقد يقال لا منافاة لأن الأولية في ذلك إضافية فأولية قصي لكونه من قريش وأولية عمرو بن لحي لكونه من خزاعة وأولية هاشم باعتبار شدة مجاعة حصلت لقريش وإلى ذلك يشير صاحب الأصل بقوله
* وأطعم في المحل عمرو العلاء
* فللمستئين به خصب عام
*

وقال أيضا

* عمرو العلاء ذو الندى من لا يسابقه
* مر السحاب ولا ريح تجاربه
* جفانه كالجوابي للوفود إذا
* لبوا بمكة ناداهم مناديه
* أو أمحلوا أخصبوا منها وقد ملئت
* قوتا لحاضره منهم وباديه
*

وقد قيل فيه

* قل للذي طلب السماحة والندی
* هلا مررت بآل عبد مناف
* الرائشون وليس يوجد رائش
* والقائلون هلم للأضياف
*

وعن بعض الصحابة قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي الله تعالى عنه على باب بني شيبه فمر رجل وهو يقول
* يا أيها الرجل المحول رحله
* ألا نزلت بآل عبد الدار
* هبلتك أمك لو نزلت برحلهم
* منعوك من عدم ومن إقتار

*
فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال أهكذا قال
الشاعر قال لا والذي بعثك بالحق ولكنه قال
* يا أيها الرجل المحول رحله
* ألا نزلت بآل عبد مناف
* هبلتك أمك لو نزلت برحلهم
* منعوك من عدم ومن إقراف
*

الخالطين غنيهم بفقيرهم
* حتى يعود فقيرهم كالكافي *

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال هكذا سمعت الرواة ينشدونه وكان هاشم بعد أبيه عبد مناف على السقاية والرفادة فكان يعمل الطعام للحجاج يأكل منه من لم يكن له سعة ولا زاد ويقال لذلك الرفادة

واتفق أنه أصاب الناس سنة جذب شديد فخرج هاشم إلى الشام وقيل بلغه ذلك وهو بغزة من الشام فاشترى دقيقا وكعكا وقدم به مكة في الموسم فهشم الخبز والكعك ونحر الجزر وجعله ثريدا وأطعم الناس حتى أشبعهم فسمى بذلك هاشما وكان يقال له أبو البطحاء وسيد البطحاء

قال بعضهم لم ترل مائدته منصوبة لا ترفع في السراء والضراء
قال ابن الصلاح رويانا عن الإمام سهل الصعلوكي رضي الله عنه أنه قال في قوله صلى الله عليه وسلم فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام أراد فضل ثريد عمرو العلاء الذي عظم نفعه وقدره وعم خيره وبره وبقي له ولعقبه ذكره وقد أبعده سهل في تأويل الحديث

والذي أراه أن معناه تفضيل الثريد من الطعام على باقي الطعام لأن سائر بمعنى باقي أي فالمراد أي ثريد لا خصوص ثريد عمرو العلاء حتى يكون أفضل من ثريد غيره وكان هاشم يحمل ابن السبيل ويؤمن الخائف

قال وقد ذكر أنه كان إذا هل هلال ذي الحجة قام صبيحته وأسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ويخطب يقول في خطبته يا معشر قريش إنكم سادة العرب أحسنها وجوها وأعظمها أحلاما أي عقولا وأوسط العرب أي أشرفها أنسابا وأقرب العرب بالعرب أرحاما يا معشر قريش إنكم جيران بيت الله تعالى أكرمكم الله تعالى بولايته وخصكم بجواره دون بني إسماعيل وإنه يأتيكم زوار الله يعظمون بيته فهم أضيافه وأحق من أكرم أضياف الله أنتم فأكرموا ضيفه وزواره فإنهم يأتون شعثا غربا من كل بلد على ضوامر كالقداح فأكرموا ضيفه وزوار بيته فورب هذه البنية لو كان لي مال يحتمل ذلك لكفيتكموه وأنا مخرج من طيب مالي وحلاله مالم يقطع فيه رحم ولم يؤخذ بظلم ولم يدخل فيه حرام فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل واسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله وتقويتهم إلا طيبا لم يؤخذ ظلما

ولم يقطع فيه رحم ولم يؤخذ غصبا فكانوا يجتهدون في ذلك ويخرجونه من أموالهم فيضعونه في دار الندوة انتهى

وقيل في تسمية شيبه الحمد عبد المطلب غير ما تقدم فقد قيل إنما سمي شيبه الحمد عبد المطلب لأن أباه هاشما قال للمطلب الذي هو أخو هاشم وهو بمكة حين حضرته الوفاة أدرك عبدك يعني شيبه الحمد بيثرب فمن ثم سمي عبد المطلب كذا في المواهب وقدمه على ما تقدم

وفيه أنه حكى غير واحد أن هاشما خرج تاجرا إلى الشام فنزل على شخص من بني النجار بالمدينة وتزوج بنته على شرط أنها لا تلد ولدا إلا في أهلها أي ثم مضى لوجهه قبل أن يدخل بها ثم انصرف راجعا فبنى بها في أهلها ثم ارتحل بها إلى مكة فلما أثقلت بالحمل خرج بها فوضعها عند أهلها بالمدينة ومضى إلى الشام فمات بغزة قيل وعمره حينئذ عشرون سنة وقيل أربع وقيل خمس وعشرون وولدت شيبه الحمد فمكث بالمدينة سبع سنين وقيل ثمان فمر رجل على غلمان يلعبون أي يتضلون بالسهم وإذا غلام فيهم إذا أصاب قال أنا ابن سيد البطحاء فقال له الرجل ممن أنت يا غلام فقال أنا شيبه بن هاشم بن عبد مناف فلما قدم الرجل مكة وجد المطلب جالسا بالحجر فقص عليه ما رأى فذهب إلى المدينة فلما رآه عرف شبه أبيه فيه ففاضت عيناه وضمه إليه خفية من أمه

وفي لفظ أنه عرفه بالشبه وقال لمن كان يلعب معه أهذا ابن هاشم قالوا نعم فعرفهم أنه عمه فقالوا له إن كنت تريد أخذه فالساعة قبل أن تعلم به أمه فإنها إن علمت بك لم تدعك وحالت بينك وبينه فدعاه المطلب وقال يا أخي أنا عمك وقد أردت الذهاب بك إلى قومك وأناخ ناقته فجلس على عجز الناقة فانطلق به ولم تعلم به أمه حتى كان الليل فقامت تدعوه فأخبرت أن عمه قد ذهب به وكساه حلة يمانية ثم قدم به مكة فقالت قريش هذا عبد المطلب أي فإن هذا السياق يدل على أن عبد المطلب إنما ولد بعد موت أبيه هاشم بغزة وكون عمه المطلب كساه حلة لا ينافي ما سبق أنه دخل به مكة وثيابه رثة خلقة لأنه يجوز أن تكون هذه الحلة ألبست له عند أخذه ثم نزعت عنه في السفر أي أو أن هذه الحلة اشتراها بمكة كما يصرح به كلام بعضهم وما وقع هنا

من تصرف الراوي على أنه يجوز أن يكون اشترى له حلتين واحدة ألبسها له بالمدينة وأخرى اشتراها بمكة وألبسها له وفي السيرة الهشامية أن أم عبدالمطلب كانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها حتى يشربوا لها أن أمرها بيدها إذا كرهت رجلا فارقته أي وإنها لا تلد ولدا إلا في أهلها كما تقدم وأن عمه المطلب لما جاءه لأخذه قالت له لست بمرسلته معك فقال لها المطلب إنني غير منصرف حتى أخرج به معي إن ابن أخي قد بلغ وهو غريب في غير قومه ونحن أهل بيت شرف في قومنا وقومه وعشيرته وبلده خير من الإقامة في غيرهم فقال شيبه لعمه إنني لست بمفارقها إلا أن تأذن لي فأذنت له ودفعته إليه فأردفه خلفه على بعيره ويحتاج إلى الجمع بين هذا وما قبله فقالت قريش عبد المطلب إبتاعه أي ظنا منهم أنه اشتراه من المدينة فإن الشمس أثرت فيه وعليه ثياب أخلاق فقال لهم ويحكم إنما هو ابن أخي هاشم ولا يخالف هذا ما سبق من أنه صار يقول لمن يسأله عنه من هذا فيقول عبدي لأنه يجوز أن يكون بعض الناس قال من عند نفسه هذا عبد المطلب ظنا منه وبعضهم سأله فأجابه بقوله هذا عبدي كما تقدم ولما دخل مكة قال لهم ويحكم إلى آخره وهاشم بن عبد مناف وبعد مناف اسمه المغيرة أي وكان يقال له قمر البطحاء لحسنه وجماله وهذا هو الحد الثالث لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الجد الرابع لعثمان بن عفان والجد التاسع لإمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنهما ووجد كتاب في حجر أنا المغيرة بن قصي أوصى قريشا بتقوى الله جل وعلا وصلة الرحم ومناف أصله مناة اسم صنم كان أعظم أصنامهم وكانت أمه جعلته خادما لذلك الصنم وقيل وهبته له لأنه كان أول ولد لقصي على ما قيل لأن عبد مناف بن قصي أي ويسمى قصي زيدا وعن إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه أن اسمه يزيد ويدعى مجمعا أيضا وقيل له قصي لأنه قصي أي بعد عن عشيرته إلى أخواله بني كلب في ناديهم وقيل بعد إلى قضاة مع أمه لأنها كانت منهم أقول لا منافاة لجواز أن تكون أم قصي من بني كلب وأبوها من قضاة وأنها رحلت بعد موت عبد مناف إلى بني كلب ثم لما تزوجت من قضاة رحلت إليها ولعل قضاة كانت جهة الشام فلا يخالف ما قيل

وقيل له قصي لأنه بعد مع أمه إلى الشام لأن أمه تزوجت بعد موت أبيه وهو فطيم بشخص يقال له ربيعة بن حزام وقيل حزام بن ربيعة العذري فرحل بها إلى الشام وكان قصي لا يعرف له أبا إلا زوج أمه المذكور فلما كبر وقع بينه وبين آل زوج أمه شر أي فإنه ناضل رجلا منهم فضله قصي أي غلبه فغضب ذلك الرجل وعير قصيا بالغرابة وقال له ألا تلحق بقومك وبلادك فإنك لست منا

وفي لفظ لما قيل له قال ممن أنا قيل له سل أمك فشكا ذلك إلى أمه فقالت له بلادك خير من بلادهم وقومك خير من قومهم أنت أكرم أبا منهم أنت ابن كلاب بن مرة وقومك بمكة عند البيت الحرام تفد إليه العرب وقد قالت لي كاهنة رأتك صغيرا إنك تلي أمرا جليلا فلما أراد الخروج إلى مكة قالت له أمه لا تعجل حتى يدخل الشهر الحرام فتخرج مع حجاج قضاة فإني أخاف عليك فشخص مع الحجاج فقدم قصي مكة على قومه مع حجاج قضاة فعرفوا له فضله وشرفه فأكرموه وقدموه عليهم فساد فيهم ثم تزوج بنت حليل بالحاء المهملة المضمومة الخزاعي وكان أمر مكة والبيت إليه وهو آخر من ولى أمر البيت والحكم بمكة من خزاعة فجاء منها بأولاده الآتي ذكرهم فلما انتشر ولده وكثر ماله وعلم شرفه مات حليل فرأى قصي أنه أولى بأمر مكة من خزاعة لأن قريشا أقرب إلى إسماعيل من خزاعة فدعا قريشا وبني كنانة إلى إخراج خزاعة من مكة فأجابوه إلى ذلك وانضم له قضاة جاء بهم أخو قصي لأمه فأزاح قصي ياء خزاعة وولى أمر مكة

وقيل إن حليلا جعل أمر البيت لقصي ولا منافاة لجواز أن تكون خزاعة لم ترض بما فعله حليل من أن يكون أمر البيت لقصي فحاربهم وأخرجهم من مكة وقيل إن حليلا أوصى بذلك لأبي غبشان بضم الغين المعجمة بعد أن أوصى بذلك لأبنته زوج قصي وقالت له لاقدرة لي على فتح البيت وإغلاقه وأن قصيا أخذ ذلك منه بزق خمر فقالت العرب أخسر صفقة من أبي غبشان وقيل إن أبا غبشان أعطى ذلك لبنت حليل زوج قصي وأعطاه قصي أثوابا وأبصرة فكان أبو غبشان آخر من ملك أمر مكة والبيت من خزاعة ولا يخالف ذلك ما تقدم من أن حليلا آخر من ولى أمر البيت والحكم بمكة لجواز أن يكون المراد آخر من ولى ذلك واستمر كذلك إلى أن مات قال بعضهم وكان

أبو غبشان خالا لقصي وكان في عقله شيء فخدعه قصي فاشترى منه أمر مكة والبيت بأذواد من الإبل

والجمع بين هذه الروايات من أن قصيا أخذه من أبي غبشان بزق خمر وبين أنه أخذ ذلك بأثواب وأبصرة وبين أنه أخذ ذلك بأذواد من الإبل ممكن لجواز أن يكون جمع بين الخمر والأثواب والإبل فوق الاقتصار على بعضها من بعض الرواة تأمل ثم جمع قصي قريشا بعد تفرقها في البلاد وجعلها اثنتي عشرة قبيلة كما سيأتي ومن ثم قيل له مجمع وفي كلام بعضهم ولذلك سماه النبي صلى الله عليه وسلم مجمعا وإلى ذلك يشير قول الشاعر

* قصي لعمرى كان يدعى مجمعا

* به جمع الله القبائل من فهر

*

وهذا البيت من قصيدة مدح بها عبد المطلب مدحه بها حذافة بن غانم فإن ركبا من جذام فقدوا رجلا منهم غالته بيوت مكة فلقوا حذافة فأخذوه فربطوه ثم انطلقوا به فتلقاهم عبد المطلب مقبلا من الطائف معه ابنه أبو لهب يقوده وقد ذهب بصره فلما نظر إليه حذافة هتف به فقال عبد المطلب لأبي لهب ويلك ما هذا قال هذا حذافة بن غانم مربوطا مع ركب قال ألحقهم وأسألهم ما شأنهم فلحقهم فأخبروه الخبر فرجع إلى عبد المطلب فقال ما معك قال والله ما معي شيء قال ألحقهم لا أم لك وأعطهم ما بيدك وأطلق الرجل فلحقهم أبو لهب فقال قد عرفتم تجارتي ومالي وأنا أحلف لكم لأعطينكم عشرين أوقية ذهبا وعشرا من الإبل وفرسا وهذا ردائي رهنا بذلك فقبلوه منه وأطلقوا حذافة فأقبل به فلما سمع عبد المطلب صوت أبي لهب قال وأبي إنك لعاص أرجع لا أم لك قال يا أبتاه هذا الرجل معي فناداه يا حذافة أسمعني صوتك فقال ها أنا ذا بأبي أنت يا ساقى الحجيج أردفني فاردفه خلفه حتى دخل مكة فقال حذافة هذه القصيدة ومطلعها

* بنو شيبة الحمد الذي كان وجهه

* يضئ ظلام الليل كالقمر البدر

*

هي القصيدة الجيدة

فإن قيل كيف قبل القوم من أبي لهب رهن ردائه على ما ذكره لهم في أن يخلوا عن الرجل مع أن ردائه لا يقع موقعا من ذلك

أجيب بأن سنة العرب وطريقتهم أن الواحد منهم إذا رهن غيره ولو شيئا حقيرا

على أمر جليل لا يغدر بل يحرص على وفاء ما رهن عليه ومن ثم لما أجدبت أرض تميم بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ذهب سيدهم حاجب بن زرارة والد عطارد رضي الله تعالى عنه إلى كسرى ليأخذ منه أمانا لقومه لينزلوا ريف العراق لأجل المرعى فقال له كسرى أنتم قوم غدر وأخاف على الرعايا منكم فقال له حاجب أنا ضامن أن لا تفعل قومي شيئا من ذلك فقال له كسرى ومن لي بوفائك قال هذه قوسي رهينة فحمقه كسرى وجلساؤه وضحكوا منه فقيل له العرب لو رهن أحدهم شيئا لا بد أن يفني به فلما أخصبت أرض تميم بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم لما وفد إليه جماعة منهم وأسلموا ومات حاجب أمر عطارد رضي الله عنه قومه بالذهاب إلى بلادهم وجاء عطارد رضي الله عنه إلى كسرى فطلب قوس أبيه فقال إنك لم تسلم إلى شيئا فقال أيها الملك أنا وارث أبي وقد وفينا بالضمان فإن لم تدفع إلي قوس أبي صار عارا علينا وسبة فدفعها له وكساه حلة فلما وفد عطارد على النبي صلى الله عليه وسلم دفعها للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها وقال إنما يلبس هذه الحلة من لاخلق له فكانت بنو تميم تعد ذلك القوس من مفاخرهم وإلى هذا أشار بعض الشعراء وقد أحسن وأجاد وتلطف بقوله
* تزهو علينا بقوس حاجبها
* تيه تميم بقوس حاجبها
*

وصار قصي رئيسا لقريش على الإطلاق حين أزاح يد خزاعة عن البيت وأجلاهم عن مكة بعد أن لم يسلموا لقصي في ولاية أمر البيت ولم يجيزوا ما فعل حليل وأبو غبشان على ما تقدم وذلك بعد أن اقتتلوا آخر أيام مني بعد أن حذرتهم قريش الظلم والبغي وذكرتهم ما صارت إليه جرهم حين ألدوا في الحرم بالظلم فأبت خزاعة فاقتتلوا قتالا شديدا وكثر القتل والجراح في الفريقين إلا أنه في خزاعة أكثر ثم تداعوا للصلح وإتفقوا على أن يحكموا بينهم رجلا من العرب فحكموا يعمر بن عوف وكان رجلا شريفا فقال لهم موعدكم فناء الكعبة غدا فلما اجتمعوا قام يعمر فقال ألا إني قد شذخت ما كان بينكم من دم تحت قدمي هاتين فلا تباعة لأحد على أحد في دم وقيل قضى بأن كل دم أصابته قريش من خزاعة موضوع وأن ما أصابته خزاعة من قريش فيه الدية وفضى لقصي بأنه أولى بولاية مكة فتولاها قيل وكان يعشر من دخل مكة من غير أهلها أي بتجارة وكانت خزاعة قد أزالته يد جرهم عن ولاية

البيت فإن مضاض بن عمرو الجرهمي الأكبر ولى أمر البيت بعد ثابت بن إسماعيل عليه الصلاة والسلام فإنه كان جدا لثابت وغيره من أولاد إسماعيل لأهمهم واستمرت جرهم ولاة البيت والحكام بمكة لا ينازعهم ولد إسماعيل في ذلك لختولتهم وإعظاما لأن يكون بمكة بغى

ثم إن جرهما بغوا بمكة وظلموا من يدخلها من غير أهلها وأكلوا ما الكعبة الذي يهدى لها حتى إن الرجل منهم كان إذا أراد أن يزني ولم يجد مكانا دخل البيت فزنى فيه فأجمعت أي عزمت خزاعة لحربهم وإخراجهم من مكة ففعلوا ذلك بعد أن سلط الله تعالى على جرهم دواب تشبه النغف بالغين المعجمة والفاء وهو دود يكون في أنوف الإبل والغنم فهلك منهم ثمانون كهلا في ليلة واحدة سوى الشباب وقيل سلط الله عليهم الرعاف فأفنى غالبهم أي وجاز أن يكون ذلك الدم ناشئا عن ذلك الدود فلا مخالفة وذهب من بقي إلى اليمن مع عمرو بن الحرث الجرهمي آخر من ملك أمر مكة من جرهم وحزنت جرهم على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزنا شديدا وقال عمرو أبياتا منها

* كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
* أنيس ولم يسمر بمكة سامر
* وكنا ولاة البيت من بعد نابت
* نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
* بلى نحن كنا أهلها فأبادنا
* صروف الليالي والدهور البواتر
*

ومن غريب الاتفاق ما حكاه بعضهم قال كنت أكتب بين يدي الوزير يحيى بن خالد البرمكي أيام الرشيد فأخذه النوم فنام برهة ثم انتبه مذعورا فقال الأمر كما كان والله ذهب ملكنا وذل عزنا وانقضت أيام دولتنا قلت وما ذاك أصلح الله الوزير قال سمعت منشدا أنشدني كأن لم يكن بين الحجون البيت وأجبتة من غير روية بلى نحن كنا أهلها البيت فلما كان اليوم الثالث وأنا بين يديه على عادتي إذ جاءه إنسان وأكب عليه وأخبره أن الرشيد قتل جعفر الساعية قال أو قد فعل قال نعم فما زاد أن رمى القلم من يده وقال هكذا تقول الساعة بغتة

ومما يؤثر عن يحيى هذا ينبغي للإنسان أن يكتب أحسن ما يسمع ويحفظ أحسن ما يكتب ويحدث بأحسن ما يحفظ وقال من لم يبت على سرور الوعد لم يجد للصنيعة طعاما

وصارت خزاعة بعد جرهم ولاة البيت والحكام بمكة كما تقدم وكان كبير خزاعة عمرو بن لحي وهو ابن بنت عمرو بن الحارث الجرهمي آخر ملوك جرهم المتقدم ذكره وقد بلغ عمرو بن لحي في العرب من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده في الجاهلية وهو أول من أطعم الحج بمكة سدائف الإبل ولحمانها على الثريد والسدائف جمع سديف وهو شحم السنام وذهب شرفه في العرب كل مذهب حتى صار قوله دينا متبعا لا يخالف

وفي كلام بعضهم صار عمرو للعرب ربا لا يتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم في الموسم وربما نحر لهم في الموسم عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة

وهو أول من غير دين إبراهيم أي فقد قال بعضهم تضافرت نصوص العلماء على أن العرب من عهد إبراهيم استمرت على دينه أي من رفض عبادة الأصنام إلى زمن عمرو ابن لحي فهو أول من غير دين إبراهيم وشرع للعرب الضلالات فعبد الأصنام وسيب السائبة وبحر البحيرة

وقيل أول من بحر البحيرة رجل من بني مدلج كانت له ناقتان فجدع أذنيهما وحرم ألبانهما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت في النار يخبطانه بأخفافهما ويعضانه بأفواههما

وعمره أول من وصل الوصيلة وحمى الحامي ونصب الأصنام حول الكعبة وأتى بهبل من أرض الجزيرة ونصبه في بطن الكعبة فكانت العرب تستقسم عنده بالأزلام على ما سيأتي وأول من أدخل الشرك في التلبية فإنه كان يلبي بتلبية إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وهي لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك فعند ذلك تمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه فلما قال عمرو لبيك لا شريك لك قال له ذلك الشيخ إلا شريكا هو لك فأنكر عمرو ذلك فقال له ذلك الشيخ تملكه وما ملك وهذا لا بأس به فقال ذلك عمرو فتبعه العرب على ذلك أي فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده قال تعالى توبيخا لهم وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون وهو أول من أحل أيضا أكل الميتة فإن كل القبائل

من ولد إسماعيل لم تنزل تحريم أكل الميتة حتى جاء عمرو بن لحي فزعم أن الله تعالى لا يرضى تحريم أكل الميتة قال كيف لا تأكلون ما قتل الله وتأكلون ما قتلتم وروى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت جهنم يحطم بعضها بضعا ورأيت عمرا يجر قصبه في النار وفي رواية أمعاءه أي وهي المراد بالقصب بصم القاف وفي رواية رأيت يوذى أهل النار يريح قصبه ويقال للأمعاء الأقتاب واحدا قتب بكسر القاف وسكون المشاة الفوقية آخره ياء موحدة ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار والإندلاق الخروج بسرعة وقال صلى الله عليه وسلم لأكثم بن الجون الخزاعي واسمه عبد العزى وأكثم بالثاء المثناة وهو في اللغة واسع البطن يا أكثم رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار فما رأيت رجلا أشبه من رجل منك به ولا بك منه فقال أكثم فعسى أن يضرنى شبهه يا رسول الله قال لا إنك مؤمن وهو كافر إنه أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان أي ودين إسماعيل هو دين إبراهيم عليهما الصلاة والسلام فإن العرب من عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام استمرت على دينه لم يغيره أحد إلى عهد عمرو المذكور كما تقدم وفي كلام بعضهم أن أكثم هذا هو أبو معبد زوج أم معبد التي مر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الهجرة وأكثم هذا هو الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت الدجال فإذا أشبه الناس به أكثم بن عبد العزى فقام أكثم فقال أضرني شبهي إياه فقال لا أنت مؤمن وهو كافر ورده ابن عبد البر حيث قال الحديث الذي فيه ذكر الدجال لا يصح إنما يصح ما قاله في ذكر عمرو بن لحي وإنما كان عمرو بن لحي أول من نصب الأثان لأنه خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فرأى بأرض البلقاء العماليق ولد عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ورآهم يعبدون الأصنام فقال لهم ما هذه قالوا هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا فقال لهم أفلا تعطوني منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فأعطوه صنما يقال له هبل فقدم به مكة فنصبه في بطن الكعبة على بئرها وأمر الناس بعبادته وتعظيمه فكان الرجل إذا قدم من سفره بدأ به قبل أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده وكان عند هبل سبع قداح قدح فيه مكتوب الغفل إذا اختلفوا فيمن

يحملة منهم ضربوا به فعلى من خرج حملة وقدح مكتوب فيه نعم وقدح مكتوب فيه لا وذلك للأمر الذي يريدونه وقدح فيه منكم وقدح فيه ملصق من غيركم إذا اختلفوا في ولد هل هو منهم أولا وقدح فيه بها وقدح فيه ما بها إذا أرادوا أرضا يحفرونها للماء وكان هبل من العقيق على صورة إنسان وعاش عمرو بن لحي هذا ثلاثمائة سنة وأربعين سنة ورأى من ولده وولد ولده ألف مقاتل أي ومكث هو وولده من بعده في ولاية البيت خمسمائة سنة وكان آخرهم حليل الذي تزوج قصي ابنته كما تقدم

وقيل وكان لعمرو تابع من الجن فقال له اذهب إلى جدة وائت منها بالآلهة التي كانت تعبد في زمن نوح وإدريس عليهما الصلاة والسلام وهي ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر فذهب وأتى بها إلى مكة ودعا إلى عبادتها فانتشرت عبادة الأصنام في العرب فكان ود لكلب وسواع لهمدان وقيل لهذيل ويغوث لمذحج بالذال المعجمة على وزن مسجد أبو قبيلة من اليمن ويعوق لمراد وقيل لهمدان ونسر لحمير أي وكانوا هؤلاء على صور عباد ماتوا فحزن أهل عصرهم عليهم فصور لهم إبليس اللعين أمثالهم من صفر ونحاس ليستأنسوا بهم فجعلوها في مؤخر المسجد فلما هلك أهل ذلك العصر قال اللعين لأولادهم هذه آلهة آبائكم تعبدونها ثم إن الطوفان دفنها في ساحل جدة فأخرجها اللعين

وفي كلام بعضهم أن آدم كان له خمسة أولاد صلحاء وهم ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر فمات ود فحزن الناس عليه حزنا شديدا واجتمعوا حول قبره لا يكادون يفارقونه وذلك بأرض بابل فلما رأى إبليس ذلك من فعلهم جاء إليهم في صورة إنسان وقال لهم هل لكم أن أصور لكم صورته إذا نظرتم إليها ذكرتموه قالوا نعم فصور لهم صورته ثم صار كلما مات واحد منهم صور صورته وسموا تلك الصور بأسمائهم ثم لما تقادم الزمان وماتت الآباء والأبناء وأبناء الأبناء قال لمن حدث بعدهم إن الذين كانوا قبلكم يعبدون هذه الصور فعبدوها فأرسل الله لهم نوحا فنهاهم عن عبادتها فلم يجيبوه لذلك وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فأول ما حدثت عبادة الأصنام في قوم نوح فأرسله الله تعالى إليهم فنهاهم عن ذلك

ويقال إن عمرو بن لحي هو الذي نصب مناة على ساحل البحر مما يلي قديد وكانت الأزد يحجون إليه ويعظمونه وكذلك الأوس والخزرج وغسان وذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني في تفسيره لبعض الآيات القرآنية عند قوله تعالى * (ولله يسجد من في السماوات والأرض) * أن أصل وضع الأصنام إنما هو من قوة التنزيه من العلماء الأقدمين فإنهم نزهوا الله تعالى عن كل شيء وأمروا بذلك عامتهم فلما رأوا أن بعض عامتهم صرح بالتعطيل وضعوا لهم الأصنام وكسوها الديباج والحلى والجواهر وعظموها بالسجود وغيره ليتذكروا بها الحق الذي غاب عن عقولهم وغاب عن أولئك العلماء أن ذلك لا يجوز إلا بإذن من الله تعالى هذا كلامه وكان في زمان جرهم رجل فاجر يقال له إساف فاجر بامرأة يقال لها نائلة في جوف الكعبة أي قبلها فيها كما في تاريخ الأزرقى وقيل زنى بها فمسحها حجرتين فأخرجها منها ونصبا على الصفا والمروة ليكونا عبرة فلما كان زمن عمرو بن لحي أخذهما ونصبهما حول الكعبة أي على زمزم وجعلا في وجهها وصار من يطوف يتمسح بهما يبدأ بإساف ويختم بنائلة وذلك قبل أن يقدم عمرو بهبل وبتلك الأصنام وكانت قريش تذبح ذبائحها عندهما وذكر أنه صلى الله عليه وسلم لما كسر نائلة عند فتح مكة خرجت منها امرأة سوداء شمطاء تخمش وجهها وهي تنادي بالويل والثبور وكان عمرو يخبر قومه بأن الرب يشقى بالطائف عند اللات ويصيف عن العزى فكانوا يعظمونها وكانوا يهدون إلى العزى كما يهدون إلى الكعبة وقصى هو الذي أمر قريشا أن يبنوا بيوتهم داخل الحرم حول البيت وقال لهم إن فعلتم ذلك هابتكم العرب ولم تستحل قتالكم فبنوا حول البيت من جهاته الأربع وجعلوا أبواب بيوتهم جهته لكل بطن منهم باب ينسب الآن إليه كباب بني شيبه وباب بني سهم وباب بني مخزوم وباب بني جمع وتركوا قدر الطواف بالبيت فبنى قصى دار الندوة وهي أول دار بنيت بمكة واستمر الأمر على أنه ليس حول الكعبة إلا قدر المطاف وليس حوله جدار زمنه صلى الله عليه وسلم وزمن ولاية الصديق رضي الله عنه فلما كان زمن ولاية عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه اشترى تلك الدور من أهلها وهدمها وبنى المسجد المحيط بها ثم لما كان زمن ولاية عثمان رضي الله تعالى عنه اشترى دورا آخر

وغالى في ثمنها وهدمها وزاد في سعة المسجد ثم إن ابن الزبير رضي الله عنهما زاد في المسجد زيادة كثيرة ثم إن عبد الملك بن مروان رفع جداره وسقفه بالساج وعمره عمارة حسنة ولم يزد فيه شيئا ثم إن الوليد بن عبد الملك وسع المسجد وحمل إليه أعمدة الرخام ثم زاد فيه المهدي والد الرشيد مرتين واستقر بناؤه على ذلك إلى الآن وكانت قريش قبل ذلك أي قبل بناء منازلهم في الحرم يحترمون الحرم ولا يبيتون فيه ليلا وإذا أراد أحدهم قضاء حاجة الإنسان خرج إلى الحل وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم لما كان بمكة إذا أراد حاجة الإنسان خرج إلى المغمس بكسر الميم أفصح من فتحها وهو على ثلثي فرسخ من مكة وهابت قريش قطع شجر الحرم التي في منازلهم التي بنوها فقد كان بمكة شجر كثير من العضاة والسلم وشكوا ذلك إلى قصي فأمرهم بقطعها فهابوا ذلك فقالوا نكره أن ترى العرب أنا استخفنا بحرمنا فقال قصي إنما تقطعون له منازلكم وما تريدون به فسادا بهلة الله أي لعنته على من أراد فسادا فقطعها قصي بيده وييد أعوانه وفي كلام السهيلي عن الواقدي الأصح أن قريشا حين أرادوا البنيان قالوا لقصي كيف نصنع في شجر الحرم فحذرهم قطعها وخوفهم العقوبة في ذلك فكان أحدهم يحدق بالبنيان حول الشجرة حتى تكون في منزله

قال وأول من ترخص في قطع شجر الحرم للبنيان عبد الله بن الزبير حين ابنتى دورا ببعيقعان لكنه جعل فداء كل شجرة بقرة فليتأمل الجمع وأنزل قصي القبائل من قريش أي فإنه جعلها اثنتي عشرة قبيلة كما تقدم في نواحي مكة بطاحها وظواهرها ومن ثم قيل لمن سكن البطاح قريش البطاح ولمن سكن الظواهر قريش الظواهر والأولى أشرف من الثانية ومن الأولى بنو هاشم وإلى ذلك يشير صاحب الأصل في وصفه صلى الله عليه وسلم بقوله

* من بني هاشم بن عبد مناف
* وبنو هاشم بحار الحياء
* من قريش البطاح من عرف النا
* س لهم فضلهم بغير امتراء

قال بعضهم كان قصي أول رجل من بني كنانة أصاب ملكا ولما حضر الحج قال لقريش قد حضر الحج وقد سمعت العرب بما صنعتنم وهم لكم معظمون ولا أعلم مكرمة عند العرب أعظم من الطعام فليخرج كل إنسان منكم من ماله خرجا ففعلوا فجمع من

ذلك شيئاً كثيراً فلما جاء أوائل الحج نحر على كل طريق من طرق مكة جزورا ونحر بمكة وجعل الثريد واللحم وسقى الماء المحلى بالزبيب وسقى اللبن وهو أول من أوقد النار بمزدلفة ليراها الناس من عرفة ليلة النفر ومما يؤثر عن قصي من أكرم لثيما أشركه في لؤمه ومن استحسن قبيحا نزل إلى قبحه ومن لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان والحسود العدو الخفي

ولما احتضر قال لأولاده اجتنبوا الخمرة فإنها تصلح الأبدان وتفسد الأذهان وحاز قصي شرف مكة كله فكان بيده السقاية والرفادة والحجابه والندوة واللواء والقيادة

وكان عبد الدار أكثر أولاد قصي وعبد مناف أشرفهم أي لأنه شرف في زمان أبيه قصي وذهب شرفه كل مذهب وكان يليه في الشرف أخوه المطلب كان يقال لهما البدران وكانت قريش تسمى عبد مناف الفياض لكثرة جوده فأعطى قصي ولده عبد الدار جميع تلك الوظائف التي هي السقاية والرفادة والحجابه والندوة واللواء والقيادة أي فإنه قال له أما والله يا بني لألحقنك بالقوم يعني أخويه عبد مناف والمطلب وإن كانوا قد شرفوا عليك لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له أي بسبب الحجابه للبيت ولا يعقد لقريش لواء لحربها إلا أنت بيدك أي وهذا هو المراد باللواء ولا يشرب رجل بمكة إلا من سقائتك وهذا هو المراد بالسقاية ولا يأكل أحد من أهل الموسم إلا من طعامك أي وهذا هو المراد بالرفادة ولا تقطع قريش أمرا من أمورها إلا في دارك يعني دار الندوة أي ولا يكون أحد قائد القوم إلا أنت وذلك بسبب القيادة فلما مات عبد الدار وأخوه عبد مناف أراد بنوا عبد مناف وهم هاشم وعبد شمس والمطلب وهؤلاء إخوة لأب وأم أمهم عاتكة بنت مرة ونوفل أخوهم لأبيهم أمه واقدة بنت حرملة أن يأخذوا تلك الوظائف من بني عمهم عبد الدار وأجمعوا على المحاربة أي وأخرج بنوا عبد مناف جفنة مملوءة طيبا فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند باب الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها وتعاقدوا هم وحلفاؤهم ثم مسجوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم فسموا المطيبين أي أخرجتها لهم أم حكيم البيضاء بنت

عبد المطلب عمّة النبي صلى الله عليه وسلم وتوؤمة أبيه ووضعتها في الحجر وقالت من تطيب بهذا فهو منا فتطيب منها مع بني عبد مناف بنو زهرة وبنو أسد بن عبد العزى وبنو تميم بن مرة وبنو الحارث بن فهر فالمطيّبون من قريش خمس قبائل وتعاقد بنو عبد الدار وأحلافهم وهم بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدي بن كعب على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا فسموا الأحلاف لتحالفهم بعد أن أخرجوا جفنة مملوءة دما من دم جزور نحروها ثم قالوا من أدخل يده في دمها فلحق منه فهو منا وصاروا يضعون أيديهم فيها ويلعقونها فسموا لعقة الدم وقيل الذين لعقوا الدم فسموا لعقة الدم بنوا عدي خاصة ثم اصطلحوا على أن تكون السقاية والرفادة والقيادة لبني عبد مناف والحجابه واللواء لبني الدار ودار الندوة بينهم بالاشتراك وتخالفوا على ذلك هذا

والذي رأيتهم في المشرق فيم يحاضر به من آداب المشرق ولما شرف عبد مناف ابن قصي في حياة أبيه وذهب شرفه كل مذهب وكان قصي يحب ابنه عبد الدار أراد أن يبقى له ذكرا فأعطاه الحجابه ودار الندوة واللواء وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة وجعل عبد الدار الحجابه لولده عثمان وجعل دار الندوة لولده عبد مناف ابن عبد الدار ثم وليها عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار ثم وليها ولده من بعده والسقاية كانت حياضا من آدم توضع بفناء الكعبة وينقل إليها الماء العذب من الآبار على الإبل في المزاد والقرب قبل حفر زمزم وربما قذف فيها التمر والزبيب في غالب الأحوال لسقى الحاج أيام الموسم حتى يتفرقوا وهذا السقاية قام بها وبالرفادة بعد عبد مناف ولده هاشم وبعده ولده عبد المطلب وكان شريفا مطاعا جوادا وكانت قريش تسميه الفياض لكثرة جوده فلما كبر عبد المطلب فوض إليه أمر السقاية والرفادة فلما مات المطلب وثب عليه عمه نوفل بن عبد مناف وغصبه أركاحا أي أفنية ودورا فسأل عبد المطلب رجالا من قومه النصره على عمه نوفل فأبوا وقالوا لا ندخل بينك وبين عمك فكتب إلى أخواله بني النجار بالمدينة بما فعله معه عمه نوفل فلما وقف خاله أبو سعد ابن عدي بن النجار على كتابه بكى وسار من المدينة في ثمانين راكبا حتى قدم مكة فنزل الأبطح فتلقاه عبد المطلب وقال له المنزل يا خال فقال لا والله حتى ألقى نوفلا فقال تركته في الحجر جالسا في مشايخ قريش فأقبل أبو سعد حتى وقف

عليه فقام نوفل قائما وقال يا أبا سعد أنعم صباحا فقال له أبو سعد لا أنعم الله لك صباحا وسل سيفه وقال ورب هذه البنية لئن لم ترد على ابن أختي أركاحه لأملأن منك هذا السيف فقال قد رددتها عليه فأشهد عليه مشايخ قريش ثم نزل على عبد المطلب فأقام عنده ثلاثا ثم اعتمر ورجع إلى المدينة

ولما جرى ذلك حالف نوفل وبنوه بني أخيه عبد شمس على بني هاشم وحالفت بنو هاشم خزاعة على بني نوفل وبني عبد شمس أي فإن خزاعة قالت نحن أولى بنصرة عبد المطلب لأن عبد مناف جد عبد المطلب أمه حبي بنت حليل سيد خزاعة كما تقدم فقالوا لعبد المطلب هلم فلنحالفك فدخلوا دار الندوة وتحالفوا وتعاهدوا وكتبوا بينهم كتابا باسمك اللهم هذا ما تحالف عليه بنو هاشم ورجالات عمرو بن ربيعة من خزاعة على النصرة والمواساة ما بل بحر صوفة وما أشرقت الشمس على ثبير وهب بفلاة بغير وما أقام الأخشيان واعتمر بمكة إنسان والمراد من ذلك الأبد وعبد المطلب لما حفر زمزم صار ينقل الماء منها لتلك الأحواض ويقذف فيها التمر والزبيب ثم بعده قام بها ولده أبو طالب ثم اتفق أن أبا طالب أملق أي افتقر في بعض السنين فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف درهم إلى الموسم الآخر فصرفها أبو طالب في الحجيج عامه ذلك فيما يتعلق بالسقاية فلما كان العام المقبل لم يكن مع أبي طالب شيء فقال لأخيه العباس أسلفني أربعة عشر ألفا أيضا إلى العام المقبل لأعطيك جميع مالك فقال له العباس بشرط إن لم تعطني تترك السقاية لأكفلها فقال نعم فلما جاء العام الآخر لم يكن مع أبي طالب ما يعطيه لأخيه العباس فترك له السقاية فصارت للعباس ثم لولده عبد الله بن عباس واستمر ذلك في بني العباس إلى زمن السفاح ثم ترك بنو العباس ذلك

والرفادة إطعام الحاج أيام الموسم حتى يتفرقوا فإن قريشا كانت على زمن قصي تخرجه من أموالها في كل موسم فتدفعه إلى قصي فيصنع به طعاما للحاج يأكل منه من لم يكن معه سعة ولا زاد كما تقدم حتى قام بها بعده ولده عبد مناف ثم بعد عبد مناف ولده هاشم ثم بعد هاشم لولده عبد المطلب ثم ولده أبو طالب وقيل ولده العباس ثم استمر ذلك إلى زمنه صلى الله عليه وسلم وزمن الخلفاء بعده ثم استمر ذلك في الخلفاء إلى أن انقرضت الخلافة من بغداد ثم من مصر

وأما القيادة وهي إمارة الركب فقام بها بعد عبد مناف ولده عبد شمس ثم كانت بعد عبد شمس لابنه أمية ثم لابنه حرب ثم لابنه أبي سفيان فكان يقود الناس في غزواتهم قاد الناس يوم أحد ويوم الأحزاب ومن ثم لما قال الوليد بن عبد الملك لخالد بن يزيد بن معاوية لست في العير ولا في النفير قال له ويحك العير والنفير عييتي أي وعائي لأن العيبة ما يجعل فيه الثياب جدى أبو سفيان صاحب العير وجدى عتبة بن ربيعة صاحب النفير

و دار الندوة كانت قريش تجتمع فيها للمشاورة في أمورها ولا يدخلها إلا من بلغ الأربعين وكانت الجارية إذا حاضت تدخل دار الندوة ثم يشق عليها بعض ولد عبد الدار درعها ثم يدرعها إياه وانقلب بها فتحجب وهذه كانت سنة قصي فكان لا ينكح رجل امرأة من قريش إلا في دار قصي التي هي دار الندوة ولا يعقد لواء حرب إلا فيها ولا تدرع جارية من قريش إلا في تلك الدار فيشوق عنها درعها ويدرعها بيده فكانت قريش بعد موت قصي يتبعون ما كان عليه في حياته كالدين المتبع ولا زالت هذه الدار في يد بني عبد الدار إلى أن صارت إلى حكيم بن حزام فباعها في الإسلام بمائة ألف درهم فلامه عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وقال أتبيع مكرمة آبائك وشرفهم فقال حكيم رضي الله عنه ذهبت المكارم إلا التقوى والله لقد اشتريتها في الجاهلية بزق خمر وقد بعته بمائة ألف وأشهدكم أن ثمنها في سبيل الله تعالى فأينا المغبون قيل وقصي هو جماع قريش فلا يقال لأحد من أولاد من فوقه قرشي ونسب هذا القول لبعض الرافضة وهو قول باطل لأنه توصل به إلى أن لا يكون سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر رضي الله تعالى عنهما من قريش فلا حق لهما في الإمامة العظمى التي هي الخلافة لقوله صلى الله عليه وسلم الأئمة من قريش ولقوله صلى الله عليه وسلم لقريش أنتم أولى الناس بهذا الأمر ما كنتم على الحق إلا أن تعدلوا عنه لأنهما لم يلتقيا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا فيما بعد قصي لأن أبا بكر رضي الله تعالى عنه يجتمع معه في مرة كما سيأتي لأن تيم بن مرة بينه وبين أبي بكر رضي الله عنه خمسة آباء وعمر رضي الله عنه يجتمع معه في كعب كما سيأتي وبين عمر رضي الله عنه وكعب سبعة آباء وقصي بن كلاب أي واسمه حكيم وقيل عروة ولقب بكلاب لأنه كان يحب

الصيد وأكثر صيده كان بالكلاب وهو الجد الثالث لآمنة أمه صلى الله عليه وسلم ففي كلاب يجتمع نسب أبيه وأمه ابن مرة وهو الجد السادس لأبي بكر رضي الله تعالى عنه والإمام مالك رضي الله تعالى عنه يجتمع معه صلى الله عليه وسلم في هذا الجد الذي هو مرة أيضا ابن كعب أي وهو الجد الثامن لعمر رضي الله تعالى عنه وكان كعب يجمع قومه يوم العروبة أي يوم الرحمة الذي هو يوم الجمعة ويقال إنه أول من سماه يوم الجمعة لاجتماع قريش فيه إليه لكن في الحديث كان أهل الجاهلية يسمون يوم الجمعة يوم العروبة واسمه عند الله تعالى يوم الجمعة قال ابن دحية ولم تسم العروبة الجمعة إلا منذ جاء الإسلام وسيأتي في ذلك كلام فكانت قريش تجتمع إلى كعب ثم يعظهم ويذكرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ويعلمهم بأنه من ولده ويأمرهم باتباعه ويقول سيأتي لحرمتكم نبأ عظيم وسيخرج منه نبي كريم وينشد أبياتا آخرها

* على غفلة يأتي النبي محمد
* فيخبر أخبارا صدوق خبيرها
*

وينشد أيضا

* يا ليتني شاهد فحواء دعوته
* حين العشيبة تبغي الحق خذلانا
*

د

وكان بينه وبين مبعثه صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة وستون سنة وفي الإمتاع وعشرون سنة لأن الحق أن الخمسمائة والستين إنما هي بين موت كعب والفيل الذي هو مولده صلى الله عليه وسلم كما ذكره أبو نعيم في الدلائل النبوية وقيل إن كعبا أول من قال أما بعد فكان يقول أما بعد فاسمعوا وافهموا وتعلموا واعلموا ليل داج وفي رواية ليل ساج ونهار صاح والأرض مهاد والسماء بناء والجبال أوتاد والنجوم أعلام والأولون كالأخرين فصلوا أرحامكم واحفظوا أصهاركم وثمروا أموالكم الدار أمامكم والظن غير ما تقولون أي وقيل له كعب لعلوه وارتفاعه لأن كل شيء علا وارتفع فهو كعب ومن ثم قيل للكعبة كعبة ولعلوه وارتفاع شأنه أرخوا بموته حتى كان عام الفيل أرخوا به ثم أرخوا بعد عام الفيل بموت عبد المطلب وكعب بن لؤي أي بالهمزة أكثر من عدمها أي وفي سبب تصغيره خلاف ابن غالب به فهر سماه أبوه فهرا وقيل هو لقب واسمه قريش والمناسب أن يكون لقباً لقولهم إنما سمى قريشا لأنه كان يقرش أي يفتش على خلة حاجة المحتاج

فيسدها بماله وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن حوائجهم فيرفدونهم فسموا بذلك قريشا قال بعضهم وهو جماع قريش عند الأكثر قال الزبير بن بكار أجمع النسابون من قريش وغيرهم على أن قريشا إنما تفرقت عن فهر وفهر هذا هو الجد السادس لأبي عبيدة بن الجراح ولما جاء حسان بن عبد كلال من اليمن في حمير وغيرهم لأخذ أحجار الكعبة إلى اليمن ليبنى بها بيتا ويجعل حج الناس إليه ونزل بنخلة خرج فهر إلى مقاتلته بعد أن جمع قبائل العرب فقاتله وأسره وأنهزمت حمير ومن انضم إليهم واستمر حسان في الأسر ثلاث سنين ثم افتدى نفسه بمال كثير وخرج فمات بين مكة واليمن فهابت العرب فهرا وعظموه وعلا أمره

ومما يؤثر عن فهر قوله لولده غالب قليل ما في يديك أغنى لك من كثير ما أخلق وجهك وإن صار إليك وفهر هو ابن مالك قيل له ذلك لأنه ملك العرب ابن النضر أي ولقب به لنضارته وحسنه وجماله واسمه قيس وهو جماعة قريش عند الفقهاء فلا يقال لأحد من أولاد من فوقه قرشي ويقال لكل من أولاده الذين منهم مالك وأولاده قرشي فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش فقال من ولد النضر أي وعلى أن جماع قريش فهر كما تقدم فمالك وأولاده والنضر جده وأولاده ليسوا من قريش والنضر بن كنانة قيل له كنانة لأنه لم يزل في كن من قومه وقيل لستره على قومه وحفظه لأسرارهم وكان شيخا حسنا عظيم القدر تحج إليه العرب لعلمه وفضله وكان يقول قد آن خروج نبي من مكة يدعى أحمد يدعو إلى الله وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق فاتبعوه تزدادوا شرفا وعزا إلى عزكم ولا تعتدوا أي تكذبوا ما جاء به فهو الحق

قال ابن دحية رحمه الله كان كنانة يأنف أن يأكل وحده فإذا لم يجد أحدا أكل لقمة ورمى لقمة إلى صحرة ينصبها بين يديه أنفة من أن يأكل وحده ومما يؤثر عنه رب صورة تخالف المخبرة قد غرت بجمالها واختبر قبح فعالها فاحذر الصور واطلب الخبر وكنانة بن خزيمة بن مدركة ومدركة اسمه عمرو وقيل له مدركة لأنه أدرك كل عز وفخر كان في آباءه وكان فيه نور رسول الله صلى الله عليه وسلم أي ولعل المراد ظهوره فيه ومدركة بن إلياس بهمزة قطع مكسورة وقيل مفتوحة أيضا وقيل همزة وصل ونسب للجمهور قيل سمى بذلك لأن أباه مضر

كان قد كبر سنه ولم يولد له ولد فولد له هذا الولد فسماه إلياس وعظم أمره عند العرب حتى كانت تدعوه بكبير قومه وسيد عشيرته وكانت لا تقضى أمرا دونه وهو أول من أهدى البدن إلى البيت وأول من ظفر بمقام إبراهيم لما غرق البيت في زمن نوح عليه السلام فوضعه في زاوية البيت كذا في حياة الحيوان فليتأمل وجاء في حديث لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمنا وقيل إنه جماع قريش أي فلا يقال لأولاد من فوقه قرشي وكان إلياس يسمع من صلبه تلبية النبي صلى الله عليه وسلم المعروفة في الحج قيل وكان في العرب مثل لقمان الحكيم في قومه وهو أول من مات بعلة السل ولما مات حزنت عليه زوجته خندف حزنا شديدا لم يظلمها سقف بعد موته حتى ماتت ومن ثم قيل أحزن من خندف وإلياس بن مضر قيل هو جماع قريش فلا يقل لأولاد من فوق مضر قرشي ففي جماع قريش خمسة أقوال قيل قصي وقيل فهر وقيل النضر وقيل إلياس وقيل مضر ويقال له مضر الحمراء قيل لأنه لما اقتسم هو وأخوه ربيعة مال والدهما أعنى نزارا أخذ مضر الذهب الحمراء وأخذ ربيعة الخيل ومن ثم قيل له ربيعة الفرس وجاء في حديث لا تسبوا ربيعة ولا مضر فإنهما كانا مؤمنين أي وفي رواية لا تسبوا مضر فإنه كان على ملة إبراهيم وفي حديث غريب لا تسبوا مضر فإنه كان على دين إسماعيل وما حفظ عنه من يزرع شرا يحصد ندامة أقول سيأتي في بنيان قريش الكعبة أنهم وجدوا فيها كتبا بالسريانية من جملتها كتاب فيه من يزرع خيرا يحصد غبطة ومن يزرع شرا يحصد ندامة إلى آخر ما يأتي وعن أبي عبيدة البكري أن قبر مضر بالروحاء يزار والروحاء على ليلتين من المدينة والله أعلم وكان مضر من أحسن الناس صوتا وهو أول من حدا للإبل فإنه وقع فانكسرت يده فصار يقول يا يداه يا يداه فجاءت إليه الإبل من المرعى فلما صح وركب حدا وقيل أول من سن الحداء للإبل عبد له ضرب مضر يده ضربا وجيعا فصار يقول يا يداه يا يداه فجاءت إليه الإبل من مرعاها أي لأن الحداء مما ينشط الإبل لا سيما إن كان بصوت حسن فإنها عند سماعه تمد أعناقها وتصغى إلى الحادي وتسرع في سيرها وتستخف الأحمال الثقيلة فربما قطعت المسافة البعيدة في زمن قصير

وربما أخذت ثلاثة أيام من يوم واحد وفي ذلك حكاية مشهورة ولأجل ما ذكر ذكر أئمتنا أنه مستحب

وفي الأذكار للإمام النووي رضي الله تعالى عنه باب استحباب الحداء للسرعة في السير وتنشيط النفوس وترويحها وتسهيل السير عليها فيه أحاديث كثيرة مشهورة ومضرب بن نزار بكسر النون كان يرى نور النبي صلى الله عليه وسلم بين عينيه وهو أول من كتب الكتاب العربي على الصحيح والإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه يجتمع معه صلى الله عليه وسلم في هذا الجد الذي هو نزار بن معد بن عدنان هذا هو النسب المجمع عليه في نسبه صلى الله عليه وسلم عند العلماء بالأنساب ومن ثم لما قال فقهاؤنا شرط الإمام الأعظم أن يكون قرشياً فإن لم يوجد قرشي جامعاً للشروط التي ذكروها فكناني قال بعضهم وقياس ذلك أن يقال فإن لم يوجد كناني فخزيمي فإن لم يوجد خزيمي فمدركي فإن لم يوجد مدركي فالياسي فإن لم يوجد إياسي فمضري فإن لم يوجد مضري فنزاري فإن لم يوجد نزاري فمعدني فإن لم يوجد معدني فعدناني فإن لم يوجد عدناني فمن ولد إسماعيل لأن من فوق عدنان لا يصح فيه شيء ولا يمكن حفظ النسب فيه منه إلى إسماعيل

وقيل له معد لأنه كان صاحب حروب وغارات على بني إسرائيل ولم يحارب أحداً إلا رجع بالنصر والظفر قال بعضهم ولا يخرج عربي في الأنساب عن عدنان وقحطان وقيل وولد عدنان يقال لهم قيس وولد قحطان يقال لهم يمن ولما سلط الله بختنصر على العرب أمر الله تعالى أرمياء أن يحمل معه معد بن عدنان على البراق كيلاً تصيبه النعمة وقال فإني سأخرج من صلبه نبياً كريماً أختتم به الرسل ففعل أرمياء ذلك واحتمله معه إلى أرض الشام فنشأ مع بني إسرائيل ثم عاد بعد أن هدأت الفتن أي بموت بختنصر وكان عدنان في زمن عيسى عليه السلام وقيل في زمن موسى عليه السلام قال الحافظ ابن حجر وهو أولى أي ومما يضعف الأول ما في الطبراني عن أبي أمامة الباهلي رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لما بلغ ولد معد بن عدنان أربعين رجلاً وقعوا في عسكر موسى عليه الصلاة والسلام فانتهبوه فدعا عليه موسى عليه الصلاة والسلام فأوحى الله تعالى إليه لا تدع عليهم فإن منهم النبي الأمي البشير النذير الحديث إذ يبعد بقاء معد إلى زمن عيسى

عليه الصلاة والسلام ومعلوم أنه لا خلاف في أن عدنان من ولد إسماعيل نبي الله تعالى أي أرسله الله تعالى إلى جرهم وإلى العماليق وإلى قبائل اليمن في زمن أبيه إبراهيم وكذا بعث أخوه إسحق إلى أهل الشام وبعث ولده يعقوب إلى الكنعانيين في حياة إبراهيم فكانوا أنبياء على عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام وذكر بعضهم أن من العماليق فرعون موسى عليه الصلاة والسلام ومنهم الريان بن الوليد فرعون يوسف عليه الصلاة والسلام

وكان إسماعيل بكر أبيه جاء له وقد بلغ أبوه من العمر سبعين سنة وقيل ستا وثمانين سنة ولد بين الرملة وإيليا وكان بين عدنان وإسماعيل أربعون أبا وقيل سبعة وثلاثون وفي النهر لأبي حيان رحمه الله أن إبراهيم هو الجد الحادي والثلاثون لنبينا صلى الله عليه وسلم هذا كلامه

ولا يخفى أن إسماعيل أول من تسمى بهذا الاسم من بني آدم ومعناه بالعبرانية مطيع الله وأول من تكلم بالعربية أي البيئة الفصيحة وإلا فقد تعلم أصل العربية من جرهم ثم ألهمه الله العربية الفصيحة البيئة فنطق بها وفي الحديث أول من فتق لسانه بالعربية البيئة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة

وفي كلام بعضهم لما خرج إبراهيم بهاجر وولدها إسماعيل إلى مكة على البراق واحتمل معه قربة ماء ومزودا فيه تمر فلما أنزلهما بها وولى راجعا تبعته هاجر وهي تقول آله أمرك أن تدعني وهذا الصبي في هذا المحل الموحش الذي ليس به أنيس قال نعم فقالت إذن لا يضيعنا ولا زالت تأكل من التمر وتشرب من الماء إلى أن نفذ الماء الحديث وكان إنزاله لهما بموضع الحجر وذلك لمضى مائة سنة من عمر إبراهيم وكون إسماعيل أول من تكلم بالعربية البيئة لا ينافي ما قيل أول من تكلم بالعربية يعرب بن قحطان وقحطان أول من قيل له أبيت اللعن وأول من قيل له أنعم صباحا ويعرب هذا قيل له أيمن لأن هودا نبي الله عليه الصلاة والسلام قال له أنت أيمن ولدى وسمى اليمن يمنا بنزوله فيه وهو أول من قال القريض والرجز وقيل سمي اليمن يمنا لأنه على يمين الكعبة وقيل إن أول من كتب الكتاب العربي إسماعيل والصحيح أن أول من كتب ذلك نزار بن معد كما تقدم وكذا كون إسماعيل أول من تكلم

بالعربية البينة لا ينافي ما قيل أول من تكلم بالعربية آدم في الجنة فلما أهبط إلى الأرض تكلم بالسريانية قيل وسميت سريانية لأن الله تعالى علمها آدم سرا من الملائكة وأنطقه بها

وقيل إن أول من كتب الكتاب العربي والفارسي والسرياني والبربري وغيرها من بقية الإثني عشر كتابا وهي الحميري واليوناني والرومي والقبطي والبربري والأندلسي والهندي والصيني آدم عليه الصلاة والسلام كتبها في طين وطبخه فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم كتابا فكتبوه فأصاب إسماعيل الكتاب العربي أي وأما ما جاء أول من خط بالقلم إدريس فالمراد به خط الرمل وفي كلام بعضهم أول من تكلم بالعربية المحضة وهي عربية قريش التي نزل بها القرآن إسماعيل وأما عربية قحطان وحمير فكانت قبل إسماعيل ويقال لمن يتكلم بلغة هؤلاء العرب العاربة ويقال لمن يتكلم بلغة إسماعيل العرب المستعربة وهي لغة الحجاز وما والاها

وجاء من أحسن أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم بالفارسية فإنه يورث النفاق وقد ذكر بعضهم أن أهل الكهف كلهم أعجم ولا يتكلمون إلا بالعربية وأنهم يكونون وزراء المهدي واشتهر على السنة الناس أنه صلى الله عليه وسلم قال أنا أفصح من نطق بالضاد قال جمع لا أصل له ومعناه صحيح لأن المعنى أنا أفصح العرب لكونهم هم الذين ينطقون بالضاد ولا توجد في غير لغتهم

وإسماعيل عليه الصلاة والسلام أول من ركب الخيل وكانت وحوشا أي ومن ثم قيل لها العراب أو لما سيأتي وقد قال صلى الله عليه وسلم أركبوا الخيل فإنها ميراث أبيكم إسماعيل عليه الصلاة والسلام

وفي رواية أوحى الله تعالى إلى إسماعيل أن أخرج إلى أجياد الموضع المعروف سمي بذلك لأنه قتل فيه مائة رجل من العمالقة من جياد الرجال فادع يأتك الكنز فخرج إلى أجياد فألهمه الله تعالى دعاء فدعا به فلم يبق على وجه الأرض فرس بأرض العرب إلا جاءته وأمكنته من نواصيها وذلها الله تعالى له فاركبوها واعلفوها فإنها ميامين وهي ميراث أبيكم إسماعيل

وذكر الحافظ السيوطي رحمه الله أن له كتابا في الخيل سماه جر الذيل في علم الخيل وفي العرائس أن الله تعالى لما أراد أن يخلق الخيل قال لريح الجنوب إني خالق منك

خلقا فأجعله عزا لأوليائي ومذلة على أعدائي وجمالا لأهل طاعتي فقالت افعل ما تشاء
فقبض قبضة فخلق فرسا فقال لها خلقتك عربيا وجعلت الخير معقودا بناصيتك والغنائم
مجموعة على ظهرك وعطفت عليك صاحبك وجعلتك تطيري بلا جناح فأنت للطلب
وأنت للهرب

وعن وهب أنه قيل لسليمان صلوات الله وسلامه عليه إن خيلا بلقا لها أجنحة تطير بها
وترد ماء كذا فقال للشياطين على بها فصبوا في العين التي تردها خمرا فشربت
فسكرت فربطوها وساسوها حتى تأنست

قيل ويجوز أن يكون المراد من تلك الخيل الفرس الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم
أتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق جاءني به جبريل عليه الصلاة والسلام
وجاء إن الله تعالى لما عرض على آدم عليه الصلاة والسلام كل شيء مما خلق قال له
اختر من خلقي ما شئت فاختر الفرس فقبل له اخترت عرك وعز ولدك خالدا ما خلدوا
وباقيا ما بقوا أبد الأبدين ودهر الدهرين وهذا صريح في أن الخيل خلقت قبل آدم
وقد سئل الإمام السبكي هل خلقت الخيل قبل آدم أو بعده وهل خلقت الذكور قبل
الإناث أو الإناث قبل الذكور فأجاب بأنا نختار أن خلق الخيل قبل آدم عليه الصلاة
والسلام لأن الدواب خلقت يوم الخميس وآدم خلق يوم الجمعة بعد العصر وأن الذكور
خلقت قبل الإناث لأمرين أحدهما أن الذكر أشرف من الأنثى والثاني حرارة الذكر
أقوى من الأنثى ولذلك كان خلق آدم قبل خلق حواء فليتأمل
وقد ذكر الإمام السهيلي أن في الفرس عشرين عضوا كل عضو منها يسمى باسم طائر
ذكرها وبينها الأصمعي فمنها النسر والنعامة والقطاة والذباب والعصفور والغراب
والصرد والصقر قالوا وفي الحيوان أعضاء باردة يابسة كالعظام نظير السوداء وأعضاء
باردة رطبة كالدماغ نظير البلغم وأعضاء حارة يابسة كالقلب نظير الصفراء وأعضاء
حارة رطبة كالكبدة نظير الدم

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن شيء أحب إليه بعد
النساء من الخيل وجاء ما من ليلة إلا والفرس يدعو فيها ويقول رب إنك سخرتني لابن
آدم وجعلت رزقي في يده اللهم فاجعلني أحب إليه من أهله وولده وقيل لبعض

الحكماء أي المال أشرف قال فرس يتبعها فرس وفي بطنها فرس ومن ثم قيل ظهر الخيل حرز وبطنها كنز وفي الحديث لما أراد ذو القرنين أن يسلك في الظلمة إلى عين الحياة سأل أي الدواب في الليل أبصر فقالوا الخيل فقال أي الخيل أبصر فقالوا الإناث قال فأبي الإناث أبصر قالوا البكارة فجمع من عسكره ستة آلاف فرس كذلك وأعطى الله إسماعيل القوس العربية وكان لا يرمى شيئا إلا أصابه وفي الحديث ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا أي قال ذلك لجماعة مر عليه وهم ينتضلون فقال حسن هذا اللهو مرتين أو ثلاثا زاد في بعض الروايات ارموا وأنا مع بني فلان فأمسك الفريق الآخر فقال لهم ما بالكم لا ترمون فقالوا يا رسول الله كيف نرمى وأنت معهم إذن ينزلونا قال ارموا وأنا معكم كلكم أخرجه البخاري في صحيحه زاد البيهقي في دلائل النبوة فرموا عامة يومهم ذلك ثم تفرقوا على السواء ما نضل بعضهم بعضا وقد جاء أحب اللهو إلي إجراء الخيل ارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا وقد جاء أحب اللهو إلى الله تعالى إجراء الخيل والرمي وجاء كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رمى الرجل بقوسه أو تأديبه فرسه أو ملاعبته امرأته فإنهم من الحق وجاء علموا أولادكم السباحة والرمي وفي رواية الرماية وفي رواية علموا بنيكم الرمي فإنه نكايه العدو وقد جاء تعلموا الرمي فإن ما بين الهدفين روضة من رياض الجنة وروى مرفوعا حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي وجاء من تعلم الرمي ثم نسيه فليس منا وفي رواية فهو نعمة جحدها قال الحافظ السيوطي رضي الله عنه والأحاديث المتعلقة بالرمي كثيرة قال وقد ألفت كتابا في الرمي سميته غرس الأنشاب في الرمي النشاب وفي العرائس كان إسماعيل مولعا بالصيد مخصوصا بالقنص والفروسية والرمي والصراع والرمي سنة إذا نوى به التأهب للجهاد لقوله تعالى * (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) * وقوله صلى الله عليه وسلم القوة الرمي على حد قوله الحج عرفة وإلا فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية * (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) * قال الرمي والسيوف والسلاح وسئل الحافظ السيوطي رضي الله عنه هل ما ذكره الطبري والمسعودي في تاريخهما أن أول من

رمى بالقوس العربية آدم عليه الصلاة والسلام وذلك لما أمره الله تعالى بالزراعة حين أهبط من الجنة وزرع أرسل الله تعالى له طائرين يخرجان ما بذره ويأكلانه فشكا إلى الله تعالى ذلك فهبط عليه جبريل وبيده قوس ووتر وسهمان فقال آدم ما هذا يا جبريل فأعطاه القوس وقال هذه قوة الله تعالى وأعطاه الوتر وقال هذه شدة الله تعالى وأعطاه السهمين وقال هذه نكاية الله تعالى وعلمه الرمي بهما فرمى الطائرين فقتلهما وجعلهما يعني السهمين عدة في غربته وأنسا عند وحشته ثم صار القوس العربية إلى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ثم إلى ولده إسماعيل وهو يدل على أن قوس إبراهيم هي القوس التي هبطت على آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة وأنه ادخرها لإبراهيم وهو خلاف قول بعضهم إنها غيرها أهبطت إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام من الجنة فأجاب الحافظ السيوطي رضي الله عنه بقوله راجعت تاريخ الطبري في تاريخ آدم وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام فلم أجده فيه ولا تبعد صحته فإن الله تعالى علم آدم علم كل شيء

وذكر أن ابن أبي الدنيا ذكر في كتاب الرمي من طريق الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال أول من عمل القسي إبراهيم عمل لإسماعيل وإسحاق قوسين فكانا يرميان بهما وتقدم أن إسحاق جاء لإبراهيم بعد إسماعيل بثلاث عشرة وقيل بأربع عشرة سنة أي حملت به أمه سارة في الليلة التي خسف الله تعالى بقوم لوط فيها ولها من العمر تسعون سنة

وفي جامع ابن شداد يرفعه كان اللواط في قوم لوط في النساء قبل الرجال بأربعين سنة ثم استغنى النساء بالنساء والرجال بالرجال فخسف الله تعالى بهم قيل ولا يعمل عمل قوم لوط من الحيوان إلا الحمار والخنزير وكان أول من اتخذ القسي الفارسية نمرود فليتأمل الجمع

وقد يقال لا منافاة لجواز أن يكون إبراهيم عليه الصلاة والسلام أول من عمل القسي بعد ذهاب تلك القوس فالأولية إضافية ومعلوم أن إسماعيل بن إبراهيم خليل الله تعالى عليهما الصلاة والسلام أي ولم يبعث بشريعة مستقلة من العرب بعد إسماعيل إلا محمد صلى الله عليه وسلم وأما خالد بن سنان وإن كان من ولد إسماعيل على ما قيل فقال بعضهم لم يكن في بني إسماعيل نبي غيره قبل محمد صلى الله عليه وسلم إلا أنه لم يبعث

بشريعة مستقلة بل بتقرير شريعة عيسى عليه الصلاة والسلام أي وكان بينه وبين عيسى ثلاثمائة سنة وخالد هذا هو الذي أطفأ النار التي خرجت بالبادية بين مكة والمدينة كادت العرب أن تعبدها كالمجوس كان يرى ضوءها من مسافة ثمان ليال وربما كان يخرج منها العنق فيذهب في الأرض فلا يجد شيئاً إلا أكله فأمر الله تعالى خالد بن سنان بإطفائها وكانت تخرج من بئر ثم تنتشر فلما خرجت وانتشرت أخذ خالد بن سنان يضربها ويقول بدا بدا كل هدى وهي تتأخر حتى نزلت إلى البئر فنزل إلى البئر خلفها فوجد كلاباً تحتها فضربها وضرب النار حتى أطفأها ويذكر أنه كان هو السبب في خروجها فإنه لما دعا قومه وكذبوه وقالوا له إنما تخوفنا بالنار فإن تسل علينا هذه الحرة نارا اتبعناك فتوضأ ثم قال اللهم إن قومي كذبوني ولم يؤمنوا بي إلا أن تسيل عليهم هذه الحرة نارا فأسلها عليهم نارا فخرجت فقالوا يا خالد ارددها فإننا مؤمنون بك فردها

قيل وكان خالد بن سنان إذا استسقى يدخل رأسه في جيبه فيجىء المطر ولا يقلع إلا إن رفع رأسه قيل وقدمت ابنته وهي عجوز على النبي صلى الله عليه وسلم فتلقاها بخير وأكرمها وبسط لها رداءه وقال لها مرحبا بابنة أخي مرحبا بابنة نبي صيغة قومه فأسلمت وهذا الحديث مرسل رجاله ثقات وفي البخاري أنا أولى الناس بابن مريم في الدنيا والآخرة وليس بيني وبينه نبي قال بعضهم وبه يرد على من قال كان بينهما خالد بن سنان وقد يقال مراده صلى الله عليه وسلم بالنبي الرسول الذي يأتي بشريعة مستقلة وحينئذ لا يشكل هذا لما علمت أنه لم يأت بشريعة مستقلة ولا ما جاء في رواية أخرى ليس بيني وبينه نبي ولا رسول ولا ما في كلام البيضاوي تبعا للكشاف من أن بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم أربعة أنبياء ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب وهو خالد بن سنان وبعده حنظلة بن صفوان عليهما الصلاة والسلام أرسله الله تعالى لأصحاب الرس بعد خالد بمائة سنة لأنه يجوز أن يكون كل من هؤلاء الثلاثة لم يبعث بشريعة مستقلة بل كان مقررًا لشريعة عيسى عليه الصلاة والسلام أيضا كخالد بن سنان والرس البئر الغير المطوية أي الغير المبنية كذا في الكشاف والذي في القاموس كالصحاح المطوية بإسقاط غير فإنهم قتلوا حنظلة ودموه فيها أي وحين

دسوه فيها غار ماؤها وعطشوا بعد ريهم وييست أشجارهم وانقطعت ثمارهم بعد أن كان ماؤها يرويههم ويكفي أرضهم جميعا وتبدلوا بعد الأنس الوحشة وبعد الاجتماع الفرقة لأنهم كانوا ممن يعبد الأصنام أي وكان ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم ذي عنق طويل كان فيه من كل لون فكان ينقض على صبيانهم يخطفهم إذا أعوزه الصيد وكان إذا خطف أحدا منهم أغرب به أي ذهب به إلى جهة المغرب فقيل له لطول عنقه ولذهابه إلى جهة المغرب عنقاء مغرب فشكوا ذلك إلى حنظلة عليه الصلاة والسلام فدعا على تلك العنقاء فأرسل الله تعالى عليها صاعقة فأهلكتها ولم تعقب وكان جزاؤه منهم أن قتلوه وفعلوا به ما تقدم

وذكر بعضهم أن حنظلة هذا كان من العرب من ولد إسماعيل أيضا عليه الصلاة والسلام ثم رأيت ابن كثير ذكر أن حنظلة هذا كان قبل موسى عليه الصلاة والسلام وأنه لما ذكر أن في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فتحت تستر المدينة المعروفة وجدوا تابوتا وفي لفظ سريرا عليه دانيال عليه الصلاة والسلام ووجدوا طول أنفه شبرا وقيل ذراعا ووجدوا عند رأسه مصحفا فيه ما يحدث إلى يوم القيامة وأن من وفاته إلى ذلك اليوم ثلاثمائة سنة وقال إن كان تاريخ وفاته القدر المذكور فليس بنبي بل هو رجل صالح لأن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ليس بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي بنص الحديث في البخاري

أقول قد علمت الجواب عن ذلك بأن المراد بالنبي الرسول وفيه أن هذا يبغده عطف الرسول على النبي المتقدم في بعض الروايات إلا أن يجعل من عطف التفسير والله أعلم والفترة التي كانت بينهما أربعمئة سنة وقيل ستمائة وقيل بزيادة عشرين سنة قالت عائشة رضي الله عنها ما وجدنا أحدا يعرف ما وراء عدنان ولا قحطان إلا تخرصا أي كذبا لأن الخراص الكذاب كذا قيل

أقول لعل المراد بالكذب الغير المقطوع بصحته لأن الخرص حقيقته الحزر التخمين وكل من تكلم كلاما بناه على ذلك قيل له خراص ثم قيل للكذاب خراص توسعا وحينئذ كان القياس أن يقال إلا خرصا أي خزرا وتخميننا وعلى هذا كأن الصديقية رضي الله تعالى عنها أرادت المبالغة للتنفير عن الخوض في ذلك والله أعلم

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم انتسب حتى بلغ
النضر بن كنانة ثم قال فمن قال غير ذلك أي مما زاد على ذلك فقد كذب
أقول إطلاق الكذب على من زاد على كنانة إلى عدنان يخالف ما سبق من أن المجمع
عليه إلى عدنان إلا أن يقال لا مخالفة لأنه يجوز أن يكون عمرو بن العاص لم يسمع ما
زاد على النضر بن كنانة إلى عدنان مع ذكره صلى الله عليه وسلم له الذي سمعه غيره
وفي إطلاقه الكذب على ذلك التأويل السابق وأخرج الجلال السيوطي في الجامع
الصغير عن البيهقي أنه صلى الله عليه وسلم انتسب فقال أنا محمد بن عبد الله بن عبد
المطلب إلى أن قال ابن مضر بن نزار وهذا هو الترتيب المألوف وهو الابتداء بالأب ثم
بالجد ثم بأب الجد وهكذا وقد جاء في القرآن على خلافه في قوله تعالى حكاية عن
سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب قال
بعضهم والحكمة في ذلك أنه لم يرد مجرد ذكر الآباء وإنما ذكرهم ليذكر ملتهم التي
اتبعتها فبدأ بصاحب الملة ثم بمن أخذها عنه أولاً فأولا على الترتيب والله أعلم
وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا انتسب لم
يجاوز معد بن عدنان بن أدد ثم يمسك ويقول كذب النسابون مرتين أو ثلاثاً
قال البيهقي والأصح أن ذلك أي قوله كذب النسابون من قول ابن مسعود رضي الله
عنه أي لا من قوله صلى الله عليه وسلم
أقول والدليل على ذلك ما جاء كان ابن مسعود إذا قرأ قوله تعالى * (ألم يأتكم نبأ
الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) * قال
كذب
النسابون يعني الذين يدعون علم الأنساب ونفى الله تعالى علمهما عن العباد ولا مانع
أن يكون هذا القول صدر منه صلى الله عليه وسلم أولاً ثم تابعه ابن مسعود عليه
وقد يقال هذه الرواية تقتضي إما الزيادة على المجمع عليه وإما النقص عنه أي زيادة أدد
أو نقص عدنان فهي مخالفة لما قبلها
وفي كلام بعضهم أن بين عدنان وأدد أد فيقال عدنان بن أد بن أد قيل له أدد لأنه كان
مديد الصوت وكان طويل العز والشرف
قيل وهو أول من تعلم الكتابة أي العربية من ولد إسماعيل وتقدم أن الصحيح أن أول
من كتب نزار

وانظر هل يشكل على ذلك ما رواه الهيثم بن عدي أن الناقل لهذه الكتابة يعنى العربية من الحيرة إلى الحجاز حرب بن أمية بن عبد شمس وقد يقال الأولية إضافية أي من قريش وعدنان سمي بذلك قيل لأن أعين الإنس والجن كانت إليه ناظرة قال بعضهم اختلف الناس فيما بين عدنان وإسماعيل من الآباء فقبل سبعة وقيل تسعة وقيل خمسة عشرة وقيل أربعون والله أعلم قال الله عز وجل * (وقرونا بين ذلك كثيرا) * أي لا يكاد يحاط بها فقد جاء كان ما بين آدم ونوح عليها السلام عشرة قرون وبين نوح وإبراهيم عليهما السلام عشرة قرون وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن مدة الدنيا أي من آدم عليه السلام سبعة آلاف سنة أي وقد مضى بها قبل وجود النبي صلى الله عليه وسلم خمسة آلاف وسبعمائة وأربعون سنة وعن أبي خيثمة وثمانمائة سنة قلت وفي كلام بعضهم من خلق آدم إلى بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خمسة آلاف سنة وثمانمائة سنة وثلاثون سنة وقد جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من طرق صحاح أنه قال الدنيا سبعة أيام كل يوم ألف سنة وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر يوم منها وفي كلام الحافظ السيوطي دلت الأحاديث والآثار على أن مدة هذه الأمة تزيد على الألف سنة ولا تبلغ الزيادة خمسمائة سنة أصلا وإنما تزيد بنحو أربعمائة سنة تقريبا وما أشتهر على ألسنة الناس أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكث في قبره أكثر من ألف سنة باطل لا أصل له هذا كلامه وقوله لا تبلغ الزيادة خمسمائة سنة هل يخالفه ما أخرجه أبو داود لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم يعنى خمسمائة سنة وفي كلام بعضهم قد أكثر المنجمون في تقدير مدة الدنيا فقال بعضهم عمرها سبعة آلاف سنة بعدد النجوم السيارة أي وهو سبعة وبعضهم اثنا عشر ألف سنة بعدد البروج وبعضهم بثلاثمائة ألف وستون ألفا بعدد درجات الفلك وكلها تحكيمات عقلية لا دليل عليها وفي كلام الشيخ محيي الدين بن العربي أكمل الله خلق الموجودات من الجمادات والنباتات والحيوان بعد انتهاء خلق العالم الطبيعي بإحدى وسبعين ألف سنة ثم خلق الله الدنيا بعد أن انقضى من مدة خلق العالم الطبيعي أربع وخمسون ألف سنة ثم خلق الله تعالى

الآخرة يعنى الجنة والنار بعد الدنيا بتسعة آلاف سنة ولم يجعل الله تعالى للجنة والنار أمدا ينتهى إليه بقاؤهما فلهما الدوام قال وخلق الله تعالى طينة آدم بعد أن مضى من عمر الدنيا سبع عشرة ألف سنة ومن عمر الآخرة التي لا نهاية لها في الدوام ثمانية آلاف سنة وخلق الله تعالى الجان في الأرض قبل آدم بستين ألف سنة أي ولعل هذا هو المعنى بقول بعضهم خلق الله آدم خلقا في صورة البهائم ثم أماتهم قبل وهم الجن واللبن والطم والرم والحس والبس فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء كما سيأتي قال الشيخ محيي الدين وقد طففت بالكعبة مع قوم لا أعرفهم فقال لي واحد منهم أما تعرفني فقلت لا قال أنا من أجدادك الأول فقلت له كم لك منذ مت قال لي بضع وأربعون ألف سنة فقلت ليس لآدم هذا القدر من السنين فقال لي عن أي آدم تقول عن هذا الأقرب إليك أم عن غيره فتذكرت حديثا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم إن الله خلق مائة ألف آدم فقلت قد يكون ذلك الجد الذين نسبني إليه من أولئك والتاريخ في ذلك مجهول مع حدوث العالم بلا شك هذا كلامه

وفي كلام الشيخ عبد الوهاب الشعراني وكان وهب بن منبه رضي الله تعالى عنه يقول سأل بنو إسرائيل المسيح عليه الصلاة والسلام أن يحيى لهم سام بن نوح عليهما الصلاة والسلام فقال أروني قبره فوقف على قبره وقال يا سام قم بإذن الله تعالى فقام وإذا رأسه ولحيته بيضاء فقال إنك مت وشعرك أسود فقال لما سمعت النداء ظننت أنها القيامة فشاب رأسي ولحيتي الآن فقال له عيسى عليه السلام كم لك من السنين ميت قال خمسة آلاف سنة إلى الآن لم تذهب عني حرارة طلوع روعي

وسبب الاختلاف فيما بين عدنان وآدم أن قدماء العرب لم يكونوا أصحاب كتب يرجعون إليها وإنما كانوا يرجعون إلى حفظ بعضهم من بعض ولعله لا يخالفه ما تقدم من أن أول من كتب معد أو نزار

وفي كلام سبط بن الجوزي أن سبب الاختلاف المذكور إختلاف اليهود فإنهم اختلفوا اختلافا متفاوتا فيما بين آدم ونوح وفيما بين الأنبياء من السنين قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لو شاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلمه لعلمه أي لو أراد أن يعلم ذلك للناس لعلمه لهم وهذا أولى من يعلمه بفتح الياء وسكون العين

وذكر ابن الجوزي أن بين آدم ونوح شيئا وإدريس وبين نوح وإبراهيم هود وصالح وبين إبراهيم وموسى بن عمران إسماعيل وإسحق ولوط وهو ابن أخت إبراهيم وكان كاتباً لإبراهيم وشعيب وكان يقال له خطيب الأنبياء ويعقوب ويوسف ولد يوسف ليعقوب وله من العمر إحدى وتسعون سنة وكان فراقه له وليوسف من العمر ثمانين سنة وبقياً مفترقين إحدى وعشرين سنة وبقياً مجتمعين بعد ذلك سبع عشرة سنة هذا

وفي الإتقان ألقى يوسف في الحب وهو ابن ثنتي عشرة سنة ولقى أباه بعد الثمانين وعاش مائة وعشرين سنة وكان كاتباً للعزير

قيل وسبب الفرقة بين سيدنا يعقوب وسيدنا يوسف عليهما السلام أن سيدنا يعقوب ذبح جدياً بين يدي أمه فلم يرض الله تعالى له ذلك فأراه دماً بدم وفرقة بفرقة وحرقة بحرقة وموسى بن عمران بن منشاء وبين موسى بن عمران وهو أول أنبياء بني إسرائيل وداود يوشع وكان يوشع كهارون يكتب لموسى ويذكر أن مما أوصى به داود ولده سليمان عليهما السلام لما استخلفه يا بني إياك والهزل فإن نفعه قليل ويهيج العداوة بين الإخوان أي ومن ثم قيل لا تمازح الصبيان فتهدون عليهم ولا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا تمازح الدنيء فيجترئ عليك ولكل شيء بذر وبذر العداوة المزاح وقد قيل المزاح يذهب بالمهابة ويورث الضغينة وقيل أكد أسباب القطيعة المزاح وقد قيل من كثر مزاحه لم يخل من استخفاف به أو حقد عليه واقطع طمعك من الناس فإن ذلك هو الغنى وإياك وما تعتذر فيه من القول أو الفعل وعود لسانك الصدق والزم الإحسان ولا تجالس السفهاء وإذا غضبت فالصق نفسك بالأرض أي وقد جاء في الحديث إذا جهل على أحدكم جاهل فإن كان قائماً جلس وإن كان جالساً فليضطجع وممن مات من الأنبياء فجأة داود وولده سليمان وإبراهيم الخليل عليهم أفضل الصلاة والسلام ثم بعد يوشع كالب بن يوفنا وهو خليفة يوشع ثم حزقيل وهو خليفة كالب ويقال له ابن العجوز لأنه أمه سألت الله تعالى أن يرزقها ولداً بعد ما كبرت وعقمت فجاءت به وهو ذو الكفل بسبعين نبياً وأنجادهم من القتل

وإلياس ثم طالوت الملك أي فإن شمويل عليه السلام لما حضرته الوفاة سأله بنو إسرائيل أن يقيم فيهم ملكا فأقام فيهم طالوت ملكا ولم يكن من أعيانهم بل كان راعيا وقيل سقاء وقيل غير ذلك وبين داود وعيسى عليهما السلام وهو آخر أنبياء بني إسرائيل أيوب ثم يونس ثم شعيب ثم أحصياء ثم زكريا ويحيى عليهم السلام وفي النهر لأبي حيان في تفسير قوله تعالى * (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسول) * كان بينه وبين عيسى من الرسل يوشع وشمويل وشمعون وداود و سليمان وشعيب وأرميا وعزير أي وهو من أولاد هارون بن عمران وحزقيل وإلياس ويونس وزكريا ويحيى وكان بين موسى وعيسى ألف نبي هذا كلامه وكان يحيى يكتب لعيسى وتقدم الكلام على من بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ومما يدل على شرف هذا النسب وارتفاع شأنه وفخامته وعلو مكانه ما جاء عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال قيل يا رسول الله قتل فلان لرجل من ثقيف فقال أبعده الله إنه كان يبغض قريشا

وفي الجامع الصغير قريش صلاح الناس ولا يصلح الناس إلا بهم كما أن الطعام لا يصلح إلا بالملح قريش خالصة لله تعالى فمن نصب لها حربا سلب ومن أرادها بسوء خزي في الدنيا والآخرة

قال وعن سعد بن أبي وقاص أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من يرد هوان قريش أهانه الله تعالى أه أي وأشد الإهانة ما كان في الآخرة وحينئذ إما أن يراد بالإرادة العزم والتصميم أو المراد المبالغة أو يكون ذلك من خصائص قريش فلان ينافي أن حكم الله المطرد في عدله أن لا يعاقب على مجرد الإرادات إنما يعاقب ويجازى على الأفعال والأقوال الواقعة أو ما هو منزل منزلة الواقعة كالتصميم فإن من خصائص هذه الأمة عدم مؤاخذتها بما تحدث به نفسها

وعن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل قريشا أي ذكر تفضيلهم بسبع خصال لم يعطها أحد قبلهم ولا يعطاها أحد بعدهم النبوة فيهم والخلافة فيهم والحجابه فيهم والسقاية فيهم ونصروا على الفيل أي على أصحابه وعبدوا الله سبع سنين وفي لفظ عشر سنين لم يعبدوا أحد غيرهم ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم لإيلاف قريش وتسمية

لإيلاف قريش سورة يرد ما قيل إن سورة الفيل ولإيلاف قريش سورة واحدة ولينظر ما معنى عبادتهم الله تعالى دون غيرهم في تلك المدة وعن أنس رضي الله تعالى عنه حب قريش إيمان وبغضهم كفر وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه الناس تبع لقريش مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم وقال صلى الله عليه وسلم العلم في قريش أي وقال الأئمة من قريش وقد جمع الحافظ بن حجر طرق هذا الحديث في كتاب سماه لذة العيش في طرق حديث الأئمة من قريش

وفي الحديث عالم قريش يملأ طباق الأرض علما وفي رواية لا تسبوا قريشا فإن عالمها يملأ الأرض علما وفي رواية اللهم اهد قريشا فإن عالمها يملأ طباق الأرض علما قال جماعة من الأئمة منهم الإمام أحمد هذا العالم هو الشافعي رضي الله تعالى عنه لأنه لم ينتشر في طباق الأرض من علم عالم قريشى من الصحابة وغيرهم ما انتشر من علم الشافعي

وفي كلام بعضهم ليس في الأئمة المتبوعين في الفروع قرشي غيره وفيه أن الإمام مالك بن أنس من قريش ويجب بأنه إنما يكون قرشيا على القول الباطل من أن جماع قريش قصى

وقد ذكر السبكي أنهم ذكروا أن من خواص الشافعي رضي الله تعالى عنه من بين الأئمة أن من تعرض إليه أو إلى مذهبه بسوء أو نقص هلك قريبا وأخذوا ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم من أهان قريشا أهانه الله تعالى هذا كلامه قال الحافظ العراقي إسناد هذا الحديث يعنى لا تسبوا قريشا فإن عالمها يملأ الأرض علما لا يخلو عن ضعف وبه يرد ما زعمه الصغائي من أنه موضوع وحاشا للإمام أحمد أن يحتج بحديث موضوع أو يستأنس به على فضل الشافعي

وقال ابن حجر الهيتمي هو حديث معمول به في مثل ذلك أي في المناقب وزعم وضعه حسد أو غلط فاحش أي وعن الربيع قال رأيت في المنام كأن آدم مات فسألت عن ذلك فقيل لي هذا موت أعلم أهل الأرض لأن الله علم آدم الأسماء كلها فما كان إلا يسير حتى مات الشافعي رضي الله تعالى عنه ورضى عنا به ومما يؤثر عن إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه من أطراك في وجهك بما ليس

فيك فقد شتمك ومن نقل إليك نقل عنك ومن نم عندك نم عليك ومن إذا أرضيته قال فيك ما ليس فيك إذا أسخطته قال فيك ما ليس فيك وقال صلى الله عليه وسلم قدموا قريشا ولا تقدموها أي لا تتقدموها وفي رواية ولا تعالموها أي لا تغالبوها بالعلم ولا تكاثروها فيه وفي رواية ولا تعلموها أي لا تجعلوها في المقام الأدنى الذي هو مقام المتعلم بالنسبة للمعلم وقال صلى الله عليه وسلم أحبوا قريشا فإنه من أحبهم أحبه الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بالذي لها عند الله عز وجل

وفي السنن المأثورة عن إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه رواية المزني عنه قال الطحاوي حدثنا المزني قال حدثنا الشافعي رضي الله تعالى عنه أن قتادة بن النعمان وقع بقريش وكأنه نال منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلا يا قتادة لا تشتم قريشا فإنك لعلك ترى منهم رجالا إذا رأيتهم عجبت ليهم لولا أن تطغى قريش لأخبرتها بالذي لها عند الله تعالى أي لولا أنها إذا علمت مالها عند الله من الخير المدخر لها تركت العمل بل ربما أرتكبت مالا يحل اتكالا على ذلك لأعلمتها به لكن في رواية لأخبرتها بما لمحسنها عند الله من الثواب وهذا دليل على علو منزلتها وارتفاع قدرها عند الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم يوما يا أيها الناس إن قريشا أهل أمانة من بغاها العواثر أي من طلب لها المكاييد أكبه الله تعالى لمنخريه أي أكبه الله على وجهه قال ذلك ثلاث مرات وعن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان بالمسجد فمر عليه سعيد بن العاص فسلم عليه فقال له والله يا ابن أخي ما قتلت أباك يوم بدر وما لي أن أكون أعتذر من قتل مشرك فقال له سعيد بن العاص لو قتلتك كنت على الحق وكان على الباطل فعجب عمر من قوله وقال قريش أفضل الناس أحلاما وأعظم الناس أمانة ومن يرد بقريش سواء بكبه الله لفيه هذا كلامه والذي قتل العاص والد سعيد علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وقيل سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال قتلت يوم بدر العاص وأخذت سيفه ذا الكثيفة وقال صلى الله عليه وسلم شرار قريش خير شرار الناس وفي رواية خيار قريش خيار الناس وشرار قريش شرار الناس أي ولعله سقط من هذه الرواية قبل شرار الثانية لفظ خيار لتوافق الرواية قبلها المقتضى لذلك المقام ويحتمل إبقاء ذلك على ظاهره لأنه ممن يقتدى به فكانوا أشر الأشرار ويكون هذا هو المراد بوصفهم بأنهم خيار شرار الناس

ثم رأيت في كتاب السنن المأثورة عن إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه ما رواه
المزني عنه خيار قريش خيار الناس وشرار قريش خيار شرار الناس وفي الحديث ولاة
هذا الأمر فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم ومن ثم قال الطحاوي قريش أهل
أمانة هكذا قرأه علينا المزني أهل أمانة أي بالنون وإنما هو أهل إمامة أي بالميم وفي
كلام فقهاءنا قريش قطب العرب وفيهم الفتوة

ومما يدل على شرف هذا النسب أيضا ما جاء عن عمرو بن العاص رضي الله تعالى
عنه إن الله اختار العرب على الناس واختارني على من أنا منه من أولئك العرب وما جاء
عن وائلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول إن الله اصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني
هاشم

أقول وجاء بلفظ آخر عن وائلة بن الأسقع وهو إن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم
عليهما السلام وأتخذه خليلا واصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ثم اصطفى من ولد
إسماعيل نزارا ثم اصطفى من ولد نزار مضر ثم اصطفى من ولد مضر كنانة ثم اصطفى
من كنانة قريشا ثم اصطفى من قريش بني هاشم ثم اصطفى من بين هاشم بني عبد
المطلب ثم اصطفاني من بني عبد المطلب والله أعلم قال وفي رواية إن الله اصطفى من
ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل كنانة واصطفى من بني كنانة قريشا
واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم

وما جاء عن جعفر بن محمد عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاني
جبريل فقال لي يا محمد إن الله بعثني فطفت شرق الأرض ومغربها وسهلها وجبلها
فلم أجد حيا خيرا من مضر ثم أمرني فطفت في مضر فلم أجد حيا خيرا من كنانة ثم
أمرني فطفت في كنانة فلم أجد حيا خيرا من قريش ثم أمرني فطفت في قريش فلم أجد
حيا خيرا من بني هاشم ثم أمرني أن أختار في أنفسهم أي أختار نفسا من أنفسهم فلم
أجد نفسا خيرا من نفسك انتهى

وفي الوفاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى * (لقد جاءكم رسول
من أنفسكم) * قال ليس من العرب قبيلة إلا ولدت النبي صلى الله عليه وسلم مضرها
وربيعتها ويمانيها وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم

إن الله خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم واختار من بني آدم العرب واختار من العرب مضر واختار من مضر قريشا واختار من قريش بني هاشم واختارني من بني هاشم فأنا خيار من خيار إلى خيار انتهى وقوله واختار من مضر قريشا يدل على أن مضر ليس جماع قريش وإلا كانت أولاده كلها قريشا

وعن أبي هريرة يرفعه بسند حسنه الحافظ العراقي إن الله حين خلق الخلق بعث جبريل فقسم الناس قسمين قسم العرب قسما وقسم العجم قسما وكانت خيرة الله في العرب ثم قسم العرب إلى قسمين فقسم اليمن قسما وقسم مضر قسما وكانت خيرة الله في مضر وقسم مضر قسمين فكانت قريش قسما وكانت خيرة الله في قريش ثم أخرجني من خيار من أنا منه

قال بعضهم وما جاء في فضل قريش فهو ثابت لبني هاشم والمطلب لأنهم أخص وما ثبت للأعم يثبت للأخص ولا عكس

وفي الشفاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله سبحانه وتعالى قسم الخلق قسمين فجعلني من خيرهم قسما فذلك قوله تعالى * (أصحاب اليمين) * * (وأصحاب الشمال) * فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين ثم جعل القسمين أثلاثا فجعلني في خيرها ثلثا فذلك قوله تعالى * (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون) * فأنا خير السابقين ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني من خيرها قبيلة وذلك قوله تعالى * (وجعلناكم شعوبا وقبائل) * الآية فأنا أبر ولد آدم وأكرمهم على الله تعالى ولا فخر وجعل القبائل بيوتا فجعلني في خيرها بيتا ولا فخر فذلك قوله تعالى * (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) * الآية هذا كلام الشفاء فليتأمل وإلى شرف هذا النسب يشير صاحب الهمزية رحمه الله تعالى بقوله

* وبدا للوجود منك كريم

* من كريم أبأوه كرماء

* نسب تحسب العلا بحلاه

* قلدها نجومها الجوزاء

* حبذا عقد سؤدد وفخار

* أنت فيه اليتيمة العصماء

*

أي يظهر لهذا العالم منك كريم أي جامع لكل صفة كمال وهذا على حد قولهم لي من فلان صديق حميم وذلك الكريم الذي ظهر وجد من أب كريم سالم من نقص الجاهلية أبأوه الشامل للأمهات جميعهم كرماء أي سالمون من نقائص الجاهلية أي

ما يعد في الإسلام نقصا من أوصاف الجاهلية وهذا نسب لا أجل منه ولجلالته إذا تأملته تظن بسبب ما تحلى به من الكمالات أي معاليها جعلت الجوزاء نجومها التي يقال لها نطاق الجوزاء قلادة لتلك المعالي وهذه القلادة نعم هي قلادة سيادة وتمدح موصوفة بأنك في تلك القلادة الدرّة اليتيمة التي لا مشابه لها المحفوظة عن الأعين لجلالته

لا يقال شمول الآباء للأمهات لا يناسب قوله نسب لأن النسب الشرعي في الآباء خاصة لأننا نقول المراد بالنسب ما يعم اللغوي أو قد يقال سلامة آباءه من النقائص إنما هو من حيث أبيه أي كونه متفرعا عنه وذلك يستلزم أن تكون أمهاته كذلك وسيأتي لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات وسيأتي الكلام على ذلك مستوفى وقال المارودي في كتاب أعلام النبوة وإذا اختبرت حال نسبه صلى الله عليه وسلم وعرفت طهارة مولده صلى الله عليه وسلم علمت أنه سلالة آباء كرام ليس فيهم مستزل بل كلهم سادة قادة وشرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوة هذا كلامه ومن كلام عمه أبي طالب

* إذا اجتمعت يوما قريش لمفخر
* فعبد مناف سرها وصميمها
* وإن حصلت أنساب عبد منافها
* ففي هاشم أشرافها وقديمها
* وإن فخرت يوما فإن محمدا
* هو المصطفى من سرها وكريمها
*

بالرفع عطفًا على المصطفى وسر القوم وسطهم فأشرف القوم قومه وأشرف القبائل قبيلته وأشرف الأفضاخ فخذ
وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب العرب فبحبي أحبهم ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم
وعن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك قلت يا رسول الله كيف أبغضك وبك هداني الله تعالى قال تبغض العرب فتبغضني
وعن علي رضي الله تعالى عنه قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يبغض العرب إلا منافق
وفي الترمذي عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي قال الترمذي هذا حديث غريب وقال صلى الله عليه وسلم ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم وقال صلى الله عليه وسلم أحبوا العرب لثلاث لأني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي وقال صلى الله عليه وسلم إن لواء الحمد يوم القيامة بيدي وإن أقرب الخلق من لوائي يومئذ العرب وقال صلى الله عليه وسلم إذا ذلت العرب ذل الإسلام وفي كلام فقهاءنا العرب أولى الأمم لأنهم المخاطبون أولاً والدين عربي

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما خير العرب مضر وخير مضر عبد مناف وخير بني عبد مناف بنو هاشم وخير بني هاشم بنو عبد المطلب والله ما افترق فرقان منذ خلق الله تعالى آدم إلا كنت في خيرهما أقول وفي لفظ آخر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله حين خلقني جعلني من خير خلقه ثم حين خلق القبائل جعلني من خيرهم قبيلة وحين خلق الأنفس جعلني من خير أنفسهم ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم فأنا خيرهم بيتاً وأنا خيرهم نسباً وفي لفظ آخر عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قسم الخلق قسمين فجعلني في خيرهم قسماً ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرها ثلثاً ثم جعل الثلث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها ثلثاً وتقدم عن الشفاء مثل ذلك مع زيادة الإستدلال بالآيات وتقدم الأمر بالتأمل في ذلك والله أعلم وفيه أنه ورد النهي في الأحاديث الكثيرة عن الانتساب إلى الآباء في الجاهلية على سبيل الافتخار من ذلك لا تفتخروا بأبائكم الذين ماتوا في الجاهلية فوالذي نفسي بيده ما يدحرج الجعل بأنفه خير من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية أي والذي يدحرجه الجعل وهو التنن وجاء في الحديث ليدعن الناس فخرهم في الجاهلية أو ليكونن أبغض إلى الله تعالى من الخنافس وجاء آفة الحسب

الفخر أي عاهة الشرف بالآباء التعاضم بذلك وأجاب الإمام الحليمي بأنه صلى الله عليه وسلم لم يرد بذلك الفخر إنما أراد تعريف منازل أولئك ومراتبهم أي ومن ثم جاء في بعض الروايات قوله ولا فخر أي فهو من التعريف بما يجب اعتقاده وإن لزم منه الفخر وهو أشار إلى نعمة الله تعالى عليه فهو

من التحدث بالنعمة وإن لزم من ذلك الفخر أيضا وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى * (وتقلبك في الساجدين) * قال من نبي إلى نبي حتى أخرجت نبيا أي وجدت الأنبياء في آباءه فسيأتي أنه قذف بي في صلب آدم ثم في صلب نوح ثم في صلب إبراهيم عليهما الصلاة والسلام بدليل ما يأتي فيه وفي لفظ آخر عنه ما زال النبي صلى الله عليه وسلم يتقلب في أصلاب الأنبياء أي المذكورين أو غيرهم حتى ولدته أمه أي وهذا كما لا يخفى لا ينافي وقوع من ليس نبيا في آباءه فالمراد وقوع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في نسبه عليه الصلاة والسلام كما علمت ضرورة أن آباءه كلهم ليسوا أنبياء لكن قال غيره لا زال نوره صلى الله عليه وسلم ينقل من ساجد إلى ساجد قال أبو حيان واستدل بذلك أي بما ذكر من الآية المذكورة أي المفسرة بما ذكر الرافضة على أن آباء النبي صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين أي لأن الساجد لا يكون إلا مؤمنا فقد عبر عن الإيمان بالسجود وسيأتي مزيد الكلام في ذلك وهو استدلال ظاهري وإلا فالآية قيل معناها وتصفحك أحوال المتجهدين من أصحابك لأنه لما نسخ فرض قيام الليل عليه وعليهم بناء على أنه كان واجبا عليه وعلى أمته وهو الأصح

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان واجبا على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله صلى الله عليه وسلم طاف صلى الله عليه وسلم تلك الليلة على بيوت أصحابه لينظر حالهم أي هل تركوا قيام الليل لكونه نسخ وجوبه بالصلوات الخمس ليلة المعراج حرصا على كثرة طاعتهم فوجدوها كبيوت الزنابير أي لأن الله عز وجل افترض عليه صلى الله عليه وسلم أي وعلى أمته قيام الليل أو نصفه أو أقل أو أكثر في أول سوة المزملة ثم نسخ ذلك في آخر السورة بما تيسر أي وكان نزول ذلك بعد سنة ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس ليلة المعراج كما سيأتي وجعل بعضهم ذلك من نسخ الناسخ فيصير منسوخات لما علمت أن آخر هذه السورة ناسخ لأولها ومنسوخ بفرض الصلوات الخمس

واعترض بأن الأخبار دالة على أن قوله تعالى * (فاقرؤوا ما تيسر من القرآن) * إنما نزل بالمدينة يدل على ذلك قوله تعالى * (علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله) * لأن القتال في سبيل الله إنما كان بالمدينة فقوله تعالى * (فاقرؤوا ما تيسر) * إختيار لا إيجاب

وقيل معنى وتقلبك في الساجدين وتقلبك في أركان الصلاة قائما وقاعدا وراكعا وساجدا في الساجدين أي في المصلين ففي الساجدين ليس متعلقا بتقلبك بل بساجد المحذوف

لا يقال يعارض جعل الساجدين عبارة عن المؤمنين أن من جملة آبائه صلى الله عليه وسلم آزر والد إبراهيم الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم وكان كافرا لأننا نقول أجمع أهل الكتاب على أن آزر كان عمه والعرب تسمى العم أبا كما تسمى الخالة أما فقد حكى الله عن يعقوب عليه السلام أنه قال آبائي إبراهيم وإسماعيل ومعلوم أن إسماعيل إنما هو عمه أي ويدل لذلك أن أبا إبراهيم كان اسمه تارخ بالمشناة فوق المعجمة كما عليه جمهور أهل النسب وقيل المهملة وعليه اقتصر الحافظ في الفتح لا آزر لكن ادعى بعضهم أنه لقب له لأن آزر اسم صنم كان يعبده فصار له أسمان آزر وتارخ كيعقوب وإسرائيل قال بعضهم وقد تساهل من أخذ بظاهر الآية كالقاضي البيضاوي وغيره فقال إن أبا إبراهيم مات على الكفر وما قيل إنه عمه فعدول عن الظاهر من غير دليل ويوافقه ما في النهر نقلا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن آزر كان اسم أبيه ويرد ذلك قول الحافظ السيوطي رحمه الله يستنبط من قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربنا أغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقول الحساب وكان ذلك بعد موت عمه بمدة طويلة أن المذكور في القرآن بالكفر والتبري من الاستغفار له أي في قوله تعالى * (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) * هو عمه لا أبوه الحقيقي قال فله الحمد على ما ألهم أي ولا يخفى أن هذا لا يتم إلا إذا كان أبوه الحقيقي حيا وقت التبري منه وأن التبري سببه الموت أي موت عمه على الكفر لا الوحي بأنه يموت كافرا فليتأمل وحينئذ يكون أبوه الحقيقي هو المعنى بقول أبي هريرة أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم أن قال لما رأى ولده وقد ألقى في النار أي على تلك الحالة أي في روضة خضراء وحوله النار لم تحرق منه إلا كتافه نعم الرب ربك يا إبراهيم وكان سنه حين ألقى في النار ست عشرة سنة كما في الكشف وفي كلام غيره كان سنة ثلاثين سنة بعد ما سجن ثلاث عشرة سنة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال إن قريشا كانت نورا بين يدي الله تعالى

قبل أن يخلق آدم عليه الصلاة والسلام بألفي عام يسبح ذلك النور وتسبح الملائكة بتسبيحه فلما خلق الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام ألقى ذلك النور في صلبه قال صلى الله عليه وسلم فأحبطني الله تعالى إلى الأرض في صلب آدم وجعلني في صلب نوح وقذفني في صلب إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ثم لم يزل ينقلني من الأصاب الكريمة والأرحام الطاهرة حتى أخرجني من بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط أقول قوله صلى الله عليه وسلم فأهبطني ينبغي أن لا يكون معطوفا على ما قبله من قوله إن قريشا كانت نورا بين يدي الله تعالى الخ فيكون نوره صلى الله عليه وسلم من جملة نور قريش وإنه صلى الله عليه وسلم انفرد عن نور قريش وأودع في صلب نوح عليه الصلاة والسلام الخ بل على ما يأتي من قوله كنت نورا بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام اللازم لذلك أن يكون نوره سابقا على نور قريش ويكون نور قريش من نوره صلى الله عليه وسلم وحكمة اقتضاه صلى الله عليه وسلم على من ذكر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا تخفى وهي أنهم آباء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فمن ذرية نوح هود وصالح عليها الصلاة والسلام ومن ذرية إبراهيم إسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وشعيب وموسى وهارون بناء على أنه شقيق موسى أو لأبيه وإلا فسيأتي أن نوره انتقل إلى شيث وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل عن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كنت نورا بين يدي ربي قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأربعة عشر ألف عام ورأيت في كتاب التشریفات في الخصائص والمعجزات لم أقف على اسم مؤلفه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال يا جبريل كم عمرت من السنين فقال يا رسول الله لست أعلم غير أن في الحجاب الرابع نجما يطلع في كل سبعين ألف سنة مرة رأيت اثنتين وسبعين ألف مرة فقال يا جبريل وعزة ربي جل جلاله أنا ذلك الكوكب رواه البخاري هذه كلامه فلما خلق الله آدم عليه الصلاة والسلام جعل ذلك النور في ظهره أي فهو حالة كونه نورا سابق على قريش حالة كونها نورا بل سيأتي ما يدل على أن نوره صلى الله عليه وسلم سابق على سائر المخلوقات بل وتلك المخلوقات خلقت من ذلك النور آدم وذريته وحينئذ يحتاج إلى بيان وجه كون آدم خلق من نوره صلى الله عليه وسلم وجعل نوره

صلى الله عليه وسلم في ظهر آدم عليه الصلاة والسلام فقد تقدم في الخبر لما خلق الله تعالى آدم جعل ذلك النور في ظهره أي فكان يلمع في جبينه فيغلب على سائر نوره الخ ما أتى ثم انتقل إلى ولده شيث الذي هو وصيه وكان من جملة ما أوصاه به أنه يوصى من انتقل إليه ذلك النور من ولده أنه لا يضع ذلك النور الذي انتقل إليه إلا في المطهرة من النساء ولم تزل هذه الوصية معمولاً بها في القرون الماضية إلى أن وصل ذلك النور إلى عبد المطلب أي وهذا السياق يدل على أن ذلك النور كان ظاهراً فيمن ينتقل إليه من آباءه وهو قد يخالف ما تقدم من تخصيص بعض آباءه بذلك ولم تلد حواء ولدا مفرداً إلا شيئاً كرامة لهذا النور قيل مكث في بطنها حتى نبتت أسنانه وكان ينظر إلى وجهه من صفاء بطنها وهو الثالث من ولد آدم عليه الصلاة والسلام وكانت تلد ذكر وأنثى معا أي فقد قيل إنها ولدت لآدم أربعين ولداً في عشرين بطناً وقيل ولدت مائة وعشرين ولداً وقيل مائة وثمانين ولداً وقيل خمسمائة ويقال إن آدم عليه الصلاة والسلام لما مات بكى عليه من ولده وولد ولده أربعون ألفاً ولم يحفظ من نسل آدم إلا ما كان من صلب شيث دون إخوته أي فإنهم لم يعقبوا أصلاً فهو أبو البشر وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء قال يا جابر إن الله تعالى قد خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره الحديث وفيه أنه أصل لكل موجود والله سبحانه وتعالى أعلم

واختلف الناس في عد طبقات أنساب العرب وترتيبها والذي في الأصل عن الزبير بن بكار أنها ست طبقات وأن أولها شعب ثم قبيلة ثم عمارة بكسر العين المهملة ثم بطن ثم فخذ ثم فصيلة قال وقد نظمها الزين العراقي في قوله

* للعرب العرباً طباق عدة

* فصلها الزبير وهي ستة

* أعم ذاك الشعب فالقبيلة

* عمارة بطن فخذ فصيلة

*

أي فالشعب أصل القبائل والقبيلة أصل العمارة والعمارة أصل البطون والبطن أصل الفخذ والفخذ أصل الفصيلة فيقال مضر شعب رسول الله صلى الله عليه وسلم أي وقيل شعبه خزيمة وكنانة قبيلته صلى الله عليه وسلم وقريش عمارته صلى الله عليه وسلم وقصى بطنه صلى الله عليه وسلم وهاشم فخذة صلى الله عليه وسلم

وبنوا العباس فصيلته صلى الله عليه وسلم وقيل بعد الفصيصة العشيرة وليس بعد العشيرة شيء وقيل بعدها الفصيصة قال ثم الرهط وزاد بعضهم الذرية والعترة والأسرة ولم يرتب بينها وقد ذكرها محمد بن سعد إثنى عشر فقال الجذم ثم الجمهور ثم الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم العشيرة ثم الفصيصة ثم الرهط ثم الأسرة ثم الذرية وسكت عن العترة

وفي كلام بعضهم الأسباط بطون بني إسرائيل والشعب في لسان العرب الشجرة الملتفة الكثيرة الأغصان والأوراق والقبائل بطون العرب والشعوب بطون العجم فيتأمل باب تزويج عبد الله أبي النبي صلى الله عليه وسلم آمنة أمه صلى الله عليه وسلم وحفر زمزم وما يتعلق بذلك

قيل خرج عبد المطلب ومعه ولده عبد الله وكان أحسن رجل في قريش خلقا وخلقاً وكان نور النبي صلى الله عليه وسلم بينا في وجهه وفي رواية أنه كان أحسن رجل رءاء بكسر الراء وبضمها ثم همزة مفتوحة منظراً في قريش وفي رواية أنه كان أكمل بني أبيه وأحسنهم وأعفهم وأحبهم إلى قريش وقد هدى الله تعالى والده فسماه بأحب الأسماء إلى الله تعالى ففي الحديث أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن وهو الذبيح

وذلك لأن أباه عبد المطلب حين أمر في النوم بحفر زمزم بئر إسماعيل عليه السلام أي لأن الله تعالى أخرج زمزم لإسماعيل بواسطة جبريل كما يأتي إن شاء الله تعالى في بناء الكعبة أخرج زمزم مرتين مرة لآدم ومرة لإسماعيل عليهما الصلاة والسلام وكانت جرهم قد دفنتها أي فإن جرهما لما أستخفت بأمر البيت الحرام وارتكبوا الأمور العظام قام فيهم رئيسهم مضاض بكسر الميم وحكى ضمها ابن عمرو خطيباً ووعظهم فلم يرفعوا فلما رأى ذلك منهم عمد إلى غزالتين من ذهب كانتا في الكعبة وما وجد فيها من الأموال أي السيوف والدروع على ما سيأتي التي كانت تهدى إلى الكعبة ودفنها في بئر زمزم

وفي مرآة الزمان أن هاتين الغزالتين أهداهما للكعبة وكذا السيوف ماسان أول ملوك
الفرس الثانية ورد بأن الفرس لم يحكموا على البيت ولا حجوه هذا كلامه وفيه أن هذا
لا ينافي ذلك فيتأمل وكانت بئر زمزم نضب ماؤها أي ذهب فحفرها مضاض بالليل
وأعمق الحفر ودفن فيها ذلك أي ودفن الحجر الأسود أيضا كما قيل وطم البئر واعتزل
قومه فسلط الله تعالى عليهم خزاعة فأخرجتهم من الحرم وتفرقوا وهلكوا كما تقدم ثم
لا زالت زمزم مطمومة لا يعرف محلها مدة خزاعة ومدة قصي من بعده إلى زمن عبد
المطلب ورؤياه التي أمر فيها بحفرها قيل وتلك المدة خمسمائة سنة أي وكان قصي
احترف بئرا في الدار التي سكنتها أم هانئ أخت علي رضي الله تعالى عنهما وهي أول
سقاية احتفرت بمكة

فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال عبد المطلب إني لنائم في الحجر إذ
أتاني آت فقال احفر طيبة فقلت وما طيبة فذهب وتركني فلما كان الغد رجعت إلى
مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال احفر برة فقلت وما برة فذهب وتركني فلما كان الغد
رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني وقال احفر المضمونة فقلت وما المضمونة
فذهب وتركني فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال احفر زمزم
فقلت وما زمزم قال لا تنزف ولا تدم تسقى الحجيج الأعظم وهي بين الفرث والدم
عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل وقوله لا تنزف أي لا يفرغ ماؤها ولا يلحق
قعرها

وفيه أنه ذكر أنه وقع فيها عبد حبشي فمات بها وانتفخ فنزحت من أجله ووجدوا قعرها
فوجدوا ماءها يفور من ثلاثة أعين أقواها وأكثرها التي من ناحية الحجر الأسود
وقوله ولا تدم بالذال المعجمة أي لا توجد قليلة الماء من قولهم بئر ذمة أي قليلة الماء
قيل وليس المراد أنه لا يذمها أحد لأن خالد بن عبد الله القسري أمير العراق من جهة
الوليد بن عبد الملك ذمها وسماها أم جعلان واحترف بئرا خارج مكة باسم الوليد بن
عبد الملك وجعل يفضلها على زمزم ويحمل الناس على التبرك بها
وفيه أن هذا جراءة منه على الله تعالى وقلة حياء منه وهو الذي كان يعلن ويفصح بلعن
علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على المنبر فلا عبرة بدمه
وقيل لزمزم طيبة لأنها للطيبين والطيبات من ولد إبراهيم وقيل لها برة لأنها فاضت

للأبرار وقيل لها المضمونة لأنه ضن بها على غير المؤمنين فلا يتضلع منها منافق وقد جاء في رواية يقول الله تعالى ضننت بها على الناس إلا عليك ولعل المراد إلا على أتباعك فيكون بمعنى ما قبله وفي رواية أنه قيل لعبد المطلب احفر زمزم ولم يذكر له علامتها فجاء إلى قومه وقال لهم إني قد أمرت أن أحفر زمزم قالوا فهل بين لك أين هي قال لا قالوا فارجع إلى مضجعك الذي رأيت فيه ما رأيت فإن يكن حقا من الله تعالى بين لك وإن يكن من الشيطان فلن يعود إليك فرجع عبد المطلب إلى مضجعه فنام فيه فأتاه فقال احفر زمزم إنك إن حفرتها لن تندم وهي ميراث من أبيك الأعظم لا تنزف أبدا ولا تدم تسقى الحجيج الأعظم فقال عبد المطلب أين هي فقال هي بين الفرث والدم عند قرية النمل حيث ينقر الغراب الأعصم غدا أي والأعصم قيل أحمر المنقار والرجلين وقيل أبيض البطن وعلى هذا اقتصر الإمام الغزالي حيث قال في قوله صلى الله عليه وسلم مثل المرأة الصالحة في النساء مثل الغراب الأعصم بين مائة غراب يعني الأبيض البطن هذا كلامه وقيل الأعصم أبيض الجناحين وقيل أبيض إحدى الرجلين فلما كان الغد ذهب عبد المطلب وولده الحارث ليس له ولد غيره فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عندها بين الفرث والدم أي في محلها وذلك بين إساف نائلة الصنمين اللذين تقدم ذكرهما وتقدم أن قريشا كانت تذبح عندهما ذبائحها أي التي كانت تتقرب بها وهذا يبعد ما جاء في رواية أنه لما قام بحفرها رأى ما رسم له من قرية النمل ونقرة الغراب ولم ير الفرث والدم فبينما هو كذلك دنت بقرة من ذابحها فلم يدركها حتى دخلت المسجد فنحراها في الموضع الذي رسم له وقد يقال لا يبعد لأنه يجوز أن يكون فهم أن يكون الفرث والدم موجودين بالفعل فلا يلزم من كون المحل المذكور محلها وجودها فيه في ذلك الوقت فلم يكتف بنقرة الغراب في محلها فأرسل الله له تلك البقرة ليرى الأمر عيانا وذكر السهيلي رحمه الله لذكر هذه العلامات الثلاث حكمة لا بأس بها ولعل إسافا ونائلة نقلا بعد ذلك إلى الصفا والمروة بعد أن نقلهما عمرو بن لحي من جوف الكعبة إلى المحل المذكور فلا يخالف ما ذكره القاضي البيضاوي وغيره إن إسافا كان على الصفا ونائلة على المروة وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوا أي ومن ثم لما جاء الإسلام

وكسرت الأصنام كره المسلمون الطواف أي السعي بينهما وقالوا يا رسول الله هذا كان شعارنا في الجاهلية لأجل التمسح بالصنمين فأنزل الله تعالى إن الصفا والمروة من شعائر الله الآية ويقال إن بقرة نحرت بالحزورة بوزن قسورة فانفلتت ودخلت المسجد في موضع زمزم فوقعت مكانها فاحتمل لحمها فأقبل غراب أعصم فوقع في الفرت فليتأمل الجمع

وقد يقال لا منافاة لأن قوله في الرواية الأولى فندت بقرة من ذابحها أي ممن شرع في ذبحها ولم يتمه حتى دخلت المسجد فنحرها أي تم ذبحها فقد نحرت بالحزورة وبالمسجد أو يراد بنحرها في الحزورة ذبحها وبنحرها في المسجد سلخها وتقطيع لحمها فقد رأينا الحيوان بعد ذبحه يذهب إلى موضع آخر ثم يقع به وعند ذلك جاء عبد المطلب بالمعول وقام ليحفر فقامت إليه قريش فقالوا له والله لا نتركك تحفر بين وثنينا اللذين ننحر عندهما فقال عبد المطلب لولده الحرث ذد عني أي امنع عني حتى أحفر فوالله لأمضين لما أمرت به فلما رأوه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه فلم يحفر إلا يسيرا حتى بدا له الطي أي البناء فكبر وقال هذا طي إسماعيل عليه السلام أي بناؤه فعرفت قريش أنه أصاب حاجته فقاموا إليه وقالوا والله يا عبد المطلب إنها بئر أبنينا إسماعيل وإن لنا فيها حقا فأشركنا معك فقال ما أنا بفاعل إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم فقالوا نخاصمك فيها فقال اجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه قالوا كاهنة بني سعد بن هذيم وكانت بأعالي الشام أي ولعلها التي لما حضرتها الوفاة طلبت شقا وسطيحا وتفلت في فمهما وذكر أن سطيحا يخلفها في كهانتها ثم ماتت في يومها ذلك وسطيح ستأتي ترجمته وأما شق فقيل له ذلك لأنه كان شق إنسان يدا واحدة ورجلا واحدة وعينا واحدة فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني عبد مناف وركب من كل قبيلة من قريش نفر وكان إذ ذاك ما بين الحجاز والشام مفازات لا ماء بها فلما كان عبد المطلب ببعض تلك المفاز فنى ماءً وماء أصحابه فظمئوا ظمأً شديداً حتى أيقنوا بالهلكة فاستقوا ممن معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم وقالوا نخشى

عن أنفسنا مثل ما أصابكم فقال عبد المطلب لأصحابه ما ترون قالوا ما رأينا إلا تبع لرأيك فقال إني أرى أن يحفر كل أحد منكم حفيرة يكون فيها إلى أن يموت فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثم واروه حتى يكون آخرهم رجلاً

واحدًا فضيعة رجل واحد أي يترك بلا مواراة أيسر من ضيعة ركب جميعًا فقالوا نعم ما أمرت به فحفر كل حفيرة لنفسه ثم قعدوا ينتظرون الموت ثم قال عبد المطلب لأصحابه والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا إلى الموت لعجز فلنضرب في الأرض فعسى الله أن يرزقنا فانطلقوا كل ذلك وقومهم ينظرون إليهم ما هم فاعلون فتقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها فلما انبعثت أنفجرت من تحت خفها عين ماء عذب فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ثم نزل فشرب وشرب أصحابه وملأوا أسقيتهم ثم دعا القبائل فقال هلموا إلى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا فجاءوا فشربوا واستقوا ثم قالوا لعبد المطلب قد والله قضى لك علينا يا عبد المطلب والله لا نخاصمك في زمزم أبدا إن الذي سقاك الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم فارجع إلى سقايتك راشدا فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة فلما جاء وأخذ في الحفر وجد فيها الغزالتين من الذهب اللتين دفنتهما جرهم ووجد فيها أسيفا وأدراعا فقالت له قريش يا عبد المطلب لنا معك في هذا شرك فقال لا ولكن هلموا إلى أمر نصف بيني وبينكم والنصف بكسر النون وسكون الصاد المهملة وبفتحها النصفة بفتحات نضرب عليها بالقداح قالوا كيف تصنع قال أجعل للكعبة قدحين ولي قدحين ولكم قدحين فمن خرج قدحاه على شيء كان له ومن تخلف قدحاه فلا شيء له قالوا أنصفت فجعل قدحين أصفرين للكعبة وقدحين أسودين لعبد المطلب وقدحين أبيضين لقريش ثم أعطوها لصاحب القداح الذي يضرب بها عند هبل أي وجعلوا الغزالتين قسما والأسياف والأدراع قسما آخر وقام عبد المطلب يدعو ربه بشعر مذكرو في الإمتاع فضرب صاحب القداح فخرج الأصفران على الغزالتين وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع وتخلف قدحا قريش فضرب عبد المطلب الأسياف بابا للكعبة وضرب في الباب الغزالتين فكان أول ذهب حليت به الكعبة ذلك ومن ثم جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما واله إن أول من جعل باب الكعبة ذهبا لعبد المطلب

وفي شفاء الغرام أن عبد المطلب علق الغزالتين في الكعبة فكان أول من علق المعاليق بالكعبة وسيأتي الجمع بين كونهما علقا بالكعبة وبين جعلهما حلليا لباب الكعبة وقد كان بالكعبة بعد ذلك معاليق فإن عمر رضي الله تعالى عنه لما فتحت مدائن كسرى كان مما بعث إليه منها هلالان فعلقا بالكعبة وعلق بها عبد الملك بن مروان شمسيتين وقدحين من قوارير وعلق بها الوليد بن يزيد سريرا

وعلق بها السفاح صحفة خضراء وعلق بها المنصور القارورة الفرعونية وبعث المأمون
ياقوتة كانت تعلق كل سنة في وجه الكعبة في زمن الموسم في سلسلة من ذهب
ولما أسلم بعض الملوك في زمنه أرسل إليها بصنمه الذي كان يعبده وكان من ذهب
متوجا ومكلا بالجواهر والياقوت الأحمر والأخضر والزبرجد فجعل في خزانة الكعبة
ثم إن الغزالتين سرقتا وأبيعتا من قوم تجار قدموا مكة بخمر وغيرها فاشتروا بثمنها
خمرًا

وقد ذكر أن أبا لهب مع جماعة نفدت خمرهم في بعض الأيام وأقبلت قافلة من الشام
معها خمر فسرقوا غزالة واشتروا بها خمرًا وطلبتها قريش وكان أشدهم طلبا لها عبد
الله بن جدعان فعلموا بهم فقطعوا بعضهم وهرب بعضهم وكان فيمن هرب أبو لهب
هرب إلى أخواله من خزاعة فمنعوا عنه قريشا ومن ثم كان يقال لأبي لهب سارق غزالة
الكعبة

وقد قيل منافع الخمر المذكورة فيها أنهم كانوا يتغالون فيها إذا جلبوها من النواحي
لكثرة ما يربحون فيها لأنه كان المشتري إذا ترك المماكسة في شرائها عدوه فضيلة له
ومكرمة فكانت أرباحهم تتكثر بسبب ذلك

وما قيل في منافعها أنها تقوى الضعيف وتهضم الطعام وتعين على الباه وتسلي المحزون
وتشجع الجبان وتصفى اللون وتنعش الحرارة الغريزية وتزيد في الهمة والإستعلاء فذلك
كان قبل تحريمها ثم لما حرمت سلبت جميع هذه المنافع وصارت ضررا صرفا ينشأ
عنها الصداع والرعشة في الدنيا لشاربها وفي الآخرة يسقى عصارة أهل النار
وفي كلام بعضهم من لازم شربها حصل له خلل في جوهر العقل وفساد الدماغ والبحر
في الفم وضعف البصر والعصب وموت الفجاءة ومميتة للقلب ومسخطة للرب ومن ثم
جاء أنها أي الخمر ليست بدواء ولكنها داء وجاء اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر
أي كان مغلقا وجاء الخمر أم الفواحش وفي رواية أم الخبائث وجاء في الخمر لا طيب
الله من تطيب بها ولا شفى الله من استشفى بها
وقد قيل لا منافاة بين كون الغزالتين علقتا في الكعبة وسرقتا أو سرقت إحداهما

وبين كون عبد المطلب جعلهما حليا للباب لأنه يجوز أن يكون عبد المطلب استخلص الغزالتين أو الغزالة من التجار ثم جعلهما حليا للباب بعد أن كان علقهما وفي الإمتاع وكان الناس قبل ظهور زمزم تشرب من آبار حفرت بمكة وأول من حفر بها بئرا قصي كما تقدم وكان الماء العذب بمكة قليلا ولما حفر عبد المطلب زمزم بنى عليها حوضا وصار هو وولده يملآنه فيكسره قوم من قريش ليلا حسدا فيصلحه نهارا حين يصبح فلما أكثروا من ذلك وجاء شخص واغتسل به غضب عبد المطلب غضبا شديدا فأرى في المنام أن قل اللهم إني لا أحلها لمغتسل وهي لشارب حل وبل أي حلال مباح ثم كفيتهم فقام عبد المطلب حين اختلفت قريش في المسجد ونادى بذلك فلم يكن يفسد حوضه أحد أو اغتسل إلا رمى في جسده بداء ثم إن عبد المطلب لما قال لولده الحرث ذد عني أي امنع عني حتى أحفر وعلم أنه لا قدرة له على ذلك نذر إن رزق عشرة من الولد الذكور يمنعونه ممن يتعالى عليه ليذبحن أحدهم عند الكعبة

أي وقيل إن سبب ذلك أن عدى بن نوفل بن عبد مناف أبا المطعم قال له يا عبد المطلب تستطيل علينا وأنت فذ لا ولد لك أي متعدد بل لك ولدا واحدا ولا مال لك وما أنت

إلا واحد من قومك فقال له عبد المطلب أتقول هذا وإنما كان نوفل أبوك في حجر هاشم أي لأن هاشما كان خلف على أم نوفل وهو صغير فقال له عدي وأنت أيضا قد كنت في يثرب عند غير أبيك كنت عند أخوالك من بني النجار حتى ردك عمك المطلب فقال له عبد المطلب أو بالقلة تعيرني فله على النذر لئن آتاني الله عشرة من الأولاد الذكور لأنحرن أحدهم عند الكعبة وفي لفظ أن أجعل أحدهم لله نحيرة قيل إن عبد المطلب نذر أن يذبح ولدا إن سهل الله له حفر زمزم فعن معاوية رضي الله عنه أن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الأمر بها أن ينحر بعض ولد فلما صاروا عشرة أي وحفر زمزم أمر في اليوم بالوفاء بنذره أي قيل له قرب أحد أولادك أي بعد أن نسي ذلك وقد قيل له قبل ذلك أوف بنذرك فذبح كبشا أطعمه الفقراء ثم قيل له في النوم قرب ما هو أكبر من ذلك فذبح ثورا ثم قيل له في النوم قرب ما هو أكبر من ذلك فذبح جملا ثم قيل له في النوم قرب ما هو أكبر من ذلك

فقال وما هو أكبر من ذلك فقبل له قرب أحد أولادك الذي نذرت ذبحه فضرب القداح على أولاده بعد أن جمعهم وأخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء وأطاعوه ويقال إن أول من أطاعه عبد الله وكتب اسم كل واحد على قدح ودفعت تلك القداح للسادن والقائم بخدمة هبل وضرب بتلك القداح فخرجت على عبد الله أي وكان أصغر ولده وأحبهم إليه مع ما تقدم من أوصافه فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة ثم أقبل به على إساف ونائلة وألقاه على الأرض ووضع رجله على عنقه فجذب العباس عبد الله من تحت رجل أبيه حتى أثر في وجهه شجة لم تنزل في وجه عبد الله إلى أن مات كذا قيل

وفيه أن العباس لما ولد صلى الله عليه وسلم كان عمره ثلاث سنين ونحوها فعنه رضي الله عنه أذكر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن ثلاثة أعوام أو نحوها فجيء به حتى نظرت إليه وجعلت النسوة يقلن لي قبل أخاك فقبلته وقيل منعه أخواله بنوا مخزوم وقالوا له والله ما أحسنت عشرة أمه وقالوا له أرض ربك وافد ابنك ففداه بمائة ناقة وفي رواية وأعظمت قريش ذلك أي وقامت سادة قريش من أنديتها إليه ومنعوه من ذلك وقالوا له والله لا نفعل حتى تستفتي فيه فلانه الكاهنة أي لعلك تعذر فيه إلى ربك لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه أي ويكون سنة ولعل المراد إذا وقع له مثل ما وقع لك من النذر وقال له بعض عظماء قريش لا تفعل إن كان فداؤه بأموالنا فديناه وتلك الكاهنة قيل اسمها قطبة وقيل غير ذلك كانت بخبير فأتها فأسألتها فإن أمرتك بذبحه ذبحته وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته فأتها أي مع بعض قومه وفيهم جماعة من أخوال عبد الله بن مخزوم فأسألتها وقص عليها القصة فقالت ارجعوا عني اليوم حتى يأتي تابعي فأسأله فرجعوا من عندها ثم غدوا عليها فقالت لهم قد جاءني الخبر كم الدية فيكم فقالوا عشرة من الإبل فقال تخرج عشرة من الإبل وتقدح وكلما وقعت عليه يزداد الإبل حتى تخرج القداح عليها فضرب على عشرة فخرجت عليه فما زال يزيد عشرة عشرة حتى بلغت مائة فخرجت القداح عليها فقالت قريش ومن حضره قد انتهى رضا ربك فقال عبد المطلب لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات أي ففعل ذلك وذبح الإبل عند الكعبة لا يصد عنها أحداً أي من آدمي ووحش وطير قال الزهري فكان

عبد المطلب أول من سن دية النفس مائة من الإبل أي بعد أن كانت عشرة كما تقدم وقيل أول من سن ذلك أبو يسار العدواني وقيل عامر بن الظرب فجرت في قريش أي وعلى ذلك فأولية عبد المطلب إضافية ثم فشت في العرب وأقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأول من ودى بالإبل عن العرب زيد بن بكر من هوازن قتله أخوه أي وأما ما قيل إن القدح بعد المائة خرج على عبد الله أيضا ولا زال يخرج عليه حتى جعلوا الإبل ثلاثمائة فخرج على الإبل فنحرها عبد المطلب فضعيف جدا

وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن ابن عباس رضي الله عنهما سألته امرأة أنها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة فأمرها بذبح مائة من الإبل أخذنا من هذه القصة ثم سألت عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما عن ذلك فلم يفتها بشيء فبلغ مروان بن الحكم وكان أميراً على المدينة فأمر المرأة أن تعمل ما استطاعت من خير بدل ذبح ولدها وقال إن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما لم يصيبا الفتيا ولا يخفى أن هذا نذر باطل عندنا معاشر الشافعية فلا يلزمها به شيء

وعند أبي حنيفة ومحمد يلزمها ذبح شاة في أيام النحر في الحرم أخذنا من قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام قال القاضي البيضاوي وليس فيه ما يدل عليه وفي الكشف أنه صلى الله عليه وسلم قال أنا ابن الذبيحين أي عبد الله وإسماعيل وعن بعضهم قال كنا عند معاوية رضي الله تعالى عنه فتذاكر القوم الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحق فقال معاوية على الخبير سقطتم كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه أعرابي أي يشكو جذب أرضه فقال يا رسول الله خلفت البلاد يابسة هلك المال وضاع العيال فعد على مما أفاء الله عليك يا بن الذبيحين فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليه فقال القوم من الذبيحان يا أمير المؤمنين قال عبد الله وإسماعيل قال الحافظ السيوطي هذا حديث غريب وفي إسناده من لا يعرف حاله قال بعضهم لما أحب إبراهيم ولده إسماعيل بطبع البشرية أي لا سيما وهو بكره ووحيدته إذ ذاك وقد أجرى الله العادة البشرية أن يكر الأولاد أحب إلى الوالد أي وخصوصاً إذا كان لا ولد له غيره أمره الله بذبحه ليخلص سره من حب غيره بأبلغ الأسباب الذي هو الذبح للولد فلما امتثل وخلص سره له ورجع عن عادة الطبع

فداه بذبح عظيم أن مقام الخلة يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة فلما خلصت الخلة من شائبة المشاركة لم يبق في الذبح مصلحة فنسخ الأمر وفدى هذا وجاء مما يدل على أن الذبيح إسحق حديث سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي النسب أشرف وفي رواية من أكرم الناس فقال يوسف صديق الله ابن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله عليهم الصلاة والسلام كذا روى قال بعضهم والثابت يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وما زاد على ذلك الراوي وما ذكر أن يعقوب لما بلغه أن ولده بنيامين أخذ بسبب السرقة كتب إلى العزيز وهو يومئذ ولده يوسف بسم الله الرحمن الرحيم من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد فإننا أهل بيت موكل بنا بالبلاء أما جدي فربطت يده ورجلاه ورمى به في النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه بردا وسلاما وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليذبح ففداه الله وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب فذهبت عيناى من بكائي عليه ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به وإنك حبسته وإننا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فإن رددته على وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام لم يثبت ففي كلام القاضي البيضاوي وما روى أن يعقوب كتب ليوسف من يعقوب ابن إسحاق ذبيح الله لم يثبت أي ولعله لم يثبت أيضا ما في أنس الجليل أن موسى لما أراد مفارقة شعيب وذهابه إلى وطنه بمملكة فرعون بسط شعيب يديه وقال يا رب إبراهيم الخليل وإسماعيل الصفي وإسحق الذبيح ويعقوب الكظيم ويوسف الصديق رد على قوتي وبصري فأمن موسى على دعائه فرد الله عليه بصره وقوته وذكر أن يعقوب رأى ملك الموت في منامه فقال له هل قبضت روح يوسف فقال لا والله هو حي وعلمه ما يدعو به وهو يا ذا المعروف الدائم الذي لا ينقطع معرفته أبدا ولا يحصيه غيره فرج عني وذكر أن سبب ذبح إسحق أي على القول بأنه الذبيح أن الخليل قال لسارة إن

جاءني منك ولد فهو لله ذبيح فحاءت سارة بإسحق وكان بينه وبين ولادة هاجر لإسماعيل ثلاث عشرة أو أربع عشرة سنة وإسحق اسمه بالعبرانية الضحاك وجاء في حديث راويه ضعيف الذبيح إسحق وأن داود سأل ربه فقال أي ربي اجعلني مثل آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب فأوحى الله إليه إني أبتليت إبراهيم بالنار فصبر وأبتليت إسحق بالذبح فصبر وأبتليت يعقوب أي بفقد ولده يوسف فصبر الحديث وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى * (وبشرناه بإسحاق نبيا) * قال بشر به نبيا حين فداه الله تعالى من الذبح ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده أي لما صبر الأب على ما أمر به وسلم الولد الأمر الله تعالى جعلت المجازاة على ذلك بإعطاء النبوة قال الحافظ السيوطي وجزم بهذا القول عياض في الشفاء والبيهقي في التعريف والإعلام وكنت ملت إليه في علم التفسير وأنا الآن متوقف عن ذلك أي كون إسحق هو الذبيح هذا كلامه وقد تنبأ كل من إسماعيل وإسحق ويعقوب في حياة إبراهيم عليهم الصلاة والسلام فبعث الله إسماعيل لجرهم وإسحق إلى أرض الشام ويعقوب إلى أرض كنعان ولا ينافي ذلك أي كون إسحق هو الذبيح تبسمه صلى الله عليه وسلم من قول القائل له يا ابن الذبيحين ولم ينكر عليه لأن العرب كما تقدم تسمى العم أبا وفي الهدى إسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم وأما القول بأن إسحق فمردود بأكثر من عشرين وجها ونقل عن الإمام ابن تيمية أن هذا القول متلقى من أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم الذي هو التوراة فإن فيه أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره وفي لفظ وحيد وقد حرفوا ذلك في التوراة التي بأيديهم اذبح ابنك إسحق أي ومن ثم ذكر المعافي بن زكريا أن عمر بن عبد العزيز سأل رجلا أسلم من علماء اليهود أي ابني إبراهيم أمر بذبحه فقال والله يا أمير المؤمنين إن اليهود يعلمون أنه إسماعيل ولكنهم يحسدونكم معشر العرب أن يكون أباكم للفضل الذي ذكره الله تعالى عنه فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق لأن إسحق أبوهم ولى رسالة في ذلك سميتها القول المليح في تعيين الذبيح رجحت فيها القول بأن الذبيح إسماعيل جواب عن سؤال رفعه إلي بعض الفضلاء

وعلى أن الذبيح إسماعيل فمحل الذبح بمنى وعلى أنه إسحق فمحلته معروف بالأرض المقدسة على ميلين من بيت المقدس
وفي كلام ابن القيم تأييد كون الذبيح إسماعيل لا إسحاق ولو كان الذبيح بالشام كما يزعم أهل الكتاب لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة
واستشكل كون أولاد عبد المطلب عند إرادة ذبح عبد الله كانوا عشرة بأن حمزة ثم العباس إنما ولدا بعد ذلك وإنما كانوا عشرة بهما وحينئذ يشكل قول بعضهم فلما تكامل بنوه عشرة وهو الحرث والزبير وحجل وضرار والمقوم وأبو لهب والعباس وحمزة وأبو طالب وعبد الله هذا كلامه
وأجيب عن الأول بأنه يجوز أن يكون له حينئذ أي عند إرادة الذبح ولدا ولد أي فقد ذكر أن لولده الحرث ولدين أبو سفيان ونوفل وولد الولد يقال له ولد حقيقة هذا وذكر بعضهم أن أعمامه صلى الله عليه وسلم كانوا إثني عشر بل قيل ثلاثة عشر وأن عبد الله ثالث عشرهم وعليه فلا إشكال ولا يشكل كون حمزة أصغر من عبد الله والعباس أصغر من حمزة وكلاهما أصغر من عبد الله على ما تقدم من أن عبد الله كان أصغر بني أبيه وقت الذبح لأنه يجوز أن يكون المراد أنه كان أصغرهم حين أراد ذبحه أي لا بقيد كونهم عشرة أو بذلك القيد ولا ينافيه كونه ثالث عشرهم لأن المراد به واحد من الثلاثة عشر وكان عبد الله كما تقدم أحسن فتى يرى في قريش وأجملهم وكان نور النبي صلى الله عليه وسلم يرى في وجهه كالكوكب الدرّي أي المضيء المنسوب إلى الدر حتى شغفت به نساء قريش ولقى منهن غناء ولينظر ما هذا العناء الذي لقيه منهن
قيل إنه لما تزوج آمنة لم تبق امرأة من قريش من بني مخزوم وعبد شمس وعبد مناف إلا مرضت أي أسفا على عدم تزوجها به فخرج مع أبيه ليزوجه آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة بضم الزاي وإسكان الهاء وأما الزهرة التي هي النجم فبضم الزاي وفتح الهاء والزهرة في الأصل هي البياض أي وأم وهب اسمها قبيلة بنت أبي كبشة أي وكان عمر عبد الله حينئذ نحو ثمان عشرة سنة فمر على امرأة من بني أسد ابن عبد العزى أي يقال لها قتيلة وقيل رقية وهي أخت ورقة بن نوفل وهي عند

الكعبة وكانت تسمع من أخيها ورقة أنه كائن في هذه الأمة نبي أي وأن من دلائله أن يكون نورا في وجه أبيه أو أنها ألهمت ذلك فقالت لعبد الله أي وقد رأت نور النبوة في غرته أين تذهب يا عبد الله قال مع أبي قالت لك مثل الإبل التي نحرت عنك وقع على الآن قال أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه و لا فراقه وأنشد

* أما الحرام فالممات دونه

* والحل لآحل فأستبينه

* يحمى الكريم عرضه ودينه

* فكيف بالأمن الذي تبغينه

*

قال وسن شعر عبد الله والده صلى الله عليه وسلم كما في تذكرة الصلاح الصفدي

* لقد حكم البادون في كل بلدة

* بأن لنا فضلا على سادة الأرض

* وأن أبي ذو المجد والسودد الذي

* يشار به ما بين نشز إلى خفض

* أي ارتفاع وإنخفاض

وعن أبي يزيد المدني أن عبد المطلب لما خرج بإبنة عبد الله ليزوجه فمر به على امرأة كاهنة من أهل تبالة بضم التاء المثناة فوق بلدة باليمن وقد قرأت الكتب يقال لها فاطمة بن مر الخثعمية فرأت نور النبوة في وجه عبد الله فقالت له يا فتى هل لك أن تقع على الآن وأعطيك مائة من الإبل فقال عبد الله ما تقدم

أقول قال الكلبي كانت أي تلك الكاهنة من أجمل النساء وأعفهن فدعته إلى نكاحها

فأبى ولا منافاة لأنه جاز أن تكون أرادت بقولها وقع على الآن أي بعد النكاح وفهم

عبد الله أنها تريد الأمر من غير سبق النكاح فأنشد الشعر المتقدم الدال على طهارته

وعفته وهذا بناء على اتحاد الواقعة وأن المرأة في هاتين الواقعتين واحدة وأنه اختلف في

اسمها وأنه مر على تلك المرأة في ذهابه مع أبيه ليزوجه آمنة ويدل لذلك فأتى المرأة

التي عرضت عليه ما عرضت

وظاهر سياق المواهب يقتضى أنهما قضيتان وأن الأولى عند انصرافه مع أبيه ليزوجه

آمنة

وقوله قد قرأت الكتب أي فجاز أنها رأت في تلك الكتب أن النبي صلى الله عليه وسلم

المنتظر يكون نورا في وجه أبيه وأنه يكون من أولاد عبد المطلب أو أنها ألهمت ذلك

فطمعت أن يكون ذلك النبي منها ويؤيد الثاني ما سيأتي عنها والله أعلم

فأتى عبد المطلب عم آمنة وهو وهيب بن عبد مناف بن زهرة وهو يومئذ سيد بني

زهرة نسبا وشرفا وكانت في حجره لموت أبيها وهب بن عبد مناف

وقيل أتى عبد المطلب إلى وهب بن عبد مناف فزوجه ابنته آمنة وقدم هذا في الإستيعاب فزوجها لعبد الله وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا فدخل بها عبد الله حين أملاك عليها مكانه فوقع عليها فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم وانتقل ذلك النور إليها

قيل وقع عليها يوم الاثنين في شعب أبي طالب عند الجمرة الوسطى أقول فيه أنه سيأتي في فتح مكة أنه نزل بالحجون بفتح الحاء المهملة عند شعب أبي طالب بالمكان الذي حصرت فيه بنو هاشم وبنو المطلب ويمكن أن يقال ذلك الشعب الذي كان في الحجون كان محلا لسكن أبي طالب في غير أيام مني وهذا الشعب الذي عند الجمرة الوسطى كان ينزل فيه أبو طالب أيام مني فلا مخالفة والله أعلم

ثم أقام عندها ثلاثة أيام وكانت تلك السنة عندهم إذا دخل الرجل على امرأته أي عند أهلها أي فهي وأهلها كانوا بشعب أبي طالب ثم خرج من عندها فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت فقال لها مالك لا تعرضين على اليوم ما عرضت بالأمس فقالت له فارقك النور الذي كان معك بالأمس فليس لي اليوم بك حاجة قال وفي رواية أنه لما مر عليها بعد أن وقع على آمنة قال لها مالك لا تعرضين على ما عرضت بالأمس قالت من أنت قال أنا فلان قالت له ما أنت هو لقد رأيت بين عينيك نورا ما أراه الآن ما صنعت بعدي فأخبرها فقالت والله ما أنا بصاحبة ريبة ولكن رأيت في وجهك نورا فأردت أن يكون في وأبي الله إلا أن يجعله حيث أراد إذ ذهب فأخبرها أنها حملت بخير أهل الأرض

أقول وفي رواية أن المرأة التي عرضت نفسها عليه هي ليلة العدوية وأن عبد الله كان في بناء له وعليه الطين والغبار وأنه قال حتى أغسل ما على وأرجع إليك وأنه رجع إليها بعد أن وقع على آمنة وانتقل منه النور إليها وقال لها هل لك فيما قلت قالت لا قال ولم قالت لقد دخلت بنور وما خرجت به

أي وفي سيرة ابن هشام مررت بي وبين عينيك غرة فدعوتك فأبيت ودخلت على آمنة فذهبت بها ولئن كنت أي وحيث كنت ألممت بآمنة لتلدن ملكا

ولا يخفى أن تعدد الواقعة ممكن وأن هذا السياق يدل على أن هذه المرأة كان عندها علم بأن عبد الله تزوج آمنة وأنه يريد الدخول بها وأنها علمت أنه كائن نبي يكون له الملك والسلطان وغير خاف أن عرض عبد الله نفسه على المرأة لم يكن لريبة بل ليستبين الأمر الذي دعاها إلى بذلك القدر الكثير من الإبل في مقابلة هذا الشيء على خلاف عادة النساء مع الرجال ولا يخالف ذلك بل يؤكد ما في الوفاء من قوله ثم تذكر الخثعمية وجمالها وما عرضت عليه فأقبل إليها الحديث والله أعلم وعن الكلبي أنه قال كتبت للنبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة أم أي من قبل أمه وأبيه فما وجدت فيهن سفاحا والمراد بالسفاح الزنا أي فإن المرأة كانت تسافح الرجل مدة ثم يتزوجها إن أراد ولا شيئا مما كان من أمر الجاهلية أي من نكاح الأم أي زوجة الأب لأنه كان في الجاهلية يباح إذا مات الرجل أن يخلفه على زوجته أكبر أولاده من غيرها وفي كلام بعضهم كان أقبح ما يصنعه أهل الجاهلية الجمع بين الأختين وكانوا يعيرون المتزوج بإمارة الأب ويسمون الضيزن والضيزن الذي يزاحم أباه في امرأته ويقال له نكاح المقت وهو العقد على الرابة وهي امرأة الأب والراب زوج الأم وما قيل إن هذا أي نكاح امرأة الأب وقع في نسبه صلى الله عليه وسلم لأن خزيمة أحد آبائه صلى الله عليه وسلم لما مات خلف على زوجته أكبر أولاده وهو كنانة فجاء منها بالنضر فهو قول ساقط غلط لأن الذي خلف عليها كنانة بعد موت أبيه ماتت ولم تلد منه ومنشأ الغلط أنه تزوج بعدها بنت أخيها وكان اسمها موافقا لإسمها فجاء منها بالنضر

وبهذا يعلم أن قول الإمام السهيلي نكاح زوجة الأب كان مباحا في الجاهلية بشرع متقدم ولم يكن من المحرمات التي انتهكوها ولا من العظائم التي ابتدعوها لأنه أمر كان في عمود نسبه صلى الله عليه وسلم فكنانة تزوج امرأة أبيه خزيمة وهي برة بنت مرة فولدت له النضر بن كنانة

وهاشم أيضا قد تزوج امرأة أبيه واقدة فولدت له ضعيفة ولكن هذا خارج من عمود نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها أي واقدة لم تلد جدا له صلى الله عليه وسلم وقد قال صلى الله عليه وسلم أنا من نكاح لامن سفاح ولذلك قال الله تعالى

* (ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء إلا ما قد سلف) * أي إلا ما قد سلف من تحليل ذلك قبل الإسلام

وفائدة هذا الاستثناء أن لا يعاب نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وليعلم أنه لم يكن في أجداده صلى الله عليه وسلم من كان من بغية ولا من سفاح ألا ترى أنه لم يقل في شيء نهى عنه في القرآن أي مما لم يبيح لهم إلا ما قد سلف نحو قوله تعالى * (ولا تقربوا الزنى) * ولم يقل إلا ما قد سلف * (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله) * ولم يقل إلا ما قد سلف ولا في شيء من المعاصي التي نهى عنها إلا في هذه وفي الجمع بين الأختين لأن الجمع بين الأختين قد كان مباحا أيضا في شرع من كان قبلنا وقد جمع يعقوب عليه السلام بين راحيل وأختها ليا فقوله إلا ما قد سلف التفات هذا المعنى هذا كلامه فلا التفات إليه ولا معول عليه على أن قوله إن يعقوب جمع بين الأختين ينازعه قول القاضي البيضاوي إن يعقوب عليه السلام إنما تزوج ليا بعد موت أختها راحيل

وفي أسباب النزول للواحد أن في البخاري عن أسباط قال المفسرون كان أهل المدينة في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها فألقى ثوبه على تلك المرأة وصار أحق بها من نفسها ومن غيرها فإن شاء أن يتزوجها تزوجها من غير صداق إلا الصداق الذي أصدقها الميت وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئا وإن شاء عضلها وضارها لتفتدى منه فمات بعض الأنصار فجاء ولد من غيرها وطرح ثوبه عليها ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها ليضارها لتفتدى منه فأنت تلك المرأة وشكت حالها للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى الآية * (ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء) * الآية

وقيل توفي أبو قيس فخطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت إني أعذك ولدا ولكني آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمره فأنته فأخبرته فأنزل الله تعالى الآية وعن البراء بن عازب رضي الله عنه لقيت خالي يعنى أبا الدرداء رضي الله تعالى عنه ومعه الراية فقلت أي تريد قال أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل تزوج امرأة أبيه أن أضرب عنقه زاد في رواية أحمد وأخذ ماله

وذكر بعضهم أن في الجاهلية كان إذا أراد الشخص أن يتزوج أن يقول خطب ويقول
أهل الزوجة نكح ويكون ذلك قائما مقام الإيجاب والقبول
ومن نكاح الجاهلية الجمع بين الأختين فإنه كان مباحا عندهم أي مع استباحهم له
كما تقدم

وذكر بعضهم أن قبل نزول التوراة كان يجوز الجمع بين الأختين أي ثم حرم ذلك
بنزولها قال وقد افتخر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجدهاته أي تحدث بنعمة ربه
قاصدا به التنبيه على شرف هؤلاء النسوة وفضلهن على غيرهن فقال أنا ابن العواتك
والفواطم

فعن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أجرى فرسه مع أبي أيوب الأنصاري
فسبقته فرس المصطفى فقال صلى الله عليه وسلم أنا ابن العواتك إنه لهو الجواد البحر
يعنى فرسه

وقال صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته أي في غزوة حنين وفي غزوة أحد أنا النبي
لا كذب أنا ابن عبد المطلب أنا ابن العواتك وجاء أنا ابن العواتك من سليم والعاتكة
في الأصل المتلخصة بالطيب أو الطاهرة

وعن بعض الطالبين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في يوم أحد أنا ابن الفواطم
أي ولا ينافيه ما سبق أنه قال في ذلك اليوم أنا ابن العواتك لأنه يجوز أن يكون قال
كلا من الكلمتين في ذلك اليوم

واختلف الناس في عدد العواتك من جداته صلى الله عليه وسلم فمن أكثر ومن أقل
وقد نقل الحافظ ابن عساكر أن العواتك من جداته صلى الله عليه وسلم أربع عشرة
وقيل إحدى عشرة أي وأولهن أم لؤي بن غالب واللواتي من بني سليم منهن عاتكة
بنت هلال أم عبد مناف وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال أم هاشم وعاتكة بنت
مرة بن هلال أم أبي أمه وهب أي وقيل أراد بالعواتك من سليم ثلاثة من بني سليم
أبكارا أرضعنه كما سيأتي في قصة الرضاع وكل واحدة منهن تسمى عاتكة قال وعن
سعد أن الفواطم من جداته عشرة

أقول وقيل خمس وقيل ست وقيل ثمان ولم أقف على من اسمه فاطمة من

جداته من جهة أبيه إلا على اثنين فاطمة أم عبد الله وفاطمة أم قصي إلا أن يكون صلى الله عليه وسلم لم يرد الأمهات التي في عمود نسبه صلى الله عليه وسلم بل أراد الأعم حتى يشمل فاطمة أم أسد بن هاشم وفاطمة بنت أسد التي هي أم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وفاطمة أمها وهؤلاء الفواطم غير الثلاث الفواطم اللاتي قال صلى الله عليه وسلم فيهن لعلى وقد دفع إليه ثوبا حريرا وقال له أقسم هذا بين الفواطم الثلاث فإن هؤلاء فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاطمة بنت حمزة وفاطمة بنت أسد

ثم رأيت بعضهم عد فيهن أم عمرو بن عائذ وفاطمة بنت عبد الله بن رزام وأمها فاطمة بنت الحارث وفاطمة بنت نصر بن عوف أم أم عبد مناف والله أعلم وعن عائشة وابن عباس رضي الله تعالى عنهم وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خرجت من نكاح غير سفاح أي زنا فقد تقدم أن المرأة كانت تسافح الرجل مدة ثم يتزوجها إن أراد فكانت العرب تستحل الزنا إلا أن الشريف منهم كان يتورع عنه علانية وإلا بعض أفراد منهم حرمه على نفسه في الجاهلية أي وفي حديث غريب خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلا أن ولدني أبي وأمي ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء ما ولدني إلا نكاح الإسلام

قال وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ولدني بغي قط منذ خرجت من صلب آدم ولم تزل تتنازعني الأمم كإبراهيم عن كابر حتى خرجت من أفضل حيين من العرب هاشم وزهرة

أقول والبغايا كن في الجاهلية ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون به شبهه فالتاط أي تعلق والتحق به ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك والله أعلم

قال وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد جاءكم رسول من أنفسكم بفتح الفاء وقال أنا أنفسكم نسبا وصهرا وحسبا ليس في آبائي من لدن آدم سفاح كلها نكاح وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما كنكاح الإسلام أي يخطب الرجل إلى الرجل موليته فيصدقها ثم يعقد عليها

وعن الإمام السبكي الأنكحة التي في نسبه صلى الله عليه وسلم منه إلى آدم كلها مستجمعة شروط الصحة كأنكحة الإسلام ولم يقع في نسبه صلى الله عليه وسلم منه إلى آدم إلا نكاح صحيح مستجمع لشرائط الصحة كنكاح الإسلام الموجود اليوم قال فاعتقد هذا بقلبك وتمسك به ولا تزل عنه فتخسر الدنيا والآخرة

قال بعضهم وهذا من أعظم العناية به صلى الله عليه وسلم أن أجرى الله سبحانه وتعالى نكاح آباءه من آدم إلى أن أخرجه من بين أبويه على نمط واحد وفق شريعته صلى الله عليه وسلم ولم يكن كما كان يقع في الجاهلية إذا أراد الرجل أن يتزوج قال خطب وتقول أهل الزوجة نكح كما تقدم ويكون ذلك قائما مقام الإيجاب والقبول والمراد بنكاح الإسلام ما يفيد الحل حتى يشمل التسري بناء على أن أم إسماعيل كانت مملوكة لإبراهيم حين حملت بإسماعيل ولم يعتقها ولم يعقد عليها قبل ذلك وعن عائشة رضي الله تعالى عنها كما في البخاري إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء نكاح النكاح الناس اليوم أي بإيجاب وقبول شرعيين دون أن يقول الزوج خطب ويقول أهل الزوجة نكح وحينئذ يزيد على ذلك النكاح الذي كان يقال فيه ذلك ونكاح البغايا ونكاح الإستبضاع ونكاح الجمع أي ومن أنكحة الجاهلية نكاح زوجة الأب لأب أكبر أولاده والجمع بين الأختين على ما تقدم وحينئذ يكون المراد ليس في نسبه صلى الله عليه وسلم نكاح زوجة الأب خلافا لما تقدم عن السهيلي ولا الجمع بين الأختين ولا نكاح البغايا وهو أن يوطأ البغي جماعة متفرقين واحدا بعد واحد فإذا حملت وولدت ألحق الولد بمن غلب عليه شبهه منهم ولا الإستبضاع وذلك أن المرأة كانت في الجاهلية إذا طهرت من حيضها يقول لها زوجها أرسلني إلى فلان استبعضني منه ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبعض منه فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب وليس فيه نكاح الجمع وهو أن تجتمع جماعة دون العشرة ويدخلون على امرأة من البغايا ذوات الرايات كلهم يطؤها فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان تسمى من أحببت منهم فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل إن لم يغلب شبهه عليه

فنكاح البغايا قسمان وحينئذ يحتمل أن تكون أم عمرو بن العاص رضي الله عنه من القسم الثاني من نكاح البغايا فإنه يقال إنه وطئها أربعة وهم العاص وأبو لهب وأميمة بن خلف وأبو سفيان بن حرب وادعى كلهم عمرا فألحقته بالعاص وقيل لها لم اخترت العاص قالت لأنه كان ينفق على بناتي ويحتمل أن يكون من القسم الأول ويدل على ما قيل إنه ألحق بالعاص لغلبة شبهه عليه وكان عمرو يعير بذلك غيره بذلك علي وعثمان والحسن وعمار بن يسار وغيرهم من الصحابة رضي تعالى عنهم وسيأتي ذلك في قصة قتل عثمان عند الكلام على بناء مسجد المدينة

قال وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات أي وفي رواية لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسبية إلى الأرحام الطاهرة وروى البخاري بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت في القرن الذي كنت فيه وقد تقدم في قوله تعالى * (وتقلبك في الساجدين) * قيل من ساجد إلى ساجد وتقدم ما فيه ومن جملة قول أبي حيان إن ذلك استدل به بعض الرافضة على أن آباء النبي صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين أي متمسكين بشرائع أنبيائهم ثم رأيت الحافظ السيوطي قال الذي تلخص أن أجداده صلى الله عليه وسلم من آدم إلى مرة بن كعب مصرح بإيمانهم أي في الأحاديث وأقوال السلف وبقي بين مرة وعبد المطلب أربعة أجداد لم أظفر فيه بنقل وعبد المطلب سيأتي الكلام فيه وقد ذكر في عبد المطلب ثلاثة أقوال أحدها وهو الأشبه أنه لم تبلغه الدعوة أي لأنه سيأتي أنه مات وسنه صلى الله عليه وسلم ثمان سنين

والثاني أنه كان على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أي لم يعبد الأصنام والثالث أن الله تعالى أحياه له بعد البعثة حتى آمن به ثم مات وهذا أضعف الأقوال وأوهاها لم يرد قط في حديث ضعيف ولا غيره ولم يقل به أحد من أئمة السنة وإنما حكى عن بعض الشيعة

قال بعضهم وقوله صلى الله عليه وسلم من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات دليل على أن آباء النبي صلى الله عليه وسلم وأمهاته إلى آدم وحواء ليس فيهم كافر لأن

الكافر لا يوصف بأنه طاهر وفيه أن الطاهرية فيه يجوز أن يكون المراد بها ما قابل أنكحة الجاهلية المتقدمة وقد أشار إلى إسلام آباءه وأمهاته صاحب الهمزية بقوله

* لم تنزل في ضمائر الكون تختا

* ر لك الأمهات والآباء

* أي لأن الكافر لا يقال إنه مختار الله

والسبب الذي دعا عبد المطلب لاختيار بني زهرة ما حدث به ولده العباس رضي الله تعالى عنه قال قال عبد المطلب قدمنا اليمن في رحلة الشتاء فنزلنا على حبر من اليهود يقرأ الزبور أي الكتاب ولعل المراد به التوراة فقال من الرجل قلت من قريش قال من أيهم قلت من بني هاشم قال أتأذن لي أن أنظر بعضك قلت نعم ما لم يكن عورة قال ففتح إحدى منخري فنظر فيه ثم نظر في الأخرى فقال أنا أشهد أن في إحدى يديك وهو مراد الأصل بقوله في منخريك ملكا وفي الأخرى نبوة وإنما نجد ذلك أي كلا من الملك والنبوة في بني زهرة فكيف ذاك قلت لا أدري قال هل لك من شاعة قلت وما الشاعة قال الزوجة أي إنها تشايح أي تتابع وتناصر زوجها قلت أما اليوم فلا أي ليست لي زوجة من بني زهرة إن كان معه غيرها أو مطلقا إن لم يكن معه غيرها فقال إذا تزوجت فتزوج منهم أي وهذا الذي ينظر في الأعضاء وفي خيلان الوجه فيحكم على صاحبها بطريق الفراسة يقال له حزاء بالمهملة وتشديد الزاي آخره همزة منونة وقد ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني عن شيخه سيدي علي الخواص نفعنا الله تعالى ببركاتهما أنه كان إذا نظر لأنف إنسان يعرف جميع زلاته السابقة واللاحقة إلى أن يموت على التعيين من صحة فراسته هذا كلامه

أي ومن ذلك أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما تزوج امرأة ولم يدخل بها فقال لزوجته ميسون أم ابنه يزيد اذهبي فانظري إليها فأتتها فنظرت إليها ثم رجعت إليه وقالت هي بديعة الحسن والجمال ما رأيت مثلها لكن رأيت خالا أسود تحت سرتها وذلك يدل على أن رأس زوجها يقطع ويوضع في حجرها فطلقها معاوية رضي الله تعالى عنه ثم تزوجها النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه وكان واليا على حمص فدعا لابن الزبير وترك مروان ثم خاف من أهل حمص لما تبعوا مروان ففر هاربا فتبعه جماعة منها فقطعوا رأسه ووضعوها في حجر تلك المرأة ثم بعثوا بتلك الرأس

إلى مروان وقتل النعمان هذا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم لأن أمه لما ولدته وكان أول مولود ولد للأنصار بعد الهجرة على ما سيأتي حملته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بتمرة فمضغها ثم وضعها في فيه فحنكه بها فقالت يا رسول الله ادع الله تعالى أن يكثر ماله وولده فقال اما ترضين أن يعيش حميدا ويقتل شهيدا ويدخل الجنة وهو الذي أشار على يزيد بن معاوية بإكرام آل البيت لما قتل الحسين ممن كان مع الحسين من أولاده وأولاد أخيه وأقاربه وقال له عاملهم بما كان يعاملهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رأيهم على هذه الحالة فرق لهم يزيد وأكرمهم وردة معهم وأمره بإكرامهم على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى ومما يروى عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن للشيطان مصالي وفخوخا وإن مصاليه وفخوخه البطر بنعم الله والفخر بعطاء الله والتكبر على عباد الله واتباع الهوى في غير ذات الله وقد ذكر أن حمص نزل بها تسعمائة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم سبعون بدريا

وفي حياة الحيوان أن حمص لا تعيش بها العقارب وإذا طرحت فيها عقرب غريبة ماتت لوقتها قيل لطلسم بها

وفي حديث ضعيف أن حمص من مدن الجنة وقيل الحزاء هو الكاهن وقيل هو الذي يحزر الأشياء ويقدرها بظنه ويقال للذي ينظر في النجوم فإنه ينظر فيها بظنه فربما أخطأ أي لأن من علوم العرب الكهانة والعيافة والقيافة والزجر والخط أي الرمل والطب ومعرفة الأنواء ومهاب الرياح

فلما رجع عبد المطلب إلى مكة تزوج هالة بنت وهيب بن عبد مناف فولدت له حمزة وصفية وزوج ابنه عبد الله آمنة بنت وهب أخي وهيب فولدت له رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم فكانت قريش تقول فلج عبد الله على أبيه أي فاز وظفر لأن الفلج الفاء واللام المفتوحتين والجيم الفوز والظفر أي فاز وظفر بما لم ينله أبوه من وجود هذا المولود العظيم الذي وجد عند ولادته ما لم يوجد عند ولادة غيره

أي وفي كلام ابن المحدث أن عبد المطلب خطب هالة بنت وهيب عم آمنة في مجلس خطبة عبد الله لآمنة وتزوجا وأولما ثم ابنتيا بهما ثم رأيت في أسد الغابة ما يوافقه

وهو أن عبد المطلب تزوج هو وعبد الله في مجلس واحد قيل وفيه تصريح بأن عبد الله كان موجودا حين قال الحبر لعبدالمطلب إن النبوة موجودة فيه وكيف تكون موجودة فيه مع انتقالها لعبد الله وقد يقال من أين أن عبد المطلب تزوج هالة عقب مجيئه من عند الحبر حتى يكون قول الحبر لعبدالمطلب صادرا بعد وجود عبد الله جاز أن يكون ذلك صدر من الحبر لعبدالمطلب قبل ولادة عبد الله وفيه أن هذا لا يحسن إلا لو كانت أم عبد الله من بني زهرة إلا أن يقال يجوز أن يكون عبد الله وجد من بني زهرة لجواز أن يكون عبد المطلب تزوج من بني زهرة غير هالة فأولدها عبد الله ثم إن قول الحبر لعبد المطلب إنه يجد في إحدى يديه الملك وإنه يكون في بني زهرة مشكل أيضا لأن الملك لم يكون إلا في أولاد ولده العباس ولا يستقيم إلا لو كان أم العباس من بني زهرة أما هالة التي هي أم حمزة أو غيرها وأم العباس ليست من بني زهرة خلافا لما وقع في كلام بعضهم أن العباس ولدته هالة فهو شقيق حمزة لأنه خلاف ما اشتهر عن الحفاظ إلا أن يقال جاز أن يكون الملك والنبوة اللذان عناهما الحبر هما نبوته وملكه صلى الله عليه وسلم لأنه صلى الله عليه وسلم أعطيهما أي كلا من الملك والنبوة المنتقلين إليه من أبيه عبد الله بناء على أن أم عبد الله من بني زهرة ولعله لا ينافيه قول بعضهم تزوج عبد المطلب فاطمة بنت عمرو وجعل مهرها مائة ناقة ومائة رطل من الذهب فولدت له أبا طالب وعبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم لأنه يجوز أن تكون فاطمة هذه من بني زهرة وحينئذ لا يشكل قول الحبر إذا تزوجت فتزوج منهم أي من بني زهرة بعد قوله ألك شاعة

وقيل الذي دعا عبد المطلب لاختيار آمنة من بني زهرة لولده عبد الله أن سودة بنت زهرة الكاهنة وهي عممة وهب والد آمنة أمه صلى الله عليه وسلم كان من أمرها أنها لما ولدت رآها أبوها زرقاء شيماء أي سوداء وكانوا يثدون من البنات من كانت على هذه الصفة أي يدفونها حية ويمسكون من لم يكن على هذه الصفة مع ذل وكآبة أي لأنه سيأتي أن الجاهلية كانوا يدفنون البنات وهن أحياء خصوصا كندة قبيلة من العرب خوف العار أو خوف الفقر والإملاق

وكان عمرو بن نفيل يحيى المؤودة لأجل الإملاق يقول للرجل إذا أراد أن يفعل ذلك لا تفعل أنا أكفيك مئونها فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مئونها

وكان صعصعة جد الفرزدق يفعل مثل ذلك فأمر أبوها بوأدها وأرسلها إلى الحجون لتدفن هناك فلما حفر لها الحافر وأراد دفنها سمع هاتفًا يقول لا تند الصبية وخلها في البرية فالتفت فلم ير شيئًا فعاد لدفنها فسمع الهاتف يسجع بسجع آخر في المعنى فرجع إلى أبيها وأخبره بما سمع فقال إن لها لشأنًا وتركها فكانت كاهنة قريش فقالت يوما لبني زهرة فيكم نذيرة أو تلد نذيرا فاعرضوا على بناتكن فعرضن عليها فقالت في كل واحدة منهن قولًا ظهر بعد حين حتى عرضت عليها آمنة بنت وهب فقالت هذه النذيرة أو تلد نذيرا له شأن وبرهان منير أي فاختيار عبد المطلب لآمنة من بني زهرة عبد الله واضح من سياق قصة هذه الكاهنة

وأما اختياره لتزوجه بعض نساء بني زهرة فسببه ما تقدم عن الحبر بناء على أن أم عبد الله كانت من بني زهرة وأما جعل الشمس الشامي ما تقدم عن الحبر سببا لتزويج عبد المطلب ابنه عبد الله امرأة من بني زهرة ففيه نظر ظاهر إذا كيف يتأتى ذلك مع قوله إذا تزوجت فتزوج منهم بعد قوله ألك شاعة أي زوجة

ثم رأيت ابن دحية رحمه الله تعالى ذكر في التنوير عن البرقي أن سبب تزويج عبد الله آمنة أن عبد المطلب كان يأتي اليمن وكان ينزل فيها على عظيم من عظمائهم فنزل عنده مرة فإذا عنده رجل ممن قرأ الكتب فقال له ائذن لي أن أفتش منخرك فقال دونك فانظر فقال أرى نبوة وملكًا وأراهما في المنافين عبد مناف بن قصي وعبد مناف بن زهرة فلما انصرف عبد المطلب انطلق بإبنة عبد الله فتزوج عبد المطلب هالة بنت وهيب فولدت له حمزة وزوج ابنه عبد الله آمنة فولدت له رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا واضح لأنه أسقط قول الحبر لعبد المطلب هل لك من شاعة إلى آخره فاحتاط عبد المطلب فتزوج من بني زهرة وزوج ولده عبد الله منهم وحينئذ كان المناسب للبرقي رحمه الله أن يزيد بعد قوله إن سبب تزويج عبد الله آمنة قوله وتزوج عبد المطلب هالة

باب ذكر حمل أمه به صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين
عن الزهري رحمه الله تعالى قال قالت آمنة لقد علقت به صلى الله عليه وسلم فما
وجدت له مشقة حتى وضعته وعنهما أنها كانت تقول ما شعرت بفتح أوله وثانيه أي ما
علمت بأني حملت به ولا وجدت له ثقلا بفتح القاف كما تجد النساء إلا أنني أنكرت
رفع حيضتي بكسر الحاء الهيئة التي تلزمها الحائض من التجنب وأما بالفتح فالمرة
الواحدة من دفعات الحيض أي والذي ينبغي أن يكون الثاني هو المراد وأستعملت المرة
في مطلق الدم الذي تراه الحائض وربما يؤيده أن هذا هو المراد أن بعضهم نقل أن
الحيضة بالكسر اسم للحيض قالت وربما ترفعني وتعود أي فلم يكن رفعها دليلا على
الحمل أي وهذا ربما يفيد أن حيضها تكرر قبل حملها به صلى الله عليه وسلم ولم
أقف على مقدار تكرره

وقد ذكر أن مريم عليها السلام حاضت قبل حملها بعيسى عليه الصلاة والسلام
حيضتين قالت آمنة وأتاني آت أي من الملائكة وأنا بين النائمة واليقظانة وفي رواية بين
النائم أي الشخص النائم واليقظان فقال هل شعرت بأنك قد حملت بسيد هذه الأمة
ونبيها أي وفي رواية بسيد الأنام أي اعلمي ذلك وأمهلني حتى دنت ولادتي أتاني فقال
قولي أي إذا ولدته أعيده بالواحد من شر كل حاسد

أي ثم سمي محمدًا فإن اسمه في التوراة والإنجيل أحمد يحمده أهل السماء وأهل
الأرض وفي القرآن محمد أي والقرآن كتابه وسيأتي عن محمد الباقر رضي الله تعالى
عنه أن تسميه أحمد قال بعضهم ويذكر بعد هذا البيت أبيات لا أصل لها وإذا ثبت أنها
قالت له ذلك بعد ولادته كان دليلا لما يقوله بعض الناس أن آمنة رقت النبي صلى الله
عليه وسلم من العين

أقول ظاهر هذا السياق أنها لم تعلم بحملها إلا من قول الملك لأنها لم تجد ما تستدل
به على ذلك لأنها لم تجد ثقلا وعادتها أن حيضها ربما عاد بعد عدم وجوده في زمنه
المعتاد لها أي ولم تعول على مفارقة النور لعبد الله وانتقال النور إلى وجهها على ما
ذكر

بعضهم ففي كلام هذا البعض لما فارق النور وجه عبد الله انتقل إلى وجه آمنة ولا على خروج النور منها مناما أو يقظة بناء على أنه غير الحمل على ما يأتي لخفاء دلالة ما ذكر على ذلك ولعل أباه صلى الله عليه وسلم عبد الله لم يبلغها قول المرأة التي عرضت نفسها عليه اذهب فأخبرها أنها حملت بخير أهل الأرض والثقل في ابتداء الحمل الذي حمل عليه بعض الروايات كما سيأتي يجوز أن يكون بعد إخبار الملك لها لكن في المواهب في رواية عن كعب رضي الله تعالى عنه أن مجيء الملك لها كان بعد أن مضى من حملها ستة أشهر فليتأمل فإن الستة أشهر لا يقال إنها ابتداء الحمل

ونص الرواية كانت آمنة تحدث وتقول أتاني آت حين مر بي من حملى ستة أشهر في المنام وقال لي يا آمنة إنك حملت بخير العالمين فإذا ولدته فسيمه محمدا وأكتمى شأنك إلا أن يقال يجوز تعدد الملك أو تكرر مجيء الملك لها فليتأمل والله أعلم وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان من دلالة حمل آمنة برسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل دابة لقريش نطقت تلك الليلة أي التي حمل فيها أي في اليوم قبلها برسول الله صلى الله عليه وسلم أي بناء على ما هو ظاهر مما تقدم أنه حين وقع عليها انتقل إليها ذلك النور وقالت حمل برسول الله صلى الله عليه وسلم ورب الكعبة ولم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوسا أي ومثل هذا لا يقال من قبل الرأي أقول دلالة الأول على مطلق الحمل به صلى الله عليه وسلم لا على خصوص حمل آمنة به صلى الله عليه وسلم حينئذ واضحة

وأما دلالة الثاني عليه فقد يتوقف فيها إلا أن يقال إن ذلك كان من علامة الحمل به في الكتب القديمة مع أن المدعى في كلام ابن عباس رضي الله عنهما إنما هو خصوص حمل آمنة به على أن السياق يدل على أن المراد علم أمه بحملها به والله أعلم وعن كعب الأخبار رضي الله تعالى عنه أن في صبيحة تلك الليلة أصبحت أصنام الدنيا منكوسة أي ولعل ذلك كان من علامة حمل أمه به في الكتب القديمة وقول الصادق لا يتخلف وسيأتي أن عند ولادته أيضا تنكست الأصنام ولا مانع من التعدد قال وروى الحاكم وصححه أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا

يا رسول الله أخبرنا عن نفسك فقال أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخي عيسى ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور وفي لفظ سراج وفي لفظ شهاب أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام قال الحافظ العراقي وسيأتي أنها رأت النور خرج منها عند الولادة وهو أولى لكون طرقه متصلة ويجوز أن يكون خرج منها النور مرتين مرة حين حملت به ومرة حين وضعته أي وكلاهما يقظة ولا مانع من ذلك أو هذه أي رؤية النور حين حملت به كانت مناما كما تصرح به الرواية الآتية وتلك يقظة فلا تعارض بين الحديثين

أقول الرواية الآتية هي رواية شداد بن أوس ولفظها أنها رأت في المنام أن الذي في بطنها خرج نورا أي وهي تفيد أن ذلك النور هو نفس حملها فهو بعد تحقق الحمل ووجوده والرواية التي هنا تفيد أن النور غيره وأنه كان وقت ابتداء وجود الحمل فلا يضح حمل إحداهما على الأخرى إلا أن يقال المراد بحين حملت زمن حملها وأن النور كان هو ذلك الحمل لكن الذي ينبغي أن تكون رواية شداد التي حملت عليها الرواية الأولى حاصلة قبيل الولادة فتكون رأت النور عند الولادة مناما ويقظة تأنيسا لها على أنه يجوز إبقاء الروايات الثلاث على ظاهرها وأنها رأت مناما أنها خرج منها نور عند ابتداء الحمل ثم رأت كذلك عند قرب ولادتها أن الذي في بطنها خرج نورا ثم رأت يقظة عند وضعه خروج النور وسيأتي في رواية عن أمه أنها قالت لما وضعته خرج معه نور وهي لا تخالف هذا الرواية الثالثة حتى تكون الرابعة فبصرى أول بقعة من الشام خلص إليها نور النبوة

وعلى أنه مرتين ناسب قدومه صلى الله عليه وسلم لها مرتين مرة مع عمه أبي طالب ومرة مع ميسرة غلام خديجة رضي الله تعالى عنها كما سيأتي وبها مبرك الناقة التي يقال إن ناقته صلى الله عليه وسلم بركت فيه فأثر ذلك فيه وبنى على ذلك المحل المسجد ولهذا كانت أول مدينة فتحت من أرض الشام في الإسلام وكان فتحها صلحا في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه على يد خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه وبها قبر سعد بن عبادة وهي من أرض حوران والله أعلم ووقع الاختلاف في مدة حملة صلى الله عليه وسلم فعن ابن عايد أي بالياء المثناة

تحت والذال المعجمة أنه صلى الله عليه وسلم بقي في بطن أمه تسعة أشهر كاملاً لا تشكو وجعا ولا مغصاً ولا ريحاً ولا ما يعرض لذوات الحمل من النساء أي وقد ولد عند وجود المشترى وهو كوكب نير سعيد فقد كانت ولادته صلى الله عليه وسلم عند وجود السعد الأكبر والنجم الأنور وكانت أمه صلى الله عليه وسلم تقول ما رأيت من حمل هو أخف منه ولا أعظم بركة منه

وروى ابن حبان رحمه الله عن حليلة رضي الله تعالى عنها عن أم النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت إن لابني هذا شأنًا إني حملت به فلم أجد حملاً قط كان أخف على ولا أعظم منه بركة وقيل بقي عشرة أشهر وقيل ستة أشهر وقيل بسبعة أشهر وقيل ثمانية أشهر أي ويكون ذلك آية كما أن عيسى عليه السلام ولد في الشهر الثامن كما قيل به مع نص الحكماء والمنجمين على أن من يولد في الشهر الثامن لا يعيش بخلاف التاسع والسابع والسادس الذي هو أقل مدة الحمل أي فقد قال الحكماء في بيان سبب ذلك إن الولد عند إستكمال سبعة أشهر يتحرك للخروج حركة عنيفة أقوى من حركته في الشهر السادس فإن خرج عاش وإن لم يخرج استراح في البطن عقب تلك الحركة المضعفة له فلا يتحرك في الشهر الثامن ولذلك تقل حركته في البطن في ذلك الشهر فإذا تحرك للخروج وخرج فقد ضعف غاية الضعف فلا يعيش لإستيلاء حركتين مضعفتين له مع ضعفه

وفي كلام الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله تعالى لم أر للثمانية صورة نجوم المنازل ولهذا كان المولود إذا ولد في الشهر الثامن يموت ولا يعيش وعلى فرض أن يعيش يكون معلولاً لا ينتفع بنفسه وذلك لأن الشهر الثامن يغلب فيه على الجنين البرد واليبس وهو طبع الموت أي وقيل بل كان حمله ووضع في ساعة واحدة وقيل في ثلاث ساعات أي وقيل بذلك في عيسى عليه السلام أي وكانت تلك السنة التي حمل فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم يقال لها سنة الفتح والابتهاج فإن قريشا كانت قبل ذلك في جذب وضيق عظيم فاحضرت الأرض وحملت الأشجار وأتاهم الرغد من كل جانب في تلك السنة وفي حديث مطعون فيه قد أذن الله تلك السنة لنساء الدنيا أن يحملن ذكورا كرامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي ولم أقف على ما يجري على السنة المداح من أنه صلى الله عليه وسلم كان يذكر الله في بطن أمه كما نقل عن عيسى عليه السلام

أنه كان يكلم أمه إذا خلت عن الناس ويسبح الله ويذكره إذا كانت مع الناس وهي تسمع وعن شداد بن أوس رضي الله تعالى عنه قال بينا نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل شيخ كبير من بني عامر هو مدرة قومه أي المقدم فيهم يتوكأ على عصا فمثل بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ونسبه إلى جده فقال يا ابن عبد المطلب إني أنبت أنك تزعم أنك رسول الله إلى الناس أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء إلا أنك فهت بعظيم وإنما كان الأنبياء والخلفاء أي معظمهم في بيتين من بني إسرائيل وأنت ممن يعبد هذه الحجارة والأوثان فمالك وللنبوة ولكن لكل حق حقيقة فأنبئني بحقيقة قولك وبدء شأنك قال فأعجب النبي صلى الله

عليه وسلم بمسألته ثم قال يا أخا بني عامر إن لهذا الحديث الذي سألتني عنه نبأ ومجلسا فاجلس فثنى رجليله ثم برك كما يبرك البعير فأستقبله النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث فقال يا أخا بني عامر إن حقيقة قولتي وبدء شأنني أنني دعوة أبي إبراهيم عليه السلام أي حيث قال * (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) * أي وعند ذلك قيل له قد استجيب لك وهو كائن في آخر الزمان كذا في تفسير ابن جرير قال في ينبوع الحياة أجمعوا على أن الرسول المذكور ههنا هو محمد صلى الله عليه وسلم

أقول وفيه أن جبريل عليه السلام أعلم إبراهيم عليه السلام قبل ذلك بأنه يوجد نبي من العرب من ذرية ولده إسماعيل فقد جاء أن إبراهيم لما أمر بإخراج هاجر أم ولده إسماعيل عليه السلام حمل هو وهي وولدها على البراق فلما أتى مكة قال له جبريل أنزل فقال حيث لا زرع ولا ضرع قال نعم ههنا يخرج النبي الأمي من ذرية ولدك يعني إسماعيل عليه السلام الذي تتم به الكلمة العليا إلا أن يقال الغرض من دعائه صلى الله عليه وسلم بذلك تحقيق حصوله وتقدم أن أم إسماعيل قالت لإبراهيم ما قاله لجبريل والله أعلم ثم قال وبشرى أخي عيسى وفي رواية إن آخر من بشر بي عيسى عليه السلام أي آخر نبي بشر بي من الأنبياء عيسى بدليل الرواية الأخرى وكان آخر من بشر بي عيسى لأن الأنبياء بشرت به قومها وإلى ذلك يشير صاحب الهمزية بقوله

* ما مضت فترة من الرسل إلا
* بشرت قومها بك الأنبياء
*

وبشرى عيسى في قوله تعالى * (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) * أي والمبشر بهم من الأنبياء قبل وجودهم أيضا أربعة إسحق يعقوب ويحيى وعيسى قال الله تعالى في حق سارة * (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) * قيل بشرت بأن تبقى إلى أن يولد يعقوب لولدها إسحق وقال في حق زكريا إن الله يبشرك بيحيى وقال في حق مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح ثم قال وإني كنت بكر أبي وأمي وإنها حملتني كأثقل ما تحمل النساء وجعلت تشكو إلى صواحبها ثقل ما تجد ثم إنها رأت في المنام أن الذي في بطنها خرج نورا قالت فجعلت أتبع بصري النور والنور يسبق بصري حتى أضاءت له مشارق الأرض ومغاربها الحديث وستأتي تتمته في الرضاع أي وقال ابن الجوزي ممن روى عن أمه صلى الله عليه وسلم هو صلى الله عليه وسلم لما قيل له يا رسول الله ما كان بدء أمرك قال دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمي قالت خرج مني نور أضاءت له قصور الشام قال الحافظ أبو نعيم الثقل الذي وقع في هذه الرواية كان ابتداء الحمل والخفة التي جاءت فيما سبق من الروايات كانت عند استمرار الحمل ليكون ذلك خارجا عن المعتاد كذل قال

أقول قد قدمنا أنه يجوز أن يكون هذا الثقل الواقع في ابتداء الحمل كان بعد إخبار الملك لها بالحمل فلا يخالف ما سبق وفيه ما سبق والجواب عنه لكن تقدم عن الزهري قال قالت آمنة لقد علقته به فما وجدت له مشقة حتى وضعته ويمكن أن يكون المراد بالمشقة ما تقدم من بعض الروايات لم تشك وجعا ولا مغصا ولا ريحا ولا ما يعرض لذوات الحمل من النساء أي فمع وجود الثقل لم يحصل لها المشقة المذكورة وحينئذ لا ينافي ذلك شكواها ما تجده من ثقله والله تعالى أعلم

باب وفاة والده صلى الله عليه وسلم
عن ابن إسحاق لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أن توفي وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به أي كما عليه أكثر العلماء وصححه الحافظ الدمياطي وسيأتي في بعض الروايات ما يدل على أن ذلك من علامات نبوته صلى الله عليه وسلم في الكتب القديمة قيل وإن موت والده صلى الله عليه وسلم كان بعد أن تم لها من حملها شهران وقيل قبل ولادته بشهرين وقيل كان في المهد حين توفي أبوه ابن شهرين وذكر السهيلي أن عليه أكثر العلماء فليتأمل مع ما قبله وقيل كان ابن سبعة أشهر أي وقيل ابن تسعة أشهر قيل وعليه الأكثرون والحق أنه قول كثيرين لا الأكثرين وقيل ابن ثمانية عشرة شهرا وقيل ابن ثمانية وعشرين شهرا أي وما يأتي في الرضاع من أن المرضع أبتة ليطمه يخالفه لتمام زمن الرضاع وكذا يخالف القول الذي قبله لأنه لم يبق من زمن الرضاع إلا شهران وكانت وفاته بالمدينة خرج إليها ليمتار تمرا أو لزيارة أخواله بها أي أخوال أبيه عبد المطلب بني عدي بن النجار أي ولا مانع من قصد الأمرين معا وقيل خرج إلى غزة في غير من عيرات قريش والعيرات بكسر العين وفتح المثناة تحت جمع غير وهي التي تحمل الميرة خرجوا للتجارة ففرغوا من تجارتهم وانصرفوا فمروا بالمدينة وعبد الله مريض فقال أنا أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار والنجار هذا اسمه تميم وقيل له النجار لأنه اختتن بقدوم أي وهو آلة النجار وقيل لأنه نجر وجه رجل بقدوم فأقام عندهم مريضا شهرا أي وهذا أثبت من الأول ومضى أصحابه فقدموا مكة فسألهم أبوه عبد المطلب عنه فقالوا خلفناه عند أخواله بني عدي بن النجار وهو مريض فبعث إليه أخاه الحارث وهو من أكبر أولاد عبد المطلب كما تقدم أي ومن ثم كان يكنى به ولم يدرك الإسلام فوجده قد توفي
أي وفي أسد الغابة أن عبد المطلب أرسل إليه ابنه الزبير شقيق عبد الله فشهد وفاته ودفن في دار التابعة بالتاء المثناة فوق والباء الموحدة والعين المهملة أي وهو رجل من بني عدي بن النجار أي فقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة ونظر إلى

تلك الدار عرفها وقال ها هنا نزلت بي أمي وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله وأحسنتم العوم في بئر بني عدي بن النجار

ومن هذا ومما جاء عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم أنه صلى الله عليه وسلم كان هو وأصحابه يسبحون في غدير أي في الحجة فقال النبي عليه الصلاة والسلام لأصحابه ليسبح كل منكم إلى صاحبه فسبح كل رجل إلى صاحبه وبقي النبي عليه الصلاة والسلام وأبو بكر فسبح النبي عليه الصلاة والسلام إلى أبي بكر رضي الله عنه حتى اعتنقه وقال أنا وصاحبي أنا وصاحبي وفي رواية أنا إلى صاحبي أنا إلى صاحبي يعلم رد قول بعضهم وقد سئل هل عام صلى الله عليه وسلم الظاهر لا لأنه لم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم سافر في بحر ولا بالحرمين بحر قال وقيل قد توفى ودفن أبوه بالأبواء محل بين مكة والمدينة

أقول سيأتي أن الذي بالأبواء قبر أمه صلى الله عليه وسلم على الأصح فلعل قائل ذلك أشتبه عليه الأمر لأنه يجوز أن يكون سمعه صلى الله عليه وسلم يقول وهو بالأبواء هذا قبر أحد أبوي

وقد ذكر بعضهم في حكمة تربيته صلى الله عليه وسلم يتيما ما لا نطيل به وقد جاء ارحموا اليتامى وأكرموا الغرباء فإني كنت في الصغر يتيما وفي الكبر غريبا وقد جاء إن الله لينظر كل يوم إلى الغريب ألف نظرة والله أعلم

وأورد الخطيب عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن الله أحيا له آباه وآمن به وفي المواهب أحيا الله له أبويه حتى آمن به قال السهيلي وفي إسناده مجاهيل وقال الحافظ ابن كثير إنه حديث منكر جدا وسنده مجهول وقال ابن دحية هو حديث موضوع قال ويرده القرآن والإجماع وعلى ثبوته يكون ناسخا أي معارضا لقوله صلى الله عليه وسلم وقد سأله رجل أين أبي فقال في النار فلما قفا أي ولى دعاه وقال له إن أبي وأباك في النار وفيه أن هذا رواه مسلم فلا يكون ذلك الحديث ناسخا أي معارضا له

أقول هو على تقدير ثبوته يكون معارضا على أن حديث مسلم هذا لم تتفق الرواة على قوله فيه إن أبي وأباك في النار وهذه اللفظة إنما رواها حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس وخالفه معمر عن ثابت عن أنس فروى بدل ذلك إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار

وقد نصوا على أن معمر أثبت من حماد فإن حماد أتكلم في حفظه ووقع في أحاديثه مناكير ذكروا أن ربيعة دسها في كتبه وكان حماد لا يحفظ فحدث بها فوهم فيها وأما معمر فلم يتكلم في حفظه ولا استنكر شيء من حديثه وأيضاً ما رواه معمر ورد من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه فقد أخرج البزار والطبراني والبيهقي من طريق إبراهيم بن سعد عن الزهري عن عائذ بن سعد عن أبيه أن أعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أين أبي فقال في النار قال فأين أبوك قال حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار وهذا الإسناد على شرط الشيخين فاللفظ الأول من تصرف الراوي رواه بالمعنى بحسب ما فهم فأخطأ

وذكر الحافظ السيوطي أن مثل هذا وقع في الصحيحين في روايات كثيرة من ذلك حديث مسلم عن أنس في نفي قراءة البسملة والثابت من طريق آخر نفي سماعها ففهم منه الراوي نفي قراءتها فرواه بالمعنى على ما فهمه فأخطأ كذا أجاب إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه عن حديث نفي قراءة البسملة والذي ينبغي أن يقال يجوز أن يكون هذا أي ما في الصحيح كان قبل أن يسأل الله تعالى أن يحييه له فأحياه وآمن به كما أشار إليه الأصل أو أنه قال ذلك لمصلحة إيمان ذلك السائل بدليل أنه لم يتدارك صلى الله عليه وسلم إلا بعد ما قفا فظهر له صلى الله عليه وسلم من حاله أنه تعرض له فتنة أي يرتد عن الإسلام فأتى له بما هو شبيهة بالمشاكله مريداً بأبيه عمه أبا طالب لا عبد الله لأنه كان يقال لأبي طالب قل لابنك يرجع عن شتم آلهتنا وقالوا له أعطنا ابنك وخذا هذا مكانه فقال أعطيكم ابني تقتلونهم إلى غير ذلك مما يأتي على أنه تقدم أن العرب تسمى العم أبا

لا يقال على ثبوت هذا الحديث وصحته التي صرح بها غير واحد من الحفاظ ولم يلتفتوا لمن طعن فيه كيف ينفع الإيمان بعد الموت
لأننا نقول هذا من جملة خصوصياته صلى الله عليه وسلم لكن قال بعضهم من ادعى الخصوصية فعليه الدليل أي لأن الخصوصية لا تثبت بمجرد الاحتمال ولا تثبت بحديث صحيح وفي كلام القرطبي قد أحيا الله سبحانه وتعالى على يديه صلى الله عليه وسلم جماعة من الموتى
وإذا ثبت ذلك فما يمنع إيمان أبويه بعد إحيائهما ويكون ذلك زيادة في كرامته

وفضيلته صلى الله وسلم ولو لم يكن إحياء أبويه نافعا لإيمانهما وتصديقهما لما أحيا كما أن رد الشمس لو لم يكن نافعا في بقاء الوقت لم ترد والله أعلم

قال الواقدي المعروف عندنا وعند أهل العلم أن آمنة وعبد الله لم يلبدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقل سبط ابن الجوزي أن عبد الله لم يتزوج قط غير آمنة ولم تتزوج آمنة قط غيره ونقل إجماع علماء النقل على أن آمنة لم تحمل بغير النبي صلى الله عليه وسلم ومعنى قولها لم أحمل حملا أخف منه المفيد أنها حملت بغيره صلى الله عليه وسلم أنه خرج على وجه المبالغة

أقول هذه الرواية لم أقف عليها والذي تقدم ما رأيت من حمل هو أخف منه وفي رواية أخرى حملت به فلم أجد حملا قط أخف منه على وحمل الرؤية والوجدان على العلم الحاصل بإخبار غيرها من ذوات الحمل لها عن حالهن ممكن فلا يقتضى ذلك أنها حملت بغيره ولا ينافيه قولها أخف على لأن المراد علي فيما علمت والله أعلم

قال والحافظ ابن حجر نسب سبط ابن الجوزي في نقل الإجماع إلى المجازفة فقال وجازف سبط ابن الجوزي كعادته في نقل الإجماع ولا يمتنع أن تكون آمنة أسقطت من عبد الله سقطا فأشارت بقولها المذكور إليه

أقول وحينئذ تكون حملت بذلك السقط بعد ولادته صلى الله عليه وسلم بناء على أن والده صلى الله عليه وسلم لم يمت وهو حمل بل بعد وضعه وأنها وجدت المشقة في حمل ذلك السقط وأن إخبارها بذلك تأخر عن حملها بذلك السقط وأنها رأت في حملها بذلك السقط من الشدة ما لم تجده في حمله صلى الله عليه وسلم

وأما حملها بذلك السقط قبل حملها به صلى الله عليه وسلم فلا يتأتى لمخالفته لما تقدم من أن عبد الله دخل بها حين أملك عليها وانتقل إليها النور عند ذلك ولأنه يخرج بذلك عن كونه بكر أبيه وأمه

وأما رواية حملت الأولاد فما وجدت حملا فقال فيها الواقدي لا نعرف عند أهل العلم كما بينا ذلك في الكوكب المنير على أن إمكان حملها بسقط لا يقدر في نقل الإجماع

على أنها لم تحمل بغيره صلى الله عليه وسلم لإمكان أن مراده حملا تاما وفي الخصائص الصغرى للجلال السيوطي ولم يلد أبواه غيره صلى الله عليه وسلم والله أعلم قال وترك عبد الله جاريتيه أم أيمن بركة الحبشية أسلمت قديما هي وولدها أيمن وكان من عبد حبشي يقال له عبيد

أقول في كلام ابن الجوزي أنه صلى الله عليه وسلم أعتقها حين تزوج خديجة وزوجها عبيدا الحبشي بن زيد من بني الحرث فولدت أيمن ولا ينافيه ما في الإصابة كانت أم أيمن تزوجت في الجاهلية بمكة عبيدا الحبشي بن زيد وكان قدم مكة وأقام بها ثم نقل أم أيمن إلى يثرب فولدت له أيمن ثم مات عنها فرجعت إلى مكة فتزوجها زيد بن حارثة قال البلاذري والله أعلم

قال وقد زوجها صلى الله عليه وسلم أي بعد النبوة مولاه زيد بن حارثة أي وإنما رغب زيد فيها لما سمعه صلى الله عليه وسلم يقول من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج بأم أيمن فجاءت منه بأسامة فكان يقال له الحب ابن الحب وقيل أعتقها عبد الله قبل موته وقيل كانت لأمه صلى الله عليه وسلم وترك أي عبد الله خمسة أجمال وقطعة من غنم فورث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيه أي فهو صلى الله عليه وسلم يرث ولا يورث قال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة

ودعوى بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم لم يرث بناته اللاتي متن في حياته فعلى تقدير صحته جاز أن يكون صلى الله عليه وسلم ترك أخذ ميراثه تعففا وسيأتي وقال ابن الجوزي وأصاب أم أيمن هذه عطش في طريقها لما هاجرت أي إلى المدينة على قدميها وليس معها أحد وذلك في حر شديد فسمعت شيئا فوق رأسها فتدلى عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض فشربت منه حتى رويت وكانت تقول ما أصابني عطش بعد ذلك ولو تعرضت للعطش بالصوم في الهواجر ما عطشت أي وفي مزيل الخفاء قال الواقدي كانت أم أيمن عسرة اللسان فكانت إذا دخلت على قوم قالت سلام لا عليكم أي بدل سلام الله عليكم فرخص لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقول سلام عليكم أو السلام عليكم هذا كلامه فليتأمل فإن هذا يقتضي أن الصيغة الأصلية في السلام سلام الله عليكم مع أن الصيغة في السلام إما السلام عليكم أو سلام عليكم وكذا عليكم السلام ولم تذكر أئمتنا تلك الصيغة

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما وأم أيمن عنده فقالت يا رسول الله اسقني فقلت لها أرسول الله صلى الله عليه وسلم تقولين هذا فقالت ما خدمته أكثر فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدقت فسقاها

وذكر بعض المؤرخين أن بركة هذه من سبى الحبشة أصحاب الفيل وكانت سوداء أي لونها أسود ولهذا خرج ابنها أسامة في السواد أي وكان أبوه زيد أبيض ومن ثم كان المنافقون يطعنون في نسب أسامة ويقولون هذا ليس هو ابن زيد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتشوش من ذلك

وقد روى الشيخان عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت دخل علي النبي صلى الله عليه وسلم مسرورا فقال ألم ترى أن محززا المدجلى قد دخل على فرأى أسامة وزيدا عليهما قطيفة قد غطيا رءوسهما وقد بدت أقدامهما فقال إن هذه الأقدام بعضها من بعض وقد جعل أئمتنا ذلك أصلا لوجوب الأخذ بقول القائل في إلحاق النسب قال الأبى رحمه الله والمعروف أن الحبشية إنما هي بركة أخرى جارية أم حبيبة قدمت معها من الحبشة وكانت تكنى أم يوسف كانت تخدم النبي صلى الله عليه وسلم أي وهي التي شربت بوله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي قيل وورث صلى الله عليه وسلم من أبيه مولاة شقران وكان عبدا حبشيا فأعتقه بعد بدر وقيل اشتراه من عبد الرحمن بن عوف وأعتقه وقيل بل وهبه عبد الرحمن ابن عوف له صلى الله عليه وسلم

باب ذكر مولده صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم
عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم مسرورا أي مقطوع السرة وجاء أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ولد نزل جبريل عليه السلام وقطع سرتة وأذن في أذنه وكساه ثوبا أبيض وولد نبينا صلى الله عليه وسلم مختونا أي على صورة المختون أي ومكحولا ونظيفا ما به قدر أقول أي لم يصاحبه قدر وبلبل فلا ينافي جواز وجود البلبل والقدر بعده أي في زمن إمكان النفاس فلا يستدل بذلك على أن أمه صلى الله عليه وسلم لم تر نفاسا فإن النفاس عندنا معاشر الشافعية هو البلبل الحاصل بعد الولادة في زمن إمكانه وهو قبل مضي خمسة عشر يوما لا الحاصل مع الولد والله أعلم

قال وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كرامتي على ربي أني ولدت مختونا ولم ير أحد سوأتي أي لئلا يرى أحد سوأتي عند الختان قال الحاكم تواترت الأخبار بأنه صلى الله عليه وسلم ولد مختونا وتعقبه الذهبي فقال ما أعلم صحة ذلك فكيف يكون متواترا أي وأجيب بأنه أراد بالتواتر الاشتهار فقد جاءت أحاديث كثيرة في ذلك قال الحافظ ابن كثير فمن الحفاظ من صححها ومنهم من ضعفها ومنهم من رآها من الحسان أي وقد يدعى أنه لا مخالفة بين هذه الأقوال الثلاثة لأنه يجوز أن يكون من قال صحيحه أراد صحيحة لغيرها والصحيحة لغيرها قد تكون حسنة لغيرها ومن قال ضعيفة أراد في حد ذاتها وفي الهدى أن الشيخ جمال الدين بن طلحة صنف في أنه ولد مختونا مصنفا أجلب فيه من الأحاديث التي لا خطام لها ولا زمام ورد عليه في ذلك الشيخ جمال الدين بن العديم وذكر أنه صلى الله عليه وسلم ختن على عادة العرب وولد من الأنبياء على صورة المختون أيضا غير نبينا صلى الله عليه وسلم ستة عشر نبيا وقد نظم الجميع بعضهم فقال

* وفي الرسل مختون لعمر كحلقة
* ثمان وتسع طيبون أكارم
* وهم زكريا شيث إدريس يوسف
* وحنظلة عيسى وموسى وأدم
* ونوح شعيب سام لوط وصالح
* سليمان يحيى هود يس خاتم
*

وليس هذا من خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بل غيرهم من الناس يولد كذلك من خرافات العامة أن يقولوا لمن يولد كذلك ختنه القمر أي لأن العرب تزعم أن المولود في القمر تنفسخ قلفته فيصير كالمختون وربما قالت العامة ختنته الملائكة وبهذا يرد على ما ذكره الجلال السيوطي في الخصائص الصغرى أن من خصائصه صلى الله عليه وسلم ولادته مختونا

وقيل ختن صلى الله عليه وسلم أي ختنه الملك الذي هو جبريل كما صرح به بعضهم يوم شق قلبه صلى الله عليه وسلم عند ظئره أي مرضعته حليلة قال الذهبي إنه خبر منكر وقيل ختنه جده يوم سابع ولادته صلى الله عليه وسلم قال العراقي وسنده غير صحيح أي لما عرق عنه صلى الله عليه وسلم بكبش كما سيأتي

أقول وقد يجمع بأنه يجوز أن يكون ولد مختونا غير تام الختان كما هو الغالب في ذلك فتمم جده ختانه لكن ينازع فيه ما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم من كرامتي على ربي أني ولدت مختونا ولم ير أحد سواي أي لأجل الختان كما هو الظاهر إن صح كما قدمنا

وفي كلام بعضهم أن عيسى عليه الصلاة والسلام ختن بآلة وعلى صحته يجمع بنحو ما تقدم والظاهر أن المراد بالآلة التي ختن بها عيسى والتي ختن بها صلى الله عليه وسلم بناء على أن جده ختنه كانت بالآلة المعروفة التي هي موسى وإلا لنقلت لأن ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله

لا يقال عدم وجود القلفة نقص من أصل الخلقة الإنسانية فقد قالوا في حكمة وجود العلقة السوداء التي هي حظ الشيطان فيه ولم يخلق بدونها بل خلق بها تكملة للخلق الإنساني لأننا نقول إنما لم يخلق بتلك القلفة ليحصل كمال الخلقة الإنسانية لأن هذه القلفة لما كانت تزال ولا بد من كل أحد مع ما يلزم على إزالتها من كشف العورة كان نقص الخلقة الإنسانية عنها عين الكمال بخلاف العلقة السوداء وكره الحسن أن يختن الولد يوم السابع لأن فيه تشبيها باليهود أي لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما ختن ولده إسحق عليه الصلاة والسلام يوم سبع ولادته اتخذه بنو إسرائيل في ذلك اليوم سنة وختن ولده إسماعيل عليه الصلاة والسلام لثلاث عشرة سنة قال أبو العباس ابن تيمية فصار ختان إسماعيل عليه الصلاة والسلام أي في ذلك الوقت سنة في ولده يعنى العرب ويؤيده قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كانوا لا يختنون الغلام حتى يدرك أي لأن الثلاثة عشر هي مظنة الإدراك ومن ثم لما سئل ابن عباس عن سنه حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وأنا يومئذ مختون أي في أوائل زمن الختان والله أعلم

ولما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقع على الأرض مقبوضة أصابع يده يشير بالسبابة كالمسبح بها

أقول وفي رواية عن أمه أنها قالت لما خرج من بطني نظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع إصبعيه كالمتضرع المبتهل ولا مخالفة لجواز أن يراد بأصبعيه السبابتان من اليدين والله أعلم وفي سجوده إشارة إلى أن مبدأ أمره على القرب من الحضرة الإلهية

قال وروى ابن سعد أنه صلى الله عليه وسلم لما ولد وقع على يديه رافعا رأسه إلى السماء

وفي رواية وقع على كفيه وركبته شاخصا ببصره إلى السماء أقول وفي رواية وقع جاثيا على ركبته ولا يخالف هذا ما سبق من أنها نظرت إليه فإذا هو ساجد لجواز أن يكون سجوده بعد رفع رأسه وشخص بصره إلى السماء ولا مخالفة بين كونه وقع على الأرض مقبوضة أصابع يده ووقوعه على كفيه لجواز أن يكون قبض أصابعه ما عدا السبابة بعد ذلك ولا ينافيه قوله مقبوضة المنصوب على الحال لقرب زمنها من الوقوع على الأرض والاقتصار على الركبتين لا ينافي الجمع بينهما وبين الكفين

ورأيت في كلام بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم ولد واضعا إحدى يديه على عينيه والأخرى على سوءتيه فليتأمل والله أعلم وإلى رفع رأسه صلى الله عليه وسلم وشخص بصره إلى السماء يشير صاحب الهمزية بقوله

* رافعا رأسه وفي ذلك الرف
* ع إلى كل سؤدد إيماء
* رامقا طرفه السماء ومرمى
* عين من شأنه العلو العلاء
*

أي وضعته حال كونه رافعا رأسه إلى السماء وفي ذلك الرفع الذي هو أول فعل وقع منه بعد بروزه صلى الله عليه وسلم إلى هذا العالم إشارة إلى حصول كل رفعة وسيادة ووضعته حالة كونه رامقا ببصره إلى السماء وسر ذلك الإشارة إلى علو مرماه إذ مرمى عين الذي قصده ارتفاع مكانه الرفعة والشرف قال وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قبض قبضة من تراب وأهوى ساجدا فبلغ ذلك رجلا من بني لهب فقال لصاحبه لئن صدق هذا الفأل ليغلبن هذا المولود أهل الأرض أي لأنه قبض عليها وصارت في يده والفأل بالهمز وبدونه يقال فيما يسر والنطير فيما يسوء فالفأل ضد الطيرة بكسر الطاء وقد جاء إنني أتفاءل ولا أتطير وقيل له صلى الله عليه وسلم ما الفأل قال الكلمة الصالحة يسمعهما أحدكم وقال صلى الله عليه وسلم لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل الكلمة الحسنة والكلمة الطيبة وفي رواية وأحب الفأل الصالح وفرق بعضهم بين الفأل والتفاءل بأن الأول يكون في سماع الآدميين والثاني يكون في الطير بأسمائها وأصواتها وممرها وقوله لا عدوى معارض لما جاء أنه كان في وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم إنا قد بايعناك فارجع فارجع

ولم يضافحه وجاء لا تديمو النظر للمجذومين وسيأتي الجواب عنه بما يحصل به الجمع بينه وبين ما جاء أنه أخذ بيد مجذوم فوضعها معه في القصعة وقال كل بسم الله عز وجل وتوكلا عليه وبنوا لهب بكسر اللام وسكون الهاء حي من الأزدي أعلم الناس بالزجر أي زجر الطير والتفاؤل بها وبغيرها

فقد كان في الجاهلية إذا أراد الشخص أن يخرج لحاجة جاء إلى الطير وأزعجها عن أوكارها فإن مر الطائر على اليمين سمى سانحا واستبشر مريد الحاجة بقضائها وإن مر على اليسار سمى بارحا بالموحدة والراء والحاء المهملة وقعد مريد الحاجة عنها تفاؤلا بعدم قضائها أي وهذا ما فسر به إمامنا الشافعي الحديث الآتي أقروا الطير في مكائنها فعن سفيان بن عيينة قال قلت للشافعي رضي الله تعالى عنه يا أبا عبد الله ما معنى هذا الحديث فقال علم العرب كان في زجر الطير كان الرجل منهم إذ أراد سفرا جاء إلى الطير في مكائنها فطيرها الحديث

ويحكى عن وائل بن حجر وكان زاجرا حسن الزجر أنه خرج يوما من عند زياد بالكوفة وهو الذي ألحقه معاوية بأبيه أبي سفيان وهو والد عبيد الله بن زياد الذي قاتل الحسين وكان أميرها المغيرة بن شعبة فرأى غرابا ينطق بالغيث المعجزة أي يصيح فرجع إلى زياد وقال له هذا غراب برحلك من ههنا إلى خير فقدم رسول معاوية إلى زياد من يومه بولاية البصرة

وقد ذكر أن أبا ذؤيب الهذلي الشاعر كان مسلما على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجتمع به قال بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليل ولما كان وقت السحر هتف بي هاتف وأنا نائم وهو يقول

* قبض النبي محمد فعيوننا

* تذري الدموع عليه بالتسجام

*

قال فقامت من نومي فزعا فنظرت في السماء فلم أر إلا سعد الذابح فتفاءلت به وعلمت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قبض فركبت ناقتي وحثتها حتى إذا كنت بالغابة زجرت الطير فأخبرني بوفاته صلى الله عليه وسلم فلما قدمت المدينة فإذا فيها ضجيج بالبكاء كضجيج الحاج فسألت فقيل لي قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مسجى وقد خلا به أهله وأبو هذيل هذا هو القائل

* أمن المنون وريبة تتوجع

* والدهر ليس بمعتب من يجزع

*

وإذا المنية أنشبت أظفارها
* ألفت كل تميمة لا تنفع
* وتجلدي للشامتين أريهم
* أني لريب الدهر لا أتضع
* والنفس راغبة إذا رغبتها
* وإذا ترد إلى قليل تنفع
*

ومن زجر الطير ما حكاه بعضهم قال جاء أعرابي إلى دار القاضي أبي الحسين الأزدي المالكي فجاء غراب فقعد على نخلة في تلك الدار وصاح ثم طار فقال الأعرابي هذا الغراب يقول إن صاحب هذه الدار يموت بعد سبعة أيام فصاح الناس عليه وزجروه فقام وانصرف ففي سابع يوم مات هذا القاضي وقد جاء النهي عن ذلك أي عن الزجر والطيبة في قوله صلى الله عليه وسلم أقرؤا الطير على مكانها أي لا تزجروها وجاء الطير شرك وجاء من أرجعته الطيرة عن حاجته فقد أشرك أي حيث اعتقد أنها تؤثر وجاء إذا رأى أحدكم من الطيرة ما يكره فليقل اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك وفي رواية اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك ثم يمضى لحاجته وقد جاء لا عدوى ولا طيرة ولا هام وفي لفظ ولا هامة بالتخفيف زاد في رواية ولا صفر والهامة هو أنه كان أهل الجاهلية يزعمون أنه إذا قتل القتيل ولم يؤخذ بثأره يخرج له طائر يقول عند قبره اسقوني من دم قاتلي اسقوني من دم قاتلي ولا يزال يقول ذلك حتى يؤخذ بثأر القتيل كان العرب تسميه الهامة بالتخفيف وأما الهامة بالتشديد فواحدة الهوام وهي الحيات والعقارب وما شاكلها ومن ثم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في تعويذه للحسن والحسين أعينكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ثم يقول هكذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يعوذ إسماعيل وإسحاق وقوله ولا صفر ذكر الإمام النووي أن المراد به حية صفراء تكون في جوف الإنسان إذا جاع تؤذيه كذا كانت العرب تزعم ذلك قال وهذا التفسير هو الصحيح الذي عليه عامة العلماء وقد ذكره مسلم عن جابر راوي الحديث فتعين اعتماده

وروى ابن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت أمي حين وضعتني سطم منها نور أضاءت له قصور بصرى وفي رواية أنها قالت لما وضعتني خرج معي نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب فأضأت له قصور الشام وأسواقها حتى رأيت أعناق الإبل ببصرى

وفي الخصائص الصغرى ورأت أمه عند ولادته نورا خرج منها أضواء له قصور الشام وكذلك أمهات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يرين ولعل المراد يرين مطلق النور لا الذي تضيء من قصور الشام وقوله قصور الشام الخ ظاهر في أن المراد جميع الإقليم لا خصوص بصرى ولعل الاختصار على بصرى في الروايات لكون النور كان بها أتم ومن ثم قالت حتى رأيت أعناق الإبل ببصرى أو رأيت مرة وصول النور إلى بصرى خاصة ومرة جاوزها تأمل وإلى هذا النور يشير عمه العباس رضي الله تعالى عنه بقوله في قصيدته التي امتدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رجوعه صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك وقد قال له في مرجعه من تلك الغزوة يا رسول الله إنني أريد أن أمتدحك فقال له رسول الله قل لا يفيض الله فاك فقال قصيدة منها

* وأنت لما ولدت أشرفت الأر
* ض وضاءت بنورك الأفق
* فنحن في ذلك الضياء وفي الن
* ور سبل الرشاد نخترق
*

وإلى ذلك يشير صاحب الهمزية رحمه الله بقوله

* وتراءت قصور قيصر بالرو
* م يراها من داره البطحاء
*

أي رؤيت قصوره ملك الروم في بلاد الروم يبصرها الذي داره بمكة قال وهذا ظاهر في أنها رأت ذلك النور يقظة وتقدم في حديث شداد أنها رآته مناما وقد تقدم الجمع أي وتقدم ما في ذلك الجمع

وذكر أن أم إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه رأت وهي حامل به أن النجم المسمى بالمشتري خرج من فرجها فوق في مصر ثم وقع في كل بلدة منه شظية فتأول ذلك أصحاب تأويل الرؤيا بأنها تلد عالما يكون علمه بمصر أولا ثم ينتشر إلى سائر البلدان وروى السهيلي على الواقدي أنه صلى الله عليه وسلم لما ولد تكلم فقال جلال ربي الرفيع وروى أن أول ما تكلم به لما ولدته أمه حين خروجه من بطنها الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ولا مانع من أنه صلى الله عليه وسلم تكلم بكل ذلك والأولوية في الرواية الثانية إضافية لما لا يخفى

وقد وقع الاختلاف في وقت ولادته صلى الله عليه وسلم أي هل كان ليلا أو نهارا وعلى الثاني في أي وقت من ذلك النهار وفي شهره وفي عامه وفي محله فقيل ولد يوم الاثنين قال بعضهم لا خلاف فيه والله بل أخطأ من قال ولد يوم الجمعة أي

فمن قتادة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن يوم الاثنين فقال ذلك يوم ولدت فيه وذكر الزبير بن بكار والحافظ ابن عساكر أن ذلك كان حين طلوع الفجر ويدل له قول جده عبد المطلب ولد لي الليلة مع الصبح مولود وعن سعيد بن المسيب ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند إبهار النهار أي وسطه وكان ذلك اليوم لمضى اثني عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول أي وكان ذلك في فصل الربيع وقد أشار إلى ذلك بعضهم بقوله
 * يقول لنا لسان الحال منه
 * وقول الحق يعذب للسميع
 * فوجهي والزمان وشهر وضعي
 * ربيع في ربيع في ربيع
 *

قال وحكى الإجماع عليه وعليه العمل الآن أي في الأمصار خصوصا أهل مكة في زيارتهم موضع مولده صلى الله عليه وسلم وقيل لعشر ليال مضت من ربيع وصحح أي صححه الحافظ الدمياطي أي لأن الأول قال فيه ابن دحية ذكره ابن إسحاق مقطوعا دون إسناد وذلك لا يصح أصلا ولو أسنده ابن إسحاق لم يقبل منه لتجريح أهل العلم له فقد قال كل من ابن المدني وابن معين أن ابن إسحاق ليس بحجة ووصفه مالك رضي الله تعالى عنه بالكذب قيل وإنما طعن فيه مالك لأنه بلغه عنه أنه قال هاتوا حديث مالك فأنا طبيب بعلة فعند ذلك قال مالك وما ابن إسحاق إنما هو رجل من الدجاجلة أخرجناه من المدينة قال بعضهم وابن إسحاق من جملة من يروى عنه شيخ مالك يحيى بن سعيد وقال بعضهم ابن إسحاق فقيه ثقة لكنه مدلس وقيل ولد لسبع عشرة ليلة خلت منه وقيل لثمان مضت منه قال ابن دحية وهو الذي لا يصح غيره وعليه أجمع أهل التاريخ

وقال القطب القسطلاني وهو إختيار أكثر أهل الحديث أي كالحميدي وشيخه ابن حزم وقيل لليلتين خلتا منه وبه جزم ابن عبد البر وقيل لثمان عشرة ليلة خلت منه رواه ابن أبي شيبة وهو حديث معلول وقيل لإثنتي عشرة بقين منه وقيل لإثني عشرة وقيل لثمان ليال خلت من رمضان وصححه كثير من العلماء وهذا هو الموافق لما تقدم من أن أمه صلى الله عليه وسلم حملت به في أيام التشريق أو في يوم عاشوراء وأنه مكث في بطنها تسعة أشهر كوامل لكن قال بعضهم إن هذا القول غريب جدا ومستند قائله أنه أوحى إليه صلى الله عليه وسلم في رمضان فيكون مولده في

رمضان وعلى أنها حملت به في أيام التشريق الذي لم يذكروا غيره يعلم ما في بقية الأقوال قال وقيل ولد في صفر وقيل في ربيع الآخر وقيل في محرم وقيل في عاشوراء أي كما ولد عيسى عليه السلام وقيل لخمس بقين منه أي وذكر الذهبي أن القول بأنه ولد صلى الله عليه وسلم في عاشوراء من الإفك أي الكذب وفيه إن كان ذلك لأنه لا يجامع أنها حملت به صلى الله عليه وسلم في أيام التشريق وأنه مكث في بطنها تسعة أشهر كوامل لا يختص الإفك بهذا القول بل يأتي فيما عدا القول بأنه ولد في رمضان ثم رأيت بعضهم حكى أنه حمل في شهر رجب وحينئذ يصح القول المشهور ولادته في ربيع الأول

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ولد يوم الاثنين في ربيع الأول وأنزلت عليه النبوة يوم الاثنين في ربيع الأول وهاجر إلى المدينة يوم الاثنين في ربيع الأول وأنزلت عليه البقرة يوم الاثنين في ربيع الأول وتوفى يوم الاثنين في ربيع الأول قال بعضهم وهذا غريب جدا

وقيل لم يولد نهارا بل ولد ليلا فعن عثمان بن أبي العاص عن أمه رضي الله تعالى عنهما أنها شهدت ولادة النبي صلى الله عليه وسلم ليلا قالت فما شيء أنظر إليه من البيت إلا نورا وإني لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إني لأقول لتقعن علي قال ابن دحية وهو حديث مقطوع قال بعضهم ولا يصح عندي بوجه أنه ولد ليلا لقوله صلى الله عليه وسلم الثابت عنه بنقل العدل عن العدل أنه سئل عن صوم يوم الاثنين فقال فيه ولدت واليوم إنما هو النهار بنص القرآن وأيضا الصوم لا يكون إلا نهارا

وأفاد البدر الزركشي أن هذا الحديث أي المتقدم عن أم عثمان بن أبي العاص على تقدير صحته لا دلالة فيه على أنه ولد ليلا قال فإن زمان النبوة صالح للخوارق ويجوز أن تسقط النجوم نهارا أي فضلا عن أن تكاد تسقط سيما إن قلنا ولد عند الفجر لأن ذلك ملحق بالليل وإلى التردد في وقت ولادته صلى الله عليه وسلم هل هو في الليل أو النهار أشار صاحب الهمزية بقوله

* ليلة المولد الذي كان للذ

* ين سرور بيومه وإزدهاء

* فهنيئا به لآمنة الفض

* ل الذي شرفت به حواء

*

من لحواء أنها حملت أح
* مد أو أنها به نفساء
* يوم نالت بوضعه ابنة وهب
* من فخار مالم تنله النساء
*

أي ليلة المولد الذي وجد فيه الفرح والافتخار للدين بيومه وقد أضاف كلا من الليل واليوم للولادة مراعاة للخلاف في ذلك فهنيئاً لآمنة الفضل الذي حصل لها بسبب ولادتها له صلى الله عليه وسلم أي لا يشوب ذلك الفضل كدر ولا مشقة الذي شرفت بذلك الفضل حواء التي هي أم البشر ومن يشفع لحواء في أنها حملت به وأنه أصابها نفاس به يوم أعطيت آمنة بنت وهب بسبب وضعه من الفخار وهو ما يتمدح به من الخصال العلية والشيم المرضية مالم يعطها غيرها من النساء
أي وقد أقسم الله بليلة مولده صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى * (والضحى والليل) * وقيل أراد بالليل ليلة الإسرى ولا مانع أن يكون الإقسام وقع بهما أي استعمل الليل فيهما ويدل لكون ولادته صلى الله عليه وسلم كانت ليلاً قول بعض اليهود ممن عنده علم الكتاب لقريش هل ولد فيكم الليلة مولود قالوا لا نعلم قال ولد الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة إلى آخر ما يأتي وسيأتي ما يدل على ذلك وهو وضعه تحت الجفنة وولادته صلى الله عليه وسلم قيل كانت في عام الفيل قيل في يومه فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفيل وعن قيس ابن مخزومة ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفيل ضحا فنحن لدتان قال الحافظ ابن حجر المحفوظ لفظ العام أي بدل لفظ اليوم وقد يراد باليوم مطلق الوقت فيصدق بالعام كما يقال يوم الفتح ويوم بدر وعليه فلدان معناه متقاربان في السن بالموحدة وعلى أن المراد باليوم حقيقته يكون بالنون وفي تاريخ ابن حبان ولد عام الفيل في اليوم الذي بعث الله تعالى الطير الأبابيل فيه على أصحاب الفيل

وعند ابن سعد ولد يوم الفيل يعني عام الفيل أي لما تقدم عن ابن حجر وعليه فيكون قول ابن حبان في اليوم تفسيراً للعام على أن المراد باليوم مطلق الوقت الصادق بالعام وقيل ولد بعد الفيل بخمسين يوماً كما ذهب إليه جمع منهم السهيلي قال بعضهم

وهو المشهور قال وقيل بخمسة وخمسين يوما وقيل بأربعين يوما وقيل بشهر وقيل بعشر سنين وقيل بثلاث وعشرين سنة وقيل بثلاثين سنة وقيل بأربعين سنة وقيل بسبعين سنة أي وعلى أنه بعد الفيل بخمسة وخمسين يوما اقتصر الحافظ الدمياطي رحمه الله وعبارة المواهب حكاها الدمياطي في آخرين وكونه في عام الفيل قال الحافظ ابن كثير هو المشهور عند الجمهور وقال إبراهيم بن المنذر شيخ البخاري رحمه الله لا يشك فيه أحد من العلماء ونقل غير واحد فيه الإجماع وقال كل قول يخالفه وهم أي وقيل قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة قال بعضهم وهذا غريب منكر وضعيف أيضا أقول والقول بأنه ولد قبل عام الفيل أو فيه أو بعده بعشر سنين يقتضى تضعيف ما ذكره الحافظ أبو سيعد النيسابوري أن نور النبي صلى الله عليه وسلم كان يضيء في غرة جده عبد المطلب وكانت قريش إذا أصابها قحط أخذت بيد عبد المطلب إلى جبل ثبير يستسقون به فيسقيهم الله تعالى ببركة ذلك النور وأنه لما قدم صاحب الفيل لهدم الكعبة لتكون كنيسته التي بناها ويقال إنها القليس كجميز لارتفاع بنائها وعلوها ومنه القلانس لأنها في أعلى الرؤوس مكان الكعبة في الحج إليها وقد اجتهد أبرهة في زخرفتها فجعل فيها الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب كان ينقل ذلك من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام وجعل فيها صلبانا من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنوس وشدد على عماله بحيث إذا طلعت الشمس قبل أن يأخذ العامل من عمله قطع يده فنام رجل منهم ذات يوم حتى طلعت الشمس فجاءت معه أمه وهي امرأة عجوز فتضرعت إليه في أن لا يقطع يد ولدها فأبى إلا قطع يده فقالت له اضرب بمعولك اليوم فالיום لك وغدا لغيرك فقال لها ويحك ما قلت فقال نعم كما صار هذا الملك من غيرك إليك فكذلك يصير منك إلى غيرك فأخذته موعظتها فعفا عنه ورجع عن هذا الأمر فعند ذلك ركب عبد المطلب في قريش إلى جبل ثبير فاستدار ذلك النور في وجه عبد المطلب كالهلال وألقى شعاعه على البيت الحرام مثل السراج فلما نظر عبد المطلب لذلك قال يا معشر قريش ارجعوا فقد كفيتم هذا الأمر فوالله ما استدار هذا النور مني إلا أن يكون الظفر لنا فرجعوا فلما دخل رسول صاحب الفيل إلى مكة ونظر إلى وجه عبد المطلب خضع وتلجلج لسانه وخر مغشيا عليه

فكان يخور كما يخور الثور عند ذبحه فلما أفاق خر ساجدا لعبد المطلب أي فإن صاحب الفيل أمره أن يقول لقريش إن الملك إنما جاء لهدم البيت فإن لم تحولوا بينه وبينه لم يزد على هدمه وإن أحلتم بينه وبينه أتى عليكم فقال له عبد المطلب ما عندنا منعة ولا ندفع عن هذا البيت وله رب إن شاء منعه أي وفي لفظ قال عبد المطلب والله ما نريد حربه وما لنا منه بذلك طاقة هذا بيت الله الحرام وبيت إبراهيم خليل الله فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة وإن لم يحل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه وأمر أبرهة رسوله أيضا أن يأتي له بسيد القوم فقال لعبدالمطلب قد أمرني أن آتية بك فقال عبد المطلب أفعل فجاءه راعي إبله وخيله وأخبره أن الحبشة أخذت الإبل والخيل التي كانت ترعى بذى المجاز

وفي سيرة ابن هشام بل وفي غالب السير الاقتصار على الإبل وأنها كانت مائتي بعير وقيل أربعمائة ناقة فركب عبد المطلب صحبة رسول صاحب الفيل وركب معه ولده الحارث فاستؤذن له على أبرهة أي قيل له أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة يعني زمزم وهو يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال فاذن له فلما دخل وراه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة يجلسه على سرير ملكه فنزل عن سريره وأجلسه معه على البساط وقال لترجمانه اسأله عن حاجته فذكر إبله وخيله فذكر الترجمان له ذلك فقال لترجمان بلسان الحبشة قل له كنت أعجبتني إذ رأيتك ثم قد زهدت فيك إذ سألتني إبلا وخيلا وتركت أن تسأل عن البيت الذي هو عزك فقال له الترجمان ذلك فقال عبد المطلب أنا رب الإبل والخيل التي سألتها الملك وأما البيت فله رب إن شاء أن يمنعه من الملك فقال أبرهة ما كان ليمنعه مني فرد عليه ما كان أخذ له وانصرف وأبرهة بلسان الحبشة الأبيض الوجه

ثم إن الفيل لما نظر إلى وجه عبد المطلب برك كما يبرك البعير وخر ساجدا وأنطق الله سبحانه وتعالى الفيل فقال السلام على النور الذي في ظهرك يا عبد المطلب وفي كلام بعضهم أن أبرهة لما بلغه مجيء عبد المطلب إليه أمر أن عبد المطلب قبل دخوله عليه أن يذهب به إلى الفيلة ليراها ويرى الفيل العظيم وكان أبيض اللون أقول رأيت أن ملك الصين كان في مربطه ألف فيل أبيض وكان مع الفرس في قتال أبي عبيد بن مسعود الثقفي أمير الجيش في خلافة الصديق أفيلة كثيرة عليها الجلاجل

وقدموا بين أيديهم فيلا عظيما أبيض وصارت خيول المسلمين كلما حملت وسمعت حس الجلاجل نفرت فأمر أبو عبيد المسلمين أن يقتلوا الفيلة فقتلوها عن آخرها وتقدم أبو عبيد لهذا الفيل العظيم الأبيض فضربه بالسيف فقطع زلومه فصاح الفيل صيحة هائلة وحمل على أبي عبيد فتخبطه برجله ووقف فوقه فقتله فحمل على الفيل شخص كان أبو عبيد أوصى أن يكون أميرا بعده فقتله ثم آخر حتى قتل سبعة من ثقيف كان قد نص أبو عبيد عليهم واحد بعد واحد وهذا من أغرب الإتفاقيات والله أعلم وإنما أرى عبد المطلب الفيلة إرهابا له وتخويفا فإن العرب لم تكن تعرف الأفيال وكانت الأفيال كلها ما عدا الفيل الأعظم تسجد لأبرهة

وأما الفيل الأعظم فلم يسجد إلا للنجاشي فلما رأت الفيلة عبد المطلب سجدت حتى الفيل الأعظم وقيل إن أبرهة لم يخرج إلا بالفيل الأعظم ولما بلغ أبرهة سجود الفيلة لعبد المطلب تطير ثم أمر بإدخال عبد المطلب عليه فلما رآه ألقى له الهبة في قلبه فنزل عن سريره تعظيما لعبد المطلب ثم رأيت العلامة ابن حجر في شرح الهمزية حاول الجواب عن هذا الذي تقدم عن الحافظ النيسابوري من أن النور إستدار في وجه عبد المطلب إلى آخره أي قول الفيل السلام على النور الذي في ظهره يا عبد المطلب مع أن ولادته صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت يلزمها أن يكون النور انتقل من عبد المطلب إلى عبد الله ثم انتقل من عبد الله إلى آمنة بأن النور وإن انتقل من عبد المطلب لكن الله سبحانه وتعالى أكرم عبد المطلب فأحدث ذلك النور في ظهره وفي وجهه وأطلع الفيل عليه هذا كلامه فليتأمل

وذكر بعضهم أن الفيل مع عظم خلقته صوته ضئيل أي ضعيف ويفرق أي يخاف من السنور الذي هو القط ويفزع منه

وفي المواهب والمشهور أنه صلى الله عليه وسلم ولد بعد الفيل لأن قصة الفيل كانت توطئة لنبوته ومقدمة لظهوره وبعثته هذا كلامه وفيه أنه قد يقال الإرهاصات إنما تكون بعد وجوده وقبل مبعثه الذي هو دعواه الرسالة لا قبل وجوده بالكلية الذي هو المراد بظهوره وحينئذ فقول القاضي البيضاوي إنها من الإرهاصات إذ روى أنها وقعت في السنة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أي بعد وجوده ومن ثم قال ابن القيم في الهدى إن مما جرت به عادة الله تعالى أن يقدم بين يدي الأمور العظيمة

مقدمات تكون كالمدخل لها فمن ذلك قصة مبعثه صلى الله عليه وسلم تقدمها قصة الفيل هذا كلامه

قال فلما شرع أبرهة في الذهاب إلى مكة وصل الفيل إلى أول الحرم والمواهب أسقط هذا وهو يوهم أنهم دخلوا مكة وأن الفيل برك دون البيت فليتأمل وعند وصوله إلى أول الحرم برك فصاروا يضربون رأسه ويدخلون الكلاب في مرق بطنه فلا يقوم فوجهوا وجهه إلى جهة اليمن فقام يهرول وكذا إلى جهة الشام فعل ذلك مرارا فأمر أبرهة أن يسقى الفيل الخمر ليذهب تمييزه فسقوه فثبت على أمره

ويقال إنما برك لأن نفيل بن حبيب الخثعمي قام إلى جنب الفيل فعرك أذنه وقال ابرك محمودا وارجع راشدا من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام ثم أرسل أذنه فبرك قال السهيلي رحمه الله الفيل لا يبرك فيحتمل أن يكون بروكه سقوطه على الأرض لما جاءه من أمر الله سبحانه ويحتمل أن يكون فعل البرك وهو الذي يلزم موضعه ولا يبرح فعبّر بالبروك عن ذلك

قال وقد سمعت من يقول إن في الفيلة صنفا منها يبرك كما يبرك الجمل وعند ذلك أرسل الله سبحانه وتعالى عليهم الطير الأبايل خرجت من البحر أمثال الخطاطيف ويقال إن حمام الحرم من نسل تلك الطير فأهلكتهم وقد يقال إن هذا اشتباه لأن الذي قيل إنه من نسل الأبايل إنما هو شيء يشبه الزرازير يكون باب إبراهيم من الحرم وإلا فسيأتي أن حمام الحرم من نسل الحمام الذي عشش على فم الغار على ما سيأتي فيه وفي حياة الحيوان أن الطير الأبايل تعشش وتفرخ بين السماء والأرض

ولما هلك صاحب الفيل وقومه عزت قريش وهابتهم الناس كلهم وقالوا أهل الله لأن الله معهم وفي لفظ لأن الله سبحانه وتعالى قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم الذي لم يكن لسائر العرب بقتاله قدرة وغنموا أموال أصحاب الفيل أي ومن حينئذ مزقت الحبشة كل ممزق وخرب ما حول تلك الكنيسة التي بناها أبرهة فلم يعمرها أحد وكثرت حولها السباع والحيات ومردة الجن وكان كل من أراد أن يأخذ منها شيئا أصابته الجن واستمرت كذلك إلى زمن السفاح الذي هو أول خلفاء بني العباس

فذكر له أمرها فبعث إليها عامله على اليمن فخر بها وأخذ خشبها المرصع بالذهب والآلات المفضضة التي تساوي قناطير من الذهب فحصل له منها مال عظيم وحينئذ عفا رسمها وانقطع خبرها واندرست آثارها

وقد كان عبد المطلب أمر قريشا أن تخرج من مكة وتكون في رؤوس الجبال خوفا عليهم من المعرفة وخرج هو وإياهم إلى ذلك بعد أن أخذ بحلقة باب الكعبة ومعه نفر من قريش يدعون الله سبحانه وتعالى ويستنصرونه على أبرهة وجنده وقال

* لاهم إن العبد يح
* مى رحله فامنع حلالك
* لا يغلبن صليهم
* ومحالهم غدوا محالك
*

أي فإنهم كانوا نصارى ولا هم أصله اللهم فإن العرب تحذف الألف واللام وتكتفي بما يبقى وكذلك تقول لاه أبوك تريد لله أبوك والحلال بكسر الحاء المهملة جمع حلة وهي البيوت المجتمعة والمحال بكسر الميم القوة والشدة والغدو بالغين المعجمة أصله الغد وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك الذي أنت فيه ويقال إن عبد المطلب جمع قومه وعقد راية وعسكر بمنى

وجمع ابن ظفر بينه وبين ما تقدم من أنه خرج مع قومه إلى رؤوس الجبال بأنه يحتمل أنه أمر أن تكون الذرية في رؤوس الجبال أي وخرج معهم تأنيسا لهم ثم رجع وجمع إليه المقاتلة أي ويؤيد ذلك قول المواهب ثم إن أبرهة أمر رجلا من قومه يهزم الجيش فلما وصل مكة ونظر إلى وجه عبد المطلب خضع إلى آخر ما تقدم فإسقاط المواهب كون قريش جيشت جيشا مع قومه ثم إن أبرهة أرسل رجلا من قومه ليهزم الجيش لا يحسن ثم ركب عبد المطلب لما استبطأ مجيء القوم إلى مكة ينظر ما الخبر فوجدهم قد هلكوا أي غالبهم وذهب غالب من بقي فاحتمل ما شاء من صفراء وبيضاء ثم آذن أي أعلم أهل مكة بهلاك القوم فخرجوا فانتبهوا

وفي كلام سبط ابن الجوزي وسبب غنى عثمان بن عفان أن أباه عفان وعبد المطلب وأبا مسعود الثقفي لما هلك أبرهة وقومه كانوا أول من نزل مخيم الحبشة فأخذوا من أموال أبرهة وأصحابه شيئا كثيرا ودفنوه عن قريش فكانوا أغنى قريش وأكثرهم مالا ولما مات عفان ورثه عثمان رضي الله تعالى عنه أي ومن جملة من سلم من قوم أبرهة ولم يذهب بل بقي بمكة سائس الفيل وقائده

فعن عائشة رضي الله تعالى عنها أدركت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين
يستطعمان الناس

وأورد علي هذا أن الحجاج خرب الكعبة بضرب المنجنيق ولم يصبه شيء
ويجاب بأن الحجاج لم يجيء لهدم الكعبة ولا لتخريبها ولم يقصد ذلك وإنما قصد
التضييق على عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما ليسلم نفسه وهذا أولى من
جواب

المواهب كما لا يخفى والله أعلم

وكان مولده صلى الله عليه وسلم بمكة في الدار التي صارت تدعى لمحمد بن يوسف
أخي الحجاج أي وكانت قبل ذلك لعقيل بن أبي طالب ولم تزل بيد أولاده بعد وفاته
إلى أن باعوها لمحمد بن يوسف أخي الحجاج بمائة ألف دينار قاله الفاكهي أي
فأدخلها في داره وسمها البيضاء أي لأنها بنيت بالحصى ثم طليت به فكانت كلها
بيضاء وصارت تعرف بدار ابن يوسف لكن سيأتي في فتح مكة أنه قيل له صلى الله
عليه وسلم يا رسول الله تنزل في الدور قال هل ترك لنا عقيل من رباغ أو دور فإن هذا
السياق يدل على أن عقيل باع تلك الدار فلم يبق بيده ولا بيد أولاده بعده إلا أن يقال
المراد باع ما عدا هذه الدار التي هي مولده صلى الله عليه وسلم أي لأنه كما سيأتي
في الفتح باع دار أبيه أبي طالب لأنه وطالبا أخاه ورثا أبا طالب لأنهما كانا كافرين
عند موت أبي طالب دون جعفر وعلي رضي الله تعالى عنهما فإنهما كانا مسلمين
وعقيل أسلم بعد دون طالب فإن طالبا اختطفته الجن ولم يعلم به وإن عقيل باع دار
رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي دار خديجة أي التي يقال لها مولد فاطمة
رضي الله تعالى عنها وهي الآن مسجد يصلى فيه بناه معاوية رضي الله تعالى عنه أيام
خلافته قيل وهو أفضل موضع بمكة بعد المسجد الحرام أي واشتهر بمولد فاطمة رضي
الله تعالى عنها لشرفها وإلا فهو مولد بقية إخوتها من خديجة ولعل معاوية رضي الله
تعالى عنه اشترى تلك الدار ممن اشترها من عقيل
ويدل لما قلناه قول بعضهم لم يتعرض صلى الله عليه وسلم عند فتح مكة لتلك الدار
التي أبقاها في يد عقيل أي التي هي دار خديجة فإنه لم يزل بها صلى الله عليه وسلم
حتى هاجر فأخذها عقيل
وفي كلام بعضهم لما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة ضرب مخيمه بالحجون

ف قيل له ألا تنزل منزلك من الشعب فقال وهل ترك لنا عقيل منزلا وكان عقيل قد باع منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنازل إخوته حين هاجروا من مكة ومنزل كل من هاجر من بني هاشم

وفي كلام بعضهم كان عقيل تخلف عنهم في الإسلام والهجرة فإنه أسلم عام الحديبية التي هي السنة السادسة وباع دورهم فلم يرجع النبي صلى الله عليه وسلم في شيء منها وهي أي تلك الدار التي ولد بها صلى الله عليه وسلم عند الصفا قد بنتها زبيدة زوجة الرشيد أم الأمين لما حجت

وفي كلام ابن دحية أبن الخيزران أم هارون الرشيد لما حجت أخرجت تلك الدار من دار ابن يوسف وجعلتها مسجدا ويجوز أن تكون زبيدة جددت ذلك المسجد الذي بنته الخيزران فنسب لكل منهما وسيأتي أن الخيزران بنت دار الأرقم مسجدا وهي عند الصفا أيضا ولعل الأمر التبس على بعض الرواة لأن كل منهما عند الصفا وقيل ولد صلى الله عليه وسلم في شعب بني هاشم

أقول قد يقال لا مخافة لأنه يجوز أن تكون تلك الدار من شعب بني هاشم ثم رأيت التصريح بذلك ولا ينافيه ما تقدم في الكلام على الحمل من أن شعب أبي طالب وهو من جملة بني هاشم كان عند الحجون لأنه يجوز أن يكون أبو طالب انفرد عنهم بذلك الشعب والله أعلم

قال وقيل ولد صلى الله عليه وسلم في الردم أي ردم بني جمح وهم بطن من قريش ونسب لبني جمح لأنه ردم على من قتلوا في الجاهلية من بني الحارث فقد وقع بين بني جمح وبين بني الحارث في الجاهلية مقتلة وكان الظفر فيهما لبني جمح على بني الحارث فقتلوا منهم جمعا كثيرا وردد على تلك القتل بذلك المحل وقيل ولد بعسفان انتهى

أقول مما يرد القول بكونه ولد بعسفان ما ذكره بعض فقهاءنا أن من جملة ما يجب على الولي أن يعلم موليه إذا ميز أنه صلى الله عليه وسلم ولد بمكة ودفن بالمدينة إلا أن يقال ذاك بناء على ما هو الأصح عندهم والردم هو المحل الذي كانت ترى منه الكعبة قبل الآن ويقال له الآن المدعى لأنه يؤتى فيه بالدعاء الذي يقال عند رؤية الكعبة ولم أقف على أنه صلى الله عليه وسلم وقف به ولعله لم يكن مرتفعا في زمنه صلى الله

عليه وسلم لأنه إنما رفعه وبناه سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه في خلافته لما جاء السيل العظيم الذي يقال له سيل أم نهشل وهي بنت عبيدة بن سعيد بن العاص فإنه أخذها وألقاها أسفل مكة فوجدت هناك ميتة ونقل المقام إلى أن ألقاه بأسفل مكة أيضا فجيء به وجعل عند الكعبة وكوتب عمر رضي الله عنه بذلك فحضر وهو فزع مرعوب ودخل مكة معتمرا فوجد محل المقام دثر وصار لا يعرف فهاله ذلك ثم قال أنشد الله عبدا عنده علم من محل هذا المقام فقال المطلب بن رفاعة رضي الله تعالى عنه أنا يا أمير المؤمنين عندي علم بذلك فقد كنت أخشى عليه مثل ذلك فأخذت قدره من موضعه إلى باب الحجر ومن موضعه إلى زمزم بحفاظ فقال له اجلس عندي وأرسل فأرسل فجيء بذلك الحفاظ فقيس به ووضع المقام بمحله الآن وأحكم ذلك واستمر إلى الآن فعند ذلك بني هذا المحل الذي يقال له الردم بالصخرات العظيمة ورفع فصار لا يعلوه السيل وصارت الكعبة تشاهد منه والآن قد حالت الأبنية فصارت لا ترى ومع ذلك لا بأس بالوقوف عنده والدعاء فيه تبركا بمن سلف ولعل هذا محمل قول من قال أول من نقل المقام إلى محله وكان ملصقا بالكعبة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فلا ينافي أن الناقل له هو صلى الله عليه وسلم كما سيأتي لكن رأيت ابن كثير قال وقد كان هذا الحجر أي الذي هو المقام ملصقا بباب الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فأخره عنه لئلا يشغل المصلين عنده الطائفون بالبيت هذا كلامه

وقوله من قديم الزمان ظاهره من عهد إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام فليتأمل وعن كعب الأحبار إنني أجد في التوراة عبدي أحمد المختار مولده بمكة أي وهو ظاهر في أن كعب الأحبار كان قبل الإسلام على دين اليهودية وقال وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه عن أمه الشفاء أي بكسر الشين المعجمة وتخفيف الفاء وقيل بفتحها وتشديد الفاء مقصورا قالت لما ولدت آمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقع على يدي أي فهي دايته صلى الله عليه وسلم ووقع في كلام ابن دحية أن أم أيمن دايته صلى الله عليه وسلم وقد يقال إطلاق الداية على أم أيمن لأنها قامت بخدمته صلى الله عليه وسلم ومن ثم قيل لها حاضنته وللشفاء قابله

وقد قيل في اسم الوالدة والقابلة الأيمن والشفاء وفي اسم الحاضنة البركة والنماء وفي اسم مرضعته أولا التي هي ثوية الثواب وفي اسم مرضعته المستقلة برضاعه التي هي حليلة السعدية الحلم والسعد قالت أم عبد الرحمن فاستهل فسمعت قائلا يقول يرحمك الله تعالى أو يرحمك ربك أي أو يرحمك ربك ولهذا القول الذي لا يقال إلا عند العطاس أي الذي هو التشميت بالشين المعجمة والمهملة حمل بعضهم الإستهلال الذي هو في المشهور صياح المولود أول ما يولد يقال استهل المولود إذا رفع صوته على العطاس مع الاعتراف بأنه لم يجيء في شيء من الأحاديث تصريح بأنه صلى الله عليه وسلم لما ولد عطس انتهى أي فقد قال الحافظ السيوطي لم أقف في شيء من الأحاديث يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لما ولد عطس بعد مراجعة أحاديث المولد من مظانها أي وعطس بفتح الطاء يعطس بالكسر والضم وحكى الفتح ولعله من تداخل اللغتين لكن في الجامع الصغير إستهلال الصبي العطاس وحينئذ يكون إستهلال المولود له معنيان هما مجرد رفع الصوت والعطاس وحمل هنا على العطاس بقرينة الجواب الذي لا يقال إلا عند العطاس وقد أشار إلى التشميت صاحب الهمزية رحمه الله بقوله * شمته الأملاك إذ وضعته * وشفتنا بقولها الشفاء *

أي قالت له الأملاك رحمك الله أو يرحمك ربك وقت وضع أمه له وفرحتنا بقولها المذكور الشفا التي هي أم عبد الرحمن بن عوف أقول قال بعضهم ولعله صلى الله عليه وسلم حمد الله بعد عطاسه لما استقر من شرعة الشريف أنه لا يسن التشميت إلا لمن حمد الله تعالى هذا كلامه ويدل لما ترجاه ما تقدم انه صلى الله عليه وسلم حين خروجه من بطن أمه قال الحمد لله كثيرا وفي كلام بعض شراح الهمزية ويجوز أن يكون شمت من غير حمد تعظيما لقدره صلى الله عليه وسلم وقد جاء العاطس إن حمد الله تعالى فشمتوه وإن لم يحمد فلا تشمتوه وجاء إذا عطس فحمد الله تعالى فحق على كل من سمعه أن يشمته وفي الصحيح أن رجلا عطس عند النبي صلى الله عليه وسلم وحمد الله فشمتوه وعطس آخر فلم يحمد الله فلم يشمته وفي حديث حسن إذا عطس أحدكم فليشمته جليسه فإذا زاد على ثلاث فهو مزكوم فلا يشمت بعد ثلاث وتمسك بذلك أي بالأمر بالتشميت بصيغة افعل التي الأصل فيها الوجوب وبقوله حتى أهل الظاهر على وجوب التشميت على كل من سمع

وذهب بعض الأئمة إلى وجوبه على الكفاية وهو منقول عن مشهور مذهب مالك رضي الله تعالى عنه أي وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ليس على إبليس أشد من تشميت العاطس

وعن سالم بن عبيد الله الأشجعي وكان من أهل الصفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عطس أحدكم فليحمد الله عز وجل وليقل من عنده يرحمك الله وليرد عليه بقوله يغفر الله لي ولكم ومن لطيف ما اتفق أن الخليفة المنصور وشيء عنده ببعض عماله فلما حضر عنده عطس المنصور فلم يشمته ذلك العامل فقال له المنصور ما منعك من التشميت فقال إنك لم تحمد الله فقال حمدت في نفسي فقال قد شمتك في نفسي فقال له ارجع إلى عملك فإنك إذا لم تحابني لا تحابني غيري

قال بعضهم والحكمة في قول العاطس ما ذكر أنه ربما كان العطاس سببا لإلتواء عنقه فيحمد الله على معافاته من ذلك وقال غيره لأن الأذى وهي الأبخرة المحتقنة تندفع به عن الدماغ الذي فيه قوة التذكر والتفكير أي فهو بحران الرأس كما أن العرق بحران بدن المريض وذلك نعمة جلييلة وفائدة عظيمة ينبغي أن يحمد الله تعالى عليها أي ولأن الأطباء كما زعمه بعضه نصوا على أن العطاس من أنواع الصرع أعاذنا الله تعالى من الصرع وقد ينازع فيه ما تقدم وما ذكره بعض الأطباء أن العطاس للدماغ كالسعال للرئة

قال والعطاس أنفع الأشياء لتخفيف الرأس وهو مما يعين على نقص المواد المحتبسة ويسكن ثقل الرأس فيحصل منه النشاط والخفة وفي نوادر الأصول للترمذي قال صلى الله عليه وسلم هذا جبريل يخبركم عن الله تعالى ما من مؤمن يعطس ثلاث عطسات متواليات إلا كان الإيمان في قلبه ثابتا وفي الجامع الصغير إن الله تعالى يحب العطاس ويكره التثاؤب والعطسة الشديدة من الشيطان وفي الحديث العطاس شاهد عدل وفي حديث حسن أصدق الحديث ما عطس عنده

وقد جاء أن روح آدم عليه السلام لما نزلت إلى خياشيمه عطس فلما نزلت إلى فمه ولسانه قال الله تعالى له قل الحمد لله رب العالمين فقالها آدم عليه السلام فقال الحق

يرحمك الله يا آدم ولذلك خلقتك وفي رواية وللرحمة خلقتك أي للموت وقد روى الترمذي مرفوعا بسند ضعيف العطاس والنعاس والتثاؤب في الصلاة من الشيطان وروى ابن أبي شيبة موقوفا بسند ضعيف أيضا إن الله يكره التثاؤب ويحب العطاس في الصلاة أي فمع كون كل واحد من العطاس والتثاؤب في الصلاة من الشيطان العطاس فيها أحب إلى الله تعالى من التثاؤب فيها والتثاؤب فيها أكره إلى الله تعالى من العطاس فيها لأن الكراهة مقولة بالتشكيك

ويمكن حمل كون العطاس من الشيطان على شدته ورفع الصوت به كما تقدم التقييد بذلك من الرواية السابقة ومن ثم جاء إذا عطس أحدكم أي هم بالعطاس فليضع كفيه على وجهه وليخفض صوته أي ولا ينافي وجود الشفاء ووجود أم عثمان بن العاص عند أمه صلى الله عليه وسلم عند ولادته ما روى عنها أنها قالت لما أخذني ما يأخذ النساء أي عند الولادة وإني لوحيدة في المنزل رأيت نسوة كالنخل طولا كأنهن من بنات عبد مناف يحدقن بي وفي كلام ابن المحدث ودخل على نساء طوال كأنهن من بنات عبد المطلب ما رأيت أضواً منهن وجوها وكأن واحدة من النساء تقدمت إلي فاستندت إليها وأخذني المخاض واشتد علي الطلق وكان واحدة منهن تقدمت إلي وناولتني شربة من الماء أشد بياضا من اللبن وأبرد من الثلج وأحلى من الشهد فقالت لي اشربي فشربت ثم قالت الثالثة ازدادي فازددت ثم مسحت بيدها على بطني وقالت بسم الله اخرج بإذن الله تعالى فقلن لي أي تلك النسوة ونحن آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وهؤلاء من الحور العين لجواز وجود الشفاء أم عثمان عندها بعد ذلك وتأخر خروجه صلى الله عليه وسلم عن القول المذكور حتى نزل على يد الشفاء لما تقدم من قولها وقع على يدي ولعل حكمة شهود آسية ومريم لولادته كونهما تصيران زوجتين له صلى الله عليه وسلم في الجنة مع كلثم أخت موسى

ففي الجامع الصغير إن الله تعالى زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى وسيأتي عند موت خديجة أنه صلى الله عليه وسلم قال لها أشعرت أن الله تعالى قد أعلمني أنه سيزوجني وفي رواية أما علمت أن الله تعالى قد زوجني معك في الجنة مريم ابنة عمران وكلثم أخت موسى وآسية امرأة فرعون فقالت الله أعلمك بهذا قال نعم قالت بالرفاء والبنين وقد حمى الله هؤلاء النسوة عن أن يطأهن أحد

فقد ذكر أن آسية لما ذكرت لفرعون أحب أن يتزوجها فتزوجها على كره منها ومن أبيها مع بذله لها الأموال الجلييلة فلما زفت له وهم بها أخذها الله عنها وكان ذلك حاله معها وكان قد رضى منها بالنظر إليها

وأما مريم فقبل إنها تزوجت بابن عمها يوسف النجار ولم يقربها وإنما تزوجها ليرفقاها إلى مصر لما أرادت الذهاب إلى مصر بولدها عليه السلام وأقاموا بها اثنتي عشرة سنة ثم عادت مريم وولدها إلى الشام ونزلا الناصرة

وأخت موسى عليه الصلاة والسلام لم يذكر أنها تزوجت وهذا يفيد أن بنات عبد مناف أو بنات عبد المطلب على ما تقدم كن متميزات عن غيرهن من النساء في إفراط الطول

وقد رأيت أن علي بن عبد الله بن عباس وهو جد الخليفتين السفاح والمنصور أول خلفاء بني العباس أبو أبيهما محمد كان مفرطا في الطور كان إذا طاف كان الناس حوله وهو راكب وكان مع هذا الطول إلى منكب أبيه عبد الله بن عباس وكان عبد الله ابن عباس إلى منكب أبيه العباس وكان العباس إلى منكب أبيه عبد المطلب لكن ابن الجوزي اقتصر في ذكر الطوال على عمر بن الخطاب والزبير بن العوام وقيس بن سعد وحبيب بن سلمة وعلي بن عبد الله بن العباس وسكت عن عبد الله ابن عباس وعن أبيه العباس وعن أبيه عبد المطلب

وفي المواهب أن العباس كان معتدلا وقيل كان طوالا ورأيت أن عليا هذا جد الخلفاء العباسيين كان على غاية من العبادة والزهادة والعلم والعمل وحسن الشكل حتى قيل إنه كان أجمل شريف على وجه الأرض وكان يصلى في كل ليلة ألف ركعة ولذلك كان يدعى السجاد وأن سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه هو الذي سماه عليا وكناه أبا الحسن

فقد روى أن عليا رضي الله تعالى عنه افتقد عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما في وقت صلاة الظهر فقال لأصحابه ما بال أبي العباس يعني عبد الله لم يحضر فقالوا ولد له مولود فلما صلى علي كرم الله وجهه قال امضوا بنا إليه فأتاه فهنأه فقال شكرت الواهب وبورك لك في الموهوب زاد بعضه ورزقت بره وبلغ أشده ما سميته قال أو يجوز لي أن أسميه حتى تسميه فأمر به فأخرج إليه

فأخذه فحنكه ودعا له ثم رده إليه وقال خذه إليك أبا الأملاك قد سميته عليا وكنيته أبا الحسن فلما ولى معاوية الخلافة قال لابن عباس ليس لكم اسمه ولا كنيته يعنى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه كراهة في ذلك وقد كنيته أبا محمد فجرت عليه وقد يخالف ذلك ما ذكر بعضهم أن عليا المذكور لما قدم على عبد الملك بن مروان قال له غير اسمك أو كنيته فلا صبر لي علي اسمك وهو علي وكنيته وهي أبو الحسن قال أما الاسم فلا أغیره وأما الكنية فأكتنى بأبي محمد وإنما قال عبد الملك ذلك كراهة في اسم علي بن أبي طالب وكنيته وعلى هذا دخل هو وولدا ولده محمد وهما السفاح والمنصور وهما صغيران يوما على هشام بن عبد الملك بن مروان وهو خليفة فأكرمه هشام فصار يوصيه عليهما ويقول له سيليان هذا الأمر يعنى الخلافة فصار هشام يتعجب من سلامة باطنه وينسبه في ذلك إلى الحمق ويقال إن الوليد بن عبد الملك أي لما ولى الخلافة وبلغه عنه أنه يقول ذلك ضربه بالسياط على قوله المذكور وأركبه بعيرا وجعل وجهه مما يلي ذنب البعير وصائح يصيح عليه هذا علي بن عبد الله بن عباس الكذاب قال بعضهم فأتيته وقلت له ما هذا الذي يسنده إليك من الكذب قال بلغهم عني أنني أقول إن هذا الأمر يعنى الخلافة ستكون في ولدي والله لتكونن فيهم فكان الأمر على ما ذكر فقد ولى السفاح الخلافة ثم المنصور

وفي دلائل النبوة للبيهقي أن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قدم على معاوية رضي الله تعالى عنه فأجازه وأحسن جائزته ثم قال يا أبا العباس هل تكون لكم دولة قال أعفني يا أمير المؤمنين قال لتخبرني قال نعم قال فمن أنصاركم قال أهل خراسان أي وهو أبو مسلم الخراساني يجيء بجيشه معه رايات سود يسلب دولة بني أمية ويجعل الدولة لبني العباس يقال إن أبا مسلم هذا قتل ستمائة ألف رجل صبوا غير الذي قتله في الحروب وهذا الرايات السود غير التي عنها صلى الله عليه وسلم بقوله إذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فأتوها فإن فيها خليفة الله المهدي فإن تلك الرايات تأتي قبيل قيام الساعة ثم صارت الخلافة في أولاد المنصور وقول علي في ولدي واضح لأن ولد الولد ولد وقد حكى في مرآة الزمان عن المأمون أنه قال حدثني أبي يعنى هارون الرشيد

عن أبيه المهدي عن أبيه المنصور عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي عن أبيه عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سيد القوم خادمهم وذكر أنه مما يؤثر عن المأمون أنه كان يقول استخدام الرجل ضيفه لؤم وكان يقول لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا إلي بالجرائم وإني أخاف أني لا أوجر على العفو أي لأنه صار لي طبيعة وسجية

قالت أمه صلى الله عليه وسلم ورأيت ثلاثة أعلام مضروبات علما بالمشرق وعلما بالمغرب وعلما على ظهر الكعبة والله أعلم

ولما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعت عليه جفنة بفتح الجيم فانفلقت عنه فلقتين قال وهذا مما يؤيد أنه صلى الله عليه وسلم ولد ليلا فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال كان في عهد الجاهلية إذا ولد لهم مولود من تحت الليل وضعوه تحت الإناء لا ينظرون إليه حتى يصبحوا فلما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعوه تحت برمة زاد في لفظ ضخمة والبرمة القدر فلما أصبحوا أتو البرمة فإذا هي قد انفلقت ثنتين وعيناه إلى السماء فتعجبوا من ذلك

وعن أمه أنها قالت فوضعت عليه الإناء فوجدته قد تفلق الإناء عنه وهو يمص إبهامه يشخب أي يسيل لبنا

أي وفي العرائس أن فرعون لما أمر بذبح أبناء بني إسرائيل جعلت المرأة أي بعض النساء كما لا يخفى إذا ولدت الغلام انطلقت به سرا إلى واد أو غار فأخفته فيه فيقبض الله سبحانه وتعالى له ملكا من الملائكة يطعمه ويسقيه حتى يختلط بالناس وكان الذي أتى السامري لما جعلته أمه في غار من الملائكة جبريل عليه الصلاة والسلام فكان أي السامري يمص من إحدى إبهاميه سمنا ومن الأخرى عسلا ومن ثم إذا جاع المرضع يمص إبهامه فيروى من المص قد جعل الله له فيه رزقا والسامري هذا كان منافقا يظهر الإسلام لموسى عليه الصلاة والسلام ويخفى الكفر

وفي رواية أن عبد المطلب هو الذي دفعه لنسوة ليضعوه تحت الإناء أقول هذا هو الموافق لما سيأتي عن ابن إسحاق من أن أمه صلى الله عليه وسلم لما ولدته أرسلت إلى جده أي وكان يطوف بالبيت تلك الليلة فجاء إليها أي فقالت له يا أبا الحارث ولد لك مولود له أمر عجيب فدعر عبد المطلب وقال أليس بشرا

سويا فقالت نعم ولكن سقط ساجدا ثم رفع رأسه وأصبعيه إلى السماء فأخرجته له ونظر إليه وأخذه ودخل به الكعبة ثم خرج فدفعه إليها وبه يظهر التوقف في قول ابن دريد أكفئت عليه جفنة لئلا يراه أحد قبل جده فجاء جده والجفنة قد أنفلقت عنه إلا أن يقال يجوز أن يكون جده أخذه بعد إنفلاق الجفنة ثم دخل به الكعبة ثم بعد خروجه به من الكعبة دفعه له وللنسوة ليضعوه تحت جفنة أخرى إلى أن يصبح فأنفلقت تلك الجفنة الأخرى حتى لا ينافي ذلك ما تقدم عن أمه فوجدت الإناء قد تفلق وهو يمص إبهامه

وعن إياس الذي يضرب به المثل في الذكاء قال أذكر الليلة التي وضعت فيها وضعت أمي على رأسي جفنة وقال لأمه ما شيء سمعته لما ولدت قالت يا بني طست سقط من فوق الدار إلى أسفل ففزعت فولدتك تلك الساعة وقال بعضهم يولد في كل مائة سنة رجل تام العقل وإن إياسا منهم ولعل هذا هو المراد بما جاء في الحديث يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها والمراد برأسها آخرها بأن يدرك أوائل المائة التي تليها بأن تنقضى تلك المائة وهو حي إلا أنني لم أفق على أن إياسا هذا كان من المجددين والله أعلم وفي تفسير ابن مخلد الذي قال في حقه ابن حزم ما صنف مثله أصلا أن إبليس رن أي صوت بحزن وكآبة أربع رنات رنة حين لعن ورنه حين أهبط ورنه حين ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم أي وهو المراد بقول بعضهم يوم بعثه ورنه حين أنزلت عليه صلى الله عليه وسلم فاتحة الكتاب وإلى رنته حين ولادته صلى الله عليه وسلم أشار صاحب الأصل بقوله

* لمولده قد رن إبليس رنة

* فسحقا له ماذا يفيد رنينه

*

وعن عطاء الخراساني لما نزل قوله تعالى * (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) * صرخ إبليس صرخة عظيمة اجتمع إليه فيها جنوده من أقطار الأرض قائلين ما هذه الصرخة التي أفزعتنا قال أمر نزل بي لم ينزل قط أعظم منه قالوا وما هو فتلا عليهم الآية وقال لهم فهل عندكم من حيلة قالوا ما عندنا من حيلة فقال اطلبوا فإني سأطلب قال فلبثوا ما شاء الله ثم صرخ أخرى فاجتمعوا إليه وقالوا ما هذه الصرخة التي لم نسمع منك مثلها إلا التي قبلها قال هل وجدتم

شيئا قالوا لا قال لكنني قد وجدت قالوا وما الذي وجدت قال أزين لهم البدع التي يتخذونها ديناً ثم لا يستغفرون أي لأن صاحب البدعة يراها بجهله حقاً وصواباً ولا يراها ذنباً حتى يستغفر الله منها

وقد جاء في الحديث أبي الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى بدع بدعته أي لا يثبته على عمله ما دام متلبساً بتلك البدعة

وعن الحسن قال بلغني أن إبليس قال سولت لأمة محمد صلى الله عليه وسلم المعاصي فقطعوا ظهري بالاستغفار فسولت لهم ذنوباً لا يستغفرون الله منها وهي الأهواء أي البدع

وقد جاء في الحديث أخاف على أمتي بعدي ثلاثاً ضلالة الأهواء الحديث أهل الأهواء هم أهل البدع

وعن عكرمة أن إبليس لما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأى تساقط النجوم قال أي لجنوده لقد ولد الليلة ولد يفسد علينا أمرنا وهذا يدل على أن تساقط النجوم كان عند إبليس علامة على وجود نبينا صلى الله عليه وسلم فقال له جنوده لو ذهبت إليه فخبيلته فلما دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الله جبريل عليه الصلاة والسلام فركضه برجله ركضة وقع بعدن وكون تساقط النجوم كان عند إبليس علامة على وجود نبينا صلى الله عليه وسلم مشكل مع قول بعضهم لما رجمت الشياطين ومنعت من مقاعدها في السماء لإستراق السمع شكوا ذلك لإبليس فقال لهم هذا أمر حدث في الأرض وأمرهم أن يأتوه بتربة من كل أرض فصر يشمها إلى أن أتى بتربة من أرض تهامة فلما شمها قال من ههنا الحدث هكذا ساقه بعضهم عند ولادته صلى الله عليه وسلم إلا أن يقال لا إشكال لأن تساقط النجوم وإن كان علامة وجود نبينا صلى الله عليه وسلم لكن في أي أرض على أن بعضهم أنكروا كون ما ذكر كان عند الولادة وقد تقدم أن المذكور في كلام غيره إنما هو عند مبعثه صلى الله عليه وسلم كما سيأتي ولعله من خلط بعض الرواة

وعبارة بعضهم روى أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء ثم تجاوزت سماء الدنيا إلى غيرها فلما ولد عيسى عليه الصلاة والسلام منعوا من مجاوزة سماء الدنيا وصاروا يسترقون السمع في سماء الدنيا حتى ولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فمنعوا من التردد

إلى السماء إلا قليلا أي فصاروا يسترقون السمع في سماء الدنيا في بعض الأحيان وفي أكثر الأحيان يسترقون دونها حتى بعث النبي صلى الله عليه وسلم فمنعوا أصلا فصاروا لا يسترقون السمع إلا دون سماء الدنيا ثم رأيتني نقلت في الكوكب المنير في مولد البشير النذير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الشياطين كانوا لا يحجبون عن السماوات وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها مما سيقع في الأرض فيلقونها على الكهنة فلما ولد عيسى عليه الصلاة والسلام حجبا عن ثلاث سماوات وعن وهب عن أربع سماوات ولما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم حجبا عن الكل وحرست بالشهب فما يريد أحد منهم استراق السمع إلا رمى بشهاب وسيأتي عند المبعث إيضاح هذا المحل

وقد أخبرت الأحبار والرهبان بليلة ولادته صلى الله عليه وسلم فعن حسان بن ثابت رضي الله عنه قال إني لغلام يفعة أي غلام مرتفع ابن سبع سنين أو ثمان أعقل ما رأيت وسمعت إذ يهودي يثرب يصيح ذات يوم غداة على أظمة أي محل مرتفع يا معشر يهود فاجتمعوا إليه وأنا أسمع وقالوا ويلك مالك قال طلع نجم أحمد الذي ولد به في هذه الليلة أي الذي طلوعه علامة على ولادته صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة في بعض الكتب القديمة وحسان هذا سيأتي أنه ممن عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الإسلام مثلها وكذا عاش هذا القدر وهو مائة وعشرون سنة أبوه وجده ووالد جده قال بعضهم ولا يعرف أربعة تناسلوا وتساوت أعمارهم سواهم وكان حسان رضي الله عنه يضرب بلسانه أرنبه أنفه وكذا ابنه وأبوه وجده

وعن كعب الأحبار رضي الله عنه رأيت في التوراة أن الله تعالى أخبر موسى عن وقت خروج محمد صلى الله عليه وسلم أي من بطن أمه وموسى عليه الصلاة والسلام أخبر قومه أن الكوكب المعروف عندكم اسمه كذا إذا تحرك وسار عن موضعه فهو وقت خروج محمد صلى الله عليه وسلم أي وصار ذلك مما يتوارثه العلماء من بني إسرائيل وعن عائشة رضي الله عنها قالت كان يهودي يسكن مكة فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مجلس من مجالس قريش هل ولد فيكم الليلة مولود فقال القوم والله ما نعلمه قال احفظوا ما أقول لكم ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة أي وهو منكم يا معشر قريش على كتفه أي عند كتفه

علامة أي شامة فيها شعرات متواترات أي متتابعات كأنهن عرف فرس أي وتلك العلامة هي خاتم النبوة أي علامتها والدليل عليها لا يرضع لليلتين وذلك في الكتب القديمة من دلائل نبوته أي وعدم رضاعه لعله لتوعك يصيبه وفي كلام الحافظ ابن حجر وأقره تعليلا لعدم رضاعه لأن عفريتاً من الجن وضع يده على فيه وعند قول اليهودي ما ذكر تفرق القوم من مجالسهم وهو متعجبون من قوله فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم آله وفي لفظ أهله فقالوا لقد ولد الليلة لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمد فالتقى القوم حتى جاءوا لليهودي وأخبروه الخبر أي قالوا له أعلمت ولد فينا مولود قال اذهبوا معي حتى أنظر إليه فخرجوا حتى أدخلوه على أمه فقال أخرجني إلينا ابنك فأخرجته وكشفوا عن ظهره فرأى تلك الشامة فخر مغشياً عليه فلما أفاق قالوا ويلك مالك قال والله ذهبت النبوة من بني إسرائيل أفرحتم به يا معشر قريش أما والله ليسطون عليكم سطوة يخرج خبرها من المشرق إلى المغرب

أي وعن الواقدي رحمه الله أنه كان بمكة يهودي يقال له يوسف لما كان اليوم أي الوقت الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يعلم به أحد من قريش قال يا معشر قريش قد ولد نبي هذه الأمة الليلة في بحرتمكم أي ناحيتكم هذه وجعل يطوف في أنديتهم فلا يجد خبراً حتى انتهى إلى مجلس عبد المطلب فسأل فقيل له قد ولد لابن عبد المطلب أي لعبد الله غلام فقال هو نبي والتوراة

وكان بمر الظهران راهب من أهل الشام يدعى عيصاً وقد كان آتاه الله علماً كثيراً وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة فيلقى الناس ويقول يوشك أي يقرب أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة تدين له العرب أي تذل وتخضع ويملك العجم أي أرضها وبلادها هذا زمانه فمن أدركه أي أدرك بعثه واتبعه أصحاب حاجته أي ما يؤمله من الخير ومن أدركه وخالفه أخطأ حاجته فكان لا يولد بمكة مولود إلا ويسأل عنه ويقول ما جاء بعد أي الآن فلما كان صبيحة اليوم أي الوقت الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عبد المطلب حتى أتى عيصاً فوقف على أصل صومعته فناداه فقال من هذا فقال عبد المطلب أي وقيل الجائي له عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم بناء على أنه لم يمت وأمّه حامل به أي ولعل قائله أخذ ذلك من قول الراهب

لما قيل له ما ترى عليه أي علي ذلك المولود فقال كن أباه فقد ولد ذلك المولود الذي كنت أحدثكم عنه وأن نجمه أي الذي طلوعه علامة علي وجوده طلع البارحة وعلامة ذلك أي أيضا أنه الآن وجع فيشتكي ثلاثا ثم يعافى
أقول أي ولا يرضع في تلك الثلاث ليلتين فلا يخالف ما سبق من قول الآخر لا يرضع ليلتين ولا دلالة في قوله كن أباه علي أن الجائي للراهب عبد الله لأن عبد المطلب كان يقال له أبو النبي صلى الله عليه وسلم ويقال للنبي صلى الله عليه وسلم ابن عبد المطلب وقال النبي صلى الله عليه وسلم أنا ابن عبد المطلب كما تقدم والله أعلم ثم قال له فاحفظ لسانك أي لا تذكر ما قتته لك لأحد من قومك فإنه لم يحسد حسده أحد ولم يبيغ علي أحد كما يبغي عليه قال فما عمره قال إن طال عمره لم يبلغ السبعين يموت في وتر دونها في إحدى وستين أو ثلاث وستين زاد في رواية وذلك جل أعمار أمته

وعند ولادته صلى الله عليه وسلم تنكست الأصنام أي أصنام الدنيا وتقدم أيضا أنها تنكست عند الحمل به وتقدم أنه لا مانع من تعدد ذلك وجاء أن عيسى عليه السلام لما وضعت أمه خر كل شيء يعبد من دون الله في مشارق الأرض ومغاربها ساجدا لوجهه وفرع إبليس
فعن وهب بن منبه لما كانت الليلة التي ولد فيها عيسى صلى الله عليه وسلم أصبحت الأصنام في جميع الأرض منكسة على رؤوسهم وكلما ردوها على قوائمها انقلبت فحارت الشياطين لذلك ولم تعلم السبب فشكت إلى إبليس فطاف إبليس في الأرض ثم عاد إليهم فقال رأيت مولودا والملائكة قد حفت به فلم أستطع أن أدنوا إليه وما كان نبي قبله أشد علي وعليكم منه وإني لأرجو أن أضل به أكثر ممن يهتدي به أقول قد علمت أن تنكيس الأصنام تكرر لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم عند الحمل وعند الولادة فالخاص به ما كان عند الحمل لا ما كان عند الولادة لمشاركة عيسى عليه السلام في ذلك وبهذا يعلم ما في قول الجلال السيوطي في خصائصه الصغرى إن من خصائصه صلى الله عليه وسلم تنكيس الأصنام لمولده وعن عبد المطلب قال كنت في الكعبة فرأيت الأصنام سقطت من أماكنها وخرت

سجدا وسمعت صوتا من جدار الكعبة يقول ولد المصطفى المختار الذي تهلك بيده الكفار ويظهر من عبادة الأصنام ويأمر بعبادة الملك العلام ولا يقال قال إبليس في حق عيسى عليه السلام لا أستطيع أن أدنو إليه وتقدم في حق نبينا صلى الله عليه وسلم أن إبليس دنا منه فركضه جبريل عليه السلام لأنا نقول يجوز أن يكون الدنو في حق نبينا صلى الله عليه وسلم دنوا إلى محله الذي هو فيه لا إلى جسده والدنو المنفى في حق عيسى عليه السلام دنو إلى جسده

فإن قيل جاء في الحديث ما من مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا إلا مريم وابنها رواه الشيخان أي لقول أم مريم * (وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) * وفي رواية كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبه بأصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن الحجاب وهي المشيمة التي يكون فيها الولد ولعل المراد بجنبه الأيسر

وعن قتادة كل مولود يمسه الشيطان بأصبعه في جنبه فيستهل صارخا إلا عيسى ابن مريم وأمه مريم ضرب الله عليهما حجابا فأصابت الطعنة الحجاب فلم ينفذ إليهما منه شيء ولعل هذا الحجاب هو المشيمة ويحتمل أن يكون غيرها

قلت وجاء عن مجاهد أن مثل عيسى في عدم طعن الشيطان في جسده حين يولد سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وذلك لا يقال من قبل الرأي وعلى تقدير صحة ذلك يكون تخصيص عيسى وأمه بالذكر كان قبل أن يعلم صلى الله عليه وسلم بأن سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كعيسى وأمه

وهذا الكلام يرد بيان القاضي عياض للضرر المنفى في قوله صلى الله عليه وسلم من قال إذا أراد أن يأتي أهله بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن قدر بينهما في ذلك الوقت ولد من ذلك الجماع لم يضره الشيطان أبدا بأن المراد أنه لا يطعن فيه عند ولادته بخلاف غيره وهذا أي عدم قربه من نبينا صلى الله عليه وسلم يجوز أن يكون في حق خصوص إبليس فلا ينافي ما تقدم عن الحافظ ابن حجر أن عدم إرتضاعه صلى الله عليه وسلم في ليلتين بوضع عفريت من الجن يده في فيه على تسليم صحته

وصاحب الكشف أخرج المس ومثله الطعن عن حقيقته وقال المراد به طمع الشيطان

إغوائه وتبعه القاضي على ذلك وسيأتي في شق صدره صلى الله عليه وسلم كلام يتعلق بذلك

وفي كلام الشيخ محيي الدين بن العربي أعلم أنه لا بد لجميع بني آدم من العقوبة والألم شيئاً بعد شيء إلى دخولهم الجنة لأنه إذا نقل إلى البرزخ فلا بد له من الألم أدناه سؤال منكر ونكير فإذا بعث فلا بد له من ألم الخوف على نفسه أو غيره وأول الألم في الدنيا إستهلال المولود حين ولادته صارخاً لما يجده من مفارقة الرحم وسخونته فيضربه الهواء عند خروجه من الرحم فيحسن بألم البرد فيبكي فإن مات فقد أخذ حظه من البلاء وقال بعد ذلك في قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه الصلاة والسلام والسلم علي يوم ولدت معناه السلامة من إبليس الموكل بطعن الأطفال عند الولادة حين يصرخ الولد إذا خرج من طعنته فلم يصرخ عيسى عليه السلام بل وقع ساجداً لله حين خرج فليتأمل هذا مع قوله إن إستهلال المولود وصراخه حين يولد لحسه ألم البرد الذي يجده بعد مفارقة سخونة الرحم وقوله بل وقع ساجداً يدل على أن سجود نبينا صلى الله عليه وسلم حين ولد ليس من خصائصه والله أعلم

وذكر أن نفراً من قريش منهم ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وعبد الله ابن جحش كانوا يجتمعون إلى صنم فدخلوا عليه ليلة ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأروه منكساً على وجهه فأنكروا ذلك فأخذوه فردوه إلى حاله فانقلب انقلاباً عنيفاً فردوه فانقلب كذلك الثالثة فقالوا إن هذا الأمر حدث ثم أنشد بعضهم أبياتاً يخاطب بها الصنم ويتعجب من أمره ويسأله فيها عن سبب تنكسه فسمع هاتفاً من جوف الصنم

بصوت جهير أي مرتفع يقول

* تردى لمولود أضاءت بنوره

* جميع فجاج الأرض بالشرق والغرب

* الأبيات

وإلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله

* وتوات بشرى الهواتف أن قد

* ولد المصطفى وحق الهناء

*

أي تتابعت بشارة الهواتف جمع هاتف وهو ما يسمع صوته ولا يرى شخصه بأن قد ولد المصطفى المختار على الخلق كلهم وثبت لهم الفرح والسرور وليفة ولادته صلى الله عليه وسلم تزلزلت الكعبة ولم تسكن ثلاثة أيام ولياليهن

وكان ذلك أول علامة رأت قريش من مولد النبي صلى الله عليه وسلم وارتجس أي اضطرب وانشق إيوان كسرى أنوشروان ومعنى أنوشروان مجدد الملك أي وكان بناء محكما مبني بالحجارة الكبار والجص بحيث لا تعمل فيه الفؤوس مكث في بنائه نيفا وعشرين سنة أي وسمع لشقه صوت هائل وسقط من ذلك الإيوان أربع عشرة شرفة بضم الشين المعجمة وسكون الراء أي وليس ذلك الخلل في بنائه وإنما أراد الله تعالى أن يكون ذلك آية لنبيه صلى الله عليه وسلم باقية على وجه الأرض أي وقد ذكر أن الرشيد أمر وزيره يحيى بن خالد البرمكي أي والد جعفر والفضل بهدم إيوان كسرى فقال له يحيى لا تهدم بناء دل على فخامة شأن بانيه قال بلى يا مجوسي ثم أمر بنقضه فقدر له نفقة على هدمه فاستكثرها الرشيد فقال له يحيى ليس يحسن بك أن تعجز عن هدم شيء بناه غيرك

هذا والذي رأيته في بعض المجاميع أن المنصور لما بنى بغداد أحب أن ينقض إيوان كسرى فإن بينه وبينها مرحلة ويبني به فاستشار خالد بن برمك فنهاه وقال هو آية الإسلام ومن رآه علم أن من هذا بناؤه لا يزول أمره وهو مصلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والمثونة في نقضه أكثر من الإنفاق عليه ولا مانع من تكرار طلب نقضه من المنصور ومن ولد ولده الرشيد

وإنما قال الرشيد ليحيى بن خالد يا مجوسي لأن جده والد خالد البرمكي وهو برمك كان من خراسان وكان أولا مجوسيا ثم أسلم وكان كاتبا عارفا محصلا لعلوم كثيرة جاء إلى الشام في دولة بني أمية فاتصل بعبد الملك بن مروان فحسن موقعه عنده وعلا قدره ثم لما أن زالت دولة بني أمية وجاءت دولة بني العباس صار وزيرا للسفاح ثم لأخيه المنصور من بني العباس ورأيت عن برمك هذا حكاية عجيبة وهي أنه سار إلى زيارة ملك الهند فأكرمه وأنس به وأحضر له طعاما وقال كل فأكلت حتى انتهيت فقال لي كل فقلت لا أقدر والله أيها الملك فأمر بإحضار قضيب فأخذه الملك وأمر به على صدري فكأنني لم أكل شيئا قط ثم أكلت أكلا كثيرا حتى انتهيت فقال لي كل فقلت لا والله لا أقدر أيها الملك فأمر بالقضيب على صدري فكأنني لم أكل شيئا قط فأكلت حتى انتهيت فقال لي كل فقلت والله ما أقدر على ذلك فأراد أن يمر بالقضيب على صدري فقلت أيها الملك إن الذي دخل يحتاج إلى أن يخرج فقال

صدقت وأمسك عني فسألته عن القضيب فقال تحفة من تحف الملوك
ومما يحفظ عن يحيى بن خالد هذا زيادة على ما تقدم عنه إذا أحببت إنسانا من غير
سبب فارح خيرته وإذا أبغضت إنسانا من غير سبب فتوق شره
ومما يحفظ عنه أيضا وقد قال له ولده وأظنه الفضل وقد كان معه مقيدا في حبس
الرشيد بعد قتله لولده جعفر وصلبه ونهيه أموال البرامكة ومن يلوذ بهم يا أبت بعد العز
ونفوذ الكلمة صرنا إلى هذه الحالة فقال يا ولدي دعوة مظلوم سرت ليلا غفلنا عنها
وما غفل الله عنها أي فقد قال أبو الدرداء إياكم ودمعة اليتيم ودعوة المظلوم فإنها
تسرى بالليل والناس نيام
أي ولأن الله تعالى يقول أنا أظلم الظالمين إن غفلت عن ظلم الظالم وقد قال صلى الله
عليه وسلم إتق دعوة المظلوم فإنما يسأل الله حقه وإن الله تعالى لن يمنع ذا حق حقه
وجاء إتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب وجاء اتقوا دعوة المظلوم
فإنها تحمل على الغمام يقول الله وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين والمراد
بالغمام الغمام الأبيض الذي فوق السماء السابعة المعنى بقوله تعالى * (ويوم تشقق
السماء بالغمام) * أي لا تقوى على حمله إذا سقط ونصر دعوة المظلوم إستجابتها ولو
بعد زمن طويل فهو سبحانه وتعالى وإن أمهل الظالم لا يهمله وجاء اتقوا دعوة المظلوم
فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة أي تصعد إلى السماء السابعة فما فوقها وجاء اتقوا
دعوة المظلوم وإن كان كافرا فإنه ليس دونها حجاب
وقد قال القائل

* تنام عينك والمظلوم منتبه
* يدعو عليك وعين الله لم تنم
*

ومما قيل في يحيى بن خالد هذا من المدح البليغ
* سألت الندى هل أنت حر فقال لا
* ولكنني عبد ليحيى بن خالد
* فقلت شراء قال لا بل وراثة
* توارثني من والد بعد والد
*

ومما يحفظ عن والده خالد التهنئة بعد ثلاث استخفاف بالمولود ومما يحفظ عن
جعفر ولد يحيى قوله شر المال ما لزمك الإثم في كسبه وحرمت الأجر في إنفاقه وقوله
المسئ لا يظن في الناس إلا سوءا لأنه يراهم بعين طبعه ومما قيل في جعفر من المدح
قول الشاعر

(118)

* تروم الملوك ندى جعفر
* ولا يصنعون كما يصنع
* وليس بأوسعهم في الغنى
* ولكن معروفه أوسع
*

وخمدت نار فارس أي مع إيقاد خدامها لها أي كتب له صاحب فارس إن بيوت النار
خمدت تلك الليلة ولم تخمد قبل ذلك بألف عام وغاضت أي غارت بحيرة ساوة أي
بحيث صارت يابسة كأن لم يكن بها شيء من الماء مع شدة إتساعها أي كتب له
بذلك عامله باليمن وإلى هذا يشير صاحب الأصل بقوله

* لمولده إيوان كسرى تشققت
* مبانيه وانحطت عليه شؤونه
* لمولده خرت على شرفاته
* فلا شرف للفرس يبقى حصينه
* لمولده نيران فارس أخدمت
* فنورهم إخماده كان حينه
* لمولده غاضت بحيرة ساوة
* وأعقب ذاك المد جور يشينه
* كأن لم يكن بالأمس ريا لناهل
* وورد العين المستهام معينه
*

وإلى ذلك أيضا يشير صاحب الهمزية رحمه الله بقوله
* وتداعى إيوان كسرى ولولا
* آية منك ما تداعى البناء
* وغدا كل بيت نار وفيه
* كربة من خمودها وبلاء
* وعيون للفرس غارت فهل كا
* ن لنيرانهم بها إطفاء
*

أي ومن العجائب التي ظهرت ليلة ولادته صلى الله عليه وسلم انه دام إيوان كسرى
أنوشروان الذي كان يجلس به مع أرباب مملكته وكان من أعاجيب الدنيا سعة وبناء
وإحكاما ولولا وجود علامة صادرة عنك إلى الوجود ما تهدم هذا البناء العجيب
الإحكام

ومن ذلك أيضا أنه صار تلك الليلة كل واحد من بيوت نار فارس التي كانوا يعبدونها

خامدة نيرانه والحال أن في ذلك البيت غما وبلاء عظيما من أجل سكون لهب تلك
النيران التي كانوا يعبدونها في وقت واحد
ومن ذلك أيضا غور ماء عيون الفرس في الأرض حتى لم يبق منها قطرة وحينئذ يستفهم
توبيخا وتقريعا لهم فيقال هل تلك المياه التي غارت كان بها إطفاء لتلك النيران ويقال
في جوابه لا بل إطفأؤها إنما هو لوجود هذا النبي العظيم وظهوره
ورأى الموبدان أي القاضي الكبير وفي كلام ابن المحدث هو خادم النار الكبير

ورئيس حكاهم وعنه يأخذون مسائل شرائعهم ورأى في نومه إبلا صعبا تقود خيلا
عربا أي وهي خلاف البراذين قد قطعت دجلة أي وهي نهر بغداد وانتشرت في بلادها
أي والإبل كناية عن الناس ورأى كسرى ما هاله وأفرعه أي الذي هو ارتجاس الإيوان
وسقوط شرافاته فلما أصبح تصبر أي لم يظهر الإنزعاج لهذا الأمر الذي رآه تشجعا ثم
رأى أنه لا يدخر ذلك أي هذا الأمر الذي هاله وأفرعه عن مرابته بضم الزاي أي
فرسانه وشجعانه فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا
عنده قال أتدرون فيما بعثت إليكم قالوا لا إلا أن يخبرنا الملك فبينما هم كذلك إذ
ورد عليهم كتاب بخمود النيران أي وورد عليه كتاب من صاحب إيليا يخبره أن بحيرة
ساوة غاضت تلك الليلة وورد عليه كتاب صاحب الشام يخبره أن وادي السماوة انقطع
تلك الليلة وورد عليه كتاب صاحب طبرية يخبره أن الماء لم يجر في بحيرة طبرية
فازداد غما إلى غمه ثم أخبرهم بما رأى وما هاله أي وهو ارتجاس الإيوان وسقوط
شرافاته فقال الموبدان فأنا أصلح الله الملك قد رأيت في هذه الليلة رؤيا ثم قص عليه
رؤياه في الإبل فقال أي شيء يكون هذا يا موبدان قال حدث يكون في ناحية العرب
فابعث إلى عاملك بالبحيرة يوجه إليك رجلا من علمائهم فإنهم أصحاب علم بالحدثان
فكتب كسرى عند ذلك من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر أما بعد فوجه
إلى برجل علم بما أريد أن أسأله عنه فوجه إليه بعبد المسيح الغساني أي وهو معدود
من المعمرين عاش مائة وخمسين سنة فلما ورد عليه قال ألك علم بما أريد أن أسألك
عنه قال ليسألني الملك عما أحب فإن كان عندي علم منه وإلا أخبرته بمن يعلمه
فأخبره بالذي وجه إليه فيه قال علم ذلك عند خالي يسكن مشارف الشام بالفاء أي
أعاليتها أي وهي الجابية المدينة المعروفة يقال له سطيح قال فآته فأسأله عما سألتك عنه
ثم اتني بتفسيره فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح وقد أشفى أي أشرف على
الضريح أي الموت أي احتضر وعمره إذ ذاك ثلاثمائة سنة وقيل سبعمائة سنة أي ولم
يذكره ابن الجوزي في المعمرين وكان جسدا ملقا لا جوارح له وكان لا يقدر على
الجلوس إلا إذا غضب فإنه ينتفخ فيجلس وكان وجهه في صدره لم يكن له رأس ولا
عنق وفي كلام غير واحد لم يكن له عظم سوى عظم رأسه

وفي لفظ لم يكن له عظم ولا عصب إلا الجمجمة والكفين ولم يتحرك منه إلا اللسان
قيل لكونه مخلوقا من ماء امرأة لأن ماء الرجل يكون منه العظم والعصب أي كما
سيأتي عنه صلى الله عليه وسلم من قوله نطفة الرجل يخلق منها العظم والعصب ونطفة
المرأة يخلق منها اللحم والدم قال صلى الله عليه وسلم ذلك لما سأله اليهود فقالوا له
ممن يخلق الولد فلما قال لهم ما ذكر قالوا له هكذا كان يقول من قبلك أي من الأنبياء
عليهم الصلاة والسلام

وفيه أن عيسى عليه الصلاة والسلام على تسليم أنه خلق من نطفة وهي نطفة أمه كان
فيه العظم والعصب

وقد قيل تمثل لها الملك في صفة شاب أمرد حتى انحدرت شهوتها إلى أقصى رحمها
وقيل لم يخلق من نطفة أصلا وقد صرح بالأول الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه
الله حيث قال أنكر الطبيعيون وجود ولد من ماء أحد الزوجين دون الآخر وذلك مردود
عليهم بعيسى عليه السلام فإنه خلق من ماء أمه فقط وذلك أن الملك لما تمثل لها بشرا
سويا لشدة اللذة بالنظر إليه فنزل الماء منها إلى الرحم فتكون عيسى عليه السلام من
ذلك الماء المتولد عن النفخ الموجب للذة منها فهو من ماء أمه فقط هذا كلامه
أي وكون سطيح كان وجهه في صدره لم يختص سطيح بهذا الوصف فقد رأيت أن
عمرا ذا الأذعار إنما قيل له ذلك لأنه سبى أمة وجوهها في صدورها فذعرت الناس
منهم وعمرها هذا كان في زمن سليمان بن داود عليها السلام وقيل قبله بقليل ومملكة
بعده بلقيس بعد قتلها له

وكان لسطيح سرير من الجريد والخوص إذا أريد نقله إلى مكان يطوى من رجليه إلى
ترقوته وفي لفظ إلى جمجمته كما يطوى الثوب فيوضع على ذلك السرير فيذهب إلى
حيث يشاء وإذا أريد إستخباره ليخبر عن المغيبات يحرك كما يحرك وطب المخيض
أي سقاء اللبن الذي يخض ليخرج زبده فينتفخ ويمتلئ ويعلوه النفس فيسأل فيخبر عما
يسأل عنه وكانت جمجمته إذا لمست أثر اللمس فيها للينها

قيل وهو أول كاهن كان في العرب وهذا يدل على أنه سابق على شق وقد تقدم في
حفر زمزم أن الكاهنة التي ذهب إليها عبد المطلب وقريش ليتحاكموا عندها تفلت في
فم سطيح وفم شق وذكرت أن سطيحا يخلفها ومن ثم قال بعضهم لم يكن أحد
أشرف في الكهانة ولا أعلم بها ولا أبعد فيها صيتا من سطيح وكان في غسان

وذكر بعضهم أن سطيحا كان في زمن نزار بن معد بن عدنان وهو الذي قسم الميراث بين بني نزار وهم مضر وإخوته وهو يؤيد ما تقدم من أنه عمر سبعمائة سنة ثم شق وعبد المسيح وهؤلاء كانوا رؤوس الكهنة وأهل العلم الغامض منهم بالكهانة أي وإلا فمنهم أي من أهل العلم الغامض مسيلمة الكذاب في بني حنيفة وسجاح كانت في بني تميم وسجاح أخرى كانت في بني سعد والكهانة هي الإخبار عن الغيب والكهانة من خواص النفس الإنسانية لأن لها استعداد للإنسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها فسلم عبد المسيح على سطيح وكلمه فلم يرد عليه سطيح جوابا فأنشأ عبد المسيح يقول أصم أم يسمع غطريف اليمن أي سيدهم إلى آخر أبيات ذكرها فلما سمع سطيح شعر عبد المسيح رفع رأسه

أقول قد يقال لا منافاة بين إثبات الرأس هنا ونفيه في قوله ولم يكن له رأس لأنه يجوز أن يكون المراد بالرأس المثبت الوجه لكن قد تقدم أنه لم يكن له عظم سوى ما في رأسه أو الجمجمة ففي ذلك إثبات الرأس

وقد يقال لما كان رأسه وتلك الجمجمة يؤثر فيها اللمس لئنيهما لمخالفتها لرأس غيره ساغ إثبات الرأس له ونفيه عنه والله أعلم وعند رفع رأسه قال عبد المسيح على جمل مشيح أي سريع إلى سطيح وقد وافى على الضريح أي القبر والمراد به الموت كما تقدم بعثك ملك ساسان لارتجاس الإيوان وحمود النيران ورؤيا الموبدان رأى إبلا صعبا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة أي تلاوة القرآن وظهر صاحب الهراوة وغاضت بحيرة ساوة وخمدت نار فارس فليست بابل للفرس مقاما ولا الشام لسطيح شاما يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات وكل ما هو آت آت ثم قضى سطيح مكانه أي مات من ساعته والهراوة بكسر الهاء وهي العصا الضخمة أي وهو النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان يمسك العصا كثيرا عند مشيه وكان يمشي بالعصا بين يديه وتغرز له فيصلى إليها التي هي العنزة وفي الحديث حمل العصا علامة المؤمن وسنة الأنبياء وفي الحديث من بلغ أربعين سنة ولم يأخذه العصا عدله أي عدم أخذ العصا من الكبر والعجب

وقد يقال مراد سطيح بالعصا العنزة التي تغرز ويصلى إليها في غير المسجد لأنه لم يحفظ أن ذلك كان لمن قبله من الأنبياء
وذكر الطبري أن أبرويز بن هرمز جاء له جاء في المنام فقبل له سلم ما في يدك إلى صاحب الهراوة فلم يزل مدعورا من ذلك حتى كتب إليه النعمان بظهور النبي صلى الله عليه وسلم بتهمة فعلم أن الأمر سيصير إليه
وعند موت سطيح نهض عبد المسيح إلى راحلته وهو يقول شعرا منه
* شمر فإنك ماض العزم شمير
* ولايغرنك تفريق وتغيير
* والناس أولاد علات فمن علموا
* أن قد أقل فمحقور ومهجور
* وهم بنو الأم أما إن رأوا نشبا
* فذاك بالغيب محفوظ ومنصور
* والخير والشر مقرونان في قرن
* فالخير متبع والشر محذور
*

فلما قدم عبد المسيح على كسرى وأخبره بما قاله سطيح قال له كسرى إلى أن يملك منا أربعة عشرة ملكا كانت أمور وأمور فملك منهم عشرة في أربع سنين وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه أي فقد ذكر أن آخر من هلك منهم كان في أول خلافة عثمان رضي الله عنه
أي وكانت مدة ملكهم ثلاثة آلاف سنة ومائة سنة وأربعا وستين سنة
ومن ملوك بني ساسان سابورد والأكتاف قيل له ذلك لأنه كان يخلع أكتاف من ظفر به من العرب ولما جاء لمنازل بني تميم وجددهم فروا منه ومن جيشه ووجد بها عمير بن تميم وهو ابن ثلاثمائة سنة وكان معلقا في قفة لعدم قدرته على الجلوس فأخذ وجيء به إليه فاستنطقه فوجد عنده أدبا ومعرفة فقال للملك أيها الملك لم تفعل فعلك هذا بالعرب فقال يزعمون أن ملكنا يصير إليهم على يد نبي يبعث في آخر الزمان فقال له عمير فأين حلم الملوك وعقلهم إن يكن هذا الأمر باطلا فلن يضرك وإن يكن حقا ألفوك ولم تتخذ عندهم يدا يكافئونك عليها ويعظمونك بها في دولتك فانصرف سابور وترك تعرضه للعرب وأحسن إليهم بعد ذلك
وقول سطيح يملك منهم ملوك وملكات لم أقف على أنه ملك منهم من النساء إلا واحدة وهي بوران ولما بلغه صلى الله عليه وسلم ذلك قال لا يفلح قوم ملكتهم امرأة فملكتم سنة ثم هلكت

وذكر ابن إسحاق رحمه الله أن أمه صلى الله عليه وسلم لما ولدتها أرسلت خلف جده عبد المطلب إنه قد ولد لك غلام فانظر إليه فأتاه ونظر إليه وحدثته بما رأته فأخذه عبد المطلب ودخل به الكعبة أي وقام يدعو الله أي وأهله يؤمنون ويشكر له ما أعطاه ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها وقد تقدم الوعد بذلك وتقدم ما فيه قال وتكلم صلى الله عليه وسلم في المهد في أوائل ولادته وأول كلام تكلم به أن قال الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا

أقول وتقدم أنه قال حين ولد جلال ربي الرفيع كما أورده السهيلي عن الواقدي وأنه روى أنه تكلم حين خروجه من بطن أمه فقال الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا

ولا مانع من تكرار ذلك حين خروجه وحين وضعه في المهد وأنه زاد في المرة الثالثة وسبحان الله بكرة وأصيلا وحينئذ يكون تكلمه حين خروجه من بطن أمه لم يشاركه فيه غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا الخليل وإلا نوح كما سيأتي بخلاف تكلمه في المهد

على أنه سيأتي أنه يجوز أن يكون المراد بالتكلم في المهد التكلم في غير أوان الكلام ويقال إنه قال ذلك عند فطامه وتقدم أنه قال الحمد لله لما عطس على الاحتمال الذي أبداه بعضهم كما تقدم بما فيه

ولا مانع من وجود هذه الأمور الثلاثة التي هي جلال ربي الرفيع والله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا حين ولادته وعلم ترتيبها يتوقف على نقل وحينئذ تكون الأولوية في الواقعة في بعض ذلك إما حقيقية أو إضافية وقدما أن الأولوية في قوله جلال ربي الرفيع بالنسبة لقوله الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا إضافية

قال وقد تكلم جماعة في المهد نظمهم الجلال السيوطي رحمه الله تعالى في قوله

- * تكلم في المهد النبي محمد
- * ويحيى وعيسى والخليل ومريم
- * ومبرى جريج ثم شاهد يوسف
- * وطفل لدى الأخدود يرويه مسلم
- * وطفل عليه مر بالأمة التي
- * يقال لها تزني ولا تتكلم
- * وماشطة في عهد فرعون طفلها
- * وفي زمن الهادي المبارك يختم
- *

(۱۲۴)

قال بعضهم لكن هو صلى الله عليه وسلم حصر من تكلم في المهد في ثلاثة ولم يذكر نفسه أي فقد روى عن أبي هريرة مرفوعا لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى وصاحب جريج وابن المرأة التي مر عليها بامرأة يقال لها إنها زنت وقد يقال هذا الحصر إضافي أي ثلاثة من بني إسرائيل أو أن ذلك كان قبل أن يعلم مما زاد وذكر أن عيسى عليه الصلاة والسلام تكلم في المهد وهو ابن ليلة وقيل وهو ابن أربعين يوما أشار بسببته وقال بصوت رفيع إني عبد الله لما مر بنو إسرائيل على مريم عليها السلام وهي حامله له صلى الله عليه وسلم وأنكروا عليها ذلك وأشارت إليهم أن كلموه وضربوا بأيديهم على وجوههم تعجبا وقالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا قال لهم ما قصه الله سبحانه وتعالى ثم رأيتني في الكلام على قصة الإسراء والمعراج ذكر ذلك وأن عيسى تكلم يوم ولادته قال لابن خال أمه يوسف النجار وقد خرج في طلب أمه وقد خرجت لما أخذها ما يأخذ النساء من الطلق عند الولادة خارج بيت المقدس وجلست تحت نخلة يابسة فاخضرت النخلة من ساعتها وتدلت عراجينها وجرت من تحتها عين ماء ووضعته تحتها أبشر يا يوسف وطب نفسا وقر عينا فقد أخرجني ربي من ظلمة الأرحام إلى ضوء الدنيا وسأتي بني إسرائيل وأدعوهم إلى طاعة الله فانصرف يوسف إلى زكريا عليه الصلاة والسلام وأخبره بولادة مريم وقول ولدها ما ذكر صلى الله عليه وسلم وفي النطق المفهوم أن عيسى عليه الصلاة والسلام كلم يوسف المذكور وهو في بطن أمه

فقد قيل إنه أول من علم بحمل مريم عليها السلام فقال لها مقرعا لها يا مريم هل تنبت الأرض زرعها من غير بذر وهل يكون ولد من غير فحل فقال له عيسى عليه الصلاة والسلام وهو في بطن أمه قم فانطلق إلى صلاتك واستغفر الله مما وقع في قلبك وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن عيسى عليه الصلاة والسلام تكلم في المهد ثلاث مرات ثم لم يتكلم حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الصبيان عادة أي ولعل المرة الثالثة هي التي حمد الله فيها بحمد لم تسمع الأذان مثله فقال اللهم أنت القريب في علوك المتعالي في دنوك الرفيع على كل شيء من خلقك حارت الأبصار دون النظر إليك

ومبرى جريج تكلم كذلك أي في بطن أمه قيل له من أبوك فقال الراعي عبد بني فلان وتكلم بعد خروجه من بطن أمه فقد تكلم مرتين مرة في بطن أمه ومرة وهو طفل كذا في النطق المفهوم ولم أقف على وقت كلامه ولا على ما تكلم به حينئذ وأما يحيى عليه الصلاة والسلام فتكلم وهو ابن ثلاث سنين قال لعيسى أشهد أنك عبد الله ورسوله

والخليل تكلم وقت ولادته وسيأتي ما تكلم به وفي كون ابن ثلاث سنين وفي كون من تكلم وقت ولادته يكون في المهد نظر إلا أن يكون المراد بالتكلم في المهد التكلم في غير أوان الكلام

ولم أقف على سن من تكلم في المهد حين تكلم غير من ذكر وغير الطفل الذي لذي الأخدود فإنه لما جيء بأمه لتلقى في نار الأخدود لتكفر وهو معها مرضع فتقاعست قال لها يا أماه اصبري فإنك على الحق قال ابن قتيبة كان سنه سبعة أشهر وفي النطق المفهوم أن شاهد يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام كان عمره شهرين وكان ابن داية زليخا

وفي الخصائص الصغرى وخص صلى الله عليه وسلم بكلام الصبيان في المراضع وشهادتهم له بالنبوة ذكر ذلك البدر الدماميني رحمه الله هذا كلامه وفيه نظر لأنه لم يشهد له بالنبوة من هؤلاء إلا مبارك اليمامة حسبما وقفت عليه ورأيت في الأجوبة المسكتة لابن عون رحمه الله أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ألسنت لم تزل نبيا قال نعم قالوا فلم لم تنطق في المهد كما نطق عيسى قال إن الله خلق عيسى من غير فحل فلولا أنه نطق في المهد لما كان لمريم عذر وأخذت بما يؤخذ به مثلها وأنا ولدت بين أبوين هذا كلامه وهو يخالف ما تقدم من أنه صلى الله عليه وسلم تكلم في المهد إلا أن يقال مرادهم لم لم تنطق في المهد بمثل الذي نطق به عيسى أو أن ذلك منه صلى الله عليه وسلم إرخاء للعنان فليتأمل ثم رأيت أن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لما سقط على الأرض استوى قائما على قدميه وقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد الحمد لله الذي هدانا لهذا

قال في النطق المفهوم ولد بالغار الذي ولد به نوح وإدريس عليهما الصلاة والسلام ويقال لهذا الغار في التوراة غار النور ويضم لهؤلاء ما ذكره الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله قال قلت لبنتي زينب مرة وهي في سن الرضاعة قريبا عمرها من سنة ما تقولين في الرجل يجمع حليلته ولم ينزل فقالت يجب عليه الغسل فتعجب الحاضرون من ذلك ثم إني فارقت تلك البنت وغبت عنها سنة في مكة وكنت أذنت لوالدتها في الحج فجاءت مع الحج الشامي فلما خرجت لملاقاتها رأيتني من فوق الجمل وهي ترضع فقالت بصوت فصيح قبل أن تراني أمها هذا أبي وضحكت وأرمت نفسها إلي

قال وقد رأيت أي علمت من أجاب أمه بالتشميت وهو في بطنها حين عطست وسمع الحاضرون كلهم صوته من جوفها شهد عندي الثقات بذلك قال وهذا واحد يخصه الله بعلمه وهو في بطن أمه ولا يحجبك قوله تعالى * (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) * لأنه لا يلزم من العالم حضوره مع علمه دائما وفي النطق المفهوم أن يوسف صلوات الله وسلامه عليه تكلم في بطن أمه فقال أنا المفقود والمغيب عن وجه أبي زمنا طويلا فأخبرت أمه والده بذلك فقال لها اكتمي أمرك

وفيه أن نوحا عليه الصلاة والسلام تكلم عقب ولادته فإن أمه ولدتها في غار خوفا على نفسها وعليه فلما وضعت وأرادت الانصراف قالت وانوحاه فقال لها لا تخافي أحدا على يا أماه فإن الذي خلقتني يحفظني وفيه أن أم موسى عليه الصلاة والسلام لما وضعت موسى استوى قاعدا وقال يا أماه لا تخافي أي من فرعون إن الله معنا

ومبارك الإمامة قال بعض الصحابة دخلت دارا بمكة فرأيت فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت فيها عجا جاءه رجل بصبي يوم ولد وقد لفه في خرقة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا غلام من أنا قال الغلام بلسان طلق أنت رسول الله قال صدقت بارك الله فيك ثم إن الغلام لم يتكلم بشيء فكنا نسميه مبارك الإمامة وكانت هذه القصة في حجة الوداع وكان صلى الله عليه وسلم يناغي القمر وهو في مهده أي يحدثه يقال ناغت المرأة الصبي إذا كلمته بما يسره ويعجبه وعد ذلك من خصائصه ففي حديث فيه مجهول وقيل فيه إنه غريب المتن والإسناد عن عمه العباس رضي الله عنه

أنه قال يا رسول الله دعاني إلى الدخول في دينك إشارة أي علامة نبوتك رأيتك في المهد تناغي القمر أي تحدته فتشير إليه بإصبعك فحيثما أشرت إليه مال قال كنت أحدثه ويحدثني ويلهيني عن البكاء وأسمع وجبته أي سقطته حين يسجد تحت العرش أي ولم أقف على سنه صلى الله عليه وسلم حين ذلك وكان مهده صلى الله عليه وسلم يتحرك بتحريك الملائكة وعده ابن سميع رحمه الله تعالى من خصائصه باب تسميته صلى الله عليه وسلم محمد وأحمد

لا يخفى أن جميع أسمائه صلى الله عليه وسلم مشتقة من صفات قامت به توجب له المدح والكمال فله من كل وصف اسم قال وكما أن لله عز وجل ألف اسم للنبي صلى الله عليه وسلم ألف اسم عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو الباقر من بقر العلم أتقنه قال أمرت آمنة أي في المنام وهي حامل برسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسميه أحمد وعن ابن إسحاق رحمه الله أن تسميه محمدا وقد تقدم قال والثاني هو المشهور في الروايات أي وعلى الأول اقتصر الحافظ الدمياطي رحمه الله

والمسمى له بمحمد جده عبد المطلب فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم علق عنه أي يوم سابع ولادته جدة بكبش وسماه محمدا فقليل له يا أبا الحرث ما حملك على أن تسميه محمدا ولم تسمه باسم آبائه وفي لفظ وليس من أسماء آبائك ولا قومك قال أردت أن يحمد الله في السماء وتحمد الناس في الأرض

أقول وهذا هو الموافق لما اشتهر أن جده سماه محمدا بإلهام من الله تعالى تفاقولا بأن يكثر حمد الخلق له لكثرة خصاله الحميدة التي يحمد عليها لذلك كان أبلغ من محمود وإلى ذلك يشير حسان رضي الله عنه بقوله

* فشق له من اسمه ليحمله

* فذو العرش محمود وهذا محمد

*

وهذا الإلهام لا ينافي أن تكون أمه قالت له إنها أمرت أن تسميه بذلك وقد حقق

الله رجاءه بأنه صلى الله عليه وسلم تكاملت فيه الخصال المحمودة والخلال المحبوبة فتكاملت له صلى الله عليه وسلم المحبة من الخالق والخليقة فظهر معنى اسمه على الحقيقة

وفي الخصائص الصغرى وخص صلى الله عليه وسلم بإشتقاق اسمه من اسم الله تعالى وبأنه صلى الله عليه وسلم سمي أحمد ولم يسم به أحد قبله وإفادته الكثرة في معناه لأنه لا يقال إلا لمن حمد المرة بعد المرة لما يوجد فيه من المحاسن والمناقب ادعى بعضهن أنه من صيغ المبالغة أي الصيغ المفيدة للمبالغة بالمعنى المذكور استعمالاً لا وضعا لأن الصيغ الموضوعية لإفادة المبالغة منحصرة في الصيغ الخمسة وليس هذا منها

وهذا السياق يدل على تسميته صلى الله عليه وسلم بذلك كانت في يوم العقيقة وأن العقيقة كانت في اليوم السابع من ولادته وتقدم ولد الليلة لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمداً وهو يدل على أن تسميته صلى الله عليه وسلم بذلك كانت في ليلة ولادته أو يومها

وقد يقال لا منافاة لأنه يجوز أن يكون قوله هنا وسماه محمداً معناه أظهر تسميته بذلك لعموم الناس وهذا التعليل للتسمية بهذا الاسم يرشد إلى ما قيل اقتضت الحكمة أن يكون بين الاسم والمسمى تناسب في الحسن والقبح واللطافة والكثافة ومن ثم غير صلى الله عليه وسلم الاسم القبيح بالحسن وهو كثير وربما غير الاسم الحسن بالقبيح للمعنى المذكور كتسميته لأبي الحكم بأبي جهل وتسميته لأبي عامر الراهب بالفاسق وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال لبعض أصحابه ادع لي إنسانا يحلب ناقتي فجاءه بإنسان فقال له ما اسمك فقال له حرب فقال أذهب فجاءه بآخر فقال ما اسمك فقال يعيش فقال احلبها

ويروى أنه صلى الله عليه وسلم طلب شخصاً يحفر له بئراً فجاءه رجل فقال له ما اسمك قال مرة فقال اذهب وليس هذا من الطيرة التي كرهها ونهى عنها وإنما هو من كراهة الاسم القبيح ومن ثم كان صلى الله عليه وسلم يكتب لإمرائه إذا أبردتم لي بريداً فأبردوه أي إذا أرسلتم لي رسولا فأرسلوه حسن الاسم حسن الوجه ومن ثم لما قال له سيدنا عمر رضي الله عنه لما قال لمن أراد أن يحلب له ناقته أو يحفر له البئر ما تقدم لا أدري أقول أم أسكت فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قل قال

قد كنت نهيتنا عن التطير فقال له صلى الله عليه وسلم ماتطيرت ولكن آثرت الاسم الحسن وللجلال السيوطي كتاب فيمن غير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه ولم أقف عليه

ورأيت في كلام بعضهم أن حزن بن أبي وهب أسلم يوم الفتح وهو جد سعيد بن المسيب أراد النبي صلى الله عليه وسلم تغيير اسمه وتسميته سهلا فامتنع وقال لأغير اسما سماه أبوأي قال سعيد فلم تزل الحزونة فينا والله أعلم أي وفي حديث أنه صلى الله عليه وسلم عق عن نفسه بعد ما جاءته النبوة قال الإمام أحمد هذا منكر أي حديث منكر والحديث المنكر من أقسام الضعيف لا أنه باطل كما قد يتوهم والحافظ السيوطي لم يتعرض لذلك وجعله أصلا لعمل المولد قال لأن العقيقة لا تعاد مرة ثانية فيحمل ذلك على أن هذا الذي فعله النبي صلى الله عليه وسلم إظهارا للشكر على إيجاد الله تعالى إياه رحمة للعالمين وتشريعا لأمته كما كان يصلى على نفسه لذلك قال فيستحب لنا إظهار الشكر بمولده صلى الله عليه وسلم هذا كلامه ويروى أن عبد المطلب إنما سماه محمدا لرؤيا رآها أي في منامه رأى كأن سلسلة خرجت من ظهره لها طرف في السماء وطرف في الأرض وطرف في المشرق وطرف في المغرب ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور وإذا أهل المشرق وأهل المغرب يتعلقون بها فقصها فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والأرض فلذلك سماه محمدا أي مع ما حدثته به أمه بما رأته على ما تقدم

وعن أبي نعيم عن عبد المطلب قال بينما أنا نائم في الحجر إذ رأيت رؤيا هالتني ففزعت منها فزعا شديدا فأتيت كاهنة قريش فلما نظرت إلى عرفت في وجهي التغير فقالت ما بال سيدهم قد أتى متغير اللون هل رابه من حدثان الدهر شيء فقلت لها بلى فقلت لها إني رأيت الليلة وأنا نائم في الحجر كأن شجرة نبتت قد نال رأسها السماء وضربت بأغصانها المشرق والمغرب وما رأيت نورا أزهرا منها ورأيت العرب والعجم ساجدين لها وهي تزداد كل ساعة عظما ونورا وارتفعا ورأيت رهطا من قريش قد تعلقوا بأغصانها ورأيت قوما من قريش يريدون قطعها فإذا دنوا منها أخرجهم شاب

لم أر قط أحسن منه وجها ولا أطيب منه ريحا فيكسر أظهرهم ويقلع أعينهم فرفعت يدي لأتناول منها نصيبا فلم أنله فانتبهت مذعورا فزعا فرأيت وجه الكاهنة قد تغير ثم قالت لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب وتدين له الناس وعند ذلك قال عبد المطلب لابنه أبي طالب لعلك أن تكون هذا المولود فكان أبو طالب يحدث بهذا الحديث بعد ما ولد صلى الله عليه وسلم ويقول كانت الشجرة هي محمد صلى الله عليه وسلم

وفي الإمتاع لما مات قثم بن عبد المطلب قبل مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين وهو ابن تسع سنين وجد عليه وجدا شديدا فلما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه قثم حتى أخبرته أمه آمنة أنها أمرت في منامها أن تسميه محمدا فسماه محمدا أي ولا مخالفة بين هذه الروايات على تقدير صحتها كما لا يخفى لأنه يجوز أن يكون نسي تلك الرؤية ثم تذكرها ويكون معنى سؤاله ما حملك على أن تسميه محمدا وليس من أسماء قومك أي لم استقر أمرك على أن تسميه محمدا وذكر بعضهم أنه لا يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم يعنى محمدا قبله إلا ثلاثة طمع آباؤهم حين وفدوا على بعض الملوك وكان عنده علم من الكتاب الأول وأخبرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم أي بالحجاز وبقرب زمنه وبإسمه المذكور الذي هو محمد وهو يدل على أن اسمه في بعض الكتب القديمة محمد وكان كل واحد منهم قد خلف زوجته حاملا فنذر كل واحد منهم إن ولد له ولد ذكر أن يسميه محمد ففعلوا

وفي الشفاء أن في هذين الإسمين محمدا وأحمد من بدائع آياته أي المصطفى وعجائب خصائصه أن الله تعالى حماهما عن أي يسمى بهما أحد قبل زمانه أي قبل شيوع وجوده أما أحمد الذي أتى في الكتب القديمة وبشرت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فمنع الله تعالى بحكمته أن يتسمى به أحد غيره ولا يدعى به مدعو قبله منذ خلقت الدنيا وفي حياته زاد الزين العراقي ولا في زمن أصحابه رضي الله تعالى عنهم حتى لا يدخل لبس أو شك على ضعيف القلب أي فالتسمية به من خصائصه صلى الله عليه وسلم على جميع الناس ممن تقدمه خلافا لما يوهمه كلام الجلال السيوطي في الخصائص الصغرى أنه من خصائصه على الأنبياء فقط ومن ثم ذهب بعضهم إلى أفضليته على محمد وقال الصلاح الصفدي أحمد أبلغ

من محمد كما أن أحمر وأصفر أبلغ من محمر ومصفر ولعله لكونه منقولاً عن أفعل التفضيل لأنه صلى الله عليه وسلم أحمد الحامدين لرب العالمين لأنه يفتح عليه في المقام المحمود بمحامد لم تفتح على أحد قبله وفي الهدى لو كان اسمه أحمد باعتبار حمده لرب له لكان الأولى أن يسمى الحماد كما سميت بذلك أمته وأما هذا فهو الذي يحمد أهل السماء والأرض وأهل الدنيا والآخرة لكثرة خصاله المحمودة التي تزيد على عدد العادين وإحصاء المحصين أي أحق الناس وأولاهم بأن يحمد فهو كمحمد في المعنى فهو مأخوذ من الفعل الواقع على المفعول لا الواقع من الفاعل وحينئذ فالفرق بين محمد وأحمد أن محمداً من كثر حمد الناس له وأحمد من يكون حمد الناس له أفضل من حمد غيره وسيأتي عن الشفاء أنه أحمد المحمودين وأحمد الحامدين فيجوز أن يكون أحمد مأخوذاً من الفعل الواقع على المفعول كما يجوز أن يكون مأخوذاً من الفعل الواقع من الفاعل وفي كلام السهيلي ثم إنه لم يكن محمداً حتى كان قبل أحمد فبأحمد ذكر قبل أن يذكر بمحمد لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له وأطال في بيان ذلك وفي كلام بعض فقهاءنا معاصر الشافعية أنه ليس في أحمد من التعظيم ما في محمد لأنه أشهر أسمائه الشريفة وأفضلها فلذلك لا يكفى الإتيان به في التشهد بدل محمد وقد جاء أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن قال بعضهم وعبد الله أحب من عبد الرحمن لإضافة العبد إلى الله المختص به تعالى اتفاقاً والرحمن مختص به على الأصح ومن ثم سمي نبينا صلى الله عليه وسلم في القرآن بعبد الله في قوله تعالى * (وأنه لما قام عبد الله يدعوه) * وعلى ما ذكر هنا يكون بعد عبد الرحمن المذكور في القرآن في قوله تعالى * (وعباد الرحمن) * أحمد ثم محمد أي وبعدهما إبراهيم خلفاً لمن جعله بعد عبد الرحمن

وذكر بعضهم أن أول من تسمى بأحمد بعد نبينا صلى الله عليه وسلم ولد لجعفر بن أبي طالب وعليه يشكل ما تقدم عن الزين العراقي وقيل والد الخليل أي ولعل المراد به الخليل بن أحمد صاحب العروض ثم رأيت الزين العراقي صرح بذلك حيث قال وأول من تسمى في الإسلام أحمد والد الخليل بن أحمد العروضي ويشكل على ذلك وعلى قوله لم يسم به أحد في زمن الصحابة تسمية ولد جعفر بن أبي طالب بذلك إلا أن يقال لم يصح ذلك عند العراقي أو يقال مراد العراقي أصحابه

الذين تخلفوا عنه بعد وفاته فلا يرد جعفر لأنه مات في حياته صلى الله عليه وسلم وهو خامس خمسة كل يسمى الخليل بن أحمد وزاد بعضهم سادسا وكذلك محمد أيضا لم يتسم به أحد قبل وجوده صلى الله عليه وسلم وميلاده إلا بعد أن شاع أن نبيا يبعث اسمه محمد بالحجاز وقرب زمنه فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك وحمى الله تعالى هؤلاء أن يدعى أحد منهم النبوة أو يدعيها أحد له أو يظهر عليه شيء من سماتها أي علاماتها حتى تحققت له صلى الله عليه وسلم

وفي دعوى أن الذي في الكتب القديمة إنما هو أحمد مخالفة لما سبق وما يأتي عن التوراة والإنجيل أي فالمراد بالكتب القديمة غالبها فلا ينافي أن في بعضها اسمه محمد وفي بعضها اسمه أحمد وفي بعضها الجمع بين محمد وأحمد

قال بعضهم سمعت محمد بن عدي وقد قيل له كيف سماك أبوك في الجاهلية محمدا قال سألت أبي أي عما سألتني عنه قال خرجت رابع أربعة من تميم نريد الشام فنزلنا عند غدير عند دير فأشرف علينا الديراني وقال إن هذه للغة قوم ما هي لغة أهل هذه البلد فقلنا له نحن قوم من مضر فقال من أي المضائر فقلنا من خندف فقال لنا إن الله سيبعث فيكم نبيا وشيكا أي سريعا فسارعوا إليه وخذوا حظكم ترشدوا فإنه خاتم

النبين فقلنا له ما اسمه قال محمد ثم دخل ديره فوالله ما بقي أحد منا إلا زرع قوله في قلبه فاضمر كل واحد منا إن رزقه الله غلاما سماه محمدا رغبة فيما قاله أي فنذر كل واحد منا ذلك فلا يخالف ما سبق قال فلما انصرفنا ولد لكل واحد منا غلاما فسماه محمدا رجاء أن يكون أحدهم هو والله أعلم حيث يجعل رسالاته

أقول يجوز أن يكون هؤلاء الأربعة منهم الثلاثة الذين وفدوا على بعض الملوك وحينئذ تكرر لهم هذا القول من الملك ومن صاحب الدير وإضمار ذلك لا ينافي نذره المتقدم فالمراد بإضماره نذره كما قدمناه ويجوز أن يكونوا غيرهم فيكونوا سبعة

وذكر ابن ظفر أن سفيان بن مجاشع نزل على حي من تميم فوجدهم مجتمعين على كاهنتهم وهي تقول العزيز من والاه والدليل من خالاه فقال لها سفيان من تذكركين لله أبوك فقالت صاحب هدى وعلم وحر ووسلم فقال سفيان من هو لله أبوك فقالت نبي مؤيد قد آن حين يوجد ودنا أو ان يولد يبعث للأحمر

والأسود اسمه محمد فقال سفيان أعربي أم عجمي فقالت أما والسماء ذات العنان
والشجر ذوات الأفانا إنه لمن معد بن عدنان حسبك فقد أكثرت يا سفيان فأمسك عن
سؤالها ومضى إلى أهله وكانت امرأته حاملا فولدت له ولدا فسماه محمدا رجاء منه أن
يكون هو النبي الموصوف والله أعلم
وقد عد بعضهم ممن سمي بمحمد ستة عشرة ونظمهم في قوله

* إن الذين سموا باسم محمد
* من قبل خير الخلق ضعف ثمان
* ابن البراء مجاشع بن ربيعة
* ثم ابن مسلم يحمدي حرماني
* ليثي السليمي وابن أسامة
* سعدى وابن سواة همداني
* وابن الجلاح مع الأسدي يا فتى
* ثم الفقيمي هكذا الحراني
*

قال بعضهم وفاته آخرا لم يذكرهما وهما محمد بن الحارث ومحمد بن عمر بن
مغفل بضم أوله وسكون المعجمة وكسر الفاء ثم لام ووقع النزاع الكثير والخلاف
الشهير في أول من سمي بذلك الاسم منهم
أقول وفي شرح الكفاية لابن الهائم ويمكن أن يكون من زاد على أولئك الأربعة أو
السبعة سمع ذلك من بعضهم فاقتدى به في ذلك طمعا فيما طمع فيه
ومثل ذلك وقع لبني إسرائيل فإن يوسف صلوات الله وسلامه عليه لما حضرته الوفاة
أعلم بني إسرائيل بحضور أجله وكان أول أنبيائهم فقالوا له يا نبي الله إنا نحب أن
تعلمنا بما يؤول إليه أمرنا بعد خروجك من بين أظهرنا في أمر ديننا فقال لهم إن
أموركم لم تزل مستقيمة حتى يظهر فيكم رجل جبار من القبط يدعى الربوبية يذبح
أبناءكم ويستحيى نساءكم ثم يخرج من بني إسرائيل رجل اسمه موسى بن عمران
فينجيكم الله به من أيدي القبط فجعل كل واحد من بني إسرائيل إذا جاء له ولد يسميه
عمران رجاء أن يكون ذلك النبي منه ولا يخفى أن بين عمران أبي موسى وعمران أبي
مريم أم عيسى وهو آخر أنبياء بني إسرائيل ألف وثمانمائة سنة والله أعلم
والذي أدرك الإسلام ممن تسمى بإسمه عليه الصلاة والسلام محمد بن ربيعة ومحمد
بن الحارث ومحمد بن مسلمة وادعى بعضهم أن محمد بن مسلمة ولد بعد مولد النبي
صلى الله عليه وسلم بأكثر من خمسة عشر سنة
أي وقد ذكر ابن الجوزي أن أول من تسمى في الإسلام بمحمد محمد بن حاطب
وعن ابن عباس اسمى في القرآن أي كالتوراة محمد وفي الإنجيل أحمد

(۱۳۴)

وأما فضل التسمية بهذا الاسم أعنى محمدا فقد جاء في أحاديث كثيرة وأخبار شهيرة أي منها أنه صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى وعزتي وجلالي لا أعذب أحدا تسمى باسمك في النار أي باسمك المشهور وهي محمد أو أحمد ومنها ما من مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه أحمد ومحمد أي وفي رواية فيها اسمي إلا قدس الله ذلك المنزل كل يوم مرتين ومنها قال يوقف عبدان أي اسم أحدهما أحمد والآخر محمد بين يدي الله تعالى فيؤمر بهما إلى الجنة فيقولان ربنا بما أستأهلنا الجنة ولم نعمل عملا تجازينا به الجنة فيقول الله تعالى ادخلا الجنة فإنني آليت على نفسي أن لا يدخل النار من اسمه أحمد أو محمد لكن قال بعضهم ولم يصح في فضل التسمية بمحمد حديث وكل ما ورد فيه فهو موضوع قال بعض الحفاظ وأصحها أي أقر بهما للصححة من ولد له مولود فسماه محمدا حبا لي وتبركا باسمي كان هو ومولوده في الجنة

وعن أبي رافع عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا سميتموه محمدا فلا تضربوه ولا تحرموه وفي رواية طعن فيها بأن بعض رواياتها متهم بالوضع فلا تسبوه ولا تجبهوه ولا تعنفوه وشرفوه وعظموه وأكرموه وبروا قسمه وأوسعوا له في المجلس ولا تقبحوا له وجهها بورك في محمد وفي بيت فيه محمد وفي مجلس فيه محمد وفي رواية تسمونه محمدا ثم تسبونه وفي رواية طعن فيها أما يستحي أحدكم أن يقول يا محمد ثم يضربه وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من ولد له ثلاثة أولاد فلم يسم أحدهم محمدا فقد جهل أي وفي رواية فهو من الجفاء وفي أخرى فقد جفاني

وذكر بعضهم وإن لم يرد في المرفوع من أراد أن يكون حمل زوجته ذكرا فليضع يده على بطنها وليقل إن كان هذا الحمل ذكرا فقد سميتة محمدا فإنه يكون ذكرا وجاء عن عطاء قال ما سمى مولود في بطن أمه محمدا إلا كان ذكرا قال ابن الجوزي في الموضوعات وقد رفع هذا بعضهم أي وروى ما اجتمع قوم قط في مشورة فيهم رجل اسمه محمد لم يدخلوه في مشورتهم إلا لم يبارك فيه أي في الأمر الذي اجتمعوا له وفي رواية فيهم رجل اسمه محمد أو أحمد فشاوروه إلا خير لهم أي إلا حصل لهم الخير فيما تشاوروا فيه وما كان اسم محمد في بيت إلا جعل الله في ذلك البيت بركة واتهم راوي ذلك بأنه مجروح

وروى ما قعد قوم قط على طعام حلال فيه رجل اسمه اسمي إلا تضاعفت فيهم البركة أي اسمه المشهور وهو أحمد أو محمد كما تقدم وفي الشفاء إن لله ملائكة سياحين في الأرض عبادتهم أي بالباء الموحدة كل دار فيها اسم محمد أي حراسة أهل كل دار فيها اسم محمد وقد ذكر الحافظ السيوطي أن هذا الحديث غير ثابت

وعن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما قال من كان له حمل فنوى أن يسميه محمدا حوله الله تعالى ذكرا وإن كان أنثى قال بعض رواة الحديث فنويت سبعة كلهم سميتهم محمدا وعنه صلى الله عليه وسلم من كان له ذو بطن فأجمع أي يسميه محمدا رزقه الله تعالى غلاما

وشكت إليه صلى الله عليه وسلم امرأة بأنهما لا يعيش لها ولد فقال لها اجعلي لله عليك أن تسميه أي الولد الذي ترزقينه محمدا ففعلت فعاش ولدها وعن علي رضي الله تعالى عنه مرفوعا ليس أحد من أهل الجنة إلا يدعى بإسمه أي ولا يكنى إلا آدم صلى الله عليه وسلم فإنه يدعى أبا محمد تعظيما له وتوقيرا للنبي صلى الله عليه وسلم أي لأن العرب إذا عظمت إنسانا كتته ويكنى الإنسان بأجل ولده قاله الحافظ الدمياطي وفي رواية ليس أحد أي من أهل الجنة يكنى إلا آدم فإنه يكنى أبا محمد أي وفي حديث معضل إذا كان يوم القيامة نادى مناد يا محمد قم فادخل الجنة بغير حساب فيقوم كل من اسمه محمد يتوهم أن النداء له فلكرامة محمد صلى الله عليه وسلم لا يمنعون

وفي الحلية لأبي نعيم عن وهب بن منبه قال كان رجل عصى الله مائة سنة أي في بني إسرائيل ثم مات فأخذوه وألقوه في مزبلة فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن أخرجه فصل عليه قال يا رب إن بني إسرائيل شهدوا أنه عصاك مائة سنة فأوحى الله إليه هكذا إلا أنه كان كلما نشر التوراة ونظر إلى اسم محمد قبله ووضع على عينيه فشكرت له ذلك وغفرت له وزوجته سبعين حورا ومن الفوائد أنه جرت عادة كثير من الناس إذا سمعوا بذكر وضعه صلى الله عليه وسلم أن يقوموا تعظيما له صلى الله عليه وسلم وهذا القيام بدعة لا أصل لها أي لكن هي بدعة حسنة لأنه ليس كل بدعة مذمومة وقد قال سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه في اجتماع الناس لصلاة التراويح نعمت البدعة وقد قال العز ابن عبد السلام إن البدعة تعترئها الأحكام الخمسة وذكر من أمثلة كل ما يطول ذكره

ولا ينافي ذلك قوله صلى الله عليه وسلم إياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة وقوله صلى الله عليه وسلم من أحدث في أمرنا أي شرعنا ما ليس منه فهو رد عليه لأن هذا عام أريد به خاص فقد قال إمامنا الشافعي قدس الله سره ما أحدث وخالف كتابا أو سنة أو إجماعا أو أثرا فهو البدعة الضلالة وما أحدث من الخبر ولم يخالف شيئا من ذلك فهو البدعة المحمودة وقد وجد القيام عند ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم من عالم الأمة ومقتدى الأئمة دينا وورعا للإمام تقي الدين السبكي وتابعه على ذلك مشايخ الإسلام في عصره فقد حكى بعضهم أن الإمام السبكي اجتمع عنده جمع كثير من علماء عصره فأنشد منشدا قول الصرصري في مدحه صلى الله عليه وسلم

* قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب

* على ورق من خط أحسن من كتب

* وأن تنهض الأشراف عند سماعه

* قياما صفوفًا أو جثيا على الركب

*

فعند ذلك قام الإمام السبكي رحمه الله وجميع من في المجلس فحصل أنس كبير بذلك المجلس ويكفي مثل ذلك في الاقتداء وقد قال ابن حجر الهيتمي والحاصل أن البدعة الحسنة متفق على ندبها وعمل المولد واجتماع الناس له كذلك أي بدعة حسنة ومن ثم قال الإمام أبو شامة شيخ الإمام النووي ومن أحسن ما ابتدع في زماننا ما يفعل كل عام في اليوم الموافق ليوم مولده صلى الله عليه وسلم من الصدقات والمعروف وإظهار الزينة والسرور فإن ذلك مع ما فيه من الإحسان للفقراء مشعر بمحبته صلى الله عليه وسلم وتعظيمه في قلب فاعل ذلك وشكر الله على ما من به من إيجاد رسوله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله رحمة للعالمين هذا كلامه

قال السخاوي لم يفعله أحد من السلف في القرون الثلاثة وإنما حدث بعد ثم لا زال أهل الإسلام من سائر الأقطار والمدن الكبار يعملون المولد ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات ويعتنون بقراءة مولده الكريم ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم قال ابن الجوزي من خواصه أنه أمان في ذلك العام وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام وأول من أحدثه من الملوك صاحب أربل وصنف له ابن دحية كتابا في المولد سماه التنوير بمولد البشير النذير فأجازه بألف دينار وقد استخرج له الحافظ ابن حجر

أصلا من السنة وكذا الحافظ السيوطي وردا على الفاكهاني المالكي في قوله إن عمل المولد بدعة مذمومة

باب ذكر رضاعه صلى الله عليه وسلم وما اتصل به

يقال أنه صلى الله عليه وسلم ارتضع من ثمانية من النساء وقيل من عشرة بزيادة خولة بنت المنذر وأم أيمن عزيزة قالت أول من أرضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوية أي بعد إرضاع أمه له كما سيأتي قال وثوية هي جارية عمه أبي لهب وقد أعتقها حين بشرته بولادته صلى الله عليه وسلم أي فإنها قالت له أما شعرت أن آمنة ولدت ولدا وفي لفظ غلاما لأخيك عبد الله فقال لها أنت حرة فجوزى بتخفيف العذاب عنه يوم الاثنين بأن يسقى ماء في جهنم في تلك الليلة أي ليلة الاثنين في مثل النقرة التي بين السبابة والإبهام أي أن سبب تخفيف العذاب يوم الاثنين ما يسقاه تلك الليلة في تلك النقرة

ويذكر أن بعض أهل أبي لهب أي وهو أخوه العباس رضي الله تعالى عنه رآه في النوم في حالة سيئة فعن العباس رضي الله تعالى عنه قال مكثت حولا بعد موت أبي لهب لا أراه في نوم ثم رأيت في شر حال فقلت له ماذا لقيت فقال له أبو لهب لم أذق بعدكم رخاء وفي لفظ فقال له بشر خيبة بفتح الخاء المعجمة وقيل بكسر الخاء وهي سوء الحال غير أنني سقيت في هذه وأشار إلى النقرة المذكورة بعناقتي ثوية ذكره الحافظ الدمياطي

والذي في المواهب وقد رؤى أبو لهب بعد موته في النوم فقبل له ما حالك فقال في النار إلا أنه يخفف عني كل ليلة اثنين وأمص من بين أصبعي هاتين ماء وأشار برأس أصبعيه وأن ذلك بإعتاقي لثوية عندما بشرتني بولادة النبي صلى الله عليه وسلم وبارضاعها له فليتأمل

وقيل إنه إنما أعتقها لما هاجر صلى الله عليه وسلم أي فإن خديجة رضي الله تعالى عنها كانت تكرمها وطلبت من أبي لهب أن يتباعها منه لتعتقها فأبى أبو لهب فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أعتقها أبو لهب

أقول قد يقال لا منافاة لجواز أن يكون لما أعتقها لم يظهر عتقها وإبائه بيعها لكونها كانت معتوقة ثم أظهر عتقها بعد الهجرة والله أعلم وإرضاعها له صلى الله عليه وسلم كان أياما قلائل قبل أن تقدم حليلة وكان بلبن ابن لها يقال له مسروح وهو بضم الميم وسين مهملة ساكنة ثم راء مضمومة ثم حاء مهملة كذا في النور وفي السيرة الشامية بفتح الميم وكانت قد أرضعت قبله أبا سفيان ابن عمه صلى الله عليه وسلم الحارث وفي كلام بعضهم كان تربا له صلى الله عليه وسلم وكان يشبهه وكان يألفه إلفا شديدا قبل النبوة فلما بعث صلى الله عليه وسلم عاداه وهجره وهجا أصحابه رضي الله تعالى عنهم فإنه كان شاعرا مجيدا وسيأتي إسلامه رضي الله تعالى عنه عند توجهه صلى الله عليه وسلم لفتح مكة وأرضعت ثويبة رضي الله تعالى عنها قبلهما عمه صلى الله عليه وسلم حمزة بن عبد المطلب وكان أسن منه صلى الله عليه وسلم بستين وقيل بأربع سنين

أقول هذا يخالف ما تقدم من أن عبد المطلب تزوج من بني زهرة هالة وأتى منها بحمزة وأن عبد الله تزوج من بني زهرة آمنة وذلك في مجلس واحد وأن آمنة حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم عند دخول عبد الله بها وأنه دخل بها حين أملك عليها فكيف يكون حمزة أسن منه صلى الله عليه وسلم بستين إلا أن يقال ليس فيما تقدم تصريح بأن عبد المطلب وعبد الله دخلا على زوجتيهما في وقت واحد وعبارة السهيلي هالة بنت وهيب عبد بن مناف بن زهرة عم آمنة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها عبد المطلب وتزوج ابنه عبد الله آمنة في ساعة واحدة فولدت هالة لعبد المطلب حمزة وولدت آمنة لعبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أرضعتها ثويبة هذا كلامه وليس فيه كقول أسد الغابة المتقدم أن عبد المطلب تزوج هو وعبد الله في مجلس واحد تصريح بأنهما دخلا بزوجتيهما في وقت واحد لإمكان حمل الزوج على الخطبة المصرح بها فيما تقدم عن ابن المحدث أن عبد المطلب خطب هالة في مجلس خطبة عبد الله لآمنة والله أعلم ثم رأيت في الإستيعاب قال كان أي حمزة أسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع سنين وهذا لا يصح عندي لأن الحديث الثابت أن حمزة أرضعته ثويبة مع رسول

الله صلى الله عليه وسلم إلا أن تكون أرضعتها في زمانين هذا لفظه وفيه ما علمت
وفيه أيضا على تسليم أنها أرضعتها في زمانين لكن بلبن ابنها مسروح كما سيأتي
ويبعد بقاء لبن ابنها مسروح أربع سنين ثم أرضعت به رسول الله صلى الله عليه وسلم
وسياتي الجواب عنه

وأرضعت ثوية رضي الله تعالى عنها بعده صلى الله عليه وسلم أبا سلمة بن عبد الأسد
أي ابن عمته الذي كان زوجا لأم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين رضي الله تعالى
عنها فقد أرضعت ثوية حمزة ثم أبا سفيان ابن عمه الحرث ثم رسول الله صلى الله
عليه وسلم ثم أبا سلمة وهو مخالف بظاهره لقول المحب الطبري وأرضعته ثوية جارية
أبي لهب وأرضعت معه حمزة بن عبد المطلب وأبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد بلبن
ابنها مسروح هذا كلامه وفيه ما علمت

وقد يجاب بأنه ممكن بأن تكون لم تحمل على ولدها مسروح في المدة المذكورة
فاستمر لبنها

وأیضا هي أرضعت بين حمزة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عمه أبا سفيان
الحرث كما علمت

وذكر بعضهم أن أبا سلمة أول من يدعى للحساب اليسير وقد روى عن النبي صلى الله
عليه وسلم حديثا واحدا فعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت أتاني أبو سلمة يوما
من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه
وسلم قولا سررت به قال لا تصيب أحدا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم
يقول اللهم أجرني في مصيبي واخلف على خيرا منها إلا فعل به قال الترمذي حسن
غريب ويدل لكون أبي سلمة أخاه صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ما جاء عن أم
حبيبة قالت دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له هل لك في أختي بنت
أبي سفيان أي وهي عزة بعين مهملة ثم زاي أي وفي رواية هل لك في أختي حمنة
بنت أبي سفيان والذي في مسلم أنكح أختي عزة أي وفي البخاري أنكح أختي بنت
أبي سفيان قال أو تحبين ذلك قالت نعم لست لك بمخلية بضم الميم وسكون الخاء
وكسر اللام وبالتحتية أي لست لك بتاركة عدم أخذها وأحب من شاركني

في خير أختي فقال النبي صلى الله عليه وسلم فإن ذلك لا يحل لي قالت فوالله إني أنبت أي وفي لفظ إنا لتحدث أنك تخطب درة أي وفي لفظ تريد أن تنكح درة بنت أبي سلمة أي بضم الدال المهملة وأما ضبطه بفتح الذال المعجمة قال بعضهم هو تصحيف لا شك فيه تعنى بدرة بنتها من أبي سلمة قال ابنة أبي سلمة قلت نعم فقال والله لم تكن ربيتي في حجري ما حلت لي إنها لابنة أخي من الرضاعة أَرْضَعْتَنِي وإياه ثوية أي وفي رواية لولا أنني لم أنكح أم سلمة يعني أم حبيبة التي هي أمها لم تحل لي إن أباه أخي من الرضاعة أي وأختك على فرض أن تكون بنت أخي من الرضاعة لا يحل لي أن أجمعها معك فلا تعرضن على بناتكن ولا أخواتكن قيل وفي هذا أي وفي قوله لو لم تكن ربيتي في حجري وفي قوله تعالى * (وربائبكم اللاتي في حجوركم) * حجة لداود الظاهري أن الربيبة لا تحرم إلا إذا كانت في حجر زوج أمها فإن لم تكن في حجره فهي حلال له أي وقيل لها ربيبة لأنها مأخوذة من الرب وهو الإصلاح لأن زوج أمها يقوم بإصلاح أحوالها قال ولك أن تقول كان الظاهر الاقتصار على الأخوات لأن أم حبيبة هي التي عرضت أختها ولم تعرض بنتها التي هي درة وقد يجاب بأنه صلى الله عليه وسلم جعل خطاب أم حبيبة خطاباً لجميع زوجاته صلى الله عليه وسلم لأن هذا الحكم لا يختص بواحدة دون أخرى أقول فيه أن هذا واضح لو كان في زوجاته صلى الله عليه وسلم من عرض عليه بنته إلا أن يقال المراد فلا تعرضن لا ينبغي لكن أن تعرضن وذلك لا يستلزم وقوع العرض بالفعل

ثم رأيت الإمام النووي رحمه الله ذكر أن هذا من أم حبيبة أي من عرض أختها محمول على أنه لم تكن تعلم تحريم الجمع بين الأختين عليه صلى الله عليه وسلم قال وكذا لم تعلم من عرض بنت أم سلمة تحريم الربيبة هذا كلامه وهو يقتضى أن بعض الناس عرض عليه بنت أم سلمة وإذا كان من عرضها عليه إحدى نسائه اتجه قوله فلا تعرضن على بناتكن تأمل وبهذا الحديث استدل من قال إنه لا يجوز له صلى الله عليه وسلم أن يجمع بين المرأة وأختها وهو الراجح من وجهين ومقابله يقول خص بجواز ذلك له ولا يجمع بين المرأة وبنتها خلافاً لوجه حكاة

الرافعي وهذا الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم لو لم أنكح أم سلمة لم تحل لي
يرد هذا الوجه

وعبارة الخصائص الصغرى وله صلى الله عليه وسلم الجمع بين المرأة وأختها وعمتها
وخالتها في أحد الوجهين وبين المرأة وابنتها في وجه حكاه الرافعي وتبعه في الروضة
وجزموا بأنه غلط والله أعلم

ومما يدل أيضا على أن عمه صلى الله عليه وسلم حمزة أخوه من الرضاعة ما جاء عن
علي رضي الله تعالى عنه قال قلت يا رسول الله ما لك لا تتوق في قریش أي بمثنائين
فوق مفتوحتين ثم واو مشددة ثم قاف أي لا تشوق إليهم مأخوذ من التوق الذي هو
الشوق وفي رواية بالتاء والنون أي لا تختار و لا تتزوج منهم قال أو عندك قلت نعم
ابنة حمزة أي عمه وهي أمامة وهي أحسن فتاة في قریش قال تلك ابنة أخي من
الرضاعة أي وهذا من علي رضي الله تعالى عنه محمول على أنه لم يكن يعلم بتحريم
بنت الأخ من الرضاعة عليه صلى الله عليه وسلم أو أنه لم يكن يعلم أن عمه حمزة أخ
له صلى الله عليه وسلم من الرضاعة

وفيه أنه جاء رواية أليس قد علمت أنه أخي من الرضاعة وأن الله قد حرم من الرضاعة
ما حرم من النسب إلا أن يراد بقوله قد علمت أي أعلم قال ولعله لم يقل أرضعتني
وإياه ثوية كما قال ذلك في أبي سلمة لأن ثوية أرضعت حمزة ثم رسول الله صلى
الله عليه وسلم ثم أبا سلمة لأن حمزة رضيعه أيضا من امرأة من بني سعد غير حليلة
كان حمزة رضي الله تعالى عنه مسترضعا عندها في بني سعد أرضعته صلى الله عليه
وسلم يوما وهي عند حليلة أي فهو رضيعه صلى الله عليه وسلم من جهة ثوية ومن
جهة تلك المرأة السعدية ولم أقف على اسم تلك المرأة أي ولو اقتصر على ثوية لأوهم
أنه لم يرتضع معه على غيرها وذكر في الأصل أن بعضهم ذكر من مرضعه صلى الله
عليه وسلم خولة بنت المنذر

أقول وتقدم ذلك ونسب هذا البعض في ذلك للوهم وأن خولة بنت المنذر التي هي أم
بردة إنما كانت مرضعة لولده إبراهيم

وقد يجاب عنه بأنه يجوز أن تكون خولة بنت المنذر اثنتان واحدة أرضعته صلى الله
عليه وسلم وواحدة أرضعت ولده إبراهيم وأن خولة التي أرضعته صلى الله عليه وسلم

وسلم هي السعدية التي كانت ترضع حمزة التي قال فيها الشمس الشامي لم أقف على اسم تلك المرأة والله أعلم ولم يذكر إسلام ثويبة إلا ابن منده قال الحافظ ابن حجر وفي طبقات ابن سعد ما تدل على أنها لم تسلم ولكن لا يدفع نقل ابن منده به وفي الخصائص الصغرى لم ترضعه صلى الله عليه وسلم مرضعة إلا أسلمت ولم أقف على إسلام ابنها مسروح أقول ومما يدل على عدم إسلامه ما جاء بسند ضعيف إذا كان يوم القيامة أشفع لأخ لي في الجاهلية قال الحافظ السيوطي يعنى أخاه من الرضاعة لأنه لم يدرك الإسلام لا يقال من أين أنه مسروح جاز أن يكون ابن حليمة وهو عبد الله الذي كان يرضع معه صلى الله عليه وسلم بناء على أنه لم تدرك الإسلام لأنه لم يعرف له إسلام لأننا نقول سيأتي عن شرح الهمزية لابن حجر أن عبد الله ولد حليمة أسلم والله أعلم أي وقد يدل على عدم إسلام ثويبة وابنها المذكور الذي هو مسروح ما جاء أنه صلى الله عليه وسلم كان يبعث لها بصلة وكسوة وهي بمكة حتى جاءه خبر وفاتها مرجعه صلى الله عليه وسلم من خيبر سنة سبع فقال ما فعل ابنها مسروح فقيل مات قبلها أي ولو كانا أسلما لهاجرا إلى المدينة أقول وهذا بظاهره يدل على أن مسروحا أدرك الإسلام وقد ينافي علم وفاتهما مرجعه صلى الله عليه وسلم من خيبر ما ذكر السهيلي أنه عليه الصلاة والسلام كان يصلها من المدينة فلما افتتح مكة سأل عنها وعن ابنها مسروح فأخبر أنهما ماتا وقد يقال لا منافاة لأنه يجوز أن يكون سؤاله الثاني للتثبت لوصله محل إقامتهما والقول بأنهما لو كانا أسلما لهاجرا إلى المدينة يقال عليه يجوز أن تكون الهجرة تعذرت عليهما لعارض عرض لهما والله أعلم قال وجاء أن أمه أرضعته صلى الله عليه وسلم تسعة أيام أقول وعن عيون المعارف للقضاعي سبعة أيام وفي الإمتاع أنها أرضعته صلى الله عليه وسلم سبعة أشهر ثم أرضعته ثويبة أياما قلائل هذا كلامه وقوله ثم أرضعته ثويبة يخالف ما تقدم من أن أول من أرضعه ثويبة إلا أن يقال المراد أول من أرضعه غير أمه ثويبة فلا مخالفة

وبهذا يرد نقل ابن المحدث عن الأصل أن أول لبن نزل جوفه صلى الله عليه وسلم لبن ثوية فإنه فهم ذلك من قول الأصل أول من أرضعه ثوية لما علمت أن الأولية إضافية لا حقيقة إلا أن يدعى ذلك في نقل ابن المحدث أيضا أي أول لبن نزل جوفه صلى الله عليه وسلم بعد لبن أمه والله أعلم

قال وأرضعه صلى الله عليه وسلم ثلاث نسوة أي أبكار من بني سليم أخرجن ثديهن فوضعهن في فمه فدرت في فيه فوضع منهن وأرضعته صلى الله عليه وسلم أم فروة أي وهؤلاء النسوة الأبكار كل واحدة منهن تسمى عاتكة وهن اللاتي عناهن صلى الله عليه وسلم بقوله أنا ابن العواتك من سليم على ما تقدم وما تقدم من أن أم أيمن أرضعته صلى الله عليه وسلم ذكره في الخصائص الصغرى رد بأنها حاضنته لا مرضعته

وعلى تقدير صحته ينظر بلبن أي ولد لها كان فإنه لا يعرف لها ولد إلا أيمن وأسامة إلا أن يقال جاز أن لبنها در له صلى الله عليه وسلم من غير وجود ولد كما تقدم في النسوة الأبكار

وأرضعته صلى الله عليه وسلم حليلة بنت أبي ذؤيب وتكنى أم كبشة أي باسم بنت لها اسمها كبشة ويكنى بها أيضا والدها الذي هو زوج حليلة أي وكانت من هوازن أي من بني سعد بن بكر بن هوازن وسيأتي الكلام على إسلامها وعنها أنها كانت تحدث أنها خرجت من بلدها معها ابن لها ترضعه اسمه عبد الله ومعها زوجها قال وهو الحارث بن عبد العزى ويكنى أبا ذؤيب أي كما يكنى أبا كبشة أدرك الإسلام وأسلم

فقد روى أبو داود بسند صحيح عن عمرو بن السائب أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا يوما فأقبل أبوه من الرضاعة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجلسه بين يديه

وعن ابن إسحاق بلغني أن الحارث إنما أسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يؤيد قول بعضهم لم يذكر الحارث كثير ممن ألف في الصحابة أقول يدل للأول ظاهر ما روى أن الحارث هذا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد نزول القرآن عليه صلى الله عليه وسلم فقالت له قريش أو تسمع

يا حارث ما يقول ابنك فقال وما يقول قالوا يزعم أن الله يبعث من في القبور وأن لله دارين يعذب فيهما من عصاه ويكرم فيهما من أطاعه أي يعذب في إحداهما من عصاه وهي النار ويكرم في الأخرى من أطاعه وهي الجنة فقد شئت أمرنا وفرق جماعتنا فأتاه فقال أي بني مالك ولقومك يشكونك ويزعمون أنك تقول كذا أي أن الناس يبعثون بعد الموت ثم يصيرون إلى جنة ونار فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم أنا أقول ذلك وفي لفظ أنا أزعم ذلك ولو قد كان ذلك اليوم يا أبت فلا آخذن بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم فأسلم الحرث بعد ذلك وحسن إسلامه أي وقد كان يقول حين أسلم لو أخذ ابني بيدي فعرفني ما قال لم يرسلني حتى يدخلني الجنة وإنما قلنا ظاهر لأنه قد يقال قوله بعد ذلك يصدق بما بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فلا دلالة في ذلك على أنه أسلم في حياته صلى الله عليه وسلم

وفي شرح الهمزية لابن حجر ومن سعادتها يعنى حليلة توفيقها للإسلام هي وزوجها وبنوها وهم عبد الله والشيماء وأنيسة هذا كلامه

وفي الإصابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا أي على ثوب فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه فقعده عليه ثم أقبلت أمه صلى الله عليه وسلم فوضع لها شق ثوبه من الجانب الآخر فجلست عليه ثم أقبل أخوه صلى الله عليه وسلم من الرضاعة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس بين يديه ورجاله ثقات ولعل المراد بجلوسه بين يديه جلوسه مقابله وحينئذ ففاعل جلس النبي صلى الله عليه وسلم وضمير يديه راجع لأخيه أي قام صلى الله عليه وسلم عن محل جلوسه على الثوب وأجلس أخاه على الثوب مكانه وجلس صلى الله عليه وسلم قبالة أخيه فعل صلى الله عليه وسلم ذلك ليكون أخوه هو وأبواه جميعا على الثوب والله أعلم

قالت وخرجت في نسوة من بني سعد أي ابن بكر بن هوازن عشرة يطلبن الرضعاء في سنة شهباء أي ذات جدب وقحط لم تبق شيئا على أتان قمراء بفتح القاف والمد أي شديد البياض ومعنى شارف أي ناقة مسنة ما تبض بالضاد المعجمة وربما روى بالمهملة أي ما ترشح بقطرة لبن قالت وما كنا ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع ما في ثدي وفي رواية ثديي ما يغنيه وما في شارفنا ما يغذيه بمعجمتين وقيل بمعجمة ثم مهملة وقيل بإسكان العين المهملة وكسر الذال المعجمة

وضم الباء الموحدة أي ما يكفيه بحيث يرفع رأسه وينقطع عن الرضاعة قالت حليلة
ولكننا نرجو الغيث والفرج فخرجت على أتاني تلك فلقد أدمت بالدال المهملة وتشديد
الميم بالركب أي حبسته بتأخرها عنه لشدة عنائها وتعبها لضعفها وهزالها حتى شق
ذلك عليهم حتى قدمنا مكة نلتمس أي نطلب الرضعاء جمع رضيع وأدم مأخوذ من
الماء الدائم يقال أدم بالركب إذا أبطأ حتى حبسهم ويروى بالمعجمة أي جاء بما يدم
عليه وهو هنا لإبطاء

أقول لأنه كان من شيم العرب وأخلاقهم إذا ولد لهم ولد يلتمسون له مرضعة في غير
قبيلتهم ليكون أنجب لولد وأفصح له وقيل لأنهم كانوا يرون أنه عار على المرأة أن
ترضع ولدها انتهى أي تستقل برضاعه

ويدل للأول ما جاء أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول لأصحابه أنا أعربكم أي
أفصحكم عربية أنا قرشي وأسترضعت في بني سعد وجاء أن أبا بكر رضي الله تعالى
عنه لما قال له صلى الله عليه وسلم ما رأيت أفصح منك يا رسول الله فقال له ما
يمنعني وأنا من قريش وأرضعت من بني سعد فهذا كان يحمله على دفع الرضعاء إلى
المراضع الأعرابيات

ومن ثم نقل عن عبد الملك بن مروان أنه كان يقول أضر بناحب الوليد يعني ولده لأنه
لمحبته له أبقاه مع أمه في المصر ولم يسترضعه في البادية مع الأعراب فصار لحانا لا
عربية له وأخوه سليمان استرضع في البادية مع الأعراب فصار عربيا غير لحن
قالت حليلة فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا
قيل لها يتيم وذلك أنا إنما نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول يتيم ما عسى أن
تصنع أمه وجده فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة معي إلا أخذت رضيعا غيري فلما
أجمعنا الانطلاق أي عزمنا عليه قلت لصاحبي والله إنني لأكره أن أرجع من بين
صواحيبي ولم آخذ رضيعا والله لأذهبن إلى ذلك الرضيع فلاآخذنه قال لا عليك أي لا
بأس عليكم أن تفعل عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة فذهبت إليه فأخذته
أقول وهذا السياق قد يخالف قول بعضهم إن عبد المطلب خرج يلتمس له المراضع
فجاءت له حليلة ابنة أبي ذؤيب إلا أن يقال جاز أن يكون التماسه للمراضع

غير حليلة كان عند قدومهن وأبين أن يقبلن ثم طلب من حليلة ذلك بعد أن لم يجد رضيعا ويدل لذلك قول صاحب شفاء الصدور إن حليلة قالت استقبلني عبد المطلب فقال من أنت فقلت أنا امرأة من بني سعد قال ما أسمك قلت حليلة فتبسم عبد المطلب وقال بخ بخ سعد وحلم خصلتان فيهما خير الدهر وعز الأبد يا حليلة إن عندي غلاما يتيما وقد عرضته على نساء بني سعد فأبين أن يقبلن وقلن ما عند اليتيم من الخير إنما نلتمس الكرامة من الآباء فهل لك أن ترضعيه فعسى أن تسعدي به فقلت ألا تذرني حتى أشاور صاحبي فانصرفت إلى صاحبي فأخبرته فكأن الله قذف في قلبه فرحا وسرورا فقال لي يا حليلة خذيه فرجعت إلى عبد المطلب فوجدته قاعدا ينتظرني فقلت هلم الصبي فاستهل وجهه فرحا فأخذني وأدخلني بيت آمنة فقالت لي أهلا وسهلا وأدخلتني في البيت الذي فيه محمد صلى الله عليه وسلم فإذا هو مدرج في ثوب صوف أبيض من اللبن وتحتة حريرة خضراء راقد على قفاه يغط يفوح منه رائحة المسك فأشفقت أي خفت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله فوضعت يدي على صدره فتبسم ضاحكا وفتح عينيه إلى فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء وأنا أنظر فقبلته بين عينيه وأخذته وما حملني على أخذه أي أكد أخذه إلا أنني لم أجد غيره وإلا فما ذكرته من أوصافه مقتض لأخذه أي وهذه الرواية ربما تدل على أنها لم تره قبل ذلك وأن إباءها كان قبل رؤيتها له قالت فلما أخذته رجعت به إلى رحلي فلما وضعت في حجري أقبل ثدياي بما شاء الله من لبن فشرب حتى روى أي من الثدي الأيمن وعرضت عليه الأيسر فأباه قالت حليلة وكانت تلك حالته بعد أي بعد ذلك لا يقبل إلا ثديا واحدا وهو الأيمن

وفي السبعيات للهمذاني أن أحد ثديي حليلة كان لا يدر اللبن منه فلما وضعت في فم رسول الله صلى الله عليه وسلم در اللبن منه قالت وشرب معه أخوه حتى روى ثم نام وما كنا ننام معه قبل ذلك أي فعدم نومه من الجوع فقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا هي حافل أي ممتلئة الضرع من اللبن فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا ريا وشبعا فبتنا بخير ليلة يقول صاحبي حين أصبحنا تعلمي والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة قلت والله إنني لأرجو ذلك ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته صلى الله عليه وسلم معي عليها فوالله لقطعت بالركب أي صيرته خلفها ما يقدر عليها أي على

مرافقتها ومصاحبتها شيء من حمرهن حتى أن صواحيبي يقلن لي يا بنت أبي ذؤيب ويحك اربعي أي اعطفي علينا بالرفق وعدم الشدة في السر أليس هذا أتانك التي كنت خرجت عليها تخفضك طورا وترفعك أخرى فأقول لهن بلى والله إنها لهي فيقلن والله إن لها لشأنا أي وقالت حليلة فكنت أسمع أتاني تنطق ونقول والله إن لي لشأنا ثم شأنا شأني بعثني الله بعد موتي ورد لي سمني بعد هزالي ويحكن يا نساء بني سعد إنكن لفي غفلة وهل تدرين من على ظهري على ظهري خير النبيين وسيد المرسلين وخير الأولين والآخرين وحبیب رب العالمین ذكره في النطق المفهوم وذكرت أنها لما أرادت فراق مكة رأت تلك الأتان سجدت أي خفضت رأسها نحو الكعبة ثلاث سجعات ورفعت رأسها إلى السماء ثم مشت قالت ثم قدمنا منازل بني سعد ولا أعلم أرضا من أراضي الله أجذب منها فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به شباعا لبنا أي غزيرات اللبن فنحلب ونشرب ولفظ فنحلب ما شئنا والله ما يحلب إنسان

قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضر أي المقيم في المنازل من قومنا يقول لرعاتهم ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب يعنونني فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمي شباعا لبنا فلم نزل نعرف من الله تعالى الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته وكان يشب شبا لا يشبه الغلمان فلم يقطع سنتيه حتى كان غلاما جفرا أي غليظا شديدا

وعن حليلة رضي الله تعالى عنها أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغ شهرين كان يجيء إلى كل جانب أي وهذا يضعف ما تقدم عن الامتناع من أن أمه صلى الله عليه وسلم أرضعته سبعة أشهر قالت حليلة فلما بلغ صلى الله عليه وسلم ثمانية أشهر كان يتكلم بحيث يسمع كلامه ولما بلغ تسعة أشهر كان يتكلم الكلام الفصيح ولما بلغ عشرة أشهر كان يرمى السهام مع الصبيان

وعنها رضي الله تعالى عنها أنها قالت إنه لفي حجري ذات يوم إذ مرت به غنيماتي فأقبلت واحدة منهن حتى سجدت له وقبلت رأسه ثم ذهبت إلى صواحبها أقول وقد سجدت له صلى الله عليه وسلم الغنم وكذا الجمل بعد بعثته والهجرة فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل حائطا أي بستانا للإنصار ومعه أبو بكر وعمر ورجال من الأنصار وفي الحائط غنم فسجدت

له فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه يا رسول الله كنا أحق بالسجود لك من هذه الغنم فقال إنه لا ينبغي في أمتي أن يسجد أحد لأحد ولو كان ينبغي لأحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها زاد في رواية ولو أن رجلا أمر زوجته أن تنقل من جبل إلا جبل لكان نولها أي حقها أن تفعل وحرب جمل بكسر الراء أي اشتد غضبه فصار لا يقدر أحد يدخل عليه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأصحابه افتحوا عنه فقالوا إنا نخشى عليك يا رسول الله فقالوا افتحوا عنه ففتحو عنه فلما رآه الجمل خر ساجدا أي فأخذ بناصيته ثم دفعه لصاحبه وقال استعمله وأحسن علفه فقال القوم يا رسول الله كنا أحق أن نسجد لك من هذه البهيمة فقال كلا الحديث وفي هذا دلالة على عظيم حق الزوج على زوجته

وجاء مما يدل على ذلك أيضا ما روى أن أسماء بنت يزيد الأنصارية أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فآمنا بك واتبعناك ونحن معاشر النساء مقصورات مخدرات قواعد بيوت ومواضع شهوات الرجال وحاملات أولادهم وأن الرجال فضلوا بالجماعات وشهود الجنائز والجهاد وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم وربينا لهم أولادهم أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه إلى أصحابه وقال هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه قالوا بلى يا رسول الله فقال انصرفي يا أسماء واعلمي بأنك من النساء إن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته يعدل كل ما ذكرت للرجال أي من حضور الجماعات وشهود الجنائز والجهاد فانصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر استبشارا بما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم والتبعل ملاعبة المرأة لزوجها والله أعلم قالت حليلة وكان ينزل عليه صلى الله عليه وسلم كل يوم نور كنور الشمس ثم ينجلي عنه وإلى قصة رضاعه صلى الله عليه وسلم يشير صاحب الهمزية بقوله

* وبتت في رضاعه معجزات

* ليس فيها عن العيون خفاء

* إذ أتته ليتمه مرضعات

* قلن ما في اليتيم عنا غناء

* فأتته من آل سعد فتاة

* قد أبتها لفرها الرضعاء

* أرضعته لبانها فسقتها

* وبنيتها ألبانهن الشاء

*

أصبحت شولا عجافا وأمست
* ما بها شائل ولا عجفاء
* أخصب العيش عندها بعد محل
* إذ غدا للنبي منها غذاء
* يا لها منة لقد ضوعف الأجر
* عليها من جنسها والجزاء
* وإذا سخر الإله أناسا
* لسعيد فإنهم سعداء
*

أي وظهرت في رضاعه وفي زمن رضاعه صلى الله عليه وسلم أمور خارقة للعادة
لوضوحها لا تخفى على العيون
فمن ذلك أن المراضع أبين أن يأخذنه صلى الله عليه وسلم لأجل يتمه فبعد أن تركته
أته فتاة من آل سعد قد أبتها أهل الرضعاء لفقرها فسقته لبنها فسقتها وبنها الشاء
ألبانها وكانت تلك الشياه لا لبن بها بل هزيلات فصارت ذات ألبان وسمن
ومن ذلك أن العيش كثر عندها بعد شدة المحل لأجل حصول غذاء النبي صلى الله
عليه وسلم يا لها أي لتلك الخصلة الصادرة من حليلة وهي سقيها له لبنها نعمة منها
عليه لقد كثر الثواب والجزاء على تلك النعمة من جنس تلك النعمة لأن الجزاء من
جنس العمل فلما سقت اللبن سقيته ولا بدع فإن الله تعالى إذا سخر أناسا لمحبة سعيد
والقيام بخدمته فإنهم بسبب ذلك سعداء
أقول لم أقف على رواية فيها أن حليلة أبتها أهل الرضعاء لفقرها وكأن الناظم أخذ
ذلك من قولها فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعا غيري وما حملني على
أخذه إلا أنني لم أجد غيره ولا دلالة في ذلك
واستفتى الحافظ ابن حجر عن بعض الوعاظ يذكر عند اجتماع الناس للمولد حادثات
أي وقائع تتعلق به صلى الله عليه وسلم جاءت بها الأخبار هي نخلة بالتعظيم حتى
يظهر من السامعين لها حزن فيبقى صلى الله عليه وسلم في حيز من يرحم لا في حيز
من يعظم
من ذلك أنهم يقولون إن المراضع حضرن ولم يأخذنه لعدم ماله ونحو ذلك فما قولكم
في ذلك

فأجاب بما نصه ينبغي لمن يكون فطنا أن يحذف من الخبر أي الحديث ما يوهم في
المخبر عنه نقصا ولا يضره ذلك بل يجب كما وقع لإمامنا الشافعي رضي الله تعالى
عنه حيث قال في بعض نصوصه وقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة لها شرف
فكلم فيه فقال لو سرفت فلانة لامرأة شريفة لقطعنها يعنى فاطمة بنت النبي صلى

(100)

الله عليه وسلم فلم يصرح باسمها تأدبا معها أن تذكر في هذا المعرض وإن كان صلى
 الله عليه وسلم ذكرها لأن ذلك منه صلى الله عليه وسلم حسن دل على أن الخلق عنده
 صلى الله عليه وسلم في الشرع سواء فهذا من كمال أدب الإمام رضي الله تعالى عنه
 وأرضاه ونفعنا ببركاته أي فإذا جاز حذف بعض الحديث الموهوم نقصا في بعض أهل
 بيته فما بالك بما بوهوم النقص فيه صلى الله عليه وسلم وهذا من الحافظ يدل على أن
 إباء المراضع له صلى الله عليه وسلم وارد حيث أقره ولم ينكره والله أعلم
 قال وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان أول كلام تكلم به صلى الله عليه وسلم
 حين فطمته حليلة رضي الله تعالى عنها الله أكبر تكبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله
 بكرة وأصيلا أي وقد تقدم أنه صلى الله عليه وسلم تكلم بهذا عند خروجه من بطن أمه
 وفي رواية أول كلام تكلم صلى الله عليه وسلم به في بعض الليالي أي وهو عند حليلة
 لا إله إلا الله قدوسا قدوسا نامت العيون والرحمن لا تأخذه سنة ولا نوم وكان صلى
 الله عليه وسلم لا يمس شيئا إلا قال بسم الله
 وعن حليلة رضي الله عنها لما دخلت به صلى الله عليه وسلم إلى منزلي لم يبق منزل
 من منازل بني سعد إلا شممننا منه ريح المسك وألقيت محبته صلى الله عليه وسلم أي
 واعتقاد بركته في قلوب الناس حتى إن أحدهم كان إذا نزل به أذى في جسده أخذ
 كفه صلى الله عليه وسلم فيضعها على موضع الأذى فيبأ بإذن الله تعالى سريعا
 وكذلك إذا اعتل لهم بغير أو شاة انتهى
 قالت حليلة فقدمنا مكة على أمه صلى الله عليه وسلم أي بعد أن بلغ سنتين ونحن
 أحرص شيء على مكته فينا لما نرى من بركته صلى الله عليه وسلم فكلمنا أمه وقلت
 لها لو تركتي بني عندي حتى يغلظ
 وفي كلام ابن الأثير قلنا لها دعينا نرجع به هذه السنة الأخرى فإني أخشى عليه وباء
 مكة أي مرضها ووخمها فلم نزل بها حتى رده صلى الله عليه وسلم معنا
 وقيل إن أمه صلى الله عليه وسلم آمنة قالت لحليمة ارجعي بابني فإني أخاف عليه وباء
 مكة فوالله ليكون له شأن أي ولا مخالفة بينهما لجواز أن حليلة لما قالت لها ما تقدم
 قالت لحليمة ارجعي بابني على الفور فإني أخاف عليه وباء مكة أي كما تخافين عليه
 ذلك قالت حليلة فرجعنا به صلى الله عليه وسلم فوالله إنه بعد مقدمنا به صلى الله عليه
 وسلم

بأشهر عبارة ابن الأثير بعد مقدمنا بشهرين أو ثلاثة مع أخيه يعنى من الرضاعة لفي بهم لنا ولعل هذا لا ينافيه قول المحب الطبري فلما شب وبلغ سنتين لأنه ألغى أي ذلك الكسر فبينما هو صلى الله عليه وسلم وأخوه في بهم لنا خلف بيوتنا والبهم أولاد الضأن إذ أتى أخوه يشتد أي يعدو فقال لي ولأبيه ذلك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعا فشقا بطنه فهما يسوطانه أي يدخلان يديهما في بطنه قالت فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائما منتقعا وجهه وفي لفظ لونه أي متغير أي صار لونه كلون النقع الذي هو الغبار وهو صفة ألوان الموتى وذلك لما ناله من الفزع أي من رؤية الملائكة لا من مشقة نشأت عن ذلك الشق لما يأتي في بعض الروايات فلم أجد لذلك حسا ولا ألما ومن ثم قال ابن الجوزي فشقة وما شق عليه وإطلاقه شامل لهذه المرة التي هي الأولى وقد قال بعضهم إنه لم ينتفع لونه إلا وهو صلى الله عليه وسلم صغير في بني سعد

قالت فالترتمته والتزمه أبوه فقلنا له مالك يا بني فقال صلى الله عليه وسلم جاءني رجلان عليها ثياب بيض أي وهما جبريل وميكائيل أي وهما المراد بقوله في رواية فأقبل إلي طيران أبيضان كأنهما نسران فقال أحدهما لصاحبه أهو هو قال نعم فأقبلا يتدراني فأخذاني فأضجعاني فشقا بطني فالتمسنا فيه شيئا أي طلباه فوجداه فأخذه وطرحاه ولا أدري ما هو أي وسيأتي أن هذا الذي قال صلى الله عليه وسلم فيه وما أدري ما هو أنه علقه سوداء استخرجها من قلبه بعد شق بطنه ففي هذه الرواية طي ذكر القلب وشقه وسيأتي ذكر ذلك في بعض الروايات

وفي رواية غريبة نزل عليه كركيان فشق أحدهما بمنقاره جوفه ومج الآخر فيه بمنقاره ثلجا أو بردا وقد يقال إن الطيرين تارة شهما بالنسرين وتارة شهما بالكركيين وفي كون مجئ جبريل وميكائيل على صورة النسر لطيفة لأن النسر سيد الطيور فقد جاء في الحديث هبط على جبريل فقال يا محمد إن لكل شيء سيد فسيد البشر آدم وأنت سيد ولد آدم وسيد الروم صهيب وسيد فارس سلمان وسيد الحبش بلال وسيد الشجر السدر وسيد الطير النسر وفي بحر العلوم وسيد الملائكة إسرافيل وسيد الشهداء هابيل وسيد الجبال جبل موسى وسيد الأنعام الثور وسيد الوحوش الفيل وسيد السباع الأسد زاد بعضهم وسيد الشهور رمضان وسيد الأيام يوم الجمعة وسيد الكلام العربية وسيد العربية القرآن وسيد القرآن سورة البقرة

قالت حليلة فرجعنا به صلى الله عليه وسلم إلى خبائنا أي محل الإقامة وقال لي أبوه

يا حليلة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقه بأهله قبل أن يظهر به ذلك وفي رواية قال الناس يا حليلة رديه على جده واخرجي من أمانتك وفي رواية وقال زوجي أرى أن ترديه على أمه لتعالجه والله إن أصابه ما أصابه إلا حسد من آل فلان لما يرون من عظيم بركنه قالت فحملناه فقدمنا به مكة على أمه قال الواقدي وكان ابن عباس يقول رجع إلى أمه وهو ابن خمس سنين أي وزاد في الإستيعاب ويومين من مولده صلى الله وكان غيره أي غير ابن عباس يقول رجع إلى أمه وهو ابن أربع سنين وذكر الأموي أنه رجع إلى أمه وهو ابن ست سنين انتهى أقول سياق ما قبله يدل على أن قدوم حليلة به على أمه كان عقب الواقعة المذكورة وتقدم أن سنة حينئذ كان سنتين وأشهر وسيأتي ما فيه والله أعلم وعن ابن عباس أن حليلة كانت تحدث أنه صلى الله عليه وسلم لما ترعرع كان يخرج فينظر إلى الصبيان يلعبون فيجتنبهم فقال لي يوما يا أماه مالي لا أرى إخوتي بالنهار يعني إخوته من الرضاعة وهم أخوه عبد الله وأخته أنيسة والشيماء بفتح المعجمة وسكون التحية أولاد الحارث قلت فدتك نفسي إنهم يرعون غنما لنا فيروحون من ليل إلى ليل قال ابعتني معهم فكان عليه الصلاة والسلام يخرج مسرورا ويعود مسرورا أي وهذا لا يخالف قولها السابق كان مع أخيه في بهم لنا خلف بيوتنا ولا قوله صلى الله عليه وسلم الآتي فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا ولا قوله فبينما أنا ذات يوم منتبذا من أهلي في بطن واد مع أتراب لي من الفتيان كما لا يخفى قالت حليلة فلما كان يوما من ذلك خرجوا فلما انتصف إليها أتاني أخوه أي وفي رواية إذا أتى ابني ضمرة يعدو فزعا وجبينه يرشح باكيا ينادى يا أبت ويا أمه الحقا أخي محمدا فما تلحقانه إلا ميتا قلت وما قضيته قال بينا نحن قيام إذ أتاه رجل فاخطفه من وسطنا وعلا به ذروة الجبل ونحن ننظر إليه حتى شق صدره إلى عانته ولا أدري ما فعل به

أقول ولعل ضمرة هذا هو أخوه عبد الله المتقدم ذكره لقب بذلك لخفة جسمه ولا يخالف ذلك قوله صلى الله عليه وسلم الآتي إن أترابه الذين كانوا معه انطلقوا هربا مسرعين إلى الحي يؤذونهم ويستصرخونهم ولأنه يجوز أن يكون ضمرة سبقهم والله أعلم

قالت حليلة فانطلقت أنا وأبوه نسعي سعيا فإذا نحن به قاعدا على ذروة الجبل شاخصا يبصره إلى السماء يتبسم ويضحك فأكبت عليه وقبلته بين عينيه وقلت له فدتك نفسي

ما الذي دهاك قال خيرا كذا بالنصب يا أماه بينا أنا الساعة قائم إذ أتاني رهط ثلاثة بيد أحدهم إبريق فضة في يد الآخر طست من زمردة خضراء والزمردة بالضم والزاي المعجمة الزبر جد وهو معرب فأخذوني وانطلقوا بي إلى ذروة الجبل فأضجعوني على الجبل إضجاعا لطيفا وفيه أن هذا يخالف قوله صلى الله عليه وسلم الآتي فأخذوني حتى أتوا شفير الوادي فعمد أحدهم فأضجعني إلى الأرض ثم شق من صدري إلى عانتي وسيأتي الجمع بينهما وقوله ثم شق من صدري إلى عانتي هو المراد ببطنه فيما تقدم وما يأتي قال وأنا أنظر إليه فلم أجد لذلك حسا ولا ألما الحديث وفي هذه الرواية طي ذكر القلب وشقه أيضا

أقول ولا منافاة في تلك الرواية بين قولها فوجدناه قائما وبين قولها في هذه الرواية فإذا نحن به قاعدا على ذروة الجبل لجواز أن تكون أرادت بقولها قائما كونه حيا وبكونه قاعدا كونه ماكثا كما لا منافاة بين قولها في تلك الرواية منتقعا وجهه وبين قولها في هذه الرواية يتبسم ويضحك لأن ذلك لا ينافي الفزع أو لجواز أن يكون تبسمه وضحكه تعجبا لما رأى من الحالة التي عليها أمه من التعب والشدة والله أعلم قال وذكر ابن إسحاق أن حليلة لما قدمت به صلى الله عليه وسلم مكة لترده على أمه أي بعد شق صدره صلى الله عليه وسلم وقد بلغ أربع سنين أو خمسا أو ستا على ما تقدم أضلته في أعالي مكة فأتت جده عبد المطلب فقالت إني قدمت بمحمد هذه الليلة فلما كنت بأعالي مكة أضلني فوالله ما أدري أين هو فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله أن يرده عليه وفي مرآة الزمان أنه أنشد

* يا رب رد لي ولدي محمدا

* أردده ربي واصطنع عندي يدا

*

وسياتي أن هذا البيت أنشده عبد المطلب حين بعث صلى الله عليه وسلم ليرد إبلا له ضلت

وقد يقال لا مانع من تكرار ذلك منه فسمع هاتفا من السماء يقول أيها الناس لا تضجوا إن لمحمد ربا لن يخذله ولا يضيعه فقال عبد المطلب من لنا به فقال إنه بوادي تهامة عند الشجرة اليمنى فركب عبد المطلب نحوه وتبعه ورقة بن نوفل وسيأتي بعض ترجمة ورقة فوجداه صلى الله عليه وسلم قائما تحت شجرة يجذب عصنا من أغصانها فقال له جده من أنت يا غلام فقال أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب فقال وأنا عبد المطلب جدك فدتك نفسي وأحتمله وعانقه وهو يبكي ثم رجع إلى مكة وهو قدامه على قربوس فرسه ونحر الشياه والبقر وأطعم أهل مكة

أقول وقول جده من أنت يا غلام لعله لكونه وجده على حالة لا توجد لمن يكون في سنه عادة كما تقدم عن حليلة من قولها كان يشب شبابا لا يشبه الغلمان وفي السيرة الهشامية أن الذي وجده هو ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش فأتيا به عبد المطلب أي ويقال إن عمرو بن نفيل رآه وهو لا يعرفه فقال له من أنت يا غلام فقال أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم فاحتمله بين يديه على الراحلة حتى أتى به عبد المطلب

وفي كلام بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى * (ووجدك ضالا فهدى) * روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ضللت عن جدي عبد المطلب وأنا صبي وصار ينشد وهو متعلق بأستار الكعبة يا رب رد ولدي محمدا البيت فجاء أبو جهل بين يديه على ناقة وقال لجدي ألا تدري ما وقع من ابنك فسأله فقال أنخت الناقة وأركبته من خلفي فأبت أن تقوم فأركبته من امامي فقامت ويحتاج إلى جمع على تقدير صحة كل مما ذكر

وقد يقال لا مانع من تعدد ذلك ويدل لذلك أن بعض المفسرين قال في تفسير قوله تعالى * (ووجدك ضالا فهدى) * قيل ضل عن حليلة مرضعته وقيل ضل عن جده عبد المطلب وهو صغير

قالت حليلة فقالت أمه ما أقدمك به يا ظئر أي يا مرضعة ولقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك قلت قد بلغ والله وقضيت الذي على وتخوفت عليه الأحداث فأديته إليك كما تحبين فقالت ما هذا شأنك فأصدقيني خبرك قالت فلم تدعني حتى أخبرتها قالت أفتخوفت عليه الشيطان قلت نعم قالت كلا والله ما للشيطان عليه سبيل وإن لابني شأنا أفلا أخبرك خبره قلت بلى قالت رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام ثم حملت به فوالله ما رأيت أي ما علمت من حمل قط كان أخف على ولا أيسر منه ووقع حين ولدته وإنه لو وضع يده بالأرض رافع رأسه إلى السماء دعيه عنك وانطلقى راشدة قال وعن حليلة أنه مر عليها جماعة من اليهود فقالت ألا تحدثوني عن ابن هذا حملته كذا ووضعته كذا ورأيت كذا كما وصفت لها أمه أي فإنها ذكرت لها ذلك مرتين عند دفعه لها وعند أخذه منها انتهى

أقول ولا ينافي ذلك قول آمنة لحليمة أولا أخبرك خبره وقول حليمة لها بلى لجواز أن تكون أمه لم تكن متذكرة أنها أخبرتها بذلك قبل ذلك وأن حليمة كذلك أو جوزت حليمة أنها تخبرها بزيادة عما أخبرتها به أولا بناء على إتحاد ما أخبرتها به أولا وثانيا والله أعلم

قالت ولما أخبرت أولئك اليهود بذلك قال بعضهم لبعض اقتلوه فقالوا أيتيم هو فقالت لا هذا أبوه وأنا أمه فقالوا لو كان يتيما قتلناه

أقول وهذا يدل على أن ما ذكرته أمه لحليمة من أنها حين حملت به خرج منها نور إلى آخر ما تقدم وأن يكون لا أب له المذكور في بعض الكتب القديمة أنه من علامة نبوة النبي المنتظر والله أعلم

قال وعنها أنها نزلت به سوق عكاظ أي وكان سوقا للجاهلية بين الطائف ونخلة المحل المعروف كانت العرب إذا حجت أقامت بهذا السوق شهر شوال فكانوا يتفاخرون فيه وللمفاخرة فيه سمي عطاظ يقال عكظ الرجل صاحبه إذا فاخره وغلبه في المفاخرة

وفي كلام بعضهم كان سوق عكاظ لثقيف وقيس غيلان فرآه كاهن من الكهان فقال يا أهل سوق عكاظ اقتلوا هذا الغلام فإن له ملكا فزاغت أي مالت به وحادت عن الطريق فأنجاه الله تعالى أي وفي الوفاء لما قامت سوق عكاظ أنطلقت حليمة برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عراف من هذيل يريه الناس صبيانهم فلما نظر إليه صاح يا معشر هذيل يا معشر العرب فاجتمع إليه الناس من أهل الموسم فقال اقتلوا هذا الصبي فأنسلت حليمة به فجعل الناس يقولون أي صبي فيقول هذا الصبي فلا يرون شيئا فيقال له ما هو فيقول رأيت غلاما والآلهة ليقتلن أهل دينكم وليكسرن آلهتكم وليظهرن أمره عليكم فلم يوجد

وعنها رضي الله عنها أنها لما رجعت به مرت بذي المجاز وهو سوق للجاهلية على فرسخ من عرفة أي وهذا السوق قبله سوق يقال له سوق مجنة كانت العرب تنتقل إليه بعد انفضاضهم من سوق عكاظ فتقيم فيه عشرين يوما من ذي القعدة ثم تنتقل إلى هذا السوق الذي هو سوق ذي المجاز فتقيم به إلى أيام الحج وكان بهذا السوق عراف أي منجم يؤتى إليه بالصبيان ينظر إليهم فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

أي نظر إلى خاتم النبوة وإلى الحمرة في عينيه صاح يا معشر العرب اقتلوا هذا الصبي فليقتلن أهل دينكم وليكسرن أصنامكم وليظهرن أمره عليكم إن هذا لينظر أمرا من السماء وجعل يغرى بالنبي صلى الله عليه وسلم فلم يلبث أن وله فذهب عقله حتى مات

أي وفي السيرة الهشامية أن نفرا نصارى من الحبشة رأوه صلى الله عليه وسلم مع أمه السعدية حين رجعت به إلى أمه بعد فطامه فنظروا إليه وقلبه أي رأوا خاتم النبوة بين كتفيه وحمرة في عينيه وقالوا لها هل يشتكي عينيه قالت لا ولكن هذه الحمرة لا تفارقه ثم قالوا لها لتأخذن هذا الغلام فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا فإن هذا الغلام كائن لنا وله شأن نحن نعرف أمره فلم تكذ تنفلت به صلى الله عليه وسلم منهم وأتت به إلى أمه وعنه صلى الله عليه وسلم واسترضعت في بني سعد فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بيد أحدهما طست من ذهب مملوء ثلجا فأخذاني فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقا فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها أي وقيل هذا حظ الشيطان منك يا حبيب الله وفي رواية فاستخرجا منه علقتين سوداوين أي ولا مخالفة لجواز أن تكون تلك العلقة انفلقت نصفين وفي رواية فاستخرجا منه مغمز الشيطان أي وهو المعبر عنه في الرواية قبلها بحظ الشيطان

ولا ينافي ذلك قوله في الرواية السابقة ولا أدري ما هو لجواز أن يكون إخباره صلى الله عليه وسلم بهذا بعد أن علمه والمراد بمغمز الشيطان محل غمزه أي محل ما يلقيه من الأمور التي لا تنبغي لأن تلك العلقة خلقها الله تعالى في قلوب البشر قابلة لما يلقيه الشيطان فيها فأزيلت من قلبه فلم يبق فيه مكان لأن يلقى الشيطان فيه شيئا فلم يكن للشيطان فيه حظ وليست هي محل غمزه عتد ولادته صلى الله عليه وسلم كما يوهمه كلام غير واحد

وفيه أن هذا يقتضي أن يكون قبل إزالة ذلك كان للشيطان عليه سبيل أجاب السبكي بأنه لا يلزم من وجود القابل لما يلقيه الشيطان حصول الإلقاء أي بالفعل فليتأمل وسئل السبكي رحمه الله تعالى فلم خلق الله ذلك القابل في الذات الشريفة وكان من الممكن أن لا يخلقه الله فيها وأجاب بأنه من جملة الأجزاء الإنسانية فخلقت تكملة

للخلق الإنساني ثم نزعت تكرمه له صلى الله عليه وسلم أي وليظهر للخلق بتلك التكرمة ليتحققوا كمال باطنه كما تحققوا كمال ظاهره أي لأنه لو خلق صلى الله عليه وسلم خاليا عنها لم تظهر تلك الكرامة

وفيه أنه يرد على ذلك ولادته صلى الله عليه وسلم من غير قلفة وأجيب بالفرق بينهما بأن القلفة لما كانت تزال ولا بد من كل أحد مع ما يلزم على إزالتها من كشف العورة كان نقص الخلقة الإنسانية عنها عين الكمال وقد تقدم كل ذلك

وذكر السهيلي رحمه الله ما يفيد أن هذه العلقة هي محل مغمز الشيطان عند الولادة حيث قال أن عيسى عليه الصلاة والسلام لما لم يخلق من منى الرجال وإنما خلق من نفخة روح القدس أعيد من مغمز الشيطان

قال ولا يدل هذا على فضل عيسى عليه الصلاة والسلام على محمد صلى الله عليه وسلم لأن محمد صلى الله عليه وسلم قد نزع منه ذلك الغمز هذا كلامه وقد علمت أنه إنما هو محل ما يلقيه الشيطان من الأمور التي لا تنبغي وأن ذلك مخلوق في كل واحد من الأنبياء عيسى عليه الصلاة والسلام وغيره ولم تنزع إلا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قال صلى الله عليه وسلم ثم غسل قلبي بذلك الثلج أي الذي في ذلك الطست حتى أنقياه أي وملاّه حكمة وإيماناً كما في بعض الروايات أي ورواية ثم قال أحدهما لصاحبه ائني بالسكينة فأتى بها فذراها في قلبي وهذه السكينة يحتمل أنها الحكمة والإيمان ويحتمل أن تكون غيرهما وهذه الرواية فيها أن الطست كان من ذهب وكذا في الرواية الآتية وفي الرواية قبل هذه كانت من زمردة خضراء ويحتاج إلى الجمع وسنذكره في هذه الرواية وكذا الرواية الآتية أن الثلج كان في الطست وفي الرواية قبل هذه كان في يد أحدهما إبريق فضة ويحتاج إلى الجمع لأن الواقعة لم تتعدد وهو عند حليلة وفي غسله بالثلج إشعار بثلج اليقين وبرده على الفؤاد ذكره السهيلي رحمه الله

وذكر في حكمة كون الطست من ذهب كلاماً طويلاً قال صلى الله عليه وسلم وجعل الخاتم بين كتفي كما هو الآن وفي الروايات السابقة طي ذكر الخاتم وتتمة الجواب الذي أجاب به صلى الله عليه وسلم أخا بني عامر التي وعدنا بذكرها هنا هو قوله صلى الله عليه وسلم وكنت مسترضعا في بني سعد فبينما أنا ذات يوم منتبذا

أي منفردا من أهلي في بطن واد مع أتراب لي أي المقاربيين بالموحدة أو النون لي في السن من الصبيان إذ أتى رهط ثلاثة معهم طست من ذهب ملآن ثلجا فأخذوني من بين أصحابي فخرج أصحابي هرابا حتى أتوا على شفير الوادي ثم أقبلوا على الرهط فقالوا ما أر بكم أي ما حاجتكم إلى هذا الغلام فإنه ليس منا هذا ابن سيد قريس وهو مرتضع فينا يتيم ليس له أب فما يرد عليكم أن يفيدكم قتله وماذا تصيبون من ذلك فإن كنتم لا بد قاتلوه أي إن كان لا بد لكم من قتل واحد فاختروا منا من شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم فلما رأى الصبيان أن القوم لا يجيبون جوابا انطلقوا هرابا مسرعين إلى الحي يؤذنونهم أي يعلمونهم ويستصرخونهم على القوم فعمد أحدهم إلى فأضجني على الأرض اضجاعا لطيفا ثم شق بطني ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتني وأنا أنظر إليه فلم أجد لذلك مسا أي أدنى مشقة واستخرج أحشاء بطني ثم غسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها أي بالغ في غسلها ثم أعادها مكانها أي وقد طوى ذكر استخراج الأحشاء وغسلها في الروايات السابقة ولا يخفى أن من جملة الأحشاء ظاهر القلب ثم قال الثاني منهم لصاحبه تنح عنه فنحاه عني ثم أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي وأنا أنظر إليه فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء تقدم التعبير عنها بالعلقة السوداء ثم رمى بها ثم قال بيده يمينة منه كأنه يتناول شيئا وإذا بخاتم في يده من نور يحار الناظرون دونه فختم به قلبي أي بعد الثمام شقه فامتأ نورا وذلك نور النبوة والحكمة وقد تقدم وملاّه حكمة وإيمانا وإن السكينة ذرت فيه ثم أعاده مكانه فوجدت برد الخاتم في قلبي دهرا وفي رواية فأنا الساعة أجد برد الخاتم في عروقي ومفاصلي

أقول نقل شيخ بعض مشايخنا الشيخ نجم الدين الغيطي عن مغازي ابن عائذ في حديثه صلى الله عليه وسلم لأخي بني عامر وأقبل أي الملك وفي يده خاتم له شعاع فوضعه بين كتفيه وثدييه فليتأمل ذلك وقوله فصدعه يدل بظاهره على أن صدعه كان بيد الملك فلم يشقه بألة وحينئذ يكون المراد بالشق الصدع بلا آلة وقد طوى في هذه الرواية ذكر ملء قلبه حكمة وإيمانا وأنه ذر فيه السكينة وذكر في هذه الرواية أن الختم كان لقلبه صلى الله عليه وسلم وفي الرواية قبلها أنه كان بين كتفيه وفي رواية ابن عائذ وبين ثدييه ويحتاج إلى الجمع والظاهر أن متعاطي الختم جبريل ويدل عليه قول

صاحب الهمزية رحمه الله في هذه القصة ختمته اليمنى الأمين وسيأتي التصريح بذلك لكن في غير هذه القصة والله أعلم قال صلى الله عليه وسلم ثم قال الثالث لصاحبه تنح عنه فنحاه عني فأمر يده ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي فالتأم ذلك الشق بإذن الله تعالى وختم عليه وفي رواية قال أحدهما للآخر خطه فخاطه وختم عليه أقول وقد يقال معنى خطه ألحمه فخاطه أي لحمه أي مر بيده عليه فالتحم أي فلا يخالف ما سبق ولا ينافيه ما في الحديث الصحيح أنهم كانوا يرون أثر المخيط في صدره صلى الله عليه وسلم وهو أثر مرور يد جبريل عليه الصلاة والسلام وهذا طوى ذكره في الروايات السابقة وقوله ختم عليه يقتضى أن الختم كان في صدره صلى الله عليه وسلم وهو الموافق لما تقدم عن ابن عائد أنه بين ثدييه لكنه زاد بين كتفيه وتقدم ان الختم كان بقلبه

وقد يقال في الجمع لا مانع من تعدد الختم في المحال المذكورة أي في قلبه وصدره وبين كتفيه فختم القلب لحفظ ما فيه وختم الصدر وبين الكتفين مبالغة في حفظ ذلك لأن الصدر وعاؤه القريب وجسده وعاؤه البعيد وخص بين الكتفين لأنه أقرب إلى القلب من بقية الجسد ولعله أولى من جواب القاضي عياض رحمه الله بأن الذي بين كتفيه هو أثر ذلك الختم الذي كان في صدره إذ هو خلاف الظاهر من قوله وجعل الخاتم بين كتفي وفيه السكوت عن ختم قلبه ولا يحسن أن يراد بالصدر القلب من باب تسمية

الحال باسم محله لأنه يصير ساكتا عن ختم الصدر وأولى من جواب الحافظ ابن حجر رحمه الله أيضا بأنه يجوز أن يكون الختم لقلبه ظهر من وراء ظهره عند كتفه الأيسر لأن القلب في ذلك الجانب لما علمت وفيهما أن الذي عند الأيسر خاتم النبوة أي الذي هو علامة على النبوة الذي ولد صلى الله عليه وسلم به على ما هو الصحيح

وفي الخصائص الصغرى وخص صلى الله عليه وسلم بجعل خاتم النبوة بظهره بإزاء قلبه حيث يدخل الشيطان لغيره وسائر الأنبياء كلهم كان الخاتم في يمينهم أي فقد أخرج الحاكم في المستدرک عن وهب بن منبه قال لم يبعث الله نبيا إلا وقد كان عليه شامات النبوة في يده اليمنى إلا نبينا صلى الله عليه وسلم فإن شامة النبوة كانت بين كتفيه هذا كلامه ولم أقف على بيان تلك الشامات التي كانت للأنبياء ما هي

وكتب الشهاب القسطلاني على هامش الخصائص قوله وجعل خاتم النبوة بظهره الخ مشكل إذ مفهومه أن موضع الدخول لقلوب الأنبياء غير نبينا لم يختم ولا يخفى ما فيه من المحذور فما أشنعها من عبارة وأخطأها من إشارة هذا كلامه

ولك أن تقول المراد بغيره في قوله حيث يدخل الشيطان لغيره من غير الأنبياء لما علم وتقرر في النفوس من عصمة الأنبياء من الشيطان واختص نبينا صلى الله عليه وسلم من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالختم في المحل المذكور مبالغة في حفظه من الشيطان وقطع أطماعه فليتأمل

لا يقال كل من جواب القاضي والحافظ ابن حجر يجوز أن يكون مبنيا على أن خاتم النبوة هو أثر هذا الختم وهو موافق لما تمسك به القائل بأن خاتم النبوة لم يولد به وإنما حدث بعد الولادة

لأننا نقول على تسليم أنه حدث بعد الولادة فقد وجد عقبها فعن ابن نعيم في الدلائل أنه صلى الله عليه وسلم لما ولد ذكرت أمه أن الملك غمسه في الماء الذي أنبعه ثلاث غمسات ثم أخرج صرة من حرير أبيض فإذا فيها خاتم فضرب على كتفه كالبيضة الممكنة وبذلك يعلم أن خاتم النبوة ليس أثرا لهذا الخاتم

وكلام السهيلي يقتضى أنه هو حيث قال إن هذا الحديث الذي في شق صدره في الرضاعة فيه فائدة من تبين العلم وذلك أن خاتم النبوة لم يدر أنه خلق به أو وضع فيه بعد ما ولد أو حين نبئ فبين في هذا الحديث متى وضع وكيف وضع ومن وضعه زادنا الله تعالى علما وأوزعنا شكر ما علم هذا كلامه

ثم رأيت عن الحافظ ابن حجر ما يوافقه حيث قال ومقتضى الأحاديث التي فيها شق الصدر ووضع الخاتم أنه لم يكن موجودا حين ولادته وإنما كان أول وضعه لما شق صدره عند حليلة خلافا لمن قال ولد به أو حين وضع هذا كلامه

ولا يخفى أن ما قلناه من أن هذا الخاتم غير خاتم النبوة أولى لأن به يجتمع القولان وتندفع المخالفة والجمع أولى من التضعيف لما صح من أنه صلى الله عليه وسلم ولد به وعلى أنه هو يلزم أن يكون خاتم النبوة تعدد محله فوجد بين كتفيه وفي صدره وفي قلبه

لا يقال قد أشير إلى الجواب عن ذلك بأن الموجود بين كتفيه إنما هو أثر ما في صدره وقلبه

لأننا نقول يبطله ما تقدم عن الدلائل لأبي نعيم وما تقدم عن بعض الروايات فأقبل الملك وفي يده خاتم فوضعه بين كتفيه وثدييه وأيضا يلزم عليه أن يكون خاتم النبوة تكرر الإتيان به ثانيا في قصة المبعث وثالثا في قصة الإسراء ففي قصة المبعث فأكفأني كما يكفأ الإناء ثم ختم في ظهري وفي قصة الإسراء ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوة وكل منهما يبطل كون ما في ظهره أو بين كتفيه أثرا لذلك الختم الذي وجد في صدره أو قلبه

إلا أن يقال ما في قصة المبعث وقصة الإسراء غير خاتم النبوة وإن خاتم النبوة إنما هو الأثر الحاصل من ختم صدره وقلبه في قصة الرضاعة وإنه تكرر الختم على ذلك الأثر في المبعث وفي قصة الإسراء وفيه أنه لا معنى لتكرر الختم في محل واحد ولا يقال الغرض منه المبالغة في الحفظ لأن ذلك إنما يكون عند تعدد محل الختم لا عند إعادته ثانيا وثالثا في محل واحد وأيضا هو خلاف ظاهر كلامهم من أنه في المحال الثلاثة خاتم النبوة ويؤيده أن المتبادر من القول في قصة الإسراء ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوة أنه جعل خاتم النبوة بين كتفيه وإلا فما معنى كون الخاتم بمعنى الطابع أي خاتم النبوة

فإن قلت على دعوى الغيرية يحتاج إلى الجواب عن قوله بخاتم النبوة قلت قد يقال هذا ليس برواية عن الشارع وإنما وقعت تلك العبارة عن بعضهم ويجوز أن يكون الباء في كلامهم بمعنى مع أي مع خاتم النبوة فتأمل والله أعلم قال صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنها ضا لطيفا ثم قال الأول للذي شق صدري زنه بعشرين من أمته فوزنني فرجحتهم ثم قال زنه بمائة من أمته فوزنني فرجحتهم ثم قال زنه بألف من أمته فوزنني فرجحتهم ثم قال دعه فلو وزنتموه بأمته كلهم لرجحهم كلهم ثم ضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني ثم قالوا يا حبيب الله لم ترع إنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت عينك أقول في بعض الروايات زنه بعشرة ثم قال زنه بمائة ففي هذه الرواية طي الذكر وزنه بعشرين وفي تلك الرواية طي ذكر وزنه بعشرة والله أعلم

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيننا نحن كذلك إذا الحي قد أقبلوا
بحذافيرهم أي بأجمعهم وإذا بطئى أي مرضعتي أما الحي تهتف أي تصيح بأعلى
صوتها وتقول واضعيفاه فأكبوا على يعني الملائكة الذين هم أولئك الرهط الثلاثة
وضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني وقالوا حبذا أنت من ضعيف ثم
قالت ظئرى يا وحيداه فأكبوا على فضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني
وقالوا حبذا أنت من وحيد وما أنت بوحد إن الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل
الأرض ثم قالت ظئرى يايتيماه استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضعفك فأكبوا على
وضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني وقالوا حبذا أنت من يتيم ما أكرمك
على الله لو

تعلم ما أريد بك من الخير لقرت عينك فوصلوا يعني الحي إلى شفير الوادي فلما
أبصرتني أُمي وهي ظئرى قالت لا أراك إلا حيا بعد فجاءت حتى أكبت على ثم ضمتني
إلى صدرها فولذي نفسي بيده إنني لفي حجرها قد ضمتني إليها ويدي في أيديهم يعني
الملائكة وجعل القوم لا يعرفونهم أي لا يبصرونهم فأقبل بعض القوم يقول إن هذا
الغلام قد أصابه لمم أي طرف من الجنون أو طائف من الجن أي وهي اللمة فانطلقوا به
إلى كاهن حتى ينظر إليه ويداويه فقلت يا هذا ما بي مما تذكر إن آرابي أي أعضائي
سليمة وفؤادي صحيح ليس بي قلبة أي علة يقلب بها إلى من ينظر فيها فقال أبي وهو
زوج ظئرى ألا ترون كلامه صحيحا إنني لأرجو أن لا يكون بابني بأس وانفقوا على أن
يذهبوا بي إليه أي إلى الكاهن فلما انصرفوا بي إليه فقصوا عليه قصتي فقال اسكتوا حتى
أسمع من الغلام فإنه أعلم بأمره منكم فسألني فقصصت عليه أمري من أوله إلى آخره
فوثب قائما إلي وضممني إلى صدره ثم نادى بأعلى صوته يا للعرب يا للعرب من شر قد
اقترب اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه فواللات والعزى لئن تركتموه فأدرك مدرك الرجال
ليبدلن دينكم وليسفهن عقولكم وعقول آبائكم وليخالفن أمركم وليأتينكم بدين لم
تسمعوا بمثله وفي رواية ليسفهن أحلامكم أي عقولكم وليكذبن أوثانكم وليدعونكم
إلى رب لم تعرفونه ودين تنكرونه فعمدت ظئرى وانتزعتني من حجره وقالت لأنت
أعته وأجن ولو علمت أن هذا قولك ما أتيتك به فاطلب لنفسك من يقتلك فأنا غير
قاتلي هذا الغلام ثم احتملوني إلى أهلهم وأصبحت مفزعا مما فعلوا يعني الملائكة بي
أي من حملي من بين أترابي وإقائي إلى الأرض لا من خصوص الشق لما تقدم وأصبح

أثر الشق ما بين صدري إلى منتهى عانتي أي أثر التئام الشق الناشئ عن إمرار يد الملك
كأنه الشراك

أقول الشراك أحد سيور النعل الذي هو المداس الذي يكون على وجهها ولعل حكمة
بقائه ليذل على وجود الشق

واعلم أنه حيث كانت قصة شق صدره الشريف في زمن الرضاع عند حليلة واحدة
يكون هذه الروايات المراد منها واحد وأن بعضها وقع فيها الاختصار عما وقعت به
الإطالة في بعضها وأن إخباره صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة كانوا ثلاثة لا ينافي
إخباره بأنهم كانوا اثنين ونسبة الأخذ والإضجاع والشق للبطن أو الصدر إلى الثلاثة أو
إلى الاثنين لا ينافي أن متعاطى ذلك واحد منهم كما أخبر به أخوه وجاء التصريح به
في بعض الروايات وأن التعبير في بعضها بشق البطن هو المراد بشق الصدر إلى منتهى
العانة في بعضها وأنه ليس المراد بشق البطن أو شق الصدر شق القلب لما تقدم في
الرواية واستخرج أحشاء بطني ثم غسلها ثم أعادها مكانها ثم قال لصاحبه تنح عنه
فحاه عني ثم أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي فصدعه الحديث وأنه يجوز أن يكون
الطست كان متعددًا واحدًا من زمردة خضراء وواحدًا من ذهب وأن الأول كان فارغًا
معدًا لأن يلقى فيه ماء يغسل به باطنه أي مع أحشائه ومنها أي من جملة الأحشاء ظاهر
قلبه من الإبريق الفضة وأن الثاني كان مملوءًا ثلجًا معدًا لأن يغسل به قلبه أي داخل قلبه
وحينئذ يكون في بعض الروايات اقتصر على القلب وفي بعضها جمع بينه وبين الأحشاء
في ذلك ويحتاج إلى الجمع بين كون الشق في ذروة الجبل وكونه في شفير الوادي
وكون المخرج علقه وكونه مضغة

وقد يقال جاز أن تكون ذروة الجبل قريبة من شفير الوادي وأنه عبر عن الذي أخرجه
وألقاه تارة بالعلقة وتارة بالمضغة ولعل تلك المضغة كانت قريبة من العلقه ولا يخفى
أن هذه العلقه يحتمل أنها غير حبة القلب التي أخذت منها المحبة وهي علقه سوداء في
صميمه المسماة بسويداء القلب

ويحتمل أنها هي والله أعلم وقد أشار إلى هذه القصة صاحب الهمزية بقوله

* وأتت جده وقد فصلته

* وبها من فصاله البرحاء

* إذ أحاطت به ملائكة الله

* فظنت بأنهم قرناء

*

ورأى وجدها به ومن الوج
* د لهيب تصلى به الأحشاء
* فارقته كرها وكان لديها
* ثاويا لا يمل منه الثواء
* شق عن قلبه وأخرج منه
* مضغة عند غسله سوداء
* ختمته يمنى الأمير وقد أو
* دع مالم يدع له أنباء
* صان أسراره الختام فلا الف
* ض ملم به ولا الإفضاء
*

أي وأتت حليلة به جده والحال أنها فطمته والحال أنه لحق بها من أجل فطامه ورده
التألم الزائد وردها له لأجل أنه أهدقت به ملائكة الله فظنتهم شياطين ورأى شدة
محبتها له وتعلقها به وقد حصل لها من الوجد الذي بها لهب تحترق الأحشاء به وهي
ما تحويه الضلوع وفارقت بعد ردها له كارهة لفراقه والحال أنه كان مقيما عندها لا
تمل ذلك منه وقد شق عن قلبه وأخرج من ذلك القلب عند غسله مضغة سوداء ختمت
على ذلك القلب يمين الأمين جبريل بخاتم والحال أن ذلك القلب الشريف قد أودع
من الأسرار الإلهية مالم تنشره أخبار لأن تلك الأسرار لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى
حفظ ذلك الختام أسراره التي أودعت فيه فلا الكسر واقع بذلك الختم ولا الإشاعة
واقعة لتلك الأسرار

أقول قد علمت أن صدره الشريف شق مرتين غير هذه المرة مرة عند مجيء الوحي
ومرة عند المعراج وزاد بعضهم أنه شق عند بلوغه عشر سنين كما مسلم
ولما بلغ عمره صلى الله عليه وسلم عشرين سنة أي ولعلها هي المعنية بقول صاحب
المواهب وروى خامسة ولم تثبت وستأتي تلك الخامسة عن الدر المنثور وسيأتي ما
فيها والله أعلم

قال وفي المرة التي كان ابن عشر سنين أي وأشهر قال صلى الله عليه وسلم جاءني
رجلان فقال أحدهما لصاحبه أضجعه فأضجعتني لحلاوة القفا ثم شقا بطني فكان
أحدهما يختلف بالماء في طست من ذهب والآخر يغسل جوفي ثم شق قلبي فقال
أخرج الغل والحسد منه فأخرج منه العلقة
والمتبادر أن أل في العلقة للعهد وهي العلقة السوداء التي تقدم أنها حظ الشيطان وأنها
مغمزه فهي محل الغل والحسد
وفيه أنه تقدم أيضا أن تلك العلقة أخرجت وألقيت قبل هذا المرة وتكرر نبذها

(16e)

مستحيل إلا أن تحمل العلقه على جزء بقي من أجزائها بناء على جواز أنها تجزأت أكثر من جزءين المعبر عنهما فيما تقدم عن بعض الروايات علقتين سوداوين إلا أن يقال المراد بقوله فأخرج منه العلقه أي أخرج ما هو كالعلقه أي شيئاً يشبه العلقه كما سيأتي التصريح بذلك في بعض الروايات فأدخل شيئاً كهيئة الفضة ثم أخرج ذرورا كان معه فذره عليه أي على شق القلب ليلتحم به ثم نقر إبهامي ثم قال اغد واسلم أقول لم يذكر في هذه المرة الختم وظاهر هذه الرواية أن الصدر التحم بمجرد ذر الذرور وتقدم في قصة الرضاع أن ذلك كان من إمرار يد الملك واستمر أثر التثام الشق يشاهد كالشراك

وفي الدر المنثور عن زوائد مسند الإمام أحمد عن أبي بن كعب عن أبي هريرة قال يا رسول الله ما أول ما رأيت من أمر النبوة فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وقال لقد سألت يا أبا هريرة إني لفي صحراء ابن عشرين سنة وأشهر إذا بكلام فوق رأسي وإذا برجل يقول لرجل أهو هو فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط وثياب لم أرها على أحد قط فأقبلا إلى يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأحدهما مسا فقال أحدهما لصاحبه أضجعه فأضجعاني بلا قصر ولا هصر أي من غير إتعاب فقال أحدهما لصاحبه أفلق صدره ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع فقال له أخرج الغل والحسد فأخرج شيئاً كهيئة العلقه ثم نبذها فطرحها فقال له أدخل الرأفة والرحمة فإذا مثل الذي أخرج أي ليدخله شبه الفضة ثم نقر إبهام رجلي اليمنى وقال اغد واسلم فرجعت أغدو بها رأفة على الصغير ورحمة على الكبير ولم يذكر في هذه المرة الغسل فضلا عما يغسل به ولم يذكر الختم ولكن قول الرجل للآخر أهو هو يدل على أن الرجلين ليسا جبريل وميكائيل لأنهما يعرفانه وقد فعلا به ذلك في قصة الرضاع وقد يدعى أن هذه الرواية هي عين الرواية قبلها وذكر عشرين سنة غلط من الراوي وإنما هي عشر سنين

ثم رأيت ما يصرح بذلك وهو كان سنه عشر حجج وقد تحمل هذه المرة أي كونه ابن عشرين سنة على أن ذلك كان في المنام وإن كان خلاف ظاهر السياق وقال صلى الله عليه وسلم في المرة التي هي عند ابتداء الوحي جاءني جبريل وميكائيل فاخذني جبريل وألقاني لحلاوة القفا ثم شق عن قلبي فاستخرجه ثم أستخرج منه ما شاء الله أن يستخرج ولم يبين ذلك ما هو ثم غسله في طست من ماء زمزم ثم أعاده

مكانه ثم لأمه أي بذلك الذرور أي بإمرار يده أو بهما جميعا ثم أكفأني كما يكفي الإناء ثم ختم في ظهري
يحتمل أن يكون المراد في غير المحل الذي ختمه في قصة الرضاع وهو بين كتفيه ويحتمل أن المراد بظهره المحل الذي ختمه في قصة الرضاع
وفيه أنه لا معنى لوضع الختم على الختم كما تقدم ويمكن أن تكون الحكمة في الجمع بين جبريل وميكائيل أن ميكائيل ملك الرزق الذي به حياة الأجساد والأشباح وجبريل ملك الوحي الذي به حياة القلوب والأرواح والمرة التي هي عند المعراج سيأتي الكلام عليها وفيها أن الختم وقع بين كتفيه وفيه ما علمت وقد علمت أن شق الصدر والبطن غير شق القلب وأن شق القلب وإخراج العلقه السوداء التي هي حظ الشيطان ومغمزه مما اختص به صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين
وما في بعض الآثار أن التابوت أي تابوت بني إسرائيل كان فيه الطست الذي غسلت فيه قلوب الأنبياء المراد ظاهر قلوبهم لأن القلب من جملة الأحشاء التي غسلت بغسل الصدر أو البطن كما تقدم على أن ابن دحية ذكر أنه أثر باطل وقد يطلق الصدر على القلب من باب تسمية الحال باسم محله ومنه ما وقع في قصة المعراج ثم أتى بطست ممتلئ حكمة وإيمانا فأفرغ في صدره ومنه قول الجلال السيوطي في الخصائص الصغرى إن شق صدره الشريف من خصائصه صلى الله عليه وسلم على الأصح من القولين أي شق قلبه وسيأتي الكلام على ذلك في الكلام على المعراج بما هو أبسط مما هنا
وعن حليلة رضي الله تعالى عنها أنها كانت بعد رجوعها به صلى الله عليه وسلم من مكة لا تدعه أي يذهب مكانا بعيدا أي عنها فغفلت عنه صلى الله عليه وسلم يوما في الظهيرة فخرجت تطلبه فوجدته مع أخته أي من الرضاعة وهي الشيماء وكانت تحضنه مع أمها أي ولذلك تدعى أم النبي أيضا أي وكانت ترقصه بقولها
* هذا أخ لي لم تلده أمي
* وليس من نسل أبي وعمي
* فأنمه اللهم فيما تنمي
*

فقال في هذا الحر أي لا ينبغي أي يكون في هذا الحر فقالت أخته يا أمه

ما وجد أخي حرا رأيت غمامة تظل عليه إذا وقف وقفت وإذا سار سارت حتى انتهى إلى هذا الموضع فجعلت تقول أحقا يا بنية قالت إي والله فجعلت تقول أعود بالله من شر ما يحذر على ابني أي وفي كلام بعضهم ورأت يعني حليلة الغمامة تظله إذا وقف وقفت وإذا سار سارت

وقد يقال الرؤية في حق حليلة علمية وفي حق أخته بصرية فلا مخالفة أو أنها أبصرتها بعد الإخبار بها كما يدل على ذلك القول بأنه أفزعها ذلك من أمره أي في كونها فزعت من ذلك بعد إخبار أخته لها بذلك شيء فقدمت به على أمه أقول عن الواقدي أن حليلة لما قدمت به صلى الله عليه وسلم إلى مكة لترده لأمه رأته غمامة تظله في الطريق إن سار سارت وإن وقف وقفت وسياق هذه الرواية يقتضى أنها ردت إلى أمه عقب مجيئها به من مكة وأن ذلك كان قبل شق صدره عندها وحينئذ تكون هذهقدمة ثانية لحليلة إلى مكة كانت قبل شق صدره ففي المقدمة الأولى كان سنه صلى الله عليه وسلم سنتين وفي هذه المقدمة كان سنه صلى الله عليه وسلم سنتين وأشهرًا وتكون هذه المرة الثانية محمل قول حليلة فوالله إنه بعد مقدمنا بأشهر وقول ابن الأثير بشهرين أو ثلاثة

وأما في المقدمة الثالثة وهي التي بعد شق صدره وتركها له صلى الله عليه وسلم عند أمه كان سنه أربع سنين وفيها كانت وفاتها على ما يأتي وقيل خمس سنين قاله ابن عباس وقيل ست سنين ويكون بعض الرواة اشتبه عليه الأمر وظن أن هذه المقدمة الثانية التي قبل شق صدره هي الثالثة التي بعد شق صدره صلى الله عليه وسلم فلزم الإشكال فتأمل ذلك تأملا حميدا ولا تكن ممن يفهم تقليدا والله أعلم

ووفدت عليه صلى الله عليه وسلم حليلة بعد تزوجه خديجة تشكو إليه ضيق العيش فكلم لها خديجة فأعطتها عشرين رأسا من غنم وبكرات جمع بكرة وهي الشية من الإبل أي وفي رواية أربعين شاة وبعيرا

ووفدت عليه يوم حنين فبسط لها رداءه فجلست عليه أي فقد قال بعضهم لم تره بعد أن ردت إلا مرتين إحداهما بعد تزوجه خديجة أي وعليه تكون هذه المرة هي التي قدمت فيها مع زوجها وولدها وأجلسهم على رداءه أي ثوبه الذي كان جالسا عليه كما تقدم والمرة الثانية يوم حنين

وفي كلام القاضي عياض ثم جاءت أبا بكر ففعل ذلك أي بسط لها رداءه ثم جاءت
عمر ففعل كذلك

وفي كلام ابن كثير أن حديث مجيب أمه صلى الله عليه وسلم إليه في حنين غريب وإن
كان محفوظا فقد عمرت دهرا طويلا لأن من وقت أرضعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم إلى وقت الجعرانة أي بعد رجوعه من حنين أزيد من ستين سنة وأقل ما كان
عمرها حين أرضعته عليه الصلاة والسلام ثلاثين سنة وكونها وفدت على أبي بكر وعمر
رضي الله تعالى عنهما تزيد المدة على المائة

وعن أبي الطفيل قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم لحما بالجعرانة أي
بعد رجوعه من حنين كما تقدم والطائف وأنا غلام شاب فأقبلت امرأة فلما رآها رسول
الله صلى الله عليه وسلم بسط لها رداءه فقيل من هذه قيل أمه التي أرضعته صلى الله
عليه وسلم وفي رواية استأذنت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم قد كانت ترضعه
فلما دخلت عليه قال أمي أمي وعمد إلى رداءه فبسطه لها فقعدت عليه وتقدم عن شرح
الهمزية لابن حجر أن من سعادة حليلة توفيقها للإسلام هي وزوجها وبنوها
وفي الأصل ومن الناس من ينكر إسلامها وأشار بذلك إلى شيخه الحافظ الدمياطي فإنه
من جملة المنكرين حيث قال أي وفي سيرته حليلة لا يعرف لها صحبة ولا إسلام وقد
وهم غير واحد فذكروها في الصحابة وليس بشيء وكان الأنسب أن يقول ذكروا
إسلامها وليس بشيء ويوافقه قول الحافظ ابن كثير الظاهر أن حليلة لم تدرك البعثة
ورده بعضهم فقال إسلامها لا شك فيه عند جماهير العلماء ولا يعول على قول بعض
المتأخرين إنه لم يثبت فقد روى ابن حبان حديثا صحيحا دل على إسلامها وأنكر
الحافظ الدمياطي وفودها عليه في حنين وقال الوافدة عليه في ذلك إنما هي أخته من
الرضاعة وهي الشيماء

أقول وعلى صحة ما قاله الحافظ الدمياطي لا ينافيه قوله صلى الله عليه وسلم أمي أمي
لأنه كان يقال لأخته الشيماء أم النبي صلى الله عليه وسلم لأنها كانت تحضنه مع أمها
كما تقدم ولا قول بعض الصحابة أمه التي أرضعته لأنه يجوز أنه لما قيل أمه حملها
على المرضعة له صلى الله عليه وسلم لتيقن موت أمه من النسب وعلى كون الوافدة
عليه في حنين أخته اقتصر في الهدى والله أعلم

أقول قال الحافظ ابن حجر بعد أن أورد عدة آثار في مجيء أمه من الرضاعة إليه صلى الله عليه وسلم في حنين وفي تعدد هذه الطرق ما يقتضى أن لها أصلاً أصيلاً وفي اتفاق الطرق على أنها أمه رد على من زعم أن التي قدمت عليه أخته
أقول لا رد في ذلك لأنه علم أن أخته المذكورة كان يقال لها أم النبي صلى الله عليه وسلم ووصف بعض الصحابة لها بأنها أمه من الرضاعة تقدم أنه يجوز أن يكون بحسب ما فهم

ومما يعين أنها أخته ما سيأتي أنها لما أخذت في حنين من جملة سبى هوازن قالت للمسلمين أنا أخت صاحبكم فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت له يا رسول الله أنا أختك قال وما علامة ذلك قالت عضة عضيتيها في ظهري وأنا متوركتك فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم العلامة فقام لها قائماً وبسط لها رداءه وأجلسها عليه ودمعت عيناه إلى آخر ما يأتي
وكلام المواهب يقتضى أنهما قضيتان واحدة كانت فيها أخته والآخرة كانت فيها أمه من الرضاعة حيث قال وقد روى أن خيلاً له صلى الله عليه وسلم أغارت على هوازن فأخذوها يعنى أخته من الرضاعة التي هي الشيماء فقالت أنا أخت صاحبكم إلى أن قال فبسط لها رداءه وأجلسها عليه فأسلمت ثم قال وجاءته يعنى أمه من الرضاعة التي هي حليلة يوم حنين فقام إليها وبسط رداءه لها وجلست عليه
وهذا كما ترى يوهم أن الخيل التي أغارت على هوازن التي كانت فيها أخته لم تكن في حنين وأن أمه لم تكن يوم حنين في سبى هوازن مع أن القصة واحدة وأن سبى هوازن كان يوم حنين فيلزم أن يكون جاء إليه يوم حنين كل من أمه وأخته من الرضاعة الأولى في غير السبي والثانية في السبي وأنه فرش لكل رداءه وهو تابع في ذلك لابن عبد البر حيث قال في الإستيعاب حليلة السعدية أم النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة جاءت إليه يوم حنين فقام لها وبسط لها رداءه فجلست عليه وروت عنه وروى عنها عبد الله بن جعفر ثم قال حدافة أخت النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة يقال لها الشيماء أغارت خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم على هوازن فأخذوها فيما أخذوا من السبي الحديث وكون عبد الله بن جعفر روى عن حليلة قال الحافظ ابن حجر لا يتهيأ له السماع منها إلا بعد الهجرة بسبع سنين فأكثر لأنه قدم

من الحبشة مع أبيه الذي هو جعفر بن أبي طالب في خبير سنة سبع وتبعد حياتها وبقاؤها إلى ذلك الزمن وفيه أن حيننا بعد خبير وأبعد من ذلك وقوفها على أبي بكر وعمر وقد تقدم ما يشعر بإستبعاد ذلك عن ابن كثير

والذي يتجه أن الوافدة عليه في حين أخته لا أمه كما يقول الحافظ الدمياطي والله أعلم قال قال أبو الفرج بن الجوزي ثم قدمت أي حليلة عليه بعد النبوة فأسلمت وبايعت أي فلا يقال سلمنا أن حليلة هي القادمة عليه أي بعد النبوة فما الدليل على إسلامها

أقول كان من حقه أن يقول بدل هذه العبارة التي ذكرها وإنما قال يعنى ابن الجوزي فأسلمت بعد قوله قدمت عليه بعد النبوة لأنه لا يلزم من قدمها عليه بعد النبوة إسلامها وفي كون قول بن الجوزي فأسلمت دليلا على إسلامها نظر بل هي دعوى تحتاج إلى دليل إلا أن يقال قول ابن الجوزي فأسلمت دليل لنا على إسلامها والله أعلم وذكر الذهبي أن التي وفدت عليه صلى الله عليه وسلم في الجعرانة يجوز أن تكون ثوية ونظر فيه بأن ثوية توفت سنة سبع أي من الهجرة أي مرجعه من خبير على ما تقدم

أقول ذكر في النور أن الحافظ مغلطاي له مؤلف في إسلام حليلة سماه التحفة الجسيمة في إسلام حليلة

وذكر بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم لم ترضعه مرضعة إلا وأسلمت لكن هذا البعض قال ومرضعته صلى الله عليه وسلم أربع أمه وحليلة السعدية وثوية وأم أيمن أيضا وهو يؤيد ما تقدم عن ابن منده من إسلام ثوية وأما إسلام آمنة فسند كره وكون أم أيمن أرضعته صلى الله عليه وسلم تقدم ما فيه والله سبحانه وتعالى أعلم

باب وفاة أمه صلى الله عليه وسلم وحضانة أم أيمن له وكفالة جده عبد المطلب إياه أي اختصاصه بذلك

ذكر ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتت أمه لما بلغ ست سنين وقيل كان سنه أربع سنين وبه صدر في المواهب أي وهو يرد القول بأن حليلة لما ردت له إلى أمه كان عمره خمس أو ست سنين قال وقيل كان سنه صلى الله عليه وسلم سبع سنين وقيل ثمان وقيل تسع وقيل اثنتي عشرة وشهرا عشرة أيام

ووفاتها كانت بالأبواء وهو محل بين مكة والمدينة أي وهو إلى المدينة أقرب وسمى بذلك لأن السيول تتبوأه أي تحل فيه ودفنت به فقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم لما مر بالأبواء في عمرة الحديبية قال إن الله أذن لمحمد في زيارة قبر أمه فأتاه وأصلحه وبكى عنده وبكى المسلمون لبكائه صلى الله عليه وسلم وقيل له في ذلك فقال أدر كنتي رحمتها فبكيت وكان موتها وهي راجعة به صلى الله عليه وسلم من المدينة من زيارة أخواله أي أخوال جده عبد المطلب لأن أم عبد المطلب من بني عدي بن النجار كما تقدم بعد أن مكث عندهم شهرا ومرضت في الطريق ومعها أم أيمن بركة الحبشية التي ورثها من أبيه عبد الله على ما تقدم فحضنته وجاءت به إلى جده عبد المطلب أي بعد خمسة أيام من موت أمه فضمه إليه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده هذا وفي كلام بعضهم وبقي النبي صلى الله عليه وسلم بعد موت أمه بالأبواء حتى أتاه الخبر إلى مكة وجاءت أم أيمن مولاة أبيه عبد الله فاحتلمته وذلك لخامسة من موت أمه فليتأمل

وكون موت أمه صلى الله عليه وسلم كان في حياة عبد المطلب هو المشهور الذي لا يكاد يعرف غيره وبه يرد قول من قال إن موت عبد المطلب كان قبل موت أمه صلى الله عليه وسلم بسنتين

أي وكان صلى الله عليه وسلم يقول لأم أيمن أنت أمي بعد أمي ويقول أم أيمن أمي بعد أمي وفي القاموس دار رابعة بالغين المعجمة بمكة فيها مدفن أمه صلى الله عليه وسلم

ولم أقف على محل تلك الدار من مكة قال وقيل توفيت أي دفنت بالحجون بشعب أبي ذؤيب وغلط قائله

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت حج بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع فمر على عقبة الحجون وهو باك حزين مغتم فبكيت لبكائه ثم إنه طفق أي شرع يقول يا حميراء استمسكي فاستندت إلى جنب البعير فمكث عني طويلا ثم عاد إلى وهو فرح متبسم فقلت له بأبي أنت وأمي يا رسول الله نزلت من عندي وأنت باك حزين مغتم فبكيت لبكائك ثم إنك عدت إلي وأنت فرح متبسم فمم ذلك قال ذهبت لقبر أُمِّي فسألت ربي أن يحييها فأحيها فأمنت وردها الله تعالى

وهذا الحديث قد حكم بضعفه جماعة منهم الحافظ أبو الفضل بن ناصر الدين والجوزقاني وابن الجوزي والذهبي في الميزان وأقره على ذلك الحافظ ابن حجر في لسان الميزان جعله ابن شاهين ومن تبعه ناسخا لأحاديث النهي عن الاستغفار أي لها منها ما جاء أنه صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أي ولعله في عمرة القضاء لأنه لم يقدم مكة نهارا مع أصحابه قبل حجة الوداع إلا في ذلك أتى رسم قبر أمه فجلس إليه فناجاه طويلا ثم بكى قال ابن مسعود فبكينا لبكائه صلى الله عليه وسلم ثم قام ثم دعانا فقال ما أبكاكم قلنا بكينا لبكائك فقال إن القبر الذي جلست عنده قبر آمنة الحديث وفي رواية أتى قبر أمه فجلس إليه فجعل يخاطبه ثم قام مستعبرا فقال بعض الصحابة يا رسول الله قد رأينا ما صنعت قال إني استأذنت ربي في زيارة قبر أُمِّي فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي وفي رواية إن جبريل عليه الصلاة والسلام ضرب في صدره صلى الله عليه وسلم وقال لا تستغفر لمن مات مشركا فما رؤى باكيا أكثر منه يومئذ وفي رواية استأذنته في الدعاء لها أي بالاستغفار فلم يأذن لي وأنزل على ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي فأخذني ما يأخذ الولد للوالد قال القاضي عياض بكأوه صلى الله عليه وسلم على ما فاتها من إدراك أيامه والإيمان به أي النافع إجماعا وكونه ناسخا لذلك غير جيد لأن أحاديث النهي عن الاستغفار بعض طرقها صحيح رواه مسلم وابن حبان في صحيحيهما ونص مسلم استأذنت ربي أن أستغفر لأُمِّي فلم يأذن لي وأستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي

فزوروا القبور فإنها تذكر الآخرة وفي لفظ تذكر كم الموت وهذا الحديث أي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها على تسليم ضعفه أي دون وضعه لا يكون ناسخاً للأحاديث الصحيحة

أقول ذكر الواحد في أسباب النزول أن آيتي ما كان للنبي والذين آمنوا وما كان استغفار إبراهيم لأبيه نزلتا لما استغفر صلى الله عليه وسلم لعمة أبي طالب بعد موته فقال المسلمون ما يمنعنا أن نستغفر لأبائنا ولذي قرابتنا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لعمة وقد استغفر إبراهيم لأبيه أي فنزولهما كان عقب موت أبي طالب لا يقال جاز أن تكون آية ما كان للنبي تكرر نزولها لما استغفر صلى الله عليه وسلم لعمة ولما استغفر لأمه لأننا نقول كونه يعود للاستغفار بعد أن نهى عنه فيه ما فيه أو المراد بالنسخ المعارضة يعنى قول ابن شاهين إنه ناسخ أحاديث النهي عن الاستغفار أي معارض لها إذ لا معنى للنسخ هنا على أنه لا معارضة لأن النهي عن الاستغفار لها كان قبل أن تؤمن

وإذا ثبت ما تقدم عن عائشة رضي الله تعالى عنها وما بعده كان دليلاً لمن يقول قبر أمه صلى الله عليه وسلم بمكة وعلى كونها دفنت بالأبواء اقتصر الحافظ الدمياطي في سيرته وكذا ابن هشام في سيرته وفي الوفاء عن ابن سعد أن كون قبرها بمكة غلط وإنما قبرها بالأبواء

وقد يقال على تقدير صحة الحديثين أي أنها دفنت بالأبواء وأنها دفنت بمكة يجوز أنها تكون دفنت أولاً بالأبواء ثم نقلت من ذلك المحل إلى مكة فعلم أن بكاءه صلى الله عليه وسلم كان قبل أن يحييها الله له وتؤمن به ومن ثم قال الحافظ السيوطي إن هذا الحديث أي حديث عائشة قيل إنه موضوع لكن الصواب ضعفه لا وضعه هذا كلامه ويجوز أن يكون قوله لشخصين أمي وأمكما في النار على تقدير صحته التي ادعاها الحاكم في المستدرک كان قبل إحياؤها وإيمانها به كما تقدم نظير ذلك في أبيه صلى الله عليه وسلم

وقولنا على تقدير صحة الحديث إشارة لما تقرر في علوم الحديث أنه لا يقبل تفرد

الحاكم بالتصحيح في المستدرك لما عرف من تساهله فيه في التصحيح وقد بين الذهبي ضعف هذا الحديث وحلف على عدم صحته يمينا وتقدم الجواب عما يقال كيف ينفع الإيمان بعد الموت وتقدم ما فيه على أن هذا أي منع الاستغفار لها إنما يأتي على القول أن من بدل أو غير أو عبد الأصنام من أهل الفترة معذب وهو قول ضعيف مبنى على وجوب الإيمان والتوحيد بالعقل

والذي عليه أكثر أهل السنة والجماعة أنه لا يجب ذلك إلا بإرسال الرسل ومن المقرر أن العرب لم يرسل إليهم رسول بعد إسماعيل فإن إسماعيل انتهت رسالته بموته كبقية الرسل لأن ثبوت الرسالة بعد الموت من خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فعليه أهل الفترة من العرب لا تعذيب عليهم وإن غيروا أو بدلوا أو عبدوا الأصنام والأحاديث الواردة بتعذيب من ذكر أي من غير أو بدل أو عبد الأصنام مؤولة أو خرجت مخرج الزجر للحمل على الإسلام

ثم رأيت بعضهم رجع أن التكليف بوجوب الإيمان بالله تعالى وتوحيده أي بعدم عبادة الأصنام يكفى فيه وجود رسول دعا إلى ذلك وإن لم يكن ذلك الرسول مرسلا لذلك الشخص بأن لم يدرك زمنه حيث بلغه أنه دعا إلى ذلك أو أمكنه علم ذلك وأن التكليف بغير ذلك من الفروع لا بد فيه من أن يكون ذلك الرسول مرسلا لذلك الشخص وقد بلغته دعوته

وعلى هذا فمن لم يدرك زمن نبينا صلى الله عليه وسلم ولا زمن من قبله من الرسل معذب على الإشراك بالله بعبادة الأصنام لأنه على فرض أن لا تبلغه دعوة أحد من الرسل السابقين إلى الإيمان بالله وتوحيده لكنه كان متمكنا من علم ذلك فهو تعذيب بعد بعث الرسل لا قبله

وحيث لا يشكل ما أخرجه الطبراني في الأوسط بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بعث الله نبيا إلى قوم ثم قبضه إلا جعل بعده فترة يملا من تلك الفترة جهنم ولعل المراد المبالغة في الكثرة وإلا فقد أخرج الشيخان عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فيرتد بعضها إلى بعض وتقول قط قط أي حسبي بعزتك وكرمك وأما بالنسبة لغير الإيمان والتوحيد من الفروع فلا تعذيب على

تلك الفروع لعدم بعثة رسول إليهم فأهل الفترة وإن كانوا مقرين بالله إلا أنهم أشركوا بعبادة الأصنام
فقد حكى الله تعالى عنهم ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى وقد جاء النهى عن ذلك على السنة الرسل السابقين
ووجه التفرقة بين الإيمان والتوحيد وغير ذلك أن الشرائع بالنسبة للإيمان بالله وتوحيده كالشريعة الواحدة اتفاق جميع الشرائع عليه
قيل وهو المراد من قوله تعالى * (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا) * فقد قال بعضهم المراد من الآية استواء الشرائع كلها في أصل التوحيد أي ومن ثم قال في تمام الآية * (ولا تتفرقوا فيه) * وقال * (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) * وقال * (وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) * ومن ثم قاتل بعض الأنبياء غير قومه على الشرك بعبادة الأصنام ولو لم يكن الإيمان والتوحيد لازما لهم لم يقاتلهم بخلاف غيره من الفروع فإن الشرائع فيها مختلفة

قال بعضهم سبب إختلاف الشرائع إختلاف الأمم في الاستعداد والقابلية والدليل على أن الأنبياء متفقون على الإيمان والتوحيد ما جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال الأنبياء أولاد علات أي أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع شرائعهم لأن العلات الضرائر فأولادهم أخوة من الأب وأمهاتهم مختلفة وقد جاء هذا التفسير في نفس الحديث ففي بعض الروايات الأنبياء إخوة من علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وبه يعلم ما في كلام العلامة ابن حجر الهيتمي حيث ذكر أن الحق الواضح الذي لا غبار عليه أن أهل الفترة جميعهم ناجون وهم من لم يرسل لهم رسول يكلفهم بالإيمان بالله عز وجل فالعرب حتى في زمن أنبياء بني إسرائيل أهل فترة لأن تلك الرسل لم يؤمروا بدعايتهم إلى الله تعالى وتعليمهم الإيمان قال نعم من ورد فيه حديث صحيح من أهل الفترة بأنه من أهل النار فإن أمكن تأويله فذاك وإلا لزمنا أن نؤمن بهذا الفرد بخصوصه

قال وأما قول الفخر الرازي لم تزل دعوة الرسل إلى التوحيد معلومة فجوابه أن كل رسول إنما أرسل إلى قوم مخصوصين فمن لم يرسل إليه لا يعذب وجواب ما صح من تعذيب أهل الفترة أنها أخبار آحاد فلا تعارض القطع أو يقصر التعذيب على ذلك الفرد بخصوصه أي حيث لا يقبل التأويل كما تقدم هذا كلامه

هذا وقد جاء أنهم أي أهل الفترة يمتحنون يوم القيامة فقد أخرج البزار عن ثوبان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم فيسألهم ربهم فيقولون ربنا لم ترسل لنا رسولا ولم يأتنا لك أمر ولو أرسلت إلينا رسولا لكننا أطوع عبادك فيقول لهم ربهم أرأيتم إن أمرتكم بأن تطيعوني فيأخذ على ذلك موثيقهم فيرسل إليهم أن ادخلوا النار فينطلقون حتى إذا رأوها فرقوا فرجعوا فقالوا ربنا فرقنا منها ولا نستطيع أن ندخلها فيقول أدخلوها داخرين فقال النبي صلى الله عليه وسلم لو دخلوها أول مرة كانت عليهم بردا وسلاما قال الحافظ ابن حجر فالظن بآله صلى الله عليه وسلم يعني الذين ماتوا قبل البعثة أنهم يطيعون عند الامتحان إكراما له صلى الله عليه وسلم لتقر عينه ويرجو أن يدخل عبد المطلب الجنة في جماعة من يدخلها طائعا إلا أبا طالب فإنه أدرك البعثة ولم يؤمن به أي بعد أن طلب منه الإيمان

ومما استدل به الحافظ السيوطي على أن أبويه صلى الله عليه وسلم ليسا في النار قال لأنهما لو كانا في النار لكانا أهون عذابا من أبي طالب لأنهما أقرب منه وأبسط عذرا لأنهما لم يدركا البعثة ولا عرض عليهما الإسلام فامتنعا بخلاف أبي طالب وقد أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم أنه أهون أهل الناس عذابا فليسا أبواه صلى الله عليه وسلم من أهلها قال وهذا يسمى عند أهل الأصول دلالة الإشارة وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد من أهل بيته أي ولا أحد من أشرف قريش إجلالا له فكان بنوه وسادات قريش يحدقون به فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام جفرا أي شديد قوى حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخره عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى أي علم ذلك منهم دعوا ابني فوالله إن له لشأنا ثم يجلسه عليه معه ويمسح ظهره ويسره ما يراه يصنع قال وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما دعوا بني يجلس فإنه يحس من نفسه بشيء أي بشرف وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه به عربي قبله ولا بعده وفي رواية دعوا ابني إنه ليؤنس ملكا أي يعلم من نفسه أن له ملكا وفي لفظ ردوا ابني إلى مجلسي فإنه تحدثه نفسه بملك عظيم وسيكون له شأن

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال سمعت أبي يقول كان لعبد المطلب مفروش في الحجر لا يجلس عليه غيره وكان حرب بن أمية فمن دونه من عظماء قريش يجلسون حوله دون المفروش فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما وهو غلام لم يبلغ الحلم فجلس على المفروش فجذبه رجل فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد المطلب وذلك بعد ما كف بصره مالا بني يكي قالوا له أراد أن يجلس على المفروش فمنعوه فقال عبد المطلب دعوا ابني يجلس عليه فإنه يحس من نفسه بشرف أي يتيقن في نفسه شرفا وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده أي فكانوا بعد ذلك لا يردونه عنه حضر عبد المطلب أو غاب أي ولعل هذا كان في آخر الأمر فلا ينافي ما تقدم الدال ظاهرا على تكرار ذلك منه صلى الله عليه وسلم من إختلاف قول عبد المطلب وإلا فيحتمل أن إختلاف قول عبد المطلب جاء من إختلاف الرواة

وقال لعبدالمطلب قوم من بني مدلج أي وهم القافة العارفون بالآثار والعلامات احتفظ به فإننا لم نرقد ما أشبه بالقدم التي في المقام منه أي وهي قدم إبراهيم عليه الصلاة والسلام

أقول أي فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أثرت قدماه في المقام وهو الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء البيت كما سيأتي وهو الذي يزار الآن بالمكان الذي يقال له مقام إبراهيم أي وقد أشار إلى ذلك عمه أبو طالب في قصيدته بقوله مقسما

* وبالحجر المسود إذ يلثمونه

* إذا اكتنفوه في الضحى والأصائل

* وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة

* على قدميه حافيا غير ناعل

*

قال الحافظ ابن كثير يعني أن رجله الكريمة غاصت في الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لا منتعلة

وعن أنس رضي الله تعالى عنه رأيت في المقام أثر أصابع إبراهيم وعقبه وأخمص قدميه غير أن مسح الناس بأيديهم أذهب ذلك أي ومشابهة قدمه صلى الله عليه وسلم لقدم سيدنا إبراهيم تدل على أن تلك الأقدام بعضها من بعض كما تقدم في قول مجزز المدلجي في زيد بن أسامة رضي الله عنهما وقد ناما وغطيا رءوسهما وبدت أقدامهما إن هذه الأقدام بعضها من بعض فسر بذلك صلى الله عليه وسلم لأن في ذلك رد على من كان يطعن في نسب أسامة بن زيد كما تقدم

وذكر بعضهم أن نبينا صلى الله عليه وسلم أثر قدمه في الحجر أيضا فقد أثر في صخرة بيت المقدس ليلة الإسراء وإن ذلك الأثر موجود إلى الآن
وذكر الجلال السيوطي انه لم يقف لذلك أي لتأثير قدمه صلى الله عليه وسلم في الحجر على أصل ولا سند قال ولا رأيت من خرج في شيء من كتب الحديث وقال مثل ذلك فيما أشتهر على الألسنة من أن مرفقه الشريف لما ألصقة بالحائط غاص في الحجر وأثر فيه وبه يسمى ذلك المحل بمكة بزقاق المرفق
ومن العجب أن الجلال السيوطي مع قوله المذكور قال في الخصائص الصغرى ولا وطىء على صخر إلا وأثر فيه هذا كلامه ولعله ظهر له صحة ذلك بعد إنكاره ودعوى أنه صلى الله عليه وسلم ما وطىء على صخر إلا وأثر فيه قد يتوقف فيه ثم رأيت الإمام السبكي ذكر تأثير قدمه الشريف في الأحجار حيث قال في تائيته
* وأثر في الأحجار مشيك ثم لم
* يؤثر برمل أو ببطحاء رطبة
*

قال شارحها ولعل عدم تأثير قدمه الشريف في الرمل كان ليلة ذهابه صلى الله عليه وسلم إلى الغار أي فليس كان هذا شأنه في كل رمل مشى عليه وكان صلى الله عليه وسلم إذا رفع قدمه عن الرمل يقول لأبي بكر ضع قدمك موضع قدمي فإن الرمل لا ينم أراد به إخفاء أثر سيره ليتحير المشركون في طلبه
وفيه أن هذا التعليل مقتض لتأثير قدمه الشريف في الرمل لا لعدم تأثيره في ذلك ويؤيد ذلك أنه سيأتي أنهم قصوا أثره إلى أن انقطع الأثر عند الغار أي وقال لهم القاص هذا أثر قدم ابن أبي قحافة وأما القدم الآخر فلا أعرفه إلا أنه يشبه القدم الذي في المقام يعنى مقام إبراهيم فقالت قريش ما وراء هذا شيء أي محل كما سيأتي
وفيه أن هذا تميز قدمه الشريف من قدم سيدنا أبي بكر ربما ينافيه قوله لأبي بكر ضع قدمك موضع قدمي فإن الرمل لا ينم
وقد يقال لا منافاة لأنه يجوز أن يكون قدم أبي بكر لم يكن مساويا لقدمه صلى الله عليه وسلم ولا يضر في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم فإن الرمل لا ينم لجواز أن يكون المراد لا يظهر فيه قدمي ظهور أبينا فصح قول القائل هذا أثر قدم ابن أبي قحافة وأما القدم الآخر إلى آخره ولم يعترض هذا الشارح على تأثير قدمه صلى الله عليه وسلم في الحجارة بل أبدي لذلك حكما لا بأس بها فلتراجع

وقوله في الأحجار يدل على أنه تكرر تأثير قدمه الشريف في الأحجار ولكن لم يكن ذلك شأنه صلى الله عليه وسلم في كل حجر مشى عليه كما دلت عليه عبارة الجلال السيوطي والله أعلم

قال وبيننا عبد المطلب يوما في الحجر وعنده أسقف نجران والأسقف رئيس النصارى في دينهم اشتق من السقف بالتحريك وهو طول الإنحناء لأنه يتخاشع أي يظهر الخشوع وذلك الأسقف يحادثه ويقول له إنا نجد صفة نبي بقي من ولد إسماعيل وهذا البلد مولده ومن صفته كذا وكذا وأتى برسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه الأسقف إلى عينيه وإلى ظهره وإلى قدمه وقال هو هذا ما هذا منك قال هذا ابني قال ما نجد أباه حيا قال هو ابن أبني وقد مات أبوه وأمه حبلى به قال صدقت فقال عبد المطلب لبنيه تحفظوا بابن أخيكم ألا تسمعون ما يقال فيه انتهى

وعن أم أيمن كنت أحضن النبي صلى الله عليه وسلم أي أقوم بتربته وحفظه فغفلت عنه يوما فلم أدر إلا بعبد المطلب قائما على رأسي يقول يا بركة قلت لبيك قال أتدرين أين وجدت ابني قلت لا أدري قال وجدته مع غلمان قريبا من السدرة لا تغفلي عن ابني فإن أهل الكتاب أي ومنهم سيف بن ذي يزن كما سيأتي يزعمون أنه نبي هذه الأمة وأنا لا آمن عليه منهم وكان لا يأكل يعنى عبد المطلب طعاما إلا يقول على بابني أي أحضروه قال وكان عبد المطلب إذا أتى بطعام أجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه وربما أقعده على فخذه فيؤثر بأطيب طعامه انتهى وعن بعضهم أي وهو حيدة بن معاوية العامري كان من المعمرين وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم قال بعضهم مات وهو عم ألف رجل وامرأة قال حججت في الجاهلية فبينما أنا أطوف بالبيت إذا رجل وفي رواية إذا شيخ طويل يطوف بالبيت وهو يقول رد إلى راکبي محمدا وفي رواية

* يا رب رد راکبي محمدا

* ارده ربي واصطنع عندي يدا

*

فقلت من هذا قالوا عبد المطلب بن هاشم بعث ابنه في طلب إبل له ضلت وما بعثه في شيء إلا جاء به قال وفي رواية هذا سيد قريش عبد المطلب له إبل كثيرة فإذا ضل منها شيء بعث فيه بنيه يطلبونها فإذا غابوا بعث ابن ابنه ولم يبعثه حاجة

إلا أنجح فيها وقد بعثه في حاجة أعيا عنها بنوه وقد أبطأ عليه انتهى فما برحت أي ما زلت عن مكاني حتى جاء بالإبل معه فقال له يا بني حزنت عليك حزنا لا يفارقني بعده أبدا وتقدم عن بعض المفسرين ما لا يحتاج إلى إعادته هنا وعن رقيقة بنت أبي صيفي أي ابن هاشم بن عبد مناف زوجة عبد المطلب ذكرها ابن سعد في المسلمات المهاجرات أقوال وقال أبو نعيم لا أراها أدركت الإسلام وقال ابن حبان يقال إن لها صحبة والله أعلم قالت تتابعت على قريش سنون أي أزمنا قحط وجذب ذهبت بالأموال وأشفين أي أشرفن على الأنفس قالت فسمعت قائلا يقول في المنام يا معشر قريش إن هذا النبي المبعوث منكم هذا إبان أي وقت خروجه وبه يأتيكم الحيا أي بالقصر المطر العام والخصب فانظروا رجلا من أوساطكم أي أشرافكم نسبا طوالا عظاما أي طويلا عظيما أبيض مقرون الحاجبين أهدب الأشفار أي طويل شعر الأجنان أسيل الخدين أي لا نتو بها رقيق العينين أي الأنف وقيل أوله فليخرج هو وجميع ولده وليخرج منكم من كل بطن رجل فيتطهروا ويتطيبوا ثم استلموا الركن ثم أرقوا إلى رأس أبي قبيس ثم يتقدم هذا الرجل فيستسقى وتؤمنون فإنكم تسقون فأصبحت وقصت رؤياها عليهم فنظروا فوجدوا هذه الصفة صفة عبد المطلب فاجتمعوا عليه وأخرجوا من كل بطن رجلا ففعلوا ما أمرتهم به ثم علوا على أبي قبيس ومعهم النبي صلى الله عليه وسلم وهو غلام فتقدم عبد المطلب فقال لا هم هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك وإماؤك وبنو إمائك وقد نزل بنا ما ترى وتتابعت علينا هذه السنون فذهبت بالظلف والخف والحافر أي الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير فأشفت على الأنفس أي أشرفت على ذهابها فأذهب عنا الجذب واثنتا بالحيا والخصب فما برحوا حتى سألت الأودية

قال وفي رواية أخرى عن رقيقة قال تتابعت على قريش سنون جدبة أقحلت أي أيبست الجلد وأدقت العظم فبينا أنا نائمة أو مهومة أي بين اليقظة والنائمة إذا هاتف هو الذي يسمع صوته ولا يرى شخصه كما تقدم يصرخ بصوت صحل أي فيه بحوحة وهي خشونة الصوت وغلظه يقول يا معشر قريش إن هذا النبي المبعوث منكم قد أظللتم أيامه أي قربت منكم وهذا إبان مخرجه فحيعلا بالحيا والخصب ألا فانظروا رجلا منكم وسطا عظاما أبيض بضا أي شديد البياض أوطف الأهداب أي كثير شعر العينين

أسهل الخدين أشم العرنين أي مرتفع الأنف له فخر يكظم عليه أي يسكت عليه ولا يظهره وسنن يهتدى إليها أي يرشد إليها فليخلص هو وولده وولد ولده وليد لف أي يتقدم إليه من كل بطن رجل فليسوا من الماء أي يفرغوه على أجسادهم أي يغتسلوا به وليمسوا من الطيب ثم يلتمسوا الركن وليطوفوا بالبيت العتيق سبعا ثم ليرقوا أبا قبيس فليستسق الرجل وليؤمن القوم ألا وفيهم الطيب الطاهر فغثم إذا ما شئتم أي جاءكم الغيث على ما تريدون قالت فأصبحت مذعورة قد اقشعر جلدي ووله أي ذهب عقلي واقتصيت رؤياي أي ذكرتها على وجهها فنمت أي فشت وكثرت من شعاب مكة فما بقي أبطحي إلا قال هذا شبيبة الحمد يعني عبد المطلب وقامت عنده قريش وانفض إليه من كل بطن رجل فسنا من الماء ومسوا من الطيب واستلموا وطافوا

ثم ارتقوا أبا قبيس فطفق القوم يدنون حوله ما إن يدركه بعضهم مهلة وهي التؤدة والتأني ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أيفع أي ارتفع أو كرب أي قرب من ذلك فقام عبد المطلب فقال اللهم ساد الخلة وكاشف الكربة أنت عالم غير معلم ومسئول غير مبخل وهذه عبيدك وإماؤك بغدرات حرمك أي أفنيته يشكون إليك سنتهم التي أقحلت أي أيسست الظلف والخف أي الإبل والبقر فأمطرن اللهم غيثا سريعا مغدقا فما برحوا حتى انفجرت السماء بمائها وكظ الوادي أي ضاق بثجيجه أي بسيله فلسمعت شيخان قريش وهي تقول لبعدها المطلب هنيئا لك يا أبا البطحاء بك عاش أهل البطحاء انتهى أي والظاهر أن القصة واحدة فليتأمل الجمع وقد يدعى أن الاختلاف من الرواة منهم من عبر بالمعنى

وفي سقيا الناس ببعدها المطلب وأن ذلك ببركته صلى الله عليه وسلم تقول رقيقة

* بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا

* وقد عدنا الحيا واجلوذ المطر

*

أي امتد زمن تأخره فجاد بالماء جوني له سبل دان أي مطرها ظل كثير الهطل قريب فعاشت به الأنعام والشجر منا من الله بالميمون طائرته أي المبارك حظه وخير من بشرت يوما به مضر

* مبارك الاسم يستسقى الغمام به

* ما في الأنام له عدل ولا خطر

* أي لا معادل ولا مماثل له

ولما سقوا لم يصل المطر إلى بلاد قيس ومضر فاجتمع عظامؤهم وقالوا قد أصبحنا

في جهد وجذب وقد سقى الله الناس بعبدالمطلب فاقصدوه لعله يسأل الله تعالى فيكم
فقدموا مكة ودخلوا على عبد المطلب فحيوه بالسلام فقال لهم أفلحت الوجوه وقام
خطيبهم فقال قد أصابتنا سنون مجدبات وقد بان لنا أثرك وصح عندنا خبرك فاشفع لنا
عند من شفعتك وأجرى الغمام لك فقال عبد المطلب سمعا وطاعة موعدكم غدا
عرفات ثم أصبح غاديا إليها وخرج معه الناس وولده ومعه رسول الله صلى الله عليه
وسلم فنصب لعبدالمطلب كرسي فجلس عليه وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم
فوضعه في حجره ثم قام عبد المطلب ورفع يديه ثم قال اللهم رب البرق الخاطف
والرعد القاصف رب الأرباب وملين الصعاب هذه قيس ومضر من خير البشر قد شعشت
رؤوسها وحدبت ظهورها تشكوا إليك شدة الهزال وذهاب النفوس والأموال اللهم فأتح
لهم سحابة خوارة وسماء خراة لتضحك أرضهم ويزول ضرهم فما استتم كلامه حتى
نشأت سحابة دكناء لها دوى وقصدت نحو عبد المطلب ثم قصدت نحو بلادهم فقال
عبد المطلب يا معشر قيس ومضر انصرفوا فقد سقيتم فرجعوا وقد سقوا
وذكر بعضهم أنهم كانوا في الجاهلية يستسقون إذا أجدبوا فإذا أرادوا ذلك أخذوا من
ثلاثة أشجار وهي سلع وعشر وشبرق من كل شجرة شيئا من عيدانها وجعلوا ذلك
حزمة وربطوا بها على ظهر ثور صعب وأضرموا فيها النار ويرسلون ذلك الثور فإذا
أحس بالنار عدا حتى يحترق ما على ظهره ويتساقط وقد يهلك ذلك الثور فيسقون
وفي حياة الحيوان كانت العرب إذا أرادت الاستسقاء جعلت النيران في أذنان البقر
وأطلقوها فتمطر السماء فإن الله يرحمها بسبب ذلك قال وذكر ابن الجوزي أنه صلى
الله عليه وسلم في سنة سبع من مولده أصابه رمد شديد فعولج بمكة فلم يغن فقبل
لعبدالمطلب إن في ناحية عكاظ راهبا يعالج الأعين فركب إليه ومعه رسول الله صلى
الله عليه وسلم فناده وديره مغلق فلم يجبه فتزلزل ديره حتى خاف أن يسقط عليه
فخرج مبادرا فقال يا عبد المطلب إن هذا الغلام نبي هذه الأمة ولو لم أخرج إليك لخر
على ديري فارجع به واحفظه لا يقتله بعض أهل الكتاب ثم عالجه وأعطاه ما يعالجه به
هذا ورأيت في كتاب سماه مؤلفه كريم الندماء ونديم الكرماء أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم رمد وهو صغير فمكث أياما يشكو فقال قائل لجدته عبد المطلب إن بين مكة والمدينة راهبا يرقى من الرمد وقد شفى على يديه خلق كثير فأخذه جده وذهب به إلى ذلك الراهب فلما رآه الراهب دخل إلى صومعته فاغتسل ولبس ثيابه ثم أخرج صحيفة فجعل ينظر إلى الصحيفة وإليه صلى الله عليه وسلم ثم قال هو والله خاتم النبيين ثم قال يا عبد المطلب هو أرمد قال نعم قال إن دواءه معه يا عبد المطلب خذ من ريقه وضعه على عينيه فأخذ عبد المطلب من ريقه صلى الله عليه وسلم ووضع على عينيه صلى الله عليه وسلم فبرأ لوقته ثم قال الراهب يا عبد المطلب وتالله هذا هو الذي أقسم على الله به فأبرئ المرضى وأشفى الأعين من الرمد فليتأمل فإن تعدد الواقعة لا يخلو عن بعد والله أعلم

باب وفاة عبد المطلب وكفالة عمه أبي طالب له صلى الله عليه وسلم
ثم لما كان سنه صلى الله عليه وسلم ثمان سنين أي بناء على الراجح من الأقوال المتكثرة ويرحجه ما يأتي توفي عبد المطلب وله من العمر خمس وتسعون سنة وقيل مائة وعشرون وقيل وأربعون أي ولعل ضعف هذا القول اقتضى عدم ذكر ابن الجوزي لعبد المطلب في المعمرين قال وقيل اثنان وثمانون أي وعليه اقتصر الحافظ الدمياطي قال وقيل مائة وأربعة وأربعون وقد قيل له صلى الله عليه وسلم يا رسول الله أتذكر موت عبد المطلب قال نعم وأنا يومئذ بن ثمان سنين وعن أم أيمن أنها كانت تحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبكي خلف سرير عبد المطلب وهو ابن ثمان سنين ودفن بالحجون عنده جده قصي وجاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث جدي عبد المطلب في زي الملوك وأبهة الأشراف ولما حضرته الوفاة أوصى به صلى الله عليه وسلم إلى عمه شقيق أبيه أبي طالب أي وكان أبو طالب ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية كأبيه عبد المطلب كما تقدم واسمه على الصحيح عبد مناف وزعمت الروافض أن اسمه عمران وأنه المراد من قوله تعالى إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين قال الحافظ ابن كثير

وقد أخطأوا في ذلك خطأ كبيرا ولم يتأملوا القرآن قبل أن يقولوا هذا البهتان فقد ذكر بعد هذه قوله تعالى * (إذ قالت امرأة عمران رب إنني نذرت لك ما في بطني محررا) *
 وحين أوصى به جده لأبي طالب أحبه حبا شديدا لا يحبه لأحد من ولده فكان لا ينام إلا إلى جنبه وكان يخصه بأحسن الطعام أي وقيل اقترح أبو طالب هو والزيير شقيقه فيمن يكفله صلى الله عليه وسلم منهما فخرجت القرعة لأبي طالب وقيل بل هو صلى الله عليه وسلم اختار أبا طالب لما كان يراه من شفقتة عليه وموالاته له قبل موت عبد المطلب فسيأتي أنه كان مشاركا له في كفالاته
 وقيل كفله الزيير حين مات عبد المطلب ثم كفله أبو طالب أي بعد موت الزيير وغلط قائله بأن الزيير شهد حلف الفضول ولرسول الله صلى الله عليه وسلم من العمر نيف وعشرون سنة كذا في أسد الغابة مقديما للإقتراع على ما قبله
 وفي كون عمره صلى الله عليه وسلم في حلف الفضول كان نيفا وعشرين سنة نظر لما سيأتي أن عمره إذا كان أربع عشرة سنة
 وفي كلام بعضهم فلما مات عبد المطلب كفله عمه شقيقا أبيه الزيير وأبو طالب ثم مات عمه الزيير وله من العمر أربع عشرة سنة فانفرد به أبو طالب وكفالة جده وعمه له صلى الله عليه وسلم بعد موت أبيه وأمه مذكورة في الكتب القديمة من علامات نبوته صلى الله عليه وسلم
 ففي خبر سيف بن ذي يزن يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه أي وفي سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق أن عبد المطلب لما حضرته الوفاة وعرف أنه ميت جمع بناته وكن ست نسوة صفية وهي أم الزيير بن العوام وبرة وعاتكة وأم حكيم البيضاء أي وهي جدة عثمان بن عفان لأمه وأميمة وأروى فقال لهن أبكين على حتى أسمع ما تقلن في قبل أن أموت فقالت كل واحدة منهن شعرا في وصفه مذكور في تلك السيرة ولما سمع جميع ذلك أشار برأسه أن هكذا فابكينني ويقال إنه إنما أشار بذلك لما سمع قول أميمة وقد أمسك لسانه وكان من قولها
 * أعيني جودا بدمع درر
 * على ماجد الخيم والمعتصر
 * على ماجد الجد وارى الزناد
 * جميل المحيا عظيم الخطر
 * على شبية الحمد ذي المكرمات
 * وذي المجد والعز والمفتخر
 *

وذى الحلم والفضل في النائبات

* كثير المفاخر جم الفخر

* له فضل مجد على قومه

* متين يلوح كضوء القمر

*

قال ابن هشام رحمه الله لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر إلا أنه أي ابن إسحاق لما رآه عن ابن المسيب كتبه قال بعضهم ولم يبك أحد بعد موته ما بكى عبد المطلب بعد موته ولم يقم لموته بمكة سوق أياما كثيرة

وروى أبو نعيم والبيهقي أن سيف بن ذي يزن الحميري لما ولي على الحبشة وذلك بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين أنه وفود العرب وأشرفها وشعرؤها لتهنئه أي بهلاك ملوك الحبشة وبولايته عليهم أي لأن ملك اليمن كان لحمير فانتزعته الحبشة منهم واستمر في يد الحبشة سبعين سنة ثم إن سيف بن ذي يزن الحميري استنقذ ملك اليمن من الحبشة واستقر فيه على عادة آبائه وجاءت العرب تهنئه من كل جانب وكان من جملتهم وفد قریش وفيهم عبد المطلب وأميه بن عبد شمس وغالب وجهائهم أي كعبد الله بن جدعان بضم الجيم وإسكان الدال المهملة وبالعين المهملة التيمي وهو ابن عم عائشة رضي الله تعالى عنها وكأسد بن عبد العزى ووهب بن عبد مناف وقصي ابن عبد الدار فأخبر بمكانهم أي وكان في قصره بصنعاء وهو مضمخ بالمسك وعليه بردان والتاج على رأسه وسيفه بين يديه وملوك حمير عن يمينه وشماله فأذن لهم فدخلوا عليه ودنا منه عبد المطلب

وفي الوفاء وجدوه جالسا على سرير من الذهب وحوله أشراف اليمن على كراسي من الذهب فوضعت لهم كراسي من الذهب فجلسوا عليها إلا عبد المطلب فإنه قام بين يديه واستأذنه في الكلام فقال إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذنا لك فقال إن الله عز وجل أحلك أيها الملك محلا رفيعا شامخا أي مرتفعا باذخا أي عاليا منيعا وأنبتك نباتا طالت أرومته وعظمت جرثومته أي والأرومة والجرثومة هما الأصل وثبت أصله وبسق أي طال فرعه من أطيب موضع وأكرم معدن وأنت أبيت اللعن أي أبيت أن تأتي من الأمور ما يلعن عليه ملك العرب الذي له تنقاد وعمودها الذي عليه العماد وكهفها الذي تلجأ إليه العباد سلفك خير سلف وأنت لنا فيهم خير خلف فلن يهلك ذكر من أنت خلفه ولن يخمل ذكر من أنت سلفه نحن أهل حرم الله وسدنة بيته أشخصنا أي أحضرنا إليك الذي أبهجنا من كشف الكرب

الذي فدحنا أي أثقلنا فنحن وفد التهئة لا وفد الترزئة أي التعزية فعند ذلك قال له الملك من أنت أيها المتكلم قال عبد المطلب بن هاشم قال ابن أختنا بالتاء المشناة فوق لأن أم عبد المطلب من الخزرج وهم من اليمن قال نعم قال ادنه ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال مرحبا وأهلا وناقة ورحلا ومستناخا سهلا وملكا ربحلا أي كثير العطاء يعطى عطاء جزلا قد سمع الملك مقالتك وعرف قرابكم وقبل وسيلكم فإنكم أهل الليل والنهار ولكم الكرامة ما أقمتم والحباء أي العطاء إذا ظعنتم ثم انهضوا إلى دار الضيافة والوفود وأجرى عليهم الأنزال فأقاموا بذلك شهرا لا يصلون إليه ولا يؤذن لهم بالانصراف ثم انتبه لهم إنتباهة فأرسل إلى عبد المطلب فأدناه ثم قال له يا عبد المطلب إني مفض إليك من سر علمي أمرا لو غيرك يكون لم أبح له به ولكن رأيتك معدنه فأطلعتك طلعه أي عليه فليكن عندك مخبأ حتى يأذن الله عز وجل فيه إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي أدخرناه لأنفسنا واحتجبناه أي كتمناه دون غيرنا خبرا عظيما وخطرا جسيما فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة فقال له عبد المطلب مثلك أيها الملك سر وبر فما هو فذاك أهل الوبر زمرا بعد زمر قال إذا ولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة كانت له الإمامة ولكم به الزعامة أي السيادة إلى يوم القيامة فقال له عبد المطلب أيها الملك أبت أي رجعت بخير ما آب بمثله وافد قوم ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من مساره أي من مساررتة إياي بما أزداد به سرورا فقال له الملك هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد اسمه محمد يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه قد ولدناه مرارا والله باعته جهارا وجاعل له منا

أنصارا يعزبهم أوليائه ويذل بهم أعداءه ويضرب بهم الناس عن عرض أي جميعا ويستفتح بهم كرائم الأرض يعبد الرحمن ويدحض أي يزجر الشيطان ويخمد النيران ويكسر الأوثان قوله فصل وحكمه عدل ويأمر بالمعروف ويفعله وينهى عن المنكر وييطله قال له عبد المطلب جد جدك ودام ملكك وعلا كعبك فهل الملك ساري بإفصاح فقد وضع لي الإيضاح قال والبيت ذي الحجب والعلامات على النقب أي الطرق إنك لجدته يا عبد المطلب غير كذب قال فخر عبد المطلب ساجدا فقال له ارفع رأسك ثلج صدرك وعلا كعبك فهل أحسست بشيء مما ذكرت لك قال نعم أيها الملك إنه كان لي ابن

و كنت به معجبا وعليه رقيقا وإني زوجته كريمة من كرائم قومي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة فجاءت بغلام فسميته محمدا مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه يعني أبا طالب وهذا يدل على أن وفود عبد المطلب على سيف بن ذي يزن كان بعد موت أمه صلى الله عليه وسلم

و حينئذ لا ينافي ذلك ما تقدم أن عمره صلى الله عليه وسلم كان سنتين لأن ذلك كان سنه صلى الله عليه وسلم حين ولي سيف بن ذي يزن على الحبشة وتأخر وفود عبد المطلب عليه بعد موت أمه صلى الله عليه وسلم ويدل على أن أبا طالب كان مشاركا لعبدالمطلب في كفالته صلى الله عليه وسلم في حياة عبد المطلب ثم اختص هو بذلك بعد موته أي وعبرة سيف بن ذي يزن صادقة بالحالين فقال له إن الذي قلت لك كما قلت فاحتفظ على ابنك واحذر عليه من اليهود فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا أي فحفظه والخوف عليه منهم من باب الاحتياط و الإعلام بقدره

قال واطوما ذكرته لك عن هؤلاء الرهط الذين معك فإني لست آمن أن تداخلهم النفاسة من أن تكون له الرياسة فينصبون له الحبائل ويغنون له الغوائل وهم فاعلون ذلك وأبناؤهم من غير شك ولولا أعلم أن الموت مجتاحي أي مهلكي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار ملكه فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق أن يثرب دار ملكه وإستحكام أمره وأجل نصرته وموضع قبره ولولا أنني أقيد الآفات وأحذر عليه العاهات لأعلنت على حداثة سنه أمره وأعليت على أسنان العرب كعبه ولكن سأصرف ذلك إليك من غير تقصير بمن معك

ثم دعا بالقوم وأمر لكل واحد منهم بعشرة أعبد أسود وعشرة إماء سود وحلتين من حلل البرود وعشرة أرطال ذهباً وعشرة أرطال فضة ومائة من الإبل وكرش مملوء عنبرا وأمر لعبدالمطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال إذا جاء الحول فأنتني بخبره وما يكون من أمره فمات الملك قبل أن يحول عليه الحول وكان عبد المطلب كثيرا ما يقول لمن معه لا يغبطني رجل منكم بجزير عطاء الملك ولكن يغبطني بما يبقى لي ولعقبى ذكره وفخره فإذا قيل له ما هو قال سيعلم ما أقول ولو بعد حين

وهذا القصر الذي كان فيه الملك سيف بن ذي يزن يقال له بيت عمدان يقال إنه كان هيكلا للزهرة تعبد فيه الزهرة وكان سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه يقول لا أفلحت العرب ما دام فيها عمدانها فلما ولي عثمان رضي الله تعالى عنه الخلافة هدمه وكان أبو طالب مقلا من المال فكان عياله إذا أكلوا جميعا أو فرادى لم يشبعوا وإذا أكل معهم النبي صلى الله عليه وسلم شبعوا فكان أبو طالب إذا أراد أن يغديهم أو يعشيهم يقول لهم كما أنتم حتى يأتي ابني فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم فيفضلون من طعامهم وإن كان لنا شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولهم ثم تتناول العيال القعب أي القدح الذي من الخشب فيشربون منه فيروون من عند آخرهم أي جميعهم من القعب الواحد وإن كان أحدهم ليشرب قعبا واحدا فيقول أبو طالب إنك لمبارك

أقول وفي الإمتاع وكان أي أبو طالب يقرب إلى الصبيان يصبهم أو البكرة فيجلسون وينتهبون فيكف رسول الله صلى الله عليه وسلم يده لا ينتهب معهم فلما رأى ذلك أبو طالب عزل له طعامه على حدة هذا كلامه ولا ينافي ما قبله لأنه يجوز أن يكون ذلك خاصا بما يحضر في البكرة الذي يقال له الفطور دون الغداء والعشاء فإنه كان يأكل معهم وهو المقدم والله أعلم

وكان الصبيان يصبحون شعنا رمضا بضم الراء وإسكان الميم ثم صاد مهملة ويصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم دهينا كحيفا قالت أم أيمن ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو جوعا قط ولا عطشا لا في صغره ولا في كبره

وكان صلى الله عليه وسلم يغد وإذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة فربما عرضنا عليه الغداء فيقول أنا شبعان أي في بعض الأوقات فلا ينافي ما سبق وكان يوضع لأبي طالب وسادة يجلس عليها فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فجلس عليها فقال إن ابن أخي ليخبر بنعيم أي بشرف عظيم قال واستسقى أبو طالب برسول الله صلى الله عليه وسلم قال جلهمة ابن عرفطة قدمت مكة وقريش في قحط فقائل منهم يقول اعتمدوا اللات والعزى وقائل منهم يقول اعتمدوا مناة الثالثة الأخرى فقال شيخ وسيم حسن الوجه جيد الرأي أنى تؤفكون أي

كيف تصرفون عن الحق وفيكم باقية إبراهيم وسلالة إسماعيل عليهما السلام أي فكيف
تعدلون عنه إلا ما لا يجدي قالوا كأنك عنيت أبا طالب قال أيها فقاموا بأجمعهم
وقمت معهم فدققنا عليه بابه فخرج إلينا رجل حسن الوجه عليه إزار قد اتشح به فتاروا
أي قاموا إليه فقالوا يا أبا طالب أقحط الوادي وأجذب العيال فهل فاستسق لنا فخرج
أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجنة بدال مهلمة فجيم مضمومتين أي ظلمة وفي
رواية كأنه شمس دجن أي ظلام تجلت عنه سحابة قتماء أي من القتام بالفتح وهو
الغبار وحوله أغيلمة جمع غلام فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ أي طاف
بأصبعه الغلام زاد في بعض الروايات وبصبت الأغيلمة حوله أي فتحت أعينها وما في
السماء قزعة أي قطعة من سحاب فأقبل السحاب من ههنا ومن ههنا واغدودق أي كثر
مطره وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي

وفي ذلك يقول أبو طالب من قصيدة يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم وشرف
وكرم أكثر من ثمانين بيتا
* وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
* ثمال اليتامى عصمة للأرامل
*

أي ملجأ وغياثا لليتامى ومانع الأرامل من الضياع والأرامل المساكين من النساء
والرجال وهو بالنساء أخص وأكثر استعمالا
أقول وأخذت الشيعة من هذه القصيدة القول بإسلام أبي طالب أي لأنه صنفها بعد
البعثة وسيأتي الكلام في إسلامه
وأما ما نقله الدميري في شرح المنهاج عن الطبراني وابن سعد أن هذه القصيدة التي
منها هذا البيت من إنشاء عبد المطلب فهو وهم لما درج عليه أئمة السير أن المنشيء
لها هو أبو طالب واحتمال توارد كل من أبي طالب وعبد المطلب على هذه القصيدة
بعيد جدا

ومما يصرح بالوهم ما يأتي عن النبي صلى الله عليه وسلم من نسبة هذا البيت لأبي
طالب والله أعلم
قال وعن أبي طالب قال كنت بذي المجاز أي وهو موضع على فرسخ من عرفة كان
سوقا للجاهلية كما تقدم مع ابن أخي يعني النبي صلى الله عليه وسلم فأدركني العطس
فشكوت إليه فقلت يا ابن أخي قد عطشت وما قلت له ذلك وأنا أرى عنده شيئا إلا
الجزع

أي لم يحملني على ذلك إلا الجزع وعدم الصبر قال فثنى وركه أي نزل عن دابته ثم قال يا عم عطشت قلت نعم فأهوى بعقبه إلى الأرض وفي رواية إلى صخرة فركضها برجله وقال شيئاً فإذا أنا بالماء لم أر مثله فقال اشرب فشربت حتى رويت فقال أرويت قلت نعم فركضها ثانية فعادت كما كانت وسافر أي وقد أتت عليه صلى الله عليه وسلم بضع عشرة سنة مع عمه الزبير بن عبد المطلب شقيق أبيه كما تقدم إلى اليمن فمروا بواد فيه فحل من الإبل يمنع من يجتاز فلما رآه البعير برك وحك الأرض بكلكله أي صدره فنزل صلى الله عليه وسلم عن بعيره وركب ذلك الفحل وسار حتى جاوز الوادي ثم خلى عنه فلما رجعوا من سفرهم مروا بواد مملوء ماء يتدفق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتبعوني ثم أقتحمه فاتبعوه فأيس الله عز وجل الماء فلما وصلوا إلى مكة تحدثوا بذلك فقال الناس إن لهذا الغلام شأنًا أي وفي السيرة الهشامية أن رجلاً من لهب كان قائفاً وكان إذا قدم مكة أتاه رجال من قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويقتاف لهم فيهم فأتى أبو طالب بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو غلام مع من يأتيه فنظر إليه صلى الله عليه وسلم ثم شغل عنه بشيء فلما فرغ قال علي بالغلام وجعل يقول ويلكم ردوا على الغلام الذي رأيت أنفاً فوالله ليكونن له شأن فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه وانطلق به والله أعلم

باب ذكر سفره صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب إلى الشام

عن ابن إسحق لما تهيأ أبو طالب للرحيل صب به رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتح الصاد المهملة وتشديد الباء الموحدة والصبابة رقة الشوق قاله في الأصل قال وعند بعض الرواة فضبت به أي بفتح الضاد المعجمة والباء الموحدة والثاء المثناة كضرب لزمه وقبض عليه يقال ضبثت على الشيء إذا قبضت عليه

فقد جاء أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قل للملأ من بني إسرائيل لا يدعوني والخطايا بين أضيبتهم أي قبضاتهم أي وهم يحملون الأوزار غير مقلعين عنها أي وعلى ما عند بعض الرواة اقتصر الحافظ الدمياطي فلفظه لما تهيأ يعني أبا طالب للرحيل

ضبت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فرق له أبو طالب وقال والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبدا

أقول رأيت بعضهم نقل عن سيرة الدمياطي وضبت به أبو طالب ضباثة لم يضبت مثلها لشيء قط وإنه ضبت بالضاد المعجمة والباء الموحدة والثاء المثناة قال وهو القبض على الشيء وهذا لا يناسب قوله ضباثة لم يضبت مثلها لشيء قط لأن ذلك إما يناسب صب بالضاد المهملة أي الذي هو الرقة كما لا يخفى على أن مصدر ضبت إنما هو الضبت ومن ثم لم أجد ذلك في السيرة المذكورة والذي رأيت فيها ما قدمته عنها وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم مسك بزمام ناقه أبي طالب وقال يا عم إلى من تكلمي لا أب لي ولا أم وكان سنه صلى الله عليه وسلم تسع سنين على الراجح وقيل اثنتي عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام أي وهذا القيل صدر به في الإمتاع وقال إنه أثبت أي ومن ثم اقتصر عليه المحب الطبري

وذكر أنه لما سار به أردفه خلفه فنزلوا على صاحب دير فقال صاحب الدير ما هذا الغلام منك قال ابني قال ما هو بإبنك وما ينبغي أن يكون له أب حي هذا نبي أي لأن من كانت هذه الصفة صفته فهو نبي أي النبي المنتظر

ومن علامة ذلك النبي في الكتب القديمة أن يموت أبوه وأمه حامل به كما تقدم وسيأتي أو بعد وضعه بقليل من الزمن أي ومن علامته أيضا في تلك الكتب موت أمه وهو صغير كما تقدم في خبر سيف بن ذي يزن ولا ينافي ذلك الاقتصار من بعض أهل الكتب القديمة على الأول الذي هو موت أبيه وهو حمل

قال أبو طالب لصاحب الدير وما النبي قال الذي يأتي إليه الخبر من السماء فينبئ أهل الأرض قال أبو طالب الله أجل مما تقول قال فاتق عليه اليهود ثم خرج حتى نزل براهب أيضا صاحب دير فقال له ما هذا الغلام منك قال ابني قال ما هو بإبنك وما ينبغي أي يكون له أب حي قال ولم قال لأن وجهه وجه نبي وعينه عين نبي أي النبي الذي يبعث لهذه الأمة الأخيرة لأن ما ذكر علامته في الكتب القديمة قال أبو طالب سبحان الله الله أجل مما تقول ثم قال أبو طالب للنبي صلى الله عليه وسلم يا ابن أخي ألا تسمع ما يقول قال أي عم لا تنكر لله قدرة والله أعلم فلما نزل الركب بصرى وبها راهب يقال له بحيرا بفتح الموحدة وكسر الحاء المهملة وسكون

المثناة التحتية آخره راء مقصورة واسمه جرجيس وقيل سرجيس وحينئذ يكون بحيرا لقبه في صومعة له وكان انتهى إليه علم النصرانية أي لأن تلك الصومعة كانت تكون لمن ينتهي إليه علم النصرانية يتوارثونها كابرا عن كابر عن أوصياء عيسى عليه الصلاة والسلام وفي تلك المدة انتهى علم النصرانية إلى بحيرا وقيل كان بحيرا من أحبار اليهود يهود تيمما

أقول لا منافاة لأنه يجوز أن يكون تنصر بعد أن كان يهوديا كما وقع لورقة بن نوفل كما سيأتي

هذا وقال ابن عساكر إن بحيرا كان يسكن قرية يقال لها الكفؤ بينها وبين بصرى ستة أميال وقيل كان يسكن البلقاء من أرض الشام بقرية يقال لها ميفعة ويحتاج إلى الجمع وقد يقال يجوز أنه كان يسكن في كل من القريتين كل واحدة يسكن فيها زمنا وكان في بعض الأحيان يأتي لتلك الصومعة فليتأمل وقد سمع مناد قبل وجوده صلى الله عليه وسلم ينادي ويقول ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة رباب بن البراء وبحيرا الراهب وآخر لم يأت بعد وفي لفظ والثالث المنتظر يعني النبي صلى الله عليه وسلم ذكره ابن قتيبة قال ابن قتيبة وكان قبر رباب وقبر ولده من بعده لا يزال يرى عندهما طش وهو المطر الخفيف والله أعلم

وكانت قریش كثيرا ما تمر على بحيرا فلا يكلمهم حتى كان ذلك العام صنع لهم طعاما كثيرا وقد كان رأى وهو بصومعته رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم ثم لما نزلوا في ظل شجرة نظر إلى الغمامة قد أظلت الشجرة وتهصرت أي مالت أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رواية وأخضلت أي كثرت أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استظل تحتها أي وقد كان صلى الله عليه وسلم وجدهم سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس صلى الله عليه وسلم مال فيء الشجرة عليه ثم أرسل إليهم إني قد صنعت لكم طعاما يا معشر قریش وأحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحرکم فقال له رجل منهم لم أقف على اسم هذا الرجل يا بحيرا إن لك اليوم لشأنا ما كنت تصنع هذا بنا وكنا نمر عليك كثيرا فما شأنك اليوم فقال له بحيرا صدقت قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببت

أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلون منه كلكم فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحدائثة سنه في رحال القوم أي تحت الشجرة فلما نظر بحيرا في القوم ولم ير الصفة أي لم ير في أحد منهم الصفة التي هي علامة للنبي المبعوث آخر الزمان التي يجدها عنده أي ولم ير الغمامة على أحد من القوم ورآها متخلفة على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا معشر قريش لا يتخلف أحد منكم عن طعامي فقالوا يا بحيرا ما تخلف عن طعامك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدث القوم سنا قال لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الغلام معكم أي وقال فما أقبح أن تحضروا ويتخلف رجل واحد مع أني أراه من أنفسكم فقال القوم هو والله أو سطنا نسبا وهو ابن أخي هذا الرجل يعنون أبا طالب وهو من ولد عبد المطلب فقال رجل من قريش واللات والعزى إن كان للؤما بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ثم قام إليه فاحتضنه أي وجاء به وأجلسه مع القوم أي وذلك الرجل هو عمه الحارث بن عبد المطلب ولعله لم يقل هو ابن أخي مع كونه أسن من أبي طالب لأن أبا طالب كان شقيقا لأبيه عبد الله كما تقدم دون الحارث مع كون أبي طالب هو المقدم في الركب وقيل الذي جاء به صلى الله عليه وسلم أبو بكر رضي الله تعالى عنه وقدمه ابن المحدث على ما قبله فليتأمل

ولما سار به من احتضنه لم تزل الغمامة تسير على رأسه صلى الله عليه وسلم فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته صلى الله عليه وسلم حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه صلى الله عليه وسلم بحيرا فقال له أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما أي وفي الشفاء أنه اختبره بذلك فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسألني باللات والعزى شيئا فوالله ما أبغض شيئا قط بعضهما فقال بحيرا فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه فقال له سلني عما بدا لك فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره ويخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته أي صفة النبي المبعوث آخر الزمان التي عنده أي ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة على الصفة التي عنده فقبل موضع الخاتم فقالت قريش إن لمحمد عند هذا الراهب لقدرا فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له ما هذا الغلام منك قال ابني قال ما هو ابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا قال فإنه ابن أخي

قال فما فعل أبوه قال مات وأمه حبلى به قال صدقت أي ثم قال ما فعلت أمه قال توفيت قريبا قال صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلاده واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت لتبغينه شرا فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم أي نجده في كتبنا وروينا عن آبائنا

واعلم أنني قد أدت إليك النصيحة فأسرع به إلى بلده وفي لفظ لما قال له ابن أخي قال له بحيرا أشفيق عليه أنت قال نعم قال فوالله لئن قدمت به إلى الشام أي جاوزت هذا المحل ووصلت إلى داخل الشام الذي هو محل اليهود لتقتلنه اليهود فرجع به إلى مكة ويقال إنه قال لذلك الراهب إن كان الأمر كما وصفت فهو في حصن من الله عز وجل وقد يقال لا مخالفة لأن ما صدر من بحيرا كان على ما جرت به العادة من طلب التوقي فخرج به عمه أبو طالب حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام وفي الهدى فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى المدينة فليتأمل

وذكر أن نفرا من أهل الكتاب قد كانوا رأوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى بحيرا وأرادوا به سواء فردهم عنه بحيرا وذكرهم الله وما يجدونه في الكتاب من ذكره وصفاته وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا لا يخلصون إليه فعند ذلك تركوه وانصرفوا عنه

وفي رواية أخرى خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبي صلى الله عليه وسلم في أشياخ من قريش فلما أشرفوا على الراهب بحيرا قبل ذلك يمرون عليه فلا يخرج إليهم ولا يلتفت إليهم فجعل وهم يحلون رحالهم يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال هذا سيد العالمين هذا رسول رب العالمين هذا يبعثه الله رحمة للعالمين فقال الأشياخ من قريش ما أعلمك فقال إنكم حين أشرفتم على العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خر ساجدا ولا يسجد إلا لنبي أي وإن الغمامة صارت تظله دونهم وإني لأعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة أي والغضروف تقدم أنه رأس لوح الكتف ثم رجع وصنع لهم طعاما فلما أتاهم به كان النبي صلى الله عليه وسلم في رعية الإبل فأرسلوا إليه فأقبل وعليه غمامة تظله فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فئ الشجرة فلما جلس مال فئ الشجرة عليه فقال الراهب انظروا إلى فئ هذه الشجرة مال عليه

فبينما هو قائم عليهم وهو يعاهدهم أن لا يذهبوا به إلى أرض الروم أي داخل الشام فإنهم إن عرفوه قتلوه فالتفت فإذا سبعة من الروم قد أقبلوا فاستقبلهم فقال ما جاء بكم قالوا جئنا إلى هذا النبي الذي هو خارج في هذا الشهر أي مسافر فيه فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس وإنما قد أخبرنا خبره بطريقك هذا قال أفرايتم أمرا أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده قالوا لا فبايعوه ي بايعوا بحيرا على مسالمة النبي صلى الله عليه وسلم وعدم أخذه وأذيته على حسب ما أرسلوا فيه وأقاموا عند ذلك الراهب خوفا على أنفسهم ممن أرسلهم إذا رجعوا بدونه قال بحيرا لقريش أنشدكم الله أي أسألكم بالله أيكم وليه قالوا أبو طالب فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب وبعث معه بلالا وفي لفظ وبعث معه أبو بكر رضي الله تعالى عنه بلالا وزوده بحيرا من الكعك والزيت أي وإذا كانت القصة واحدة فالإختلاف في إيرادها من الرواة كما تقدم نظيره فبعض الرواة قدم في هذه الرواية وأخر

على أنه في الهدى قال وقع في كتاب الترمذي وغيره أن عمه أي وأبا بكر رضي الله تعالى عنه بعث معه بلالا وهو من الغلط الواضح فإن بلالا إذ ذاك لعله لم يكن موجودا وإن كان فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر

وذكر في الأصل أن في هذه الرواية أمورا منكورة حيث قال قلت ليس في إسناد هذا الحديث إلا من خرج له في الصحيح ومع ذلك أي مع صحة سنده ففي متنه نكارة أي أمور منكورة وهي إرسال أبي بكر مع النبي صلى الله عليه وسلم بلالا فإن بلالا لم ينقل لأبي بكر إلا بعد هذه السفارة بأكثر من ثلاثين عاما ولأن أبا بكر لم يبلغ العشر سنين حينئذ لأنه صلى الله عليه وسلم أسن منه بأزيد من عامين بقليل أي بشهر ولا ينافي ما يأتي وتقدم أن سنه صلى الله عليه وسلم حينئذ تسع سنين على الراجح أي فيكون سن أبي بكر نحو سبع سنين وكان بلال أصغر من أبي بكر رضي الله عنهما فلا يتجه هذا بحال أي لأن أبا بكر حينئذ لم يكن أهلا للإرسال عادة وكذا بلال لم يكن أهلا لأن يرسل

وكون النبي صلى الله عليه وسلم اسن من أبي بكر هو ما عليه الجمهور من أهل العلم بالأخبار والسير والآثار وما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر فقال له من الأكبر أنا أو أنت

فقال له أبو بكر أنت أكرم وأكبر وأنا أسن قيل فيه إنه وهم وإن ذلك إنما يعرف عن عمه العباس رضي الله تعالى عنه وكون بلال أصغر من أبي بكر ينازعه قول ابن حبان بلال كان تربا لإبي بكر أي قرينه في السن وبه يرد قول الذهبي بلال لم يكن خلق قال وذكر الحافظ ابن حجر أن إرسال أبي بكر معه بلال وهم من بعض الرواة وهو مقتطع من حديث آخر أدرجه ذلك الراوي في هذا الحديث انتهى أقول ولأجل هذا الوهم قال الذهبي في الحديث أظنه موضوعا بعضه باطل أي لم يوافق الواقع أي فمع كون الحديث موضوعا بعضه موافق للواقع وبعضه لم يوافق الواقع وحينئذ فمراد الأصل بالنكارة في قوله في متنه نكارة البطلان كما أشرت إليه وليس هذا من قبيل قولهم هذا حديث منكر الذي هو من أقسام الضعيف وهو يرجع إلى الفردية ولا يلزم من الفردية ضعف متن الحديث فضلا عن بطلانه وقال الحافظ الدمياطي في هذا الحديث وهما أحدهما قوله فبايعوه وأقاموا معه والوهم الثاني قوله وبعث معه أبو بكر بلالا ولم يكونا معه ولم يكن بلال أسلم ولا ملكه أبو بكر وفيه أن الحافظ الدمياطي فهم أن الضمير في بايعوه للنبي صلى الله عليه وسلم وقد علمت أنه لبحيرا فلا وهم فيه وتوجيه الوهم الثاني بعدم وجود أبي بكر وبلال مع النبي صلى الله عليه وسلم واضح إن ثبت ذلك وإلا فمجرد النفي لا يرد به الإثبات وحينئذ لا حاجة معه إلى ذكر ما بعده من أن بلالا لم يكن أسلم ولا ملكه أبو بكر إلا أن يقال هو على تسليم وجود أبي بكر وبلال مع النبي صلى الله عليه وسلم وقد يقال على تسليم ذلك إرسال أبي بكر لبلال لا يتوقف على إسلام بلال ولا على ملك أبي بكر له جاز أن يكون سيد بلال وهو أمية بن خلف أرسله في ذلك العير لأمر فأذن أبو بكر لبلال في العود مع النبي صلى الله عليه وسلم ليكون خادما ويستأنس ويأمن به اعتمادا على رضا سيده بذلك إذ ليس من لازم إرساله أن يكون مملوكا له وكون أبي بكر لم يكن في سن من يرسل عادة تقدم ما فيه والله أعلم قال وروى ابن منده بسند ضعيف عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمان عشرة سنة والنبي صلى الله عليه وسلم

ابن عشرين سنة أي فالنبي صلى الله عليه وسلم أسن من أبي بكر بعامين أي وشهر كما تقدم ولقلة هذه الزيادة على العامين التي هي الشهر الواردة مبهمة في الرواية السابقة لم يذكرها ابن منده وهم يريدون الشام في تجارتهم حتى إذا نزل منزلا وهو سوق بصرى من أرض الشام وفي ذلك المحل سدرة فقعد صلى الله عليه وسلم في ظلها ومضى أبو بكر إلى راهب يقال له بحيرا يسأله عن شيء فقال من الرجل الذي في ظل السدرة قال له محمد بن عبد الله بن عبد المطلب فقال له والله هذا نبي هذه الأمة ما استظل تحتها بعد عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إلا محمد عليه الصلاة والسلام أي وقد قال عيسى لا يستظل تحتها بعدي إلا النبي الأمي الهاشمي كما سيأتي في بعض الروايات قال الحافظ ابن حجر يحتمل أن يكون أي سفر أبي بكر معه صلى الله عليه وسلم في سفرة أخرى بعد سفرة أبي طالب إنتهى

أقول وهي سفرتة مع ميسرة غلام خديجة فإنه لم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم سافر إلى الشام أكثر من مرتين ويؤيده ما تقدم من قول الراوي وهم يريدون الشام في تجارتهم لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخرج تاجرا إلا في تلك السفرة وسيأتي أن هذا القول قاله الراهب نسطورا لا بحيرا قاله لميسرة لا لأبي بكر إلا أن يقال لا مانع أن يكون قال ذلك لميسرة ولأبي بكر لكن ربما يبعده ما سيأتي أن سنه صلى الله عليه وسلم حين سافر مع ميسرة كان خمسا وعشرين سنة على الراجح لا عشر سنين وعلى هذا فالشجرة لم تكن إلا عند صومعة الراهب نسطورا لا عند صومعة الراهب بحيرا وذكر بحيرا موضع نسطورا وهو ما وقع في شرف المصطفى للنيسابوري وهم من بعض الرواة سرى إليه من إتحد محلها وهو سوق بصرى إلا أن يقال يجوز أن يكون الراهب نسطورا خلف بحيرا في ذلك الصومعة لموته مثلا وهو أقرب من دعوى تعدد الشجرة فتكون واحدة عند صومعة بحيرا وواحدة عند صومعة نسطورا وكلاهما قال فيها عيسى ما ذكرا

ومن دعوى إتحداهما وأنها بين صومعة بحيرا وصومعة نسطورا وأن العير الذي كان فيه أبو طالب نزل جهة صومعة بحيرا والعير الذي كان فيه أبو بكر وميسرة نزل جهة صومعة نسطورا وسيأتي أن بحيرا ونسطورا ونحوهما ممن صدق بأنه صلى الله عليه وسلم نبي هذه الأمة من أهل الفترة لا من أهل الإسلام لأنهما لم يدركا البعثة أي الرسالة

بناء على اقترانهما بالنبوة أو أن المراد بها النبوة أي لم يدركا النبوة فضلا عن الرسالة
بناء على تأخرها عن النبوة
ثم رأيت الحافظ ابن حجر قال في بحيرا ما أدري أدرك البعثة أم لا هذا كلامه في
الإصابة وليس هذا بحيرا الراهب الصحابي الذي هو أحد الثمانية الذين قدموا مع جعفر
بن أبي طالب من الحبشة
فعنه رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا شرب
الرجل كأسا من خمر الحديث ومن قال إن هذا الحديث منكر ظن أن بحيرا هذا هو
بحيرا المذكور هنا الذي لقي النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة والله أعلم
باب ما حفظه الله تعالى به في صغره صلى الله عليه وسلم من أمر الجاهلية
أي من أقدارهم ومعاييرهم أي بحسب ما آل إليه شرعه لما يريد الله تعالى به من كرامته
حتى صار أحسنهم خلقا وأصدقهم حديثا وأعظمهم أمانة وأبعدهم من الفحش
والأخلاق التي تدنس الرجال تنزيها وتكريما أي حتى كان صلى الله عليه وسلم أفضل
قومه مروءة وأحسنهم خلقا وأكرمهم مخالطة وخيرهم جوارا وأعظمهم حلما وأمانة
وأصدقهم حديثا فسموه الأمين لما جمع الله عز وجل فيه من الأمور الصالحة الحميدة
والفعال السديدة من الحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والتواضع والعفة والجود
والشجاعة والحياء والمروءة
فمن ذلك ما ذكره ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقد رأيتني أي
رأيت نفسي في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان كلنا قد
تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليها الحجارة فإني لأقبل معهم كذلك
وأدبر إذ لكمني لاكم أي من الملائكة ما أراها لكممة وجيعة وفي لفظ لكمني لكممة
شديدة
وقد يقال لا منافاة لأنها مع شدتها لم تكن وجيعة له صلى الله عليه وسلم ثم قال شد
عليك إزارك فأخذه فشددته علي ثم جعلت أحمل الحجارة علي رقبتني وإزاري علي
من بين أصحابي أي وقد وقع له صلى الله عليه وسلم مثل ذلك أي نقل الحجارة عاريا
عند إصلاح أبي طالب لزمزم

فعن ابن إسحاق وصححه أبو نعيم قال كان أبو طالب يعالج زمزم وكان النبي صلى الله عليه وسلم ينقل الحجارة وهو غلام فأخذ إزاره واتقى به الحجارة فغشى عليه فلما أفاق سأله أبو طالب فقال أتاني آت عليه ثياب بيض فقال لي استتر فما رؤيت عورته صلى الله عليه وسلم من يومئذ

وفي الخصائص الصغرى ونهى صلى الله عليه وسلم عن التعري وكشف العورة من قبل أن يبعث بخمس سنين وقد وقع له صلى الله عليه وسلم مثل ذلك أي نهيه عن التعري عند بنيان الكعبة كما سيأتي وسيأتي ما فيه

ومن ذلك ما جاء عن علي رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما هممت بقبیح مما هم به أهل الجاهلية أي ويفعلونه إلا مرتين من الدهر كلتاهما عصمني الله عز وجل منهما أي من فعلهما قلت لفتي كان معي من قريش بأعلى مكة في غنم لأهله يرعاها أي وفي لفظ قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلها لم أقف على أسم هذا الفتى أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان قال نعم وأصل السمر الحديث ليلاً فخرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير فقلت ما هذا فقالوا فلان قد تزوج بفلانة لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش فلهوت بذلك الصوت حتى غلبتني عيناى فممت فما أيقظني إلا مس الشمس أي وفي لفظ فجلسلت أنظر أي أسمع وضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا حر الشمس فرجعت إلى صاحبي فقال ما فعلت فأخبرته ثم فعلت الليلة الأخرى مثل ذلك

أقول المناسبة لقوله عصمني الله ما في الرواية الثانية لا ما ذكر في الرواية الأولى إلا أن يحمل قوله في الرواية الأولى فلهوت على أردت أن ألهو والله أعلم فقال صلى الله عليه وسلم والله ما هممت بغيرهما بسوء مما تعمله أهل الجاهلية أي ما هممت بسوء مما يعمله أهل الجاهلية غيرهما وفي لفظ فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك أي مما يعمله أهل الجاهلية ولا هممت به حتى أكرمني الله تعالى بنبوته ومن ذلك ما جاء عن أم أيمن رضي الله عنها أنها قالت كان بوانة بضم الموحدة وبفتح الواو مخففة بعدها ألف ونون صنما تحضره قريش وتعظمه وتنسك أي تذبح له وتحلق عنده وتعكف عليه يوماً إلى الليل في كل سنة فكان أبو طالب يحضر مع قومه

ويكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد معه فيأبى ذلك حتى قالت رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب وجعلن يقلن إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا ويقلن ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعا فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع مرعباً فزعا فقلن ما دهاك قال إني أخشى أن يكون بي لمم أي لمة وهي اللمس من الشيطان فقلن ما كان الله عز وجل ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك فما الذي رأيت قال إني كلما دنوت من صنم منها أي من تلك الأصنام التي عند ذلك الصنم الكبير الذي هو بوانة تمثل لي رجل أبيض طويل أي وذلك من الملائكة يصيح بي ورائك يا محمد لا تمسه قالت فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ صلى الله عليه وسلم أقول ظاهر هذا السياق أن اللمم يكون من الشيطان وحينئذ يكون بمعنى اللمة وهي المس من الشيطان كما قدمناه فقد أطلق اللمم على اللمة وإلا فاللمم نوع من الجنون كما تقدم في قصة الرضاع قد أصابه لمم أو طائف من الجن إذ هو يدل على أن اللمم يكون من غير الشيطان كمرض وعبارة الصحاح اللمم طرف من الجنون وأصاب فلانا من الجن لمة وهي المس أي فقد غاير بينهما والله أعلم

ومن ذلك ما روته عائشة رضي الله تعالى عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يعيب كل ما ذبح لغير الله تعالى أي فكان يقول لقريش الشاة خلقتها الله عز وجل وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض الكلاء ثم تذبحونها على غير اسم الله فما ذقت شيئاً ذبح على النصب أي الأصنام حتى أكرمني الله تعالى برسالته أي وزيد بن عمرو كان قبل النبوة زمن الفترة على دين إبراهيم عليه السلام فإنه لم يدخل في يهودية ولا نصرانية واعتزل الأوثان والذبائح التي تذبح للأوثان ونهى عن الوأد وتقدم أنه كان يحييها إذا أراد أحد ذلك أخذ الموءودة من أبيها وتكفلها وكان إذا دخل الكعبة يقول لبيك حقاً تعبدوا وصدقاً وقيل ورقاً عاذت بما عاذ به إبراهيم ويسجد للكعبة قال صلى الله عليه وسلم إنه يبعث أمة واحدة أي يقوم مقام جماعة انتهى أي فإن ولده سعيداً قال يا رسول الله إن زيدا كان كما قد رأيت وبلغك فاستغفر له قال نعم استغفر له فإنه يبعث يوم القيامة أمة

وحده

وفي البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم
لقي زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي وقد
قدمت إلى النبي صلى الله عليه وسلم سفرة أي فيها شاة ذبحت لغير الله عز وجل أو
قدمها النبي صلى الله عليه وسلم إليه فأبى أن يأكل منها وقال إنني لست آكل ما
تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه ولعل هذا كان قبل ما تقدم
عنه صلى الله عليه وسلم وأن ذلك كان هو السبب في ذلك

قال الإمام السهيلي وفيه سؤال كيف وفق الله عز وجل زيد إلى ترك ما ذبح على
النصب وما لم يذكر اسم الله عليه ورسوله صلى الله عليه وسلم كان أولى بهذه
الفضيلة في الجاهلية لما ثبت من عصمة الله تعالى له أي فكان صلى الله عليه وسلم
يترك ذلك من عند نفسه لا تبعاً لزيد بن عمرو وحينئذ لا يحسن الجواب الذي أشرنا
إليه بقولنا

وأجاب أي السهيلي بأنه لم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم أكل من تلك السفرة أي ولا
من غيرها

سلمنا أنه أكل قبل ذلك مما ذبح على النصب فتحريم ذلك لم يكن من شرع إبراهيم
وإنما كان تحريم ذلك في الإسلام والأصل في الأشياء قبل ورود الشرع على الإباحة
هذا كلامه

وفيه أن هذا التسليم يبطل عد الشمس الشامي ذلك من أمر الجاهلية التي حفظه الله
تعالى منه في صغره ويخالف ما ذكره بعضهم من أن زيد بن عمرو هذا هو رابع أربعة
من قريش فارقوا قومهم فتركوا الأوثان والميتة وما يذبح للأوثان كانوا يوماً في عيد
لصنم من أصنامهم ينحرون عنده ويعكفون عليه ويطوفون به في ذلك اليوم فقال بعضهم
لبعض تعلمون والله ما قومكم على شيء لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم فما حجر
تطوف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ثم تفرقوا في البلاد يلتمسون الحنيفة
دين إبراهيم وظاهر هذا السياق أن تركهم للأوثان كان بعد عبادتهم لها وسيأتي عن ابن
الجوزي أنهم لم يعبدوها

وهؤلاء الثلاثة الذين زيد بن عمرو رابعهم ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش ابن عمته
صلى الله عليه وسلم أميمة وعثمان بن الحويرث وزاد ابن الجوزي على هؤلاء الأربعة
جماعة آخرين سيأتي الكلام عليهم عند الكلام على أول من أسلم
وزيد بن عمرو بن نفيل هذا كان ابن أخي الخطاب والد سيدنا عمر أخاه لأمه فأما

ورقة فلم يدرك البعثة على ما سيأتي وكان ممن دخل في النصرانية أي بعد دخوله في اليهودية كما سيأتي

وأما عبيد الله بن جحش فأدرك البعثة وأسلم وهاجر إلى الحبشة مع من هاجر من المسلمين ثم تنصر هناك كما سيأتي وكان يمر على المسلمين ويقول لهم فتحنا وصأصأتم أي أبصرنا وأنتم تلتسمون البصر ولم تبصروا ومات على النصرانية

وأما عثمان بن الحويرث فلم يدرك البعثة وقدم على قيصر ملك الروم وتنصر عنده

وأما زيد بن عمرو بن نفيل هذا كان يوبخ قريشا ويقول لهم والذي نفس زيد ابن عمرو بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري حتى إن عمه الخطاب أخرج من مكة وأسكنه بحراء ووكل به من يمنعه من دخول مكة كراهة أن يفسد عليهم دينهم ثم خرج يطلب الحنيفية دين إبراهيم ويسأل الأخبار والرهبان عن ذلك حتى بلغ الموصل ثم أقبل إلى الشام فجاء إلى راهب به كان انتهى إليه علم أهل النصرانية فسأله عن ذلك فقال له إنك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ولكن قد أظل زمان نبي يخرج من بلادك التي خرجت منها يبعث بدين إبراهيم الحنيفية فالحق بها فإنه مبعوث الآن هذا زمانه فخرج سريعا يريد مكة حتى إذا توسط بلاد لحم عدوا عليه وقتلوه ودفن بمكان يقال له ميفعة وقيل دفن بأصل جبل حراء

هذا وفي كلام الواقدي عن زيد بن عمرو أنه قال لعامر بن ربيعة وأنا أنتظر نبيا من ولد إسماعيل ولا أرى أن أدركه وأنا أدين به وأصدقه وأشهد أنه نبي فإن طالت بك مدة فرأيتني فسلم مني عليه قال عامر فلما أسلمت بلغته صلى الله عليه وسلم عن زيد السلام قال فرد عليه السلام وترحم عليه وتقدم أن ولده سعيدا سألت النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لأبيه زيد فقال نعم أستغفر له الحديث

قال وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلت الجنة فوجدت لزيد بن عمرو دوحتين أي شجرتين عظيمتين قال الحافظ ابن كثير إسناده جيد قوي أي وقال إلا أنه ليس في شيء من الكتب وفي رواية رأيتني في الجنة يسحب ذيو لا وعن الزهري نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل ما يذبح للجن وعلى اسمهم وأما ما قيل عند ذبحه بسم الله واسم محمد فحلال أكله وإن كان القول المذكور حراما لإيهامه التشريك وهذا من جملة المحال المستثناة من قوله تعالى

له لا أذكر إلا وتذكر معي فقد جاء أتاني جبريل فقال إن ربي وربك يقول لك أتدري كيف رفعت ذكرك أي على كل حال أي جعلت ذكرك مرفوعا مشرفا المذكور ذلك في قوله تعالى * (ألم نشرح لك صدرك) * إلى قوله * (ورفعنا لك ذكرك) * قلت الله أعلم قال لا أذكر إلا وتذكر معي أي في غالب المواطن وجوبا أو ندبا ومن ذلك ما روى عن علي رضي الله تعالى عنه قال قيل للنبي صلى الله عليه وسلم هل عبدت وثنا قط قال لا قالوا هل شربت خمرا قط قال لا وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان انتهى

أقول تحريم شرب الخمر في الجاهلية ليس من خصائصه صلى الله عليه وسلم بل حرمتها على نفسه في الجاهلية جماعة كثيرون سيأتي ذكر بعضهم وتقدم ذكر بعض منهم وكون شرب الخمر من الكفر على ما هو ظاهر السياق بمعنى ينبغي أن يجتنب كما يجتنب الكفر ولعل صدور هذا منه صلى الله عليه وسلم كان بعدم تحريم الخمر ويكون الإتيان بذلك للمبالغة في الزجر عنها والتباعد منها لأنها أم الخبائث وقد كانت نفوس غالبهم ألفتها وهذا محمل ما جاء أتاني جبريل فقال بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا أي مصدقا بما جئت به دخل الجنة أي لا بد وأن يدخل الجنة وإن دخل النار قلت يا جبريل وإن زنى وإن سرق قال نعم قلت وإن سرق وإن زنى قال نعم قلت وإن سرق وإن زنى قال نعم وإن شرب الخمر والمراد بتحريمها تحريمها على الناس وإلا ففي الخصائص الصغرى للسيوطي وحرمت عليه الخمر من قبل ما بيعت قبل أن تحرم على الناس بعشرين سنة والله أعلم

قال وأما ما رواه جابر بن عبد الله كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهد مع المشركين مشاهدتهم فسمع ملكين خلفه واحد يقول لصاحبه أذهب بنا نقوم خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كيف نقوم خلفه وإنما عهده بإستلام الأصنام قبل لم يعد بعد ذلك يشهد مع المشركين مشاهدتهم قال الحافظ ابن حجر أنكروه الناس أي فقد قال الإمام أحمد كما في الشفاء إنه موضوع أو يشبه الموضوع وقال الدارقطني إن ابن أبي شيبه وهم في إسناده والحديث بالجملة منكر فلا يلتفت إليه والمنكر فيه قول الملك عهده بإستلام الأصنام قبل فإن ظاهره أنه باشر الاستلام وليس ذلك مرادا أبدا بل المراد أنه شاهد مباشرة المشركين استلام أصنامهم أي لشهوده بعض مشاهدتهم التي تكون عند الأصنام

وقال غيره والمراد بالمشاهد التي شهدها أي التي كان يشهدها مشاهد الحلف ونحوها كالضيافات الآتي بينها لا مشاهدة استلام الأصنام فإنه يرده ما تقدم عن أم أيمن انتهى أي من قولها إن بوانة كان صنما لقريش تعظمه وتعتكف عليه يوما إلى الليل في كل سنة إلى آخره أي ويرده أيضا ما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم لبحيرا لما حلفه باللات والعزى لا تسألني بهما فإنني والله ما أبغضت شيئا قط بغضهما لأن مثل اللات والعزى غيرهما من الأصنام في ذلك وما سيأتي من قوله صلى الله عليه وسلم لخديجة رضي الله تعالى عنها والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئا قط وما جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال لما نشأت بغضت إلى الأوثان وبغض إلى الشعر والله سبحانه وتعالى أعلم

باب رعيته صلى الله عليه وسلم الغنم

قال رعيته بكسر الراء المراد الهيئة انتهى

أقول المبين في هذا الباب إنما هو فعله صلى الله عليه وسلم الذي هو رعيه للغنم لا بيان هيئة رعيه للغنم فرعيته بفتح الراء لا بكسرها والله أعلم
عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم قال له أصحابه وأنت يا رسول الله قال وأنا رعيته لأهل مكة بالقراريط أي وهي أجزاء من الدراهم والدنانير يشتري بها الحوائج الحقيمة قال سويد ابن سعيد يعنى كل شاة بقيراط وقيل القراريط موضع بمكة
فقد قال إبراهيم الحربي قراريط موضع ولم يرد بذلك القراريط من الفضة أي والذهب قال وأيد هذا الثاني بأن العرب لم تكن تعرف القراريط التي هي قطع الذهب والفضة بدليل أنه جاء في الصحيح ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط ولأنه جاء في بعض الروايات لأهلي ولا يرعى لأهله بأجرة أي كما قضت بذلك العادة وأيضا جاء في بعض الروايات بدل بالقراريط بأجيات فدل ذلك على أن القراريط اسم محل عبر عنه تارة بالقراريط وتارة بأجيات

ورد بأن أهل مكة لا يعرفون بها محلا يقال له القراريط وحينئذ يكون أراد بأهله أهل مكة لا أقاربه الذين تقضي العادة بأنه لا يرعى لهم بالأجرة والإضافة تأتي لأدنى ملابسة ويدل لذلك ما جاء في رواية البخاري كنت أرهاها أي الغنم على قراريط لأهل

مكة وذكره البخاري كذلك في باب الإجارة وذلك يبعد أن المراد بالقراريط المحل وجعل على بمعنى الباء

ويرد القول بأن العرب لم تكن تعرف القراريط التي هي قطع الدراهم والدنانير أي ويمنع دلالة قوله صلى الله عليه وسلم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط على ذلك لجواز أن يكون المراد يذكر فيها القيراط كثيرا لكثرة التعامل به فيها أو أن المراد بالقيراط ما يذكر في المساحة

وجمع الحافظ ابن حجر بأنه رعى لأهله أي أقاربه بغير أجرة ولغيرهم بأجرة والمراد بقوله أهلي أهل مكة أي الشامل لأقاربه ولغيرهم قال فيتجه الخبران ويكون في أحد الحديثين بين الأجرة أي التي هي القراريط وفي الآخر بين المكان أي الذي هو أجياد فلا تنافي في ذلك هذا كلامه ملخصا وعبارته تقتضى وقوع الأمرين منه صلى الله عليه وسلم وهو مما يتوقف على النقل في ذلك

قال ابن الجوزي كان موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم رعاة غنم وهذا يرد قول بعضهم لم يرد ابن إسحاق برعايته صلى الله عليه وسلم الغنم إلا رعايته لها في بني سعد مع أخيه من الرضاع أي وقد يتوقف في كون قول ابن الجوزي هذا بمجرد يرد قول هذا البعض نعم يرده ما تقدم وما يأتي وفي الهدى أنه صلى الله عليه وسلم آجر نفسه قبل النبوة في رعيه الغنم

ومن حكمة الله عز وجل في ذلك أن الرجل إذا استرعى الغنم التي هي أضعف البهائم سكن قلبه الرأفة واللطف تعظفا فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هذب أولا من الحدة الطبيعية والظلم الغريزي فيكون في أعدل الأحوال ووقع الافتخار بين أصحاب الإبل وأصحاب الغنم أي عند النبي صلى الله عليه وسلم فاستطال أصحاب الإبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث موسى وهو راعي غنم وبعث داود وهو راعي غنم وبعث أنا وأنا راعي غنم أهلي بأجياد أي وهو موضع بأسفل مكة من شعابها ويقال له جياذ بغير همزة ولعل المراد بقوله راعي غنم أي وكذا قوله وأنا راعي غنم أي وقد رعى الغنم وقد رعيت الغنم إذا أخذ بظاهر الحالية بعيد ولتنظر حكمة الاقتصار على من ذكر من الأنبياء مع قوله السابق ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم وما يأتي من قوله وما من نبي إلا وقد رعاها وقد قال صلى الله عليه وسلم الغنم بركة والإبل عز لأهلها وقال في الغنم سمنها معاشنا وصوفها رياشنا ودفؤها كساؤنا وفي رواية

سمنها معاش وصوفها ريش أي وفي الحديث الفخر والخيلاء في أصحاب الإبل والسكينة والوقار في أهل الغنم ولعل هذا لا ينافي ما جاء في الأمثال قالوا أحقق وفي لفظ أجهل من راعي ضأن لما بين لأن الضأن تنفر من كل شيء فيحتاج راعيها إلى جمعها أي وذلك سبب لحمقه فليتأمل وفي رواية الفخر والخيلاء وفي لفظ والرياء من أهل الخيل والوبر قال وفيما تقدم في الباب من أمر السمر دليل على ذلك أي على رعايته للغنم أيضا وما رواه جابر رضي الله تعالى عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نجنى الكباب بكاف فباء موحدة مفتوحتين فثاء مثلثة أي وهو النضيج من ثمر الأراك وفي الحديث عليكم بالأسود من ثمر الأراك فإنه أطيبه فإني كنت أجتنيه إذ كنت أرعى الغنم قلنا وكيف ترعى الغنم يا رسول الله قال نعم وما من نبي إلا وقد رعاها

أقول وحينئذ لا ينبغي أحد غير برعاية الغنم أن يقول كان النبي صلى الله عليه وسلم يرعى الغنم فإن قال ذلك أدب لأن ذلك كما علمت كمال في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دون غيرهم فلا ينبغي الإحتجاج به ويجرى ذلك في كل ما يكون كمالا في حق النبي صلى الله عليه وسلم دون غيره كالأمية فمن قيل له أنت أمة فقال كان النبي صلى الله عليه وسلم أميا يؤدب والله أعلم باب حضوره صلى الله عليه وسلم حرب الفجار أي بكسر الفاء بمعنى المفاجرة كالقتال بمعنى المقاتلة وهو فجار البراض بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء وضاد معجمة عن ابن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حضرته يعني الحرب المذكورة مع عمومتي ورميت فيه بأسهم وما أحب أني لم أكن فعلت وكان له من العمر أربع عشرة سنة أي وهذا الفجار الرابع وأما الفجار الأول فكان عمره صلى الله عليه وسلم حينئذ عشر سنين وسببه أي هذا الفجار الأول أن بدر بن معشر الغفاري كان له مجلس يجلس فيه بسوق عكاظ ويفتخر على الناس فبسط يوما رجله وقال أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف فوثب عليه رجل فضربه بالسيف على ركبته فأندرها أي أسقطها وأزلها وقيل جرحه جرحا يسيرا قال بعضهم وهو الأصح فاقتلوا

وسبب الفجار الثاني أن امرأة من بني عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فأطاف بها شاب من قريش من بني كنانة فسألها أن تكشف وجهها فأبت فجلس خلفها وهي لا تشعر وعقد زيلها بشوكة فلما قامت انكشف دبرها فضحك الناس منها فنادت المرأة يا آل عامر فثاروا بالسلاح ونادى الشاب يا بني كنانة فاقتتلوا وقوله فسألها أن تكشف وجهها فأبت يدل على أن النساء في الجاهلية كن يأبين كشف وجوههن وسبب الفجار الثالث أنه كان لرجل من بني عامر دين على رجل من بني كنانة فلواه به أي مطله فجرت بينهما مخاصمة فاقتتل الحيان وقد ذكر أن عبد الله بن جدعان تحمل ذلك الدين في ماله وكان ذلك سببا لانقضاء الحرب وقيل لم يقاتل صلى الله عليه وسلم في فجار البراض وعليه اقتصر في الوفاء أي لم يرم فيه بأسهم بل قال كنت أنبل على أعمامي أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموه وقد يقال لا مخالفة لأنه ليس في هذه العبارة أنه لم يرم بل فيها أنه كان ينبل ويجوز أن يكون أغلب أحواله صلى الله عليه وسلم ذلك أي أنه كان ينبل أي يرد النبل فلا ينافي أنه رمى في بعض الأوقات بأسهم أي وفي كلام بعضهم كان أبو طالب يحضر أيام الفجار أي فجار البراض وكانت أربعة أيام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غلام فإذا جاء هزمت قيس ولعل المراد قيس هوازن فلا ينافي ما يأتي من الاقتصار على هوازن وإذا لم يجيء هو أي في يوم من تلك الأيام هزمت كنانة فقالوا لا أبالك لا تغب عنا ففعل ذكره في الإمتاع وذكر فيه أنه صلى الله عليه وسلم طعن أبا براء ملاعب الأسنة في تلك الحروب أي في بعض تلك الأيام وأبو براء هذا كان رئيس بني قيس وحامل رايتهم في تلك الحرب والطعن ظاهر في الرمح محتمل للنبل وظاهر كلامهم أنه لم يقاتل فيه بغير الرمي للأسهم على تقدير صحة تلك الرواية بذلك ولا يبعد أن يكون رمى لم يصب أحدا إذ لو أصاب لنقل لأنه مما توفر الدواعي على نقله إلا أن يقال بجواز أن يكون أصاب أحدا ثمرة لم تذكر فليتأمل قال وسميت الفجار لأن العرب فجرت فيه لأنه وقع في الشهر الحرام أقول ظاهره حروب الفجار الأربعة أي التي هي فجار البراض وغيرها وظاهر كلامه صلى الله عليه وسلم أنه لم يحضر إلا في الفجار الرابع الذي هو فجار البراض

ثم رأيت التصريح بذلك في الوفاء وسأذكره وسيأتي في الباب الذي يلي هذا أن حرب الفجار لم يكن في شهر حرام وسيأتي في هذا الباب ما يدل على ذلك أي أن القتال في ذلك لم يكن في الشهر الحرام وإنما سببه كان في الشهر الحرام وهو قتل البراض لعروة الرحال

فقد قيل سبب القتال أن عروة الرحال بتشديد الحاء المهملة وكان من أهل هوازن أجار لطيمة للنعمان بن المنذر ملك الحيرة واللطيمة العير التي تحمل الطيب والبز للتجارة أي فإن المنذر كان يرسل تلك اللطيمة لتباع في سوق عكاظ ويشترى له بثمن ذلك آدم من آدم الطائف ويرسل تلك اللطيمة في جوار رجل من أشرف العرب فلما جهز اللطيمة كان عنده جماعة من العرب كان فيهم البراض وهو من بني كنانة وعروة الرحال وهو من هوازن فقال البراض أنا أجيرها على بني كنانة يعني قومه فقال له النعمان ما أريد إلا من يجيرها على أهل نجد وتهامة فقال له عروة الرحال أنا أجيرها لك فقال له البراض أتجيرها على كنانة فقال نعم وعلى أهل الشيخ والقيصوم ونال من البراض فخرج عروة الرحال مسافرا وخرج البراض خلفه يطلب غفلته فلما استغفله وثب عليه فقتله أي فإنه شرب الخمر وغنته القينات فسكر ونام فجاءه البراض وأيقظه فقال له الرحال ناشدتك الله لا تقتلني فإنها كانت مني زلة وهفوة فلم يلتفت إليه وقتله وذلك في الشهر الحرام فأتى آت كنانة وهم بعكاظ مع هوازن فقال لكنانة إن البراض قد قتل عروة الرحال وهو في الشهر الحرام فانطلقوا وهوازن لا تشعر ثم بلغهم الخبر فاتبعوهم فأدر كوهم قبيل دخولهم الحرم فأمسكت عنهم هوازن ثم التقوا بعد هذا اليوم وعاونت قريش كنانة ولا يخفى أن في هذا تصريحاً بأن القتال لم يكن في الشهر الحرام لأنهم إذا كانوا في الشهر الحرام لا يقاتلون مطلقاً أي وإن لم يدخلوا الحرم فكفهم عن قتالهم لمقاربتهم دخول الحرم وقتالهم لهم في اليوم الثاني دليل على أن قتالهم لم يكن في الشهر الحرام ومكث القتال بينهم أربعة أيام أي كما تقدم

أقول قال السهيلي الصواب ستة أيام والله أعلم قال وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض تلك الأيام أخرجه أعمامه معهم أي ويدل له ما تقدم من أنه كان إذا حضر غلبت كنانة وإذا لم يحضر هزمت وفي بعض تلك الأيام وهو أشدها أي وهو اليوم الثالث قيد أمية وحرب ابنا أمية بن عبد شمس وأبو سفيان بن حرب أنفسهم كيلاً يفروا فسموا العنابس أي الأسود

أي وحرب والد أبي سفيان وأميه أخوه ماتا على الكفر وأبو سفيان أسلم كما سيأتي ثم تواعدوا للعام المقبل بعكاظ فلما كان العام المقبل جاءوا للوعد أي وكان أمر قريش وكنانة إلى عبد الله بن جدعان وقيل كان إلى حرب بن أمية والد أبي سفيان لأنه كان رئيس قريش وكنانة يومئذ وكان عتبة بن أخيه ربيعة بن عبد شمس يتيما في حجره فضن أي بخل به حرب وأشفق أي خاف من خروجه معه فخرج عتبة بغير إذنه فلم يشعر أي يعلم به إلا وهو على بعير بين الصفيين ينادي يا معشر مضر علام تفانون فقالت له هوازن ما تدعوا إليه قال الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم وتفوا عن دمائنا أي فإن قريشا وكنانة كان لهم الظفر على هوازن يقتلونهم قتلا ذريعا أي وذلك لا ينافي إنهمهم بعض الأيام قالوا وكيف قال ندفع لكم رهنا منا إلى أن نوفي لكم ذلك قالوا ومن لنا بهذا قال أنا قالوا ومن أنت قال أنا عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس فرضيت به هوازن وكنانة وقريش ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلا فيهم حكيم بن حزام وهو ابن أخي خديجة بنت خويلد زوج النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم فلما رأت هوازن الرهن في أيديهم عفوا عن الدماء وأطلقوهم وانقضت حرب الفجار وفي رواية وودت قريش قتلى هوازن ووضعت الحرب أوزارها

وقد يقال على تقدير صحة هذه الرواية دماء بدرت التزمت أن تديها فكان انقضاؤها على يد عتبة بن ربيعة وهو ممن قتل كافرا بيدر وهو أبو هند زوج أبي سفيان أم معاوية رضي الله عنها وعن زوجها وولدها المذكور

وكان يقال لم يسد مملق أي فقير إلا عتبة بن ربيعة وأبو طالب فإنهما سادا بغير مال أي وفي كلام بعضهم ساد عتبة بن ربيعة وأبو طالب وكان أفلس من أبي المزلق وهو رجل من بني عبد شمس لم يكن يجد مؤنة ليلته وكذا أبوه وجده وأبو جده وجد جده كلهم يعرفون بالإفلاس

هذا والذي في الوفاء الاقتصار على أن حرب الفجار كان مرتين المرة الأولى كانت المحاربة فيه ثلاث مرات المرة الأولى سببها قضية بدر بن معشر الغفاري والمرة الثانية كان سببها قضية المرأة والثالثة سببها قضية الدين ولم يحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المرات وأما المرة الثانية فكانت بين هوازن وكنانة وقد حضرها صلى الله عليه وسلم وقد يقال لا خلاف في المعنى

باب شهوده صلى الله عليه وسلم حلف الفضول

وهو أشرف حلف في العرب والحلف في الأصل اليمين والعهد وسمى العهد حلفاً لأنهم يحلفون عند عقده وكان عند منصرف قريش من حرب الفجار لأن حرب الفجار كان في شوال أي وقيل في شعبان لا في الشهر الحرام أي وإن كان سببه وهو قتل البراض لعروة الرحال كان في الشهر الحرام كما تقدم وكون هذا الحلف كان منصرف قريش من حرب الفجار ظاهر في أنه كان بعد انقضاء الحرب وقبل مجيء الفريقين للموعد من قابل لأن عند مجيئهم من قابل للموعد لم يقع حرب إلا أن يقال أطلق عليه حرب باعتبار أنهم كانوا عازمين على المحاربة وهذا الحلف كان في ذي القعدة وأول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب أي عم رسول الله صلى الله عليه وسلم شقيق أبيه كما تقدم فاجتمع إليه بنو هاشم وزهرة وبنو أسد بن عبد العزى وذلك في دار عبد الله ابن جدعان التيمي كان بنو تيم في حباته كأهل بيت واحد يقوتهم وكان يذبح في داره كل يوم جزورا وينادي مناديه من أراد الشحم واللحم فعليه بدا ابن جدعان وكان يطبخ عنده الفالوذج فيطعمه قريشا

أي وسبب ذلك أنه كان أولاً يطعم التمر والسويق ويسقى اللبن فاتفق أن أمية بن أبي الصلت مر على بني عبد المدان فرأى طعامهم لباب البر والشهد فقال أمية

* ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم
* فرأيت أكرمهم بني المدان
* البر يلبك بالشهاب طعامهم
* لا ما يعللنا بنو جدعان
*

فبلغ شعره عبد الله بن جدعان فأرسل إلى بصرى الشام يحمل إليه البر والشهد والسمن وجعل ينادي مناد ألا هلموا إلى جفنة عبد الله بن جدعان ومن مدح أمية بن أبي

الصلت في ابن جدعان قوله
* أذكر حاجتي أم قد كفاني
* حياؤك إن سيمتك الحياء
* إذا أثنى عليك المرء يوماً
* كفاه من تعرضك الثناء
* كريم لا يغيره صباح
* عن الخلق الجميل ولا مساء
* يباري الريح مكرمة وجودا
* إذا ما الضب أجحره الشتاء
*

وكان عبد الله بن جدعان ذا شرف وسن وإنه من جملة من حرم الخمر على نفسه في

الجاهلية أي بعد أن كان بها مغرما

(٢١١)

وسبب ذلك أنه سكر ليلة فصار يمد يده ويقبض على ضوء القمر ليمسكه فضحك منه
جلساؤه ثم أخبروه بذلك حين صحا فحلف أن لا يشربها أبدا
وممن حرمها على نفسه في الجاهلية عثمان بن مظعون رضي الله تعالى عنه وقال لا
أشرب شيئا يذهب عقلي ويضحك بي من هو أدنى مني ويحملني على أن أنكح
كريمتي من لا أريد

فصنع لهم عبد الله بن جدعان طعاما وتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن مع المظلوم حتى
يؤدي إليه حقه ما بل بحر صوفة أي الأبد

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن ابن
جدعان كان يطعم الطعام ويقرى الضيف ويفعل المعروف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة
فقال لا لأنه لم يقل يوما وفي رواية إنه لم يقال ساعة من ليل أو نهار رب اغفر لي
خطيئتي يوم الدين رواه مسلم أي لم يكن مسلما لأن القول المذكور لا يصدر إلا عن
مسلم فلا يقال مقتضى الحديث أنه لو قال ذلك لنفعه ما ذكر يوم القيامة مع كونه كان
كافرا لأن ممن أدرك البعثة ولم يؤمن وحينئذ يسأل عن الحكمة عن عدوله صلى الله
عليه وسلم إلى ذلك عن قوله أنه لم يؤمن بي أو لم يكن مسلما أي وكان يكنى أبا
زهير وقد قال صلى الله عليه وسلم في أسرى بدر لو كان أبو زهير أو مطعم بن عدي
حيا فاستوهبهم لو هبتهم له

وقد ذكر أن جفنة ابن جدعان كان يأكل منها الراكب على البعير أي وسيأتي في غزوة
بدر أنه صلى الله عليه وسلم ذكر أنه ازدحم هو وأبو جهل وهما غلامان على مائدة
لابن جدعان وأنه صلى الله عليه وسلم دفع أبا جهل لعنه الله فوق على ركبته فجرحت
جرحا أثر فيها وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال كنت أستظل بجفنة عبد الله بن
جدعان في صكة عمي أي في الهاجرة وسميت الهاجرة بذلك لأن عمي تصغير أعمى
على الترخيم رجل من العماليق أوقع بالعدو والقتل في مثل ذلك الوقت

وقيل هو رجل من عدوان كان فقيه العرب في الجاهلية فقدم في قومه معتمرا فلما كان
على مرحلتين من مكة قال لقومه وهم في نحر الظهرية من أتى مكة غدا في مثل هذا
الوقت كان له أجر عمرتين فصكوا الإبل صكة شديدة حتى أتوا مكة من الغد في وقت
الظهرية ولعل هذا لا يخالفه قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عجلنا الرواح
للمسجد صكة الأعمى فقيل ما صكة الأعمى قال إنه لا يبالي أية ساعة خرج

وكان عبد الله بن جدعان في ابتداء أمره صعلوكا وكان مع ذلك شريرا فتاكا لا يزال يحنى الجنايات فيعقل عنه أبوه وقومه حتى أبغضته عشيرته وطرده أبوه وحلف لا يأويه أبدا فخرج هائما في شعاب مكة يتمنى الموت فرأى شقا في جبل فدخل فإذا ثعبان عظيم له عينان تتقدان كالسراج فلما قرب منه حمل عليه الثعبان فلما تأخر إنساب أي رجع عنه فلا زال كذلك حتى غلب على ظنه أن هذا مصنوع فقرب منه ومسكه بيده فإذا هو من ذهب وعيناه ياقوتتان فكسره ثم دخل المحل الذي كان هذا الثعبان على بابه فوجد فيه رجالا من الملوك ووجد في ذلك المحل أموالا كثيرة من الذهب والفضة وجواهر كثيرة من الياقوت واللؤلؤ والزبرجد فأخذ منه ما أخذ ثم علم ذلك أشق بعلامة وصار ينقل منه ذلك شيئا فشيئا ووجد في ذلك الكنز لوحا من رخام فيه أنا نفيلة بن جرهم بن قحطان ابن هود نبي الله عشت خمسمائة عام وقطعت غور الأرض باطنها وظاهرها في طلب الثروة والمجد والملك فلم يكن ذلك ينجي من الموت ثم بعث عبد الله بن جدعان إلى أبيه بالمال الذي دفعه في جنائياته ووصل عشيرته كلهم فسادهم وجعل ينفق من ذلك الكنز ويطعم الناس ويفعل المعروف قال وفي رواية تحالفوا على أن يردوا الفضول على أهلها ولا يقر ظالم على مظلوم أي وحينئذ فالمراد بالفضول ما يؤخذ ظلما وقيل إن هذا أي رد الفضول مدرج من بعض الرواة زاد بعضهم على ما بل بحر صوفة وما رسا حراء وثبير مكانيهما أي والمراد الأبد كما تقدم وكان معهم في ذلك الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال صلى الله عليه وسلم ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار بني جدعان حمر النعم أي الإبل وأنى أغدر به بالغين المعجمة والبدال المهملة أي لا أحب الغدر به وإن أعطيت حمر النعم في ذلك قال وفي رواية لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم أي بفواته ولو دعى به في الإسلام لأجبت أي لو قال قائل من المظلومين يا آل حلف الفضول لأجبت لأن الإسلام إنما جاء بإقامة الحق ونصرة المظلوم وفيه أن الإسلام قد رفع ما كان من دعوى الجاهلية من قولهم يا لفلان عند الحرب والتعصب وأجيب بأن هذا مستثنى فالدعوى به جائزة وفي أخرى ما شهدت حلفا لقريش

إلا حلف المطيبين شهدته مع عمومتي وما أحب أن لي به حمر النعم وأنى كنت نقضته
أي لا أحب نقضه وإن دفع لي حمر الإبل في مقابلة نقضه
والمطيون هم هاشم وزهرة أي بنو زهرة بن كلاب وأمّية ومخزوم قال البيهقي كذا
روى هذا التفسير أي أن المطيبين هاشم وزهرة وأمّية ومخزوم مدرجا ولا أدري من
قاله

وعبارته في السنن الكبرى لا أدري هذا التفسير من قول أبي هريرة أو من دونه هذا
كلامه فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدرك حلف المطيبين أي لأنه كما تقدم وقع
بين بني عبد مناف بن قصي وهم هاشم وإخوته عبد شمس والمطلب ونوفل وبنو زهرة
وبنو أسد بن عبد العزى وبنو تميم وبنو الحرث بن فهر وهم المطيبون وبين بني عمهم
عبد الدار بن قصي وأحلافهم بني مخزوم وغيرهم ويقال لهم الأحلاف كما تقدم وذلك
قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيث لم يدرك صلى الله عليه وسلم
حلف المطيبين يصير المدرج لفظ المطيبين مع تفسيره بمن ذكر لا أن المدرج تفسيره
فقط بمن ذكر كما يقتضيه كلام البيهقي وحينئذ تكون الرواية ما شهدت حلفا لقريش
إلا حلفا مع عمومتي إلى آخره ظن الراوي أن حلف الفضول هو حلف المطيبين فذكر
لفظ المطيبين وبنينهم

وقد يقال ذكر ابن إسحاق أنه لما قام عبد الله بن جدعان هو والزبير بن عبد المطلب
في الدعوى للتحالف أجابهما بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تميم
هذا كلامه ولا يخفى أن هؤلاء أجل المطيبين أطلق على هذا الحلف والذي هو حلف
الفضول حلف المطيبين لأنهم العاقدون له فليتأمل
وسمى بالفضول قيل لما تقدم من أنهم تحالفوا على أن يردوا الفضول على أهلها وقيل
لأنه يشبه حلفا وقع لثلاثة من جرهم كل واحد يقال له الفضل
وعبارة بعضهم لأن الداعي إليه كان ثلاثة من أشرافهم اسم كل واحد منهم فضل وهم
الفضل بن فضالة والفضل بن وداعة والفضل بن الحارث والضمير في أشرافهم يتبادر
رجوعه إلى قريش وهؤلاء الثلاثة تحالفوا على نصره المظلوم على ظالمه فالفضول جمع
الفضل

وقيل لأنهم أي هؤلاء الذين تحالفوا كانوا أخرجوا فضول أموالهم للأضياف وقيل لأن
قريشا قالوا عن هؤلاء الذين تحالفوا لقد دخل هؤلاء في فضول من الأمر

والسبب في هذا الحلف والحامل عليه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل وكان من أهل الشرف والقدر بمكة فحبس عنه حقه فاستدعى عليه الزبيدي الأحلاف عبد الدار ومحزوما وجمح وسهما وعدي بن كعب فأبوا أن يعينوا على العاص وانتهروه أي الزبيدي فلما رأى الزبيدي الشر رقى على أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة فقال بأعلى صوته

* يا آل فهر لمظلوم بضاعته

* ببطن مكة نائي الدار والقفر

* ومحرم أشعث لم يقض عمرته

* يا للرجال وبين الحجر والحجر

* إن الحرام لمن تمت مكارمه

* ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

*

والحرام بمعنى الاحترام فقال في ذلك الزبير بن عبد المطلب أي مع عبد الله بن

جدعان كما تقدم واجتمع إليه من تقدم

وقيل قام فيه العباس وأبو سفيان وتعاقدوا وتعاهدوا ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على

الظالم حتى يؤدي إليه حقه شريفا أو وضيعا ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانترعوا منه

سلعة الزبيدي فدفعوها إليه

أقول ذكر السهيلي أن رجلا من خثعم قدم مكة معتمرا أو حاجا ومعه بنت له من أضوا

نساء العالمين فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج فقبل له عليك بحلف الفضول فوقف عند

الكعبة ونادى يا لحلف الفضول فإذا هم يعنقون إليه من كل جانب وقد انتضوا أسياهم

أي جردوها يقولون جاءك الغوث فما لك فقال إن نبيها ظلمني في بنتي فانترعها مني

قسرا فساروا إليه حتى وقفوا على باب داره فخرج إليهم فقالوا له أخرج الجارية ويحك

فقد علمت من نحن وما تعاهدنا عليه فقال أفعل ولكن متعوني بها الليلة فقالوا لا والله

ولا شخب لقحة أي مقدار زمن ذلك فأخرجها إليهم

وفي سيرة الحافظ الدمياطي أنه كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى

عنهما وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان منازعة في مال متعلق بالحسين فقال الحسين

للوليد احلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله

صلى الله عليه وسلم ثم لأدعون لحلف الفضول أي لحلف كحلف الفضول وهو نصره

المظلوم على ظالمه ووافقته على ذلك جماعة منهم عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما

لأنه كان إذ ذاك في المدينة فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى

رضي والله أعلم

(۲۱۵)

باب سفره صلى الله عليه وسلم إلى الشام ثانياً
وذلك مع ميسرة غلام خديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها لما بلغ رسول الله
صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة أي على الراجح من أقوال ستة وعليه جمهور
العلماء وتلك أقوال ضعيفة لم تقم لها حجة على ساق وليس له صلى الله عليه وسلم
اسم بمكة إلا الأمين لما تكامل فيه من خصال الخير كما تقدم
وسبب ذلك أن عمه صلى الله عليه وسلم أبا طالب قال له يا ابن أخي أنا رجل لا مال
لي وقد اشتد الزمان أي القحط وألحت علينا أي أقبلت ودامت سنون منكرة أي شديدة
الجدب وليس لنا مادة أي ما يمدنا وما يقومنا ولا تجارة وهذه غير قومك وتقدم أنها
الإبل التي تحمل الميرة وفي رواية عيرات جمع عير قد حضر خروجها إلى الشام
وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك في عيراتها فيتجرون لها في مالها
ويصيبون منافع فلو جئتها فوضعت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك لما
يبلغها عنك من طهارتك وإن كنت لأكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من يهود ولكن
لا تجد لك من ذلك بدا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلعلها ترسل إلي في
ذلك فقال أبو طالب إنني أخاف أن تولى غيرك فتطلب أمرا مدبرا فافترقا فبلغ خديجة
رضي الله تعالى عنها ما كان من محاورة عمه أبي طالب له فقالت ما عملت أنه يريد
هذا ثم أرسلت إليه صلى الله عليه وسلم فقالت إنني دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من
صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من
قومك ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقي عمه أبا طالب فذكر له ذلك فقال إن
هذا لرزق ساقه الله إليك فخرج صلى الله عليه وسلم مع غلامها ميسرة أي يريد الشام
وقالت خديجة لميسرة لا تعص له أمرا ولا تخالف له رأيا وجعل عمومته يوصون به
أهل العير أي ومن حين سيره صلى الله عليه وسلم أظللته الغمامة
فلما قدم صلى الله عليه وسلم الشام نزل في سوق بصرى في ظل شجرة قريبة من
صومعة راهب يقال له نسطورا أي بالقصر فاطلع الراهب إلى ميسرة وكان

يعرفه فقال يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت الشجرة فقال ميسرة رجل من قريش من أهل الحرم فقال له الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي أي صانها الله تعالى عن أن ينزل تحتها غير نبي ثم قال له أفي عينيه حمرة قال ميسرة نعم لا تفارقه فقال الراهب هو هو وهو آخر الأنبياء ويا ليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج أي يبعث فوعى ذلك ميسرة أي والحمرة كانت في بياض عينيه وهي الشكلة ومن ثم قيل في وصفه صلى الله عليه وسلم أشكل العينين فهذه الشكلة من علامات نبوته صلى الله عليه وسلم في الكتب القديمة أي وقد تقدم ذلك

قال وفي الشرف للنيسابوري فلما رأى الراهب الغمامة تظللته صلى الله عليه وسلم فزع وقال ما أنتم عليه أي شيء أنتم عليه قال ميسرة غلام خديجة رضي الله تعالى عنها فدنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم سرا من ميسرة وقبل رأسه وقدمه وقال آمنت بك وأنا أشهد أنك الذي ذكره الله في التوراة ثم قال يا محمد قد عرفت فيك العلامات كلها أي العلامات الدالة على نبوتك المذكورة في الكتب القديمة خلا خصلة واحدة فأوضح لي عن كتفك فأوضح له فإذا هو بخاتم النبوة يتلأأ فأقبل عليه يقبله ويقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله النبي الأمي الذي بشر بك عيسى بن مريم فإنه قال لا ينزل بعدي تحت هذه الشجرة إلا النبي الأمي الهاشمي العربي المكي صاحب الحوض والشفاعة وصاحب لواء الحمد انتهى

أقول قال في النور ولم أجد أحدا عد هذا الراهب الذي هو نسطورا في الصحابة رضي الله تعالى عنهم كما عد بعضهم فيها بحيرا الراهب وينبغي أن يكون هذا مثله هذا كلامه

وقد قدمنا أنه سيأتي أن بحيرا ونسطورا ونحوهما ممن صدق بأنه صلى الله عليه وسلم نبي هذه الأمة من أهل الفترة لا من أهل الإسلام فضلا عن كونه صحابيا لأن المسلم من أقر برسالته صلى الله عليه وسلم بعد وجودها إلى آخر ما يأتي ومن ثم ذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة أن بحيرا ممن ذكر في كتب الصحابة غلطا قال لأن تعريف الصحابي لا ينطبق عليه وهو مسلم لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنا به ومات على ذلك قال فقولي مسلم يخرج من لقيه مؤمنا به قبل أن يبعث كهذا الرجل يعني بحيرا هذا كلامه ومراده ما ذكرنا ولعل نسطورا هذا هو الذي تنسب إليه النسطورية من النصارى فإن النصارى افتقرت ثلاث فرق نسطورية

قالوا عيسى ابن الله ويعقوبية قالوا عيسى هو الله عز وجل هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء وملكانية قالوا عيسى عبد الله ونبيه زاد بعضهم فرقة رابعة وهم إسرائيلية قالوا هو إله وأمه إله والله إله

هذا وفي القاموس النسطورية بالضم ويفتح أمة من النصارى تخالف بقيتهم وهم أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في أيام المأمون وتصرف في الإنجيل برأيه وقال إن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة وهو بالرومية نسطورس كما افتقرت اليهود ثلاث فرق فإنها افتقرت إلى قرائية وربانية وسامرية

ولا يخفى أن بقاء تلك الشجرة هذا الزمن الطويل قبل عيسى وبعده إلى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم على خلاف العادة وصرف غير الأنبياء عن النزول تحت تلك الشجرة وكذا صرف الأنبياء الذين وجدوا بعد عيسى على ما تقدم عن النزول تحت تلك الشجرة بعد عيسى الذي دلت عليه الرواية الأولى والرواية الثانية ممكن وإن كانت الشجرة لا تبقى في العادة هذا الزمن الطويل ويعد في العادة أن تكون شجرة تخلو عن أن ينزل تحتها أحد غير الأنبياء لأن هذا الأمر مع كونه خارقا للعادة والأنبياء لهم حرق العوائد سيما نبينا صلى الله عليه وسلم

وبهذا يرد قول السهيلي يريد ما نزل تحت هذه الشجرة الساعة إلا نبي ولم يرد ما نزل تحتها قط إلا نبي لبعده العهد بالأنبياء عليهم السلام قبل ذلك وإن كان في لفظ الخبر قط أي كما تقدم فقد تكلم بها على جهة التأكيد للنفي والشجرة لا تعمر في العادة هذا العمر الطويل حتى يدرى أنه لم ينزل تحتها إلا عيسى أو غيره من الأنبياء ويعد في العادة أيضا أن تكون شجرة تخلو من أن ينزل تحتها أحد حتى يجيء نبي هذا كلامه وقد يقال يجوز أن تكون تلك الشجرة كانت شجرة زيتون فقد ذكر أن شجرة الزيتون تعمر ثلاثة آلاف سنة على أن في بعض الروايات ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة يابسة نحر عودها فلما اطمأن تحتها اخضرت ونورت واعشوشب ما حولها وأينع ثمرها وتدللت أغصانها ترفرف على رسول الله

قال بعضهم المختار عند جمهور المحققين من أهل السنة ان كل ما جاز وقوعه للأنبياء عليهم الصلاة والسلام من المعجزات جاز للأولياء مثله من الكرامات بشرط عدم التحدي لأن المعجزة يعتبر فيها التحدي وأن تكون بعد النبوة وما قبل النبوة كما هنا يقال له إرهاب

وحينئذ لا يستبعد ما ذكر عن الشيخ رسلان رحمه الله أنه كان إذا استند إلى شجرة يابسة قد ماتت تورق ويخرج ثمرها في الحال على أنه سيأتي في الكلام على غزاة الخندق أن كرامات الأولياء معجزات لأنبيائهم

ولما رأى الراهب ما ذكر لم يتمالك الراهب أن انحدر من صومعته وقال له باللات والعزى ما اسمك فقال له إليك عني ثكلك أمك ومع ذلك الراهب رق مكتوب فجعل ينظر في ذلك الرق ثم قال هو هو ومنزل التوراة فظن بعض القوم أن الراهب يريد بالنبي صلى الله عليه وسلم مكرًا فانتضى سيفه وصاح يا آل غالب يا آل غالب فأقبل الناس يهرعون إليه من كل ناحية يقولون ما الذي راعك فلما نظر الراهب إلى ذلك أقبل يسعى إلى صومعته فدخلها وأغلق عليه بابها ثم أشرف عليهم فقال يا قوم ما الذي راعكم مني فوالذي رفع السماوات بغير عمد إني لأجد في هذه الصحيفة أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم يبعثه الله بالسيف المسلول وبالريح الأكبر وهو خاتم النبيين فمن أطاعه نجا ومن عصاه غوى ثم حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى قال ولم أقف على تعيين ما باعه وما اشتراه انتهى

وكان بينه صلى الله عليه وسلم وبين رجل إختلاف في سلعة فقال الرجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم احلف باللات والعزى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما حلفت بهما قط فقال الرجل القول قولك ثم قال الرجل لميسرة وقد خلا به يا ميسرة هذا نبي والذي نفسي بيده إنه لهو الذي تجده أحبارنا منعوتا أي في الكتب فوعى ميسرة ذلك أي وقبل أن يصلوا إلى بصرى عبي بعيان لخديجة وتخلف معهما ميسرة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول الركب فخاف ميسرة على نفسه وعلى البعيرين فانطلق يسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البعيرين فوضع يده على أخفافهما وعودهما فانطلقا في أول الركب ولهما رغاء

قال وفي الشرف أنهما باعوا متاعهم وربحوا ربحا ما ربحوا مثله قط قال ميسرة يا محمد اتجرنا لخديجة أربعين سنة ما ربحنا ربحا قط أكثر من هذا الربح على وجهك انتهى

وأقول لا يخفى ما في قول ميسرة اتجرنا لخديجة أربعين سنة ولعلها مصحفة عن سفرة أو هو على المبالغة والله أعلم

ثم انصرف أهل العير جميعا راجعين مكة وكان ميسرة يرى ملكين يظللانه صلى الله عليه وسلم من الشمس وهو على بعيره إذا كانت الهاجرة واشتد الحر وهذا هو المعنى بقول الخصائص الصغرى وخص صلى الله عليه وسلم بإظلال الملائكة له في سفره ويحتمل أن المراد في كل سفر سافره لكن لم أقف على إظلال الملائكة له صلى الله عليه وسلم في غير هذا السفر وقد ألقى الله تعالى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قلب ميسرة فكان كأنه عبده فلما كانوا بمر الظهران أي وهو واد بين مكة وعسفان وهو الذي تسميه العامة بطن مرو وهو المعروف الآن بوادي فاطمة قال ميسرة للنبي صلى الله عليه وسلم هل لك أن تسبقني إلى خديجة فتخبرها بالذي جرى لعلها تزيدك بكرة إلى بكرتيك أي وفي رواية تخبرها بما صنع الله تعالى لها على وجهك فركب النبي صلى الله عليه وسلم وتقدم حتى دخل مكة في ساعة الظهيرة وخديجة في عليا أي في غرفة مع النساء فرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل وهو راكب على بعيره وملكان يظللان عليه فأرته نساءها معجبين فعجبين لذلك ودخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتخبرها بما ربحوا وهو ضعف ما كانت تربح فسرت بذلك وقالت أين ميسرة قال خلفته في البادية قالت عجل إليه ليعجل بالإقبال وإنما أرادت أن تعلم أهو الذي رأت أم غيره فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصعدت خديجة تنظر فرأته على الحالة الأولى فاستيقنت أنه هو فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت فقال لها ميسرة قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام وإلى ذلك أشار الإمام السكي رحمه الله في تائيته بقوله

* وميسرة قد عاين الملكين إذ

* أظلاك لما سرت ثاني سفرة

*

وأخبرها ميسرة بقول الراهب نسطورا وقول الآخر الذي حالفه أي استحلفه في البيع أي وقصة البعيرين وحينئذ أعطت خديجة له صلى الله عليه وسلم ضعف ما سمته له أي وما سمته له ضعف ما كانت تعطيه لرجل من قومه كما تقدم وقول ميسرة له صلى الله عليه وسلم فيما تقدم لعلها تزيدك بكرة إلى بكرتيك يدل على أنها سمت له بكرتين وكانت تسمى لغيره بكرة وفي كلام بعضهم وفي الروض الباسم استأجرته على أربع بكرات

وفي الجامع الصغير ما نصه آجرت نفسي من خديجة سفرتين بقلوصين ثم رأيت في الإمتاع ما يوافق ذلك ونصه وأجر صلى الله عليه وسلم نفسه من خديجة سفرتين بقلوصين وفي السفر الأول أرسلته مع عبدها ميسرة إلى سوق حباشة أي وهو مكان بأرض اليمن بينه وبين مكة ست ليال كانوا يتاعون فيه ثلاثة أيام من أول رجب في كل عام فابتاعا منه بزا ورجعا إلى مكة فربحا ربحا حسنا وفي السفر الثانية أرسلته مع عبدها ميسرة إلى الشام

وفيه أن سفره مع ميسرة إلى الشام سفرة ثلاثة فغن مستدرك الحاكم وصححه وأقره الذهبي عن جابر أن خديجة استأجرت صلى الله عليه وسلم سفرتين إلى جرش بضم الجيم وفتح الراء موضع باليمن كل سفرة بقلوص وهي الشابة من الإبل وهو يفيد أنه صلى الله عليه وسلم سافر لها ثلاث سفرات كما تقدم ولعل سوق حباشة هو جرش وإلا لزم أن يكون صلى الله عليه وسلم سافر لها خمس سفرات أربعة إلى اليمن وواحدة إلى الشام وما تقدم عن الروض الباسم من أنها استأجرت في سفرة إلى الشام بأربع بكرات لا يناسب ما تقدم عن ميسرة

وقد جاء في بعض الروايات أن أبا طالب جاء لخديجة وقال لها هل لك أن تستأجري محمدا فقد بلغنا أنك استأجرت فلانا بيكرتين وليس نرضى لمحمد دون أربع بكرات فقالت خديجة لو سألت لبعيد بغيض فكيف وقد سألت لحبيب قريب ثم لا يخفى أن كون سفره صلى الله عليه وسلم مع ميسرة بسوق حباشة قبل سفره معه إلى الشام مخالف لظاهر ما تقدم من قول عمه أبي طالب وهذه غير قومك قد حضر خروجها إلى الشام فلو جئتها فوضعت نفسك عليها وقول خديجة ما علمت أنه يريد هذا وإنما قلنا ظاهر لأنه يجوز أن يكون بعد قول أبي طالب وقولها المذكور أرسلته صلى الله عليه وسلم مع ميسرة إلى سوق حباشة لقرب مسافته وقصر زمنه ثم أرسلته مع ميسرة إلى الشام أو كانت خديجة لا تجوز أن أبا طالب يرضى بسفره إلى الشام وأنه صلى الله عليه وسلم يوافق على ذلك فليتأمل

وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم من حين سيره أي من مكة صارت الغمامة تظله فإن كانت غير الملكين فالغمامة كانت تظله في الذهاب والملكين يظلانه في العود ولعل عدم ذكره ميسرة لخديجة

تظليل الغمامة له صلى الله عليه وسلم في ذهابه أنه لم يفظن لها مثلا ولكن سيأتي في كلام صاحب الهمزية ما يدل على أن الملكين هما الغمامة وفيه وقوع رؤية البشر غير نبينا صلى الله عليه وسلم للملائكة غير جبريل وسيأتي رؤية جمع من الصحابة لجبريل وفي المنقذ من الضلال للغزالي أن الصوفية يشاهدون الملائكة في يقظتهم أي لحصول طهارة نفوسهم وتزكية قلوبهم وقطعهم العلائق وحسمهم مواد أسباب الدنيا من الجاه والمال وإقبالهم على الله تعالى بالكلية علما دائما وعملا مستمرا والله أعلم قال ولم أقف على اسم الرجل الذي حالفه أي استخلفه وقال الحافظ ابن حجر لم أقف على رواية صحيحة صريحة فيه بأنه أي ميسرة بقي إلى البعثة انتهى

ثم إن خديجة ذكرت ما رأته من الآيات وما حدثها به غلامها ميسرة لابن عمها ورقة ابن نوفل وكان نصرانيا أي بعد أن كان يهوديا على ما يأتي قد تبع الكتب فقال لها إن كان هذا حقا يا خديجة إن محمدا نبي هذا الأمة وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي منتظر هذا زمانه أي وكان صلى الله عليه وسلم يتجر قبل النبوة قبل أن يتجر لخديجة وكان شريكا للسائب بن أبي السائب صيفي ولما قدم عليه السائب يوم فتح مكة قال له مرحبا بأخي وشريكي كان لا يداري أي لا يراني ولا يماري أي يخاصم صاحبه وهذا يدل على أن قوله كان لا يداري الخ من مقولة صلى الله عليه وسلم

وقد قال فقهاؤنا والأصل في الشركة خبر السائب بن يزيد أنه كان شريكا للنبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وافتخر بشركته بعد المبعث أي قال كان صلى الله عليه وسلم نعم الشريك لا يداري ولا يماري ولا يشاري والمشاركة المشاحة في الأمر واللجاج فيه وهو يدل على أن ذلك كان من مقول السائب ولا مانع أن يكون كل من النبي صلى الله عليه وسلم والسائب قال في حق الآخر كان لا يداري ولا يماري وبهذا يندفع قول بعضهم اختلفت الروايات في هذا الكلام الذي هو كان خير شريك كان لا يشاري ولا يماري فمنهم من يجعله من قول النبي صلى الله عليه وسلم في السائب ومنهم من يجعله من قول السائب في حق النبي صلى الله عليه وسلم

ويمكن أن لا يكون مخالفة بين السائب بن أبي السائب صيفي وبين السائب بن يزيد لأنه يجوز أن يكون صيفي لقباً لوالده ولإسمه يزيد وفي الإستيعاب وقع اضطراب هل الشريك كان أباً السائب أو ولده السائب بن أبي السائب أو ولد السائب وهو قيس بن السائب بن أبي السائب لا أخ السائب وهو عبد الله بن أبي السائب قال وهذا اضطراب لا يثبت به شيء ولا تقوم به حجة والسائب بن أبي السائب من المؤلفة أعطاه صلى الله عليه وسلم يوم الجعرانة من غنائم حنين وبه يرد قول بعضهم إن السائب بن أبي السائب قتل يوم بدر كافراً ومما يدل على أن الشركة كانت لقيس بن السائب قوله كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية شريكاً فكان خير شريك كان لا يشاريني ولا يماريني ووجه الدلالة أنه صلى الله عليه وسلم سمع قوله كان شريكاً وأقره عليه وذكر في الإمتاع أن حكيم بن حزام اشترى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بزاً من بوق تهامة بسقو حباشة وقدم به مكة فكان ذلك سبباً لإرسال خديجة له صلى الله عليه وسلم مع عبدها ميسرة إلى سوق حباشة ليشتريها لها بزاً وفي سفر السعادة أنه صلى الله عليه وسلم وقع منه أنه باع واشترى إلا أنه بعد الوحي وقبل الهجرة كان شراؤه أكثر من البيع وبعد الهجرة لم يبيع إلا ثلاث مرات وأما شراؤه فكثير وأجر واستأجر والإستئجار أغلب ووكل وتوكل وكان توكله أكثر باب تزوجه صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ابن أسد بن عبد العزى بن قصي فهي تجتمع معه صلى الله عليه وسلم في قصي قال الحافظ ابن حجر وهي من أقرب نسائه صلى الله عليه وسلم إليه في النسب ولم يتزوج من ذرية قصي غيرها إلا أم حبيبة هذا كلامه وعن نفيسة بنت منية رضي الله تعالى عنها أي وهي أخت يعلى بن منية ففي الإمتاع منية أخت يعلى بن منية وعليه يكون ضمير وهي راجع لمنية لا لنفيسة قالت كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة أي ضابطة جلدة أي قوية شريفة أي مع ما أراد الله تعالى لها من الكرامة والخير وهي يومئذ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهم

شرفا وأكثرهم مالا أي وأحسنهم جمالا وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة وفي لفظ كان يقال لها سيدة قريش لأن الوسط في ذكر النسب من أوصاف المدح والتفضيل يقال فلان أوسط القبيلة أعرفها في نسبها وكل قومها كان حريصا على نكاحها لو قدر على ذلك قد طلبوها وذكروا لها الأموال فلم تقبل فأرسلتني دسيسا أي خفية إلى محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع في غيرها من الشام فقلت يا محمد ما يمنعك أن تتزوج فقال ما بيدي ما أتزوج به قلت فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاية ألا تجيب قال فمن هي قلت خديجة قال وكيف لي بذلك بكسر الكاف لأنه خطاب لنفيسة قلت بلى وأنا أفعل فذهبت فأخبرتها فأرسلت إليه أن أئت لساعة كذا وكذا فأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فحضر ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمومته فزوجه أحدهم أي وهو أبو طالب على ما يأتي وقال في خطبته وابن أخي له في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك فقال عمرو بن أسد هذا الفحل لا يقدر أنفه أي بالقاف والبدال المهملة أي لا يضرب أنفه لكونه كريما لأن غير الكريم إذا أراد ركوب الناقة الكريمة يضرب أنفه ليرتدع بخلاف الكريم وكون المزوج لها عمها عمرو بن أسد قال بعضهم هو المجمع عليه وقيل المزوج لها أخوها عمرو بن خويلد

وعن الزهري أن المزوج لها أبوها خويلد بن أسد وكان سكران من الخمر فألقت عليه خديجة حلة وهي ثوب فوق ثوب لأن الأعلى يحل فوق الأسفل وضمخته بخلوق أي لطخته بطيب مخلوط بزعفران فلما صحا من سكره قال ما هذه الحلة والطيب فقبل له لأنك أنكحت محمدا خديجة وقد ابنتي بها فأنكر ذلك ثم رضيه وأمضاه أي لأن خديجة استشعرت من أبيها أنه يرغب عن أن يزوجه لها فصنعت له طعاما وشرابا ودعت أباها ونفرا من قريش فطعموا وشربوا فلما سكر أبوها قالت له إن محمد بن عبد الله يخطبني فزوجني إياه فزوجها فخلقتة وألبسته لأن ذلك أي إلباس الحلة وجعل الخلوق به كان عادتهم أن الأب يفعل به ذلك إذا زوج بنته فلما صحا من سكره قال ما هذا قالت له خديجة زوجتني من محمد بن عبد الله قال أنا أزوج يتيم أبي طالب لا لعمرى فقالت له خديجة ألا تستحي تريد أن تسفه نفسك عند قريش تخبرهم أنك كنت سكران فلم تزل به حتى رضى أي وهذا مما

يدل على أن شرب الخمر كان عندهم مما يتنزه عنه ويدل له أن جماعة حرموها على أنفسهم في الجاهلية منهم من تقدم ومنهم من يأتي وفي رواية أنها عرضت نفسها عليه فقالت يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك فذكر ذلك صلى الله عليه وسلم لأعمامه فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فزوجها أقول قال في النور ولعل الثلاثة أي أباهم وأخاهم وعمها حضروا ذلك فنسب الفعل إلى كل واحد منهم هذا كلامه

وفي كون المزوج لها أبوها خويلد أو كونه حضر تزويجها نظر ظاهر لأن المحفوظ عن أهل العلم أن خويلد بن أسد مات قبل حرب الفجار المتقدم ذكرها قال بعضهم وهو الذي نازع تبعاً أي حين أراد أخذ الحجر الأسود إلى اليمن فقام في ذلك خويلد وقام معه جماعة من قريش ثم رأى تبع في منامه ما رده عن ذلك فترك الحجر الأسود مكانه

وعلى كون المزوج له عمه حمزة اقتصر ابن هشام في سيرته وذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدقها عشرين بكرة

وعبارة المحب الطبري فلما ذكر ذلك لأعمامه خرج معه منهم حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه ففعل وحضره أبو طالب ورؤساء مضر فخطب أبو طالب فقال الحمد لله القصة والله أعلم

قال وعن ابن إسحاق أنها قالت له يا محمد ألا تتزوج قال ومن قالت أنا قال ومن لي بك أنت أيم قريش وأنا يتيم قريش قالت اخطبني الحديث أي وفيه إطلاق اليتيم على البالغ وذلك بحسب ما كان والمراد به المحتاج وإلا فالعرف أي الشرعي واللغوي خصه بغير البالغ ممن مات أبوه الحقيقي

وعن بعضهم قال مررت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على أخت خديجة فنادتني فانصرفت إليها ووقفت لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت أما لصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة فأخبرته فقال بلى لعمرى فذكرت ذلك لها فقالت أغدوا علينا إذا أصبحنا فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا خديجة حلة الحديث

وفي الإمتاع بعد أن ذكر أن السفير بينهما نفيسة بنت منية ذكر أنه قيل كان السفير بينهما غلامها وقيل مولاة مولده وقد يقال لا منافاة لجواز أن يكون كل ممن ذكر كان سفيرا

وفي الشرف أن خديجة رضي الله تعالى عنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم أذهب إلى عمك فقل له تعجل إلينا بالغداة فلما جاءها معه رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت له يا أبا طالب تدخل على عمي فكلمه يزوجني من ابن أخيك محمد بن عبد الله فقال أبو طالب يا خديجة لا تستهزئي فقالت هذا صنع الله فقام فذهب وجاء مع عشرة من قومه إلى عمها الحديث أي وفي رواية ومعه بنو هاشم ورؤساء مضر ولا مخالفة لجواز أن يكون المراد ببني هاشم أولئك العشرة وأنهم كانوا هم المراد برؤساء مضر في ذلك الوقت

وذكر أبو الحسين بن فارس وغيره أن أبا طالب خطب يومئذ فقال الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئىء معد أي معدنه وعنصر مضر أي أصله وجعلنا حضنة بيته أي المتكفلين بشأنه وسواس حرمه أي القائمين بخدمته وجعله لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وجعلنا حكام الناس ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا وإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مسترجعة وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتي عشرة أوقية ونشا أي وهو عشرون درهما والأوقية أربعون درهما أي وكانت الأوقية والنش من ذهب كما قال المحب الطبري أي فيكون جملة الصداق خمسمائة درهم شرعي وقيل أصدقها عشرين بكرة أي كما تقدم أقول لا منافاة لجواز أن تكون البكرات عوضا عن الصداق المذكور وقال بعضهم يجوز أن يكون أبو طالب أصدقها ما ذكر وزاد صلى الله عليه وسلم من عنده تلك البكرات في صداقها فكان الكل صداقا والله أعلم

قال وما قيل إن عليا رضي الله تعالى عنه ضمن المهر فهو غلط لأن عليا لم يكن ولد علي جميع الأقوال في مقدار عمره وبه يرد قول بعضهم وكون علي ضمن المهر غلط لأن عليا كان صغيرا لم يبلغ سبع سنين أي لأنه ولد في الكعبة وعمره

صلى الله عليه وسلم ثلاثون سنة فأكثر وسنه حين تزوج خديجة كان خمسا وعشرين سنة على ما تقدم أو زيادة بشهرين وعشرة أيام وقيل خمسة عشرة يوما على ما يأتي وقيل الذي ولد في الكعبة حكيم بن حزام

قال بعضهم لا مانع من ولادة كليهما في الكعبة لكن في النور حكيم بن حزام ولد في جوف الكعبة ولا يعرف ذلك لغيره وأما ما روى أن عليا ولد فيها فضعيف عند العلماء قال النووي وعند ذلك قال عمها عمرو بن أسد هو الفحل لا يقدر أنفه وأنكحها منه وقيل قائل ذلك ورقة بن نوفل اي فإنه بعد أن خطب أبو طالب بما تقدم خطب ورقة فقال الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عدت فنحن سادة العرب وقادتها وأنتم أهل ذلك كله لا ينكر العرب فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ورغبتنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم فاشهدوا على معاشر قريش إني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله وذكر المهر فقال أبو طالب قد أحببت أن يشركك عمها فقال عمها اشهدوا على معاشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد وأولم عليها صلى الله عليه وسلم نحر جزورا وقيل جزورين وأطعم الناس وأمرت خديجة جواريتها أن يرقصن ويضربن الدفوف وفرح أبو طالب فرحا شديدا وقال الحمد لله الذي أذهب عنا الكرب ودفع عنا الغموم وهي أول وليمة أولمها رسول الله صلى الله عليه وسلم

أقول ولا ينافي هذا ما تقدم من قوله فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا خديجة حلة لجواز أن يكون ذلك كان عند العقد وهذا عند إرادة الدخول ولا ينافي ذلك ما تقدم من قوله وقد ابنتى بها لأن تلك الرواية غير صحيحة ولا ينافي كون المزوج له عمه أبو طالب ما تقدم أن المزوج له عمه حمزة لجواز أن يكون حضر مع أبي طالب فنسب التزويج إليه أيضا والله أعلم

والسبب في ذلك أي في عرض خديجة رضي الله تعالى عنها نفسها عليه صلى الله عليه وسلم أيضا مع ما أراد الله تعالى بها من الخير ما ذكره ابن إسحاق قال كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه في المسجد فاجتمعن يوما فيه فجاءهن يهودي وقال أيا معشر نساء قريش إنه يوشك فيكن نبي قرب وجوده فأيتكن استطاعت أن تكون

فراشا له فلتفعل فحصبته النساء أي رمينه بالحصباء وقبحنه وأغلظن له وأغضت خديجة على قوله ووقع ذلك في نفسها فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات وما رآته هي أي وما قاله لها ورقة لما حدثته بما حدثها به ميسرة مما تقدم قالت إن كان ما قاله اليهودي حقا ما ذاك إلا هذا

وذكر الفاكهي عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أبي طالب فاستأذن أبا طالب في أن يتوجه إلى خديجة أي ولعله بعد أن طلبت منه صلى الله عليه وسلم الحضور إليها وذلك قبل أن يتزوجها فأذن له وبعث بعده جارية له نبعة فقال انظري ما تقول له خديجة فخرجت خلفه فلما جاء صلى الله عليه وسلم إلى خديجة أخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرها ثم قالت بأبي أنت وأمي والله ما أفعل هذا الشيء ولكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي سيبعث فإن تكن هو فاعرف حقي ومنزلي وادع الإله الذي سيبعثك لي فقال لها والله لئن كنت أنا هو لقد اصطنعت عندي ما لا أضيعه أبدا وإن يكن غيري فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبدا فرجعت نبعة وأخبرت أبا طالب بذلك وكان تزويجه صلى الله عليه وسلم بخديجة رضي الله تعالى عنها بعد مجيئه من الشام بشهرين أو خمسة عشر يوما وعمره إذا ذاك خمس وعشرون سنة على ما هو الصحيح الذي عليه الجمهور كما تقدم زاد بعضهم على الخمسة والعشرين سنة شهرين وعشرة أيام وقد أشار إلى ما تقدم صاحب الهمزية بقوله

* ورأته خديجة والتقى والزهى

* د فيه سجية والحياء

* وأتاها أن الغمامة والسر

* ح أظلتها منهما أفياء

* وأحاديث أن وعد رسول الله

* بالبعث حان منه الوفاء

* فدعته إلى الزواج وما أح

* سن ما يبلغ المنى الأذكيا

*

أي وعلمته خديجة رضي الله تعالى عنها ذات الشرف الطاهر والمال الوافر الظاهر والحسب الفاخر والحال أن التقى والزهد والحياء فيه صلى الله عليه وسلم سجية وطبيعة وأتاها الخبر بأن الغمامة والشجر أظلتها أفياء أي أظلال حالة كون تلك الأفياء من الغمامة والشجر

وفيه أن هذا يدل على أن الملكين هما الغمامة

قال بعضهم وتظليل الغمامة له صلى الله عليه وسلم كان قبل النبوة تأسيسا لها

وانقطع ذلك بعد النبوة وأتى خديجة الأحاديث والأخبار من بعض الأخبار بأن وعد الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بالبعث والإرسال إلى الخلق قرب الوفاء به منه تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فبسبب ذلك خطبته إلى أن يتزوج بها وعرضت نفسها عليه وما أحسن بلوغ الأذكىاء ما يتمنونه وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي يومئذ بنت أربعين سنة قال وقيل خمس وأربعين سنة وقيل ثلاثين وقيل ثمان وعشرين أي وقيل خمس وثلاثين وقيل خمس وعشرين

وتزوجت قبله صلى الله عليه وسلم برجلين أولهما عتيق بن عابد أي بالموحدة والمهملة وقيل بالمشاة تحت والمعجمة فولدت له بنتا اسمها هند وهي أم محمد بن صيفي المخزومي وثانيهما أبو هالة واسمه هند فولدت له ولدا اسمه هالة وولدا اسمه هند أيضا فهو هند بن هند أي وكان يقول أنا أكرم الناس أبا وأما وأخا وأختا أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه زوج أمه وأمي خديجة وأخي القاسم وأختي فاطمة قتل هند هذا مع علي يوم الجمل رضي الله تعالى عنه وفي كلام السهيلي أنه مات بالطاعون بالبصرة وكان قد مات في ذلك اليوم نحو من سبعين ألفا فشغل الناس بجنازتهم عن جنازته فلم يوجد من يحملها فصاحت نادبته واهنداه بن هنداه واريب رسول الله فلم تبق جنازة إلا تركت واحتملت جنازته على أطراف الأصابع إعظاما لريب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا هذا وفي المواهب أنها كانت تحت أبي هالة أولا ثم كانت تحت عتيق ثانيا وستأتي بقية ترجمتها رضي الله عنها في أزواجه صلى الله عليه وسلم

باب بنيان قريش الكعبة شرفها الله تعالى لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وثلاثين سنة علي ما هو الصحيح جاء سيل حتى أتى من فوق الردم الذي صنعوه لمنعه السيل فأخبره أي ودخلها وصدع جدرانها بعد توهينها من الحريق الذي أصابها وذلك أن امرأة بخرتها فطارت شرارة في ثياب الكعبة فاحترقت جدرانها فخافوا

أن تفسدها السيول أي تذهبها بالمرّة وقيل تبخير المرأة كان لها في زمن عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما ولا مانع من التعدد وكان ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ولم يكن لها سقف أي وكان الناس يلقون الحلّى والمتاع كالطيب أي الذي يهدى إليها في بئر داخلها عند بابها على يمين الداخل منه أعدت لذلك يقال لها خزانة الكعبة كما سيأتي ذلك فأراد شخص في أيام جرهم أن يسرق من ذلك شيئاً فوقع على رأسه وإنهار البئر عليه فهلك

وفي كلام بعضهم فسقط عليه حجر فحبسه في تلك البئر حتى أخرج منها وانتزع المال منه فليتأمل الجمع

وقد يقال على بعد جاز أن يكون هذا الرجل تكرر منه السرقة وكان هلاكه في المرّة الثانية فعند ذلك بعث الله حية بيضاء سوداء الرأس والذنب رأسها كرأس الجدي فأسكنها تلك البئر لحفظ تلك الأمتعة وكانت قد تخرج منها إلى ظاهر البيت فتشرق بالقاف أي تبرز للشمس على جدار الكعبة فيبرق لونها وربما التفت عليه فتصير رأسها عند ذنبها فلا يدنو منها أحد إلا كشت أي صوتت وفتجت فهاها معطوف على كشت ففي حياة الحيوان قال الجوهري كشيح الأفعى صوتها من جلدها لا من فيها فحرس بئر وخزانة البيت خمسمائة عام لا يقربه أحد أي لا يقرب بئر وخزانتة إلا أهلكته أي ولعل المراد لو قرب منه أحد أهلكته إذ لو أهلكت أحداً قرب من تلك البئر لنقل فلم تزل كذلك حتى كان زمن قريش ووجد هذا السيل والحريق أرادوا هدمها وإعادة بنائها وأن يشيدوا بنيانها أي يرفعوه ويرفعوا بابها حتى لا يدخلها إلا من شاءوا واجتمعت القبائل من قريش تجمع الحجارة كل قبيلة تجمع على حدة وأعدوا لذلك نفقة أي طيبة ليس فيها مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلة أحد من الناس أي بعد أن قام أبو وهب عمرو بن عابد فتناول منها حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه فقال عند ذلك يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً الحديث أي وفي لفظ أنه قال لهم لا تدخلوا في نفقة هذا البيت مهر بغي أي زانية ولا بيع ربا وفي لفظ لا تجعلوا في نفقة هذا البيت شيئاً أصبتموه غصبا ولا قطعتم فيه رحماً ولا انتهكتم فيه حرمة أو ذمة بينكم وبين أحد من الناس وأبو وهب هذا خال عبد الله أبي النبي صلى الله عليه وسلم وكان شريفاً في قومه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم الحجارة

روى الشيخان عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم والعباس رضي الله تعالى عنه ينقلان الحجارة فقال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل إزارك على رقبتك يقيك الحجارة أي كبقية القوم فإنهم كانوا يضعون أزهرهم على عواتقهم ويحملون الحجارة ففعل صلى الله عليه وسلم فخر إلى الأرض فطمحت عيناه إلى السماء أي ونودي عورتك فقال إزاري إزاري أي شدوا علي إزاري فشد عليه وفي رواية سقط فغشى عليه فضمه العباس إلى نفسه وسأله عن شأنه فأخبره أنه نودي من السماء أن شد عليك إزارك وهذا يبعد ما جاء في رواية قال له العباس أي بعد أن أمر بستر عورته وسترها يا ابن أخي اجعل إزارك على رأسك فقال ما أصابني ما أصابني إلا من التعري وفي رواية بينا النبي صلى الله عليه وسلم يحمل الحجارة من أجياد وعليه نمرة فضافت عليه النمرة فذهب يضعها على عاتقه فبدت عورته فنودي يا محمد خمر عورتك أي غطها فلم ير عريانا أي مكشوف العورة بعد ذلك أي وقد يقال هذا لا يخالف ما تقدم عن العباس رضي الله تعالى عنه لأنه يجوز أن يكون ذلك صدر من العباس حينئذ وغايته أنه سمي النمرة إزارا له قال واستبعد بعض الحفاظ ذلك أي وقوع هذا مع ما تقدم من نهيه عن ذلك أي الذي تضمنه الأمر بالستر عند إصلاح عمه أبي طالب لزمزم قبل هذا قال لأنه صلى الله عليه وسلم إذا نهى عن شيء مرة لا يعود إليه ثانيا بوجه من الوجوه أي وقد عاد إلى ذلك أقول يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم لم يفهم أن أمره بستر عورته أولا عزيمة بل جواز الترك وفي الثانية علم أنه عزيمة لا يقال تقدم من كرامتي على ربي أن أحدا لم ير عورتي وتقدم أن ذلك من خصائصه صلى الله عليه وسلم ففي الخصائص الصغرى أنه صلى الله عليه وسلم لم تر عورته قط ولو رآها أحد طمست عيناه لأنه لا يلزم من كشف عورته صلى الله عليه وسلم رؤيتها كما لم يلزم من حضائته وتربيته ومجامعة زوجاته ذلك فعن عائشة رضي الله تعالى عنها ما رأيت منه صلى الله عليه وسلم والظاهر أن بقية زوجاته كذلك والله أعلم

ثم عمدوا إليها ليهدموها على شفق وحذر أي خوف من أن يمنعهم الله تعالى ما أرادوا أي بأن يوقع بهم البلاء قبل ذلك سيما وقد شاهدوا ما وقع لعمر بن عائذ أي قال وعند ابن إسحاق أن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه أي خافوا من أنه يحصل لهم بسببه بلاء فقال الوليد بن المغيرة لهم أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة قالوا بل نريد الإصلاح قال فإن الله لا يهلك المصلحين قالوا من الذي يعلوها فيهدمها قال أنا أعلوها وأنا أبدؤكم في هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول اللهم لم ترع أي بالراء والعين المهملتين والضمير في ترع للكعبة أي لا تفرع الكعبة لا نريد إلا الخير أي وفي رواية لم نزرع بالنون والزاي والمعجمة أي لم نحل عن دينك ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس تلك الليلة وقالوا ننظر فإن أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت وإن لم يصبه شيء هدمناها فقد رضي الله ما صنعنا فأصبح الوليد من ليلته غاديا إلى عمله فهدم وهدم الناس معه حتى انتهى الهدم بهم إلى الأساس أساس إبراهيم صلي الله عليه وسلم أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة أي أسنة الإبل وفي لفظ كالأسنة

قال السهيلي وهو وهم من بعض النقلة عن ابن إسحاق هذا كلامه أي وقد يقال هي كالأسنة في الخضرة وكالأسنة في العظم
يقال الأسنة زرق لأننا نقول شديد الزرقة يرى أخضر أخذ بعضها ببعض فأدخل رجل ممن كان يهدم عتلته بين حجرين منهما ليقلع بها بعضها فلما تحرك الحجر تنفضت مكة أي تحركت بأسرها وأبصر القوم برقة خرجت من تحت الحجر كادت تخطف بصر الرجل فانتهوا عن ذلك الأساس ووجدت قريش في الركن كتابا بالسريانية فلم يدر ما هو حتى قرأه لهم رجل من يهود فإذا هو أنا الله ذو بكة خلقتها يوم خلقت السماوات والأرض وصورت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا يزول أخشباها أي جبلاها وهما أبو قبيس وهو جبل مشرف على الصفا وقعيقعان وهو جبل مشرف على مكة وجهه إلى أبي قبيس يبارك لأهلها في الماء واللبن ووجدوا في المقام أي محله كتابا آخر مكتوب فيه مكة بلد الله الحرام يأتيها رزقها من ثلاث سبل ووجدوا كتابا آخر مكتوب فيه من يزرع خيرا يحصد غبطة أي ما يغبط أي يحسد حسدا محمودا عليه ومن يزرع شرا يحصد ندامة أي ما يندم عليه تعملون السيئات وتجزون الحسنات أجل أي نعم كما يجنى من الشوك العنب أي الثمر

أي وفي السيرة الشامية أن ذلك وجد مكتوبا في حجر في الكعبة وفي كلام بعضهم وجدوا حجرا فيه ثلاثة أسطر الأول أنا الله ذو بكة صنعتها يوم صنعت الشمس والقمر إلى آخره وفي الثاني أنا الله ذو بكة خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته وفي الثالث أنا الله ذو بكة خلقت الخير والشر فطوبى لمن كان الخير على يديه وويل لمن كان الشر على يديه قال ابن المحدث ورأيت في مجموع أنه وجد بها حجر مكتوب عليه أنا الله ذو بكة مفقر الزناة ومعرى تارك الصلاة أرخصها والأقوات فارغة وأغليها والأقوات ملاآنة أي فارغ محلها وملاآن محلها هذا كلامه

وقد يقال لا مانع من أن يكون ذلك حجرا آخر أو يكون هو ذلك الحجر وما ذكر مكتوب في محل آخر منه أي وفي الإصابة عن الأسود بن عبد يغوث عن أبيه أنهم وجدوا كتابا بأسفل المقام فدعت قريش رجلا من حمير فقال إن فيه لحرفا لو حدثكموه لقتلتموني قال وظننا أن فيه ذكر محمد صلى الله عليه وسلم فكتمناه وكان البحر قد رمى بسفينة إلى ساحل جدة أي الذي به جدة الآن وكان ساحل مكة قبل ذلك الذي يرمى به السفن يقال له الشعبية بضم الشين فلا يخالف قول غير واحد فلما كانت السفينة بالشعبية ساحل مكة انكسرت وفي لفظ حسبها الرياح وتلك السفينة كانت لرجل من تجار الروم اسمه باقوم وكان بانبا وقيل كانت تلك السفينة لقيصر ملك الروم يحمل له فيها الرخام والخشب والحديد سرحها مع باقوم إلى الكنيسة التي حرقها الفرس بالحبشة فلما بلغت مرساها من جدة وقيل من الشعبية بعث الله تعالى عليها ريحا فحطمها أي كسرها فخرج الوليد بن المغيرة في نفر من قريش إلى السفينة فابتاعوا خشبها فأعدوه لسقف الكعبة وقيل هابوا هدمها من أجل تلك الحية العظيمة فكانوا كلما أرادوا القرب منه أي البيت ليهدموه بدت لهم تلك الحية فاتحة فإها فبيننا هي ذات يوم تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع بعث الله طائرا أعظم من النسر فاختطفها وألقاها في الحجون فالتقمتها الأرض قيل وهي الدابة التي تكلم الناس يوم القيامة وقد جاء أن الدابة تخرج من شعب أجياد وفي حديث أن موسى عليه الصلاة والسلام سأل ربه أن يريه الدابة التي تكلم

الناس فأخرجها له من الأرض فرأى منظرا هاله وأفزعه فقال أي رب ردها فردها
فقلت قريش عند ذلك إنا لنرجو أن يكون الله تعالى قد رضى ما أردنا أي بعد أن
اجتمعوا عند المقام وعجوا إلى الله تعالى ربنا لن نراع أردنا تشریف بيتك وتزيينه فإن
كنت ترضى بذلك فأتمه واشغل عنا هذا الثعبان يعنون الحية وإلا فما بدا لك فافعل
فسمعوا في السماء صوتا ووجبة وإذا بالطائر المذكور أخذها وذهب بها إلى أجياد
فقالوا ما ذكر وقالوا عندنا عامل رفيق وعندنا أخشاب وقد كفانا الله الحية وذلك
العامل هو باقوم الرومي الذي كان بالسفينة وكان بانيا كما تقدم فإنهم جاءوا به معهم
إلى مكة أو هو باقوم مولى سعيد بن العاص وكان نجارا وتلك الأخشاب هي التي
اشتروها من تلك السفينة التي كسرت
أقول ومع أخذ الطائر لتلك الحية يجوز أن يقال هابوا هدمها حتى قدم عليه الوليد ابن
المغيرة فلا مخالفة بين ما تقدم عن ابن إسحاق وبين هذا الظاهر في أنهم هدموها عند
أخذ الطائر لتلك الحية ولم يهابوا هدمها حتى فعل الوليد ما تقدم والله أعلم
أي ثم لما أرادوا بنيانها تجزأتها قريش أي بعد أن أشار عليهم بذلك أبو وهب عمرو
ابن عائذ فقال لهم إني أرى أن تقسموا أربعة أرباع فكان شق الباب لبعده مناف وزهرة
وكان ما بين الركنين الأسود واليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم وكان
ظهر الكعبة لبني جمح وبني سهم ابني عمرو وكان شق الحجر أي الجانب الذي فيه
الحجر الآن لبني عبد الدار ولبني أسد ولبني عدي
والذي في كلام المقرئ كان لبني عبد مناف ما بين الحجر الأسود إلى ركن الحجر
أي وهو شق الباب وصار لأسد وعبد الدار وزهرة الحجر كله أي الجانب الذي فيه
الحجر وصار لمخزوم دبر البيت وصار لسائر قريش ما بين الركن اليماني إلى الركن
الأسود هذا كلامه فليتأمل
وفي كلام بعضهم وسمى الركن اليماني باليماني لأن رجلا من اليمن بناه وكان الباني
لها باقوم النجار أي الذي هو مولى سعيد بن العاص
أقول وكان المناسب أن يكون الذي بناها باقوم الرومي الذي كان صحبة السفينة التي
كسرت لأنه كما تقدم كان بانيا وسيأتي التصريح بذلك وأما باقوم مولى سعيد بن

العاص فتقدم أنه كان نجارا إلا أن يقال باقوم مولى سعيد كان نجارا بناء واشتهر بالوصف الأول فكان الباني لها وفيه يحتمل أن يكون باقوم الرومي البناء كان نجارا أيضا واشتهر بالوصف الأول

ثم رأيت في كلام بعضهم التصريح بذلك فقال وكان أي باقوم الرومي نجارا بناء فقول القائل وكان الباني لها باقوم النجار مراده باقوم الرومي لا مولى سعيد ثم رأيت في بعض الروايات ما يؤيد ذلك وهو وصف باقوم الرومي بأنه كان نجارا ونصها فخرجت قريش لتأخذ خشبها أي السفينة التي كسرت فوجدوا الرومي الذي فيها نجارا فقدموا به وبالخشب فقد دلت الروايتان على أنه موصوف بالوصفين ويحتمل أن يكون أحدهما بناها والآخر عمل سقفها أو أنهما أشتركا فيها لما علمت أن كلا منهما كان بانيا نجارا

ثم رأيت عن ابن إسحاق وكان بمكة قبطي يعرف تجر الخشب وتسويته فوافقهم على أن يعمل لهم سقف الكعبة ويساعده باقوم أي الرومي فالقبطي هو مولى سعيد بن العاص وحينئذ في هذه الرواية وصف باقوم الرومي بأنه كان نجارا كالرواية التي قبلها وسيأتي في الرواية التي تلي هذه أنه الذي بناها وهي في الإصابة اسم الرجل الذي بنى الكعبة لقريش باقوم وكان روميا وكان في سفينة حبستها الريح فخرجت إليها قريش فأخذوا خشبها وقالوا له ابنها على بنيان الكنائس وإن باقوم الرومي أسلم ثم مات فلم يدع وارثا فدفع النبي صلى اليه عليه وسلم ميراثه لسهيل بن عمرو ثم لما بنوها جعلوها مدماما من خشب الساج ومدماما من الحجارة من أسفلها إلى أعلاها وزادوا فيها تسعة أذرع فكان ارتفاعها ثمانية عشر ذراعا ورفعوا بابها من الأرض فكان لا يصعد إليها إلا في درج وضائق بهم النفقة عن بنيانها على تلك القواعد فأخرجوا منها الحجر وفي لفظ أخرجوا من عرضها أذراعا من الحجر وبنوا عليه جدارا قصيرا علامة على أنه من الكعبة

ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختصموا كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى أعدوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدي أي تحالفوا على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فسموا لعقة الدم وقد تقدم في حلف المطيبين ومكث النزاع بينهم أربع أو خمس ليال ثم اجتمعوا في المسجد الحرام وكان أبو أمية بن المغيرة واسمه حذيفة أسن قريش كلها

يومئذ أي وهو والد أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها وهو أحد أجواد قريش المشهورين بالكرم وكان يعرف بزاد الراكب لأنه كان إذا سافر لا يتزود معه أحد بل يكفي كل من سافر معه الزاد أي وذكر بعضهم أن أزواد الراكب من قريش ثلاثة زمعة بن الأسود بن المطلب ابن عبد مناف قتل يوم بدر كافرا ومسافر بن أبي عمرو بن أمية وأبو أمية بن المغيرة وهو أشهرهم بذلك

وفي كلام بعضهم لا تعرف قريش زاد الراكب إلا أبا أمية بن المغيرة وحده يحتمل أن المراد لا تكاد تعرف قريش غيره بهذا الوصف لشهرته فلا مخالفة وأبو أمية هذا مات على دينه ولعله لم يدرك الإسلام فقال يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم أي وهو باب بني شيبه وكان يقال له في الجاهلية باب بني عبد شمس الذي يقال له الآن باب السلام وفي لفظ أول من يدخل من باب الصفا أي وهو المقابل لما بين الركنين اليماني والأسود ففعلوا أي وفي كلام البلاذري أن الذي أشار على قريش بأن يضع الركن أول من يدخل من باب بني شيبه مهشم بن المغيرة ويكنى أبا حذيفة

وقد يقال لا مخالفة لأنه يجوز أن يكون اسمه حذيفة ويكنى بأبي حذيفة كما يكنى بأبي أمية ومهشم لقبه وأن الراوي عنه اختلف كلامه فتارة قيل عنه يقضى بينكم وتارة قيل عنه يضع الركن والمشهور الأول ويدل له ما يأتي فكان أول داخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قالوا هذا الأمين رضينا هذا محمد أي لأنهم كانوا يتحاكمون إليه صلى الله عليه وسلم في الجاهلية لأنه كان لا يدارى ولا يمارى فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال صلى الله عليه وسلم هلم إلى ثوبا فأتى به أي وفي رواية فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم إزاره وبسطه في الأرض أي ويقال إنه كساء أبيض من متاع الشام ويقال إن ذلك الثوب كان للوليد بن المغيرة فأخذ صلى الله عليه وسلم الحجر الأسود فوضعه فيه بيده الشريفة ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب أي بزاوية من زواياه ثم ارفعوه جميعا ففعلوا فكان في ربيع عبد مناف عتبة بن ربيعة وكان في الربع الثاني زمعة وكان في الربع الثالث أبو حذيفة ابن المغيرة وكان في الربع الرابع قيس بن عدي حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو صلى الله عليه وسلم أي ولما مات أبو أمية بن المغيرة رثاه أبو طالب بقصيدة طويلة ورثاه أبو جحيفة بقوله

* ألا هلك الماجد الرفد
* وكل قريش له حامد
* ومن هو عصمة أيتامنا
* وغيث إذا فقد لراعد
*

قال وعن ابن عباس رضي اله تعالى عنهما لما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الركن أي الحجر ذهب رجل من أهل نجد ليناول النبي صلى الله عليه وسلم حجرا يشد به الركن فقال العباس لا وناول العباس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شد به الركن فغضب النجدي وقال واعجبا لقوم أهل شرف وعقول وأموال عمدوا إلي رجل أصغرهم سنا وأقلهم مالا فأأسوه عليهم في مكرمتهم وحرزهم كأنهم خدم له أما والله ليفرقنهم شيعا وليقسمن بينهم حظوظا فكاد يثير شرا فيما بينهم ولعله هذا النجدي هو إبليس

فقد ذكر السهيلي أن إبليس تمثل في صورة شيخ نجدي حين حكموا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر الركن من يرفعه وصاح يا معشر قريش أرضيتم أن يلي هذا الغلام دون أشرافكم وذوي أنسابكم انتهى

وإنما تصور بصورة نجدي لأن في الحديث نجد طلع منها قرن الشيطان ولما قال صلى الله عليه وسلم اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا قالوا وفي نجدنا فأعاد الأول والثاني قال هنالك الزلازل والفتن وفيها يطلع قرن الشيطان

أقول سيأتي أنه تصور بهذه الصورة أيضا عند دخول قريش دار الندوة ليتشاوروا في كيفية قتله صلى الله عليه وسلم ودخل معهم وسيأتي ثم في حكمة تصوره بذلك غير ما ذكر ولا مانع أن يكونا حكمة لما هنا ولما يأتي

وأعادوا الصور التي كانت في حيطانها لأنه كان في حيطانها صور الأنبياء بأنواع الأصباغ ومن جملتهم صورة إبراهيم وفي يده الأزام أي وإسماعيل وفي يده الأزام وصورة الملائكة وصورة مريم كما سيأتي في فتح مكة وكساها زعماءهم أرديتهم وكانت من الوصائل ولم يكسها أحد بعد ذلك حتى كساها رسول الله صلى الله عليه وسلم الحبرات في حجة الوداع والله أعلم وهذه المرة الرابعة أي من بناء الكعبة بناء على أن أول من بناها الملائكة

ففي بعض الآثار أن الله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق السماوات والأرض كان عرشه على الماء أي العذب فلما اضطرب العرش كتب عليه لا إله إلا الله محمدا رسول الله

صلى الله عليه وسلم فسكن فلما أراد أن يخلق السماوات والأرض أرسل الريح على ذلك الماء فتموج فعلاه دخان فخلق من ذلك الدخان السماوات ثم أزال ذلك الماء عن موضع الكعبة فيس وفي لفظ أرسل على الماء ريحا هفافة فصفق الريح الماء أي ضرب بعضه بعضا فأبرز عنه خشفة الحديث وبسط الله سبحانه وتعالى من ذلك الموضع جميع الأرض طولها والعرض فهي أصل الأرض وسرتها وقد يخالفه ما في أنس الجليل كذا روى عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال وسط الدنيا بيت المقدس وأرفع الأرضين كلها إلى السماء بيت المقدس وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومعاذ بن جبل أنه أقرب إلى السماء بإثني عشر ميلا ثم بين ذلك في أنس الجليل ولما ماجت الأرض وضع عليها الجبال فكان أول جبل وضع عليها أبو قبيس وحينئذ كان ينبغي أن يسمى أبا الجبال وأن يكون أفضلها مع أن أفضلها كما قال الجلال السيوطي استنباطا أحد لقوله صلى الله عليه وسلم أحد يحبنا ونحبه ولما ورد أنه على باب من أبواب الجنة قال ولأنه من جملة أرض المدينة التي هي أفضل البقاع أي عنده تبعا لجمع ولأنه مذكور في القرآن بإسمه في قراءة من قرأ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد أي بضم الهمزة والحاء ثم فتق الأرض فجعلها سبع أرضين وقد جاء بدأ الله خلق الأرض في يومين غير مدحوة ثم خلق السماوات فسواهن في يومين ثم دحا الأرض بعد ذلك وجعل فيها الرواسي وغيرها في يومين وبهذا يظهر التوقف في قول مغلطاي إن لفظة بعد في قوله تعالى * (والأرض بعد ذلك دحاها) * بمعنى قبل لأن خلق الأرض قبل خلق السماء لما علمت أن الأرض خلقت قبل السماء غير مدحوة ثم بعد خلق السماء دحا الأرض ثم رأيت بعضهم سأل ابن عباس عن ذلك حيث قال له يا إمام اختلف علي من القرآن آيات ثم ذكر منها أنه قال قال الله تعالى * (أنتكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين) * حتى بلغ * (طائعين) * ثم قال في الآية الأخرى * (أم السماء بناها) * ثم قال * (والأرض بعد ذلك دحاها) * فأجابه ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أما قوله * (خلق الأرض في يومين) * فإن الأرض خلقت قبل السماء وكانت السماء دخانا فسواهن سبع سماوات في يومين بعد خلق الأرض وأما قوله تعالى * (والأرض بعد ذلك دحاها) * يقول جعل

فيها جبلا وجعل فيها نهرا وجعل فيها شجرا وجعل فيها بحورا وبه يرد قول بعضهم خلق السماء قبل الأرض والظلمة قبل النور والجنة قبل النار فليتأمل

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى * (ومن الأرض مثلهن) *

قال سبع أرضين في كل أرض نبي كنببيكم وآدم كآدمكم ونوح كنوحكم وإبراهيم كإبراهيمكم وعيسى كعيسىكم ورواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح الإسناد وقال البيهقي إسناده صحيح لكنه شاذ بالمرّة أي لأنه لا يلزم من صحة الإسناد صحة المتن فقد يكون فيه مع صحة إسناده ما يمنع صحته فهو ضعيف

قال الحافظ السيوطي ويمكن أن يؤول على أن المراد بهم النذر الذين كانوا يبلغون الجن عن أنبياء البشر

ولا يبعد أن يسمى كل منهم باسم النبي الذي يبلغ عنه هذا كلامه أي وحينئذ كان لنبينا صلى الله عليه وسلم رسول من الجن اسمه كإسمه ولعل المراد اسمه المشهور وهو محمد فليتأمل

ولما خاطب الله السماوات والأرض بقوله * (ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) *

كان المجيب من الأرض موضع الكعبة ومن السماء ما حاذها الذي هو محل البيت المعمور

وعن كعب الأبحار رضي الله عنه لما أراد الله تعالى أن يخلق محمدا صلى الله عليه وسلم أمر جبريل أن يأتيه بالطينة التي هي قلب الأرض وبهاؤها ونورها فقبض قبضة رسول الله صلى الله عليه وسلم من موضع قبره الشريف وهي بيضاء منيرة لها شعاع عظيم

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أصل طينة رسول الله صلى الله عليه وسلم من سرّة الأرض بمكة قال بعض العلماء هذا يشعر بأن ما أجاب من الأرض إلا تلك الطينة أي وقد ذكر الشيخ أبو العباس المرسي رحمه الله تعالى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوما لأبي بكر الصديق رضي الله عنه أتعرف يوم يوم فقال أبو بكر نعم والذي بعثك بالحق نبيا يا رسول الله سألتني عن يوم المقادير يعني يوم ألت بركم ولقد سمعتك تقول حينئذ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقد سئل الشيخ على الخواص نفعنا الله تعالى ببركاته لم لم تتكلم الأنبياء بلسان الباطن الذي تكلم به الصوفية

فأجاب بأنه إنما لم تتكلم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بذلك لأجل عموم خطابهم للأمة ولا يعتبر بالأصالة إلا فهم العامة دون فهم الخاصة إلا بعض تلويحات ومنه قوله صلى الله عليه وسلم للصديق رضي الله تعالى عنه أتعرف يوم يوم فقال نعم

يا رسول الله الحديث وتلك الطينة لما تموج الماء رمى بها من مكة إلى محل تربيته صلى الله عليه وسلم ومدفنه بالمدينة

وبهذا يندفع ما يقال مقتضى كون أصل طينته صلى الله عليه وسلم بمكة أن يكون مدفنه بها لأن تربة الشخص تكون من محل مدفنه ثم عجنها بطينة آدم ولعل هذه الطينة هي المعبر عنها بالنور في قوله صلى الله عليه وسلم وقد قال له جابر يا رسول الله أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء قال يا جابر إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره ولم يكن في ذلك الوقت لا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا لوح ولا قلم الحديث

وجاء أول ما خلق الله نوري وفي رواية أول ما خلق الله العقل قال الشيخ على الخواص ومعناها واحد لأن حقيقته صلى الله عليه وسلم يعبر عنها بالعقل الأول وتارة بالنور فأرواح الأنبياء والأولياء مستمدة من روح محمد صلى الله عليه وسلم هذا كلامه وهذا هو المعنى بقول بعضهم لما تعلق إرادة الحق بإيجاد خلقه أبرز الحقيقة المحمدية من الأنوار الصمدية في الحضرة الأحدية ثم سلخ منها العوالم كلها علوها وسفلها وفي أن هذا لا يناسبه قوله ولم يكن في ذلك الوقت لا سماء ولا أرض إذ كيف يأتي ذلك مع قول كعب الأحبار أمر جبريل أن يأتيه بالطينة التي هي قلب الأرض إلى آخره ومع قول ابن عباس أصل طينة رسول الله صلى الله عليه وسلم من سرّة الأرض إلا أن يقال إن ذلك النور بعد إيجاده أودع تلك الطينة التي هي قلب الأرض وسرتها وحينئذ لا يخالف ذلك ما جاء أن الله خلق آدم من طين العزة من نور محمد صلى الله عليه وسلم فهو صلى الله عليه وسلم الجنس العالي لجميع الأجناس والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس

هذا وقد جاء في حديث بعض رواة متروك الحديث خلق الله آدم من تراب الجابية وعجنه بماء الجنة وجاء خلق الله آدم من تربة دحنا ومسح ظهره بنعمان الأراك ودحنا محل قريب من الطائف وتقدم انه يحتاج إلى بيان وجه كون آدم خلق من نوره وجعل نوره في ظهر آدم ولما خلق الله آدم وقبل نفخ الروح فيه استخرج ذلك النور من ظهره وأخذ عليه العهد ألتست بربكم فقد خص بذلك عن بقية خلقه من بني آدم فإن بني آدم ما أخرجوا من ظهر آدم وأخذ عليهم الميثاق إلا بعد نفخ الروح في آدم

ونقل بعضهم أن الله تعالى لما أخرج الذر وأعادته في صلب آدم أمسك روح عيسى إلى أن أتى وقت خلقه ولا يخفى أن هذا يفيد أن أخذ العهد على الصديق كان بعد نفخ الروح في آدم وأخذ العهد عليه صلى الله عليه وسلم كان سابقا على ذلك وحينئذ فيكون المراد بقول الصديق حينئذ لما قال له صلى الله عليه وسلم أتعرف يوم يوم وقال نعم إلى قوله ولقد سمعتك تقول حينئذ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله أي حين أخذ العهد على بني آدم لا حين أخذ العهد عليه صلى الله عليه وسلم كما قد يتبادر فليتأمل

ثم لما نفخت الروح في آدم صار ذلك النور في ظهر آدم فصارت الملائكة تقف صفوفًا خلف آدم يتعجبون من ظهور ذلك النور فقال آدم يا رب ما بال هؤلاء ينظرون إلى ظهري قال ينظرون إلى نور محمد خاتم الأنبياء الذي أخرجته من ظهرك فسأل الله تعالى أن يجعله في مقدمه لتستقبله الملائكة فجعله الله في جبهته ثم سأل الله تعالى أن يجعله في محل يراه فكان في سبابته فلما أهبط آدم إلى الأرض انتقل ذلك النور إلى ظهره فكان يلمع في جبهته وفي رواية لما انتقل النور إلى سبابته قال يا رب هل بقي في ظهري من هذا النور شيء قال نعم نور أخصاء أصحابه فقال يا رب اجعله في بقية أصابعي فكان نور أبي بكر في الوسطى ونور عمر في البنصر ونور عثمان في الخنصر ونور علي في الإبهام فلما أكل من الشجرة عاد ذلك النور إلى ظهره كذا في بحر العلوم عن ابن عباس

ثم انتقل ذلك النور من آدم إلى ولده شيث ولما قال تعالى للملائكة * (إني جاعل في الأرض خليفة) * و * (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها) * يعنون الجن الذين أفسدوا فيها وسفكوا الدماء غضب عليهم

وفي لفظ ظنت الملائكة أي علمت أن ما قالوا ردا على ربهم وأنه قد غضب عليهم من فوقهم فلاذوا بالعرش وطافوا به سبعة أطواف يسترضون ربهم فرضى عليهم وفي لفظ فنظر الله إليهم ونزلت الرحمة عليهم فعند ذلك قال لهم ابنوا لي بيتا في الأرض يعوذ به من سخطت عليه من بني آدم أي الذي هو الخليفة فيطوفون حوله كما فعلتم بعرشي فأرضى عنهم فبنوا الكعبة وفي هذه الرواية اختصار بدليل ما قيل وضع الله تحت العرش البيت المعمور

على أربع أساطين من زبرجد يغشاهن ياقوتة حمراء وقال للملائكة طوفوا بهذا البيت أي لأرضي عنكم ثم قال لهم ابنوا لي بيتا في الأرض بمثاله وقدره أي ففعلوا وقدره عطف تفسير على مثاله فالمراد بالمثال القدر

وفي لفظ لما قال تعالى للملائكة * (إني جاعل في الأرض خليفة) * و * (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها) * الآية خافوا أن يكون الله تعالى عابها عليهم لإعتراضهم في علمه فطافوا بالعرش سبعا يسترضون ربهم ويتضرعون إليه فأمرهم أن يبنوا البيت المعمور في السماء السابعة وأن يجعلوا طوافهم به فكان ذلك أهون عليهم من الطواف بالعرش ثم أمرهم أن يبنوا في كل سماء بيتا وفي كل أرض بيتا قال مجاهد هي أربعة عشر بيتا متقابلة لو سقط بيت منها لسقط على مقابله والبيت المعمور في السماء السابعة وله حرمة كحرمة مكة في الأرض واسم البيت الذي في السماء الدنيا بيت العزة

وفي كلام بعضهم في كل سماء بيت تعمره الملائكة بالعبادة كما يعمر أهل الأرض البيت العتيق بالحج في كل عام والاعتمار في كل وقت والطواف في كل أوان ولينظر ما معنى بناء الملائكة للبيوت في السماوات وإذا لم يصح أن الملائكة بنت الكعبة تكون هذه المرة من بناء قريش هي المرة الثالثة بناء على أن أول من بناها آدم صلى الله عليه وسلم أي أو ولده شيث فقد قال بعضهم ما تقدم من الأثرين الدالين على أن أول من بناها الملائكة لم يصح واحد منها وكانت قبل ذلك أي وكان محلها قبل بناء آدم لها خيمة من ياقوتة حمراء نزلت لآدم من الجنة أي لها بابان من زمرد أخضر شرقي وباب غربي من ذهب منظومان من در الجنة فكان آدم يطوف بها ويأنس إليها وقد حج إليها من الهند ماشيا أربعين حجة ويجوز أن تكون تلك الخيمة هي البيت المعمور وعبر عنها بحمراء لأن سقف البيت المعمور كان ياقوتة حمراء

قال وذكر أن آدم لما أهبط إلى الأرض كان رجلاه بها ورأسه في السماء وفي لفظ كان رأسه يمسح السحاب فصلع فأورث ولده الصلع أي بعض ولده فسمع تسييح الملائكة ودعاءهم فاستأنس بذلك فهابته الملائكة أي صارت تنفر منه فشكا إلى الله تعالى فنقص إلى ستين ذراعا بالذراع المتعارف وقيل بذراع آدم فلما فقد أصوات الملائكة حزن وشكا إلى الله تعالى فقال يا آدم إني قد أهبطت بيتا يطاف به أي تطوف به الملائكة كما يطاف حول عرشي ويصلى عنده كما يصلى عند

عرشي أي كان ذلك أي الطواف بالعرش والصلاة عنده شأن الملائكة أولا فلا ينافي ما تقدم أنهم بعد ذلك صاروا يطوفون بالبيت المعمور كما تقدم فأخرج إليه أي طف به وصل عنده وهذا البيت هو هذه الخيمة التي أنزلت لأجله وقد علمت أنه يجوز أن تكون تلك الخيمة هي البيت المعمور

قيل أهبط آدم وطوله ستون ذراعا أي على الصفة التي خلق عليها وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم خلق الله تعالى آدم على صورته وطوله ستون ذراعا أي أوجده الله تعالى على الهيئة التي خلقه عليها لم ينتقل في النشأة أحوالا بل خلقه كاملا سويا من أول ما نفخ فيه الروح فالضمير في صورته يرجع لآدم وعلى رجوعه إلى الحق سبحانه وتعالى المراد على صفته أي حيا عالما قادرا مريدا متكلم سميعا بصيرا مدبرا حكيما وقد يخالف هذا قول ابن خزيمة قوله صلى الله عليه وسلم إن الله خلق آدم على صورته فخرج على سبب وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يضرب وجه رجل فقال لا تضربه على وجهه فإن الله تعالى خلق آدم على صورته أي صورة هذا الرجل فهو ينتقل أطوارا ولا يخفى أن هذا خلاف الظاهر ومن ثم عبر بقوله أوجده وهذا القيل المتقدم من أنه أهبط آدم وطوله ستون ذراعا يوافق ما جاء في الحديث المرفوع كان طوله ستين ذراعا في سبعة أذرع عرضا ومن ثم قال الحافظ ابن حجر إنما روى أن آدم لما أهبط كانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء فحطه في الله تعالى إلى ستين ذراعا أي الذي تقدم ظاهر الخبر الصحيح يخالفه وهو أنه خلق في ابتداء الأمر على طول ستين ذراعا وهو الصحيح وكان آدم أمرد وفي الصحيحين فكل من يدخل الجنة يكون على صورة آدم وقد جاء في صفة أهل الجنة أجرد مرد على صورة آدم وفي بعض الأخبار أن آدم لما كثر بكاؤه على فراق الجنة نبتت لحيته ولم يصح ولم تنبت اللحية إلا لولده وكان مهبطه بأرض الهند بجبل عال يراه البحرىون من مسافة أيام وفيه أثر قدم آدم مغموسة في الحجر ويرى على هذا الجبل كل ليلة كهيئة البرق من غير سحاب ولا بد له في كل يوم من مطر يغسل قدمي آدم وذروة هذا الجبل أقرب ذرا جبال الأرض إلى السماء ولعل هذا وجه النظر الذي أبداه بعض الحفاظ في قوله بعضهم إن بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا قال بعض الحفاظ وفيه نظر

قيل ونزل معه من ورق الجنة فبثه هناك فمنه كان أصل الطيب بالهند وعن عطاء بن أبي رباح إن آدم هبط بأرض الهند ومعه أربعة أعواد من الجنة فهي هذه التي يتطيب الناس بها وجاء أنه نزل بنخلة العجوة ثم لما أمر آدم بالخروج لتلك الخيمة خرج إليها ومد له في خطوة قيل كانت خطواته مسيرة ثلاثة أيام فقد قيل لمجاهد هل كان آدم يركب قال وأي شيء كان يحمله فوالله إن خطواته لمسيرة ثلاثة أيام وفيه أن هذا يقتضى أن آدم لم يكن يركب البراق فقول بعضهم إن الأنبياء كانت تركبه مراده مجموعهم لا جميعهم وقيض الله تعالى له ما كان في الأرض من مخاض أو بحر فلم يكن يضع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمراناً وصار بين كل خطوة مفازة حتى انتهى إلى مكة فإذا خيمة في موضع الكعبة أي الموضع الذي به الكعبة الآن وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من يواقيت الجنة مجوفة أي ولها أربعة أركان بيض وفيها ثلاثة قناديل من ذهب فيها نور يلهب من نور الجنة طولها ما بين السماء والأرض كذا في بعض الروايات ولعل وصف الخيمة بما ذكر لا ينافي ما تقدم أنه يجوز أن تكون تلك الخيمة هي البيت المعمور ووصف بأنه ياقوتة حمراء لأن سقفة كان ياقوتة حمراء لأن التعدد بعيد فليتأمل ونزل مع تلك الخيمة الركن وهو الحجر الأسود ياقوتة بيضاء من أرض الجنة وكان كرسي آدم يجلس عليه أي ولعل المراد يجلس عليه في الجنة أقول وهذا السياق يدل على أن آدم أهبط من الجنة إلى أرض الهند ابتداء وذكر في مشير الغرام عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الله تعالى أهبط آدم إلى موضع الكعبة وهو مثل الفلك من شدة رعدته ثم قال يا آدم تخط فتخطى فإذا هو بأرض الهند فمكث هنالك ما شاء الله ثم استوحش إلى البيت فقبل له حج يا آدم فأقبل يتخطى فصار موضع كل قدم قرية وما بين ذلك مفازة حتى قدم مكة الحديث والسياق المذكور أيضا يدل على أن الخيمة والحجر الأسود نزلا بعد خروج آدم من الجنة ويدل لكون الحجر الأسود نزل عليه ما في مشير الغرام وأنزل عليه الحجر الأسود وهو يتلألاً كأنه لؤلؤة بيضاء فأخذه آدم فضمه إليه إستئناساً به هذا كلامه

وفي رواية عنه أنزل الركن والمقام مع آدم ليلة نزل آدم من الجنة فلما أصبح رأى الركن والمقام فعرّفهما فضمهما إليه وأنس بهما فليتأمل الجمع
وفي رواية أن آدم نزل بتلك الياقوتة أي فعن كعب أنزل الله من السماء ياقوتة مجوفة مع آدم فقال له يا آدم هذا بيتي أنزلته معك يطاف حوله كما يطاف ح حول عرشي ويصلى حوله كما يصلى حول عرشي أي على ما تقدم ونزل معه الملائكة فرفعوا قواعده من الحجارة ثم وضع البيت أي تلك الياقوتة عليها وحينئذ يحتاج إلى الجمع بين هاتين الروايتين عن تقدير صحتهما

وقد يقال في الجمع يجوز أن تكون المعية ليست حقيقية والمراد أنه نزل بعده قريبا من نزوله فلنقرب الزمن عبر بالمعية فلا ينافي ما تقدم من قوله يا آدم إني قد أهبطت بيتا يطاف به فأخرج إليه وجاء إن آدم نزل من الجنة ومعه الحجر الأسود متأبطه أي تحت إبطه وهو ياقوتة من يواقيت الجنة ولولا أن الله تعالى طمس ضوءه ما استطاع أحد أن ينظر إليه وكون آدم نزل بالحجر الأسود متأبطا له يخالف الرواية المتقدمة أنه نزل مع تلك الخيمة التي هي الياقوتة بعد نزوله وحينئذ يحتاج للجمع بين هاتين الروايتين على تقدير صحتهما

وأیضا يحتاج إلى الجمع بين ذلك وبين ما روى عن وهب بن منبه رحمه الله أن آدم لما أمره الله تعالى بالخروج من الجنة أخذ جوهرة من الجنة أي التي هي الحجر الأسود مسح بها دموعه فلما نزل إلى الأرض لم يزل يبكي ويستغفر الله ويمسح دموعه بتلك الجوهرة حتى اسودت من دموعه ثم لما بنى البيت أمره جبريل عليه الصلاة والسلام أن يجعل تلك الجوهرة في الركن ففعل

وفي بهجة الأنوار أن الحجر الأسود كما في الابتداء ملكا صالحا ولما خلق الله تعالى آدم أباح له الجنة كلها إلا الشجرة التي نهاه عنها ثم جعل ذلك الملك موكلا على آدم أن لا يأكل من تلك الشجرة فلما قدر الله تعالى أن آدم يأكل من تلك الشجرة غاب عنه ذلك الملك فنظر الله تعالى إلى ذلك الملك بالهيئة فصار جوهرا ألا ترى أنه جاء في الأحاديث الحجر الأسود يأتي يوم القيامة وله يد ولسان وأذن وعين لأنه كان في الابتداء ملكا

أقول ورأيت في ترجمة كلام الشيخ كمال الدين الأحميمي أنه لما جاور بمكة رأى الحجر الأسود وقد خرج من مكانه وصار له يدان ورجلان ووجه ومشى ساعة ثم رجع إلى مكانه

وقد جاء أكثرها من استلام هذا الحجر فإنكم توشكون أن تفقدوه بينما الناس يطوفون به ذات ليلة إذ أصبحوا وقد فقدوه إن الله عز وجل لا يترك شيئا من الجنة في الأرض إلا أعاده فيها قبل يوم القيامة أي فقد جاء ليس في الأرض من الجنة إلا الحجر الأسود والمقام فإنهما جوهرتان من جواهر الجنة ما مسهما ذو عاهة إلا شفاه الله تعالى وجاء استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع وقد هدم مرتين ويرفع الثالثة والله أعلم وجاء أن آدم أتى ذلك أي تلك الخيمة أي التي هي البيت المعمور على ما تقدم ألف مرة من الهند ماشيا من ذلك ثلاثمائة حجة وسبعمائة عمرة وأول حجة حجها جاءه جبريل وهو واقف بعرفة فقال له يا آدم بر نسكك أما إنا قد طفنا بهذا البيت قبل أن تخلق بخمسين ألف سنة وفي رواية لما حج آدم استقبلته الملائكة بالردم أي ردم بين جمح الذي هو محل المدعى فقالوا بر حجك يا آدم قد حججنا هذا البيت قبلك بألف عام

أقول وفي تاريخ مكة للأزرقي أن آدم عليه الصلاة والسلام حج على رجليه سبعين حجة ماشيا وأن الملائكة لقيته بالمأزمين فقالوا بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام والمأزمان موضع بين عرفة والمزدلفة قال الطبري ودون مني أيضا مأزمان والله أعلم بالمراد منهما هذا كلامه وجاء أنه وجد الملائكة بذى طوى وقالوا له يا آدم ما زلنا ننتظرك ههنا منذ ألفي سنة وكان بعد ذلك إذا وصل إلى المحل المذكور خلع نعليه ويحتاج للجمع بين كون الملائكة استقبلته بالردم وكونها لقيته بالمأزمين وكونه وجدهم بذى طوى وبين كونهم حجوا البيت قبله بألف عام وكونهم حجوا قبله بألفي عام وبخمسين ألف عام وهل الملائكة خلقوا دفعة واحدة أم خلقوا جيلا بعد جيل ومما يدل على أنهم جيلا بعد جيل ما جاء من نحو من قال سبحانه الله وبحمده خلق الله ملكا له عينان وجناحان وشفتان ولسان يطير مع الملائكة ويستغفر لقائلها إلى يوم القيامة وما جاء إن جبريل في كل غداة يدخل بحر النور فينغمس فيه الحديث لكن في سفر السعادة الحديث المنسوب إلى أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال يأمر الله تعالى جبريل كل غداة أن يدخل بحر النور ينغمس فيه إنغماسة ثم يخرج فينتفض انتفاضة يخرج منه سبعون ألف قطرة يخلق الله عز وجل من كل قطرة منها ملكا لهذا الحديث طرق كثيرة ولم يصح منها شيء ولم يثبت في هذا المعنى حديث هذا لفظه والله أعلم

وعند ذلك قال آدم للملائكة فما كنتم تقولون حوله قالوا كنا نقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر قال آدم زيدوا فيها ولا حول ولا قوة إلا بالله فكان آدم إذا طاف يقولها وكان طوافه سبعة أسابيع بالليل وخمسة أسابيع بالنهار أي ولما فرغ من الطواف صلى ركعتين تجاه باب الكعبة ثم أتى الملتزم أي محله فقال اللهم إنك تعلم سريرتي وعلانيتي فاقبل معذرتي وتعلم ما في نفسي وما عندي فأغفر لي ذنبي وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي الحديث

أقول قول الملائكة قد طفنا بهذا البيت لا يحسن أن يعنوا به تلك الخيمة المذكورة المعنية بقوله تعالى لآدم قد أهبطت بيتا إلى آخر ما تقدم أو كونها أهبطت مع آدم بل المراد ذلك البيت الذي هو الخيمة قبل أن تنزل ويجوز أن يكون المراد تلك الخيمة أو نفس تلك الخيمة بناء على أنها البيت المعمور وأن الملائكة طافوا بها قبل نزولها إلى الأرض كما تقدم قال وعن وهب بن منبه قرأت في كتاب من كتب الأول ليس من ملك بعثه الله إلى الأرض إلا أمره بزيارة البيت فينقض من تحت العرش محرما ملبيا حتى يستلم الحجر ثم يطوف سبعا بالبيت ويصلى في جوفه ركعتين ثم يصعد أقول يجوز أن يكون المراد بإحرامه بنية الطواف بالبيت لا إحرامه بالعمرة بدليل قوله ثم يطوف سبعا بالبيت إلى آخره

ويجوز أن يكون المراد بالبيت في كلام وهب محل تلك الخيمة ما يعم من وجد من الملائكة وبمن بعث بعد ذلك ولا يخفى أن الأول يبعده قوله حتى يستلم الحجر وعلى الثاني يكون فيه دلالة على أن الحجر الأسود كان في تلك الخيمة يبتدأ الطواف بها منه وجاء عن عطاء وسعيد بن المسيب وغيرهما إن الله عز وجل أوحى إلى آدم أن اهبط إلى الأرض ابن لي بيتا ثم أحفف به كما رأيت الملائكة تحف بيتي الذي في السماء وفي رواية وطف به واذكرني عنده كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي أي على ما تقدم وهذا السياق بظاهره يوافق ما تقدم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن هبوط آدم كان من الجنة إلى موضع الكعبة ابتداء والله أعلم قال وجاء أن جبريل عليه الصلاة والسلام بعثه الله تعالى إلى آدم وحواء فقال لهما ابنيا أي قال لهما إن الله تعالى يقول لكما ابنيا لي بيتا فخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر وحواء تنقل التراب حتى

أجابته الماء ونودي من تحته حسبك يا آدم وفي رواية حتى إذا بلغ الأرض السابعة فقدفت فيها الملائكة الصخر ما يطبق الصخرة ثلاثون رجل وفيه أنه إن كان أمر آدم ببناء البيت بعد مجيئه إلى تلك الخيمة من الهند ماشيا خالف ظاهر ما تقدم عن عطاء وسعيد بن المسيب أوحى الله تعالى إلى آدم أن اهبط إلى الأرض ابن لي بيتا إذ ظاهره أنه أوحى إليه بذلك وهو في الجنة إلا أن يقال المراد بالأرض في قوله اهبط إلى الأرض أرض الحرم أي اذهب إلى أرض الحرم ابن لي بيتا ثم لا يخفى أن قوله فقدفت فيه الملائكة الصخر يقتضى أن إلقاء الملائكة للصخر كان بعد حفر آدم وهو لا يخالف ما تقدم عن كعب أنزل الله من السماء ياقوتة مجوفة مع آدم فقال له يا آدم هذا بيتي أنزلته معك ونزل معه الملائكة فرفعوا قواعده من الحجارة ثم وضع البيت عليها فيكون إلقاء الملائكة للصخر بعد حفر آدم فلما تم ذلك الأس جعل ذلك البيت فوق تلك الصخور ويكون المراد بقوله ونزل معه الملائكة أي صحبوه من أرض الهند إلى أرض الحرم

وجاء في بعض الروايات إن آدم وحواء لما أسساه نزل البيت من السماء من ذهب أحمر وكل به من الملائكة سبعون ألف ملك فوضعه على أس آدم ونزل الركن فوضع موضعه اليوم من البيت فطاف به آدم أي كما كان يطوف به قبل ذلك وبهذا تجتمع الروايات وحينئذ لا مانع أن ينسب بناء هذا الأساس الذي وضعت الملائكة عليه تلك الخيمة لآدم وأن ينسب للملائكة

أما نسبته للملائكة فواضح وأما نسبته لآدم فلأنه السبب فيه أو لأنه كان إذا ألقت الملائكة الصخر يضع آدم بعضه على بعض وعلى نسبة بناء ذلك الأس للملائكة ولآدم يحتمل القول بأن أول من بنى الكعبة الملائكة والقول بأن أول من بنى الكعبة آدم فليتأمل

وقد جاء أن آدم بناه من لبنان جبل بالشام ومن طور زيتا جبل من جبال القدس ومن طور سينا جبل بين مصر وإيليا وفي كلام بعضهم أنه جبل بالشام وهو الذي نودي منه موسى عليه الصلاة والسلام ومن الجودي وهو جبل بالجزيرة ومن حرا حتى استوى على وجه الأرض أقول وفي رواية بناه من ستة أجبل من أبي قبيس ومن رضوى ومن أحد فالمتحصل من الروايتين أنه بناء من ثمانية أجبل ولا مانع من ذلك واستمر ذلك البيت

الذي هو الخيمة إلى زمن نوح عليه الصلاة والسلام فلما كان الغرق بعث الله تعالى سبعين ألف ملك فرفعوه إلى السماء الرابعة فهو البيت المعمور كما في الكشاف وكان رفعه لثلاثا يصيبه الماء النجس وبقيت قواعده التي هي الأس وفي العرائس ثم طافت السفينة بأهلها الأرض كلها في تسعة أشهر لا تستقر على شيء حتى أتت الحرم فلم تدخله ودارت بالحرم أسبوعا

وقد رفع الله البيت الذي كان يحججه آدم صيانة له من الغرق وهو البيت المعمور أي وكون حواء أسست البيت مع آدم يخالف ما جاء أن حواء أهبطت بجدة وحرم الله عليها دخول الحرم والنظر إلى خيمة آدم وإلى شيء من مكة لأجل خطيئتها وأنها أرادت أن تدخل مع آدم إلى مكة فقال لها إليك عني قد خرجت من الجنة بسببك فتريدين أن أحرم هذا فكان آدم إذا أراد أن يلقاها ليلم بها خرج من الحرم كله حتى يلقاها بالحل

وذكر محمد بن جرير أن الله أهبط آدم على جبل سرنديب بالهند أي وتقدم ما فيه وحواء بجدة بالحاء المهملة وقيل بالجيم فجاء آدم في طلبها فتعارفا بالمحل الذي قيل له بسبب ذلك عرفة فاجتمعا بالمحل الذي قيل له بسبب ذلك جمع وزلفت إليه في المحل الذي قيل له بسبب ذلك مزدلفة وهذا يدل على أن جمع غير مزدلفة وهو خلاف المشهور من أن جمع هو مزدلفة إلا أن يقال كل من المحلين من جملة البقعة وأطلق كل من الإسمين على جميع تلك البقعة

وقيل سمي المحل عرفة لأن جبريل عليه الصلاة والسلام لما علم إبراهيم عليه الصلاة والسلام المناسك وانتهى إلى عرفة وقال له أعرفت مناسكك قال نعم فسمى عرفة أي والمراد مناسكه التي قبل عرفة وإلا فعظم المناسك بعد عرفة فليتأمل وفي الخصائص الصغرى عن رزين أنه روى أن آدم عليه الصلاة والسلام قال إن الله أعطى أمة محمد صلى الله عليه وسلم أربع كرامات لم يعطنيها كانت توبتي بمكة وأحدهم يتوب في كل مكان الحديث وهو يدل على أن توبته كانت بسبب طوافه بالبيت ويذكر أن حواء عاشت بعد آدم سنة

وجاء أن آدم لما فرغ من بناء البيت أمره الله تعالى بالمسير إلى أن يبنى بيت المقدس فسار وبناه ونسك فيه وحينئذ لا يشكل قوله صلى الله عليه وسلم وقد قيل له أي مسجد وضع في الأرض أولا المسجد الحرام قيل ثم أي قال بيت المقدس قيل كم كان بينهما قال أربعون سنة وحينئذ لا حاجة لجواب الإمام البلقيني إن المراد أن المدة

المذكورة بين أرضيهما في الدحو أي دحيت أرض المسجد الحرام ثم بعد مضي مقدار أربعين سنة دحيت أرض بيت المقدس وفيه أن الإمام البلقيني إنما أجاب بذلك بناء على أن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الباني للمسجد الحرام والباني لمسجد بيت المقدس سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام فإن بينهما كما قيل أكثر من ألف عام وكذا لا إشكال إذا كان الباني للمسجد الحرام آدم والباني لمسجد بيت المقدس أحد أولاده كما قيل بذلك ومن ثم أجاب بعضهم بأن سليمان إنما كان مجددا لبناء بيت المقدس وأما المؤسس له فسيدنا يعقوب بن إسحاق بعد بناء جده إبراهيم للمسجد الحرام بالمدة المذكورة وأما على أن الباني لهما آدم فلا إشكال وفي رواية أن أول من بنى الكعبة أي كلها بعد أن رفعت تلك الخيمة بعد موت آدم شيث ولد آدم بناها بالطين والحجارة أي فهي أولية إضافية ثم لما جاء الطوفان انهدم وبقي محله وقيل إنه استمر ولم يبنه أحد إلى زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام

وفي رواية أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أراد بناء الكعبة جاء جبريل فضرب بجناحه الأرض فأبرز عن أس ثابت على الأرض السابعة ثم بناها إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام على ذلك الأس ويقال له القواعد أي كما تقدم وهذا الأس كما علمت لآدم أو للملائكة أو لهما وإنما قيل له أساس إبراهيم وقواعد إبراهيم لأنه بنى على ذلك ولم ينقضه

ومما يدل للقيل المذكور ما جاء في بعض الروايات عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت دثر مكان البيت أي بسبب الطوفان بدليل ما جاء في رواية قد درس مكان البيت بين نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام وكان موضعه أكمة حمراء وكان يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض وما دعا عنده أحد إلا استجيب له وعن عائشة رضي الله تعالى عنها لم يحجه هود ولا صالح عليها الصلاة والسلام لتشاغل هود بقومه عاد وتشاغل صالح بقومه ثمود

وجاء إن بين المقام والركن وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيا وجاء إن حول الكعبة لقبور ثلاثمائة نبي وإن ما بين الركن اليماني إلى الركن الأسود لقبور سبعين نبيا وكل نبي من الأنبياء إذا كذبه قومه خرج من بين أظهرهم وأتى مكة يعبد الله عز وجل بها حتى يموت وجاء ما بين الركن اليماني والحجر الأسود روضة من رياض الجنة وإن قبر هود وصالح وشعيب وإسماعيل في تلك البقعة أقول ويوافق ذلك قول بضعهم إن إسماعيل دفن حيال الموضع الذي فيه الحجر

الأسود لكن جاء إن قبر إسماعيل في الحجر وذكر المحب الطبري أن البلاطة الخضراء التي بالحجر قبر إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقد يقال لا منافاة بين كون هود وصالح لم يحجا البيت وبين كونهما دفنا في تلك البقعة لأنه يجوز أن يكونا ماتا قبل وصولهما إلى البيت فجاء بهما ودفنا في تلك البقعة على أن بعضهم ضعف كونهما لم يحجا أي ويدل أنه قد جاء حجه هود وصالح ومن آمن معهما وفي بضع الروايات لم يحجه بين نوح وإبراهيم أحد من الأنبياء ويحتاج إلى الجمع بينه وبين ما تقدم من أن كل نبي إذا كذبه قومه إلى آخره على تقدير صحتها وقد يقال لا يحتاج إلى الجمع إلا أن يثبت أن بين نوح وإبراهيم أحد من الأنبياء كذبه قومه على أنه لم يكن بين نوح وإبراهيم أحد من الأنبياء كذبه قومه إلا هود وصالح وهو يؤيد القول بأنهما لم يحجا وتقدم ضعفه وجاء في حديث راويه متروك إن نوحا حجت به السفينة فوقفت بعرفات وباتت بمزدلفة وطافت به أي بالحرم كما تقدم أن السفينة لم تجاوز الحرم وهذا لا يناسبه قوله وسعت لأن السعي بين الصفا والمروة إلا أن يراد بالسعي نفس الطواف فهو من عطف التفسير وفي أنس الجليل ورد حديث شريف إن السفينة طافت ببيت المقدس أسبوعا واستوت على الجودي أي وجاء إن نوحا قال لأهل السفينة وهي تطوف بالبيت العتيق إنكم في حرم الله وحول بيته لا يمسه أحد امرأة وجعل بينهم وبين النساء حاجزا ويذكر أن ولده حاما تعدى ووطىء زوجته فدعا عليه بأن يسود الله لونه فاجاب الله دعاءه في أولاده فجاء ولده أسود وهو أبو السودان وقيل في سبب دعوة نوح وسوادهم غير ذلك وقد بينت ذلك في كتاب إعلام الطراز المنقوش في فضائل الحبوش والله أعلم وقبر آدم وإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف في بيت المقدس أي بعد نقل يوسف من بحر النيل كما سنذكره قال وقد جاء إن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى إبراهيم أن ابن لي بيتا فقال إبراهيم أي رب أين أبنيه فأوحى الله تعالى إليه أن اتبع السكينة أي وهي ريح لها وجه كوجه الإنسان أي وقيل كوجه الهر وجناحان ولها لسان تتكلم به أي وفي الكشاف في تفسير السكينة التي كانت في التابوت الذي هو صندوق التوراة قيل هو صورة من زبرجد أو ياقوت لها رأس كراس الهر وذنوب كذنبه

وعن علي رضي الله تعالى عنه كان لها وجه كوجه الإنسان هذا كلام الكشاف وفي رواية بعث الله ريحا يقال لها الخجوج لها جناحان ورأس في صورة حية فكشف لإبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما وسلم ما حول البيت من أساس البيت الأول وفي رواية أرسل الله سحابة فيها رأس فقال الرأس يا إبراهيم إن ربك يأمرك أن تأخذ بقدر هذه السحابة فجعل ينظر إليها ويخط قدرها ثم قال الرأس له قد فعلت قال نعم فارتفعت فليتأمل الجمع بين هذه الروايات وبينها وبين ما تقدم أن جبريل ضرب بحناحه الأرض فأبرز عن أس إلى آخره وجاء إن السكينة جعلت تسير ودليله الصرد وهو الطائر المعروف أي وهو طائر فوق العصفور يصيد العصافير وغيرها لأن له صفيرا مختلفا يصفر لكل طائر يريد صيده بلغته فيدعوه إلى القرب منه فإذا قرب منه قصمه من ساعته وأكله ويقال له الصوام لأنه ورد أنه أول طائر صام عاشوراء فعن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنه رأني رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى يدي صرد فقال هذا أول طير صام عاشوراء لكن قال الذهبي هو حديث منكر وقال الحاكم حديث باطل ويذكر أن خالد بن الوليد لما قتل طليحة الكذاب الذي ادعى النبوة في زمنه صلى الله عليه وسلم وقوى أمره بعد موته صلى الله عليه وسلم قال خالد لبعض أصحابه من أسلم ما كان يقول لكم طليحة من الوحي فقال كان يقول والحمام واليمام والصدرد الصوام ليلغن ملكنا العراق والشام وقد سمع نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام الصدرد يصوت فقال يقول استغفروا الله يا مذنبون وفي الكشاف أن ذلك صياح الهدهد ولا مانع أن يكون ذلك صياحهما وسمع طاوسا يصوت فقال يقول كما تدين تدان وسمع هدهدا يصوت فقال يقول من لا يرحم لا يرحم ويجمع بينه وبين ما تقدم بأنه يجوز أن الهدهد تارة يقول استغفروا الله يامذنبون وتارة يقول من لا يرحم لا يرحم وسمع خطافا يصوت فقال يقول قدموا خيرا تجدوه وسمع ديكًا يصوت فقال يقول اذكروا الله يا غافلون وسمع بلبلًا يصوت فقال يقول إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وصاحت فاختة فقال إنها تقول ليت الخلق لم يخلقوا وسمع رحمة تصوت فقال تقول سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه وقال الحدأة تقول كل شيء هالك إلا الله والقطاة تقول من

سكت سلم والبيغا تقول ويل لمن الدنيا همه والنسر يقول يا ابن آدم عش ما شئت
آخرك الموت والعقاب يقول في البعد عن الناس أنس
وعن سيدنا سليمان صلوات الله وسلامه عليه ليس من الطيور أنصح لبني آدم وأشفق
عليهم من البومة تقول إذا وقفت عند خربة أي الذين كانوا يتنعمون بالدنيا ويسعون فيها
ويل لبني آدم كيف ينامون وأمامهم الشدائد تزودوا يا غافلون وتهيئوا لسفركم
وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال خرجت مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم فرأينا طيرا أعمى يضرب بمنقاره على شجرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم
أتدري ما يقول فقلت الله ورسوله أعلم فقال إنه يقول اللهم أنت العدل وقد حجت
عني بصري وقد جعت فأقبلت جرادة فدخلت في فمه ثم ضرب بمنقاره الشجرة فقال
عليه الصلاة والسلام أتدري ما يقول قلت لا قال إنه يقول من توكل على الله كفاه
ويقال لما قال سليمان للهدهد لأعدنك عذابا شديدا قال له الهدهد اذكر يا نبي الله
وقوفك بين يدي الله فلما سمع سليمان صلوات الله وسلامه عليه ذلك ارتعد فرقا وعفا
عنه أي فإن الهدهد كان دليلا له على الماء فإن الهدهد يرى الماء تحت الأرض كما
يرى الماء في الزجاجة فلما فقد سليمان الماء تفقد الهدهد فلم يجده فأرسل خلفه
العقاب فرآه الهدهد مقبلا من جهة اليمن فلما رآه الهدهد منقضا عليه قال له بحق من
أقدرك على إلا ما رحمتني
قيل لابن عباس يا سبحان الله الهدهد يرى الماء تحت الأرض ولا يرى الفخ فقال إذا
وقع القضاء عمى البصر قيل عنى سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام بالعذاب الشديد
الذي يعذب به الهدهد التفرقة بينه وبين إلفه وقيل إزامه خدمة أقرانه وقيل صحبة
الأضداد وقد قيل أضييق السجون عشرة الأضداد وقيل الزوجة العجوز قال تعالى حكاية
عنه علمنا منطق الطير
قال بعضهم عبر عن أصواتها بالمنطق لما يتخيل منها من المعاني التي تدرك من النطق
فسليمان صلوات الله وسلامه عليه مهما سمع من صوت طائر علم بقوته القدسية
الغرض الذي أراده ذلك الطائر وهذا في طائر لم يفصح بالعبارة وإلا فقد يسمع من
بعض الطيور الإفصاح بالعبارة فنوع من الغربان يفصح بقوله الله حق

وعن بعضهم قال شاهدت غرابا يقرأ سورة السجدة وإذا وصل إلى محل السجود سجد وقال سجد لك سوادي ومن آمن بك فؤادي والدرة تنطق بالعبارة الفصيحة وقد وقع لي أنني دخلت منزلاً لبعض أصحابنا وفيه درة لم أرها فإذا هي تقول لي مرحبا بالشيخ البكري وتكرر ذلك فعجبت من فصاحة عبارتها وكان عليه السلام يعرف نطق الحيوان غير الطير فقد جاء أن سليمان عليه السلام سمع النملة وقد أحست بصوت جنود سليمان تقول للنمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فعند ذلك أمر سليمان الريح فوقفت حتى دخل النمل مساكنها ثم جاء سليمان إلى تلك النملة وقال لها حذرت النمل ظلمي قالت أما سمعت قلبي وهم لا يشعرون على أنني لم أرد حطم النفوس أي إهلاكها إنما أردت حطم القلوب خشية أن يشتغلن بالنظر إليك عن التسبيح أي فيمتن فقد جاء مرفوعاً آجال البهائم كلها وحشاش الأرض في التسبيح فإذا انقضى تسبيحها قبض الله أرواحها ويروى ما من صيد يصاد ولا شجرة تقطع إلا بغفلتها عن ذكر الله تعالى وفي الحديث الثوب يسبح فإذا اتسخ انقطع تسبيحه وفي رواية إن النملة قالت له إنما خشيت أن تنظر إلى ما أنعم الله به عليك فتكفر نعم الله عليها فقال لها عطيني قالت هل تدري لم جعل ملكك في فص خاتمك قال لا قالت أعلمك أن الدنيا لا تساوي قطعة من حجر ومن عجيب صنع الله تعالى أن النملة تغتذي بشم الطعام لأنها لا جوف لها يكون به الطعام ويذكر أن هذه النملة التي خاطبت سيدنا سليمان أهدت له نبقة فوضعها في كفه ويحكى عنها لطيفة لا نطيل بذكرها وفي فتاوى الجلال السيوطي قال الثعالبي في زهرة الرياض لما تولى سليمان عليه الصلاة والسلام الملك جاءه جميع الحيوانات يهنئونه إلا نملة واحدة فجاءت تعزیه فعاتبها النمل في ذلك فقال كيف أهنيه وقد علمت أن الله تعالى إذا أحب عبداً زوى عنه الدنيا وحبب إليه الآخرة وقد شغل سليمان بأمر لا يدري ما عاقبته فهو بالتعزية أولى من التهنئة وجاء في بعض الأيام شراب من الجنة فقيل له إن شربته لم تمت فشاور جنده فكل أشار بشربه إلا القنفذ فإنه قال له لا تشربه فإن الموت في عز خير من البقاء في سجن الدنيا قال صدقت فأراق الشراب في البحر قال وصار إبراهيم وإسماعيل صلوات الله وسلامه عليهما يتبعان الصرد حتى وصلا

إلى محل البيت صارت السكينة سحابة وقالت يا إبراهيم خذ قدر ظلي فابن عليه أي وفي لفظ لما أمر إبراهيم ببناء البيت ضاق به ذرعا فأرسل إليه السكينة وهي ريح خجوج ملتوية في هبوبها لها رأس الحديد فحفر إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام فأبرزوا أي الحفر عن أس ثابت في الأرض فبنى إبراهيم وإسماعيل يناول الحجارة أي التي تأتي بها الملائكة كما سيأتي حتى ارتفع البناء أقول يحتمل أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أوحى الله إليه بذلك كان في مكة عند إسماعيل وإنهما كانا بمحل بعيد عن محل البيت ويحتمل أنهما كانا بغيرها ثم جاء وقد قيل في قوله تعالى * (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله) * الآية أي قائما مقام الأمة لإنفراده بعبادة الله تعالى في أرضه لأنه لم يمكن على وجه الأرض من يعبد الله سواه والله أعلم

قال ثم لما ارتفع البناء جاء المقام أي وهو الحجر المعروف فقام عليه وهو بينى وهما يقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم وصار كلما ارتفع البناء ارتفع به المقام في الهواء فأثر قدم إبراهيم في ذلك الحجر وقيل إنما أثر في صخرة اعتمد عليها وهو قائم حين غسلت زوجة إسماعيل له رأسه لأن سارة كانت أخذت عليه عهدا حين استأذنها في الذهاب إلى مكة لينظر كيف حال إسماعيل وهاجر فحلف لها إنه لا ينزل عن دابته أي التي هي البراق ولا يزيد على السلام وإستطلاع الحال غير من سارة عليه من هاجر فحين اعتمد على الصخرة ألقى الله تعالى فيها أثر قدمه آية وفيه كيف يعتمد بقدمه على الصخرة وهو راكب دابته إلا أن يقال لما مال بشقه اعتمد عليها بإحدى رجليه مع ركوبه وهذا يدل على أن الموجود في المقام أثر قدمه لا قدميه ووقوفه عليه في حال البناء يدل على أن الموجود فيه المام أثر قدميه فليُنظر وجعل ارتفاع البيت تسعة أذرع قيل وعرضه ثلاثين ذراعا قال بعضهم وهو خلاف المعروف ولم يجعل له سقفا ولا بناء بمدر وإنما رصه رصا وجعل له بابا أي منفذا لاصقا بالأرض غير مرتفع عنها ولم ينصب عليه بابا أي يقفل إنما جعله تبع الحميري بعد ذلك وحفر له بئرا داخله عند بابه أي على يمين الداخل منه يلقي فيها ما يهدى إليه وكان يقال لها خزانة الكعبة كما تقدم

ولما أراد أن يجعل حجرا يجعله علما للناس أي يتدئون الطواف منه ويختمون به ذهب إسماعيل عليه الصلاة والسلام إلى الوادي يطلب حجرا فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام

بالحجر الأسود يتلألاً نورا أي فكان نوره يضيء إلى منتهى أبواب الحرم من كان ناحية وفي الكشاف إنه اسود لما لمستته الحيض في الجاهلية وتقدم أنه اسود من مسح آدم به دموعه وجاء إن خطايا بني آدم سودته وأما شدة سواده فبسبب إصابة الحريق له أولا في زمن قريش وثانيا في زمن عبد الله بن الزبير وقد كان رفع إلى السماء حين غرقت الأرض زمن نوح بناء على أنه كان موجودا في تلك الخيمة كما تقدم وفي رواية إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما قال لإسماعيل يا بني اطلب لي حجرا حسنا أضعه ههنا قال يا أبتى إنني كسلان لغب أي تعب قال علي بذلك فانطلق يأتيه بحجر فجاءه جبريل بالحجر من الهند وهو الحجر الذي خرج به آدم من الجنة أي كما تقدم فوضعه إبراهيم موضعه وقيل وضعه جبريل وبني عليه إبراهيم وجاء إسماعيل بحجر من الوادي فوجد إبراهيم قد وضع ذلك الحجر أي أو بني عليه فقال من أين هذا الحجر من جاءك به قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام من لا يكلني إليك ولا إلى حجرك أي وفي لفظ جاءني به من هو أنشط منك وفي لفظ إن إسماعيل جاءه بحجر من الجبل قال غير هذا فرده مرارا لا يرضى ما يأتيه به وجاء إن الله تعالى استودع الحجر أبا قبيس حين أغرق الله الأرض زمن نوح عليه الصلاة والسلام وقال إذا رأيت خليلي بيني بيتي فأخرجه له أي فلما انتهى إبراهيم عليه الصلاة والسلام لمحل الحجر نادى أبو قبيس إبراهيم فقال يا إبراهيم هذا الركن فجاء فحفر عنه فجعله في البيت وقيل تمخض أبو قبيس فانشق عنه أقول وفي لفظ قال يا إبراهيم يا خليل الرحمن إن لك عندي وديعة فخذها فإذا هو بحجر أبيض من يواقيت الجنة ومن ثم كان أبو قبيس يسمى في الجاهلية الأمين لحفظه ما استودع ويسمى أبا قبيس باسم رجل من جرهم اسمه قبيس هلك فيه وقيل باسم رجل من مذحج بني فيه يقال له أبو قبيس وقيل لأنه اقتبس منه الحجر الأسود فسمي بذلك ويحتاج إلى الجمع بين ما ذكر على تقدير صحته وما ذكر في ترجمة إلياس أحد أجداده صلى الله عليه وسلم أنه أول من وضع الركن أي الحجر الأسود حين غرق البيت وانهدم زمن نوح فكان أول من سقط عليه أي أول من علم به فوضعه في زاوية البيت فليتأمل ذلك والله أعلم أي وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال عند المقام أشهد بالله يكررها لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الركن والمقام

يا قوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ولولا أن نورهما طمس لأضاء ما بين
المشرق والمغرب أي من نورهما ولعل طمس نور الحجر كان سببه ما تقدم فلا
مخالفة

وجاء إنهما يقفان يوم القيامة وهما في العظم مثل أبي قبيس يشهدان لمن وافاهما
بالوفاء وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لولا ما مسهما من أهل الشرك ما مسهما
ذو عاهة إلا شفاه الله تعالى

وعن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه لما خلق الله الخلق قال لبني آدم ألسنت بربكم
قالوا بلى فكتب القلم إقرارهم ثم ألقم ذلك الكتاب الحجر فهذا الاستلام له إنما هو
بيعة على إقرارهم الذي كانوا أقرؤا به قال رضي الله تعالى عنه وكان أبي علي يقول إذا
استلم الحجر يقول اللهم أمانتي أديتها وميثاقي وفيت به ليشهد لي عندك بالوفاء وفي
كلام السهيلي إن العهد الذي أخذه الله تعالى على ذرية آدم حين مسح ظهره أن لا
يشركوا به شيئاً كتبه في صك وألقمه الحجر الأسود ولذلك يقول المستلم اللهم إيماناً
بك ووفاء بعهدك وقد جاء الحجر الأسود يمين الله في الأرض

قال الإمام ابن فورك وكان ذلك سبباً لإشتغالي بعلم الكلام فإني لما سمعت ذلك
سألت فقيها كنت أختلف إليه عن معناه فلم يحرجوا فقلت لي سل عن ذلك فلانا من
المتكلمين فسألته فأجاب بجواب شاف فقلت لا بد لي من معرفة هذا العلم فاشتغلت
به وهذا الذي قاله السهيلي يروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

فعن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه لما دخل المطاف قام عند الحجر وقال والله إني
لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
قبلك ما قبلتك فقال له علي رضي الله تعالى عنه بلى يا أمير المؤمنين هو يضر وينفع
قال ولم قلت ذاك بكتاب الله قال وأين ذلك من كتاب الله قلت قال الله تعالى * (وإذ
أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم) * الآية وكتب ذلك
في رق وكان هذا الحجر له عينان ولسان فقال له افتح فاك فألقمه ذلك الرق وجعله في
هذا الموضع فقال تشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة فقال عمر رضي الله عنه أعوذ
بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن
وعن قتادة قال ذكر لنا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنى البيت من خمسة أجبل من
طور سيناء وطور زيتا ولبنان والجودي وحراء

وذكر لنا أن قواعده من حراء التي وضعها آدم مع الملائكة
أقول تقدم أن تلك القواعد كانت من جبل لبنان ومن طور سيناء ومن طور زيتا ومن
الجودي ومن حراء إلا أن يقال يجوز أن يكون معظم ذلك كان من حراء فليتأمل
وذكر بعضهم أنه كان له ركنان وهما اليمانان أي لم يجعل له إبراهيم عليه الصلاة و
السلام إلا الركنين المذكورين فجعلت له قريش حين بنته أربعة أركان
وذكر الحافظ ابن حجر أن ذا القرنين الأول وهو المذكور في القرآن في قصة موسى
عليه الصلاة والسلام وهو إسكندر الرومي قدم مكة فوجد إبراهيم وإسماعيل عليهما
الصلاة والسلام بينان الكعبة فاستفهمهما عن ذلك فقالا نحن عبدان مأموران فقال لهما
من يشهد لكما فقامت خمسة أكبش شهدت أي قلن نشهد أن إبراهيم وإسماعيل
عبدان مأموران بالبناء فقال رضيت وسلمت وقال لهما صدقتما
وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام بمكة وأقبل
ذو القرنين عليهما فلما كان بالأبطح قيل له في هذه البلدة إبراهيم خليل الرحمن فقال
ذو القرنين كما ينبغي لي أن أركب في بلدة فيها إبراهيم خليل الرحمن فنزل ذو القرنين
ومشى إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام فسلم عليه إبراهيم واعتنقه فكان هو أول من
عانق عند السلام
قال الفاكهي وأظن أن الأكبش المذكورة أي التي شهدت أحجارا ويحتمل أن تكون
غنما
ووصف ذي القرنين بالأكبر احترازا من ذي القرنين الأصغر وهو الإسكندر اليوناني فإنه
كان قريبا من زمن عيسى عليه الصلاة والسلام وبين عيسى وإبراهيم عليهما الصلاة
والسلام أكثر من ألفي سنة وكان كافرا والله أعلم
وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما فرغ إبراهيم صلى الله عليه وسلم من بناء
البيت قال يا رب قد فرغت قال أذن في الناس بالحج قال أي ورب ومن يبلغ صوتي
قال الله جل ثناؤه أذن وعلي البلاغ قال أي ورب كيف أقول قال قل يا أيها الناس
كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربكم عز وجل فوقف على المقام وارتفع به
حتى كان أطول الجبال فنادى وأدخل أصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه شرقا وغربا ينادي
بذلك ثلاث مرات أي وزويت الأرض له يومئذ سهلها وجبلها وبحرها وبرها

وأنسها وجنّها حتى أسمعهم جميعاً فقالوا لبيك اللهم لبيك وبدأ بشق اليمن وحينئذ يكون أول من أجاب أهل اليمن وسيأتي التصريح بذلك في بعض الروايات وعن ابن عباس رضي الله عنهما كان أهل اليمن أكثر إجابة ومن ثم جاء في الحديث الإيمان يمان وقال صلى الله عليه وسلم في حق أهل اليمن يريد أقوام أن يضعوهم ويأبى الله إلا أن يرفعهم

وروى الطبراني بإسناده عن علي رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب أهل اليمن فقد أحبني ومن أبغضهم فقد أبغضني ومما يؤثر عن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه وقد ذكر في تفسير قوله تعالى* (فيه آيات بينات مقام إبراهيم)* هو نداء إبراهيم على المقام بما ذكر

وقيل له البيت العتيق لأنه أعتق من الجبابرة لم يدعه أي بحيث ينسب إليه جبار من الجبابرة الذين كانوا بمكة مع العمالقة وجرهم

وقال القاضي تبعاً للكشاف لأنه أعتق من تسلط الجبابرة فكم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله تعالى قال وأما الحجاج فإنما كان قصده إخراج ابن الزبير عنه لما تحصن به دون التسلط عليه كذا قال

قال بعضهم وعن عبد الله بن عمر أنه قال إنما سميت بكة أي بالموحدة لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة ولينظر من قصده هدمه اثنان قاتلتها خزاعة ومنعتها والثالث كان في أول زمان قريش أراد هدمه حسداً على شرف الذكر لقريش به وأن يبنى عنده بيتاً يصرف حجاج العرب إليه فلما قارب مكة أظلمت الأرض وأيقن بالهلاك فأفلق عن تلك النية ونوى أن يكسوا البيت وينحر عنده فانجلت الظلمة ففعل ذلك

وفيه أن هذا الذي حصلت له الظلمة إنما هو تبع الأول فإنه لما عمد إلى البيت يريد تخريبه أرسلت عليه ريح كتعت منه يديه ورجليه وأصابته وقومه ظلمة شديدة وفي رواية أصابه داء تمخض منه رأسه قيحا وصديدا أي يشج ثجا حتى لا يستطيع أحد أن يدنو منه فدعا بالأطباء فسألهم عن دائه فهالهم ما رأوا منه ولم يجد عندهم فرجا فعند ذلك قال له الحبر لعلك هممت بشيء في حق هذا البيت فقال نعم أردت هدمه

فقال له تب إلى الله مما نويت فإنه بيت الله وحرمه وأمره بتعظيم حرمة ففعل فبرأ من دائه

وقيل لأنه أول بيت وضع في الأرض وقيل لأنه أعتق من الغرق بسبب الطوفان في زمن نوح عليه الصلاة والسلام كذا في الكشاف وغيره وفيه نظر ظاهر لما تقدم من دثوره بالطوفان ولما ذكر في قصة نوح أنه لما بعث الحمامة من السفينة لتأتيه بخبر الأرض فوقفت بوادي الحرم فإذا الماء قد نضب من موضع الكعبة وكانت طينتها حمراء فاختضبت رجلاها إلا أن يقال إن معنى أعتق أنه لم يذهب بالمرة بل بقي أثره وفي الخميس عن ابن هشام أن ماء الطوفان لم يصل للكعبة ولكن قام حولها وبقيت هي في هواء السماء أي بناء على الكعبة هي الخيمة التي كانت على زمن آدم عليه الصلاة والسلام وتقدم عن الكشاف أنها رفعت إلى السماء الرابعة وأنها البيت المعمور وهذا كما علمت يدل على أن المراد بالكعبة الخيمة التي كانت لآدم وقوله قام حولها يريد أنه لم يعل محل تلك الخيمة ولعله لا ينافيه ما تقدم في قصة نوح فليتأمل وفي رواية أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام نادى يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج وفي لفظ إن ربكم قد اتخذ بيتا وطلب منكم أن تحجوه فأجيبوا ربكم كمر ذلك ثلاث مرات فأسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء فأجابه من كان سبق في علم الله أنه يحج إلى يوم القيامة لبيك اللهم لبيك فليس حاج يحج إلى أن تقوم الساعة إلا ممن كان أجاب إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومن لبي تلبية واحدة حج حجة واحدة ومن لبي مرتين حج حجتين وهكذا وفي لفظ لما نادى إبراهيم عليه الصلاة والسلام فما خلق الله من جبل ولا شجر ولا شيء من المطيعين له إلا أجاب لبيك اللهم لبيك أقول لا يخفى أنه يحتاج إلى الجمع بين هذه الروايات فيما نادى به إبراهيم عليه الصلاة والسلام وسيأتي ومعلوم أن إجابة غير العقلاء إجابة إجلال وتعظيم ولعل المراد بالكتب مطلق الطلب لا خصوص الوجوب لأنه لم يفرض الحج على هذه الأمة إلا بعد الهجرة في السنة السادسة وقيل التاسعة وقيل العاشرة كما سيأتي وأما بقية الأمم من بعد إبراهيم فلم أقف على وجوب الحج عليها

وقد ذكر بعض المتأخرين من أصحابنا أن الصحيح أنه لم يجب الحج إلا على هذه الأمة واستغرب وفي الخصائص الصغرى وافترض عليهم أي على هذه الأمة ما افترض

على الأنبياء والرسل وهو الوضوء والعسل من الجنابة والحج والجهاد وهو يفيد أنه كان واجبا على الأنبياء والرسل وفيه أن الأصل أن ما وجب في حق نبي وجب في حق أمته إلا أن يقوم الدليل الصحيح على الخصوصية وقوله وهو الوضوء سيأتي ما في الوضوء والله أعلم أي ثم أمر بالمقام فوضعه قبله أي ملصقا بالبيت على يمين الداخل فكان يصلي إليه مستقبل الباب أي جهته وأول من أخره عن ذلك المحل ووضعه موضعه الآن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أي وقد تقدم ذلك عن ابن كثير أقول وقيل إن أول من وضعه موضعه الآن النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة وسيأتي الجمع بين هذين القولين ويأتي ما فيه وذكر الطبري أن محله أولا المنخفض أي الذي تسميه العامة المعجنة أي محل عجن الطين للكعبة وذلك المنخفض هو محل صلاة جبريل به صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس في اليومين كما سيأتي ونازع في ذلك العز بن جماعة وقال لو كان ذلك لشهر عليه بالكتابة في الحفرة ورد بأن ذلك ليس بلازم والناقل ثقة وهو حجة على من لم ينقل وذكر ابن حجر الهيثمي أن في رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام صعد أبا قبيس وقيل صعد ثبيرا وأذن وأن أول من أجابه أهل اليمن أي لما تقدم أنه بدأ بشق اليمن ولا مانع من تعدد ذلك أي وقوفه على تلك الأماكن التي هي المقام وأبو قبيس وثبير ويجوز أن يكون قال في بعض تلك الأماكن ما لم يقله في غيره مما تقدم فلا مخالفة بين تلك الروايات فيما نادى به إبراهيم عليه الصلاة والسلام وجاء إنه لما فرغ من دعائه ذهب به جبريل فأراه الصفا والمروة وحدود الحرم وأمره أن ينصب عليها الحجارة ففعل وعلمه المناسك أي مع إسماعيل عليهما الصلاة والسلام

ففي العرائس خرج جبريل بهما يوم التروية إلى منى فصلى بهما الظهر والعصر والمغرب والعشاء والآخرة ثم باتا بها حتى أصبحا فصلى بهما صلاة الصبح ثم غدا بهما إلى عرفة فقام بهما هناك حتى زالت الشمس جمع بين الصلاتين الظهر والعصر ثم رجع بهما إلى الموقف من عرفة فوقف بهما على الموقف الذي يقف عليه الناس الآن فلما غربت الشمس دفع بهما إلى مزدلفة فجمع بين الصلاتين المغرب والعشاء الآخرة

ثم بات بهما حتى طلع الفجر ثم صلى بهما صلاة الغداة ثم وقف بهما على قزح حتى إذا أسفر أفاض بهما إلى منى فأراهما كيف رمى الجمار ثم أمرهما بالذبح وأراهما المنحر من منى وأمرهما بالحلق ثم أفاض بهما إلى البيت فليتأمل ذلك فإن فيه التصريح بأن إبراهيم وإسماعيل صليا مع جبريل جماعة الصلوات الخمس وجمعا تقديما بين الظهر والعصر وتأخيرا بين المغرب والعشاء للنسك وهو مخالف لقول أئمتنا لم تجمع الصلوات الخمس إلا لنبينا صلى الله عليه وسلم

ففي الخصائص الصغرى وخص بمجموع الصلوات الخمس ولم تجتمع لأحد وبالعشاء ولم يصلها أحد وبالجماعة في الصلاة إلا أن يدعى أن المراد الجمع على جهة المداومة على ذلك لجواز أن يكون إبراهيم وإسماعيل عليها الصلاة والسلام لم يداوما على ذلك وفيه ما لا يخفى

وفي الوفاء عن وهب قال أوحى الله تعالى إلى آدم عليه الصلاة والسلام أنا الله ذو بكة أهلها جيرتي وزوارها وفدى وفي كتفي أعمره بأهل السماء وأهل الأرض يأتونه أفواجا شعثا غربا يعجون بالتكبير عجا ويرجون بالتلبية ترجيجا ويثجون بالبكاء ثجا فمن اعتمره لا يريد غيره فقد زارني وضافني ووفد إلي ونزل بي وحق لي أن أتحفه بكرامتي أجعل ذلك البيت وذكره وشرفه ومجده وثنائه لنبي من ولدك يقال له إبراهيم أرفع له قواعده وأقضى على يديه عمارته وأنيط له سقايته وأريه حله وحرمه وأعلمه مشاعره ثم يعمره الأمم والقرون حتى ينتهي إلى نبي من ولدك يقال له محمد خاتم النبيين وأجعله من سكانه وولاته وحجابه وسقائه فمن سأل عني يومئذ فأنا من الشعث الغبر الموفين بنذورهم المقبلين على ربهم

ولما دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى * (وارزقهم من الثمرات) * أي دعا بذلك وهو على ثنية كداء بالمد فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين قال * (فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات) * كان على الثنية العليا ذكره السهيلي وعند ذلك نقل له الطائف من فلسطين من أرض الشام أي و بركة دعائه عليه الصلاة والسلام يوجد بمكة الفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد ذكره في الكشاف ثم لما فرغ أي من بناء البيت وحج طاف بالبيت لقيته الملائكة في الطواف فسلموا

عليه فقال لهم ما تقولون في طوافكم قالوا كنا نقول قبل أبيك آدم سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فأعلمناه بذلك فقال زيدوا ولا حول ولا قوة إلا بالله فقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام زيدوا فيها العلي العظيم فقالت الملائكة ذلك وكان بناء إبراهيم للبيت بعد مضي من عمره مائة سنة ثم بناه العماليق ثم بنته جرهم وقيل عكسه وقد يتوقف في بناء العماليق له

أما في الأول فلأن أول من نزل مكة مع هاجر وولدها إسماعيل جرهم وإنهم بعد إسماعيل وبعض ولده كانوا ولاية البيت وأما في الثاني فلأن ولاية البيت كانت لخزاعة بعد جرهم كما تقدم وكيف بينون البيت ولا ولاية لهم عليه إلا أن يقال لا مانع أن يكونوا حينئذ أهل ثروة بخلاف جرهم وخزاعة

ثم رأيت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن العماليق كانوا عز وكانت لهم أموال كثيرة وأن الله سلبهم ذلك لما تظاهروا بالمعاصي وسلط عليهم الذر حتى خرجوا من الحرم وتفرقوا وهلكوا والذر في النمل كالزنبور في النحل

وفي تاريخ مكة للفاكهي أن العماليق قدموا مكة لما قدم وفد عاد للإستسقاء بالبيت وقيل كانوا بعرفة ولما أخرج الله تعالى زمزم لإسماعيل بواسطة جبريل ففي ربيع الأبرار أن جبريل أخرج ماء زمزم مرتين مرة لآدم ومرة لإسماعيل وعند ذلك تحولوا إلى مكة قال المقرئزي لما علموا بذلك وقيل كانوا بعد جرهم ولا يصح ذلك ثم رأيت المقرئزي قال وفي كتاب أخبار مكة للفاكهي ما يدل على تقدم بناء جرهم على بناء العمالقة ولا يصح ذلك لإتفاقهم على أن ولاية العمالقة على مكة كانت قبل ولاية جرهم وعلى أنه لم يل مكة بعد جرهم إلا خزاعة

ولا يخفى أن هذا صريح في أن العمالقة بنته ولا بد وأن بناءهم له كان قبل بناء جرهم له والعماليق من ولد عملاق أو عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام قيل وهو أول من كتب بالعربية وقيل من ولد العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ثم بناه قصي جده صلى الله عليه وسلم وسقفه بخشب الروم وجريد النخل ثم بنته قريش كما تقدم ثم بناه بعد قريش عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما أي ويكنى أبا خبيب بضم الخاء المعجمة وفتح الباء الموحدة وكنى بأبي خبيب لأن

خبيبا كان رجلا بالمدينة من النساك طويل الصلاة قليل الكلام أي وعبد الله رضي الله تعالى عنه كان مشابها له في ذلك فكنى به

هذا وفي كلام ابن الجوزي أنه كان لعبد الله بن الزبير ولد يقال له خبيب حيث قال خبيب بن عبد الله بن الزبير ضربه عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد مائة سوط فمات لأنه لما حدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا بلغ بنو أبي العاص أربعين رجلا وفي رواية ثلاثين رجلا وفي رواية إذا بلغ بنو أمية أربعين رجلا اتخذوا عباد الله تعالى خولا أي عبيدا ومال الله دولا ودين الله دغلا وفي رواية بدل دين الله كتاب الله قال ابن كثير وهذا الحديث أي ذكر بني أمية وذكر الأربعين منقطع ولما بلغ الوليد ما ذكر خبيب كتب لابن عمه عمر بن عبد العزيز وهو والي المدينة أن يضرب خبيبا هذا مائة سوط ففعل ثم برد ماء في جرة وصبه أي في يوم شات عليه وحبسه فلما اشتد وجعه أخرجه وندم على ما فعل فلما مات وسمع بموته سقط إلى الأرض واسترجع واستعفى من ولاية المدينة فكان عمر بن عبد العزيز إذا قيل له أبشر قال كيف أبشر وخبيب على الطريق أي عائق لي

وفي دلائل النبوة للبيهقي عن بعضهم قال كنت عند معاوية بن أبي سفيان ومعه ابن عباس على السرير فدخل عليه مروان بن الحكم فكلمه في حاجته وقال اقص حاجتي يا أمير المؤمنين فوالله إن مؤنتي لعظيمة فإني أبو عسرة وعم عشرة وأخو عشرة فلما أدبر مروان قال معاوية لابن عباس رضي الله تعالى عنهما أشهدك بالله يا ابن عباس أما تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلا اتخذوا مال الله بينهم دولا وعباد الله تعالى خولا وكتاب الله دغلا فإذا بلغوا تسعة وتسعين وأربعمائة كان هلاكهم أسرع من لوك تمره فقال ابن عباس اللهم نعم ثم ذكر مروان حاجة فرد مروان ولده عبد الملك إلى معاوية فكلمه فيها فلما أدبر عبد الملك قال معاوية أنشدك الله يا ابن عباس أما تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر هذا فقال أبو الجبابرة الأربعة فقال ابن عباس اللهم نعم فإن أربعة من ولده ولوا الخلافة فليتأمل هذا فإنه ربما يدل على أن عبد الملك صحابي إلا أن يقال ذكره قبل وجوده فهو من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم وفي كلام ابن كثير هذا الحديث في غرابة ونكارة شديدة

هذا وقد رأيت عن بعض حواشي الكشاف أن أعداء عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما هم الذين كانوا يكنونه بأبي خبيب لأن خبيبا كان من أخس أولاده ويرده قول بعضهم يغلب للشرف كالحبيبين لخبيب بن عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب وذكر ابن الجوزي أيضا فيمن ضرب بالسياط من العلماء سعيد بن المسيب ضربه عبد الملك بن مروان مائة سوط لأنه بعث ببيعة الوليد إلى المدينة فلم يبايع سعيد فكتب أن يضرب مائة سوط ويصب عليه جرة ماء في يوم شات ويلبس جبة صوف ففعل به ذلك أي كما فعل بخبيب

ثم رأيت في تاريخ الحافظ ابن كثيرة لما عهد عبد الملك لولده الوليد في حياته وانتهت البيعة إلى المدينة امتنع سعيد بن المسيب أن يبايع فضربه نائب المدينة ستين سوطا وألبسه ثيابا من شعر وأركبه جملا وطاف به في المدينة ثم أودع السجن فلما بلغ ذلك عبد الملك أرسل يعنف والي المدينة على ذلك ويأمره بإخراجه من الحبس هذا كلامه

وفي كلام البلاذري وكان جابر بن الأسود عاملا لابن الزبير على المدينة وهو الذي ضرب سعيد بن المسيب ستين سوطا إذ لم يبايع لابن الزبير هذا كلامه إلا أن يقال لا مانع أن يكون سعيد فعل به الأمران لأن ولاية ابن الزبير سابقة على ولاية عبد الملك والد الوليد ثم رأيت الحافظ ابن كثير صرح بذلك حيث ذكر أن سعيد بن المسيب ضرب بالسياط المذكورة وفعل به ما تقدم لما امتنع من المبايعة لابن الزبير وفعل به ذلك أيضا لما امتنع من البيعة للوليد

وفي طبقات الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى في ترجمة سعيد بن المسيب وضربه عبد الملك بن مروان حيث امتنع من مبايعته وألبسه المسوح ونهى الناس عن مجالسته فكان كل من جلس إليه يقول له قم لا تجالسي فإنهم قد جلدوني ومنعوا الناس عن مجالستي هذا كلامه إلا أن يقال المراد امتنع من قبول مبايعة عبد الملك لولده الوليد فلا مخالفة وإنما امتنع سعيد بن المسيب من المبايعة للوليد لأنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه سيكون في هذه الأمة رجل يقال له الوليد فهو شر لأمتي من فرعون لقومه وفي رواية هو أضر على أمتي من فرعون على قومه زاد

في رواية يسد به ركن من أركان جهنم وفي لفظ زاوية من زوايا جهنم فكان الناس يرون أنه الوليد بن عبد الملك قال ابن كثير وهو الوليد ابن يزيد بن عبد الملك لا الوليد بن عبد الملك الذي هو عمه

وكان سعيد بن المسيب أعبر الناس للرؤيا قال له رجل رايت كأني أبول في يدي فقال تحتك ذات محرم فنظر فإذا بينه وبين امرأته رضاعة وأخذ سعيد تعبير الرؤيا عن أسماء بنت أبي بكر وهي أخذت ذلك عن والدها أبي بكر رضي الله تعالى عنهما وعن سعيد أخذ ابن سيرين ذلك

وعن ابن سيرين كان أبو بكر أعبر هذه الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم وكان يعبر الرؤيا في زمنه صلى الله عليه وسلم وفي حضرته وعن الزهري رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا فقصها على أبي بكر فقال رأيت كأني استبقت أنا وأنت درجة فسبقتك بمرقاتين ونصف قال يا رسول الله يقبضك الله إلى مغفرة ورحمة وأعيش بعدك سنتين ونصفا فكان كما عبر فقد عاش بعده صلى الله عليه وسلم سنتين وسبعة أشهر وقال له رأيتني أردفت غنما سوادا ثم أردفتها غنما بيضا حتى ما ترى السود فيها فقال أبو بكر يا رسول الله أما الغنم فإن العرب يسلمون ويكثرون والغنم البيض الأعمام يسلمون حتى لا ترى العرب فيهم من كثرتهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك عبرها الملك سحيرا

وسبب بناء عبد الله بن الزبير للكعبة أن يزيد بن معاوية لما وجه الجيش عشرين ألف فارس وسبعة آلاف راجل وأميرهم مسلم بن قتيبة لقتال أهل المدينة لما علم أنهم خرجوا عن طاعته أي وأظهروا شتمه وأعلنوا بأنه ليس له دين لأنه اشتهر عنه نكاح المحارم وإدمان شرب الخمر وترك الصلاة وأنه يلعب بالكلاب أي فقد ذكر بعض ثقات المؤرخين أنه كان له قرد يحضره مجلس شرابه ويطرح له وسادة ويسقيه فضلة كأسه واتخذ له أتانا وحشية قد ربضت له وصنع لها سرجا من ذهب يركب عليها ويسابق بها الخيل في بعض الأيام وكان يلبس عليه قباء وقلنسوة من الحرير الأحمر وقد استفتى الكيا الهراسي من أكابر أئمتنا معاشر الشافعية كان من رؤوس تلامذة إمام الحرمين نظير الغزالي عن يزيد هذا هل هو من الصحابة وهل يجوز لعنه فأجاب

بأنه ليس من الصحابة لأنه ولد في أيام عمر بن الخطاب وللإمام أحمد قولان أي في لعنه تلويح وتصريح وكذلك الإمام مالك وكذا لأبي حنيفة ولنا قول واحد التصريح دون التلويح وكيف لا يكون كذلك وهو اللاعب بالنرد والمصيد بالفهود ومدمن الخمر وشعره في الخمر معلوم هذا كلامه

وسئل الغزالي هل من صرح بلعن يزيد يكون فاسقا وهل يجوز الترحم عليه فأجاب بأن من لعنه يكون فاسقا عاصيا لأنه لا يجوز لعن المسلم ولا يجوز لعن البهائم فقد ورد النهي عن ذلك وحرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة بنص النبي صلى الله عليه وسلم ويزيد صح إسلامه وما صح أمره بقتل الحسين ولا رضاه بقتله وما لم يصح منه ذلك لا يجوز أن يظن به ذلك فإن إساءة الظن بالمسلم حرام وإذا لم يعرف حقيقة الأمر وجب إحسان الظن به ومع هذا فالقتل ليس بكفر بل هو معصية وأما الترحم عليه فهو جائز بل هو مستحب لأنه داخل في المؤمنين في قولنا في كل صلاة اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات هذا كلامه وكان على ما أفتى به الكيا الهراسي من جواز التصريح بلعنه أستاذنا الأعظم الشيخ محمد البكري تبعا لوالده الأستاذ الشيخ أبي الحسن وقد رأيت في كلام بعض أتباع أستاذنا المذكور في حق يزيد ما لفظه زاده الله خزيا وضعه وفي أسفل سجين وضعه

وفي كلام ابن الجوزي أجاز العلماء الورعون لعنه وصنف في إباحة لعنه مصنفا وقال السعد التفتازاني إني لأشك في إسلامه بل في إيمانه فلعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه وعلى هذا يكون مستثنى من عدم جواز لعن الكافر المعين بالشخص ولما خلعوا أي أهل المدينة بيعة يزيد ولوا عليهم عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة وأخرجوا والي يزيد من المدينة وهو مروان بن الحكم وبني أمية حتى قال بعضهم ما خرجنا عليه حتى خفنا أن نرمى بحجارة من السماء فكانت وقعة الحرة المشهورة التي كادت تبعد أهل المدينة عن آخرهم قتل فيها الجحيم الكثير من الصحابة والتابعين وقيل المقتول فيها من الصحابة ثلاثة منهم عبد الله بن حنظلة ونهبت المدينة وافتض فيها ألف عذراء أي ولم تقم الجماعة ولا الأذان في المسجد النبوي مدة المقاتلة وهي ثلاثة أيام

في كلام بعضهم ووقع من ذلك الجيش الذي وجهه يزيد للمدينة من القتل والفساد العظيم والسبي وإباحة المدينة وقتل من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومن التابعين خلق كثير و كانت عدة المقتولين من قريش والأنصار ثلاثمائة وستة رجال ومن قراء القرآن نحو سبعمائة نفس

وفي التنوير لابن دحية وقتل من وجوه المهاجرين والأنصار ألف وسبعمائة ومن حملة القرآن سبعمائة وجالت الخيل في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وراثت بين القبر الشريف والمنبر واختفت أهل المدينة حتى دخلت الكلاب المسجد وبالت على منبره صلى الله عليه وسلم ولم يرض أمير ذلك الجيش من أهل المدينة إلا بأن يبايعوه ليزيد على أنهم خول أي عبيد له إن شاء باع وإن شاء أعتق حتى قال له بعض أهل المدينة البيعة على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فضرب عنقه وروى البخاري أن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما لما أرجف أهل المدينة يزيد دعا بنيه ومواليه وقال لهم إنا بايعنا هذا الرجل على بيعة الله وبيعة رسوله وإنه والله لا يبلغني عن أحد منكم أنه خلع يدا من طاعته إلا كان التنصل بيني وبينه ثم لزم بيته ولزم أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه بيته أيضا فدخل عليه جمع من الجيش بيته فقالوا له من أنت أيها الشيخ فقال أنا أبو سعيد الخدري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا قد سمعنا خبرك ولنعم ما فعلت حين كفت يدك ولزمت بيتك ولكن هات المال فقال قد أخذه الذين دخلوا قبلكم على وما عندي شيء فقالوا كذبت واتفوا لحيته

وأما جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه فخرج في يوم من تلك الأيام وهو أعمى يمشى في بعض أزقة المدينة وصار يعثر في القتلى ويقول تعس من أخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له قائل من الجيش من أخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أخاف المدينة فقد أخاف ما بين جنبي فحمل عليه جماعة من الجيش ليقتلوه فأجاره منهم مروان وأدخله بيته قال السهيلي وقتل في ذلك اليوم من وجوه المهاجرين والأنصار رضي الله تعالى عنهم ألف وسبعمائة وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان فقد ذكر أن امرأة من الأنصار دخل عليها رجل من الجيش وهي ترضع صبيها وقد

أخذ ما وجد عندها ثم قال لها هات الذهب وإلا قتلتك وقتلك ولدك فقالت له ويحك إن قتلته فأبوه أبو كبشة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا من النسوة اللاتي بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الصبي من حجرها وثديها في فمه وضرب به الحائط حتى انتثر دماغه في الأرض فما خرج من البيت حتى أسود نصف وجهه وصار مثلة في الناس

قال السهيلي وأحسب هذه المرأة جدة للصبي لا أما له إذ يبعد في العادة أن تباع امرأة وتكون يوم الحرة في سن من ترضع أي ولدا صغيرا لها ووقعة الحرة هذه من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ففي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم وقف بهذه الحرة وقال ليقتلن بهذا المكان رجال هم خيار أمتي بعد أصحابي

وعن عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه أنه قال لقد وجدت قصة هذه الوقعة في كتاب يهود بن يعقوب الذي لم يدخله تبديل وأنه يقتل فيها رجال صالحون يحيئون يوم القيامة وسلاحهم على عواتقهم وهذه الوقعة كانت سنة ثلاث وستين ويقال كان يزيد أعذر أهل المدينة قبل هذه الوقعة فيما ذكروه وبذل لهم من العطاء أضعاف ما يعطى الناس رغبة في إسمالتهم إلى الطاعة وتحذيرهم من الخلاف ولكن يأبى الله إلا ما أراد

وفي التنوير أن الله ابتلى أمير هذا الجيش الذي هو مسلم بن قتيبة بعد ثلاثة أيام من أخذه البيعة بمرض صار ينبح منه كالكلب إلى أن مات وولى أمر الجيش بعده الحصين ابن نمير بأمر يزيد فإنه وصى مسلم بن قتيبة لما ولاه إمرة الجيش وقال له إذا أشرفت على الموت أي لأنه كان مريضا بالإستسقاء فول أمر الجيش للحصين وهذا الذي وقع من يزيد فيه تصديق لقوله صلى الله عليه وسلم لا يزال أمر أمتي قائما بالقسط حتى يثلمه رجل من بني أمية يقال له يزيد

وقد جاء عن سعيد بن المسيب رضي الله تعالى عنه لقد رأيتني ليالي الحرة وما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم غيري وما يأتي وقت صلاة إلا سمعت الأذان والإقامة من القبر الشريف

ومما يؤثر عن سعيد بن المسيب الدنيا ندلة تميل إلى الأندال ومن استغنى بالله افتقر إليه الناس

ومن جملة من خلع يزيد وقتل من الصحابة في تلك الواقعة مغفل بن سنان الأشجعي رضي الله تعالى عنه روى علقمة عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه سئل عن رجل تزوج امرأة ولم يسم لها صداقا ولم يدخل بها حتى مات فقال ابن مسعود لها مثل مهر نسائها لا وكس ولا شطط وعليها العدة ولها الميراث فقام مغفل بن سنان وقال قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بروع بنت واشق امرأة منا مثل ما قضيت ففرح ابن مسعود

وسبب مقاتلة عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما لأنه امتنع من المبايعه ليزيد أيضا هو والحسين رضي الله تعالى عنهما لما أرسل إليهما يطلب منهما المبايعه له فامتنعا من ذلك وفرا من المدينة إلى مكة

ثم لما قتل الحسين رضي الله تعالى عنه أي لأن الحسين أرسل إليه أهل الكوفة أن يأتيهم ليبايعوه فأراد الذهاب إليهم فنهاه ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وبين له غدرهم وقتلهم لأبيه وخذلانهم لأخيه الحسن رضي الله تعالى عنه ونهاه ابن عمر وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم فأبى إلا أن يذهب فبكى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقال واحبيباه وقال له ابن عمر أستودعك الله من قتيل وكان أخوه الحسن قال له إياك وسفهاء الكوفة أن يستخفوك فيخرجوك ويسلموك فتندم ولات حين مناص وقد تذكر ذلك ليلة قتله فترحم على أخيه الحسن ولم يبق بمكة إلا من حزن على مسيره وقدم أمامه إلى الكوفة مسلم بن عقيل فبايعه من أهل الكوفة للحسين اثنا عشر ألفا وقيل أكثر من ذلك ولما شارف الكوفة جهز إليه أميرها من جانب يزيد وهو عبد الله بن زياد عشرين الف مقاتل وكان أكثرهم ممن بايع له لأجل السحت العاجل على الخير الآجل فلما وصلوا إليه ورأى كثرة الجيش طلب منهم إحدى ثلاث إما أن يرجع من حيث جاء أو يذهب إلى بعض الثغور أو يذهب إلى يزيد يفعل فيه ما أراد فأبوا وطلبوا منه نزوله على حكم ابن زياد وبيعته ليزيد فأبى فقاتلوه إلى أن أثخنه الجراحة فسقط إلى الأرض فحزوا رأسه ذلك يوما عاشوراء عام إحدى وستين ووضع ذلك الرأس بين يدي عبد الله بن زياد ولما جاء خبر قتل

الحسين رضي الله تعالى عنه قام ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما في الناس يعظم قتل الحسين وجعل يظاهر بعيب يزيد ويذكر شره الخمر وغير ذلك ويشيط الناس عن بيعته ويذكر مساوى بني أمية ويطنب في ذلك ولما بلغ يزيد ذلك أقسم أن لا يؤتى به إلا مغلولاً فجاء إليه رجل من أهل الشام في خيل من خيل الشام وتكلم مع ابن الزبير وعظم على ابن الزبير الفتنة وقال لا يستحل الحرم بسببك فإن يزيد غير تاركك ولا تقوى عليه وأقسم أن لا يؤتى بك إلا مغلولاً وقد عملت لك غلا من فضة وتلبس فوقه الثياب وتبر قسم أمير المؤمنين فالصلح خير عاقبة وأجمل بك وبه فقال له أنظر في أمري ثم دخل على أمه أسماء رضي الله تعالى عنها واستشارها فقالت يا بني عش كريماً أو مت كريماً ولا تمكن بني أمية من نفسك فتلعب بك فامتنع وصار يبايع الناس سرا ثم أظهر المبايعة فاجتمع عليه أهل الحجاز ولحق به من انهزم من وقعة الحرة فلما جاء الجيش إلى مكة حاصر عبد الله وضرب بالمنجنيق نصبه على أبي قبيس قيل وعلى الأقرم وهم أحشبا مكة فأصاب الكعبة من ناره ما حرق ثيابها وسقفها فإن الكعبة كانت في زمن قريش مبنية مدماك من خشب الساج ومدماك من حجارة كما تقدم وذكر في الشرف أن الله تعالى بعث عليهم صاعقة بعد العصر فأحرقت المنجنيق وأحرقت تحته ثمانية عشر رجلاً من أهل الشام ثم عملوا منجنيقاً آخر فنصبوه على أبي قبيس

ويذكر أن النار لما أصابت الكعبة أنت بحيث يسمع أنينها كأنين المريض آه آه وهذا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم فقد جاء إنذاره صلى الله عليه وسلم بتحريق الكعبة فعن ميمونة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أنتم إذا مرج الدين فظهرت الرغبة والرغبة وحرقت البيت العتيق وفي العرائس إن أول يوم تكلم الناس في القدر ذلك اليوم فليل إحراق الكعبة من قدر الله وقيل ليس من قدر الله والمتكلم بذلك حينئذ قيل أبو معبد الجهني وقيل أبو الأسود الدؤلي وقيل غير ذلك

وقوله أول يوم تكلم الناس في القدر لعل المراد أول يوم اشتهر واستفيض فيه الكلام من الناس في القدر فلا يخالف ما حكى أن شخصاً قال لعلي رضي الله تعالى عنه وهو بصفين يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا هذا أكان بقضاء الله وقدره فقال

نعم والذي خلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطننا ولا قطعنا واديا ولا علونا شرفا إلا بقضائه وقدره

والتكلم في القدر ليس من خصائص هذه الأمة فقد تكلمت فيه الأمم قبلها وفي الحديث ما بعث الله نبيا إلا في أمته ذرية يشوشون عليه أمر أمته ألا وإن الله تعالى قد لعن القدرية على لسان سبعين نبيا وقد جاء في ذم القدرية زيادة على ما تقدم منها القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم وجاء اتقوا القدر فإنه شعبة من النصرانية وجاء أخاف على أمتي التكذيب بالقدر

وإنما كانت القدرية مجوس هذه الأمة لأن طائفة من القدرية تقول يأتي الخير من الله والشر من العبد وهؤلاء الطائفة أشبه بالمجوس القائلين بالأصلين النور والظلمة وأن الخير من النور والشر من الظلمة وهم المانوية وإنما كان القدر شعبة من النصرانية لأن أكثر القدرية على أنه ليس من أفعال العبد من خير أو شر ناشئا عن إقدار الله تعالى له على ذلك بل هو ناشيء عن قدرة العبد واختياره فقد أثبتوا لله تعالى شريكا كما أن النصارى أثبتوا الشريك لله تعالى فهذه الفرقة من القدرية أشبهت النصارى فكان القدر شعبة من النصرانية بهذا الاعتبار وقد أوضحت ذلك في تعليق المسمى ب المصباح المنير على الجامع الصغير وفيه آخر الكلام على القدر لشرار أمتي في آخر الزمان فإن الحق إسناد الفعل إلى الله تعالى إيجادا وللعبد إكتسابا

وقيل إن سبب بناء عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما للكعبة أن امرأة بخرتها فطارت شرارة فعلقت بثيابها فحصل ذلك ولا مانع من التعدد وقد وقع أيضا إحتراقها بتبخير المرأة في زمن قريش ولا مانع من تعدد ذلك كما تقدم وعد بعضهم أن من البدع تجمير المسجد وأن مالكا كرهه وقد روى أن مولى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كان يحجر المسجد النبوي إذا جلس عمر رضي الله عنه على المنبر يخطب ومع حرق الكعبة حرق قرنا الكبش الذي فدى به إسماعيل فإنهما كانا معلقين بالسقف

أقول ولعل تعليقهما في السقف كان بعد تعليقهما في الميزاب فقد ذكر بعضهم جاء الإسلام ورأس الكبش معلق بقرنيه في ميزاب الكعبة ويدل لتعليقهما في السقف ما جاء عن صفية بنت شيبة قالت لعثمان بن طلحة لم دعاك النبي صلى الله عليه وسلم بعد

خروجه من البيت قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم إنني رأيت قرني الكباش في البيت فنسيت أن أمرك أن تخمرهما فخرهما فإنه لا ينبغي أي يكون في البيت شيء يشغل مصليا

وذكر الجلال المحلى في قطعة التفسير أن الكباش المذكور هو الذي قرب هابيل جاء به جبريل فذبحه السيد إبراهيم عليه الصلاة والسلام مكبرا أي وحينئذ تكون النار التي أنزلت في زمن هابيل لم تأكله بل رفعت إلى السماء وحينئذ يكون قول بعضهم فنزلت النار فأكلته على التسمح ويدل لما ذكر الجلال ما جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه الصلاة والسلام ما كان ذبح إبراهيم أي مذبوحه قال الذي قرب ابن آدم قال بعضهم وهذا الحديث لم يثبت قيل ووصف بأنه عظيم لأنه رعى في الجنة أربعين عاما وقيل كان الكباش إختراعا اخترعه الله هناك في ذلك الوقت قال بعضهم فقد فدى من الموت بصورة الموت وهذا كله بناء على أن الذي قرب هابيل كان كبشا وقيل كان جملا سمينا وعليه اقتصر القاضي فلينظر الجمع على تقدير صحة كل وانصدع الحجر من تلك النار من ثلاثة أماكن وعند محاصرة الجيش لعبد الله جاء الخبر بموت يزيد ويقال إن ابن الزبير علم بموت يزيد قبل أن يعلم الجيش وهم أهل الشام فنأدى فيهم يا أهل الشام قد أهلك الله طاغيتكم يعني يزيد فمن أحب منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس فعل ومن أحب أن يرجع إلى شأنه فليفعل فانفل الجيش وبايع عبد الله بن الزبير جماعة بالخلافة ودخلوا في طاعته ظاهرا

ويقال إن أمير الجيش طلب من ابن الزبير أن يحدثه فخرج من الصفيين حتى اختلفت رؤوس فرسيهما وجعل فرس أمير الجيش ينفر ويكفها فقال له ابن الزبير مالك فقال إن حمام الحرم تحت رجليها فأكره أن أطأ حمام الحرم فقال تفعل هذا وأنت تقتل المسلمين فقال له تأذن لنا أن نطوف بالكعبة ثم نرجع إلى بلادنا فأذن لهم فطافوا وقال له إن كان هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر يعني الخلافة فارحل معي إلى الشام فوالله لا يختلف عليك اثنان فلم يثق به ابن الزبير وأغلظ عليه القول ففكر راجعا وهو يقول أعده بالملك وهو يعدني بالقتل ومن ثم قيل كان في ابن الزبير خلال لا تصلح معها الخلافة منها سوء الخلق وكثرة الخلاف ودخل في طاعة ابن الزبير جميع أهل البلدان إلا الشام ومصر فإن مروان بن الحكم تغلب عليها بعد موت

معاوية بن يزيد بن معاوية فإن معاوية هذا مكث في الخلافة أربعين يوماً وقيل عشرين يوماً بعد أن كان مروان عزم على أن يبايع لابن الزبير بدمشق

وقد كان ابن الزبير لما ولي أخاه نائباً عنه بالمدينة أمره بإجلاء بني أمية وفيهم مروان وابنه عبد الملك إلى الشام فلما أراد مروان أن يبايع ابن الزبير بدمشق ثنى عزمه عن ذلك جماعة وقالوا له أنت شيخ قريش وسيدها وقد فعل معكم ابن الزبير ما فعل فأنت أحق بهذا الأمر فوافقهم ومكث تسعة أشهر في الخلافة وهو الرابع من خلفاء بني أمية وقام بالأمر بعده ولده عبد الملك وهو أول من سمى عبد الملك في الإسلام ثم عهد عبد الملك لأولاده الأربعة من بعده الوليد ثم سليمان ثم يزيد ثم هشام وادعى عمرو بن سعيد أن مروان عهد إليه بعد ابنه عبد الملك فضاق عبد الملك بذلك ذرعاً واستعجل أمر عمرو بدمشق فلم يزل به عبد الملك حتى قتله

وفي كلام ابن ظفر أن عبد الملك لما خرج لمقاتلة عبد الله بن الزبير خرج معه عمرو بن سعيد وقد انطوى على دغل نية وفساد طوية وطماعيته في نقل الخلافة فلما ساروا عن دمشق أياماً تمارض عمرو بن سعيد واستأذن عبد الملك في العودة إلى دمشق فأذن له فلما عاد ودخل دمشق صعّد المنبر وخطب خطبة نال فيها من عبد الملك ودعا الناس إلى خلعه فأجابوه إلى ذلك وبايعوه فاستولى على دمشق وحصن سورها وبذل الرغائب وبلغ ذلك عبد الملك وهو متوجه إلى ابن الزبير فأشير على عبد الملك أن يرجع إلى دمشق ويترك ابن الزبير لأن ابن الزبير لم يعطه طاعة ولا وثب له على مملكة فهو في صورة ظالم له وقصده لعمرو بن سعيد في صورة مظلوم لأنه نكث بيعته وخان أمانته وأفسد رعيته فرجع إلى دمشق فظفر بعمرو بن سعيد

ويقال إن سبب بناء عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنه للكعبة أنه جاء سيل فطبقها فكان عبد الله رضي الله تعالى عنه يطوف سباحة أي ولا مانع من وجود الأمرين الحرق والسييل فلما رأى عبد الله ما وقع في الكعبة شاوّر من حضر ومن جملتهم عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما في هدمها فهابوا هدمها وقالوا نرى أن يصلح ما وهي ولا تهدم فقال لو أن بيت أحدكم أحرق لم يرض له إلا بأكمل إصلاح ولا يكمل إصلاحها إلا بهدمها

وقد حدثته خالته عائشة رضي الله تعالى عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه

قال لها ألم ترى قومك يعنى قريشا حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين عجزت بهم النفقة لولا حدثان قومك بالجاهلية أي قرب عهدهم بها أي وفي لفظ لولا الناس حديثو عهد الجاهلية أي قريب عهدهم بها أي وفي لفظ لولا الناس حديثو عهد بكفر وليس عندي من النفقة ما يقوى على بنائها لهدمتها وجعلت لها خلفا أي بابا من خلفها أي وفي لفظ لجعلت لها بابا يدخل منه وبابا بحياته يخرج الناس منه وفي لفظ وجعلت لها بايين بابا شرقيا وبابا غربيا وألصقت بابها الأرض أي كما كان عليه في زمن إبراهيم ولأدخلت الحجر فيها أي وفي رواية لأدخلت نحو ستة أذرع وفي رواية ستة أذرع وشيئا وفي رواية وشبرا وفي رواية قريبا من سبعة أذرع فقد اضطربت الروايات في القدر الذي أخرجته قريش وفي لفظ لأدخلت فيها ما أخرج منها وفي لفظ لجعلتها على أساس إبراهيم وأزيد أي بأن أزيد في الكعبة من الحجر أي ذلك ما أخرجته قريش خشى صلى الله عليه وسلم أن تنكر قلوبهم هدم بنائهم الذي يعدونه من أكمل شرفهم فرمما حصل لهم الإرتداد عن الإسلام وقد ذكر بعضهم أن كل من بنى الكعبة بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم بينها إلا على قواعد إبراهيم غير أن قريشا ضاقت بهم النفقة أي الحلال الحديث وهذا بناء على أن من بعد إبراهيم وقبل قريش بناها كلها وليس كذلك بل الحاصل منهم إنما هو ترميم لها فقوله لم بينها إلا على قواعد إبراهيم ليس على ظاهره بل المراد أنه أبقاها على ذلك قال وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال لعبد الله دع بناء وأحجارا أسلم عليها المسلمون وبعث عليها النبي صلى الله عليه وسلم أي فإنه يوشك أن يأتي بعدك من يهدمها فلا يزال يهدم ويبنى فيتهاون الناس بحرماتها ولكن ارفعها أي رمها فقال عبد الله إني مستخير ربي ثلاثا ثم عازم على أمري فلما مضى الثلاث أجمع أمره على أن ينقضها فتحامها الناس وخشوا أن ينزل بأول الناس يقصدها أمر من السماء حتى صعدها رجل فألقى منها حجارة فلم ير الناس أصابه شيء فتابعوه أي وقيل أول فاعل لذلك عبد الله بن الزبير نفسه رضي الله تعالى عنه وخرج ناس كثير من مكة إلى منى ومنهم ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فأقاموا بها ثلاثا مخافة أن

يصيبهم عذاب شديد بسبب هدمها وأمر ابن الزبير جماعة من الحبشة بهدمها رجاء أن يكون فيهم الذي أخبر به صلى الله عليه وسلم أنه يهدمها وفيه أن الذي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه يهدمها ذكر صفته حيث قال كأنني أنظر إليه أسود أفحج ينقضها حجرا حجرا وجاء في وصفه أنه مع كونه أفحج الساقين أزرق العينين أفتس الأنف كبير البطن ووصف أيضا بأنه أصلع وفي لفظ أجلح وهو من ذهب شعر مقدم رأسه ووصف بأنه أصعل أي صغير الرأس وبأنه أصمع أي صغير الأذنين معه أصحابه ينقضونها حجرا حجرا ويتناولونها حتى يرموا بها إلى البحر أي وقوله ويتناولونها حتى يرموا بها إلى البحر لعله لم يثبت عند ابن الزبير وكذا تلك الأوصاف وهدم الحبشة لها يكون بعد موت عيسى عليه الصلاة والسلام ورفع القرآن من الصدور والمصاحف أي وورد أن أول ما يرفع رؤيته صلى الله عليه وسلم في المنام والقرآن وأول نعمة ترفع من الأرض العسل وقيل يكون هدمها في زمن عيسى عليه الصلاة والسلام وجمع بأنه يهدم بعضها في زمن عيسى عليه الصلاة والسلام فإذا جاءهم الصريخ هربوا فإذا مات عيسى عادوا وكمّلوا هدمها فهدمها عبد الله إلى أن انتهى الهدم إلى القواعد أي التي هي الأساس قال وفي رواية كشف له عن أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام فوجده داخلا في الحجر ستة أذرع وشيئا وأحجار ذلك الأساس كأنها أعناق الإبل حجارة حمراء أخذ بعضها في بعض مشبكة كتشبيك الأصابع وأصاب فيه قبر أم إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهذا ربما يدل على أنه لم يصب فيه قبر إسماعيل وهو يؤيد القول بأن قبره في حيال الموضع الذي فيه الحجر الأسود لا في الحجر كما ذكره الطبري وأنه تحت البلاطة الخضراء التي بالحجر كما تقدم فدعا عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما خمسين رجلا من وجوه الناس وأشرفهم وأشهدهم على ذلك الأساس وأدخل عبد الله ابن المطيع العدوي عتلة كانت بيده في ركن من أركان البيت فتزعزت الأركان كلها فارتج جوانب البيت ورجفت مكة بأسرها رجفة شديدة وطارت منه برقة فلم يبق دار من دور مكة إلا دخلت فيها ففزعوا

أقول تقدم في بناء قريش أنهم أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة آخذ بعضها ببعض وأن رجلا أدخل عتله بين حجرين منها فحصل نحو ما ذكر وقد يقال لا مخالفة بين كون تلك الأحجار كانت خضراء وبين كونها حمراء لأنه يجوز أن تكون حمرة تلك الأحجار ليست صافية بل هي قريبة من السواد ومن ثم وصفت بأنها زرق كما تقدم والأسود يقال له أخضر كما أن الأخضر غير الصافي يقال له أسود والصافي يقال له أزرق والله أعلم

وجعل عبد الله على تلك القواعد ستورا فطاف الناس بتلك الستور حتى بنى عليها وارتفع البناء وزاد في أتفاعها على ما كانت عليه في بناء قريش تسعة أذرع فكانت سبعا وعشرين ذراعا زاد بعضهم وربع ذراع وبنها على مقتضى ما حدثته به حالته عائشة رضي الله تعالى عنها فأدخل فيه الحجر أي لأنه يجوز أن يكون إدخال الحجر هو الذي سمعه من عائشة فعمل به دون غير ذلك من الروايات المتقدمة الدال على أن الحجر ليس من البيت وإنما منه ستة أذرع وشبر أو قريب من سبعة أذرع وفيه أن هذا أي قوله فأدخل فيه الحجر هو الموافق لما تقدم من أن قريش أخرجت منها الحجر وهو واضح إن كان وجد الأساس خارجا عن جميع الحجر

وأما إذا لم يكن خارجا عن جميع الحجر كيف يتعداه ولا يبنى عليه اعتمادا على ما حدثته به حالته عائشة رضي الله تعالى عنها على أنه سيأتي عن نص حديث عائشة رضي الله تعالى عنها أنه صلى الله عليه وسلم قال لها فإن بدا لقومك من بعد أن بينوا فهل لي لأريك ما تركوا منه فأراها قريبا من ستة أذرع فليتأمل وجعل لها خلفا أي بابا من خلفها وألصقه بالأس كالمقابل له

قال ولما ارتفع البناء إلى مكان الحجر الأسود وكان في وقت الهدم وجد مصدعا بسبب الحريق كما تقدم فشده بالفضة ثم جعله في ديباجة وأدخله في تابوت وأقفل عليه وأدخله دار الندوة فحين وصل البناء إلى محله أمر ابنه حمزة وشخصا آخر أن يحمله ويضعه محله وقال إذا وضعتماه وفرغتما فكبرا حتى أسمعكما فأخفف صلاتي فإنه صلى بالناس بالمسجد إغتناما لشغلهم عن وضعه لما أحس منهم بالتناقض في ذلك أي أن كل واحد يريد أن يضعه وخاف الخلاف فلما كبر تسامع الناس بذلك فغضب جماعة من قريش حيث لم يحضرهم

وكون الحجر وجد مصدعا بسبب الحريق وكون ابن الزبير شده كذلك بالفضة لا ينافي ما وقع بعد ذلك من أن أبا سعيد كبير القرامطة وهم طائفة ملاحدة ظهرُوا بالكوفة سنة سبعين ومائتين يزعمون أن لا غسل من الجنابة وحل الخمر وأنه لا صوم في السنة إلا يوم النيروز والمهرجان ويزيدون في أذانهم وأن محمد بن الحنفية رسول الله وأن الحج والعمرة إلى بيت المقدس وافتن بهم جماعة من الجهال وأهل البراري وقويت شوكتهم حتى انقطع الحج من بغداد بسببه وسبب ولده أبي طاهر فإن ولده أبا طاهر بنى دارا بالكوفة وسماها دار الهجرة وكثر فساده وإستيلاؤه على البلاد وقتله المسلمين وتمكنت هيئته من القلوب وكثرت أتباعه وذهب إليه جيش الخليفة المقتدر بالله السادس عشر من خلفاء بني العباس غير ما مرة وهو يهزمهم ثم إن المقتدر سير ركب الحاج إلى مكة فوافاهم أبو طاهر يوم التروية فقتل الحجيج بالمسجد الحرام وفي جوف الكعبة قتلا ذريعا وألقى القتلى في بئر زمزم وضرب الحجر الأسود بدبوسه فكسره ثم اقتلعه وأخذه معه وقلع باب الكعبة ونزع كسوتها وسقها بين أصحابه وهدم قبة زمزم وارتحل عن مكة بعد أن أقام بها أحد عشر يوما ومعه الحجر الأسود وبقي عند القرامطة أكثر من عشرين سنة أي والناس يضعون أيديهم محله للتبرك ودفع لهم فيه خمسون ألف دينار فأبوا حتى أعيد في خلافة المطيع وهو الرابع والعشرون من خلفاء بني العباس فأعيد الحجر إلى موضعه وجعل له طوق فضة شدد زنته ثلاثة آلاف وسبعمائة وتسعون درهما ونصف قال بعضهم تأملت الحجر وهو مقلوع فإذا السواد في رأسه فقط وسائره أبيض وطوله قدر عظم الذراع وبعد القرامطة في سنة ثلاث عشرة وأربعمائة قام رجل من الملاحدة وضرب الحجر الأسود ثلاث ضربات بدبوس فتشقق وجه الحجر من تلك الضربات وتساقطت منه شظيات مثل الأظفار وخرج مكسره أسمر يضرب إلى الصفرة محببا مثل حب الخشخاش فجمع بنو شيبه ذلك الفتات وعجنوه بالمسك واللك وحشوه في تلك الشقوق وطلوه بطلاء من ذلك وجعل طول الباب أحد عشر ذراعا والباب الآخر بإزائه كذلك فلما فرغ من بنائها خلقها من داخلها وخارجها بالخلوق أي الطيب والزعفران وكساها القباطي أي وهو ثياب بيض رفاق من كتان تتخذ بمصر

وفي كلام بعضهم أول من كسا الكعبة الديباج عبد الله بن الزبير وأقول وبناء عبد الله للكعبة من جملة أعلام النبوة لأنه من الإخبار بالمغيبات ففي نص حديث عائشة رضي الله تعالى عنها فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمى لأريك ما تركوا منه فأراها قريبا من ستة أذرع وتقدم أن هذا يرد قول بعضهم أن ابن الزبير أدخل في بنائه جميع الحجر

قال بعضهم وهذا منه صلى الله عليه وسلم تصريح بالإذن في أن يفعل ذلك بعده صلى الله عليه وسلم عند القدرة عليه والتمكن منه

وقد قال المحب الطبري وهذا الحديث يعنى حديث عائشة رضي الله تعالى عنها يدل تصريحا وتلويحا على جواز التغيير في البيت إذا كان لمصلحة ضرورية أو حاجية أو مستحسنة

قال الشهاب ابن حجر الهيتمي ومن الواضح البين أن ما وهى وتشقق منها في حكم المنهدم أو المشرف على الانهدام فيجوز إصلاحه بل يندب بل يجب هذا كلامه وفي شعبان سنة تسع وثلاثين وألف جاء سيل عظيم بعد صلاة العصر يوم الخميس لعشرين من الشهر المذكور هدم معظم الكعبة سقط به الجدار الشامي بوجهيه وانحدر معه في الجدار الشرقي إلى حد الباب ومن الجدار الغربي من الوجهين نحو السدس وهدم أكثر بيوت مكة وأغرق في المسجد جملة من الناس خصوصا الأطفال فإن الماء ارتفع إلى أن سد الأبواب

وعند مجيء الخبر بذلك إلى مصر جمع متوليها الوزير محمد باشاه وهو الوزير الأعظم الآن أي في سنة ثلاث وأربعين وألف جمعا من العلماء كنت من جملتهم وقعت الإشارة بالمبادرة للعمارة وقد جعلت للوزير المذكور في ذلك رسالة لطيفة وقعت منه موقعا كبيرا وأعجب بها كثيرا حتى أنه دفعها لمن عبر عنها باللغة التركية وأرسل بها لحضرة مولانا السلطان مراد أعز الله أنصاره وذكرت فيها أن الحق أن الكعبة لم تبني جميعها إلا ثلاث مرات المرة الأولى بناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام والثانية بناء قريش وكان بينهما ألفا سنة وسبعمائة سنة وخمس وسبعون سنة والثالثة بناء عبد الله بن الزبير أي وكان بينهما نحو اثنتين وثمانين سنة أي وأما بناء الملائكة وبناء آدم وبناء شيث لم يصح وأما بناء جرهم والعمالقة وقصى فإنما كان ترميما ولم تبني

بعد هدمها جميعا إلا مرتين مرة زمن قريش ومرة زمن عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنه

وحينئذ يكون ما جاء في الحديث استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع وقد هدم مرتين ويرفع في الثالثة معناه قد يهدم مرتين ويرفع في الهدم الثالث من الدنيا وذكر الإمام البلقيني أن كون ابن الزبير أول من كسا الكعبة الديباج أشهر من القول بأن أول من كساها الديباج أم العباس بن عبد المطلب كما سيأتي وجاز أن يكون عبد الله بن الزبير كساها أولا القباطي ثم كساها الديباج والله أعلم وكان كسوتها أي في زمن الجاهلية المسوح والأنطاع فإن أول من كساها تبع الحميري كساها الأنطاع ثم كساها الثياب الحميرية أي وفي رواية كساها الوصائل وهي برود حمر فيها خطوط خضر تعمل باليمن

وفي كلام الإمام البلقيني ويروى أن تبع اليماني لما كساها الخسف انتفضت فزال ذلك عنها فكساها المسوح والأنطاع فانتفضت فزال ذلك عنها فكساها الوصائل فقبلتها قال والوصائل ثياب موصولة من ثياب اليمن وفي الكشاف كان تبع الحميري مؤمنا وكان قومه كافرين ولذلك ذم الله قومه ولم يذمه

وعن النبي صلى الله عليه وسلم لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم وعنه عليه الصلاة والسلام ما أدري أكان تبع نبيا أو غير نبي هذا وقد نقل الشمس الحموي في كتابه المناهج الزهية والمباهج المرضية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان نبيا وقيل أول من كساها عدنان بن أدد وكانت قريش تشترك في كسوة الكعبة حتى نشأ أبو ربيعة بن المغيرة فقال لقريش أنا أكسو الكعبة سنة وحدي وجميع قريش سنة أي وقيل كان يخرج نصف كسوة الكعبة في كل سنة ففعل ذلك إلى أن مات فسمته قريش العدل لأنه عدل قريشا وحده في كسوة الكعبة ويقال لبنيه بنو العدل وكانت كسوتها لا تنزع فكان كلما تجدد كسوة تجعل فوق واستمر ذلك إلى زمنه صلى الله عليه وسلم ثم كساها النبي صلى الله عليه وسلم الثياب اليمانية

وفي كلام بعضهم أول من كسا الكعبة القباطي النبي صلى الله عليه وسلم وكساها أبو بكر وعمر وعثمان القباطي وكساها معاوية الديباج والقباطي والحبرات فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء والقباطي في آخر رمضان والاقتصار على ذلك ربما يفيد أن عطف الحبرات على القباطي من عطف التفسير فليتأمل

وكساها المأمون الديباج الأحمر والديباج الأبيض والقباطي فكانت تكسى الأحمر يوم التروية والقباطي يوم هلال رجب والديباج الأبيض يوم سبع وعشرين من رمضان قال بعضهم وهكذا كانت تكسى في زمن المتوكل العباسي ثم في زمن الناصر العباسي كسيت السواد من الحرير واستمر ذلك إلى الآن في كل سنة وكسوتها من غلة قريتين يقال لهما بيسوس وسنديس من قرى القاهرة وقفهما على ذلك الملك الصالح إسماعيل ابن الناصر محمد بن قلاوون في سنة نيف وخمسين وسبعمئة أي والآن زادت القرى على هاتين القريتين

والحاصل أن أول من كساها على الإطلاق تبع الحميري كما تقدم على الراجح وذلك قبل الإسلام بتسعمائة سنة

وقيل وسبب كسوة أم عمه صلى الله عليه وسلم لها الديباج أن العباس ضل وهو صبي فنذرت إن وجدته لتكسون الكعبة فوجدته فكست الكعبة الديباج أي وكانت من بيت مملكة

وقيل أول من كساها الديباج عبد الملك بن مروان أي وهو المراد بقول ابن إسحاق أول من كساها الديباج الحجاج لأن الحجاج كان من أمراء عبد الملك

وقد سئل الإمام البلقيني هل تجوز كسوة الكعبة بالحرير المنسوج بالذهب ويجوز إظهارها في دوران المحمل الشريف فأجاب بجواز ذلك قال لما فيه من التعظيم لكسوتها الفاخرة التي ترجى بكسوتها الخلع السنوية في الدنيا والآخرة ويجوز إظهارها في دوران المحمل الشريف فإن في ذلك المناسبة للحال المنيف هذا كلامه

أي وأول من حلّى بابها بالذهب جده صلى الله عليه وسلم عبد المطلب فإنه لما حفر بئر زمزم وجد فيها الأسياف والعزالتين من الذهب فضرب الأسياف بابا لها وجعل في ذلك الباب الغزالتين فكان أول ذهب حلّيته الكعبة على ما تقدم

وأول من ذهب الكعبة في الإسلام عبد الملك بن مروان وقيل عبد الله ابن الزبير جعل على أساطينها صفائح الذهب وجعل مفاتيحها من الذهب وجعل الوليد بن عبد الملك الذهب على الميزاب

يقال إنه أرسل لعامله على مكة ستة وثلاثين ألف دينار يضرب منها على باب الكعبة وعلى الميزاب وعلى الأساطين التي داخلها وعلى أركانها من داخل وذكر أن الأمين بن هارون الرشيد أرسل إلى عامله بمكة بثمانية عشر ألف دينار ليضرب بها صفائح الذهب على بابي الكعبة فقطع ما كان على الباب من الصفائح وزاد عليها ذلك وجعل مساميرها وحلقتي الباب والعتب من الذهب وإن أم المقتدر الخليفة العباسي أمرت غلامها لؤلؤ أن يلبس جميع أسطوانات البيت ذهبا ففعل وقال عبد الله بن الزبير لما فرغ من بنائها من كان لي عليه طاعة فليخرج فليعتمر من التنعيم ومن قدر أن ينحر بدنة فليفعل فإن لم يقدر فشاة ومن لم يقدر فليصدق بما تيسر وأخرج مائة بدنة فلما طاف استلم الأركان الأربعة جميعا فلم تزل الكعبة على بناء عبد الله بن الزبير تستلم أركانها الأربعة أي لأنها على قواعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ويدخل إليها من باب يخرج من باب حتى قتل أي قتله شخص من جيش الحجاج بحجر رماه به فوق بين عينيه فقتل وهو بالمسجد لأن الحجاج كان أميراً على الجيش الذي أرسله عبد الملك بن مروان لقتاله

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج أن اهدم ما زاده ابن الزبير فيها أي يهدم البناء الذي جعله على آخر الزيادة التي أدخلها في الكعبة وكانت قريش أخرجتها بدليل قوله وردها إلى ما كانت عليه وسد الباب الذي فتح أي وأن يرفع الباب الأصلي إلى ما كان عليه زمن قريش واترك سائرها أي لأنه اعتقد أن ابن الزبير فعل ذلك من تلقاء نفسه فكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بأن عبد الله بن الزبير وضع البناء على أس قد نظر إليه العدول من أهل مكة أي وهم خمسون رجلاً من وجوه الناس وأشرفهم كما تقدم فكتب إليه عبد الملك لسنا من تخبيط ابن الزبير في شيء فنقض الحجاج ما أدخل من الحجر وسد الباب الثاني أي الذي في ظهر الكعبة عند الركن اليماني ونقص من الباب الأول خمسة أذرع أي ورفعها إلى ما كان عليه في زمن قريش فبنى تحته أربعة أذرع وشبرا وبنى داخلها الدرجة الموجودة اليوم

وفي لفظ أن الحجاج لما ظفر بابن الزبير كتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره أن ابن الزبير زاد في الكعبة ما ليس فيها وأحدث فيها بابا آخر واستأذن في رد ذلك على ما كانت عليه في الجاهلية فكتب إليه عبد الملك أن يسد بابها الغربي ويهدم ما زاد فيها من الحجر ففعل ذلك الحجاج فسأثرها قبل وقوع هذا الهدم بالسيل الواقع في سنة تسع وثلاثين بعد الألف فبنائه على بنيان ابن الزبير إلا الحجاب الذي يلي الحجر فإنه من بنيان الحجاج أي والبناء الذي تحت العتبة وهو أربعة أذرع وشبر فإن باب الكعبة كان على عهد العماليق وجرهم وإبراهيم عليه الصلاة والسلام لاصقا بالأرض حتى رفعته قريش كما تقدم وما سد به الباب الغربي والردم كان بالحجارة التي كانت داخل أرض الكعبة أي التي وضعها عبد الله بن الزبير أي ولعله إنما وضع في ذلك المحل الحجارة التي تصلح للبناء فلا ينافي ما أخبرني به بعض الثقات أن بعض بيوت مكة كان فيها بعض الحجارة التي أخرجت من الكعبة زمن عبد الله بن الزبير ويقال إن ذلك البيت الذي كان فيه تلك الحجارة كان بيتا لعبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنه وبناء الحجاج كان في السنة التي قتل فيها عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنه وهي سنة ثلاث وسبعين

قيل ولما دخل عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنه وهو محاصر حاصره الحجاج خمسة أشهر وقيل سبعة أشهر وسبع عشرة ليلة على أمه أسماء رضي الله تعالى عنهما قبل قتله بعشرة أيام وهي شاكية أي مريضة فقال لها كيف تجدنيك يا أمه قالت ما أجدني إلا شاكية فقال لها إن في الموت لراحة فقالت لعلك تبغيه لي ما أحب أن أموت حتى يأتي على أحد طرفيك إما قتلت وإما ظفرت بعدوك فقرت عيني ولما كان اليوم الذي قتل فيه دخل عليها في المسجد فقالت له يا بني لا تقبلن منهم خطة تخاف فيها على نفسك الذي تخافه القتل فوالله لضربة بالسيف في عز خير من ضربة سوط في ذل

ويقال إن الناس لا زالوا يتنقلون عن ابن الزبير إلى الحجاج لطلب الأمان وهو يؤمنهم حتى خرج إليه قريب من عشرة آلاف حتى كان من جملة من خرج إليه حمزة وخبيب ابنا عبد الله بن الزبير وأخذ لأنفسهما أمانا من الحجاج فأمنهما ودخل عبد الله على أمه فشكا إليها خذلان الناس له وخروجهم إلى الحجاج حتى

أولاده وأهله وأنه لم يبق معه إلا اليسير والقوم يعطونني ما شئت من الدنيا فما رأيك
فقلت يا بني أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وتدعوا إلي حق فاصبر
عليه فقد قتل أصحابك عليه ولا تمكن من رقبتك تلعب بها غلمان بني أمية وإن كنت
إنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك كم خلودك
في الدنيا فدنا منها وقبل رأسها وقال والله ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها
وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمة
وبعد أن قتل وصلب على الجذع فوق الثنية ومضت ثلاثا أيام جاءت أمه أسماء رضي
الله تعالى عنها تقاد لأن بصرها كان قد كف حتى وقفت عليه فدعت له طويلا ولم
يقطر من عينها دمعة وقالت للحجاج أما أن لهذا الراكب أن ينزل فقال لها الحجاج
المنافق رأيت كيف نصر الله الحق وأظهر أن ابنك ألحد في هذا البيت وقد قال تعالى *
(ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) * وقد أذقه الله ذلك العذاب الأليم
وفي كلام سبط ابن الجوزي أن ابن الزبير لما قال لعثمان رضي الله تعالى عنه وهو
محاصر إن عندي نجائب أعددتها لك فهل لك أن تنجو إلى مكة فإنهم لا يستحلونك
بها قال له عثمان سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يلحد رجل في الحرم
من قريش أو بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم فلن أكون أنا
وفي رواية قال له لا لأنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يلحد بمكة
كبش من قريش اسمه عبد الله عليه مثل نصف أوزار الناس هذا كلامه
وعندي أن المراد بعبد الله الحجاج لا ابن الزبير ولا مانع أن يكون الحجاج من قريش
على أن الذي في الصواعق لابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى أن القائل لعثمان ذلك
المغيرة بن شعبة
ولما سمعت سيدتنا أسماء رضي الله تعالى عنها الحجاج يقول في ولدها المنافق قالت
له كذبت والله ما كان منافقا ولكنه كان صواما قواما برا كان أول مولود ولد في
الإسلام بالمدينة وسر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وحنكه بيده وكبر المسلمون
يومئذ حتى ارتجت المدينة فرحا به كان عاملا بكتاب الله حافظا لحرم الله يبغض أن
يعصى الله عز وجل قال انصرفي فإنك عجوز قد خرفت قالت والله ما خرفت ولقد
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج من ثقيف كذاب ومبير

أما الكذاب فقد رأيناه تعنى المختار بن أبي عبيد الثقفي والي العراق فإنه لما قتل الحسين رضي الله تعالى عنه اتفق مع طائفة من الشيعة ممن كان خذل الحسين ولما قتل ندموا على ذلك فوافقوا المختار على مقاتلة من قتل الحسين من أهل الكوفة فتوجهوا إليه وقتلوا جميع من قاتل الحسين وملكوا الكوفة وشكر الناس للمختار ذلك ثم قالت وأما المبير فأنت المبير

ولما بلغ عبد الملك ما قاله الحجاج لأسماء كتب إليه يلومه على ذلك أي ومن ثم أرسل إليها الحجاج فأبت أن تأتيه فأعاد إليها الرسول وقال إما أن تأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك بقرونك فأبت وقالت والله لا آتيك حتى تبعث إلى من يسحبني بقروني فعند ذلك أخذ نعليه ومشى حتى دخل عليها فقال يا أمه إن أمير المؤمنين أوصاني بك فهل لك من حاجة فقالت لست لك بأمر ولكني أم المصلوب على رأس الثنية ومالي من حاجة ولكن انتظر حتى أحدثك ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج من ثقيف كذاب ومبير فأما الكذاب فقد رأيناه وأما المبير فأنت فقال الحجاج مبير للمنافقين ومن كذب المختار أنه ادعى النبوة وأنه يأتيه الوحي ويسر ذلك لأحبابه

وفي دلائل النبوة للبيهقي عن بعضهم قال كنت أقوم بالسيف على رأس المختار ابن أبي عبيد فسمعتة يوما يقول قام جبريل عن هذه النمرقة وفي رواية من على هذا الكرسي فأردت أن أضرب عنقه فتذكرت حديثا حدثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا أمن الرجل الرجل على دمه ثم قتله رفع له لواء الغدر يوم القيامة فكففت عنه ولعل هذا مستند ما نقل عن كتاب الإملاء لإمامنا الشافعي رضي الله عنه من القول بأن المسلم يقتل بالمستأمن

وقد كتب المختار للأحنف بن قيس وجماعته وقد بلغني أنكم تسموني الكذاب وقد كذب الأنبياء من قبلي لست بخير منهم

وقد كان يقع منه أمور تشبه الكهانة منها أنه لما جهز جيشا لقتال عبيد الله بن زياد المجهز للجيش لمقاتلة الحسين رضي الله تعالى عنه كما تقدم قال لأصحابه في غد يأتي إليكم خبر النفيير وقتل ابن زياد فكان كما أخبر وجرى برأس ابن زياد وألقيت بين يدي المختار وكان قتله يوم عاشوراء اليوم الذي قتل فيه الحسين ثم قتل المختار وكان قتل المختار على

يد مصعب بن الزبير جئ برأس المختار بين يدي مصعب لما ولى العراق من جانب أخيه لأبيه عبد الله بن الزبير ومما يؤثر عن مصعب العجب من ابن آدم كيف يتكبر وقد جرى في مجرى البول مرتين ثم قتل مصعب وقطعت رأسه ووضعت بين يدي عبد الملك بن مروان وعن بعضهم أنه حدث عبد الملك فقال له يا أمير المؤمنين دخلت القصر قصر الإمارة بالكوفة فإذا رأس الحسين على ترس بين يدي عبيد الله بن زياد وعبيد الله بن زياد على السرير ثم دخلت القصر بعد ذلك بحين فرأيت رأس عبيد الله بن زياد على ترس بين يدي المختار والمختار على السرير ثم دخلت القصر بعد ذلك بحين فرأيت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير على السرير ثم دخلت بعد ذلك بحين فرأيت رأس مصعب بن الزبير بين يديك وأنت على السرير فقال عبد الملك لا أراك الله الخامسة ثم أمر بهدم ذلك القصر

وعن إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه أن أبا الحجاج لما دخل بأمر الحجاج واقعها فنام فرأى قائلاً يقول له في المنام ما أسرع ما أنجبت بالمبير وفي كلام سبط بن الجوزي أن أم الحجاج كانت قبل أبيه مع المغيرة بن شعبة فطلقها بسبب أنه دخل عليها يوماً فوجدها تتخلل حين انقلبت من صلاة الصبح فقال لها إن كنت تتخللين من طعام البارحة إنك لقدرة وإن كان من طعام اليوم إنك لنهمة كنت فبنت قالت والله ما فرحنا إذ كنا ولا أسفنا إذ بنا ولا هو شيء مما ظننت ولكني استكت فأردت أن أتخلل من السواك فندم المغيرة على طلاقها فخرج فلقى يوسف بن أبي عقيل والد الحجاج فقال له هل لك إلى شيء أدعوك إليه قال وما ذاك قال إني نزلت عن سيدة نساء ثقيف وهي الفارعة فتزوجها تنجب لك فتزوجها فولدت له الحجاج

وفي حياة الحيوان إنها كانت قبل أبي الحجاج عند أمية بن أبي الصلت هذا كلامه وقد يقال لا مانع أنها تزوجت الثلاثة وإن تزوجها لأمية كان قبل المغيرة وكونها سيدة نساء ثقيف يبعد القول بأنها المتمنية التي مر بها سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه وهي تنشأ

* هل من سبيل إلى خمر فأشربها

* الأبيات وأنه كان يعير بها فيقال له ابن المتمنية

وفي مدة صلب عبد الله بن الزبير صارت أمه تقول اللهم لا تمتني حتى تفر عيني بجثته
وذهب أخوه عروة بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان يسأل في إنزاله عن الخشبة
فأجابه وأنزله قال غاسله كنا لا نتناول عضوا من أعضائه إلا جاء معنا فكنا نغسل العضو
ونضعه في أكفانه وقامت فصلت عليه أمه وماتت بعده بجمعة ذكر ذلك في الإستيعاب
وقيل بعده بمائة يوم قال الحافظ ابن كثير وهو المشهور وبلغت من العمر مائة سنة ولم
يسقط لها سن ولم ينكر لها عقل وقتل مع ابن الزبير مائتان وأربعون رجلا منهم من
سال دمه في جوف الكعبة وكان من جملة من قتل عبد الله بن صفوان بن أمية
الجمحي قتل يوم قتل ابن الزبير وقطع رأسه وبعث الحجاج برأسه ورأس ابن الزبير إلى
المدينة فنصبوهما وصاروا يقربون رأس عبد الله بن صفوان إلى رأس ابن الزبير كأنه
يساره يلعبون بذلك ثم بعثوا بهما إلى عبد الملك بن مروان
ولما وضعت رأس عبد الله بن الزبير بين يدي عبد الملك سجد وقال والله كان أحب
الناس إلي وأشدهم إلي إلفا ومودة ولكن الملك عقيم أي فإن الرجل يقتل ابنه أو أخاه
على الملك فإذا فعل ذلك انقطعت بينهما الرحم وستأتي مدحة عبد الملك لعبد الله بن
الزبير وتوبيخ أمير الجيش الذي أرسله يزيد لمقاتلته
وقد كان ابن الزبير قال لعبد الله بن صفوان إني قد أقلتك بيعتي فاذهب حيث شئت
فقال إنما أقاتل عن ديني وكان سيذا شريفا مطاعا حليما كريما قتل وهو متعلق بأستار
الكعبة وحينئذ يشكل كونه حرما آمنا
ومما يدل لما تقدم من أن عبد الله بن الزبير كان عنده سوء خلق ما حكى أنه جاء إليه
شخص فقال له إن الناس على باب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يطلبون
العلم وإن الناس على باب أخيه عبيد الله يطلبون الطعام فأحدهما يفقه الناس والآخر
يطعم الناس فما أبقيا لك مكرمة فدعا شخصا وقال له انطلق إلى ابني العباس رضي الله
تعالى عنهم وقل لهما يقول لكما أمير المؤمنين اخرجنا عني وإلا فعلت وفعلت فخرجنا
إلى الطائف أي وقيل ما خرج عبد الله من مكة إلى الطائف إلا لأن الله تعالى يقول *
(ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) *

فقد قال الشيخ محي الدين بن العربي اعلم أن الله تعالى قد عفا عن جميع الخواطر التي لا تستقر عندنا إلا بمكة لأن الشرع قد ورد أن الله يؤاخذ فيه من يرد فيه بالحداد بظلم وكان هذا سبب سكني عبد الله بن عباس بالطائف احتياطا لنفسه لأنه ليس في قدرة الإنسان أن يدفع عن قلبه الخواطر

قال بعضهم كان يقال من أراد الفقه والجمال والسخاء فليأت دار العباس الجمال للفضل والسخاء لعبيد الله والفقه لعبد الله

قال ولما حج عبد الملك أي وذلك في سنة خمس وسبعين قال له الحارث أنا أشهد لابن الزبير بالحديث الذي سمعه من خالته عائشة رضي الله تعالى عنها قال أنت سمعته منها قال نعم فجعل ينكت بالمشناة فوق بقضيب كان في يده الأرض ساعة ثم قال وددت أني كنت تركته يعني ابن الزبير وما تحمل

وفي رواية أن عبد الملك كتب إلى الحجاج وددت أنك تركت ابن الزبير وما تحمل وهذا هو الموافق لما في تاريخ الأزرقى أن الحرث وفد على عبد الملك بن مروان في خلافته فقال له عبد الملك ما أظن أنا خبيب يعني ابن الزبير سمع من عائشة رضي الله تعالى عنها ما كان يزعم أنه سمع منها في بناء الكعبة قال الحرث أنا سمعته منها قال عبد الملك أنت سمعته منها الحديث وكون عائشة حدثت ابن الزبير بما ذكر لا ينافي ما في تاريخ ابن كثير عن بعضهم

قال سمعت ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما يقول حدثتني أمي أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة لولا قرب عهد قومك بالكفر لرددت الكعبة على أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام الحديث وفي رواية أن عائشة رضي الله تعالى عنها نذرت إن فتح الله مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تصلى في البيت ركعتين فلما فتحت مكة أي وحج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع فسألت النبي صلى الله عليه وسلم أن يفتح لها باب الكعبة ليلا فجاء عثمان بن طلحة بالمفتاح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله إنها لم تفتح ليلا قط قال فلا تفتحها ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها وأدخلها الحجر وقال صلى ههنا فإن الحطيم أي الحجر من البيت إلا أن قومك قصرت بهم النفقة أي الحلال فأخرجوه من البيت ولولا حدثان قومك بالجاهلية لنقضت بناء الكعبة

وأظهرت قواعد الخليل وأدخلت الحطيم في البيت وألصقت العتبة على الأرض ولئن عشت إلى قابل لأفعلن ذلك ولم يعش عليه الصلاة والسلام ولم تتفرغ الخلفاء لذلك وبما ذكر يعلم ما في قول الأصل فهدمها أي عبد الملك وبنائها على ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد علمت أن الحجاج لم يبن إلا الحجاب الذي يليه الحجر والبناء الذي تحت العتبة والدرجة التي في باطنها

وأما التراب الذي جعل في باطنها فيحتمل أن يكون هو التراب الذي أخرجه عبد الله بن الزبير استمر باقيا فأعاد الحجاج ويحتمل أنه غيره ولم أقف على بيان ذلك في كلام أحد

والشاذروان الذي أخرجه عبد الله بن الزبير من عرض الأساس الذي بنته قريش لأجل مصلحة استمساك البناء وثباته

ومن العجب ما حدث به بعضهم قال كنت أميرا على الجيش الذي بعث به يزيد ابن معاوية إلى عبد الله بن الزبير بمكة فدخلت مسجد المدينة فجلست بجانب عبد الملك بن مروان فقال لي عبد الملك أنت أمير هذا الجيش قلت نعم قال ثكلتك أمك أتدري إلى من تسير تسير إلى أول مولود ولد في الإسلام أي بالمدينة من أولاد المهاجرين وإلى ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى ابن ذات النطاقين يعني أسماء وإلى من حنكه رسول الله صلى الله عليه وسلم أما والله إن جئته نهارا وجدته صائما وإن جئته ليلا وجدته قائما فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبهم الله في النار جميعا فلما صارت الخلافة إلى عبد الملك وجهنا مع الحجاج حتى قتلناه وذكر بعضهم أن عبد الملك بن مروان لما رأى جيش يزيد متوجها إلى مكة قال أعوذ بالله أبيعث الجيش إلى حرم الله فضرب منكبه شخص كان يهوديا وأسلم وكان يقرأ الكتب وقال له جيشك إليه أعظم

ويقال إن هذا اليهودي مر على دار مروان والد عبد الملك هذا فقال ويل لأمة محمد من أهل هذه الدار أي لأن مروان كان سببا لقتل عثمان وعبد الملك ابنه كان سببا لقتل عبد الله بن الزبير ووقع من الوليد بن يزيد بن عبد الملك الأمور الفظيعة

وسبب ولاية الحجاج على الجيش أنه قال لعبد الملك بن مروان رأيت في منامي أني أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فولني قتاله فولاه فأرسله في جيش كثيف من أهل الشام فحضر ابن الزبير ورمى الكعبة بالمنجنيق ولما رمى به أرعدت السماء وأبرقت فخاف أهل الشام فصاح الحجاج هذه صواعق تهامة وأنا ابنها ثم قام ورمى المنجنيق بنفسه فزاد ذلك ولم تنزل صاعقة تتبعها أخرى حتى قتلت اثني عشر رجلاً فخاف أهل الشام زيادة

قال بعضهم ولا زال الحجاج يحضهم على الرمي بالمنجنيق ولم تنزل الكعبة ترمى بالمنجنيق حتى هدمت وحرقت أستارها حتى صارت كالفحم أي وفيه أنه لو كانت هدمت أو حرقت لأعيد بناؤها أو أصلحت بالترميم ولو وقع ذلك لنقل لأنه مما تتوفر الدواعي على نقله ولعل هذا اشتبه على بعض الرواة ظن أن الذي وقع من جيش يزيد واقع من الحجاج فإن قيل هلا أهلك الله من نصب المنجنيق على الكعبة كما أهلك أبرهة قلنا لأن من نصب المنجنيق لم يرد هدم الكعبة بخلاف أبرهة كما تقدم وفيه أنه قد يشكل كونه حرماً آمناً

وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال حين وقع بينه وبين ابن الزبير أي وأمره بأن يخرج إلى الطائف ويهدده على ما تقدم قلت أبوه الزبير وأمه أسماء وخالته عائشة وجده أبو بكر وجدته صفية وفي رواية عنه أنه قال أما أبوه فحواري رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الزبير وأما جده فصاحب الغار يريد أبا بكر وأما أمه فذات النطاقين يريد أسماء وأما خالته فأُم المؤمنين يريد عائشة وأما عمته فزوج النبي صلى الله عليه وسلم يريد خديجة وأما عممة النبي صلى الله عليه وسلم فجدته يريد صفية ثم عفيف في الإسلام وقارئ للقرآن

ولما قتل عبد الله بن الزبير ارتجت مكة بالبكاء فجمع الحجاج الناس وخطبهم وقال في خطبته ألا إن ابن الزبير كان من أختيار هذه الأمة إلا أنه نازع الحق أهله إن الله خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأسكنه جنته فلما أخطأ أخرجه من الجنة بخطيئته وآدم أكرم على الله من ابن الزبير والجنة أعظم حرمة من الكعبة اذكروا الله يذكركم ومن أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ما روى أن عبد الله بن الزبير لما ولد نظر إليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هو هو فلما سمعت بذلك أمه أمسكت عن إرضاعه فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم أرضعيه ولو بماء عينيك كبش بين ذئاب وذئاب عليها ثياب ليمنعن البيت أو ليقتلن دونه وفي حياة الحيوان العرب إذا أرادوا مدح الإنسان قالوا كبش وإذا أرادوا ذمه قالوا تيس ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم في المحلل التيس المستعار ويقال إن الحجاج بعد قتل ابن الزبير ذهب إلى المدينة وعلى وجهه لثام فرأى شيخا خارجا من المدينة فسأله عن حال أهل المدينة فقال شر حال قتل ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قتله قال الفاجر اللعين الحجاج عليه لعائن الله ورسله من قليل المراقبة لله فغضب الحجاج غضبا شديدا ثم قال أبها الشيخ أتعرف الحجاج إذا رأيته قال نعم ولا عرفه الله خيرا ولا وقاه ضيرا فكشف الحجاج اللثام عن وجهه وقال ستعلم الآن إذا سال دمك الساعة فلما تحقق الشيخ أنه الحجاج قال إن هذا لهو العجب يا حجاج أنا فلان أصرع من الجنون في كل يوم خمس مرات فقال الحجاج اذهب لا شفى الله الأبعد من جنونه ولا عافاه وخلوص هذا من يد الحجاج من العجب لأن إقدامه على القتل ومبادرته إليه أمر لم ينقل مثله عن أحد وكان يخبر عن نفسه ويقول إن أكبر لذاته سفك الدماء قال بعضهم والأصل في ذلك أنه لما ولد لم يقبل ثديا فتصور لهم إبليس في صورة الحرث بن كلدة طيب العرب وقال اذبخوا له تيسا أسود وألحقوه من دمه واطلوا به وجهه ففعلوا به ذلك فقبل ثدي أمه

وذكر أنه أتى إليه بامرأة من الخوارج فجعل يكلمها وهي لا تنظر إليه ولا ترد عليه كلاما فقال لها بعض أعوانه يكلمك الأمير وأنت معرضة فقال إني أستحي أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه فأمر بها فقتلت وقد أحصى الذي قتل بين يديه صبورا فبلغ مائة ألف وعشرين ألف

ولما عزى سيدتنا أسماء عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهم وأمرها بالصبر قالت وما يمنعني من الصبر وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بعي من بغايا بني إسرائيل وقد جاء أن هذه البغي أول من يدخل النار

ويقال إن عبد الله بن الزبير قال لأمه يوم قتل يا أمه إني مقتول من يومي هذا فلا يشتد
حزنك وسلمي الأمر لله فإن ابنك لم يعمد لإتيان منك ولا عمل فاحشة
وفي كون عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما تأخر موته عن ابن الزبير نظر فقد قيل
إن عبد الله بن عمر مات قبل ابن الزبير بثلاثة أشهر وسبب موته أن الحجاج سفه عليه
فقال له عبد الله إنك سفیه مسلط فغيره ذلك عليه فأمر الحجاج شخصا أن يسم زج
رمحه ويضعه على رجل عبد الله ففعل به ذلك في الطواف فمرض من ذلك أياما ومات
ويذكر أن الحجاج دخل ليعوده فسأله عن فعله به ذلك وقال له قتلني الله إن لم أقتله
فقال له عبد الله لست بقاتل له قال ولم قال لأنك الذي أمرته
وقول عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما للحجاج إنك سفیه مسلط يشير إلى قول
أبيه عمر رضي الله تعالى عنهما فإنه لما بلغه أن أهل العراق حصبوا أميرهم أي رجموه
بالحجارة خرج غضبان فصلى فسها في صلاته فلما سلم قال اللهم إنهم قد لبسوا علي
فألبس عليهم وعجل عليهم بالغلام الثقي يحكم فيهم بحكم الجاهلية لا يقبل من
محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم وكان ذلك قبل أن يولد الحجاج
ثم رأيت في تاريخ ابن كثير لما مات ابن الزبير واستقر الأمر لعبد الملك ابن مروان
بايعه عبد الله بن عمر ويوافقه ما في الدلائل للبيهقي أن ابن عمر وقف على ابن الزبير
وهو مصلوب وقال السلام عليك أبا خبيب أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا أما والله
لقد كنت أنهاك عن هذا أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا أما والله إن كنت ما علمت
صواما قواما وصولا للرحم
ويذكر أنه كان لعبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما مائة غلام لكل غلام منهم لغة
لا يشاركه غيره فيها وكان يكلم كل واحد منهم بلغته وهذا أغرب مما استغرب وهو
أن ترجمان الوثائق بالله من الخلفاء بني العباس كان عارفا بألسن كثيرة حتى قيل إنه
يعرف أربعين لغة ويمارى فيها
وقد قال الحجاج لعروة بن الزبير يوما في كلام جرى بينهما لا أم لك فقال

إلى تقول هذا وأنا ابن عجائز الجنة يعنى جدته صفية وعمته خديجة وخالته عائشة وأمه أسماء

وقال الحجاج يوما لشخص ما تقول في عبد الملك بن مروان فقال الرجل ما أقول في رجل أنت سيئة من سيئاته

وقد أطلق سليمان بن عبد الملك لما ولى الخلافة من سجن الحجاج سبعين ألفا قد حبسهم للقتل ليس لواحد منهم ذنب يستوجب به الحبس فضلا عن القتل وذكر أنه كان يحبس الرجال مع النساء ولم يكن لحبسه بيوت أخلية فكان الرجل يبول بجانب المرأة والمرأة تبول بجانب الرجل فتبدو العورات وكان كل عشرة في سلسلة ويطعمهم خبز الدخن مخلوطا بالملح والرماد

ومر يوم جمعة فسمع استغاثة فقال ما هذا فقيل له أهل السجن يقولون قتلنا الحر فقال قولوا لهم أحسنوا فيها ولا تكلمون فما عاش بعد ذلك إلا أقل من جمعة وآخر من قتله الحجاج من التابعين سيعد بن جبير رضي الله تعالى عنه ولم يقتل بعد ابن جبير إلا رجلا واحدا

وقال عمر بن عبد العزيز لو جاءت كل أمة بفرعونها وجئنهم بالحجاج لغلبناهم وقال سليمان بن عبد الملك لرجل من أخصاء الحجاج بعد موت الحجاج أبلغ الحجاج قعر جهنم فقال يا أمير المؤمنين يجئ الحجاج يوم القيامة بين أبيك عبد الملك وبين أخيك هشام بن عبد الملك فضعه في النار حيث شئت

ومن غريب الاتفاق ما حكاه بعضهم قال مات رجل فلما وضع على مغتسله استوى قاعدا وقال نظرت بعيني هاتين وأهوى بيديه إلى عيني الحجاج وعبد الملك في النار يسحبان بأمعائهما ثم عاد ميتا كما كان

والحجاج متأصل في الظلم فقد رأيت بعضهم حكى أنه يقال في المثل أظلم من ابن الجلندي وهو المشار إليه بقوله تعالى * (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) * وإنه من أجداد الحجاج بينه وبينه سبعون جدا

واستحلف الحجاج رجلا في أمر قال لا والذي أنت بين يديه غدا أذل مني بين يديك اليوم فقال والله إنني يومئذ لذلك وأول من ضرب الدراهم في الإسلام الحجاج بأمر عبد الملك بن مروان وكتب

عليها * (قل هو الله أحد الله الصمد) * أي على أحد وجهي الدراهم * (قل هو الله أحد) * وعلى وجهه الثاني * (الله الصمد) *

ولم توجد الدراهم الإسلامية إلا في زمن عبد الملك بن مروان وكانت الدراهم قبل ذلك رومية وكسروية وفي زمن الخليفة المستنصر بالله وهو السابع والثلاثون من خلفاء بني العباس ضرب دراهم وسماها النقرة وكانت كل عشرة بدينار وذلك في سنة أربع وعشرين وستمائة

ولما دخل سليمان بن عبد الملك المدينة سأل هل بالمدينة أحد أدرك أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أبو حازم فأرسل إليه فلما دخل عليه سأله فقال يا أبا حازم مالنا نكره الموت فقال لأنكم أحرقتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم أن تنقلوا من عمران إلى خراب فقال له وكيف القدوم على الله قال أما المحسن فكغائب يقدم على أهله وأما المسىء فكأبق يقدم على مولاه فبكى سليمان وقال يا ليت شعري ما لنا عند الله قال اعرض عملك على كتاب الله تعالى فقال في أي مكان أجده فقال في قوله تعالى * (إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم) * قال سليمان فأين رحمة الله قال قريب من المحسنين قال فأبي عبادالله أكرم قال أولو المروة

وجاء أعرابي إلى سليمان بن عبد الملك هذا فقال يا أمير المؤمنين إنني أكلمك بكلام فاحتمله فإن وراءه إن قبلته ما تحب فقال سليمان هاته يا أعرابي فقال الأعرابي إنني طلق لساني بما خرست عنه الألسن تأدية لحق الله إنه قد أكتنفتك رجال قد أساءوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم وخافوك في الله ولم يخافوا الله فيك فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا فلا تأمنهم على ما استخلفك الله عليه فإنهم لن يبالوا بالأمانة وأنت مسؤول عما اجتمروا فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس عند الله عيبا من باع آخرته بدنيا غيره فقال له سليمان أنت ما أنت بأعرابي فقد سللت لسانك وهو سيفك قال أجل يا أمير المؤمنين لك لا عليك ولما حج بالناس قال لولد عمه وولى عهده عمر بن عبد العزيز ألا ترى هذا الخلق الذي لا يحصى عددهم إلا الله تعالى ولا يسع رزقهم غيره فقال يا أمير المؤمنين

هؤلاء رعيتك اليوم وهم غدا خصماؤك عند الله فبكى سليمان بكاء شديدا ثم قال بالله أستعين وقال يوما لعمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه حين أعجبه ما صار إليه من الملك يا عمر كيف ترى ما نحن فيه فقال يا أمير المؤمنين هذا سرور لولا أنه غرور ونعيم لولا أنه عديم وملل لولا أنه هلك وفرح لو لم يعقبة ترح ولذات لو لم تقترن بأفات وكرامة لو صحبتها سلامة فبكى سليمان رحمه الله حتى اخضلت دموعه لحيته وولاية عمر بن عبد العزيز بشر بها جده لأمه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فعنه رضي الله تعالى عنه أنه قال إن من ولدي رجلا بوجهه شين و رواية علامة يملأ الأرض عدلا فكان ولده عبد الله يقول كثيرا ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر بن الخطاب في وجهه علامة يملأ الأرض عدلا وفي رواية عنه كان يقول يا عجباً يزعم الناس أن الدنيا لا تنقضى حتى يلي رجل من آل عمر يعمل بمثل عمل عمر قال بعضهم فإذا هو عمر بن عبد العزيز لأن أمه ابنة عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ومما يؤثر عن سليمان رحمه الله تعالى أنه لما ولي الخلافة وقام خطيبا قال الحمد لله الذي ما شاء صنع وما شاء رفع ومن شاء وضع ومن شاء أعطى ومن شاء منع إن الدنيا دار غرور تضحك باكيا وتبكي ضاحكا وتخيف آمنا وتؤمن خائفا وقال في خطبة من خطبه أيضا أيها الناس أين الوليد وأبو الوليد وجد الوليد أسمعهم الداعي وأسترد العواري واطمحل ما كان كائن لم يكن أذهب عنهم ثابت الحياة وفارقوا القصور واستبدلوا بلبين الوطئ خشن التراب فهم رهناء فيه إلى يوم المآب فرحم الله عبدا مهد لنفسه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ولما ولي الخلافة أبو جعفر المنصور أراد أن يبني الكعبة على ما بناها ابن الزبير وشاور الناس في ذلك فقال له الإمام مالك بن أنس أنشدك الله أي بفتح الهمزة وضم الشين المعجمة أي أسألك بالله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره فتذهب هيئته من قلوب الناس فصرفه عن رأيه فيه قال وذكر الطبري في مناسكه أن الذي أراد ذلك ونهاه مالك هو الرشيد

أقول وكونه الرشيد هو الذي ذكره المقرئزي واقتصر عليه ولأن المنصور مات محرماً
بيئر ميمونة لستة أيام خلون من ذي الحجة فلم يدخل مكة
وقد يقال يجوز أن يكون دخل المدينة قبل سيره إلى مكة واستشار الناس في المدينة
فقال له الإمام مالك ما تقدم وأن الرشيد أيضاً أراد ذلك واستشار الإمام مالكا فأشار
عليه بما ذكر ثم رأيت في تاريخ ابن كثير في زمن المهدي بن المنصور استشار الإمام
مالكا في ردها أي الكعبة على الصفة التي بناها ابن الزبير فقال له إنني أخشى أن تتخذها
الملوك لعبة

ورأيت في كلام بعضهم أن المنصور حج وأنه لما قضى الحج والزيارة توجه إلى زيارة
بيت المقدس ولعل هذا كان في حجة غير هذه التي مات فيها
ثم رأيت في تاريخ ابن كثير أن المنصور حج وهو خليفة أربع حجج غير الحجة التي
مات فيها وكذا في القرى لقاصد أم القرى للطبري وذكر أنه مات في الحجة الخامسة
قبل يوم التروية بيومين وأنه أحرم في بعض حججه من بغداد
وقد ذكر الشيخ الصفوي أن المنصور بلغه أن سفيان الثوري ينقم عليه في عدم إقامة
الحق فلما توجه المنصور إلى الحج وبلغه أن سفيان بمكة أرسل جماعة أمامه وقال لهم
حيثما وجدتم سفيان خذوه واصلبوه فنصبوا الخشب ليصلبوا سفيان عليه وكان سفيان
بالمسجد الحرام رأسه في حجر الفضيل بن عياض ورجلاه في حجر سفيان ابن عيينة
فقليل له خوفاً عليه بالله لا تشمت بنا الأعداء قم فاخترق فقام ومشى حتى وقف بالملتزم
وقال ورب هذه الكعبة لا يدخلها يعني مكة المنصور وكان وصل إلى الحجون فزلقت
به راحلته فوق عن ظهرها ومات من فوره فخرج سفيان وصلى عليه هذا كلامه
وقد يقال لا مخالفة بين هذا وبين ما تقدم أنه مات بيئر ميمونة لأنه يجوز أن يكون
المراد بوصوله إلى الحجون وصول خيله وركبه فليتأمل
ثم رأيت في تاريخ ابن كثير أن المنصور لما خرج للحج وجاوز الكوفة بمراحل أخذه
وضعه الذي مات فيه وأفرط به الإسهال ودخل مكة فنزل بها وتوفى ولعل هذا

لا يخالف ما سبق لأنه يجوز أنه أطلق مكة على المحل القريب منها وأنه من انطلاق
بطنه زلقت به فرسه

قيل وآخر ما تكلم به المنصور اللهم بارك لي في لقائك ومما يؤثر عنه أولى الناس
بالعفو أقدرهم على العقوبة وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه والله أعلم
وتقدم أن قصيا لما أمر قريشا أن تبنى حول الكعبة بيوتها فبنيت بيوتها من جهاتها
الأربع وتركوا قد المطاف واستمر الأمر على ذلك زمنه صلى الله عليه وسلم وزمن أبي
بكر رضي الله تعالى عنه فلما ولي عمر رضي الله تعالى عنه رأى أن يوسع حول الكعبة
فاشترى دورا وهدمها ووسع حول الكعبة وبنى جدارا قصيرا على ذلك وجعل فيه أبوابا
ثم وسعه عثمان ثم عبد الله بن الزبير

ثم إن عبد الملك بن مروان رفع الجدران وسقفه بالساج ثم إن الوليد بن عبد الملك
نقص ذلك ونقل إليه الأساطين الرخام وسقفه بالساج المزخرف وأزر المسجد بالرخام
ثم زاد فيه المنصور ورخم الحجر ثم زاد فيه المهدي أولا وثانيا حتى صارت الكعبة في
وسط المسجد

وفي أيام المعتضد أدخلت داره الندوة في المسجد وتسمى مكة فاران وتسمى قرية
النمل لكثرة نملها أو لأن الله سلط فيها النمل على العماليق لما أظهروا فيها الظلم حتى
أخرجهم من الحرم كما تقدم ولها أسماء كثيرة قد أفردتها صاحب القاموس بمؤلف
أقول وسيأتي عن الإمام النووي أنه قال ليس في البلاد أكثر أسماء من مكة والمدينة
والله أعلم

قال وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه خلقت الكعبة أي موضعها قبل الأرض بألفي
سنة كانت حشفة على الماء عليها ملكان يسبحان فلما أراد الله تعالى أن يخلق الأرض
دحاها منها فجعلها في وسط الأرض انتهى

وسئل الجلال السيوطي رضي الله تعالى عنه عن قوله تعالى * (إن ربكم الله الذي خلق
السموات والأرض في ستة أيام) * هل كانت أيام ثم موجودة قبل خلق السموات
والأرض

فأجاب بأن خلق السماوات والأرض وخلق الأيام كان دفعة واحدة من غير تقديم لأحدهما على الآخر واستند في ذلك لمأثور التفسير وفي الحديث إن الله حرم مكة قبل أن يخلق السماوات والأرض الحديث وحينئذ فقوله صلى الله عليه وسلم إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حرم مكة معناه أظهر حرمتها باب ما جاء من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحبار اليهود وعن الرهبان من النصارى وعن الكهان من العرب على ألسنة الجان وعلى غير ألسنتهم وما سمع من الهواتف ومن بعض الوحوش ومن بعض الأشجار وطرد الشياطين من استراق السمع عند مبعثه بكثرة تساقط النجوم وما وجد من ذكره صلى الله عليه وسلم وذكر صفته في الكتب القديمة وما وجد فيه اسمه مكتوبا من النبات والأحجار وغيرهما قال ابن إسحاق وكانت الأحبار من يهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه لما تقارب زمانه أما الأحبار من يهود ورهبان من النصارى فلما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه وأما الكهان من العرب فجاءهم به الشياطين فيما تسترق به من السمع إذ كانت لا تحجب عن ذلك كما حجبت عند الولادة والمبعث وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره ولا تلقى العرب لذلك بالا حتى بعثه الله تعالى ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرونها فعرفوها وهذا فيه تصريح بأن الملائكة كانت تذكره صلى الله عليه وسلم في السماء قبل وجوده فأما أخبار الأحبار من اليهود فمنها ما تقدم ذكره ومنها ما جاء عن سلمة بن سلامة وكان من أصحاب بدر قال كان لنا جارا من يهود بني عبد الأشهل فذكر أي عند

قوم أصحاب الأوثان القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار فقالوا له ويحك يا فلان أو ترى هذا كائنا أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم قال نعم والذي يحلف به وليود أي الشخص أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه بأن ينجو من تلك النار غدا فقالوا له ويحك وما آية ذلك قال نبي يبعث من نحو هذه البلاد وأشار بيده إلى مكة واليمن قالوا ومن يراه فنظر إلى وأنا من أحدثهم سنا فقال إن يستنفد أي يستكمل هذا الغلام عمره يدركه قال سلمة والله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وهو أي ذلك اليهودي بين أظهرنا فآمنا به وكفر بغيا وحسدا فقلنا له ويحك يا فلان ألسنت الذي قلت لنا فيه ما قلت قال بلى ولكن ليس به

ومن ذلك ما جاء عن عمرو بن عبسة السلمي رضي الله تعالى عنه قال رغبت عن آلهة قومي في الجاهلية أي ترك عبادتها قال فلقيت رجلا من أهل الكتاب من أهل تيماء أي وهي قرية بين المدينة والشام فقلت إني امرؤ ممن يعبد الحجارة فينزل الحي ليس معهم إله فيخرج الرجل منهم فيأتي بأربعة أحجار فيعين ثلاثة لقدره أي يستنجى بها ويجعل أحسنها إلهها يعبده ثم لعله يجد ما هو أحسن منه شكلا قبل أن يرتحل فيتركه ويأخذ غيره وإذا نزل منزلا سواه ورأى ما هو أحسن منه تركه وأخذ ذلك الأحسن فرأيت أنه إله باطل لا ينفع ولا يضر فدلني على خير من هذا قال يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها فإذا رأيت ذلك فاتبعه فإنه يأتي بأفضل الدين فلم يكن لي همة منذ قال لي ذلك إلا مكة آتى فأسأل هل حدث حدث فيقال لا ثم قدمت مرة فسألت فقيل لي حدث رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها فشددت راحلتي ثم قدمت منزلي الذي كنت أنزله بمكة فسألت عنه فوجدته مستخفيا ووجدت قريشا عليه أشداء فتلطفت له حتى دخلت عليه فسألته أي شيء أنت قال نبي قلت من نباك قال الله قلت وبم أرسلك قال بعبادة الله وحده لا شريك له وبحقن الدماء وبكسر الأوثان وصلة الرحم وأمان السبيل فقلت نعم ما أرسلت به قد آمنت بك وصدقتك أتأمرني أن أمكث معك أو أنصرف فقال ألا ترى كراهة الناس ما جئت به فلا تستطيع أن تمكث كن في أهلك فإذا

سمعت بي قد خرجت مخرجا فاتبعني فكنت في أهلي حتى خرج صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فسرت إليه فقدمت المدينة فقلت يا نبي الله أتعرفني قال نعم أنت السلمي الذي أتيتني بمكة

ومن ذلك ما حدث به عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا إنما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى لنا وهداه ما كنا نسمع من أحبار يهود كنا أهل شرك أصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا قد تقارب زمان نبي يبعث الآن يقتلكم قتل عاد وإرم أي يستأصلكم بالقتل فكان كثيرا ما نسمع ذلك منهم فلما بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا إلى الله عز وجل وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا ففي ذلك نزلت هذه الآيات في البقرة* (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين)*

ومن ذلك ما حدث به شيخ من بني قريظة قال إن رجلا من يهود من أهل الشام يقال له ابن الهيبان أي الجبان قدم إلينا قبل الإسلام بسنين فحل بين أظهرنا والله ما رأينا رجلا قط لا يصلى الخمس أفضل منه أي لا أظن أحدا من غير المسلمين لأن المسلمين يصلون الخمس فلا أصلية لا زائدة فأقام عندنا فكنا إذا قحط المطر أي احتبس قلنا له اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا فيقول لا والله حتى تقدموا بين يدي نجواكم صدقة فنقول له كم فيقول صاعا من تمر ومدين من شعير فنخرجها ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسقي لنا فوالله ما يبرح من محله حتى يمر السحاب ونسقى قد فعل ذلك غير مرة أي لا مرة ولا مرتين ولا ثلاثا بل أكثر من ذلك ثم حضرته الوفاة عندنا فلما عرف أنه ميت قال يا معشر يهود ما تريه أخرجني من أهل الخمر بالتحريك وبإسكان الميم الشجر الملتف والخمير إلى أرض البؤس والجوع قلنا أنت أعلم قال وإنما قدمت هذه الأرض أتوكف أي أتوقع خروج نبي قد أظل زمانه أي أقبل وقرب كأنه لقربه أظلم أي ألقى عليهم ظله وهذه البلد مهاجرة وكنت أرجو أن يبعث فاتبعه فقد أظلمكم زمانه فلا تسبقن إليه يا معشر يهود فإنه يبعث بسفك الدماء وبسبى الذراري والنساء ممن خالفه فلا يمنعكم ذلك منه فلما بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم

وحاصر بين قريظة قال لهم نفر من هديل بفتح الهاء وفتح الدال المهملة وقيل بسكونها إخوة بني قريظة وهم ثعلبة بن سعية وأسد بن سعية ويقال أسيد بالتصغير وأسد بن عبيد وكانوا شبانا أحداثا يا بني قريظة والله إنه لهو بصفته فنزلوا وأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهلهم كما سيأتي

قال ومن ذلك خبر العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه قال خرجت في تجارة إلى اليمن في ركب فيه أبو سفيان بن حرب فورد كتاب حنظلة بن أبي سفيان إن محمدا قائم في أبطح مكة يقول أنا رسول الله أدعوكم إلى الله ففشا ذلك في مجالس أهل اليمن فجاءنا خبر من اليهود فقال بلغني أن فيكم عم هذا الرجل الذي قال ما قال قال العباس فقلت نعم قال نشدتك الله هل كان لابن أخيك صبوة قلت لا والله ولا كذب ولا خان وما كان اسمه عند قريش إلا الأمين قال هل كتب بيده فأردت أن أقول نعم فخشيت من أبي سفيان أن يكذبني ويرد علي فقلت لا يكتب فوثب الحبر وترك رداءه وقال ذبحت يهود وقتلت يهود قال العباس فلما رجعنا إلى منزلنا قال أبو سفيان يا أبا الفضل إن يهود تفرع من ابن أخيك فقلت قد رأيت لعلك أن تؤمن به قال لا أو من به حتى أرى الخيل في كداء أي بالمد قلت ما تقول قال كلمة جاءت على فمي إلا أنني أعلم أن الله لا يترك خيلا تطلع على كداء قال العباس فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ونظر أبو سفيان إلى الخيل قد طلعت من كداء فقلت يا أبا سفيان تذكر تلك الكلمة قال إي والله إنني لأذكرها انتهى

أي ومن ذلك ما جاء عن أمية بن أبي الصلت الثقفي قال لأبي سفيان إنني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا فكنت أظن أنني هو وكنت أتحدث بذلك ثم ظهر لي أنه من بني عبد مناف فنظرت فلم أجد فيهم من هو متصف بأخلاقه إلا عتبة بن ربيعة إلا أنه قد جاوز الأربعين ولم يوح إليه فعرفت أنه غيره قال أبو سفيان فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم قلت لأمية فقال أمية أما إنه حق فاتبعه فقلت له فأنت ما يمنعك قال الحياء من نساء ثقيف إنني كنت أخبرهن أنني هو ثم أصير تبعا لفتى من بني عبد مناف وسيأتي ذلك بأبسط مما هنا

وأما أخبار الرهبان من النصارى فمنها ما تقدم ذكره قال ومنها خبر طلحة بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال حضرت سوق بصرى فإذا راهب في صومعته

يقول سلوا أهل هذا الموسم هل فيكم أحد من أهل الحرم فقلت نعم أنا قال هل ظهر أحمد قلت ومن أحمد قال ابن عبد الله بن عبد المطلب هذا شهره الذي يخرج فيه أي الذي يبعث فيه وهو آخر الأنبياء منخرجه من الحرم ومهاجره إلى نخلة وحرّة وسباخ فأياك أن تسبق إليه قال طلحة فوقع في قلبي ما قال الراهب فلما قدمت مكة حدثت أبا بكر بذلك فخرج أبو بكر حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فسر بذلك وأسلم طلحة فأخذ نوفل بن العديوية أبا بكر وطلحة رضي الله تعالى عنهما فشدهما في حبل واحد فلذلك سميا القرينين

أقول يحتمل أن هذا الراهب هو بحيرا ويحتمل أن يكون نسطورا لأن كلا منهما كان ببصرى كما تقدم في سفره ويحتمل أن يكون غيرهما وهو أولى لما تقدم أن كلا من بحيرا ونسطورا لم يدرك البعثة والله أعلم

أي ومنها ما حدث به سعيد بن العاص بن سعيد قال لما قتل أبي العاص يوم بدر كنت في حجر عمي أبان بن سعيد وكان يكثر السب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج تاجرا إلى الشام فمكث سنة ثم قدم فأول شيء سأله عن أبي العاص ما فعل محمد قال له عمي عبد الله بن سعيد هو والله أعز ما كان وأعلاه فسكت ولم يسبه كما كان يسبه ثم صنع طعاما وأرسل إلى سراة بني أمية أي أشرافهم فقال لهم إني كنت بقرية فرأيت بها راهبا يقال له بكاء لم ينزل إلى الأرض منذ أربعين سنة أي من صومعته فنزل يوما فاجتمعوا ينظرون إليه فجئت فقلت إن لي حاجة فقال ممن الرجل فقلت إني من قريش وإن رجلا هناك خرج يزعم أن الله أرسله قال ما اسمه فقلت محمد قال منذ كم خرج فقلت عشرين سنة قال ألا أصفه لك قلت بلى فوصفه فما أخطأ في صفته شيئا ثم قال لي هو والله نبي هذه الأمة والله ليظهرن ثم دخل صومعته وقال لي اقرأ عليه السلام وكان ذلك في زمن الحديدية أي والحديبية سيأتي أنها كانت سنة ست فالعشرين تقريبا

أي ومنها ما حدث به حكيم بن حزام بالزاي رضي الله تعالى عنه قال دخلنا الشام لتجارة قبل أن أسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فأرسل إلينا ملك الروم فجئناه فقال من أي العرب أنتم من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي فقال حكيم فقلت يجمعني وإياه الأب الخامس فقال هل أنتم صادقي فيما أسألكم عنه

فقلنا نعم فقال أنتم ممن اتبعه أم ممن رد عليه فقلنا ممن رد عليه وعاداه فسألنا عن أشياء مما جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه ثم نهض واستنهضنا معه فأتى محلا في قصره وأمر بفتحه وجاء إلى ستر فأمر بكشفه فإذا صورة رجل فقال أتعرفون من هذه صورته قلنا لا قال هذه صورة آدم ثم تتبع أبوابها ففتحها ويكشف عن صور الأنبياء ويقول أما هذا صاحبكم فنقول لا فيقول لنا هذه صورة فلان حتى فتح بابا وكشف عن صورة فقال أتعرفون هذا قلنا نعم هذا صورة محمد بن عبد الله صاحبنا قال أتدرون متى صورت هذه الصور قلنا لا قال منذ أكثر من ألف سنة وإن صاحبكم لنبي مرسل فاتبعوه ولوددت أني عبده فأشرب ما يغسل من قدميه ووقع نظير ذلك لجبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه وأنه رأى صورة أبي بكر آخذة بعقب تلك الصورة وإذا صورة عمر آخذة بعقب صورة أبي بكر فقال من ذا الذي آخذ بعقبه قلنا نعم هو ابن أبي قحافة قال فهل تعرف الذي آخذ بعقبه قلت نعم هو عمر بن الخطاب قال أشهد أن هذا رسول الله وأن هذا هو الخليفة بعده وأن هذا هو الخليفة من بعد هذا

ومنها ما حدث به سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه قال كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان من قرية يقال لها جي بفتح الجيم وتشديد الياء أي وفي لفظ من قرية من قرى الأهواز يقال لها رامهرمز وفي لفظ ولدت برامهرمز وبها نشأت وأما أبي فمن أصبهان وكان أبي دهقان قرينته أي كبير أهل قرينته أي وفي لفظ كنت من أبناء أساورة فارس وكنت أحب خلق الله تعالى إلى أبي لم يزل حبه إياي حتى حبسني في بيت كما تحبس الجارية واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار بفتح القاف وكسر الطاء المهملة ويروى بفتحها بمعنى قاطن أي خادمها الذي يوقدها لا يتركها تخبا أي تطفأ ساعة وكانت لأبي ضيعة عظيمة فشغل في بنيان له يوما فقال لي يا بني إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم فاذهب إليها وأمرني فيها ببعض ما يريد ثم قال لي ولا تحتبس عني إن احتبست عني كنت أهم إلي من ضيعتي وشغلتنني عن كل شيء من أمري فخرجت أريد ضيعة التي بعثني إليها فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته فلما

سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ماذا يصنعون فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورجبت في أمرهم وقلت والله هذا خير من الذي نحن عليه فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي فلم آتها ثم قلت لهم أين أهل هذا الدين قالوا بالشام فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله فلما جئته قال أي بني أين كنت ألم أكن عهدت إليك ما عهدت قلت يا أبت مررت بالناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس قال أي بني ليس في ذلك الدين خير دينك ودين آبائك خير منه فقلت له كلا والله إنه لخير من ديننا قال فخافني أي خاف مني أن أهرب فجعل في رجلي قيذا ثم حبسني في بيته وبعث إلى النصارى فقلت لهم إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم فقدم عليهم تجار من النصارى فأخبروني فقلت لهم إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة فأخبروني بهم فأخبروني بهم فألقيت الحديد من رجلي ثم ق قدمت معهم إلى الشام فلما قدمتها قلت من أجل هذا الدين علما قالوا الأسقف في الكنيسة والأسقف بتخفيف الفاء وتشديدها هو عالم النصارى ورئيسهم في الدين فجئته فقلت له إنني قد رجبت في هذا الدين وأحببت أن أكون معك فأخدمك في كنيستك وأتعلم منك وأصلي معك قال ادخل فدخلت معه فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا إليه أشياء منها اكتنزها لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق فأبغضته بغضا شديدا لما رأيت أنه يصنع ثم مات فاجتمعت النصارى ليدفنوه فقلت لهم إن هذا كان رجلا سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئا فقالوا لي وما أعلمك بذلك فقلت أنا أدلكم على كنزه فأريتهم موضعه فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا وفي رواية وجدوا ثلاثة قمامم فيها نحو نصف أردب فضة فلما رأوها قالوا والله لا ندفنه أبدا فصلبوه ورموه بالحجارة أي ولم يصلوا عليه صلاتهم مع أن هذا الراهب كان يصوم الدهر وكان تقيا عن الشهوات ومن ثم قال في الفتوحات المكية أجمع أهل كل ملة على أن الزهد في الدنيا مطلوب وقالوا إن الفراغ من الدنيا أحب لكل عاقل خوفا على نفسه من الفتنة التي حذرنا الله تعالى منها بقوله

* (أنما أموالكم وأولادكم فتنة) * هذا كلامه

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رضي الله تعالى عنه ومن فوائد الرهبان أنهم لا يدخرون قوت الغد ولا يكتزون فضة ولا ذهباً
قال ورأيت شخصاً قال لراهب انظر لي هذا الدينار هو من ضرب أي الملوك فلم يرض وقال النظر إلى الدنيا منهي عنه عندنا
قال ورأيت الرهبان مرة وهم يسحبون شخصاً ويخرجونه من الكنيسة ويقولون له أتلفت علينا الرهبان فسألت عن ذلك فقالوا رأوا على عاتقه نصفاً مربوطاً فقلت لهم ربط الدرهم مذموم فقالوا نعم عندنا وعند نبيكم صلى الله عليه وسلم هذا كلامه وعند ذلك جاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه أي لا أظن أحداً غير المسلمين أفضل منه ولا أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه فأحبته حباً شديداً لم أحبه شيئاً قبله فأقمت معه زمناً حتى حضرته الوفاة فقله له يا فلان إني كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً من قبلك وقد حضرك من أمر الله ما ترى فيالي من توصني قال أي بني والله ما أعلم أحداً على ما كنت عليه لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل وهو فلان وهو على ما كنت عليه فلما مات وغيب أي دفن لحقت بصاحب الموصل فأخبرته خبري وما أمرني به صاحبي فقال أقم عندي فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبه فأقمت مع خير رجل فلما احتضر قلت له يا فلان إن فلانا أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك وقد حضرك من أمر الله ما ترى فيالي من توصي بي وبم تأمرني قال يا بني والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنت عليه إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحق به فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فأخبرته خبري وما أمرني به صاحبي فقال أقم عندي فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل فوالله ما لبث أن نزل به الموت فلما احتضر أي حضرته الملائكة لقبض روحه قلت له يا فلان إن فلانا أوصى بي إليك فيالي من توصي بي وإلى من تأمرني قال يا بني والله ما أعلم بقي أحد على أمرنا أمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية من أرض الروم فإنه على مثل ما نحن عليه فإن أحببت فأته فلما مات وغيب أي دفن لحقت بصاحب عمورية وأخبرته خبري فقال أقم عندي

فأقمت عند خير رجل على هدى أصحابه وأمرهم فاكتسبت حتى كانت لي بقرات
وغنيمة ثم نزل به أمر الله تعالى فلما احتضر قلت له يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى
بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فيألى من توصى بي
وبم تأمرني قال أي بني والله ما أعلم أصبح ما كنا عليه أحد من الناس أمرك أن تأتيه
ولكنه قد أظلم أي أقبل قرب زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب
مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين
كتفيه خاتم النبوة فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل ثم مات وغيب
أقول وهذا السياق يدل على أن الذين اجتمع بهم من النصارى على دين عيسى أربعة
وفي كلام السهيلي أنهم ثلاثون وفي النور أنهم بضعة عشر وأن هذا أظهر والله أعلم
قال سلمان ثم مر بي نفر من كلب تجار فقلت لهم احملوني إلى أرض العرب
وأعطيكم بقراتي هذه وغنمي هذه فقالوا نعم فأعطيتهموها أي أعطيتهم إياها وحملوني
معهم حتى إذا بلغوا بي وادي القرى وهو محل من أعمال المدينة المنورة ظلموني
فباعوني من رجل يهودي فمكثت عنده فرأيت النخل فرجوت أن تكون البلدة التي
وصف لي صاحبي ولم يحق عندي أي لم أتحقق ذلك فبينما أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم
له من بني قريظة من المدينة فابتاعني منه فحملني إلى المدينة فوالله ما هو إلا أن رأيتها
فعرفتها أي تحققتها بصفة صاحبي فأقمت بها
وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام بمكة ما أقام لا اسمع له بذكر مع ما أنا فيه
من شغل الرق ثم هاجر إلى المدينة فوالله إني لفي رأس عذق أي نخل لسيدي أعمل له
فيه بعض العمل وسيدي جالس تحتي إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال يا فلان
قاتل الله بني قيلة أي وهما الأوس والخزرج لأن قيلة أمهما فقد جاء إن الله أمدني بأشد
العرب ألسنا وأدرعا بابني قيلة الأوس والخزرج والله إنهم الآن لمجتمعون بقبا بالمد
والقصر وربما قيل قباة بقاء التأنيث والقصر على رجل قدم من مكة اليوم يزعمون أنه
نبي فلما سمعتها أخذتني العرواء وهي الحمى النافض أي الرعدة والبرحاء الحمى
الصالب حتى ظننت أنني ساقط على سيدي فنزلت عن

النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك ما تقول فغضب سيدي ولكمني لكمة شديدة ثم قال مالك ولهذا أقبل على عملك فقلت لا شيء إنما أردت أن أثبتة فيما قال وقد كان عندي شيء جمعته أي وهو محتمل لأن يكون تمرا ولأن يكون رطبا فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقباء فدخلت عليه فقلت له إني قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم فقررت به إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه كلوا وأمسك يده فلم يأكل فقلت في نفسي هذه واحدة أي ومن ثم لما أخذ الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما وهو طفل تمر الصدقة ووضعها في فمه قال له النبي صلى الله عليه وسلم كخ كخ أما تعرف أنا لا نأكل الصدقة رواه مسلم

وروى أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي ثم أرفعها لأكلها ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها ووجد صلى الله عليه وسلم تمره فقال لولا أن تكون من الصدقة لأكلتها وقال إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد إنما هي أوساخ الناس وفي رواية إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد والراجح من مذهبنا حرمة الصدقتين عليه صلى الله عليه وسلم وحرمة صدقة الفرض دون النفل على آله وقال الثوري لا تحل الصدقة لآل محمد لا فرضها ولا نفلها ولا لمواليهم لأن مولى القوم منهم بذلك جاء الحديث قال سلمان ثم انصرفت عنه فجمعت شيئا هو أيضا يحتمل أن يكون تمرا ولأن يكون رطبا

وتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ثم جئته فقلت إني رأيتك لا تأكل الصدقة وهذا هدية أكرمتك بها فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر أصحابه فأكلوا معه فقلت في نفسي هاتان ثنتان أي ومن ثم روى مسلم كان إذا أتى بطعام سأل عنه فإن قيل هدية أكل منها وإن قيل صدقة لم يأكل منها قال سلمان ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بيقيع الغرقد وقد تبع

جنازة رجل من أصحابه أي وهو كلثوم بن الهدم الذي نزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقاء لما قدم المدينة وقيل هو أول من دفن به وقيل أول من دفن به أسعد بن زرارة وقيل أول من دفن به عثمان بن مظعون

وجمع بأن أول من دفن به من المهاجرين عثمان أي وقد مات في ذي الحجة من السنة الثانية من الهجرة وأول من دفن به من الأنصار كلثوم أو أسعد أي وفي الوفيات لابن زبر مات كلثوم ثم من بعده أبو أمامة أسعد بن زرارة في شوال من السنة الأولى من الهجرة ودفن بالبقيع هذا كلامه ولم يذكر الوقت الذي مات فيه كلثوم وفي النور عن الطبري أنه مات بعد قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة بأيام قليلة وأول من مات من الأنصار البراء بن معرور مات قبل قدومه المدينة مهاجرا بشهر ولما حضره الموت أوصى بأن يدفن ويستقبل به الكعبة ففعلوا به ذلك ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة صلى على قبره هو وأصحابه وكبر أربعاً ولم أقف على محل دفنه وقولهم إن أول من دفن بالبقيع كلثوم يدل على أن البراء لم يدفن بالبقيع إلا أن يراد الأولية بعد قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة والظاهر أن هذه أول صلاة صليت على القبر

قال سلمان وكان عليه الصلاة والسلام عليه شملتان وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه ثم ابتدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي فألقى الرداء عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته فأكبت عليه أقبله وأبكي فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم تحول فتحولت بين يديه فقصصت عليه حديثي قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذلك أصحابه أي وفي شواهد النبوة لما جاء سلمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم لم يفهم النبي صلى الله عليه وسلم كلامه فطلب ترجمانا فأتى بتاجر من يهود كان يعرف الفارسية والعربية فمدح سلمان النبي صلى الله عليه وسلم وذم اليهود بالفارسية فغضب اليهودي وحرف الترجمة فقال للنبي صلى الله عليه وسلم إن سلمان يشتمك فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذا الفارسي جاء ليؤدينا فنزل جبريل وترجم عن كلام سلمان فقال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك أي الذي ترجمه له جبريل لليهودي فقال اليهودي يا محمد

إن كنت تعرف الفارسية فما حاجتك إلي فقال صلى الله عليه وسلم ما كنت أعلمها من قبل والآن علمني جبريل أو كما قال فقال اليهودي يا محمد قد كنت قبل هذا أتهمك والآن تحقق عندي أنك رسول الله فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل علم سلمان العربية فقال قل له ليغمض عينيه ويفتح فاه ففعل سلمان فتفل جبريل في فيه فشرع سلمان يتكلم بالعربي الفصيح وهذا السياق يدل على أن ذلك كان عند مجيئه في المرة الثالثة وحينئذ يشكل مجيئه أولا وثانيا وقوله ما تقدم بالعربية إلا أن يقال ذاك لقلته سهل عليه أن يعبر عنه بالعربية بخلاف حكاية حاله لكثرت له لم يحسن أن يعبر عنه بالعربية قال وقد اختلفت الروايات عن سلمان في الشيء الذي جاء به للنبي صلى الله عليه وسلم أولا وثانيا فالرواية الأولى المتقدمة ظاهرها يقتضى أنه تمر أي وفيه من أين أن ظاهرها ذلك بل هي محتملة وقد جاء التصريح بكونه تمرا في الأولى والثانية ففي بعض الروايات فسألت سيدي أن يهب لي يوما ففعل فعملت في ذلك اليوم على صاع أو صاعين من تمر وجئت به النبي صلى الله عليه وسلم فلما رأيته لا يأكل الصدقة سألت سيدي أن يهب لي يوما آخر فعملت فيه على ذلك أي على صاع أو صاعين من تمر ثم جئت به النبي صلى الله عليه وسلم فقبله وأكل منه أي والذي في كلام السهيلي قال سلمان كنت عبدا لامرأة فسألت سيدتي أن تهب لي يوما الحديث وقد يقال لا مخالفة لأنه يجوز أن يكون عني بسيدته زوجة سيده لأنه يقال لها سيده في المتعارف بين الناس أو أن المرأة هي التي اشترته ويؤيده ما يأتي وزوج تلك المرأة يقال له في المتعارف بين الناس سيد قال وقيل إن الذي جاء به أولا وثانيا رطب وفي رواية احتطبت حطبا فبعته واشترت بذلك طعاما والطعام خبز ولحم وفي رواية جئت بمائة عليها بط وفي رواية عليها رطب وجمع بأنه أولا قدم الخبز واللحم الذي هو البط والتمر ثم قدم الرطب فلم يتحد المقدم وفي مسند الإمام أحمد أن المرات ثلاث وأن المقدم فيها متحد

أقول تقديم الرطب في المرة الثانية يخالفه ما تقدم أنه في المرة الثانية كان تمرا والله أعلم

ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدر وأحد فكان أول مشاهدته الخندق كما سيأتي وكان بعد ذلك يقال له سلمان الخير وكان معدودا من أخصائه صلى الله عليه وسلم قال سلمان ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتب يا سلمان فكاتب صاحب علي ثلاثمائة نخلة أي ودية على وزن فعيلة وهي النخلة الصغيرة التي يقال لها الفسيلة أحبيها له بالتفكير بالفاء ثم القاف أي الحفر أي ومن ثم قيل للبئر الفقير أي احفر لها واغرسها بتلك الحفرة وتصير حية بتلك الحفرة أي وأتعهدا إلى أن تثمر والودية والفسيلة هي النخلة الصغيرة التي جرت العادة بأن تنقل من المحل الذي تنبت فيه إلى محل آخر لكن في كلام بعضهم إذا خرجت النخلة من النواة قيل لها غريسة ثم يقال لها ودية ثم فسيلة ثم إضاءة فإذا فاتت اليد فهي جبارة ويقال للنخلة الطويلة عوانة بلغة عمان

وفي الحديث إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع أن يغرسها قبل أن تقوم فليغرسها وعلى أربعين أوقية أي من ذهب كما سيأتي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعينوا أحاكم فأعانوني بالنخل الرجل بستين والرجل بعشرين ودية والرجل بخمسة عشر والرجل يعين بقدر ما عنده حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية قال وفي رواية أنه كوتب على أن يغرس لهم خمسمائة فسيلة أي يحفر لها ويغرسها أي ويتعهدا إلى أن تثمر وعلى أربعين أوقية

قال سلمان فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب يا سلمان ففقر أي بالفاء وفي رواية فنقر أي بالنون أي احفر لها فإذا فرغت فائتني أنا أضعها بيدي ففقرت وفي رواية فنقرتها وأعانني أصحابي حتى إذا فرغت جئته صلى الله عليه وسلم فأخبرته فخرج معي إليها فجعلنا نقرب إليه الودي فيضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ما مات منها ودية واحدة فأدبت النخل وبقي على المال فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة الدجاجة أي وفي رواية مثل بيضة الحمامة من ذهب من بعض المعادن ولعل هذه البيضة كانت مترددة بين بيضة الدجاجة وبين بيضة الحمامة أي أكبر من بيضة الحمامة وأصغر من بيضة الدجاجة فاختلف فيها التشبيه فقال صلى الله عليه وسلم

ما فعل الفارسي المكاتب فدعيت له فقال خذ هذه فأدها مما عليك يا سلمان أي تكون بعضا مما عليك

وحينئذ قد يتوقف في جواب سلمان بقوله قلت وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي لأن النبي يؤدي بعضه وإن قل ذلك البعض إلا أن يقال العادة قاضية بأن ذلك البعض لا يقبل إلا إذا كان له وقع بالنسبة لعله

وقد أشار صلى الله عليه وسلم للرد على سلمان بأن هذا الذي قلت فيه إنه لا يحسن أن يكون بعضا مما عليك يوفى به الله عنك جميع ما عليك حيث قال خذها فإن الله سيؤدي بها عنك فأخذتها فوزنت لهم منها والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية فأوفيتهم حقهم أي وبقى عندي مثل ما أعطيتهم قال وهذا أي سؤال سلمان وجوابه صلى الله عليه وسلم كالصريح في أن الأوقية التي كاتب عليها كانت ذهبا لا فضة وقد جاء أي مما يدل على ذلك في بعض الروايات أن سلمان لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم وأين تقع هذه مما علي فقلبها صلى الله عليه وسلم على لسانه ثم قال خذها فأوفهم منها

وأیضا أي مما يدل على ذلك أيضا أن المعلوم أن قدر بيضة الدجاجة من الذهب يعدل أكثر من أربعين أوقية من الفضة أي فلا يحسن قول سلمان وأين تقع هذه مما علي وقد صرح بذلك أي بكونها ذهبا البلاذري والقاضي عياض في الشفاء فقالا على أربعين أوقية من ذهب وإلى القصة أشار صاحب الهمزية بقوله

* ووفى قدر بيضة من نضار

* دين سلمان حين حان الوفاء

* كان يدعى قنا فأعتق لما

* أينعت من نخيله الأقناء

* أفلا تعذرون سلمان لما

* أن عرته من ذكره العرواء

*

أي ووفى قدر بيضة من بيض الدجاج أو الحمام من ذهب دين سلمان وهو أربعون أوقية من ذهب حين قرب حلول الدين وتقدم أنه وفي دينه منها وبقى عنده منها قدر ما أعطاهم

وسبب هذا الدين على سلمان أنه كان يدعى قنا أي أرق بالباطل كما تقدم فكوتب على ذلك وعلى أن يغرس تلك النخيل ويتعهدا إلى أن تثمر وأعتق بأداء هذا الدين حين أينعت العراجين من نخيله التي غرسها أي غرست له أفلا ترون لسلمان عذرا

يمنعكم من إيدائه حين أن غشيته قوة الحمى من أجل سماع ذكره صلى الله عليه وسلم قال سلمان وشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق ثم لم يفتني معه مشهد

وعن بريدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترى سلمان أبي كان سببا لشرائه أن مكاتبته من قوم اليهود بكذا وكذا درهما وعلى أن يغرس لهم كذا وكذا من النخل يعمل فيها سلمان حتى تدرك فغرس رسول الله صلى الله عليه وسلم النخل كله إلا نخلة غرسها عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فاطعم النخل كله إلا تلك النخلة التي غرسها عمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرسها قالوا عمر فقلعها وغرسها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فأطعمت من عامها

وذكر البخاري أن سلمان رضي الله تعالى عنه غرس بيده ودية واحدة وغرس رسول الله صلى الله عليه وسلم سائرهما فعاشت كلها إلا التي غرسها سلمان قال ويجوز أن يكون كل من سلمان وعمر غرس هذه النخلة أحدهما قبل الآخر انتهى أقول وهذا الحائط الذي غرس فيه سلمان من حوائط بني النضير وكان يقال له المنبت وقد آل إليه صلى الله عليه وسلم كما سيأتي

ولا يخفى أن قول صاحب الهمزية كان يدعى فنا أنه لم يرق حقيقة وقد تقدم ذلك وفيه أنه لو لم يرق حقيقة لما أقره على الرق وأمره صلى الله عليه وسلم بالمكاتبه وأدى عنه وكونه فعل ذلك تطيبا لخاطر ساداته بعيد فليتأمل

فإن قيل إذا رق حقيقة كيف جاز له صلى الله عليه وسلم أن يأمر أصحابه أن يأكلوا مما جاء به صدقة ويأكل هو وهم مما جاء به هدية والرقيق لا يملك وإن ملكه سيده على الأصح عندنا معاشر الشافعية بل وعند باقي الأئمة قلنا يجوز أن يكون الرقيق كان في صدر الإسلام يملك ما ملكه له سيده ثم نسخ ذلك على أن بعض أصحابنا ذهب إلى صحته وفي كلام السهيلي وذكر أو عبید أن حديث سلمان حجة على من قال إن العبد لا يملك هذا كلامه وأنه صلى الله عليه وسلم لم يعلم رقه حينئذ لأن الأصل في الناس الحرية ولعدم تحقق رق سلمان وعدم مجيء مكاتبته على قواعد أئمتنا لم يستدلوا على مشروعية الكتابة بقصة سلمان وفي كلام السهيلي أن في خبر سلمان من الفقه قبول الهدية وترك سؤال المهدي

وكذلك الصدقة وفي الحديث من قدم إليه الطعام فليأكل ولا يسأل والله أعلم وعن سلمان رضي الله تعالى عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبره بالقصة المتقدمة زاد أن صاحب عمورية قال له أتت كذا وكذا من أرض الشام فإن بها رجلا بين غيظتين يخرج كل سنة من هذه الغيضة إلى هذه الغيضة مستجيزا يعترضه ذوو الأسقام فلا يدعو لأحد منهم إلا شفى فأسأله عن هذا الدين فهو يخبرك به قال سلمان فخرجت حتى جئت حيث وصفه لي فوجدت الناس قد اجتمعوا بمرضاهم هناك حتى خرج لهم تلك الليلة مستجيزا من إحدى الغيظتين إلى الأخرى فغشيه الناس بمرضاهم لا يدعو لمريض إلا شفى وغلبوني عليه فلم أخلص حتى دخل الغيضة التي يريد أن يدخلها إلا منكبه فتناولته فقال من هذا والتفت إلي فقلت يرحمك الله أخبرني عن الحنيفية دين إبراهيم فقال إنك لتسأل عن شيء ما يسأل عنه الناس اليوم قد أظلك نبي يبعث بهذا الدين من أهل الحرم فإنه يحملك عليه ثم دخل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن كنت صدقتني لقد لقيت عيسى بن مريم والغيضة الشجر الملتف قال السهيلي هذا الحديث مقطوع وفيه رجل مجهول ويقال إن الرجل هو الحسن بن عمارة وهو ضعيف بإجماع منهم وإن صح هذا الحديث فلا نكارة في منته فقد ذكر الطبري أن المسيح عليه الصلاة والسلام نزل بعد ما رفع وأمه وامرأة أخرى أي كانت مجنونة فأبرأها المسيح عند الجذع الذي فيه الصليب بيكيان فأهبط إليهما فكلمهما وقال لهما علام تبكيان فقالا عليك فقال إنني لم أقتل ولم أصلب ولكن الله رفعني وكرمني وأخبرهما أن الله أوقع شبهه على الذي صلب وأرسل إلى الحواريين أي قال لأمه ولتلك المرأة أبلغا الحواريين أمرني أن يلقوني في موضع كذا ليلا فجاء الحواريون ذلك الموضع فإذا الجبل قد اشتعل نورا لنزوله فيه ثم أمرهم أن يدعوا الناس إلى دينه وعبادة ربهم ووجههم إلى الأمم وإذا جاز أن ينزل مرة جاز أن ينزل مرارا لكن لا نعلم أنه هو أي حقيقة حتى ينزل النزول الظاهر فيكسر الصليب ويقتل الخنزير كما جاء في الصحيح هذا كلامه ويروى أنه إذا نزل تزوج امرأة من جذام قبيلة باليمن ويولد له ولدان يسمى أحدهما

محمدا والآخر موسى يمكث أربعين سنة وقيل خمسا وأربعين وقيل سبع سنين كما في مسلم وقيل ثمان سنين وقيل تسعا وقيل خمسا أي وجمع بين كون مدة مكثه أربعين سنة أو خمسا وأربعين سنة وبين كونها سبع سنين أي وما بعد ذلك بأن المراد بالأول مجموع لبثه في الأرض قبل الرفع وبعده والسبعة أي وما بعدها من الأقوال يكون بعد نزوله ويدفن إذا مات في روضة النبي صلى الله عليه وسلم قال وقيل في حجرته صلى الله عليه وسلم أي عند قبره الشريف وقيل في بيت المقدس انتهى أي وقيل يدفن معه صلى الله عليه وسلم في قبره ويؤيده ما ورد ويدفن معي في قبوري فأقوم أنا وعيسى من قبر واحد بين أبي بكر وعمر

أقول وكما يقتل عيسى عليه الصلاة والسلام الخنزير يقتل الدجال فقد جاء ينزل عيسى حكما مقسطا يحكم بشرعنا يقتل الدجال ونزوله يكون عند صلاة الفجر فيصلى خلف المهدي بعد أن يقول له المهدي تقدم يا روح الله فيقول له تقدم فقد أقيمت لك وفي رواية ينزل بعد شروع المهدي في الصلاة فيرجع المهدي القهقري ليتقدم عيسى فيضع يده بين كتفيه ويقول له تقدم فإذا فرغ من الصلاة أخذ حربته وخرج خلف الدجال فيقتله عند باب لد الشرقي وورد أن المهدي يخرج مع عيسى فيساعده على قتل الدجال وقد جاء أن المهدي من عترة النبي صلى الله عليه وسلم من ولد فاطمة قيل من ولد الحسين وقيل من ولد الحسن وقيل من ولد عمه العباس

فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن أمه أم الفضل مرت به صلى الله عليه وسلم فقال إنك حامل بسلام فإذا ولدته فائتيني به قالت فلما ولدته أتيتها به فأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى وألبأه أي أسقاه اللبأ من ريقه وسماه عبد الله وقال أذهبني بأبي الخلفاء فأخبرت العباس فأتاه فذكر له فقال هو ما أخبرتك هذا أبو الخلفاء حتى يكون منهم السفاح حتى يكون منهم المهدي أي الخليفة وهو أبو الرشيد بدليل قوله حتى يكون منهم من يصلى بعيسى ابن مريم أي وهو المهدي الذي يأتي آخر الزمان اسمه محمد بن عبد الله لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد وفي رواية ليلة واحدة يطول الله ذلك حتى يبعث وظهوره يكون بعد أن يكسف القمر في أول ليلة من رمضان وتكسف الشمس في النصف منه مثل ذلك لم يوجد منذ خلق الله السماوات والأرض عمره عشرون سنة وقيل أربعون سنة ووجهه كوكب درى على خده الأيمن حال أسود يخرج

في زمان الدجال وينزل في زمانه عيسى ابن مريم وأما ما ورد لا مهدي إلا عيسى بن مريم فلا ينافي ذلك لجواز أن يكون المراد لا مهدي كاملا معصوما إلا عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام

فقد جاء لن تهلك أمة أنا أولها وعيسى بن مريم آخرها والمهدي من أهل بيتي في وسطها وعن العباس رضي الله تعالى عنه قال كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أنظر هل ترى في السماء من شيء قلت نعم قال ما ترى قلت الثريا قال أما إنه سيملك هذه الأمة بعددها من صلبك أي وقد اختلف الناس في عددها المرئي فقليل سبعة أنجم وقليل تسعة

وجمعنا بينهما بأن الأول يكون هو المرئي لغالب الناس ولو غير حديد البصر والثاني لمن يكون حديد البصر منهم وأما المرئي له صلى الله عليه وسلم فقليل كان يرى أحد عشر نجما وقليل اثني عشر نجما

وجمعنا بينهما بحمل الأول على ما إذا لم يمعن النظر والثاني على ما إذا أمعن النظر وحيث يقتضى هذا أن تكون الخلفاء من بني العباس اثني عشر

وعن سعيد بن جبير سمعت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يقول يكون منا ثلاثة أهل البيت السفاح والمنصور والمهدي ورواه الضحاك عن ابن عباس مرفوعا والمهدي في هذه الرواية يحتمل أن المراد به أبو الرشيد ويحتمل أن يكون المنتظر

وروى أبو نعيم بسند ضعيف أنه صلى الله عليه وسلم خرج فتلقيه العباس فقال ألا أسرك يا أبا الفضل قال بلى يا رسول الله قال إن الله فتح بي هذا الأمر وبذريتك يختمه وفي رواية ويختمه بولئك

وقد أفردت ترجمة المهدي المنتظر بالتأليف في مجلد حافل سماه مؤلفه الفواصل عن الفتن القواصم

وقد رويت قصة سلمان رضي الله تعالى عنه على غير هذا الوجه الذي تقدم فعنه قال كان لي أخ أكبر مني وكان يتقنع بثوبه ويضعد الجبل يفعل ذلك غير ما مرة متنكرا فقلت له أما إنك تفعل كذا وكذا فلم لا تذهب بي معك قال أنت غلام وأخاف أن يظهر منك شيء فقلت لا تخف قال إن في هذا الجبل قوما لهم عبادة وصلاح يذكرون الله ويذكرون الآخرة ويزعمون أنا على غير دين قلت فاذهب بي معك إليهم قال

حتى أستأمرهم فاستأمرهم فقالوا جئ به فذهبت معه فانتهيت إليهم فإذا هم ستة أو سبعة وكأن الروح قد خرجت منهم من العبادة يصومون النهار ويقومون الليل يأكلون الشجر وما وجدوا فصعدنا إليهم فحمدوا الله تعالى وأثنوا عليه وذكروا من مضى من الرسل والأنبياء حتى خلصوا إلى عيسى ابن مريم قالوا ولد بغير ذكر وبعثه الله رسولا وسخر له ما كان يفعل من إحياء الموت وخلق الطير وإبراء الأعمى والأبرص فكفر به قوم وتبعه قوم ثم قالوا يا غلام إن لك ربا وإن لك معادا وإن بين ذلك جنة ونارا لهما تصير وإن هؤلاء القوم الذين يعبدون النيران أهل كفر وضلالة لا يرضى الله بما يصنعون وليسوا على دين ثم انصرفنا ثم عدنا إليهم فقالوا مثل ذلك وأحسن فلزمتهم ثم اطلع عليهم الملك فأمرهم بالخروج من بلاده فقلت ما أنا بمفارقكم فخرجت معهم حتى قدمنا الموصل فلما دخلوا حفوا بهم ثم أتاهم رجل من كهف جبل فسلم وجلس فحفوا به فقال لهم أين كنتم فأخبروه فقال ما هذا الغلام معكم فأثنوا علي خيرا وأخبروه بإتباعي إياهم ولم أر مثل إعظامهم له فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر من أرسله الله من رسله وأنبيائه وما لقوا وما صنع بهم حتى ذكر عيسى بن مريم ثم وعظهم وقال اتقوا الله والزموا ما جاء به عيسى ولا تخالفوا يخالف بكم ثم أراد أن يقوم فقلت ما أنا بمفارقك فقال يا غلام إنك لا تستطيع أن تكون معي إني لا أخرج من كهفي هذا إلا كل يوم أحد قلت ما أنا بمفارقك فنبعته حتى دخل الكهف فما رأيته نائما ولا طاعما إلا راكعا وساجدا إلى الأحد الآخر فلما أصبحنا خرجنا واجتمعوا إليه فتكلم نحو المرة الأولى ثم رجع إلى كهفه ورجعت معه فلبثت ما شاء الله أن يخرج في كل يوم أحد ويخرجون إليه ويعظهم ويوصيهم فخرج في أحد فقال مثل ما كان يقول ثم قال يا هؤلاء إني قد كبر سني ورق عظمي وقرب أجلي وإني لا عهد لي بهذا البيت يعني بيت المقدس منذ كذا وكذا سنة فلا بد لي من إتيانه فقلت ما أنا بمفارقك فخرج وخرجت معه حتى أتيت إلى بيت المقدس فدخل وجعل يصلى وكان فيما يقول لي يا سلمان إن الله سوف يبعث رسولا اسمه أحمد يخرج من جبال تهامة علامته أن يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة وهذا زمانه الذي يخرج فيه قد تقارب فأما أنا فشيخ كبير لا أحسبني أدركه فإن أدركته أنت فصدقه واتبعه فقلت وإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه قال وإن أمرك ثم خرج من بيت المقدس وعلى بابه مقعد فقال له ناولني

يدك فناوله يده فقال له قم باسم الله فقام كأنما نشط من عقال فقال لي المقعد يا غلام احمل علي ثيابي حتى أنطلق فحملت عليه ثيابه فذهب الراهب وذهبت في أثره أطلبه كلما سألت عنه قالوا أمامك حتى لقيني ركب من كلب فسألتهم فلما سمعوا لغتي أناخ رجل بعيه وحملني عليه فجعلني خلفه حتى أتوا بي بلادهم فباعوني فاشترتني امرأة من الأنصار فجعلتني في حائط لها أي بستان وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرت به فأخذت شيئا من تمر حائط ثم أتيتها فوجدت عنده أناسا فوضعت بين يديه فقال ما هذا قلت صدقة قال للقوم كلوا ولم يأكل هو ثم لبثت ما شاء الله ثم أخذت مثل ذلك ثم أتيتها فوجدت عنده أناسا فوضعت بين يديه فقال ما هذا فقلت هدية قال بسم الله وأكل وأكل القوم فقلت في نفسي هذه من آياته ويحتاج للجمع بين هذه الرواية وما تقدم على تقدير صحتها

وفي الدر المنثور أن امرأة من جهينة اشترته وصار يرعى غنما لها بينما هو يوما يرعى إذ أتاه صاحب له فقال له أشعرت أنه قد قدم اليوم المدينة رجل يزعم أنه نبي فقال له سلمان أقم في الغنم حتى آتيك فهبط سلمان إلى المدينة فاشترى بدينار بيعه شاة فشواها وبيعه خبزا ثم أتاه به فقال ما هذا قال سلمان هذه صدقة قال لا حاجة لي بها فأخرجها فأكلها أصحابه ثم انطلق فاشترى بدينار آخر خبزا ولحما فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا قال هذه هدية قال فاقعد فكل فقعد وأكلا جميعا منها فدرت خلفه ففطن بي فأرعى ثوبه فإذا الخاتم في ناحية كتفه الأيسر فتبينته ثم درت حتى جلست بين يديه فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله وهذه الرواية تخالف ما تقدم فليتأمل ولينظر كيف الجمع

ونقل بعضهم الإجماع على أن سلمان عاش مائتين وخمسين سنة وكان حبرا عالما فاضلا زاهدا متقشفا وكان يأخذ من بيت المال في كل سنة خمسة آلاف وكان يتصدق بها ولا يأكل إلا من عمل يده وكان له عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها قال بعضهم دخلت عليه وهو أمير على المدائن وهو يعمل الخوص فقلت له لم تعمل هذا وأنت أمير وهو يجرى عليك رزق فقال إني أحب أن آكل من عمل يدي وربما اشترى اللحم وطبخه ودعا المجذومين فأكلوا معه

وأول مشاهدة الخندق كما تقدم قيل وشهد بدرا وأحدا قبل أن يعتق أي وهو مكاتب
فيكون أول مشاهدته الخندق بعد عتقه والله أعلم
وأما أخبار الكهان لا عن السنة الجان فكثيرة منها ما تقدم في ليلة ولادته صلى الله عليه
وسلم وفي أيام رضاعه

قال ومنها أيضا خبر عمرو بن معد يكرب رضي الله تعالى عنه قال والله لقد علمت أن
محمدا رسول الله قبل أن يبعث فليل له وكيف ذاك قال فزعنا إلى كاهن لنا في أمر نزل
بنا فقال الكاهن أقسم بالسماء ذات الإبراج والأرض ذات الأدرج والريح ذات العجاج
إن هذا لا مراج لعله من أجيج النار وهو التهابها ولقاح ذي نتاج قالوا وما نتاجه قال
نتاجه ظهور نبي صادق بكتاب ناطق وحسام فائق قالوا وأين يظهر وإلى ماذا يدعو قال
يظهر بصلاح ويدعو إلى فلاح ويعطل القداح وينهى عن الراح والسفاح وعن كل أمر
قباح قالوا ممن هو قال من ولد الشيخ الأكرم حافر زمزم وعزه سرمد وخصمه مكمد
انتهى

ومنها خبر قس بن ساعدة الإيادي وهو أول من قال البينة على المدعى واليمين على من
أنكر وأول من اتكأ على عصا أو قوس أو سيف عند الخطبة
وقيل إن أول من تكلم بأن البينة على المدعى واليمين على من أنكر داود عليه الصلاة
والسلام وأن ذلك فصل الخطاب

ورد بأنه لم يثبت عنه أنه تكلم بغير لغته عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قدم
وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أيكم يعرف القس بن ساعدة
الإيادي قالوا كلنا يا رسول الله نعرفه قال فما فعل قالوا هلك قال ما أنساه بعكاظ على
جمل أحمر وهو يقول أيها الناس اجمعوا واسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات
وكل ما هو آت آت إن في السماء لخبرا وإن في الأرض لعبرا مهاد موضوع وسقف
مرفوع ونجوم تمور وبحار لا تغور أقسم قس قسما حاتما لأن كان في الأمر رضا
ليكونن سخطا إن الله ديننا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه مالي أرى الناس
يذهبون ولا يرجعون أرضوا بالمقام فقاموا أم تركوا هناك فناموا ثم قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم أيكم يروى شعره فأنشدوه عليه الصلاة والسلام

* في الذاهبين الأولين
* من القرون لنا بصائر
* لما رأيت موارد
* للموت ليس لها مصادر
* ورأيت قومي نحوها
* تسعى الأصاغر والأكابر
* لا يرجع الماضي إلى
* ولا من الباقيين غابر
* أيقنت أني لا محا
* لة حيث صار القوم صائر
*

وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قدم الجارود ابن عبد الله وكان سيديا في قومه وقيل له الجارود لأنه أغار على قوم من بني بكر بن وائل فجردهم أي أخذ جميع أموالهم وإلى ذلك الإشارة بقول الشاعر
* ودرسناهم بالخيل من كل جانب
* كما جرد الجارود بكر بن وائل
*

فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا جارود هل في جماعة وفد عبد القيس من يعرف لنا قسا قالوا كلنا نعرفه يا رسول الله قال الجارود وأنا بين يدي القوم كنت أقفو أي أتبع أثره كان من أسباط العرب أي من ولد ولدهم شيخا عمر سبعمئة سنة أي وقيل ستمائة سنة أدرك من الحواريين سمعان فهو أول من تأله أي تعبد من العرب أي ترك عبادة الأصنام وأول من قال أما بعد أي وقيل أول من قال ذلك كعب بن لؤي كما تقدم وقيل سحبان بن وائل وقيل يعقوب وقيل يعرب بن قحطان وقيل داود وهو فصل الخطاب ورد بأنه لم يثبت عنه أنه تكلم بغير لغته أي وبعد لفظة عربية وفصل الخطاب الذي أوتيه هو فصل الخصومة أي وهذا يؤيد ما تقدم عنه أنه أول من قال البينة على المدعى واليمين على من أنكر وتقدم ما فيه وجمع بأن الأولية بالنسبة لداود حقيقية ولغيره إضافية فللكعب بن لؤي بالنسبة للعرب ولغيره بالنسبة لقبيلته وقس أول من كتب من فلان إلى فلان قال الجارود كأنني أنظر إليه يقسم بالرب الذي هو له ليلغن الكتاب أجله وليوفين كل عامل عمله ثم أنشأ يقول
* هاج للقلب من جواه ادكار
* وليال خلالهن نهار
* وجبال شوامخ راسيات

* وبحار مياهمن غزار
* ونجوم تلوح في ظلم الليل
* تراها في كل يوم يوم تدار
* والذي قد ذكرت دل على الله
* نفوسا لها هدى واعتبار
*

فقال النبي صلى الله عليه وسلم على رسلك يا جارود والرسول بكسر الراء التؤدة فلست أنساه بسوق عكاظ أي وهو سوق بين بطن نخلة والطائف كان سوقا لثقيف وقيس عيلان كما تقدم على جمل أورك أي يضرب لونه إلى السواء وهو يتكلم بكلام ما أظن أني أحفظه وفي لفظ تكلم بكلام له حلاوة لا أحفظه الآن فقال أبو بكر يا رسول الله فإني أحفظه كنت حاضرا ذلك اليوم بسوق عكاظ فقال في خطبته يا أيها الناس اسمعوا وعوا وإذا وعيتم فانتفعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت أت مطر ونبات وأرزاق وأقوات وآباء وأمهات وأحياء وأموات جمع وأشتات وآيات بعد آيات إن في السماء لخبرا وإن في الأرض لعبرا ليل داج أي مظلم وسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا هناك فناموا أقسم قس فسمما حاتما لا حثنا فيه ولا آثما إن لله دينا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه ونبيا قد حان حينه وأظلكم زمانه فطوبى لمن آمن به فهده وويل لمن خالفه فعصاه ثم قال تبا لأرباب الغفلة من الأمم الخالية والقرون الماضية يا معشر إياد هي قبيلة من اليمن أين الآباء والأجداد وأين المريض والعواد وأين الفراعنة الشداد أين من بنى وشيد وزخرف ونجد أي من زين وطول وغره المال والولد أين من بغى وطغى وجمع فأوعى وقال أنا ربكم الأعلى ألم يكونوا أكثر منكم أموالا وأطول منكم آجالا وأبعد منكم آمالا طحنهم التراب بكلكله أي بصدرة ومزقهم بتطاولة فتلك عظامهم بالية وبيوتهم خاوية عمرتها الذئب العاوية كلا بل هو الله الواحد المعبود ليس بوالد ولا مولود ثم أنشأ يقول الأبيات المتقدمة

أي وفي رواية لما قدم وفد إياد على النبي صلى الله عليه وسلم قال يا معشر وفد إياد ما فعل قس بن ساعدة الإيادي قالوا هلك يا رسول الله قال لقد شهدته يوما بسوق عكاظ على جمل أحمر يتكلم بكلام معجب موفق لا أجدني أحفظه الآن فقام امرؤ أعرابي من أقاصي القوم فقال أنا أحفظه يا رسول الله فسر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك كان يقول يا معشر الناس اجتمعوا فكل من مات فات وكل شيء آت آت ليل داج وسماء ذات أبراج وبحر عجاج نجوم تزهرو جبال مرسية وأنهار مجرية الحديث

وفي رواية أين الصعب ذو القرنين ملك الخافقين وأذل الثقيلين وعمر ألفين ثم كان ذلك كلمحة عين

قال وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن قس بن ساعدة كان يخطب قومه بسوق عكاظ فقال سيأتيكم حق من هذا الوجه وأشار بيده إلى نحو مكة قالوا له وما هذا الحق قال رجل أبلج أحور من ولد لؤي بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخلاص وعيش ونعيم لا ينفدان فإذا دعاكم فأجيبوه ولو علمت أنني أعيش إلى ة مبعثه لكنت أول من يسعى إليه وقد رويت هذه القصة من طرق متعددة قال الحافظ ابن كثير هذه الطرق على ضعفها كالمتعاضدة على إثبات أصل القصة وقال الحافظ ابن حجر طرق هذا الحديث كلها ضعيفة وهو يرد قول ابن الجوزي في موضوعاته حديث قس بن ساعدة من جميع جهاته باطل

أقول ذكر في النور أن في قصة قس ما يرشد إلى التعدد مرتين مرة حفظ صلى الله عليه وسلم كلامه وكان قس على جمل أحمر والثانية التي لم يحفظ فيها كلامه كان قس على جمل أورك قال لكن لا أدري أي المرتين كانت أولا هذا كلامه وقد يقال النسيان جائز عليه صلى الله عليه وسلم فيجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم نسي كلام قس بعد الإخبار به أولا ويدل لذلك قوله لا أظن أنني أحفظه الآن أو قبل الإخبار به فيكون خبره صلى الله عليه وسلم متأخرا عن خبر أبي بكر فلا دلالة في ذلك التعدد ووصف الجمل بأنه أحمر ووصفه بأنه أورك لا يدل على التعدد لأنه يجوز أن يكون شديد الحمرة تميل إلى السواد وهو الأورك فأخبر عنه مرة بأنه أحمر ومرة بأنه أورك وهذا السياق يدل على تعدد مجيء وفد عبد القيس مرة جاءوا وحدهم ومرة جاءوا مع سيدهم الجارود وقد جاء رحم الله قسا إنه كان على دين أبي إسماعيل بن إبراهيم والله أعلم

ومن ذلك خبر نافع الجرشي نسبة إلى جرش بضم الجيم وفتح الراء وبالشين المعجمة قبيلة من حمير تسمى به بلدهم أن بطنا من اليمن كان لهم كاهن في الجاهلية فلما ذكر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتشر في العرب جاءوا إلى كاهنهم واجتمعوا

إليه في أسفل جبل فنزل إليهم حين طلعت الشمس فوقف لهم قائما متكئا على قوس
فرفع رأسه إلى السماء طويلا ثم قال أيها الناس إن الله أكرم محمدا وأصطفاه وطهر قلبه
وحشاه ومكثه فيكم أيها الناس قليل
وأما أخبار الكهان على السنة الجان فكثيرة أيضا
منها خبر سواد بن قارب رضي الله تعالى عنه وكان يتكهن في الجاهلية وكان شاعرا ثم
أسلم فعن محمد بن كعب القرظي قال بينا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ذات
يوم جالسا إذ مر به رجل فقيل له يا أمير المؤمنين أتعرف هذا المار قال ومن هذا قالوا
سواد بن قارب الذي أتاه رثيه أي تابعه من الجن الذي يترأى له أتاه بظهور النبي صلى
الله عليه وسلم أي بعد أن قال عمر رضي الله تعالى عنه على المنبر أي منبر النبي صلى
الله عليه وسلم أيها الناس أفيكم سواد بن قارب فلم يجبه أحد فلما كان السنة المقبلة
ولعل ذلك كان في زمن المجيء للزيارة من الآفاق قال أيها الناس أفيكم سواد بن قارب
قال بعضهم يا أمير المؤمنين ما سواد بن قارب قال إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه
شيئا عجيبا قال البراء فبينما نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب فأرسل إليه عمر رضي
الله تعالى عنه فقال له أنت سواد بن قارب قال نعم قال أنت الذي أتاك رثيك بظهور
النبي صلى الله عليه وسلم قال نعم قال فأنت على ما كنت عليه من كهانتك فغضب
سواد بن قارب وقال ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمت يا أمير المؤمنين فقال له سبحان
الله ما كنا عليه من الشرك أي من عبادة الأصنام أعظم مما كنت عليه من كهانتك أي
وفي رواية أن عمر رضي الله تعالى عنه قال اللهم غفرا قد كنا في الجاهلية على شر من
هذا نعبد الأصنام والأوثان حتى أكرمنا الله برسوله صلى الله عليه وسلم وبالإسلام
أقول وفيه أن المتبادر أن غضب سواد إنما هو بسبب ما فهمه من نسبته إلى الكهانة بعد
الإسلام لا قبلها بدليل قوله ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمت وجواب سيدنا عمر
رضي الله تعالى عنه يدل على أنه فهم أن غضب سواد بسبب نسبته للكهانة قبل الإسلام
فلذلك قال سبحان الله متعجبا منه
وفي كلام السهيلي أن عمر رضي الله تعالى عنه مازح سوادا رضي الله تعالى عنه فقال
له ما فعلت كهانتك يا سواد فغضب وقال له سواد رضي الله تعالى عنه قد كنت أنا
وأنت

على شر من هذا من عبادة الأصنام وأكل الميتات أفتعيرني بأمر قد ثبت منه فقال عمر رضي الله تعالى عنه اللهم غفرا فليتأمل والله أعلم ثم قال لسواد أخبرني ما نبأ رثيك بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم

وفي رواية قال يا سواد حدثنا ببدء إسلامك كيف كان قال نعم يا أمير المؤمنين بينا أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان إذ أتاني رثيي فضربني برجله وقال قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل إنه قد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من لؤي بن غالب يدعو إلى الله عز وجل وإلى عبادته ثم أنشأ يقول

* عجبت للجن وتطلابها

* وشدها العيس بأقتابها

* تهوى إلى مكة تبغي الهدى

* ما صادق الجن ككذابها

* فارحل إلى الصفوة من هاشم

* ليس قدماها كأذناها

*

فقلت دعني أنام فإنني أمسيت ناعسا فلما كانت الليلة الثانية أتاني فضربني برجله وقال قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله عز وجل وإلى عبادته ثم أنشأ يقول

* عجبت للجن وتخبارها

* وشدها العيس بأكوارها

* تهوى إلى مكة تبغي الهدى

* ما مؤمن الجن ككفارها

* فارحل إلى الصفوة من هاشم

* بين روايبها وأحجارها

*

فقلت دعني أنام فإنني أمسيت ناعسا فلما كانت الليلة الثالثة أتاني فضربني برجله وقال قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله عز وجل وإلى عبادته ثم أنشأ يقول

* عجبت للجن وتحساسها

* وشدها العيس بأحلاسها

* تهوى إلى مكة تبغي الهدى

* ما خير الجن كأنحاسها

* فارحل إلى الصفوة من هاشم

* وارم بعينيك إلى رأسها

*

فقلت فقلت قد امتحن الله قلبي فرحلت ناقتي ثم أتيت المدينة وفي رواية حتى أتيت مكة وهي كما قال البيهقي أقرب إلى الصحة من الأولى أي لأن الجن إنما جاءت إليه صلى الله عليه وسلم للإيمان به في مكة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حوله وفي لفظ والناس حوله وفي لفظ والناس عليه كعرف الفرس فلما

رآني قال مرحبا بك يا سواد بن قارب قد علمنا ما جاء بك قلت يا رسول الله قد قلت شعرا فاسمع مقالتي يا رسول الله فقال هات فأنشأت أي ابتدأت أقول أتاني نجي بعد هده ورقدة وفي لفظ

* أتاني رئيي بعد ليل وهجعة
* ولم يك فيما قد تلوت بكاذب
* ثلاث ليال قوله كل ليلة
* أتاك رسول من لؤي بن غالب
*

فشمرت من ذيل الإزار وفي لفظ عن ساقى الإزار
* ووسطت بي الذعلب الوجناء بين الساسب
* فأشهد أن الله لا رب غيره
* وأنك مأمون على كل غائب
* وأنك أدنى المرسلين وسلية
* إلى الله يا ابن الأكرمين الأطياب
* فمرنا بما يأتيك يا خير مرسل
* وإن كان فيما جاء شيب الذوائب
* وكن لي شفيعا يوم لا ذو شفاعة
* سواك بمغن عن سواد بن قارب
*

وفي رواية
* وكن لي شفيعا يوم لا ذوا قرابة
* بمغن فتिला عن سواد بن قارب
*

قال ففرح النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمقالتي فرحا شديدا حتى رؤى الفرح في وجوههم أي وضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجزه وقال أفلحت يا سواد فرأيت عمر رضي الله تعالى عنه التزمه وقال لقد كنت أشتهي أن أسمع هذا الحديث منك فهل يأتيك رثيك اليوم قال منذ قرأت القرآن فلا ونعم العوض كتاب الله تعالى من الجن أي وهذا السياق يدل على أن سيدنا عمر لم يكن حاضرا عند النبي صلى الله عليه وسلم لما أخبره سواد

ولما مات صلى الله عليه وسلم وخشي سواد على قومه الردة قام فيهم خطيبا فقال يا معشر دوس من سعادة القوم أن يتعضوا بغيرهم ومن شقائهم أن لا يتعضوا إلا بأنفسهم وإنه من لم تنفعه التجارب ضربه ومن لم يسعه الحق لم يسعه الباطل وإنما تسلمون اليوم بما أسلمتم به أمس ولا ينبغي لأهل البلاء إلا أن يكونوا أذكر من أهل العافية

للعافية ولست أدري لعله يكون للناس جولة فإن لم تكن فالسلامة منها الأناة والله يحبها
فأحبوها فأجابه القوم بالسمع والطاعة
أي ومن ذلك أن امرأة كانت كاهنة بالمدينة يقال لها حطيمة كان لها تابع من الجن

فجاءها يوما فوقف على جدارها فقالت له مالك لا تدخل تحدثنا ونحدثك فقال إنه قد بعث نبي بمكة يحرم الزنا فحدثت بذلك فكان أول من خبر تحدث به المدينة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما ما سمع من جوف الأصنام فكثير أيضا فمنها أي غير ما تقدم في ليلة ولادته صلى الله عليه وسلم خبر عباس بن مرداس قال كان لمرداس السلمى وثن يعبد له ضمارة بكسر الضاد المعجمة وميم مخففة بعدها ألف ثم راء مهملة فلما حضرت مرداسا الوفاة قال لعباس ولده أي بني أعبد ضمارة فإنه ينفعك ويضرك فبينما عباس يوما عند ضمارة إذ سمع من جوف ضمارة مناديا يقول

* من للقبائل من سليم كلها
* أودى ضمارة وعاش أهل المسجد
* إن الذي ورث النبوة والهدى
* بعد ابن مريم من قريش مهتد
* أودى ضمارة وكان يعبد مدة
* قبل الكتاب إلى النبي محمد
*

فحرق عباس ضمارة ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم وفي لفظ أن عباس بن مرداس كان في لقاح له نصف النهار إذ طلع عليه راكب على نعامة بيضاء وعليه ثياب بيض فقال له يا عباس ألم تر أن السماء قد تعب أحراسها وأن الحرب قد حرقت أنفاسها وأن الخيل وضعت أحلاسها وأن الذي نزل عليه البر والتقوى صاحب الناقة القصواء فقال عباس فراعني ذلك فجئت وثنا لنا يقال له الضمارة كنا نعبده وتكلم من جوفه فكنتست ما حوله ثم تمسحت به فإذا صائح يصيح من جوفه

* قل للقبائل من قريش كلها
* هلك الضمارة وفاز أهل المسجد
* هلك الضمارة وكان يعبد مدة
* قبل الصلاة على النبي محمد
* إن الذي ورث النبوة والهدى
* بعد ابن مريم من قريش مهتد
*

قال عباس فخرجت مع قومي بني حارثة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فدخلت المسجد فلما رأني رسول الله صلى الله عليه وسلم تبسم وقال يا عباس كيف إسلامك فقصصت عليه القصة فقال صدقت وأسلمت أنا وقومي ومن ذلك خبر مازن بن الغضونة قال كنت أسدن أي أخدم صنما بقرية بعمان أي

بالتخفيف تدعى سمائل وسمال يقال له بادر وفي لفظ باحر بالحاء المهملة فعترنا

(٣٢٥)

ذات يوم عنده عتيرة وهي الذبيحة مطلقا وقيل في رجب خاصة فسمعنا صوتا من جوف الصنم يقول يا مازن اسمع تسر ظهر خير وبطن شر بعث نبي من مضر بدين الله الكبر فدع نحيتا من حجر تسلم من حر سقر قال مازن ففزعت لذلك وقلت إن هذا لعجب ثم عترت بعد أيام عتيرة أي ذبحت ذبيحة لذلك الصنم فسمعت صوتا من الصنم يقول

* أقبل إلى أقبل *
* تسمع مالا تجهل *
* هذا نبي مرسل *
* جاء بحق منزل *
* آمن به كي تعدل *
* عن حر نار تشعل *
* وقودها بالجنل *
*

فقلت إن هذا لعجب وإنه لخير يراد بي أقول ورأيت في بعض السير تقديم هذه الأبيات على ما قبلها وأن مازنا قال ثم سمعت صوتا أبين من الأول وهو يقول يا مازن اسمع إلى آخره والله أعلم قال مازن فينا نحن كذلك إذ قدم رجل من أهل الحجاز قلنا له ما الخبر وراءك قال قد ظهر رجل يقال له أحمد يقول لمن أتاه أجيئوا داعي الله فقلت هذا نبأ ما سمعته فنزلت إلى الصنم فكسرتة جذاذا وركبت راحلتي وأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

فشرح لي الإسلام وأسلمت وقلت
* كسرت بادرا جذاذا وكان لنا *
* ربا نطيف به ضلا بتضلال *
* بالهاشمي هदानا من ضلالتنا *
* ولم يكن دينه شيئا على بالي *
* يا راكبا عمرا وإخوتها *
* أنى لما قال ربي بادر قالى *
*

عنى بعمره وإخوتها بين خطامة وهي بطن من طيئ وهذه الأبيات ساقطة في أسد الغابة قال مازن فقلت يا رسول الله إني مولع بالطرب أي مغرم به وبشرب الخمر وبالهلوك أي الفاجرة من النساء التي تتمايل وتثنى عند جماعها وقيل الساقطة على الرجال أي لشدة شبقتها وألحت أي دامت علينا سنون أي أعوام القحط والجذب فذهبن بالأموال وهزلن الذراري والعيال وليس لي ولد فادع الله أن يذهب عني ما أجد ويأتيني بالحيا ويهب لي ولدا فقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم أبدله بالطرب قراءة القرآن

وبالحرام الحلال وبالخمير يا لا إثم فيه وبالعهير أي الزناعة

(٣٢٦)

الفرج وأته بالحيا أي المطر وهب له ولدا قال مازن فأذهب الله عني ما كنت أجدته
وتعلمت شطر القرآن وحججت حجيحا وأخصبت عمان يعني قريته وما حولها من
قرى عمان وتزوجت أربع حرائر ووهب الله لي حيان يعني ولده وأنشأت أقول

* إليك رسول الله حنت مطيتي
* تجوب الفيافي من عمان إلى العرج
* لتشفع لي يا خير من وطئ الحصا
* فيغفر لي ذنبي وأرجع بالفلج
* أي بالفوز والظفر المطلوب
* إلى معشر خالفت في الله دينهم
* ولا رأيهم رأيي ولا شرحهم شرحي
* أي بالشين والجيم أي لا شكلهم شكلي و لا طريقهم طريقي
* وكنت أمراً بالعهر والخمر مولعا
* شبابي حتى آذن الجسم بالنهج
* أي البلاء
* فبدلني بالخمر خوفا وخشية
* وبالعهر إحصانا فحصن لي فرجي
* فأصبحت همى في الجهاد وينتي ونيتي
* فله ما صومي ولله ما حجي
*

قال مازن فلما رجعت إلى قومي أنبوني أي عنفوني ولاموني وشتموني وأمروا شاعرهم
فهجاني فقلت إن هجوتهم فإنما أهجوا نفسي وتنحيت عنهم وأتيت مسجدا أتعبد فيه
وكان لا يأتي هذا المسجد مظلوم فيتعبد فيه ثلاثا ويدعو على من ظلمه إلا استجيب له
ولا دعا ذو عاهة من برص أو غيره إلا عوفي ثم إن القوم ندموا وطلبوا مني الرجوع
إليهم فأسلموا كلهم وضعف هذا الحديث

وأما ما سمع من أجواف الذبائح فمنه ما جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه
قال كنا يوما في حي من قریش يقال لهم آل ذريح بالحاء المهملة وقد ذبحوا عجلا
لهم والجزار يعالجه إذ سمعنا صوتا من جوف العجل ولا نرى شيئا يا آل ذريح أمر
نجيح صائح يصيح بلسان فصيح يشهد أن لا إله إلا الله أي والمراد بالذريح العجل
الذي ذبح لأنه ملطخ بالدم الأحمر لقولهم أحمر ذريح أي شديد الحمرة والذي في
البخاري يقول يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول لا إله إلا الله والمراد بالجليح
العجل المذبوح أيضا لأنه قد جلع أي كشف عنه جلده
وأما ما سمع من الهوائف ولم يجيء على السنة الكهان ولا سمع من جوف

الأصنام ولا من جوف الذبائح فكثير من ذلك ما حدث به بعضهم وذكره النبي صلى
الله عليه وسلم قال يا رسول الله لقد رأيت من قس عجا خرجت أطلب بعيرا لي حتى
إذا عسعس الليل أي أدبر وكاد الصبح أن يتنفس هتف بي هاتف يقول

* يا أيها الراقد في الليل الأحم
* أي بالحاء المهملة يعنى الأسود
* قد بعث الله نبيا بالحرم
*

* من هاشم أهل الوفاء والكرم
* يجلو دجنات الليالي والبهم
* أي الظلمات والأمور المشكلة فأدرت طرفي فما رأيت شخصا فأنشأت أقول
* يا أيها الهاتف في داجي الظلم
* أهلا وسهلا بك من طيف ألم
* بين هداك الله في لحن الكلم
* من ذا الذي تدعو إليه يغتنم
*

فإذا أنا بنحنحة وقائل يقول ظهر النور وبطل الزور وبعث الله محمدا صلى الله عليه
وسلم بالحبور أي السرور صاحب النجيب الأحمر أي الكريم من الإبل والتاج والمغفر
والوجه الأزهر أي الأبيض المشرب بالحمرة والحاجب أي الجبين الأقرم أي الأبيض
والطرف الأحمور أي شديد سواده صاحب قول شهادة أن لا إله إلا الله فذاك محمد
المبعوث إلى الأسود والأحمر أهل المدر والوبر أي العجم والعرب ثم أنشأ يقول

* الحمد لله الذي
* لم يخلق الخلق عبث
* أرسل فينا أحمدا
* خير نبي قد بعث
* صلى الله عليه ما
* حج له ركب وحث
*

وإلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله
* وتغننت بمدحه الجن حتى
* أطرب الإنس منه ذاك الغناء
*

أي أظهرت الجن أوصافه صلى الله عليه وسلم الجميلة في صورة الغناء الذي تألفه
النفس ولا تصبر منها عند سماعه فتسمع لغيره حتى أطرب الإنس ذاك الغناء الذي

سمعوه من الجن قال فلاح الصباح وإذا بالفنيق يشقشق والفنيق بفتح الفاء وكسر النون
وسكون المشاة تحت ثم قاف الفحل الكريم من الإبل ويشقشق بشينين معجمتين
وقافين أي يهدر إلى النوق فملكته خطامه وعلوت سنامه حتى إذا لغب بالغين المعجمة
والموحدة أي تعب فنزل في روضة خضراء فإذا أنا بقس بن

ساعده في ظل شجرة وبيده قضيب من أراك ينكت به الأرض والنكت بالمشناة فوق
وهو يقول

* يا ناعي الموت والملحود في جدث

* أي قبر

* عليهم من بقايا بزهم حرق

* أي والبز الثياب

* دعهم فإن لهم يوما يصاح به

* فهم إذا انتبهوا من نومهم فرقوا

* أي خافوا حتى يعودا بحال غير حالهم

* خلقا جديدا كما من قبله خلقوا

* منهم عراة ومنهم في ثيابهم

* منها الحديد ومنها المنهج الخالق

*

والمنهج من الثياب الذي أخذ في البلى قال فدنوت منه فسلمت عليه فرد علي السلام
فإذا بعين حرارة أي لمائها حرير أي صوت في الأرض خوارة أي ضعيفة ومسجد بين

قبرين وأسدنين عظيمين يلوزان به وإذا بأحدهما قد سبق الآخر إلى الماء فتبعه الآخر

يطلب الماء فضربه بالقضيب الذي في يده وقال ارجع ثكلتك أمك أي فقدتك حتى

يشرب الذي قبلك فرجع ثم ورد بعده فقلت له ما هذان القبران قال هذان قبرا أخوين

كانا لي يعبدان الله عز وجل معي في هذا المكان لا يشركان بالله شيئا أي اسم

أحدهما سمعون والآخر سمعان فأدركهما الموت فقبرتهما وها أنا بين قبريهما حتى

ألحق بهما ثم نظر إليهما وأنشد أبيانا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله

قسا إني أرجو أن يبعثه الله أمة وحده أي واحدا يقوم مقام جماعة كما تقدم وقد أشار

إلى ذلك صاحب الأصل بقوله

* وعنه أخبر قس قومه فلقد

* حلّى مسامعهم من ذكره شنفا

* ولما مات قس قبر عندهما وتلك القبور الثلاثة بقرية يقال لها روحين من أعمال

حلب وعليها بناء والناس يزورونهم وعليهم وقف ولهم خدام

ومن ذلك ما ذكره الواقدي بإسناد له قال كان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يحدث

أن قوما من خثعم كانوا عند صنم لهم جلوسا وكانوا يتحاكمون إلى أصنامهم فبينما

الخثعميون عند صنم لهم إذا سمعوا هاتفا يهتف ويقول

* يا أيها الناس ذوو الأجسام

* ومسندو الحكم إلى الأصنام

* أما ترون ما أرى أمامي

* من ساطع يجلو دجى الظلام
* ذاك نبي سيد الأنام
* من هاشم في ذروة السنام
*

* مستعلن بالبلد الحرام
* جاء يهد الكفر بالإسلام
* أكرمه الرحمن من إمام
*

قال أبو هريرة فأمسكوا ساعة حتى حفظوا ذلك ثم تفرقوا فلم يمض بهم ثالثهم حتى فجأهم خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد ظهر بمكة أي جاءهم ذلك بغتة فما أسلم الخثعميون حتى استأخر إسلامهم ورأوا عبداً عند أصنامهم وأما خبر زمل بن عمرو العذري قال كان لبني عذرة وهي قبيلة من اليمن صنم يقال له خمم بالخاء المعجمة المضمومة وتخفيف الميم وكانوا يعظمونه وكان في بني هند بن حرام بالحاء المهملة المفتوحة والراء وكان سادنه أي خادمه رجلاً يقال له طارق قال في النور لا أعلم له ترجمة ولا إسلاماً وكانوا يعترفون أي يذبحون الذبائح عنده فلما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم سمعنا صوتاً يقول يا بني هند بن حرام ظهر الحق وأودى خمم أي هلك ورفع الشرك الإسلام قال زمل ففزعنا لذلك وهالنا أي أفزعنا فمكثنا أياماً ثم سمعنا صوتاً يقول يا طارق يا طارق بعث النبي الصادق بوحي ناطق صدع صدعة بأرض تهامة لناصريه السلامة ولخاذليه الندامة هذا الوداع مني إلى يوم القيامة فوق الصنم لوجهه

فإن كان ذلك الصوت من جوف الصنم ويرشد إليه قوله هذا الوداع مني إلى يوم القيامة فهو من غير هذا النوع وإن لم يكن فهو من هذا النوع قال زمل فابتعت أي اشتريت راحلة ورحلت حتى أتيت النبي صلى الله عليه وسلم مع نفر من قومي وأنشدته إليك يا رسول الله أعلمت نصها النص هو الغاية في السير

* أكلفها حزناً وقوزاً من الرمل
* والحزن ما ارتفع من الأرض
* والقوز بالقاف والزاي التل الصغير
* لأنصر خير الناس نصراً موزراً
* أي قويا وأعقد جبلاً من جبالك في جبلي
* والجبلى العهد الميثاق
* وأشهد أن الله لا شيء غيره
* أدين له أي أخضع وأضيع ما أثقلت قدمي نعلي
*

ومن هذا النوع خبر تميم الداري أي ويكنى أبارقية اسم ابنة له لم يولد له غيرها روى عنه صلى الله عليه وسلم قصة الجساسة مع الدجال على المنبر فقال حدثني تميم الداري وذكر القصة قال بعضهم وهذا أولى ما يخرج المحدثون في رواية الكبار

(۳۳۰)

وقد يكون من ذلك ما ذكر أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه مر يوما على ابنته عائشة رضي الله تعالى عنها فقال هل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاء كان يعلمناه وذكر أن عيسى ابن مريم كان يعلمه أصحابه ويقول لو كان علي أحدكم جبل دين ذهباً قضاها الله عنه قال نعم يقول اللهم فارح اللهم كاشف الغم مجيب دعوة المضطرين رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما أنت ترحمني فارحمني برحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك وعن أبي بكر رضي الله تعالى عنه قال كان علي دين و كنت له كارها فقلته فلم ألبث إلا يسيرا حتى قضيته

قال تميم الداري رضي الله تعالى عنه كنت بالشام حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت إلى بعض حاجاتي فأدركني الليل فقلت أنا في جوار عظيم هذا الوادي فلما أخذت مضجعي إذا مناد ينادي لا أراه عذ بالله فإن الجن لا تجير أحدا على الله فقلت أيم تقوله وأيم بتشديد الياء وبإسكانها وفتح الميم فيهما أي أيما شيء تقول فقال قد خرج رسول الأميين رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلينا خلفه بالحجون أي وهو مقبرة مكة التي يقال لها المعلاة كما تقدم وأسلمنا وأتبعناه وذهب كيد الجن ورميت بالشهب فانطلق إلى محمد صلى الله عليه وسلم فأسلم فلما أصبحت ذهبت إلى دير أيوب فسألت راهبه وأخبرته فقال صدقوك نجده يخرج من الحرم أي مكة ومهاجره الحرم أي المدينة وهو خير الأنبياء فلا تسبق إليه قال تميم فطلبت الشخصوص أي الذهاب حتى جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت أقول وهذا يدل ظاهرا على أن تميما الداري أسلم بمكة قبل الهجرة فهو مما الكلام فيه بل رأيت في تنمة الخبر فسرت إلى مكة فلقيت النبي صلى الله عليه وسلم وكان مستخفيا فأمنت به

ورأيت بعضهم قال وهذه الرواية غلط لأن تميما الداري إنما أسلم سنة تسع من الهجرة والله أعلم

قال ومن ذلك ما حدث به سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه أن رجلا من بني تميم حدث عن بدء إسلامه قال إني لأسير برمل عالج ذات ليلة إذ غلبني النوم فنزلت عن راحلتي وأنختها ونمت وتعوذت قبل نومي فقلت أعود بعظيم هذا الوادي من الجن فرأيت في منامي رجلا بيده حربا يريد أن يضعها في نحر ناقتي فانتبهت فزعا

فنظرت يمينا وشمالا فلم أر شيئا فقلت هذا حلم ثم عدت فتعوذت فرأيت مثل ذلك وإذا بناقتي ترعد ثم عفوت فرأيت مثل ذلك فانتبهت فرأيت ناقتي تضطرب فالتفت فإذا أنا برجل شاب كالذي رأيته في منامي بيده حربة ورجل شيخ يمسك بيده يرده عن ناقتي وبينهما نزاع

فبينما هما يتنازعان إذ طلعت ثلاثة أثور من الوحش فقال الشيخ للفتى قم فخذ أيها شئت فداء لناقة جاري الإنسى فقام الفتى وأخذ منها ثورا وانصرف ثم التفت إلى الشيخ وقال يا فتى إذا نزلت واديا من الأودية فخفت هوله فقل أعوذ بالله رب محمد من هول هذا الوادي و لا تعد بأحد من الجن فقد بطل أمرها فقلت له ومن محمد قال نبي عربي لا شرقي ولا غربي فقلت أين مسكنه قال يثرب ذات النخل فركبت ناقتي وحثت السير حتى أتيت المدينة فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثني قبل أن أذكر له منه شيئا ودعاني إلى الإسلام فأسلمت وهذا السياق يدل على أن هذه القصة بعد الهجرة لا عند المبعث الذي الكلام فيه

ونظير هذا ما حدث به بعض الصحابة قال خرجت في طلب إبل لي وكنا إذا نزلنا بواد قلنا نعوذ بعزير هذا الوادي فتوسدت ناقتي وقلت أعوذ بعزير هذا الوادي فإذا هاتف يهتف بي ويقول

- * ويحك عذ بالله ذي الجلال
- * منزل الحرام والحلال
- * ووحد الله ولا تبال
- * ما كيد ذي الجن من الأهوال
- * إذ يذكر الله على الأحوال
- * وفي سهول الأرض والجبال
- * وصار كيد الجن في سفال
- * إلا النبي وصالح الأعمال
- * فقلت له يا أيها القائل ما تقول
- * أرشد عندك أم تضليل
- * فقال هذا رسول الله ذو الخيرات
- * جاء بيس وحاميمات
- * وسور بعد مفصلات
- * يأمر بالصلاة والزكاة
- * ويزجر الأقوام عن هنات
- * قد كن في الإسلام منكرات
- *

فقلت أما لو كان من يؤدي إبلي هذه إلى أهلي لأتيته حتى أسلم فقال إذا أؤديها فركبت

بغيرا منها ثم قدمت فإذا النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر وفي رواية فوافيت الناس
يوم الجمعة وهم في الصلاة فإني أنيخ راحلتي إذ خرج إلى أبو ذر فقال لي

(٣٣٢)

يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ادخل فدخلت فلما رأني قال ما فعل الرجل وفي لفظ ما فعل الشيخ الذي ضمن لك أن يؤدي إبلك أما إنه قد أداها سالمة وقد قص الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم ما كان عليه الناس قبل بعثته من أن الإنسان إذا نزل منزلا مخوفا قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهائه بقوله سبحانه وتعالى * (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن أي حين ينزلون في أسفارهم بمكان مخوف يقول كل رجل أعوذ بسيد هذا المكان من شر سفهائه * (فزادوهم رهقا) * أي زادوا الجن أي ساداتهم بإستعازتهم بهم طغيانا فيقولون سدنا الإنس والجن

أي ومن ذلك ما حكاه وائل بن حجر الحضرمي ويكنى أبا هنيذة كان قبلا من أقبال حضرموت وكان أبوه من ملوكهم قال وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بشر أصحابه بقدمي فقال يأتيكم وائل بن حجر من أرض بعيدة من حضرموت راغبا في الله عز وجل وفي رسوله وهو بقية أبناء الملوك قال وائل فما لقيني أحد من الصحابة إلا قال بشرنا بك رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل قدومك بثلاث فلما دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم رحب بي وأدنانني من نفسه وقرب مجلسي وبسط لي رداءه فأجلسني عليه وقال اللهم بارك في وائل بن حجر وولده وولد ولده ثم صعد المنبر وأقامني بين يديه ثم قال أيها الناس هذا وائل بن حجر أتاكم من أرض بعيدة من حضرموت راغبا في الإسلام فقلت يا رسول الله بلغني ظهورك وأنا في ملك عظيم فمن الله علي أن رفضت ذلك كله وآثرت دين الله قال صدقت اللهم بارك في وائل بن حجر وولده وولد ولده

قال وسبب وفودي على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان لي صنم من العقيق فبينما أنا نائم في الظهيرة إذ سمعت صوتا منكرا من المخدع الذي به الصنم فأتيت الصنم وسجدت بين يديه وإذا قائل يقول

* واعجبا لوائل بن حجر

* يخال يدرى وهو ليس يدرى

* ماذا يرجى من نحيب صخري

* ليس بذئ نفع ولا ذي ضر

* لو كان ذا حجر أطاع أمري

*

قال فقلت أسمعت أيها الهاتف الناصح فماذا تأمرني فقال

* ارحل إلى يثرب ذات النخل
* تدين دين الصائم المصلي
* محمد النبي خير الرسل
*

ثم خر الصنم لوجهه فاندقت عنقه فقمتم إليه فجعلته رفاتا ثم سرت مسرعا حتى أتيت
المدينة فدخلت المسجد الحديث
وفيه أنه إن كان الصوت من جوف الصنم فهو من غير هذا النوع ولوائل هذا حديث مع
معاوية تركناه لطوله

وأما ما سمع من بعض الوحوش فمنه ما حدث به أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى
عنه قال بينا راع يرعى بالجزيرة إذ عرض الذئب لشاة من شياهاه فحال الراعي بين
الذئب وبين الشاة فأقعى الذئب على ذنبه فقال ألا تتقي الله تحول بيني وبين رزق ساقه
الله إلي فقال الراعي أعجب من ذئب يكلمني بكلام الإنس فقال الذئب ألا أخبرك
بأعجب مني رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الحرتين
وفي رواية يثرب يحدث الناس بأنباء ما قد سبق وفي لفظ يخبركم بما مضى وما هو
كائن بعدكم فساق الراعي شياهاه فأتى المدينة فغدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم
فحدثه بما قال الذئب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق الراعي إن من أشراط
الساعة كلام السباع للإنس والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم الرجل
شراك نعله أي وهو أحد سيورها الذي يكون على وجهها كما تقدم وعذبة سوطه أي
طرفه وقيل أحد سيوره ويخبره بما فعل أهله أي وفي لفظ فأمر رسول الله صلى الله
عليه وسلم فنودي بالصلاة جامعة ثم خرج فقال للأعرابي أخبرهم فأخبرهم
وفي رواية أن راعي الغنم كان يهوديا وفي رواية أن الذئب قال له أنت أعجب مني
واقفا على غنمك وتركت نبيا لم يبعث الله قط أعظم منه قدرا وقد فتحت له أبواب
الجنة وأشرف أهلها على أصحابه ينظرون قتالهم وما بينك وبينه إلا هذا الشعب فتصير
في جنود الله تعالى فقال له الراعي من لي بغنمي فقال الذئب أنا أرهاها حتى ترجع
فأسلم إليه غنمه ومضى إليه صلى الله عليه وسلم وأسلم وقال له رسول الله صلى الله
عليه وسلم عد إلى غنمك تجدها بوفرها فوجدها كذلك وذبح للذئب شاة منها وفيه أن
هذا وما تقدم من خبر سعيد بن جبير كما علمت بعد الهجرة لا عند المبعث الذي
الكلام فيه

قال في النور هذا الراعي لا أعرف اسمه قال وكلم الذئب غير واحد فانظرهم في
تعليقي على البخاري

أقول ذكر في حياة الحيوان عن ابن عبد البر كلم الذئب من الصحابة رضي الله تعالى
عنهم ثلاثة رافع بن عميرة وسلمة بن الأكوع ووهبان بن أوس
وأما ما سمع من بعض الأشجار فقد روى عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه قيل له
هل رأيت قبل الإسلام شيئاً من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قال نعم بينا أنا
قاعد في ظل شجرة في الجاهلية إذ تدلى على غصن من أغصانها حتى صار على رأسي
فجعلت أنظر إليه وأقول ما هذا فسمعت صوتاً من الشجرة هذا النبي يخرج في وقت
كذا وكذا فكن أنت من أسعد الناس به والله أعلم
وأما تساقط النجوم وطرد الجن بها عن استراق السمع فقد قال ابن إسحاق لما تقارب
أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضر مبعثه حجبت الشياطين عن السمع وحيل
بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد فيها فرموا بالنجوم فعرف الجن أن ذلك لأمر حدث
من الله في العباد يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم حين بعثه يقص عليه خبرهم
إذ حجبوا* (وأنا لمسنا السماء)* أي طلبنا استراق السمع منها* (فوجدناها ملئت
حرساً شديداً)* أي ملائكة أقوياء يمنعون عنها* (وشهباً وأنا كنا نقعد منها مقاعد
للسمع)* لخلوها عن الحرس والشهب* (فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً)* أي
أرصد له ليرمى به أي ومن يخطف الخطفة منهم بخفة حركته يتبعه شهاب ثاقب يقتله
أي أو يحرق وجهه أو يخبله قبل أن يلقيها إلى الكاهن وذلك لئلا يلتبس أمر الوحي
بشيء من خبر الشياطين مدة نزوله وبعد انقضائه وموته صلى الله عليه وسلم لئلا تدخل
الشبهة على ضعفاء العقول فربما توهموا عود الكهانة التي سببها استراق السمع وأن أمر
رسالته صلى الله عليه وسلم تم فاقتضت الحكمة حراسة
السماء في حياته صلى الله عليه وسلم وبعد موته ومن ثم قال لا كهانة بعد اليوم
وقد حدث بعضهم قال إن أول العرب فزع للرمي بالنجوم حين رمى بها ثقيف وإنهم
جاءوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية وكان أدهى العرب وأنكرها رأياً أي أدهاها
رأياً وكان ضريراً وكان يخبرهم بالحوادث فقالوا له يا عمرو ألم تر أي تعلم ما حدث
في السماء من الرمي بهذه النجوم فقال بلى فانظروا فإن كانت معالم النجوم أي

النجوم المشهورة التي يهتدي بها في البر والبحر وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء هي التي يرمى بها فهو والله طي هذه الدنيا وهلاك هذا الخلق الذي فيها وإن كانت نجوما غيرها وهي ثابتة على حالها فهو لأمر أراد الله بهذا الخلق أي والنوء وبالنون والهمز هنا ما يحصل عند سقوط نجم في المغرب وطلوع رقبه من المشرق يقابله من ساعته في كل ثلاثة عشر يوما وحقيقة النوء سقوط النجم وطلوع رقبه في المدة المذكورة

وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها أو إلى الطالع منها فتقول مطرنا بنوء كذا وسيأتي الكلام على ذلك في غزوة الحديبية وفي لفظ فأمر أراد الله ونبي يبعث في العرب فقد تحدث بذلك لا يقال قد رجمت الشياطين بالنجوم قبل ذلك وذلك عند مولده صلى الله عليه وسلم لأننا نقول المراد رجمت الآن بأكثر مما كان قبل ذلك أو صارت تصيب ولا تخطئ ومن ثم حدث بعضهم قال لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم أي قرب زمن بعثه رجمت الشياطين بنجوم لم تكن ترحم بها قبل فأتوا عبد ياليل بن عمرو وهو بمثناتين تحتيتين وكسر اللام الأولى الثقيفي وكان أعمى فقالوا إن الناس قد فرعوا وقد أعتقوا رقبهم وسيبوا أنعامهم فقال لهم لا تعجلوا وانظروا فإن كانت النجوم التي تعرف أي وهي التي يهتدي بها في البر والبحر وتعرف بها الأنواء فهي عند فناء الناس وإن كانت لا تعرف فهي من حدث فنظروا فإذا نجوم لا تعرف فقالوا هذا من حدث أي وقد روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال النجوم أمانة السماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما يوعدون وأنا أمانة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون وأصحابي أمتهم لأمته فإذا ذهبت أصحابي أتى أمتي ما يوعدون فلم يلبثوا حتى سمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وفي لفظ فما مكثوا إلا يسيرا حتى قدم الطائف أبو سفيان بن حرب فقال ظهر محمد بن عبد الله يدعى أنه نبي مرسل وهذا قد يخالف ما يأتي عن ابن عمر لما كان اليوم الذي تنبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم منعت الشياطين من خبر السماء بالشهب ولا مانع من تكرار سؤال ثقيف مرة لعمرو بن أمية ومرة لعبد ياليل بن عمرو وأن كلا منهما كان أعمى ويحتمل إتحاد الواقعة

ووقع الاختلاف في اسم الذي سألوه فسماه بعضهم عمرو بن أمية وبعضهم سماه عبد
ياليل بن عمرو هذا كما ترى إنما كان عند المبعث وبه يعلم ما في قول الماوردي
الذي نقله عن شيخ بعض شيوخنا النجم الغيطي في معراجه وأقره
وسببه أي رمى النجوم أن الله تعالى لما أراد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم رسولا
كثر انقضا الكوكب قبل مولده ففزع أكثر العرب منها وفزعوا إلى كاهن لهم ضرير
وكان يخبرهم بالحوادث فسألوه عنها فقال انظروا البروج الإثني عشر فإن انقض منها
شيء فهو ذهاب الدنيا وإن لم ينقض منها شيء فسيحدث في الدنيا أمر عظيم فلما
بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هو الأمر العظيم فإنه يقتضى أن المراد ببعثه
ولادته فكان يتعين إسقاط قوله قبل مولده لما علمت أن هذا أي كثرة تساقط النجوم
إنما كان عند بعثه ونبوته لا عند ولادته ومنه خبر أبي لهب أو لهيب بن مالك أي من
بني لهب فإن بني لهب فزعوا لفرع ثقيف قال حضرت مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم فذكرت عنده الكهانة فقلت بأبي وأمي نحن أول من عرف حراسة السماء ومنع
الجن من استراق السمع وذلك أنا اجتمعنا إلى كاهن يقال له خطر بالخاء المعجمة
والطاء المهملة والراء ابن مالك قال في النور لا أعرف له ترجمة ولا إسلاما وكان
شيخا كبيرا قد أتت عليه مائتا سنة وثمانون سنة وكان من أعلم كهاننا فقلنا له يا خطر
هل عندك علم من هذه النجوم التي يرمى بها فإننا قد فرعنا لها وخفنا سوء عاقبتها فقال
اثنوني بسحر أي قبيل الفجر أخبركم الخبر الخبير أم ضرر أم لأمن أو حذر قال فانصرفنا
عنه يومنا فلما كان من الغد في وجه السحر أتيناها فإذا هو قائم على قدميه شاخص في
السماء بعينه فنادينا يا خطر يا خطر فأومأ إلينا أن أمسكوا فأمسكنا فانقض نجم عظيم
من السماء وصرخ الكاهن رافعا صوته أصابه أصابه جمع وصب كجمل وجمال
فألهمزة بدل من الواو خامره عقابه عاجله عذابه أحرقه شهابه زايله جوابه أي زال عنه
جوابه يا ويله ما حاله بلبله بلباله البلبال الغم عاوده خباله تقطعت حباله وغيرت أحواله
ثم أمسك طويلا ثم قال يا معشر بني قحطان أخبركم بالحق والبيان أقسم بالكعبة
والأركان والبلد المؤمن السدان أي الخدام قد منع السمع عتاة الجان بثاقب كون ذا
سلطان من أجل مبعوث عظيم الشأن يبعث بالتنزيل والفرقان وبالهدى

وفاضل القرآن تبطل به عبادة الأوثان قال فقلنا له ويلك يا خطر إنك لتذكر أمرا عظيما
فماذا ترى لقومك فقال
* أرى لقومي ما أرى لنفسي
* أن يتبعوا خير نبي الإنس
* برهانه مثل شعاع الشمس
* يبعث في مكة دار الحمس
* بمحكم التنزيل غير اللبس
*

والحمس بضم الحاء المهملة وإسكان الميم والسين المهملة هم قريش وما ولدت من
غيرها فإنهم كانوا لا يزوجون بناتهم لأحد من أشراف العرب إلا على شرط أن
يتحمس أولادهم فإن قريشا من بين قبائل العرب دانوا بالتحمس ولذلك تركوا الغزو لما
في ذلك من استحلال الأموال والفروج ومالوا للتجارة ومن ثم يقال قريش الحمس
سموا

بذلك لتشدهم في دينهم لأن الحماسة هي الشدة فقلنا له يا خطر ومن هو فقال
والحياة والعيش إنه لمن قريش ما في حكمه طيش أي عدول عن الحق من قولهم طاش
السهم عن الهدف إذا عدل عنه ولا في خلقه هيش أي ليس في طبيعته وسجيته قول
قبيح يكون في جيش وأي جيش من آل قحطان وآل أيش وآل قحطان هم الأنصار قال
صلى الله عليه وسلم رحى الإيمان دائرة في ولد قحطان وآل أيش قبيلة من الجن
المؤمنين ينسبون إلى أبيهم أيش شخص من كبير الجن وقيل أراد بهم المهاجرين أي
ومن المهاجرين الذين يقال فيهم أيش لأنه يقال في مقام المدح فلان أيش على معنى
أي شيء هو أي شيء عظيم لا يمكن أن يعبر عن عظمته وجلالته وروى بدل أيش
ريش فقلنا له بين لنا من أي قريش فقال والبيت ذي الدعائم يعني الكعبة والركن يعني
الحجر الأسود والأحائم يعني بئر زمزم لأن الأحائم جمع أحوام والأحوام جمع أحوم
وهو الماء في البئر وأراد بئر زمزم أو أن الأصل الحوائم ففيه قلب مكاني الأصل فواعل
فصار أفاعل والحوائم هي الطير التي تحوم على الماء والمراد حمام مكة لهو نجل أي
نسل هاشم من معشر أكارم يبعث بالملاحم يعني الحروب وقتل كل ظالم ثم قال هذا
هو البيان أخبرني به رئيس الجن ثم قال الله أكبر جاء الحق وظهر وانقطع عن الجن
الخبر ثم سكن وأغمى عليه فما أفاق إلا بعد ثلاثة أيام فقال لا إله إلا الله فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله لقد نطق عن مثل نبوة أي وحي وإنه ليبعث يوم
القيامة أمة وحده أي مقام جماعة كما تقدم في نظيره

قال ومن ذلك ما رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن نفر من الأنصام قالوا بينا نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى بنجم فاستنار فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به في الجاهلية أي قبل البعث قالوا يا رسول الله كنا نقول إذا رأينا برمى بها مات ملك ولد مولود مات مولود فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس ذلك كذلك ولكن الله سبحانه وتعالى كان إذا قضى في خلقه أمرا سمعته حملة العرش فسبحوا فسبح من تحتهم بتسبيحهم فسبح من تحت ذلك فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبحوا ثم يقول بعضهم لبعض لم سبحتم فيقولون قضى الله في خلقه كذا وكذا له الأمر الذي كان أي يكون في الأرض فيهبط به من سماء إلى سماء أي تقوله أهل كل سماء لمن يليهم حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاس ثم يأتون به إلى الكهان فيحدثونهم فيخطئون بعضها ويصييون بعضها أي وفي البخاري إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كالسلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقو السمع فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمى بها إلى صاحبه فيحرقه الحديث وقولهم قال الحق أي ثم يذكرونه لما تقدم من قولهم قضى الله في خلقه كذا وكذا ولما يأتي وقوله صلى الله عليه وسلم يرمى بها في الجاهلية صريح في أنه كان يرمى بالنجوم للحراسة في زمن الفترة بينه صلى الله عليه وسلم وبين عيسى عليه الصلاة والسلام قبل مولده صلى الله عليه وسلم ويخالفه ما يأتي عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الكهان فقال إنهم ليسوا بشيء فقالوا يا رسول الله إنهم يحدثوننا أحيانا بالشيء يكون حقا قال تلك الكلمة من الجن يخطفها الجني فيقذفها في أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة ثم إن الله تعالى حجب الشياطين بهذه النجوم التي يقذفون بها فانقطعت الكهانة اليوم فلا كهانة

أي وفي البخاري أنه صلى الله عليه وسلم قال إن الملائكة تتحدث في العنان أي الغمام بالأمر يكون في الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن فيزيدونها مائة كذبة

وعن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه لم يرم بنجم منذ رفع عيسى عليه الصلاة والسلام حتى تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى بها فلما رأت قريش أمرا لم تكن تراه فزعدوا لعبد ياليل الحديث

أقول وهذا يفيد أنه لم يرم بها قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم أي قبل قربه الشامل لزمن الولادة فلا يخالف ما تقدم وأن النجوم كان يرمى بها قبل أن يرفع عيسى عليه الصلاة والسلام وذلك صادق بزمن آدم فمن بعده من الرسل وهو الموافق لقول الزهري الحجب وتساقط النجوم كان موجودا قبل البعث في سالف الأزمان أي في زمن الرسل لا في زمن الفترات بين الرسل لقول الكشاف وقول بعضهم ظاهر الأخبار يدل على أن الرجم للشياطين بالشهب كان في زمن غيره صلى الله عليه وسلم من الرسل وهو كذلك وعليه أكثر المفسرين حراسة لما ينزل من الوحي على الرسل وأما في الزمن الذي ليس فيه رسول أي وهو زمن الفترات بين الرسل فكانوا يسترقون السمع في مقاعد لهم ويلقون ما يسمعون للكهان أي لأن الله تعالى ذكر فائدتين في خلق النجوم فقال تعالى * (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) * وقال تعالى * (إنا زيننا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد) * وكونها إنما جعلت رجوما وحفظا ليس إلا عند قرب مبعثه صلى الله عليه وسلم خاصة دون بقية الرسل من أبعد البعيد

وحيث كان الغرض من الرمي بالنجوم منع الشياطين من استراق السمع اقتضى ذلك أنه لم يرم بها قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم ومنه زمن ولادته ويوافق ذلك قول ابن إسحاق لما تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضر مبعثه حجبت الشياطين وقول ابن عمر رضي الله تعالى عنهما لما كان اليوم الذي تنبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم منعت الشياطين من خبر السماء رموا بالشهب فذكروا ذلك لإبليس فقال بعث أي لعله بعث نبي عليكم بالأرض المقدسة أي لأنها محل الأنبياء وهذا يدل على أن عند إبليس أن الرمي بالنجوم علامة على بعث الأنبياء فذهبوا ثم رجعوا فقالوا ليس بها أحد فخرج إبليس يطلبه بمكة أي لأنها مظنة ذلك بعد محل الأنبياء فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء منحدرًا معه جبريل فرجع إلى أصحابه فقال بعث أحمد ومعه جبريل وفي رواية إن إبليس قال لما أخبروه بأنهم منعوا من خبر السماء إن هذا لحدث حدث في الأرض فائتوني من تربة كل أرض

فأتوه بذلك فجعل يشمها فلما شم تربة مكة قال من ههنا الحدث فمضوا فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث

أقول قد يقال لا منافاة بين الروايتين لأنه يجوز أنهم لم يخبروه بمبعثه صلى الله عليه وسلم لما وجدوه فذهب أو ذهب بعد إخبارهم له بذلك للإستيقان وهذا يفيد أن الرمي بالنجوم إنما كان عند مبعثه أي عند تقارب زمنه لا قبل ذلك الذي منه زمن ولادته وحينئذ يشكل حصول مثل ذلك لإبليس وجنوده عند مولده صلى الله عليه وسلم ومن ثم قدمنا أنه يجوز أن يكون من خلط بعض الرواة وهذه الرواية تدل على أن إبليس لم يكن عنده علم بأن سقوط النجم على الشياطين علامة على مبعث النبي صلى الله عليه وسلم والرواية التي قبلها تدل على ذلك كما علمت وكلتا الروايتين يدل على أنه لم يعلم عينه ولا محله والله أعلم وقد أشار صاحب الهمزية إلى أن حجب الشياطين كان عند مبعثه صلى الله عليه وسلم بقوله

* بعث الله عند مبعثه الشهب
* حراسا وضاق عنها الفضاء
* تطرد الجن عن مقاعد للسم
* مع كما يطرد الذئب الرعاء
* فمحت آية الكهانة آيا
* ت من الوحي مالهن إنمحاء
*

أي أرسل الله زمن إرساله صلى الله عليه وسلم الشعلة من النار على الجن لأجل حراسة السماء منهم ولكثرة تلك الشعلة ضاقت عنها المفازات حال كون تلك الشهب تطرد الجن عن أمكنة قريبة يقعدون فيها لأجل أن يسمعوها شيئاً من الملائكة المتكلمين بما سيقع في الأرض من المغيبات وطرد تلك الشهب لأولئك الشياطين في الشدة كطرد الرعاة للذئب عن الغنم إذا أرادت أن تعدو عليها فبسبب ذلك الطرد البالغ للجن عن خبر السماء محت آيات من الوحي آية الكهانة التي هي الإخبار بالأمر المغيبة ما لتلك الآيات من الوحي إنمحاء أي ذهاب بل هي باقية إلى يوم القيامة وفيه أنه لزم على كون الغرض من الرمي بالنجوم حفظ الوحي أن ذلك لا يكون إلا عند مبعثه صلى الله عليه وسلم ولا يكون قبل ذلك الذي منه وقت ولادته وأيضاً لو كان ذلك موجوداً قبل مبعثه واستمر إلى مبعثه لم تفزع العرب منه عند مبعثه وأجيب عن الأول بأنه يجوز أن يكون الغرض الأصلي من الرمي بها حفظ الوحي فلا ينافي وجود ذلك قبل عند ولادته إرهاباً وتخويفاً

وكان هذا السؤال الثاني هو الحامل لأبي بن كعب على دعوى أنه لم يرم بالنجوم منذ رفع عيسى عليه الصلاة والسلام حتى تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى بها ومن ثم قال فلما رأت قريش أمرا لم تكن تراه فزعوا لعبد ياليل ويجاب بأنه يجوز أن يكون الرمي بالنجوم عند المبعث مخالفا للرمي بها قبله إما لفرط كثرتها وإما لأن الرمي بها بعد المبعث كان من كل جانب وقيل كان من جانب واحد وإما لأن الرمي بها صار لا يخطئ أبدا وقبل ذلك كان يخطئ تارة ويصيب أخرى فمنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه ومنهم من يخبله أي يصيره غولا يضل الناس في البراري وكان ذلك سبب فزع العرب لأنه كان قبل ذلك لم يكن من كل جانب ولم يكثر ويخطئ فيعود الشيطان إلى مكانه فيسترق السمع ويلقى ما يسترقه إلى كاهنه أي فلم تنقطع الكهانة قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم بالمرّة بل كانت موجودة إلى زمن مبعثه صلى الله عليه وسلم وعند مبعثه انقطعت بالمرّة ومن ثم قال لا كهانة اليوم وهذا كله على تسليم رواية ابن عباس أن النجوم رمى بها عند ولادته صلى الله عليه وسلم وحفظ الوحي بالرمي بالشهب لا يخالف ما حكاه في الإتيان عن سعيد بن جبير ما جاء جبريل بالقرآن إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلا ومعه أربعة من الملائكة حفظة وسيأتي عن النبي عن ابن جرير ما نزل جبريل بوحي قط إلا ونزل معه من الملائكة حفظة يحيطون به وبالنبي الذي يوحى إليه يطردون الشياطين عنهما لثلا يسمعوا ما يبلغه جبريل إلى ذلك النبي الذي يوحى إليه يطردون الشياطين عنهما لثلا يسمعوا ما يبلغه جبريل إلى ذلك النبي من الغيب الذي يوحى إليه فيبلغوه إلى أوليائهم

وعن بعضهم قال سافرت عن زوجتي فخلفني عليها شيطان على صورتني وكلامي وسائر حالاتي التي تعرفها مني فلما قدمت من السفر لم تفرح بي ولم تنهيا لي وكانت إذا قدمت من سفر تنهيا لي كما تنهيا العروس فقلت لها في ذلك فقالت إنك لم تغب فبينما أنا كذلك وقد ظهر لي ذلك الشيطان وقال لي أنا رجل من الجن عشقت امرأتك وكنت آتيا في صورتك فلا تنكر ذلك فاحتر إما أن يكون لك الليل ولي النهار أو لك النهار ولي الليل فراعني ذلك ثم اخترت النهار فلما كان في بعض الليالي جاءني وقال بت الليلة عند أهلك فقد حضرت نوبتي في استراق السمع من السماء فقلت أنت تسترق السمع فقال نعم هل لك أن تكون معي قلت نعم فلما جاء الليل أتاني وقال حول وجهك فحولت وجهي فإذا هو في صورة خنزير له جناحان فحملني على ظهره فإذا له معرفة كمعرفة الخنزير فقال لي استمسك بها فإنك ترى أمورا وأهوالا فلا

تفارقني تهلك ثم صعد حتى لصق بالسما فسمعت قائلاً يقول لا حول ولا قوة إلا بالله ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فهوى بي ووقع من وراء العمران فحفظت الكلمات فلما أصبحت أتيت أهلي فلما كان الليل جاء فقلت فاضطرب فلم أزل أقولهن حتى صار رمادا وإن لم يحمل وقوع ذلك في زمن الجاهلية وإلا كان كذبا لأنهم أجابوا عن إيراد أن القول بقدره الجن على التصور يلزمه رفع الثقة بشيء فإن من رأى نحو ولده وزوجته احتمل أنه جنى فيشك بأن الله تكفل لهذه الأمة بعصمتها عن أن يقع فيها ما يؤدي إلى ما يترتب عليه ريبة في الدين فليتأمل وقد جاء في فضل لا حول ولا قوة إلا بالله من كثرت همومه وغمومه فليكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله والذي نفسي بيده إن لا حول ولا قوة إلا بالله شفاء من سبعين داء أدناها الهم والغم والحزن وفرق بين الغم والهم بأن الغم يعرض منه السهر والهم يعرض منه النوم وفي حكمة آل داود العافية ملك خفى وهم ساعة هرم سنة وقال الأطباء الهم يوهن القلب وفيه ذهاب الحياة كما أن في الحزن ذهاب البصر وفي الحديث من كثر همه سقم

بدنه فعلم أن النجوم على تسليم أنه كان يرمى بها قبل الولادة وبعدها إلى البعثة كانت قبل قرب زمن المبعث تصيب تارة ولا تصيب أخرى مع قلتها وعند البعثة تصيب ولا بد مع كثرتها وإن الكثرة هي سبب الفزع لا دوام الإصابة وإلا فمجرد دوام الإصابة لا يكون حاملا على الفزع لأنه لا يظهر لكل أحد بخلاف الكثرة ومجرد الكثرة لا يكون سببا لقطع الكهانة أو أنها قبل المبعث كانت ترمى من جانب دون آخر وبعد البعثة رميت من جميع الجوانب وإليه الإشارة بقوله تعالى * (ويقذفون من كل جانب دحورا) * فكان ذلك سببا للفزع والمراد وجود ذلك مع دوام الإصابة ليكون سببا لقطع الكهانة وإلا فمجرد الرمي من كل جانب مع قلة الإصابة لا يكون سببا لقطع الكهانة ولما انقطعت الكهانة بعدم إخبار الجن قالت العرب هلك من في السماء فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيرا وصاحب البقر ينحر كل يوم بقرة وصاحب الغنم ينحر كل يوم شاة حتى أسرعوا في أموالهم أي في إتلافها فقالت ثقيف وكانت أعقل العرب أيها الناس أمسكوا على أموالكم فإنه لم يمت من في السماء أستم ترون معالمكم من النجوم كما هي والشمس والقمر كذا في كلام بعضهم ولعله لا يخالف ما تقدم من أن أول العرب فزع للرمي بالنجوم ثقيف وأنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له

عمرو بن أمية ولرجل آخر يقال له عبدياليل لجواز أن يكون ما ذكر هنا صدر من بعضهم لبعض ثم اجتمعوا على عمرو وعبد ياليل والله أعلم وظاهر القرآن والأخبار أن الذي يرمى به الشياطين المسترقون نفس النجم وإنه المعبر عنه بالكوكب وبالمصباح والشهاب وقيل الشهاب عبارة عن شعلة نار تنفصل من النجم أي كما قدمنا فأطلق عليها لفظ النجم ولفظ المصباح ولفظ الكوكب ويكون معنى * (وجعلناها رجوما) * جعلنا منها رجوما وهي تلك الشهب ومعنى كونها حفظا باعتبار ما ينشأ عنها من تلك الشهب

وقالت الفلاسفة إن الشهب إنما هي أجزاء نارية تحصل في الجو عند ارتفاع الأبخرة المتصاعدة واتصالها بالنار التي دون الفلك وقيل السحاب إذا اصطكت أجرامه تخرج نار لطيفة حديدة لا تمر بشيء إلا أتت عليه إلا أنها مع حدتها سريعة الخمود فقد حكى أنها سقطت على نخلة فأحرقت نحو النصف ثم طفئت قاله في الكشاف ومما يؤيد أن الشعل منفصلة من النجوم ما جاء عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه أن النجوم كلها كالقناديل معلقة في السماء الدنيا كتعليق القناديل بالمساجد مخلوقة من نور إنها معلقة بأيدي ملائكة ويعضد هذا القول قوله تعالى * (إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتشرت) * أن انتشارها يكون بموت من كان يحملها من الملائكة وقيل إن هذا ثقب في السماء وقد وقع في سنة تسع وتسعين من القرن السادس أن النجوم ماجت وتطايرت تطاير الجراد ودام ذلك إلى الفجر وأفزع الخلق فلجئوا إلى الله تعالى بالدعاء قال بعضهم ولم يعهد ذلك إلا عند ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم

أقول قد وقع نظير ذلك في سنة إحدى وأربعين من القرن الثالث ماجت النجوم في السماء وتناثرت الكواكب كالجراد أكثر الليل كان أمرا مزعجا لم ير مثله ووقع في سنة ثلاثمائة تناثر النجوم تناثرا عجيبا إلى ناحية المشرق والله أعلم وأما ما جاء من ذكره صلى الله عليه وسلم أي ذكر اسمه وصفته أمته في الكتب القديمة أي كالتوراة المنزلة على موسى عليه الصلاة والسلام لست ليال خلون من رمضان اتفقا والإنجيل المنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام لثنتي عشرة خلت من رمضان وقيل لثلاث عشرة وقيل لثمان عشرة والزبور المنزل على داود عليه الصلاة والسلام لثنتي عشرة وقيل لثلاث عشرة وقيل لثمان عشرة وقيل في ست خلت من رمضان

وصحف شعياً ويقال له أشعياً أو مزامير داود وصفح شيث فقد أنزلت عليه خمسون صحيفة وقيل ستون وصفح إبراهيم فقد أنزل عليه عشرون صحيفة وقيل ثلاثون أول ليلة من رمضان اتفاقاً وفي كتاب شعيب ولم يذكر صحف إدريس وقد أنزلت عليه ثلاثون صحيفة

وذكر بعضهم أن موسى عليه الصلاة والسلام أنزل عليه قبل التوراة عشرون صحيفة وقيل عشر صحائف وهذا كما لا يخفى يزيد على ما اشتهر أن الكتب المنزلة مائة وأربعة كتب

وفي كلام بعضهم أتفقوا على أن القرآن أنزل لأربع وعشرين ليلة خلت من رمضان وعن أبي قلابة أنزلت الكتب كاملة ليلة أربع وعشرين من رمضان وحينئذ يكون من حكي الاتفاق في التوراة وصفح إبراهيم لم يطلع على هذا أو لم يعتد به فقد أشار إلى ذكره صلى الله عليه وسلم في جميع الكتب المنزلة الإمام السبكي رحمه الله تعالى في تائيته بقوله

* وفي كل كتب الله نعتك قد أتى

* يقص علينا ملة بعد ملة

*

وهذا كما لا يخفى أبلغ من قول بعضهم

* ومن قبل مبعثه جاءت مبشرة

* به زبور وتوراة وإنجيل

*

وقد اعترض على هذا القائل بعض الأغبياء بأن التوراة والإنجيل قد صحت بشارتهما به صلى الله عليه وسلم وأما الزبور فلا ندري ولا نقول إلا ما نعلم ويرده ما ذكره الإمام السبكي وسنده قوله تعالى * (وإنه لفي زبر الأولين) * أي كتبهم فقد قال بعض المفسرين إن الضمير عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأن الإضافة حيث لا عهد تحمل على العموم وسيأتي أيضاً التصريح بوجود اسمه في الزبور وقد جاء إن اسمه في التوراة أحمد يحمده أهل السماء والأرض كما تقدم

وقد قيل في سبب نزول قوله تعالى * (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) *

أن عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه دعا ابني أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام فقال لهما قد علمتما أن الله تعالى قال في التوراة إني باعث من ولد إسماعيل نبياً اسمه أحمد من آمن به فقد اهتدى ورشد ومن لم يؤمن به فهو ملعون فأسلم سلمة وأبي مهاجر فأنزل الله الآية وفيها أيضاً محمد واسمه فيها أيضاً حميلاً وقيل أي يحمي الحرم من الحرام واسمه في التوراة أيضاً قدمايا أي الأول السابق واسمه فيها أيضاً ينديند واسمه أيضاً أحميد وقيل أحميد أي يمنع نار جهنم عن أمته واسمه فيها أيضاً طاب طاب أي طيب واسمه فيها أيضاً كما



(٣٤٥)

في الشفاء محمد حبيب الرحمن ووصف فيها بالضحوك أي طيب النفس وفيها محمد بن عبد الله ولده بمكة ومهاجرة إلى طابة وملكه بالشام والتوراة أي على فرض أن تكون اسما عربيا مأخوذة من التورية وهو كتمان السر بالتعريض لأن أكثرها معاريض من غير تصريح واسمه في الإنجيل المنحما والمنحما بالسريانية محمد أي وما جاء عن سهل مولى خيثمة قال كنت يتيما في حجر عمي فأخذت الإنجيل فقرأته حتى مرت لي ورقة ملصقة بغراء ففتقتها فوجدت فيها وصف محمد صلى الله عليه وسلم فجاء عمي فلما رأى الورقة ضربني وقال مالك وفتح هذه الورقة وقراءتها فقلت فيها وصف النبي أحمد فقال إنه لم يأت بعد أي الآن أي وفي الإنجيل اسمه حبنطا أي يفرق بين الحق والباطل ووصفه بأنه صاحب المدرعة وهي الدرع وفيه أيضا وصفه بأنه يركب الحمار والبعر وسيأتي أن راكب الحمار عيسى عليه الصلاة والسلام وراكب الجمل محمد صلى الله عليه وسلم وسيأتي الجواب وفي الإنجيل إن أحببتموني فاحفظوا وصيتي وأنا أطلب إلى ربي فيعطيكم بارقليط والبارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ولا يقول من تلقاء نفسه ولكنه ما يسمع يكلمهم به ويسوسهم بالحق ويخبرهم بالحوادث والغيوب أي وما جاء بذلك وأخبر بالحوادث والغيوب إلا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والبارقليط أو الفارقليط الحكيم والرسول قيل والإنجيل أي على فرض أن يكون اسما عربيا مأخوذ من النجل وهو الخروج ومن ثم سمي الولد نجلا لخروجه أو مشتق من النجل وهو الأصل يقال لعن الله أناجيله أي أصوله فسمى هذا الكتاب بهذا الاسم لأنه الأصل المرجوع إليه في ذلك الدين وقيل من النجلة وهي سعة العين لأنه أنزل وسعة لهم أي لأن فيه تحليل بعض ما حرم عليهم ومن ذلك ما جاء عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما فقلت أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة قال أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأمين أنت عبدي ورسولي سميتك بالمتوكل ليس بفظ أي سئ الخلق ولا غليظ أي شديد القول ولا صخاب بالسين والصاد في الأسواق أي لا يصبح فيها وفي الحديث أشد الناس عذابا كل جعار نعار صخاب

في الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء أي ملة إبراهيم التي غيرتها العرب وأخرجها عن إستقامتها بأن يقول لا إله إلا الله يفتح به أعينا عميا واذانا صما وقلوبا غلفا أي لا تفهم كأنها في غلاف قال عطاء ثم لقيت كعب الأحبار رضي الله تعالى عنه فسألته فما أخطأ في حرف أقول لكن في رواية كعب وأعطى المفاتيح ليصرن الله به أعينا عورا وليسمع به آذانا صما ويقيم به السنة معوجة يعين المظلوم ويمنعه من أن يستضعف وفيها وصفه صلى الله عليه وسلم بأنه يسبق حلمه جهله ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما وعن بعض أحبار اليهود أنه قال على جميع ما وصف به صلى الله عليه وسلم في التوراة وقفت إلا هذين الوصفين وكنت أشتهي الوقوف عليها فجاءه شخص يطلب منه ما يستعين به وذكر له أنه لم يكن عنده ما يعينه به فقلت هذه دنائير ندفعها له وتكون على كذا من التمر ليوم كذا ففعل فجئته قبل الأجل بيومين أو ثلاثة فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ وقلت ألا تقضييني يا محمد في حقي إنكم يا بني عبد المطلب مطل فقال لي عمر أي عدو الله تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أسمع وهم بي فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سكون وتؤدة وتبسم ثم قال أنا وهو أحوج إلى غير هذا منك يا عمر أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن التباعة أي المطالبة أذهب وأوفه حقه وزده عشرين صاعا مكان مارعته أي خفته فأسلم اليهودي وذكر القصة

وفي التوراة لا يزال الملك في يهود إلى أن يجيء الذي إياه تنتظر الأمم أي لا يزال أمرهم ظاهرا إلى أن يجيء الذي تنتظره الأمم أي المرسل إليهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم لأنه المرسل لجميع الأمم وما زعمه اليهود بأنه يوشع رد بنص التوراة في محل آخر إن الله ربكم يقيم نبيا من إخوتكم مثلي وقد قال لي إنه سوف يقيم نبيا مثلك من إخوتهم وأجعل كلمتي في فيه وأيما إنسان لم يطع كلامه أنتقم منه لأن قوله مثلي أي رسولا بكتاب مشتمل على الأحكام والشرائع وذكر المبدأ والمعاد لأن يوشع لم يكن له كتاب بل كان متابعا لسنة موسى عليه الصلاة والسلام في بني إسرائيل خاصة وأيضا يوشع منهم لا من إخوتهم فلو كان يوشع لقال منكم

وما زعمه النصارى إنه المسيح رد عليهم بنصوص الإنجيل التي منها إن الله يقيم لكم نبيا من إخوتكم لأن المسيح ليس من إخوتهم بل منهم لأنه من نسل داود ففي زبور داود سيولد ولد أدعى له أبا ويدعى لي ابنا وإخوة بني إسرائيل إنما هم أولاد إسماعيل الذي هو أخو إسحق وبنو إسرائيل منه وأيضا لو كان المسيح لم يحسن أن يخاطب بهذا اللفظ

وفي الإنجيل جاء الله من طور سينا وظهر بساعير وأعلن بفارن أي عرف الله بإرساله موسى وعيسى ومحمدا صلوات الله وسلامه عليهم لأن ظهور نبوة موسى كان في طور سينا وتقدم أنه جبل بالشام قيل هو الذي بين مصر وإيليا وأنزلت التوراة عليه فيه وظهر نبوة عيسى كان في ساعير وهو جبل القدس لأن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يسكن بقرية بأرض الخليل يقال لها ناصرة وبإسمها سمي من اتبعه وأنزل عليه الإنجيل بها وظهر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كان في فاران وهي مكة وأنزل عليه القرآن بها

وفي التوراة أن إسماعيل أقام بقرية فاران وإنما عبر في جانب موسى بالمجيء لأنه أول المشرعين لأن كتابه الذي هو التوراة أول كتاب اشتمل على الأحكام والشرائع بخلاف ما قبله من الكتب فإنها لم تشتمل على ذلك وإنما كانت مشتملة على الإيمان بالله تعالى وتوحيده ومن ثم قيل لها صحف وإطلاق الكتب عليها مجاز ولما حصل بعيسى وبكتابه الذي هو الإنجيل نوع ظهور عبر في جانبه بالظهور الذي هو أقوى من المجيء ثم لما زاد الظهور بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم عبر عنه بالإعلان الذي هو أقوى من مجرد الظهور

وقد قيل في تفسير قوله تعالى * (الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل) * إنهم يجدون نعتهم * (يأمرهم بالمعروف) * وهو مكارم الأخلاق وصلة الأرحام * (وينهاهم عن المنكر) * وهو الشرك * (ويحل لهم الطيبات) * وهي الشحوم التي حرمت على بني إسرائيل والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام التي حرمتها الجاهلية * (ويحرم عليهم الخبائث) * التي كانت تستحلها الجاهلية من الميتة والدم ولحم الخنزير * (ويضع عنهم إصرهم) * من تحريم العمل يوم السبت وعدم قبول دية المقتول وأن يقطعوا ما أصابهم من البول والله أعلم

ومن ذلك ما جاء عن النعمان السبائي رضي الله تعالى عنه وكان من أحبار يهود باليمن قال لما سمعت بذكر النبي صلى الله عليه وسلم قدمت عليه وسألته عن أشياء ثم قلت له إن أبي كان يختم على سفر ويقول لا تقرأه على يهود حتى تسمع بنبي قد خرج بيثرب فإذا سمعت به فافتحه قال النعمان فلما سمعت بك فتحت السفر فإذا فيه صفتك كما أراك الساعة وإذا فيه ما تحل وما تحرم وإذا فيه أنت خير الأنبياء وأمتك خير الأمم واسمك أحمد صلى الله عليه وسلم وأمتك الحمادون أي يحمدون الله في السراء والضراء قربانهم دماؤهم أي يتقربون إلى الله سبحانه وتعالى بإقامة دمائهم في الجهاد وأناجيلهم في صدورهم أي يحفظون كتابهم لا يحضرون قتالا إلا جبريل معهم يتحنن الله عليهم كتحنن الطير على فراخه ثم قال لي يعني أباه إذا سمعت به فأخرج إليه وآمن به وصدقه فكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمع أصحابه حديثه فاتاه يوما فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا نعمان حدثنا فابتدأ النعمان الحديث من أوله فرؤى رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسم ثم قال أشهد أني رسول الله أقول والنعمان هذا قتله الأسود العنسي الذي ادعى النبوة وقطعه عضوا عضوا وهو يقول إن محمدا رسول الله وإنك كذاب مفتر على الله ثم حرقه بالنار أي ولم يحترق كما وقع للخيال

وقيل الذي أحرقه الأسود العنسي بالنار ولم يحترق ذؤيب بن كليب أو ابن وهب ولما بلغه صلى الله عليه وسلم ذلك قال لأصحابه فقال عمر الحمد لله الذي جعل في أمتنا مثل إبراهيم الخليل وهذا السفر يحتمل أن يكون ملخصا من التوراة وقوله إلا وجبريل معهم يدل على أن جبريل يحضر كل قتال صدر من الصحابة رضي الله تعالى عنهم للكفار بل ظاهره كل قتال صدر حتى من جميع الأمة وفي رواية بعضهم نقلوا عن سفر من التوراة لا يلقون أي أمتهم عدوا إلا وبين أيديهم ملائكة معهم رماح وفي التوراة في صفة أمتهم صلى الله عليه وسلم زيادة على ما سبق يوضئون أطرافهم ويأتزون في أوساطهم يصفون في صلاتهم كما يصفون في قتالهم وقد جاء اتزوا كما رأيت الملائكة أي ليلة الإسراء تأتزر أي مؤتزره عند ربها إلى أنصاف سوقها

وقد جاء عليكم بالعمائم وأرخوها خلف ظهوركم فإنها سيما الملائكة وكلاهما أي
الإتزار وأرخاء العذبة من خصائص هذه الأمة
وقد جاء إن العمائم تيجان المسلمين وفي رواية من سيما المسلمين أي علاماتهم
المميزة لهم عن غيرهم
ويؤخذ من وصفهم بأنهم يوضئون أطرافهم أن الأمم السابقة كانوا لا يتوضئون ويوافقه
قول الحافظ ابن حجر إن الوضوء من خصائص الأنبياء دون أممهم إلا هذه الأمة
ويوافقه ما رواه ابن مسعود مرفوعاً يقول الله تبارك وتعالى افترضت عليهم أن يتطهروا
في كل صلاة كما افترضت على الأنبياء أي أن يكونوا طاهرين أو أن هذا أي وجوب
الطهر لكل صلاة كان في صدر الإسلام ولم ينسخ إلا في فتح مكة كما سيأتي
ويخالف كون الوضوء من خصائص هذه الأمة ما رواه الطبراني في الأوسط بسند فيه
ابن لهيعة عن بريدة قال دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء فتوضأ واحدة
واحدة فقال هذا الوضوء الذي لا يقبل الله الصلاة إلا به ثم توضأ ثنتين ثنتين فقال هذا
وضوء الأمم قبلكم ثم توضأ ثلاثاً ثلاثاً ثم قال هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي فإن
هذا يفيد أن الوضوء كان للأمم السابقة لكن مرتين ولأنبيائهم كان ثلاثاً وعليه فالخاص
بهذه الأمة التثليث كوضوء الأنبياء أي كما اختصت هذه الأمة عمناً عداها بالغرة
والتحجيل
وعلى هذا يحمل قول ابن حجر الهيثمي إن الوضوء من خصائص هذه الأمة بالنسبة
لبقية الأمم لا لأنبيائهم
وفي كلام ابن عبد البر قيل إن سائر الأمم كانوا يتوضئون ولا أعرفه من وجه صحيح
وفي كلام ابن حجر والذي من خصائصنا إما الكيفية المخصوصة أو الغرة والتحجيل
هذا كلامه وهو يفيد أن كون الكيفية المخصوصة ومنها الترتيب من خصائصنا غير
مقطوع به بل الأمر فيه على الاحتمال
ولا يخفى أن الإشارة في قوله صلى الله عليه وسلم هذا وضوء الأمم يدل على الترتيب
فقد أستدل أئمتنا على وجوب الترتيب بأنه صلى الله عليه وسلم لم يتوضأ إلا مرتباً
باتفاق أصحابه ولو كان جائزاً لتركه في بعض الأحيان وما اعترض به على دعوى
الاتفاق

بأنه جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه وصف وضوءه صلى الله عليه وسلم فتوضأ فغسل وجهه ثم يديه ثم رجله ثم مسح رأسه أجيب عنه بضعف هذه الرواية وعلى تقدير صحتها يجوز أن يكون ابن عباس نسي مسح الرأس فذكره بعد غسل رجله فمسحه ثم أعاد غسل رجله والراوي عن ابن عباس لم يقف على إعادة ابن عباس غسل رجله

وفي التوراة في صفة أمتة صلى الله عليه وسلم دويهم في مساجدهم كدوي النحل وفي رواية أصواتهم بالليل في جو السماء كأصوات النحل رهبان بالليل ليوث بالنهار وإذا هم أحدهم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة وإن عملها كتبت له عشر حسنات وإذا هم أحدهم بسيئة فلم يعلمها لم تكتب وإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة يأمر

بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأول أي وهو التوراة أو جنس الكتب السابقة والكتاب الآخر أي وهو القرآن

وروى الإمام أحمد وغيره بإسناد صحيح قال الله تعالى لعيسى يا عيسى إني باعث من بعدك نبيا أمتة إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا وإن أصابهم ما يكرهون صبروا وأحتسبوا ولا حلم ولا علم قال كيف يكون ذلك لهم ولا حلم ولا علم قال أعطيتهم من حلمي وعلمي وحيث يكون المراد ولا حلم ولا علم لهم كامل وأن الله تعالى يكمل علمهم وحلمهم من علمه وحلمه ويدل لذلك ما ذكره بعضهم أن هذه الأمة آخر الأمم فكان العلم والحلم الذي قسم بين الأمم كما شهد به حديث إن الله قسم بينكم أخلاقكم قد دق جدا فلم يدرك هذه الأمة إلا يسير من ذلك مع قصر أعمارهم فأعطاهم الله من حلمه وعلمه وجاء أنهم مسمون في التوراة صفوة الرحمن وفي الإنجيل حلماء علماء أبرار أتقياء كأنهم من الفقه أنبياء

وفي الطبراني أن عمر قال لكعب الأحبار كيف تجدني يعني في التوراة قال خليفة قرن من حديد أمير شديد لا تخاف في الله لومة لائم وزاد عن جواب السؤال قوله ثم الخليفة من بعدك يقتله أمة ظالمون له ثم يقع البلاء بعد

وفي صحف شعفاء اسمه صلى الله عليه وسلم ركن المتواضعين وفيها إني باعث نبيا أميا أفتح به آذنا صما وقلوبا غلغا وأعينا عميا مولده بمكة ومهاجرته بطيبة وملكه بالشام رحيفا بالمؤمنين يبكى للبهيمة المثقلة ويبكى لليتيم في حجر الأرملة لو يمر إلى

جنب السراج لم يطفئه من سكينته ولو يمشي على القضيب الرعاع يعني اليابس لم يسمع من تحت قدميه إلى آخر الرواية فإن فيها طولا وقد ساقها الجلال السيوطي في الخصائص الكبرى وشعيا هذا كان بعد داود وسليمان وقبل زكريا ويحيى عليهم الصلاة والسلام

ولما نهى بني إسرائيل عن ظلمهم وعتوهم طلبوه ليقتلوه فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له ودخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها فلما رأوا ذلك جاءوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها وكان من جملة الرسل الذين عناهم الله تعالى بقوله * (وقفينا من بعده) * أي موسى * (بالرسل) * وهم سبعة وهو ثالث تلك الرسل السبعة أي وهو المبشر بعيسى وبمحمد صلى الله عليهما وسلم فقال يخاطب بيت المقدس لما شكاه الخراب وإلقاء الجيف فيه أبشر يأتيك راكب الحمار يعني عيسى وبعده راكب الجمل يعني محمدا صلى الله عليه وسلم وتقدم في وصفه صلى الله عليه وسلم أنه يركب الحمار والبعير وقد يقال لا مخالفة لأنه يجوز أن يكون عيسى اختص بركوب الحمار بخلاف محمد صلى الله عليه وسلم فإنه كان يركبها هذا تارة وهذا أخرى فليتأمل ومن جملتهم أرمياء قيل وهو الخضر والله أعلم

واسمه صلى الله عليه وسلم في الزبور حاط حاط والفلاح الذي يمحق الله به الباطل وفارق وفاروق أي يفرق بين الحق والباطل وهو كما تقدم معنى فارقليط أو بارقليط بالفاء في الأول والموحدة في الثاني

وقيل معناه الذي يعلم الأشياء الخفية وفي الينبوع ومن الألفاظ التي رضوها لأنفسهم يعني النصراني وترجموها على اختيارهم أن المسيح عليه الصلاة والسلام قال إني أسأل الله أن يبعث إليكم بارقليط آخر يكون معكم إلى الأبد وهو يعلمكم كل شيء ويفسر لكم الأسرار وهو يشهد لي كما شهدت له ويكون خاتم النبيين ولم يشهد له بالبراءة والصدق في النبوة بعده إلا محمد صلى الله عليه وسلم

وقد ذكر صاحب الدر المنظم بإسناده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضي الله تعالى عنه يا عمر أتدري من أنا أنا الذي بعثني الله في التوراة لموسى وفي الإنجيل لعيسى وفي الزبور لداود ولا فخر أي لا أقول ذلك على سبيل الافتخار بل على

سبيل التحدث بالنعمة يا عمر أتدري من أنا أنا اسمي في التوراة أحييد وفي الإنجيل البارقليط وفي الزبور حمياطا وفي صحف إبراهيم طاب طاب ولا فخر وذكر صاحب كتاب شفاء الصدور في مختصره أن من فضائله صلى الله عليه وسلم ما رواه مقاتل بن سليمان قال وجدت مكتوبا في زبور داود إني أنا الله لا إله إلا أنا ومحمد رسولي ووصف في مزامير داود بأنه يقوى الضعيف الذي لناصر له ويرحم المساكين ويبارك عليه في كل وقت ويدوم ذكره إلى الأبد وبالجمبار ففيها تقلد أيها الجبار سيفك

فإن قيل قال الله تعالى * (وما أنت عليهم بجبار) * أجيب بأن الأول هو الذي يجبر الخلق إلى الحق والثاني هو المتكبر وفيها يا دواد سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد ومحمد صادقا لا أغضب عليه أبدا ولا يعصيني أبدا وقد غفرت له قبل أن يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر أي على فرض وقوع ذلك الذنب والمراد به خلاف الأولى من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين أي ما يعد حسنة بالنسبة لمقام الأبرار قد يعد سيئة بالنسبة لمقام المقربين لعلو مقامهم وارتفاع شأنهم وأتمه مرحومة يأتون يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء

وفي بعض مزامير داود إن الله أظهر من صهيون إكليلا محمودا وصهيون اسم مكة والإكليل الإمام الرئيس وهو محمد صلى الله عليه وسلم وفي صحف شيث أخوناخ ومعناه صحيح الإسلام وهذا يدل على أن مزامير داود نسخة مختلفة بالزيادة والنقص

وفي صحف إبراهيم اسمه يوذموذ وقيل إن ذلك في التوراة ولا مانع من وجوده فيهما وتقدم أنه في صحف إبراهيم اسمه طاب طاب ولا مانع من وجود الوصفين في تلك الصحف

وفي كتاب شعيب عليه السلام عبدي الذي يثبت شأنه أنزل عليه وحيي فيظهر في الأمم عدلي لا يضحك أي مع رفع الصوت ومن ثم قال ولا يسمع صوته في الأصوات لأن ضحكه كان ابتسم يفتح العيون العور والأذان الصم ويحيي القلوب الغلف وما لا أعطيه أحدا وفيه أيضا مشقح بالشين المعجمة والقاف والحاء المهملة أي زاهي يحمد الله حمدا جديدا أي مخترعا لم يسبقه إليه أحد يأتي من أقصى

الأرض لعل المراد به مكة به تفرح البرية وسكانها وهو ركن المتواضعين وهو نور الله الذي لا يطفأ سلطانه على كتفه وذكر البرية وسكانها إشارة لدولة العرب والمراد بسلطانه على كتفه خاتم النبوة لأنه علامة وبرهان على نبوته أي وذكر ابن ظفر أن في بعض كتب الله المنزلة إني باعث رسولا من الأميين أسدده بكل جميل وأهب له كل خلق كريم وأجعل الحكمة منطقته والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والحق شريعته والعدل سيرته والإسلام ملته أرفع به من الوضيعة وأهدى به من الضلالة وأولف به بين قلوب متفرقة وأهواء مختلفة وأجعل أمته خير الأمم

وأما ما جاء مما يدل على وجوه اسمه الشريف أعنى لفظ محمد مكتوبا في الأحجار والنبات والحيوان وغير ذلك بقلم القدرة فكثير

من ذلك ما جاء عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان نقش خاتم سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام لا إله إلا الله محمد رسول الله قال المراد فص خاتمه

فعن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه مرفوعا إن فص خاتم سليمان بن داود كان سماويا أي من السماء ألقى إليه فوضعه في خاتمه أي وكان به انتظام ملكه وكان نقشه أنا الله لا إله إلا أنا محمد عبدي ورسولي وحينئذ يكون ما تقدم عن حابر وما يأتي يجوز أن يكون روى بالمعنى وكان ينزعه إذا دخل الخلاء وإذا جامع وكان عند نزعه يتنكر عليه أمر الناس ولم يجد من نفسه ما كان يجده قبل نزعه

وفي أنس الجليل كان نقش خاتم سليمان لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد عبده ورسوله ووجد على بعض الحجارة القديمة مكتوب محمد تقي مصلح وسيد أمين وفي جامع مدينة قرطبة بالمغرب عمود أحمر مكتوب فيه بقلم القدرة محمد

وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اقترب آدم الخطيئة قال يا رب أسألك بحق محمد صلى الله عليه وسلم إلا غفرت لي قال وكيف عرفت محمدا وفي لفظ كما في الوفاء وما محمد ومن محمد قال لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق

إليك قال صدقت يا آدم ولولا محمد لما خلقتك أي وفي لفظ كما في الشفاء قال آدم لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنه ليس أحد أعظم قدرا عندك ممن جعلت اسمه مع أسمك فأوحى الله تعالى إليه وعزتي وجلالي إنه لآخر النبيين من ذريتك ولولاه ما خلقتك وفي الوفاء عن ميسرة قلت يا رسول الله متى كنت نبيا قال لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وخلق العرش كتب على ساق العرش محمد رسول الله خاتم الأنبياء وخلق الله الجنة التي أسكنها آدم وحواء وكتب اسمي أي موصوفا بالنبوة أو بما هو أخص منها وهو الرسالة على ما هو المشهور على الأبواب والأوراق والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد أي قبل أن تدخل الروح جسده فلما أحياه الله نظر إلى العرش فرأى اسمي فأخبره الله تعالى أنه سيد ولدك فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه أي فقد وصف صلى الله عليه وسلم بالنبوة قبل وجود آدم

وفي أيضا عن سعيد بن جبير اختصم ولد آدم أي الخلق أكرم على الله تعالى فقال بعضهم آدم خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وقال آخرون بل الملائكة لأنهم لم يعصوا الله عز وجل فذكروا ذلك ذلك لآدم فقال لما نفخ في الروح لم تبلغ قدمي حتى استويت جالسا فبرق لي العرش فنظرت فيه محمد رسول الله فذاك أكرم الخلق على الله عز وجل قيل وكان يكنى آدم بأبي محمد وبأبي البشر وظاهره أنه كان يكنى بذلك في الدنيا وتقدم أنه يكنى بأبي محمد في الجنة

ومن ذلك ما جاء عن عمر بن الخطاب أيضا رضي الله تعالى عنه قال لكعب الأحبار رضي الله تعالى عنه أخبرنا عن فضائل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مولده قال نعم يا أمير المؤمنين قرأت أن إبراهيم الخليل وجد حجرا مكتوبا عليه أربعة أسطر الأول أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني والثاني أنا الله لا إله إلا أنا محمد رسولي طوبى لمن آمن به واتبعه والثالث أنا الله لا إله إلا أنا الحرم لي والكعبة بيتي من دخل بيتي آمن من عذابي ولينظر الرابع

أي وذكر بعضهم أن في سنة أربع وخمسين وأربعمائة عصفت ريح شديدة بخراسان كريح عاد انقلب منها الجبال وفرت منها الوحوش فظن الناس أن القيامة قد قامت وابتهلوا إلى الله تعالى فنظروا فإذا نور عظيم قد نزل من السماء على جبل من تلك الجبال

ثم تأملوا الوحوش فإذا هي منصرفة إلى ذلك الجبل الذي سقط فيه ذلك النور فساروا معها إليه فوجدوا به صخرة طولها ذراع في عرض ثلاثة أصابع وفيها ثلاثة أسطر سطر فيه لا إله إلا أنا فاعبدون وسطر فيه محمد رسول الله القرشي وسطر ثالث فيه احذروا وقعة المغرب فإنها تكون من سبعة أو تسعة والقيامة قد أزفت أي قربت وجاء أن آدم عليه الصلاة والسلام قال طفت السماوات فلم أر في السماوات موضعا إلا رأيت اسم محمد صلى الله عليه وسلم مكتوبا عليه ولم أر في الجنة قصرا ولا غرفة إلا اسم محمد مكتوب عليه ولقد رأيت اسمه صلى الله عليه وسلم على نحور الحور العين وورق آجام الجنة وشجرة طوبي وسدرة المنتهى والحجب وبين أعين الملائكة وهذا الحديث قد حكم بعض الحفاظ بوضعه أي وقد قيل إن أول شيء كتب القلم في اللوح المحفوظ بسم الله الرحمن الرحيم إني أنا الله لا إله إلا أنا محمد رسولي من استسلم لقضائي وصبر على بلائي وشكر على نعمائي ورضي بحكمي كتبته صديقا وبعثته يوم القيامة من الصديقين وفي رواية مكتوب في صدر اللوح المحفوظ لا إله إلا الله دينه الإسلام محمد عبده ورسوله فمن آمن بهذا أدخله الله الجنة

وفي رواية لما أمر الله القلم أن يكتب ما كان وما يكون كتب على سرادق العرش لا إله إلا الله محمد رسول الله يتأمل هذا فإنه إن كان المراد كما هو المتبادر أن القلم لما أمر أن يكتب ما ذكر كان أول شيء كتبه على سرادق العرش ما ذكر ثم تمم كتابة ما أمر به على ذلك كما كتب أول ما ذكر البسملة في اللوح المحفوظ ثم تمم كتابة ما أمر به يلزم أن يكون القلم كتب ما كان وما يكون في اللوح وعلى سرادق العرش ومن ذلك ما جاء عن عمر بن الخطاب أيضا رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم إن آدم عليه الصلاة والسلام قال وجدت اسم محمد صلى الله عليه وسلم على ورق شجرة طوبي وعلى ورق سدرة المنتهى أي وعلى ورق قصب آجام الجنة ومن ثم قال السيوطي في الخصائص الكبرى من خصائصه صلى الله عليه وسلم كتابة اسمه الشريف مع اسم الله تعالى على العرش وفيها ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن ومكتوب اسمه صلى الله عليه وسلم على سائر ما في الملكوت أي من السماوات والجنان وما فيهن

وفي الخصائص الصغرى له أيضا ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم كتابة اسمه الشريف على العرش وكل سماء والجنان وما فيها وسائر ما في الملكوت أقول ولا يخالف هذا أي ما تقدم عن آدم ما جاء على تقدير صحته أن آدم لما نزل إلى الأرض استوحش فنزل جبريل عليه السلام فنادى بالأذان الله أكبر الله أكبر مرتين أشهد أن لا إله إلا الله مرتين أشهد أن محمدا رسول الله مرتين قال آدم من محمد قال جبريل هو آخر ولدك من الأنبياء لجواز أن يكون آدم عليه السلام أراد أن يستثبت هل هو محمد الذي رأى اسمه مكتوبا وأخبر بأنه آخر الأنبياء من ذريته وأنه لولا ما خلقه واستشفع به أو غيره فليتأمل وإنما قلنا على تقدير صحته لأنه سيأتي في بدء الأذان أن في سند هذا الحديث مجاهيل

وذكر صاحب كتاب شفاء الصدور في مختصره عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل أنه قال يا محمد وعزتي وجلالي لولاك ما خلقت أرضي ولا سمائي ولا رفعت هذه الخضراء لا بسطت هذه الغبراء وفي رواية عنه ولا خلقت سماء ولا أرضا ولا طولاً ولا عرضاً وبهذا يرد على من رد على القائل في مدحه صلى الله عليه وسلم * لولاه ما كان لا فلك ولا فلك * كلا ولا بان تحريم وتحليل *

بأن قوله لولاه ما كان لا فلك ولا فلك مثل هذا يحتاج إلى دليل ولم يرد في الكتاب ولا في السنة ما يدل على ذلك فيقال له بل جاء في السنة ما يدل على ذلك والله أعلم ومن ذلك ما حدث به بعضهم قال غزونا الهند فوقع في غيضة فإذا فيها شجر عليه ورق أحمر مكتوب عليه بالبياض لا إله إلا الله محمد رسول الله وعن بعضهم رأيت في جزيرة شجرة عظيمة لها ورق كبير طيب الرائحة مكتوب عليه بالحمرة والبياض في الخضرة كتابة بينة واضحة حلقة ابتدعها الله تعالى بقدرته في الورقة ثلاثة أسطر الأول لا إله إلا الله والثاني محمد رسول الله والثالث إن الدين عند الله الإسلام

وعن بعض آخر قال دخلت بلاد الهند فرأيت في بعض قراها شجر ورد أسود ينفث عن وردة كبيرة سوداء طيبة الرائحة مكتوب عليها بخط أبيض لا إله إلا الله محمد رسول الله أبو بكر الصديق عمر الفاروق فشككت في ذلك وقلت إنه معمول فعمدت إلى وردة

كبيرة لم تفتح فرأيت فيها كما رأيت في سائر الورق وفي البلد منها شيء كثير وأهل تلك البلد يعبدون الحجارة

ونقل ابن مرزوق في شرح البردة عن بعضهم قال عصفت بنا ريح ونحن في لبح بحر الهند فأرسينا في جزيرة فرأينا فيها وردا أحمر ذكي الرائحة مكتوب عليه بالأصفر براءة من الرحمن الرحيم إلى جنات النعيم لا إله إلا الله محمد رسول الله أي ومن ذلك ما حكاه بعضهم قال رأيت في بلاد الهند شجرة تحمل ثمرا يشبه اللوز له قشران فإذا كسر خرج منه ورقة خضراء مطوية مكتوب عليها بالحمرة لا إله إلا الله محمد رسول الله كتابة جلية وهم يتبركون بتلك الشجرة ويستسقون بها إذا منعوا الغيث هذا وفي مزيل الخفاء الاقتصار على لا إله إلا الله أي وحينئذ لا يكون شاهدا على ما ذكرنا

أي ومن ذلك ما حكاه الحافظ السلفي عن بعضهم أن شجرة ببعض البلاد لها أوراق خضر وعلى كل ورقة مكتوب بخط أشد خضرة من لون الورق لا إله إلا الله محمد رسول الله وكان أهل تلك البلاد أهل أوثان وكانوا يقطعونها وييقون أثرها فترجع إلى ما كانت عليه في أقرب وقت فأذابوا الرصاص وجعلوه في أصلها فخرج من حول الرصاص أربع فروع على كل فرع لا إله إلا الله محمد رسول الله فصاروا يتبركون ويستشفون بها من المرض إذا اشتد ويخلقونها بالزعفران وأجل الطيب ومن ذلك أنه وجد في سنة سبع أو تسع وثمانمائة حبة عنب فيها بخط بارع بلون أسود محمد ومن ذلك ما ذكره بعضهم أنه اصطاد سمكة مكتوب على جنبها الأيمن لا إله إلا الله وعلى جنبها الأيسر محمد رسول الله قال فلما رأيتها ألقيتها في النهر احتراماً لها

وعن بعض آخر قال ركبت بحر الغرب ومعنا غلام معه سنارة فأدلاها في البحر فاصطاد سمكة قدر شبر بيضاء فنظرنا فإذا مكتوب بالأسود على أذنها الواحد لا إله إلا الله وفي قفاها وخلف أذنها الأخرى محمد رسول الله فقذفناها وعن بعضهم أنه ظهرت له سمكة بيضاء وإذا على قفاها مكتوب بالأسود لا إله إلا الله محمد رسول الله

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا بطائر في فمه لوزة خضراء فألقاها فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم فوجد فيها دودة

خضراء مكتوب عليها بالأصفر لا إله إلا الله محمد رسول الله ومن ذلك ما حكاه بعضهم أنه كان بطبرستان قوم يقولون لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا يقرون لمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة وحصل منهم افتتاحان ففي يوم شديد الحر ظهرت سحابة شديدة البياض فلم تنزل تنشأ حتى أخذت ما بين الخافقين وأحالت بين السماء والبلد فلما كان وقت الزوال ظهر في السحابة بخط واضح لا إله إلا الله محمد رسول الله فلم تنزل كذلك إلى وقت العصر فتاب كل من كان افتتن وأسلم أكثر من كان بالبلد من اليهود والنصارى

ومن ذلك ما جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال بلغني في قول الله تعالى * (وكان تحته كنز لهما) * قال كان ولوحا من ذهب وقيل لوح من رخام مكتوب فيه عجايب لمن أيقن بالموت أي بأنه يموت كيف يفرح عجايب لمن أيقن بالحساب أي أنه يحاسب كيف يغفل عجايب لمن أيقن بالقضاء أي أن الأمور بالقضاء والقدر كيف يحزن عجايب لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله

وروى البيهقي وغيره عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أن الكنز الذي ذكره الله تعالى في كتابة لوح من ذهب فيه بسم الله الرحمن الرحيم عجت لمن أيقن بالقدر ثم ينصب أي يتعب عجت لمن ذكر النار ثم يضحك عجت لمن ذكر الموت ثم غفل لا إله إلا الله محمد رسول الله وفي لفظ لا إله إلا أنا محمد عبدي ورسولي وفي تفسير القاضي البيضاوي عجت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجت لمن يؤمن بالرزق أي أن الله رازقه كيف ينصب أي يتعب وعجت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجت لمن يعرف الدنيا وتقلبها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله

أقول قد يقال يجوز أن يكون ما ذكر أولا في أحد وجهي ذلك اللوح وما ذكر ثانيا في الوجه الثاني أو أن بعض الرواة زاد وبعضهم نقص وبعضهم روى بالمعنى وحفظ ذلك الكنز لأجل صلاح أبيهما وكان تاسع أب لهما وقد قال محمد بن المنكدر إن الله يحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وبقعته التي هو فيها والدويرات حوله فلا يزالون في حفظ الله وستره ويذكر أن بعض العلوية هم هارون الرشيد بقتله فلما دخل عليه أكرمه وخلق سبيله

فقليل له بماذا دعوت حتى نجاك الله فقال قلت يا من حفظ الكنز على الصبيين لصلاح أبيهما احفظني منه لصلاح آبائي كذا في العرائس والله أعلم
ومن ذلك ما جاء عن جابر رضي الله تعالى عنه قال مكتوب بين كتفي آدم محمد رسول الله خاتم النبيين

أي وذكر بعضهم أنه شاهد في بعض بلاد خراسان مولودا على أحد جنبيه مكتوب لا إله إلا الله وعلى الآخر محمد رسول الله أي ومن ذلك ما حكاه بعضهم قال ولد عندي في عام أربعة وسبعين وستمائة جدى أسود غرته بيضاء على شكل الدائرة وفيها مكتوب محمد بخط في غاية الحسن والبيان

وما حكاه بعضهم قال شاهدت ببلدة من بلاد إفريقية بالمغرب رجلا بياض عينه اليمنى من أسفل مكتوب بعرق أحمر كتابة مليحة محمد رسول الله

وذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني نفعنا الله تعالى ببركته في كتابه لوائح الأنوار القدسية في قواعد السادة الصوفية وفي يوم كتابتي لهذا الموضوع رأيت علما من أعلام النبوة وذلك أن شخصا أتاني برأس خروف شواها وأكلها وأراني فيها مكتوبا بخط إلهي على الجبين لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق يهدى به من يشاء يهدي به من يشاء قال الشيخ عبد الوهاب وتكرير ذلك لحكمة فإن الله لا يسهو هذا كلامه وقد يقال لعل الحكمة التأكيد لعلو مقام الهداية كيف وهو المجانب لمقام الضلالة والغواية

وعن الزهري قال شخصت إلى هشام بن عبد الملك فلما كنت باللقاء رأيت حجرا مكتوبا عليه بالعبرانية فأرشدت إلى شيخ يقرؤه فلما قرأه ضحك وقال أمر عجيب مكتوب عليه باسمك اللهم جاء الحق من ربك بلسان عربي مبين لا إله إلا الله محمد رسول الله وكتبه موسى بن عمران

باب سلام الحجر والشجر عليه صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه
عن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم
على قبلي أن أبعث إني لأعرفه الآن قال جاء في بعض الروايات أن هذا الحجر هو
الحجر الأسود أي وقيل غيره وأنه هو الذي في زقاق بمكة يعرف بزقاق الحجر أي
ولعله غير الحجر الذي به أثر المرفق ذكر أنه صلى الله عليه وسلم اتكأ عليه بمرفقه
وهو الذي يقال له زقاق المرفق وغير الحجر الذي به أثر الأصابع
وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد الله تعالى كرامته بالنبوة كان إذا
خرج لحاجة أي لحاجة الإنسان أبعد حتى لا يرى ببناء ويفضى إلى الشعاب وبطون
الأودية فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال الصلاة والسلام عليك يا رسول الله وكان
يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحدا هو إلى ذلك يشير صاحب الأصل بقوله
* لم يبق من حجر صلب ولا شجر
* إلا وسلم بل هناء ما وهبا
*

وإلى ذلك يشير أيضا صاحب الهمزية بقوله
* والجمادات أفصحت بالذي أخ
* رس عنه لأحمد الفصحاء
*

أي والجمادات التي لا روح فيها نطقت بكلام فصيح لا تلعثم فيه أي بالشهادة له صلى
الله عليه وسلم بالرسالة ولم تنطق به أهل الفصاحة والبلاغة وهم الكفار من قريش
وغيرهم
وعن علي رضي الله تعالى عنه قال كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا
في بعض نواحيها فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله
أقول وإلى تسليم الحجر قبل البعثة يشير الإمام السبكي رحمه الله تعالى في تائيته بقوله
* وما جزت بالأحجار إلا وسلمت
* عليك بنطق شاهد قبل بعثة
*

وأما حديث عائشة رضي الله تعالى عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أوحى إلي جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله وما ذكره بعضهم أن الجن قالوا له صلى الله عليه وسلم بمكة من يشهد أنك رسول الله قال تلك الشجرة ثم قال لها من أنا فقالت رسول الله فليس من المترجم له وفي الخصائص الصغرى وخص بتسليم الحجر وبكلام الشجر وبشهادتهما له بالنبوة وإجابتهما دعوته

وفي كلام السهيلي يحتمل أن يكون نطق الحجر والشجر كلاما مقرونا بحياة وعلم ويحتمل أن يكون صوتا مجردا غير مقترن بحياة وعلم وعلى كل هو علم من أعلام النبوة

وفي كلام الشيخ محيي الدين ابن العربي أكثر العقلاء بل كلهم يقولون عن الجمادات لا تعقل فوقفوا عند بصرهم والأمر عندنا ليس كذلك فإذا جاءهم عن نبي أو ولي أن حجرا كلمه مثلا يقولون خلق الله فيه العلم والحياة في ذلك الوقت والأمر عندنا ليس كذلك بل سر الحياة سار في جميع العالم

وقد ورد أن كل شيء سمع صوت المؤذن من رطب ويابس يشهد له ولا يشهد إلا من علم وأطال في ذلك وقال قد أخذ الله بأبصار الإنس والجن عن إدراك حياة الجماد إلا من شاء الله كنحن وأضرابنا فإننا لا نحتاج إلى دليل في ذلك لكون الحق تعالى قد كشف لنا عن حياتها عينا وأسمعنا تسييحها ونطقها وكذلك إندكاك الجبل لما وقع التجلي إنما كان ذلك منه لمعرفته بعظمة الله عز وجل ولولا ما عنده من العظمة لما تدكدك والله أعلم

باب بيان حين المبعث وعموم بعثته صلى الله عليه وسلم قال ابن إسحاق لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه الله رحمه للعالمين وكافة للناس أجمعين وكان الله قد أخذ له الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به والتصديق له والنصر على من خالفه وأن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم أي فهم وأممهم من جملة أمته صلى الله عليه وسلم كما سيأتي عن السبكي

فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث على رأس الأربعين قال وهذا هو المشهور بين الجمهور من أهل السير والعلم بالأثر وقيل بزيادة يوم وقيل بزيادة عشرة أيام وقيل بزيادة شهرين وقيل بزيادة سنتين وهو شاذ وأكثر منه شذوذا ما قيل إنه بزيادة ثلاث سنين وما قيل إنه بزيادة خمس سنين قال بعضهم والأربعون هي سن الكمال ونهاية بعث الرسل أي لا يرسلون دونها ومن ثم قال في الكشاف ويروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة هذا كلام الكشاف وأما ما يذكر عن المسيح أنه رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث أو أربع وثلاثين سنة أي ومعلوم أنه دعا إلى الله قبل ذلك فهو قول شاذ حكاه وهب بن منبه عن النصارى أنه أي وعليه جرى غير واحد من المفسرين بل قال في ينبوع الحياة لم يبلغني أن أحدا من المفسرين ذكر في مبلغ سنه إذ رفع أكثر من ثلاث وثلاثين سنة هذا كلامه وفي الهدى وأما ما يذكر عن المسيح أنه رفع إلى السماء وله ثلاث وثلاثون سنة فهذا لا يعرف به أثر متصل يجب المصير إليه هذا كلامه ويوافق ما تقدم عن المفسرين وما في العرائس ولما تمت له يعنى عيسى عليه الصلاة والسلام ثلاثون سنة أوحى الله تعالى إليه أن يبرز لناس ويدعوهم ويضرب الأمثال لهم ويداوي المرضى والزمني والعميان والمجانين ويقمع الشياطين ويذلهم ويدحرهم ففعل ما أمر به وأظهر المعجزات فأحيا ميتا يقال له عازر بعد ثلاثة أيام من موته وعبارة الجلال المحلي في قطعة التفسير أحيا عيسى عليه الصلاة والسلام أربعة عازر صديقا له وابن العجوز وابنة العاشر وسام بن نوح هذا كلامه وذكر البغوي قصة كل واحد فراجعه وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يمشى على الماء ومكث في الرسالة ثلاث سنوات ثم رفع ويوافق ذلك أيضا قول ابن الجوزي وأما حديث وما من نبي إلا نبي بعد الأربعين فموضوع لأن عيسى عليه الصلاة والسلام نبي ورفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة أي نبيء وهو ابن ثلاثين سنة ورفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة بل قيل نبيء وهو طفل فاشتراط الأربعين في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس بشيء هذا كلامة أي وفيه أن هذا بمجرد لا يدل على وضع الحديث ويوافقه أيضا قول القاضي البيضاوي ونبيء نوح وهو ابن خمسين سنة وقيل

أربعين ويوافقه أيضا قول بعضهم ومما يدل على أن بلوغ الأربعين ليس شرطا للنبوة وقصة سيدنا يحيى صلوات الله وسلامه عليه بناء على أن الحكم في قوله تعالى * (وآتناه الحكم صبيا) * النبوة لا الحكمة وفهم التوراة كما قيل بذلك بل أحكم إليه عقله في صباه واستنبأه قيل كان ابن سنتين أو ثلاث ولما ولي الخلافة المقتدر وهو غير بالغ صنف الإمام الصولي له كتابا فيمن ولي الأمر وهو غير بالغ واستدل على جواز ذلك بأن الله بعث يحيى بن زكريا نبيا وهو غير بالغ وذكر فيه كل من استعمله النبي صلى الله عليه وسلم من الصبيان قال بعضهم وهو كتاب حسن فيه فوائد كثيرة

وكان ذبح يحيى قبل رفع عيسى عليهما الصلاة والسلام بسنة ونصف سنة ومما يدل على ما تقدم عن الهدى أي من إنكار أن عيسى عليه الصلاة والسلام رفع وله ثلاث وثلاثون سنة قوله بعضهم الأحاديث الصحيحة تدل على أنه إنما رفع وهو ابن مائة وعشرين سنة من تلك الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم في مرض موته لابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها أخبرني جبريل أنه لم يكن نبي إلا عاش نصف عمر الذل كان قبله وأخبرني أن عيسى ابن مريم عاش عشرين ومائة سنة ولا أراني إلا ذاهبا على رأس الستين وفي الجامع الصغير ما بعث الله نبيا إلا عاش نصف ما عاش الذي قبله وعلى كون كل نبي عاش نصف ما عاش النبي الذي قبله يشكل أن نوحا كان أطول الأنبياء عمرا ومن ثم قيل له كبير الأنبياء وشيخ المرسلين وهو أول من تنشق عنه الأرض بعد نبينا صلى الله عليه وسلم ثم رأيت أن الحافظ الهيثمي ضعف حديث ما بعث الله نبيا إلا عاش نصف ما عاش النبي الذي قبله وقال العماد بن كثير إنه غريب جدا وعن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عام تبوك قام من الليل يصلى فاجتمع رجال من أصحابه يحرسونه أي ينتظرون فراغه من الصلاة لأن نزول * (والله يعصمك من الناس) * كان قبل هذا حتى إذا صلى وانصرف إليهم قال لهم لقد أعطيت الليلة خمسا ما أعطيهن أحد قبلي زاد في رواية لا أقولهن فخرا أما أولاهن فأرسلت إلى الناس كلهم عامة أي من في زمنه وغيرهم ممن تقدم أو تأخر أي وللشجر والحجر إلى آخر ما يأتي وكان من قبلي وفي لفظ وكان كل نبي إنما يرسل إلى قومه أي جميع أهل زمنه أو جماعة منهم خاصة ومن الأول نوح فإنه كان مرسلا لجميع من

كان في زمنه من أهل الأرض ولما أخبر بأنه لا يؤمن منهم إلا من آمن معه وهم أهل السفينة وكانوا ثمانين أربعين رجلا وأربعين امرأة وفي عوارف المعارف أصحاب السفينة كانوا أربعمائة وقد يقال من الآدميين وغيرهم فلا مخالفة دعا على من عدا من ذكر باستئصال العذاب لهم فكان الطوفان الذي كان به هلاك جميع أهل الأرض إلا من آمن ولو لم يكن مرسلًا إليهم ما دعا عليهم بسبب مخالفتهم له في عبادة الأصنام لقوله تعالى * (وما كنا معذبين) * أي حتى في الدنيا * (حتى نبعث رسولا) *

وقد ثبت أن نوحا أول الرسل أي لمن يعبد الأصنام لأن عبادة الأصنام أول ما حدثت في قومه وأرسله الله إليهم ينهاهم عن ذلك وحينئذ لا يخالف كون أول الرسل آدم وأرسله الله تعالى إلى أولاده بالإيمان بالله تعالى وتعليم شرائعه وذكر بعضهم أنه كان مرسلًا لزوجه حواء في الجنة لأن الله تعالى أمره أن يأمرها وينهاها في ضمن أخباره بأمره ونهيه بقوله تعالى * (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة) * وذلك عين الإرسال كما ادعاه بعضهم فعلم أن عموم رسالة نوح عليه الصلاة والسلام لجميع أهل الأرض في زمنه لا يساوي عموم رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم لما علمت أن رسالته عامة حتى لمن يوجد بعد زمنه وحينئذ يسقط السؤال وهو لم يبق بعد الطوفان إلا مؤمن فصارت رسالة نوح عليه الصلاة والسلام عامة ويسقط جواب الحافظ ابن حجر عنه بأن هذا العموم الذي حصل بعد الطوفان لم يكن من أصل بعثته بل طرأ بعد الطوفان بخلاف رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قيل كان بين الدعوة والطوفان مائة عام وقد حققنا فيما سبق أن آدم ومن بعده دعا إلى الإيمان بالله تعالى وعدم الإشراك به إلا أن الإشراك به وعبادة الأصنام اتفق أنه لم يقع إلا زمن نوح ومن بعده

وأما قول اليهود أو بعضهم وهم العيسوية طائفة من اليهود أتباع عيسى الأصفهاني إنه صلى الله عليه وسلم إنما بعث للعرب خاصة دون بني إسرائيل وإنه صادق ففسد لأنهم إذا سلموا أنه رسول الله وأنه صادق لا يكذب لزمهم التناقض لأنه ثبت بالتواتر عنه صلى الله عليه وسلم أنه رسول الله لكل الناس أقول قال بعضهم ولا ينافيه قوله تعالى * (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) *

لأنه لا يدل على اقتصار رسالته عليهم بل على كونه متكلماً بلغتهم ليفهموا عنه أولاً ثم يبلغ الشاهد الغائب ويحصل الإفهام لغير أهل تلك اللغة من الأعاجم بالتراجم الذين أرسل إليهم فهو صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى الكافة وإن كان هو وكتابه عربيين كما كان موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام مبعوثين لبني إسرائيل بكتابيهما العبراني أي وهو التوراة والسرياني وهو الإنجيل مع أن من جملتهم جماعة لا يفهمون بالعبرانية ولا بالسريانية كالأروام فإن لغتهم اليونانية والله أعلم وأشار إلى الثانية من الخمس بقوله ونصرت بالرعب على العدو ولو كان بيني وبينه مسيرة شهر أي أمامه وخلفه بملاً مني رعباً أي يقذف الرعب في قلوب أعدائه صلى الله عليه وسلم وجعل الغاية شهراً لأنه لم يكن بين بلده وبين أحد من أعدائه أي المحاربين له أكثر من شهر

أي وجاء أن سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ذهب هو وجنده من الإنس والجن وغيرهما إلى الحرم وكان يذبح كل يوم خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة لأن مساحة جنده كانت مائة فرسخ قال لمن حضر من أشرف جنده هذا مكان يخرج منه نبي عربي يعطى النصر على جميع من ناوأه وتبلغ هيئته مسيرة شهر القريب والبعيد عنده في الحق سواء لا تأخذه في الله لومة لائم ثم قالوا فبأي دين يا نبي الله يدين قال بدين الحنيفية فطوبى لمن آمن به قالوا كم بين خروجه وزماننا قال مقدار ألف عام

وأشار إلى الثالثة بقوله وأحلت لي الغنائم كلها وكان من قبلي أي من أمر الجهاد منهم يعطونها ويحرمونها أي لأنهم كانوا يجمعونها أي والمراد ما عدا الحيوانات من الأمتعة والأطعمة والأموال فإن الحيوانات تكون ملكاً للغانمين دون الأنبياء ولا يجوز للإنبياء أخذ شيء من ذلك بسبب الغنيمة كذا في الوفاء وجاء في بعض الروايات وأطعمت أمتك الفيء ولم أحله لأمة قبلها أي والمراد بالفيء ما يعم الغنيمة كما أنه قد يراد بالغنيمة ما يعم الفيء هذا وفي بعض الروايات وكانت الأنبياء يعزلون الخمس فتجىء النار أي نار بيضاء مع السماء فتأكله أي حيث لا غلول وأمرت أن أقسمه في فقراء أمتي وفي تكملة تفسير الجلال السيوطي لتفسير الجلال المحلي أن ذلك لم يعهد في زمن عيسى عليه الصلاة والسلام ولعله لم يكن ممن أمر بالجهاد فلا يخالف ما سبق

وأشار إلى الرابعة بقوله وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا أينما أدركتني الصلاة تمسحت أي تيممت حيث لا ماء وصليت فلا يختص السجود منها بموضع دون غيره وكان من قبلي لا يعطون ذلك أي الصلاة في أي محل أدركتهم فيه إنما كانوا يصلون في كنائسهم وبيعهم أي ولم يكن أحد منهم يتيمم لأن التيمم من خصائصنا وفي رواية جابر ولم يكن أحد من الأنبياء يصلى حتى يبلغ محرابه وجاء في تفسير قوله تعالى * (واختار موسى قومه) * الآيات من المأثور أن الله تعالى قال لموسى أجعل لكم الأرض مسجدا فقال لهم موسى إن الله قد جعل لكم الأرض مسجدا قالوا لا نريد أن نصلى إلا في كنائسنا فعند ذلك قال الله تعالى * (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة) * إلى قوله * (المفلحون) * أي وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم وفيه أنه قيل إن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يسيح في الأرض يصلى حيث أدركته الصلاة ويحتاج إلى الجمع بين هذا وبين ما تقدم من قوله لم يكن أحد من الأنبياء يصلى حتى يبلغ محرابه إلا أن يقال لا يصلى مع أمته إلا في محرابه وأما عيسى عليه الصلاة والسلام فخص بأنه كان يصلى حيث أدركته الصلاة وسيأتي في الخصائص الكلام على ذلك

وأشار إلى الخامسة بقوله قيل لي سل فإن كل نبي قد سأل فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله وهي لإخراج من في قلبه ذرة من الإيمان ليس له عمل صالح إلا التوحيد أي إخراج من ذكر من النار لأن شفاعته غيره صلى الله عليه وسلم تقع فيمن في قلبه أكثر من ذلك قاله القاضي عياض أي وقد جاء في بيان من يشفع بإذن الله له في الشفاعة فلا يبقى نبي ولا شهيد إلا شفيع وفي رواية ثم تشفع الملائكة والنبيون والشهداء والصالحون والمؤمنون فيشفعهم الله عز وجل وقد جاء إن أول شافع جبريل ثم إبراهيم ثم موسى ثم يقوم نبيكم رابعا لا يقوم بعد أحد فيما يشفع فيه

وفي الحديث أتى تحت العرش فأخر ساجدا فيقال يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول يا رب أمتي يا رب أمتي فيقال انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من بر أو شعير من إيمان وفي لفظ حبة من خردل وفي لفظ أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل فأخرجه أي من النار فانطلق فأفعل أي أخرجته من النار وأدخله الجنة

وله صلى الله عليه وسلم شفاعته قبل هذه في إدخال أهل الجنة الجنة بعد مجاوزة الصراط ففي الحديث فإذا دخلت الجنة فنظرت إلى ربي خررت ساجدا فيأذن الله لي في حمده وتمجيده ثم يقول ارفع رأسك يا محمد واشفع تشفع واسأل تعطه فأقول يا رب شفّعني في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة فيأذن الله تعالى في الشفاعته إلى آخر ما تقدم

ومن هذا يعلم أن الشفاعته في الإخراج من النار إنما تكون منه صلى الله عليه وسلم وهو في الجنة فما تقدم من قوله أتى تحت العرش فأخر ساجدا إلى آخره إنما ذلك في الشفاعته في فصل القضاء فهذا خلط من بعض الرواه أي خلط الشفاعته في الموقف التي هي الشفاعته في فصل القضاء بالشفاعته بعد مجاوزة الصراط في دخول أهل الجنة الجنة وبالشفاعته بعد دخول الجنة في إخراج أهل التوحيد من النار والشفاعته في فصل القضاء هي المشار إليها في قوله صلى الله عليه وسلم وأعطيت الشفاعته فقد قال ابن دقيق العيد الأقرب أن اللام فيها للعهد والمراد الشفاعته العظمى في إراحة الناس من هول الموقف أي وهذا هو المقام المحمود الذي يحمده ويغبطه فيه الأولون والآخرون المعنى بقوله تعالى * (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) *

وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه تجمع الناس في صعيد واحد فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس إليك والمهدي من هديت وعبدك بين يديك ولك وإليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت

وقد هاجب فتنة كبيرة ببغداد بسبب هذه الآية أعنى * (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) * فقالت الحنابلة معناه أن يجلسه الله تعالى على عرشه وقال غيرهم بل هي الشفاعته العظمى في فصل القضاء فدام الخصام إلى أن اقتتلوا فقتل كثيرون وهذه الشفاعته إحدى الشفاعات الثلاث المعنية بقوله صلى الله عليه وسلم لي عند ربي ثلاث شفاعات وعدنيهن

وفي كلام بعضهم له صلى الله عليه وسلم تسع شفاعات آخر غير فصل القضاء جرى في اختصاصه ببعضها خلاف وهي الشفاعته في إدخال قوم الجنة بغير حساب ولا عقاب قال النووي وجماعة هي مختصة به صلى الله عليه وسلم والشفاعته في أناس استحقوا دخول النار فلا يدخلونها قال القاضي عياض وغيره ويشترك فيها من يشاء

الله تعالى والشفاعة في إخراج من أدخل النار من الموحدين وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان وهي مختصة به صلى الله عليه وسلم والشفاعة في إخراج من أدخل منهم النار وفي قلبه أزيد من ذرة من إيمان ويشاركه فيها الأنبياء والملائكة والمؤمنون وظاهر هذا السياق أن المراد بمن في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلى آخره عام في أمته وغيرهم من الأمم وهو يخالف قول بعضهم جاء في الصحيح فأقول يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله أي ومات على ذلك قال ليس ذلك لك ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي لأخرجن من النار من قال لا إله إلا الله

ولا يشكل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم أتاني آت من عند ربي فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي وفي رواية ثلثي أمتي الجنة أي بلا حساب ولا عذاب وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئاً فاخترت الشفاعة وعلمت أنها أوسع لهم

لأننا نقول المراد بالذين تنالهم شفاعته صلى الله عليه وسلم ممن مات لا يشرك بالله شيئاً خصوص أمته وأما من قيل له فيه ليس ذلك لك فهم الموحدون من الأمم السابقة فليتأمل مع ما سبق من شفاعة الأنبياء والملائكة والمؤمنين والشفاعة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وجوز النووي اختصاصها به صلى الله عليه وسلم والشفاعة في تخفيف العذاب عن بعض الكفار كأبي طالب وأبي لهب في كل اثنين بالنسبة لأبي لهب والشفاعة لمن مات بالمدينة الشريفة ولعل المراد أنه لا يحاسب

قد أوصل ابن القيم شفاعته صلى الله عليه وسلم إلى أكثر من عشرين شفاعة وفي رواية أعطيت مالم يعطه أحد من الأنبياء نصرت بالرعب وأعطيت مفاتيح الأرض أي وفي لفظ وبيننا أنا نائم رأيتني أوتيت مفاتيح خزائن الأرض فوضعت بين يدي ولا منافاة لأنه يجوز أنه أعطى ذلك يقظة بعد أن أعطيه مناما وسميت أحمد أي ومحمداً أي لأن أحد من الأنبياء لم يسم بذلك فهو من خصائصه صلى الله عليه وسلم بالنسبة للأنبياء كذا في الخصائص الصغرى وتقدم أن التسمية بأحمد من خصائصه صلى الله عليه وسلم على جميع الناس وفي وصفه صلى الله عليه وسلم نفسه بما ذكر وقول عيسى عليه الصلاة والسلام إني عبد الله الآية وقول سليمان عليه الصلاة والسلام * (علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء) * الآية هو الأصل في ذكر العلماء مناقبهم في كتبهم وهذا مأخوذ من قوله تعالى * (وأما بنعمة ربك فحدث) * ومن قوله صلى الله عليه وسلم

التحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر قال الله تعالى * (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)*

صعد سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه المنبر فقال الحمد لله الذي صيرني ليس فوقني أحد ثم نزل فقبل له فقال في ذلك فقال إنما فعلت ذلك إظهاراً للشكر وعن سفيان الثوري رحمه الله من لم يتحدث بنعمة الله فقد عرضها للزوال والحق في ذلك التفصيل وهو أن من خاف من التحدث بالنعمة وإظهارها الرياء فعدم التحدث بها وعدم إظهارها أولى ومن لم يخف ذلك فالتحدث بها وإظهارها أولى أي وفي الشفاء أنه أحمد المحمودين وأحمد الحامدين ويوم القيامة يحمده الأولون والآخرين لشفاعته لهم فحقيق أن يسمى محمداً وأحمد وتقدم أن هذا يوافق ما تقدم عن الهدى أن أحمد مأخوذ من الفعل الواقع على المفعول وقد جاء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي وجعلت أمتي خير الأمم قال القاضي البيضاوي وفي التسمية بالأسماء العربية تنويه إلى تعظيم المسمى هذا كلامه وفي رواية لما أسرى بي إلى السماء قربني ربي حتى كان بيني وبينه كقاب قوسين أو أدنى قيل لي قد جعلت أمتك آخر الأمم لأفضح الأمم عندهم أي بوقوفهم على أخبارهم ولا أفضحهم عند الأمم أي لتأخرها عنهم وعليه فالضمير في دنا يعود إليه صلى الله عليه وسلم فالضمير في دنا إلى آخره يعود إلى الله تعالى وهو معنى لطيف وفي رواية نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق وفي رواية نحن آخر الأمم وأول من يحاسب تنفرج لنا الأمم عن طريقنا فنمضي غرا محجلين من أثر الطهور وفي رواية من آثار الوضوء فتقول الأمم كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها هذا وفي رواية غرا من أثر السجود محجلين من أثر الوضوء وفي رواية فضلت على الأنبياء بست أي ولا مخالفة بين ذكر الخميس أولاً وبين ذكر الست هنا لأنه يجوز أن يكون اطلع أولاً على بعض ما اختص به ثم اطلع على الباقي هذا على اعتبار مفهوم العدد ثم أشار إلى بيان الست بقوله صلى الله

عليه وسلم أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا وأرسلت إلى الخلق كافة والخلق يشمل الإنس والجن والملك والحيوانات والنبات والحجر

قال الجلال السيوطي وهذا القول أي إرساله للملائكة رجحته في كتاب الخصائص وقد رجحه قبلي الشيخ تقي الدين السبكي وزاد أنه مرسل لجميع الأنبياء والأمم السابقة من لدن آدم إلى قيام الساعة ورجحه أيضا البارزي وزاد أنه مرسل إلى جميع الحيوانات والجمادات وأزيد على ذلك أنه أرسل إلى نفسه

وذهب جمع إلى أنه لم يرسل للملائكة منهم الحافظ العراقي في نكته على ابن الصلاح والجلال المحلي في شرح جمع الجوامع ومشيت عليه في شرح التقريب وحكى الفخر الرازي في تفسيره والبرهان النسفي في تفسيره فيه الإجماع هذا كلامه وبهذا الثاني أفتى والد شيخنا الرملي وعليه فيكون قوله صلى الله عليه وسلم أرسلت للخلق كافة وقوله تعالى * (ليكون للعالمين نذيرا) * من العام المخصوص أو الذي أريد به الخصوص

ولا يشكل عليه حديث سلمان إذا كان الرجل في أرض وأقام الصلاة صلى خلفه من الملائكة ما لا يرى طرفاه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده لأنه يجوز أن لا يكون ذلك صادرا عن بعثته إليهم ولا يشكل عليه ما ورد بعثت إلى الأحمر والأسود لما تقدم أن المراد بذلك العرب والعجم وفي الشفاء وقيل الحمر الإنس والسود الجن واستدل للقول الأول القائل بأنه أرسل للملائكة بقوله تعالى * (ومن يقل منهم) * أي من الملائكة * (إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم) * فهي إنذار للملائكة على لسانه صلى الله عليه وسلم في القرآن العظيم الذي أنزل عليه فثبت بذلك إرساله إليهم ودعوى الإجماع منازع فيها فهي دعوى غير مسموعة ثم رأيت الجلال السيوطي ذكر هذا الإستدلال وهو واضح وذكر تسعة أدلة أيضا وهي لا تثبت المدعى الذي هو أن الملائكة يكلفون بشرعه صلى الله عليه وسلم كما لا يخفى على من رزق نوع فهم بالوقوف عليها

فعلم أنه صلى الله عليه وسلم مرسل لجميع الأنبياء وأمهم على تقدير وجوده في زمنهم لأن الله تعالى أخذ عليهم وعلى أمهم الميثاق على الإيمان به ونصرتهم مع بقائهم على نبوتهم ورسالتهم إلى أمهم فنبوته ورسالته أعم وأشمل وتكون شريعته في تلك

الأوقات بالنسبة إلى أولئك الأمم ما جاءت به أنبياءهم لأن الأحكام والشرائع تختلف باختلاف الأشخاص والأوقات قاله السبكي أي فجميع الأنبياء وأممهم من جملة أمته صلى الله عليه وسلم فقد قال صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه والذي نفسي بيده لو أن موسى عليه الصلاة والسلام كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني

وأخرج أحمد وغيره عن عبد الله بن ثابت قال جاء عمر رضي الله تعالى عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر رضينا بالله ربا وبالإسلام ديننا وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه لضللتكم إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين وفي النهر لأبي حيان إن عبد الله بن سلام أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقيم على السبت وأن يقرأ من التوراة في صلاته من الليل فلم يأذن له وكون جميع الأنبياء وأممهم من أمته صلى الله عليه وسلم فالمراد أمة الدعوة لا أمة الإجابة لأنها مخصوصة بمن آمن به بعد البعثة على ما تقدم ويأتي وبعثته صلى الله عليه وسلم رحمه حتى للكفار بتأخير العذاب عنهم ولم يعاجلوا بالعقوبة كسائر الأمم المكذبة وحتى للملائكة قال تعالى * (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) * وقد ذكر في الشفاء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل هل أصابك من هذه الرحمة شيء قال نعم كنت أخشى العقاب فآمنت لثناء الله تعالى علي في القرآن بقوله عز وجل * (ذي قوة عند ذي العرش مكين) *

قال الجلال السيوطي إن هذا الحديث لم نقف له على إسناد فهو صلى الله عليه وسلم أفضل ما سائر المرسلين وجميع الملائكة المقربين وفي لفظ آخر فضلت على الأنبياء بست لم يعطهن أحد كان قبلي غفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر وأحلت لي الغنائم وجعلت أمتي خير الأمم وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأعطيت الكوثر ونصرت بالرعب والذي نفسي بيده إن صاحبكم لصاحب لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه وفي رواية فما من أحد إلا وهو تحت لوائي يوم القيامة ينتظر الفرج وإن معي لواء الحمد أنا أمشي ويمشي الناس معي حتى آتي باب الجنة الحديث

أقول قد سئلت عما حكاه الجلال السيوطي أنه ورد إلى مصر نصراني من الفرنج وقال لي شبهة إن أزلتموها أسلمت فعقد له مجلس بدار الحديث الكاملة ورأس العلماء إذ ذاك الشيخ عز الدين بن عبد السلام فقال له النصراني والناس يسمعون أي أفضل عندكم المتفق عليه أو المختلف فيه فقال له الشيخ عز الدين المتفق عليه فقال له النصراني قد اتفقنا نحن وأنتم على نبوة عيسى واختلفنا في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فيلزم أن يكون عيسى أفضل من محمد فأطرق الشيخ عز الدين ساكتا من أول النهار إلى الظهر حتى أرتج المجلس واضطرب أهله ثم رفع الشيخ رأسه وقال عيسى قال لبني إسرائيل * (ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) * فيلزمك أن تتبعه فيما قال وتؤمن بأحمد الذي بشر به فأقام الحجة على النصراني وأسلم بأنه كيف أقام الحجة على كون محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من عيسى إذ غاية ما ذكر أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجبت بأنه حيث ثبت أن محمدا رسول الله وجب الإيمان به وبما جاء به ومما جاء به وأخبر به أنه أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقد سئل أبو الحسن الحمال بالحاء المهملة من فقهاءنا معاشر الشافعية محمد وموسى أيهما أفضل فقال محمد فقيل له ما الدليل على ذلك فقال إنه تعالى أدخل بينه وبين موسى لام الملك فقال تعالى * (واصطنعتك لنفسي) * وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم * (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) * ففرق بين من أقام بوصفه وبين من أقامه مقام نفسه والله أعلم

وفي رواية إذا كان يوم القيامة كان لي لواء الحمد وكنت إمام المرسلين وصاحب شفاعتهم وفي لفظ ألا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخريين على الله ولا فخر وأنا أول شافع وأنا أول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يحرك حلق الجنة أي حلق بابها فيفتح الله لي فأدخلها ومعني فقراء المؤمنين ولا فخر أي وفي رواية أتى باب الجنة يوم القيامة فأستفتح أي بتحريك حلقة الباب أوقرعه بها لا بصوت فيقول الخازن أي وهو رضوان من أنت فأقول محمد وفي رواية أنا محمد فيقول بك أمرت لا أفتح وفي رواية أن لا أفتح لأحد قبلك زاد في رواية ولا أقوم لأحد بعدك لأفتح له فمن خصائصه صلى

الله عليه وسلم أن رضوان لا يفتح إلا له ولا يفتح لغيره من الأنبياء وغيرهم وإنما يتولى ذلك غيره من الخزنة وهي خصوصية عظيمة نبه عليها القطب الخضري وكون الفاتح له صلى الله عليه وسلم الخازن لا ينافي ما قبله من كون الفاتح له الحق سبحانه وتعالى لما علم أن الخازن إنما فتح بأمر الله فهو الفاتح الحقيقي

وفي رواية أنا أول من يفتح له باب الجنة ولا فخر فأتى فأخذ بحلقة الجنة فيقال من هذا فأقول محمد فيفتح لي فيستقبلني الجبار جل جلاله فأخر له ساجدا أي فالكلام في يوم القيامة فلا يرد إدريس بناء على أن دخوله الجنة مترتب على فتح الباب غالباً لأن ذلك قبل يوم القيامة وفي يوم القيامة يخرج إلى الموقف فيكون مع أمته للحساب ولا ينافيه ما جاء أول من يقرع باب الجنة بلال من حمامة على تقدير صحته لأنه يجوز أن يكون يقرع الباب الأصلي لا حلقة أو الأول من الأمة والله أعلم

وفي الأوسط للطبراني بإسناد حسن حرمت الجنة على الأنبياء حتى أدخلها وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي وسيأتي أن هذا من جملة ما أوحى إليه المعراج الذي أشار إليه قوله تعالى * (فأوحى إلى عبده ما أوحى) * ولعل هذا هو المراد مما جاء في المرفوع عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما حرمت الجنة على جميع الأمم حتى أدخلها أنا وأمتي وأن ظاهرها من أنه لا يدخلها أحد من الأنبياء إلا بعد دخول هذه الأمة ليس مراداً

وفي هاتين الروايتين منقبة عظيمة لهذه الأمة المحمدية وهي أنه لا يدخل أحد الجنة من الأمم السابقة ولو من صلحائها وعلماؤها وزهادها حتى يدخل من كان يعذب في النار من عصاة هذه الأمة بناء على أنه لا بد من تعذيب طائفة من هذه الأمة في النار ولا بعد في ذلك لأنه تقدم أن أول من يحاسب من الأمم هذه الأمة فيجوز أن الأمم لا يفرغ حسابهم ولا يأتون إلى باب الجنة إلا وقد خرج من كان يعذب من هذه الأمة في النار ودخل الجنة

وجاء إنه يدخلها قبله من أمته سبعون ألفاً مع كل واحد سبعون ألفاً لا حساب عليهم وذلك معارض لقوله صلى الله عليه وسلم أنا أول من يدخل الجنة إلا أن يقال أول من يدخل الجنة من الباب وهؤلاء السبعون ألفاً ورد أنهم يدخلون من أعلى حائط الجنة فلا معارضة

ولا يعارض ذلك ما جاء أول من يدخل الجنة أبو بكر لأن المراد أول من يدخلها من رجال هذه الأمة غير الموالي

ولا يعارض ذلك ما تقدم عن بلال رضي الله تعالى عنه أنه أول من يقرع باب الجنة لأنه لا يلزم من القرع الدخول وعلى تسليم أن القرع كناية عن الدخول فالمراد الموالي

ولا يعارض ذلك أيضا ما جاء أول من يدخل الجنة بنتي فاطمة كما لا يخفى لأن المراد أول من يدخلها من نساء هذه الأمة فالأولية إضافية

وجاء لأشفعن يوم القيامة لأكثر مما في الأرض من حجر وشجر وعن أنس رض الله تعالى عنه فضلت على الناس بأربع بالسحاء والشجاعة وقوة البطش وكثرة الجماع أي فعن سلمى مولاته صلى الله عليه وسلم أنها قالت طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم على نسائه التسع ليلته وتطهر من كل واحدة قبل أن يأتي الأخرى وقال هذا أظهر وأطيب

ومما يدل على قوة بطشه صلى الله عليه وسلم ما وقع له مع ركاة كما سيأتي وفي الخصائص الصغرى وكان أفرس العالمين فهو صلى الله عليه وسلم أجود بني آدم على الإطلاق كما أنه أفضلهم وأشجعهم وأعلمهم وأكملهم في جميع الأخلاق الجميلة والأوصاف الحميدة

قال ابن عبد السلام من خصائصه صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أخبره بالمغفرة أي لما تقدم وتأخر ولم ينقل أنه أخبر أحدا من الأنبياء بمثل ذلك أي ولأنه لو وقع لنقل لأنه مما تتوفر الدواعي على نقله بل ومما اختص به صلى الله عليه وسلم وقوع غفران نفس الذنب المتقدم والمتأخر كما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم في بيان ما اختص به عن الأنبياء وغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر أي ولا ينافي ذلك قوله تعالى في حق داود * (فغفرنا له ذلك) * لأنه غفران لذنوب واحد قال ابن عبد السلام بل الظاهر أنه لم يخبرهم أي بغفران ذنوبهم بدليل قولهم في الموقف نفسي نفسي لأنني إلى آخره وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سمع بي من يهودي أو نصراني ثم لم يسلم دخل النار أي لأنه يجب عليه أن يؤمن به

أقول والذي في مسلم والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي

أو نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار أي من
سمع نبينا صلى الله عليه وسلم ممن هو موجود في زمنه وبعده إلى يوم القيامة ثم مات
غير مؤمن بما أرسل به كان من أصحاب النار أي ومن جملة ما أرسل به أنه أرسل إلى
الخلق كافة لا لخصوص العرب تأمل وإنما خص اليهود والنصارى بالذكر تنبيها على
غيرها لأنه إذا كان حالهما ذلك مع أن لهم كتابا فغيرهم مما لا كتاب له كالمجوسي
أولى لأن اليهود كتابهم التوراة والنصارى كتابهم الإنجيل لأن شريعة التوراة التي هي
شريعة موسى يقال لها اليهودية أخذا من قول موسى عليه الصلاة والسلام * (إنا هدنا
إليك) * أي رجعنا إليك فمن كان على دين موسى يسمى يهوديا وشريعة الإنجيل يقال
لها النصرانية أخذا من قول عيسى عليه الصلاة والسلام * (من أنصاري إلى الله) * فمن
كان على دين عيسى يسمى نصرانيا وكان القياس أن يقال له أنصاري وقيل النصراني
نسبة إلى ناصرة قرية من قرى الشام نزل بها عيسى عليه الصلاة والسلام كما تقدم ولا
مانع من رعاية الأمرين في ذلك وجاء في رواية وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة أي
والأمم السابقة كانوا يصلون متفرقين كل واحد على حدته وإن أمته صلى الله عليه
وسلم حط عنها الخطأ والنسيان وحمل ما لا تطيقه الذي أشارت إليه خواتيم سورة
البقرة وإن شيطانه صلى الله عليه وسلم أسلم وفي الخصائص الصغرى وأسلم قرينه
ومجموع تلك الخصال سبع عشرة خصلة قال الحافظ ابن حجر ويمكن أن يوجد أكثر
من ذلك لمن أمعن التتبع
وذكر أبو سعيد النيسابوري في كتابه شرف المصطفى أنه عد الذي اختص به نبينا صلى
الله عليه وسلم عن الأنبياء فإذا هو ستون خصلة أي ومن ذلك أي مما اختص به صلى
الله عليه وسلم في أمته أن وصف الإسلام خاص بها لم يوصف به أحد من الأمم
السابقة سوى الأنبياء فقط فقد شرفت هذه الأمة المحمدية بأن وصفت بالوصف الذي
كان يوصف به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهو الإسلام على القول الراجح نقلا
ودليلا لما قام عليه من الأدلة الساطعة قاله الجلال السيوطي رحمه الله

باب بدء الوحي له صلى الله عليه وسلم
عن عائشة رضي الله تعالى عنها أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من
النبوة حين أراد الله تعالى كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصالحة لا يرى رؤيا إلا
جاءت كفلق أي وفي لفظ كفرق الصبح أي كضياءه وإثارته فلا يشك فيها أحد كما لا
يشك أحد في وضوح ضياء الصبح ونوره وفي لفظ فكان لا يرى شيئا في المنام إلا
كان أي وجد في اليقظة كما رأى فالمراد بالصالحة الصادقة وقد جاءت في رواية
البخاري في التفسير أي ولا يخفى أن رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم كلها صادقة وإن
كانت شاقة كما في رؤياه يوم أحد

قال القاضي وغيره وإنما ابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرؤيا لئلا يفجأه
الملك الذي هو جبريل عليه الصلاة والسلام بالنبوة أي الرسالة فلا تتحملها القوى
البشرية أي لأن القوى البشرية لا تتحمل رؤية الملك وإن لم يكن على صورته التي
خلقه الله عليها ولا على سماع صوته ولا على ما يخبر به لا سيما الرسالة فكانت الرؤيا
تأنيسا له صلى الله عليه وسلم والمراد بالملك جبريل لكن ذكر بعضهم أن من لطف
الله تعالى بنا عدم رؤيتنا للملائكة أي على الصورة التي خلقوا عليها لأنهم خلقوا على
أحسن صورة فلو كنا نراهم لطارت أعيننا وأرواحنا لحسن صورهم
وعن علقمة بن قيس أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام أي ما يكون في المنام حتى تهدأ
قلوبهم ثم ينزل الوحي اه أي في اليقظة لأن رؤيا الأنبياء وحي وصدق وحق لا أضغاث
أحلام ولا تخيل من الشيطان إذ لا سبيل له عليهم لأن قلوبهم نورانية فما يرونه في
المنام له حكم اليقظة فجميع ما ينطبع في عالم مثالهم لا يكون إلا حقا ومن ثم جاء
نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا

قول وحينئذ يكون في القول بأن من خصوصياته صلى الله عليه وسلم اجتماع أنواع
الوحي الثلاثة له وعد منها الرؤيا في المنام وعد منها الكلام من غير واسطة وبواسطة
جبريل نظر لما علمت أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعهم مشتركون في الرؤيا
وموسى عليه الصلاة والسلام حصل له كل من الكلام بلا واسطة وبواسطة جبريل

وذكر بعضهم أن مدة الرؤيا ستة أشهر قال فيكون ابتداء الرؤيا حصل في شهر ربيع الأول وهو مولده صلى الله عليه وسلم ثم أوحى الله إليه في اليقظة أي في رمضان ذكره البيهقي وغيره

وجاء في الحديث الرؤيا الصادقة وفي البخاري الرؤيا الحسنة أي الصادقة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة قال بعضهم معناه أن النبي صلى الله عليه وسلم حين بعث أقام بمكة ثلاث عشرة سنة وبالمدينة عشر سنين يوحى إليه ومدة الوحي إليه في اليقظة ثلاث وعشرون سنة ومدة الوحي إليه في المنام أي التي هي الرؤيا ستة أشهر فالمراد خصوص رؤيته وخصوص نبوته صلى الله عليه وهذا القيل نقله في الهدى وأقره حيث قال كانت الرؤيا ستة أشهر ومدة النبوة ثلاثا وعشرين سنة فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا هذا كلامه وحينئذ يكون المعنى ورؤيتي جزء من ستة وأربعين جزءا من نبوتي ولا يخفى أن هذا لا يناسب الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح إذ هو يقتضى أن مطلق الرؤيا الصالحة جزء من مطلق النبوة الشامل لنبوته صلى الله عليه وسلم ونبوة غيره فليتأمل ولم أقف في كلام أحد على مشاركة أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام له صلى الله عليه وسلم في هاتين المدتين وحينئذ تحمل الخصوصية التي ادعاها بعضهم على هذا

ومما يدل على أن المراد مطلق الرؤيا ومطلق النبوة لا خصوص رؤياه ونبوته صلى الله عليه وسلم ما جاء في ذلك من الألفاظ التي بلغت خمسة عشر لفظا ففي رواية أنها جزء من سبعين جزءا وفي رواية من أربعة وأربعين وفي رواية أنها جزء من خمسين جزءا من النبوة وفي رواية من تسعة وأربعين وفي أخرى أنها جزء من ستة وسبعين وفي أخرى من خمسة وعشرين جزءا وفي أخرى من ستة وعشرين جزءا وفي أخرى من أربعة وعشرين جزءا فإن ذلك باعتبار الأشخاص لتفاوت مراتبهم في الرؤيا وذكر الحافظ ابن حجر أن أصح الروايات مطلقا رواية ستة وأربعين ويليها رواية أنها جزء من سبعين جزءا

فعلم أن الرؤية المذكورة جزء من مطلق النبوة أي كجزء منها من جهة الاطلاع على بعض الغيب فلا ينافي انقطاع النبوة بموته صلى الله عليه وسلم ومن ثم جاء ذهبت النبوة أي لا توجد بعدي وبقيت المبشرات أي المرائي

التي كانت مبشرات الأنبياء بالنبوة بدليل ما في رواية لم يبق بعدي من المبشرات أي مبشرات النبوة إلا الرؤيا أي مجرد الرؤيا الخالية عن شي من مبشرات النبوة بدليل ما في لفظ لم يبق إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أي لنفسه أو ترى له لا يقال الرؤيا الصادقة تكون من الكافر أو ترى له وهو خارج بالرجل الصالح وبالمسلم لأننا نقول لو فرض وقوع ذلك كان استدراجا وفيه أنها واقعة وظاهر سياق الحديث الحصر وكما تكون الرؤيا مبشرة بخير عاجل أو آجل تكون منذرة بشر كذلك قال بعضهم وقد تطلق البشارة التي هي الخبر السار على ما يشمل النذارة التي هي الخبر الضار بعموم المجاز بأن يراد بالبشارة ما يعود إلى الخير لأن النذارة ربما قادت إلى الخير

وفي الإتيان ومن المجاز تسمية الشيء باسم ضده نحو * (فبشرهم بعذاب أليم) * اه أي وهي في هذه الآية للتهكم

وجاء رجل أي وهو أبو قتادة الأنصاري إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني أرى في المنام الرؤيا تمرضني فقال له النبي صلى الله عليه وسلم الرؤيا الحسنة من الله والسيئة من الشيطان فإذا رأيت الرؤيا تكرهها فاستعد بالله من الشيطان واتفل عن يسارك ثلاث مرات فإنها لا تضرك أي وحكمة التفل احتقار الشيطان واستقذاره وفي رواية إذا رأى أحدكم ما يكره فليعد بالله من شرها ومن الشيطان كأن يقول أعوذ بالله من شر ما رأيت ومن شر الشيطان وليتفل ثلاثا ولا يحدث بها أحدا فإنها لا تضره زاد في رواية وأن يتحول عن جنبه الذي كان عليه زاد في أخرى وليقم فليصل أي ليكون فعل ذلك سببا للسلامة من المكروه الذي رآه

وفي البخاري إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنما هي من الله فليحمد الله عليها ولتحدث بها أي ولا يخبر بها إلا من يحب وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان أي لا حقيقة لها وإنما هي تخيل يقصد به تخويف الإنسان والتهويل عليه فليستعد بالله من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره وفي الأذكار ثم ليقل اللهم إني أعوذ بك من عمل الشيطان وسيئات الأحلام وفي الحديث الرؤيا من الله والحلم من الشيطان

قيل في معناه لأن صاحب الرؤيا يرى الشيء على ما هو عليه بخلاف صاحب الحلم

فإنه يراه على خلاف ما هو عليه فإن الحلم مأخوذ من حلم الجلد إذا فسد والرؤيا قيل إنها أمثلة يدركها الرائي بجزء من القلب لم تستول عليه آفة النوم وإذا ذهب النوم عن أكثر القلب كانت الرؤيا أصفى وذكر الفخر الرازي أن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها أي أثرها عن قرب والرؤيا الجيدة إنما يظهر تعبيرها بعد حين والسبب فيه أن حكمة الله تعالى تقتضي أن لا يحصل الإعلام بوصول الشر إلا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل

وأما الإعلام بالخير فإن يحصل متقدما على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخير أكثر وهذا جرى على ما هو الغالب وإلا فقد قيل لجعفر الصادق كم تتأخر الرؤيا فقال رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه كأن كلبا أبقع يلغ في دمه فكان أي ذلك الكلب الأبقع شمرا قاتل الحسين وكان أبرص فكان تأخير الرؤيا بعد خمسين سنة

وجاء عن عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة إذا خلوت سمعت نداء أن يا محمد يا محمد وفي رواية أرى نورا أي يقظة لا مناما وأسمع صوتا وقد خشيت أن يكون والله لهذا أمر وفي رواية والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئا قط ولا الكهان وإني لأخشى أن أكون كاهنا أي فيكون الذي يناديني تابعا من الجن لأن الأصنام كانت الجن تدخل فيها وتخاطب سدنتها والكاهن يأتيه الجنى بخبر السماء وفي رواية وأخشى أن يكون بي جنون أي لمة من الجن فقالت كلا يا بن عم ما كان الله ليفعل ذلك بك فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث وفي رواية إن خلقك لكريم أي فلا يكون للشيطان عليك سبيل استدلت رضي الله تعالى عنها بما فيه من الصفات العلية والأخلاق السنية على أنه لا يفعل به إلا خيرا لأن من كان كذلك لا يجزي إلا خيرا

ونقل الماوردي عن الشعبي أن الله قرن إسرئيل عليه السلام بنيه ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه يعلمه الشيء بعد الشيء ولا يذكر له القرآن فكان في هذه المدة مبشرا بالنبوة وأمهله هذه المدة ليتأهب لوجه

وفيه أنه لو كان في تلك المدة مبشرا بالنبوة ما قال لخديجة ما تقدم إلا أن يقال ما تقدم إنما قاله لخديجة في أول الأمر ويدل لذلك ما قيل إنه صلى الله عليه وسلم مكث

خمس عشرة سنة يسمع الصوت أحيانا ولا يرى شخصا وسبع سنين يرى نورا ولم ير شيئا غير ذلك وإن المدة التي بشر فيها بالنبوة كانت ستة أشهر من تلك المدة التي هي اثنان وعشرون سنة وهذا الشيء الذي كان يعلمه له إسرافيل لم أقف على ما هو والله أعلم

وبعد ذلك حبب الله إليه صلى الله عليه وسلم الخلوة التي يكون بها فراغ القلب والانقطاع عن الخلق فهي تفرغ القلب عن أشغال الدنيا لدوام ذكر الله تعالى فيصفوا وتشرق عليه أنوار المعرفة فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده وكان يخلو بغار حراء بالمد والقصر وهذا الجبل هو الذي نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله إلى يا رسول الله لما قال له تبيير وهو على ظهره أهبط عني فإنني أخاف أن تقتل على ظهري فأعذب فكان صلى الله عليه وسلم يتحنث أي يتعبد به أي بغار حراء الليالي ذوات العدد ويروى أولات العدد أي مع أيامها وإنما غلب الليالي لأنها أنسب بالخلوة قال بعضهم وأبهم العدد لإختلافه بالنسبة إلى المدد فتارة كان ثلاث ليال وتارة سبع ليال وتارة شهر رمضان أو غيره

وفي كلام بعضهم ما قد يدل على أنه لم يختل صلى الله عليه وسلم أقل من شهر وحينئذ يكون قوله في الحديث الليالي ذوات العدد محمول على القدر الذي كان يتزود له فإذا فرغ زاده رجع إلى مكة وتزود إلى غيرها إلى أن يتم الشهر وكذا قول بعضهم فتارة كان ثلاث ليال وتارة سبع ليال وتارة شهرا ولم يصح أنه صلى الله عليه وسلم اختلى أكثر من شهر قال السراج البلقيني في شرح البخاري لم يجئ في الأحاديث التي وقفنا عليها كيفية تعبده عليه الصلاة والسلام هذا كلامه وسيأتي بيان ذلك قريبا ثم إذا مكث صلى الله عليه وسلم تلك الليالي أي وقد فرغ زاده يرجع إلى خديجة رضي الله تعالى عنها فيتزود لمثلها أي قيل وكانت زواته صلى الله عليه وسلم الكعك والزيت وفيه أن الكعك والزيت يبقى المدة الطويلة فيمكث جميع الشهر الذي يختلي فيه ثم رأيت عن الحافظ ابن حجر مدة الخلوة كانت شهرا فكان يتزود لبعض ليالي الشهر فإذا نفذ ذلك الزاد رجع إلى أهله يتزود قدر ذلك ولم يكونوا في سعة بالغة من العيش وكان غالب أدمهم اللبن واللحم وذلك لا يدخر منه لغاية شهر لئلا يسرع الفساد إليه ولا سيما وقد وصف بأنه صلى الله عليه وسلم كان يطعم من يرد عليه هذا كلامه وهو يشير فيه إلى ثلاثة أجوبة

الأول أنه لم يكن في سعة بحيث يدخر ما يكفيه شهرا من الكعك والزيت الثاني أن غالب أدمهم كان اللحم واللبن وهو لا يدخر شهرا الثالث أنه على فرض أن يدخر ما يكفيه شهرا أي من الكعك والزيت إلا أنه صلى الله عليه وسلم كان يطعم فر بما نفذ ما ادخره وإنما اختار الزيت للأدم لأن دسومته لا ينفر منها الطبع بخلاف اللبنة واللحم ومن ثم جاء ائتموا بالزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة وقوله ائتموا من هذه الشجرة المباركة أي من عصارة ثمرة هذه الشجرة المباركة التي هي الزيتون وهو الزيت وقيل لها مباركة لأنها لا تكاد تنبت إلا في شريف البقاع التي بورك فيها كأرض بيت المقدس حتى فجأه الحق وهو في غار حراء أي في اليوم والشهر المتقدم ذكره وعن عبيد بن عمير رضي الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور في حراء في كل سنة شهرا وكان ذلك مما تحنث فيه قريش في الجاهلية أي المتألهين منهم أي وكان أول من تحنث فيه من قريش جده صلى الله عليه وسلم عبد المطلب فقد قال ابن الأثير أول من تحنث بحراء عبد المطلب كان إذا دخل شهر رمضان صعد حراء وأطعم المساكين ثم تبعه على ذلك من كان يتأله أي يتعبد كورقة بن نوفل وأبي أمية ابن المغيرة وقد أشار إلى تعبدته صلى الله عليه وسلم صاحب الهمزية بقوله

* ألف النسك والعبادة والخل
* وة طفلا وهكذا النجباء
* وإذا حلت الهداية قلبا
* نشطت في العبادة الأعضاء
*

أي ألف صلى الله عليه وسلم العبادة والخلوة في حال كونه طفلا ومثل هذا الشأن العلي شأن الكرام وإنما كان هذا شأن الكرام لأنه إذا حلت الهداية قلبا نشطت الأعضاء في العبادة لأن القلب رئيس البدن المعول عليه في صلاحه وفساده ولعل الخلوة في كلام صاحب الهمزية المراد بها مطلق اعتزاله للناس وأراد بطفلا زمن رضاعه صلى الله عليه وسلم عند حليلة فقد تقدم عنها رضي الله تعالى عنها أنها قالت لما ترعرع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج إلى الصبيان وهم يلعبون فيتجنبهم لا خصوص اعتزاله الناس في غار حراء فلا ينافي قوله طفلا ظاهر ما تقدم من أن خلوته صلى الله عليه وسلم بغار حراء كانت في زمن

تزوج صلى الله عليه وسلم بخديجة رضي الله تعالى عنها فكان صلى الله عليه وسلم يجاور ذلك الشهر يطعم من جاءه من المساكين أي لأنه كان من نسك قريش في الجاهلية أي في ذلك المحل أن يطعم الرجل من جاءه من المساكين وقد قيل إن هذا كان تعبده في غار حراء أي مع الانقطاع عن الناس وإلا فمجرد إطعام المساكين لا يختص بذلك المحل إلا إن كان ذلك المحل صار في ذلك الشهر مقصودا للمساكين دون غيره

وقيل كان تعبده صلى الله عليه وسلم التفكير مع الانقطاع عن الناس أي لا سيما إن كانوا على باطل لأن في الخلوة يخشع القلب وينسى المألوف من مخالطة أبناء الجنس المؤثرة في البنية البشرية ومن ثم قيل الخلوة صفوة الصفوة وقول بعضهم كان يتعبد بالتفكير أي مع الانقطاع عما ذكرنا وإلا فمجرد التفكير لا يختص بذلك المحل إلا أن يدعى أن التفكير فيه أتم من التفكير في غيره لعدم وجود شاغل به وقيل تعبده صلى الله عليه وسلم كان بالذكر وصححه في سفر السعادة وقيل بغير ذلك

ومن ذلك الغير أنه كان يتعبد قبل النبوة بشرع إبراهيم وقيل بشريعة موسى غير ما نسخ منها في شرعنا وقيل بكل ما صح أنه شريعة لمن قبله غير ما نسخ من ذلك في شرعنا وفي كلام الشيخ محيي الدين بن العربي تعبده صلى الله عليه وسلم قبل نبوته بشريعة إبراهيم حتى فجأه الوحي وجاءته الرسالة فالولي الكامل يجب عليه متابعة العمل بالشريعة المطهرة حتى يفتح الله له في قلبه عين الفهم عنه فيلهم معاني القرآن ويكون من المحدثين بفتح الدال ثم يصير إلى إرشاد الخلق وكان صلى الله عليه وسلم إذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف قبل أن يدخل بيته الكعبة فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله تعالى ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به ما أراد من كرامته صلى الله عليه وسلم وذلك شهر رمضان وقيل شهر ربيع الأول وقيل شهر رجب خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله أي عياله التي هي خديجة رضي الله تعالى عنها إما مع أولادها أو بدونهم حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله تعالى فيها برسالته ورحم العباد بها وتلك الليلة ليلة سبع عشرة من ذلك الشهر وقيل رابع عشره وقيل كان ذلك ليلة ثمان من ربيع الأول أي وقيل ليلة ثالثة

قال بعضهم القول بأنه في ربيع الأول يوافق القول بأنه بعث على رأس الأربعين لأن مولده صلى الله عليه وسلم كان في ربيع الأول على الصحيح أي وهو قول الأكثرين وقيل كان ذلك ليلة أو يوم السابع والعشرين من رجب فقد أورد الحافظ الدمي في سيرته عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله تعالى له صيام ستين شهرا وهو اليوم الذي نزل فيه جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة وأول يوم هبط فيه جبريل هذا كلامه أي أول يوم هبط فيه النبي صلى الله عليه وسلم ولم يهبط عليه قبل ذلك وسيأتي في بعض الروايات أن جبريل عليه السلام نزل في سحر تلك الليلة التي هي ليلة الاثنين ويجوز أن يكون كل من تلك الليالي كانت ليلة الاثنين فقد جاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال لا يفوتك صوم يوم الاثنين لأنني ولدت فيه ونبت فيه فلا مخالفة بين كونه نبيء في الليل وبين كونه نبيء في اليوم لأن السحر قد يلحق بالليل وفي كلام بعضهم أتاه صلى الله عليه وسلم جبريل ليلة السبت وليلة الأحد ثم ظهر له بالرسالة يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان في حراء فجاء بأمر الله تعالى وهذا القول أي أن البعث كان في رمضان قال به جماعة منهم الإمام الصرصري حيث قال * وأتت عليه أربعون فأشرقت * شمس النبوة منه في رمضان *

واحتجوا بأن أول ما أكرمه الله تعالى بنبوته أنزل عليه القرآن وأجيب بأن المراد بنزول القرآن في رمضان نزوله جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة في سماء الدنيا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءني وأنا نائم بنمط وهو ضرب من البسط وفي رواية جاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب أي كتابة فقال اقرأ فقلت ما اقرأ أي أنا أمي لا أحسن القراءة أي قراءة المكتوب أو مطلقا فغطني أو فغطني بالثناء بدل من الطاء به أي غمني بذلك النمط بأن جعله على فمه وأنفه قال حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ أي من غير هذا المكتوب فقلت ماذا اقرأ وما أقول ذلك إلا افتداء منه أي تخلصا منه أن يعود لي بمثل ما صنع أي إنما استفهمت عما أقرؤه ولم أنف خوفا أن يعود لي بمثل ما صنع عند النفي أي وفي رواية فقلت والله ما قرأت

شيئا قط وما أدري شيئا أقرؤه أي لأنني ما قرأت شيئا فهو من عطف السبب على المسبب قال * (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) * فقرأتها فانصرف عني وهبت أي استيقظت من نومي فكأنما كتب في قلبي كتابا

أقول أي أستقر ذلك في قلبي وحفظته ثم لا يخفى أن كلام هذا البعض وهو أنه جاءه ليلة السبت وليلة الأحد ثم ظهر له يوم الاثنين محتمل لأن يكون أتاه بذلك النمط في ليلة السبت وليلة الأحد وسحر يوم الاثنين وهو نائم لا يقظة لقوله ثم هبت من نومي ولا ينافي ذلك قوله ثم ظهر له بالرسالة أي أعلن له بما يكون سببا للرسالة الذي هو اقرأ الحاصل في اليقظة وحينئذ يكون تكرر مجيئه هو السبب في استقرار ذلك في قلبه صلى الله عليه وسلم وحينئذ لا يبعده قوله في الليلة الثانية ما قرأت شيئا لأن المراد لم يتقدم لي قراءة قبل مجيئك إلى ولا يبعده أيضا قوله ما أدري ما أقرأ لأنه لم يستقر ذلك في قلبه لما علمت أن سبب الاستقرار التكرر فلم يستقر ذلك في قلبه صلى الله عليه وسلم في الليلة الأولى

وفي سيرة الشامي أن مجيء جبريل عليه السلام له صلى الله عليه وسلم بالنمط لم يتكرر وأنه كان قبل دخوله صلى الله عليه وسلم غار حراء وهذا السياق يدل على أنه كان بعده

وفي سفر السعادة ما يقتضى أنه جاء بالنمط يقظة في حراء ونصه فبينما هو في بعض الأيام قائم على جبل حراء إذ ظهر له شخص وقال أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله لهذه الأمة ثم أخرج له قطعة نمط من حرير مرصعة بالجواهر ووضعها في يده وقال اقرأ قال والله ما أنا بقارئ ولا أدري في هذه الرسالة كتابة أي لا أعلم ولا أعرف المكتوب فيها قال فضمني إليه وغطني حتى بلغ مني الجهد فعل ذلك بي ثلاثا وهو يأمرني بالقراءة ثم قال اقرأ باسم ربك هذا كلامه فليتأمل والله أعلم قال فخرجت أي من الغار أي وذلك قبل مجيء جبريل إليه صلى الله عليه وسلم باقرا خلافا لما يقتضيه السياق حتى إذا كنت في شط من الجبل أي في جانب منه سمعت صوتا من السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل فوقفتم أنظر إليه فإذا جبريل على

صورة رجل صاف قدميه أي وفي رواية واضعا إحدى رجله على الأخرى في أفق السماء أي نواحيها يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل فوقفتم فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك ثم انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي حتى أتيت خديجة أي في الغار فجلست إلى فخذها مضييفا إليها أي مستندا إليها فقال يا أبا القاسم أين كنت فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك فبلغوا مكة ورجعوا إلي

أقول وهذا يدل على أن خديجة رضي الله تعالى عنها كانت معه بغار حرا وهو الموافق لما تقدم من قوله ومعه أهله أي خديجة رضي الله تعالى عنها على ما تقدم وقد يخالف ذلك ما روى أن خديجة رضي الله تعالى عنها صنعت طعاما ثم أرسلته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تجده بحراء فأرسلت في طلبه إلى بيت أعمامه وأخواله فلم تجده فشق ذلك عليها فبينما هي كذلك إذا أتاها فحدثها بما رأى وسمع فإن هذا يدل على أنها لم تكن معه صلى الله عليه وسلم بحرا

وقد يقال يجوز أن تكون خرجت معه أولا وأرسلت رسلها إليه صلى الله عليه وسلم وهي بحرا فلم تجده وأن الرسل أخطئوا محل وقوفه صلى الله عليه وسلم بالجبل الذي هو حرا ثم رجعت إلى مكة وأرسلت رسلها إليه صلى الله عليه وسلم بحراء لاحتمال عوده إليه ثم أرسلت إلى بيت أعمامه وأخواله لما لم تجده صلى الله عليه وسلم بحراء فأرسالها تكرر مرتين مع اختلاف محلها ويكون قوله وانصرفت راجعا إلى أهلي أي بمكة لا بحراء لأنه يجوز أن يكون بلغه رجوع خديجة رضي الله تعالى عنها إلى مكة هذا على مقتضى الجمع وأما على ظاهر الرواية الأولى يكون رجوعه إلى أهله بحراء كما ذكرنا وهو يدل على أن خروجه صلى الله عليه وسلم إلى شط الجبل كان من غار حراء كما ذكرنا لا من مكة الذي يدل عليه قول الشمس الشامي فخرج مرة أخرى إلى حراء قال فخرجت حتى أتيت الشط من الجبل سمعت صوتا إلى آخره فليتأمل والله أعلم

قال ثم حدثتها بالذي رأيت أي من سماع الصوت ورؤية جبريل وقوله له

يا محمد أنت رسول الله فقالت أبشر يا بن عمي وأثبت فوالذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ثم قامت فجمعت عليها ثيابها أي التي تتجمل بها عند الخروج ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع أي رأى جبريل وسمع منه أنت رسول الله وأنا جبريل فقال ورقة قدوس قدوس بالضم والفتح والذي نفسي بيده لئن كنت صدقت يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي يأتي موسى الذي هو جبريل وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له يثبت والقدوس الطاهر المنزه عن العيوب وهذا يقال للتعجب أي وجاء بدل قدوس سبوح سبوح وما لجبريل يذكر في هذه الأرض التي تعبد فيها الأوثان جبريل أمين الله بينه وبين رسله أي لأن هذا الاسم لم يكن معروفا بمكة ولا غيرها من بلاد العرب فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة بن نوفل فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره وانصرف أي فرغ ما تزوده وليس المراد انقضاء جواره بانقضاء الشهر لأن ذلك كان قبل أن يجيء إليه جبريل باقراً باسم ربك يقظة كما تقدم أي وذلك كان في الشهر الذي أكرمه الله فيه برسالته فعند ذلك صنع كما كان يصنع بدأ بالكعبة فطاف بها فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال له يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ورقة والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبه ولتؤذينه ولتقاتلنه ولتخرجنه بهاء السكت ولا تكون إلا ساكنة ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرًا يعلمه ثم أدنى ورقة رأسه صلى الله عليه وسلم منه وقبل يأفوخه أي وسط رأسه لأن اليأفوخ بالهمزة وسط الرأس إذا استد وقيل استداده كما في رأس الطفل يقال له الفادية بالفاء ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله أي ولا مانع من تكرار مراجعة ورقة فتارة قال قدوس قدوس وتارة قال سبوح سبوح أو جمع بين ذلك في وقت واحد وبعض الرواة اقتصر على أحد اللفظين وقد جاء أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه دخل على خديجة أي وليس عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له يا عتيق إذهب بمحمد صلى الله عليه وسلم إلى ورقة أي بعد أن أخبرته بما

أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سيذكر فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده فقال انطلق بنا إلى ورقة وذهب به إلى ورقة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد فانطلق هاربا إلى الأرض فقال له لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم اثني أي وهذا قبل أن يراه ويجمع به ويحى إليه بالقرآن وحينئذ يكون تكرر سؤال ورقة ثلاث مرات الأولى علي يد أبي بكر رضي الله تعالى عنه وذلك قبل أن يرى جبريل والثانية التي رأى فيها جبريل وسمع منه ولم يجمع به وذلك عند اجتماعه صلى الله عليه وسلم به في المطاف والثالثة التي بعد مجئ جبريل له يقظة بالقرآن أي باقرأ باسم ربك على المشهور من أنه أول ما نزل وذلك على يد خديجة ولا ينافي ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر كما سيأتي أن القصة واحدة لم تتعدد ومخرجها متحد لأن مراده قصة مجئ جبريل له يقظة باقرأ باسم ربك وسيأتي ما فيه وإنما قال ورقة له صلى الله عليه وسلم يا ابن أخي قيل لأنه يجمع مع عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم في قصي فكان عبد الله بمثابة الأخ له أو أنه قال ذلك توقيرا له وإنما ذكر ورقة موسى دون عيسى عليهما الصلاة والسلام مع أن عيسى أقرب منه وهو على دينه لأنه كان على دين موسى ثم صار على دين عيسى عليهما الصلاة والسلام أي كان يهوديا ثم صار نصرانيا أي لأن نبوة موسى عليه الصلاة والسلام مجمع عليها أي على أنها ناسخة لما قبلها وأن شريعة عيسى عليه الصلاة والسلام قيل إنها متممة ومقررة لشريعة موسى عليه الصلاة والسلام لا ناسخة لها قيل ولأن ورقة كان ممن تنصر أي كما علمت والنصارى لا يقولون بنزول جبريل على عيسى عليه الصلاة والسلام أي بل كان يعلم الغيب لأنهم يقولون فيه إنه أحد الأقانيم الثلاثة اللاهوتية وذلك الأقوم هو أقنوم الكلمة التي هي العلم حل بناسوت المسيح واتحد به فلذلك كان يعلم علم الغيب ويخبر بما في الغد أقول وفيه أن في رواية وإنك على مثل ناموس موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام أي ففي بعض الروايات جمع وفي بعضها اقتصر على موسى وفي الاقتصار على موسى دون الاقتصار على عيسى ما علمت ثم رأيت أنه جاء في غير الصحيح

الاقتصار على عيسى فقال هذا الناموس الذي نزل على عيسى فهو كما جاء الجمع بينهما جاء الاقتصار على كل منهما

ولا ينافي ذلك أي مجيء جبريل لعيسى ما تقدم عن النصارى من أنهم لا يقولون بنزول جبريل على عيسى لجواز أن يكون المراد لا ينزل عليه دائما وأبدا بالوحي بل في بعض الأحيان وفي بعضها يعلم الغيب بغير واسطة ثم رأيت في فتح الباري أن عند إخبار خديجة لورقة بالقصة قال لها هذا ناموس عيسى بحسب ما هو فيه من النصرانية وعند إخبار النبي صلى الله عليه وسلم له بالقصة قال له هذا ناموس موسى للمناسبة بينهما لأن موسى أرسل بالنقمة على فرعون وقد وقعت النقمة على يد نبينا صلى الله عليه وسلم على فرعون هذه الأمة الذي هو أبو جهل هذا كلامه فليتأمل وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال في حق أبي جهل في يوم بدر هذا فرعون هذه الأمة والله أعلم وعن عائشة رضي الله تعالى عنها جاءه الملك سحرا أي سحر يوم الاثنين يقظة لا مناما أي بغير نمط فقال له اقرأ قال ما أنا بقارئ أي لا أوجد القراءة قال فأخذني فغطني أي ضمني وعصرني وفي لفظ فأخذ بحلقتي حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ أي لا أحسن القراءة أي لا أحفظ شيئا أقرؤه فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ أي شيء أقرؤه وفيه أنه لو كان كذلك لقال ما أقرأ أو ماذا أقرأ إلا أن يقال أطلق ذلك وأراد لآزمه الذي هو الاستفهام خصوصا وقد قدمه قال فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال * (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) *

أقول فقولنا أي بغير نمط هو ظاهر الروايات ويجوز أن يكون لفظ النمط سقط في هذه الرواية كغيرها من الروايات ويؤيده اقتصار السيرة الشامية على مجيئه بالنمط وأيضا كيف الجمع بين قوله هنا ما ذكر وبين قوله هناك فكأنما كتب في قلبي كتابا وما بالعهد من قدم إلا أن يقال يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم حوز أن يكون جبريل يريد منه قراءة غير الذي قرأه وكتب في قلبه ولا يخفى أنه علم أن قول جبريل اقرأ أمر بالقراءة

وفيه أنه من التكليف بما لا يطاق أي في الحال أي ومن ثم ادعى بعضهم أنه لمجرد التنبيه واليقظة لما يلقي إليه وفيه أنه لو كان كذلك لم يحسن أن يقال في جوابه ما أنا بقارئ الذي معناه لا أوجد القراءة إلا أن يقال جبريل عليه الصلاة والسلام أراد التنبيه لا الأمر وجوابه صلى الله عليه وسلم بناء على مقتضى ظاهر اللفظ وعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم ما أنا بقارئ في المواضع الثلاثة معناه مختلف ففي الأول معناه الإخبار بعدم إيجاد القراءة والثاني معناه الإخبار بأنه لا يحسن شيئاً يقرؤه وإن كان ذلك هو مستند الأول والثالث معناه الاستفهام عن أي شيء أن يقرؤه وفيه ما علمت

وبعضهم جعل قوله الأول لا أقرأ لا أحسن القراءة بدليل أنه جاء في بعض الروايات ما أحسن أن أقرأ وحينئذ يكون بمعنى الثاني فيكون تأكيداً له أي الغرض منهما شيء واحد

قال بعضهم وجه المناسبة بين الخلق من العلق والتعليم وتعليم العلم أن أدنى مراتب الإنسان كونه علقة وأعلاها كونه عالماً فالله سبحانه وتعالى امتن على الإنسان بنقله من أدنى المراتب وهي العلقة إلى أعلاها وهي تعلم العلم وقد اشتملت هذه الآيات على براعة الإستهلال وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله فإنها اشتملت على الأمر بالقراءة والبداءة فيها بسم الله إلى غير ذلك مما ذكره في الإتيان قال فيه من ثم قيل إنها جديرة أن تسمى عنوان القرآن لأن عنوان الكتاب ما يجمع مقاصده بعبارة موجزة في أوله وكرر جبريل الغط ثلاثاً للمبالغة وأخذ منه بعض التابعين وهو القاضي شريح أن المعلم لا يضرب الصبي على تعليم القرآن أكثر من ثلاث ضربات وأورد الحافظ السيوطي عن الكامل لابن عدي بسند ضعيف عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يضرب المؤدب الصبي فوق ثلاث ضربات

وذكر السهيلي أن في ذلك أي الغط ثلاثاً إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم يحصل له شذائد ثلاث ثم يحصل له الفرج بعد ذلك فكانت الأولى إدخال قریش له صلى الله عليه

وسلم الشعب والتضييق عليه والثانية اتفاهم على الاجتماع على قتله صلى الله عليه وسلم والثالثة خروجه من أحب البلاد إليه وجاءه صلى الله عليه وسلم جبريل وميكائيل أي قبل قول جبريل له اقرأ فشق جبريل بطنه وقلبه إلى آخر ما تقدم في الكلام على أمر الرضاع ثم قال له جبريل اقرأ الحديث فعلم أن اقرأ باسم ربك نزلت من غير بسملة وقد صرح بذلك الإمام البخاري وما ورد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بأن أول ما نزل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم قال يا محمد استعذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قال قل بسم الله الرحمن الرحيم ثم قال اقرأ باسم ربك قال الحافظ ابن كثير هذا الأثر غريب في إسناده ضعف وانقطاع أي فلا يدل للقول بأن أول ما نزل بسم الله الرحمن الرحيم حكاه ابن النقيب في مقدمة تفسيره وبه يرد على الجلال السيوطي حيث قال وعندي فيه أن هذا لا يعد قولاً برأسه فإن من ضرورة نزول السورة أي سورة اقرأ نزول البسملة معها فهي أول آية نزلت على الإطلاق هذا كلامه والله أعلم

قال الحافظ ابن حجر هذا الذي وقع له صلى الله عليه وسلم في ابتداء الوحي من خصائصه إذ لم ينقل عن أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنه جرى له عند ابتداء الوحي مثل ذلك ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الآية رجع بها ترجف بوادره والبادرة اللحمة التي بين المنكب والعنق تتحرك عند الفزع ويقال لها الفريضة والفرائض أي وفي رواية فؤاده أي قلبه ولا مانع من اجتماع الأمرين لأن تحرك البادرة ينشأ عن فزع القلب حتى دخل صلى الله عليه وسلم على خديجة فقال زملوني زملوني أي غطوني بالثياب فزملوه حتى ذهب عنه الروع بفتح الراء أي الفزع ثم أخبرها الخبر وقال لقد خشيت على نفسي وفي رواية على عقلي كما في الإمتاع قالت له خديجة كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً أي لا يفضحك إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل أي الشيء الذي يحصل منه التعب والإعياء لغيرك وتكسب المعدوم بضم التاء والمعدوم الذي لا مال له لأن من لا مال له كالمعدوم أي توصل إليه الخير الذي لا يجده عند غيرك

وبهذا يعلم سقوط قول الخطابي الصواب المعدم بلا واو لأن المعدوم أي الشخص المعدوم لا يكسب أي لا يعطى الكسب وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق أي

على حوادثه فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل فقالت له خديجة رضي الله تعالى عنها أي عم اسمع من ابن أخيك أي وقولها أي عم صوابه ابن عم لأنه ابن عمها لا عمها كما وقع في مسلم

قال ابن حجر وهو وهم لأنه وإن كان صحيحا لجواز إرادة التوقير لكن القصة لم تتعدد ومخرجها متحد أي فلا يقال يجوز أنها جاءت إليه بعد نزول الآية مرتين قالت في مرة أي عم وفي مرة أي ابن عم قال ورقة يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذي أنزل علي موسى أي صاحب سر الوحي وهو جبريل يا ليتني فيها جذعا أي يا ليتني حينئذ أكون في زمن الدعوى إلى الله أي إظهاره الذي جاء به وأنذر أو أصل وجودها بناء على تأخر الدعوى التي هي الرسالة عن النبوة على ما يأتي شابا حتى أبلغ في نصرتها يا ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مخرجي هم بتشديد الياء المفتوحة لأنه جمع مخرج والأصل أو مخرجوني حذف النون للإضافة فصار مخرجوى قلبت الواو ياء وأدغمت قال ورقة نعم لم يأت رجل بما جئت به إلا عودي أي فتكون المعادة سببا لإخراجه

وهذا يفيد بظاهره أن من تقدم من الأنبياء أخرجوا من أماكنهم لمعاداة قومهم لهم وإلا فمجرد المعادة لا يقتضى الإخراج فلا يحسن أن يكون علامة عليه وقد يؤيد ذلك ما تقدم عند الكلام على بناء الكعبة أن كل نبي إذا كذبه قومه خرج من بين أظهرهم إلى مكة يعبد الله عز وجل بها حتى يموت وتقدم ما فيه

وفي كونه صلى الله عليه وسلم لم يقل شيئا في جواب قول ورقة إنه يكذب ويؤذي ويقاتل وقال في جواب قوله إنه يخرج أو مخرجي هم إستفهاما إنكاريا دليل على شدة حب الوطن وعسر مفارقتة خصوصا وذلك الوطن حرم الله وجوار بيته ومسقط رأسه قال ورقة وإن أدركت يومك أنصرك نصرا مؤزرا أي شديدا قويا من الأزر وهو الشدة الذي في الحديث الصحيح وإن يدركني يومك وسيأتي في بعض الروايات وإن يدركني ذلك قال السهيلي وهو القياس لأن ورقة سابق بالوجود والسابق هو الذي يدركه ما يأتي بعده كما جاء أشقى الناس من أدركته الساعة وهو حي هذا كلامه

أي وفي بعض الروايات أنه قال لها إن ابن عمك لصادق وإن هذا البدء نبوة وفي لفظ إنه لنبي هذه الأمة أي وفي الشفاء أن قوله صلى الله عليه وسلم لخديجة لقد خشيت على نفسي ليس معناه الشك فيما آتاه الله تعالى من النبوة ولكنه لعله خشى أن لا تحتمل قوته صلى الله عليه وسلم مقاومة الملك وأعباء الوحي بناء على أنه قال ذلك بعد لقاء الملك وإرساله إليه بالنبوة فإن للنبوة أثقالا لا يستطيع حملها إلا أولو العزم من الرسل

وفي كلام الحافظ ابن حجر اختلف العلماء في هذه الخشية على اثني عشر قولاً وأولها بالصواب وأسلمها من الإرتياب أن المراد بها الموت أو المرض أو دوام المرض هذا كلامه فليتأمل مع رواية خشيت على عقلي قال وفي بعض الروايات أن خديجة قبل أن تذهب به إلى ورقة ذهبت به إلى عداس وكان نصرانياً من أهل نينوى قرية سيدنا يونس عليه الصلاة والسلام فقالت له يا عداس أذكرك الله إلا ما أخبرتني هل عندكم علم من جبريل أي فإن هذا الاسم لم يكن معروفاً بمكة ولا بغيرها من أرض العرب كما تقدم فقال عداس قدوس قدوس ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل أوثان أي والقدوس المنزه عن العيوب وأن هذا يقال للتعجب كما تقدم فقالت أخبرني بعلمك فيه قال هو أمين الله بينه وبين النبيين وهو صاحب موسى عليهما الصلاة والسلام اه

وفيه أنه سيأتي عند الكلام على ذهابه صلى الله عليه وسلم للطائف بعد موت أبي طالب يلتمس إسلام تقيف اجتماعه بعداس الموصوف بما ذكر لكن في تلك القصة ما قد يبعد معه كل البعد أنه المذكور هنا فليتأمل ثم رأيت أن عداسا المذكور هنا كان راهباً وكان شيخاً كبير السن وقد وقع حاجباه على عينيه من الكبر وأن خديجة قالت له أنعم صباحاً يا عداس فقال كأن هذا الكلام كلام خديجة سيدة نساء قريش قالت أجل قال أدنى منى فقد ثقل سمعي فدنت منه ثم قالت له ما تقدم وهذا صريح في أنه غير عداس الآتي ذكره وأنهما اشتركا في الاسم والبلد والدين أي وكونهما غلامين لعتبة بن ربيعة ففي كلام ابن دحية عداس كان غلاماً لعتبة بن ربيعة من أهل نينوى عنده علم من الكتاب فأرسلت إليه خديجة تسأله عن جبريل فقال قدوس قدوس الحديث ولا يخفى أن هذا

اشتباه وقع من بعض الرواة بلا شك

وفي رواية أن عداسا هذا قال لها يا خديجة إن الشيطان ربما عرض للعبد فأراه أمورا فخذني كتابي هذا فانطلقني به إلى صاحبك فإن كان مجنونا فإنه سيذهب عنه وإن كان من الله فلن يضره فانطلقت بالكتاب معها فلما دخلت منزلها إذا هي برسول الله صلى الله عليه وسلم مع جبريل يقرئه هذه الآيات * (ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم فستبصر وبيصرون بأبيكم المفتون) * فلما سمعت خديجة قراءته اهتزت فرحاً ثم قالت للنبي صلى الله عليه وسلم فذاك أبي وأمي امض معي إلى عداس فلما رآه عداس كشف عن ظهره فإذا خاتم النبوة يلوح بين كتفيه فلما نظر عداس إليه خر ساجدا يقول قدوس قدوس أنت والله النبي الذي بشر بك موسى وعيسى الحديث

وفيه إن كان هذا قبل أن تذهب به إلى ورقة اقتضى أن نزول سورة ن قبل اقرأ و لا يحسن ذلك مع قوله لجبريل ما أنا بقارئ إذ هو صريح في أنه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ قبل ذلك شيئاً ومن ثم كان المشهور أن أول ما نزل اقرأ وكون ن نزلت لهذا السبب مخالف لما ذكر في أسباب النزول أنها نزلت لما وصفه المشركون بأنه مجنون إلا أن يقال لا مانع من تعدد النزول

وذكر ابن دحية أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبرها بجبريل ولم تكن سمعت به قط كتبت إلى بحيرا الراهب فسألته عن جبريل فقال لها قدوس قدوس يا سيد نساء قريش أنى لك بهذا الاسم فقالت بعلى وابن عمي أخبرني بأنه يأتيه فقال إنه السفير بين الله وبين أنبيائه وإن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا أن يتسمى باسمه وهذه العبارة أي كون جبريل هو السفير بين الله وبين أنبيائه صدرت من الحافظ السيوطي وزاد ولا يعرف ذلك لغيره من الملائكة

واعترض عليه بعضهم بأن إسرائيل كان سفيرا بين الله وبينه صلى الله عليه وسلم فعن الشعبي أنه جاءته صلى الله عليه وسلم النبوة وهو ابن أربعين سنة وقرن بنبوته إسرائيل ثلاث سنين فلما مضت ثلاث سنين رن بنبوته جبريل وفي لفظ عنه فلما مضت ثلاث سنين تولى عنه إسرائيل وقرن به جبريل أي وقد تقدم أن إسرائيل قرن به صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه يعلمه الشيء بعد الشيء إلى آخره وحينئذ يلزم أن يكون قرن به بعد النبوة ثلاث سنين أيضا

وسياتي عن بحث بعض الحفاظ أنها مدة فترة الوحي فليتأمل وأجاب الحافظ السيوطي عن ذلك بأن السفير هو المرصد لذلك وذلك لا يعرف لغير جبريل ولا ينافي ذلك مجيء غيره من الملائكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأحيان ولك أن تقول إن كان المراد بالمجيء إليه بوحي من الله كما هو المتبادر فليس في هذه الرواية أن إسرافيل كان يأتيه بوحي في تلك المدة وجواب الحافظ السيوطي يقتضى أن إسرافيل وغيره من الملائكة كان يأتيه بوحي من الله قبل مجيء جبريل له صلى الله عليه وسلم بوحي غير النبوة ولا يخرج ذلك عن الإختصاص باسم السفير وبأن إسرافيل لم ينزل لغير النبي صلى الله عليه وسلم من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كما ثبت في الحديث فلم يكن السفير بين الله وجميع أنبيائه قيل وإنما خص بذلك لأنه أول من سجد من الملائكة لآدم ورأيته سئل هل عيسى بعد نزوله يوحي إليه فأجاب بنعم وأورد حديث النواس بن سمعان الذي أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم وفيه التصريح بأنه يوحي إليه قال والظاهر أن الجائي إليه بالوحي جبريل قال بل هو الذي يقطع به ولا يتردد فيه لأن ذلك وظيفته وهو السفير بين الله تعالى وبين أنبيائه لا يعرف ذلك لغيره من الملائكة ثم استدل على ذلك بما يطول

قال وما اشتهر على ألسنة الناس أن جبريل لا ينزل إلى الأرض بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم فهو شيء لا أصل له وزعم زاعم أن عيسى إنما يوحي إليه وحي إلهام ساقط قال وحديث لا وحي بعدي باطل أي ويدل له ما رأته في كلام بعضهم جبريل ملك عظيم ورسول كريم مقرب عند الله أمين على وحيه وهو سفيره إلى أنبيائه كلهم وسماه روح القدس والروح الأمين واختصه بوحيه من بين الملائكة المقربين قال ورأيت في بعض التواريخ أن جبريل نزل عليه صلى الله عليه وسلم ستا وعشرين ألف مرة ولم يبلغ أحد من الأنبياء هذا العدد والله أعلم وفي أسباب النزول للواحد عن علي رضي الله تعالى عنه لما سمع النداء يا محمد قال لبيك قال قل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ثم قال قل * (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) * حتى فرغ من السورة أي فلما

بلغ * (ولا الضالين) * فقال قل آمين فقال آمين كما في رواية عن وكيع وابن أبي شيبة وجاء في حديث قال بعضهم إسناده ليس بالقائم إذا دعا أحدكم فليختم بآمين فإن آمين في الدعاء مثل الطابع على الصحيفة وفي الجامع الصغير آمين خاتم رب العالمين على لسان عباده المؤمنين أي خاتم دعاء رب العالمين أي يمنع من أن يتطرق إليه رد وعدم قبول ومن ثم لما سمع صلى الله عليه وسلم رجلاً يدعو قال قد وجب إن ختم بآمين فأتى صلى الله عليه وسلم ورقة فذكر له ذلك فقال له ورقة أبشر ثم أبشر فإنني أشهد أنك الذي بشر بك ابن مريم فإنك على مثل ناموس موسى وإنك نبي مرسل وإنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك ولئن أدركني ذلك لأجاهدن معك أقول هذا لا يدل للقول بأن الفاتحة أول ما نزل وعليه كما قال في الكشف أكثر المفسرين إذ يبعد كل البعد أن تكون هذه الرواية قبل نزول * (اقرأ باسم ربك) * ثم رأيت عن البيهقي أنه قال فيما تقدم عن أسباب النزول هذا مرسل ورجاله ثقات فإن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد ما نزلت عليه اقرأ والمدثر أي والمدثر نزلت بعد يا أيها المزمّل ثم رأيت ابن حجر اعترض ما تقدم عن الكشف بقوله الذي ذهب إليه أكثر الأمة هو الأول أي القول بأنه اقرأ وأما الذي نسبته إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول هذا كلامه ثم رأيت الإمام النووي قال القول بأن الفاتحة أول ما نزل بطلانه أظهر من أن يذكر أي ومما يدل على ذلك ما جاء من طرق عن مجاهد أن الفاتحة نزلت بالمدينة ففي تفسير وكيع عن مجاهد فاتحة الكتاب مدنية وفيه أنه جاء عن قتادة أنها نزلت بمكة وعن علي كرم الله وجهه كما في أسباب النزول للواحدي أنها نزلت بمكة من كنز تحت العرش وفيها عنه لما قام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فقال * (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين) * قالت قريش رض الله فاك وفي الكشف أن الفاتحة نزلت بمكة وقيل نزلت بالمدينة فهي مكية مدنية هذا كلامه وتبعه على ترجيح أنها مكية القاضي البيضاوي حيث قال وقد صح أنها مكية وفي الإتيان وذكر قوم منه أي مما تكرر نزوله الفاتحة فليتأمل فإنه لا يقال ذلك إلا بناء على أنها نزلت بهما أي نزلت

بمكة ثم بالمدينة مبالغة في شرفها وقد أشار القاضي البيضاوي إلى أن تكرير نزولها ليس بمجزوم به وقيل نزل نصفها بمكة ونصفها بالمدينة قال في الإتقان والظاهر أن النصف الذي نزل بالمدينة النصف الثاني قال ولا دليل لهذا القول هذا كلامه

واستدل بعضهم على أنها مكية بأنه لا خلاف أن سورة الحجر مكية وفيها * (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) * وهي الفاتحة فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قرئ عليه الفاتحة والذي نفسي بيده ما أنزل الله تعالى في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها إنها لهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته

وقد حكى بعضهم الاتفاق على أن المراد بالسبع المثاني في آية الحجر هي الفاتحة ويرد دعوى الاتفاق قول الجلال السيوطي وقد صح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تفسير السبع المثاني في آية الحجر بالسبع الطوال

ومما يدل على أن المراد بها الفاتحة ما ذكر في سبب نزولها وهو أن عيرا لأبي جهل قدمت من الشام بمال عظيم وهي سبع قوافل ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ينظرون إليها وأكثر الصحابة بهم عرى وجوع فخطر ببال النبي صلى الله عليه وسلم شيء لحاجة أصحابه فنزل * (ولقد آتيناك) * أي أعطيناك * (سبعا من المثاني) * مكان سبع قوافل ولا تنظر إلى ما أعطيناه لأبي جهل وهو متاع الدنيا الدنية * (ولا تحزن عليهم) * أي على أصحابك * (واخفض جناحك) * له فإن تواضعك لهم أطيب لقلوبهم من ظفرهم بما تحب من أسباب الدنيا

وفي زوائد الجامع الصغير لو أن فاتحة الكتاب جعلت في كفة الميزان وجعل القرآن في الكفة الأخرى لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات وفي لفظ فاتحة الكتاب شفاء من كل داء وفي لفظ فاتحة الكتاب تعدل ثلثي القرآن فليتأمل ولها اثنان وعشرون اسما

وذكر بعضهم أن لها ثلاثين اسما وذكرها الأستاذ الشيخ أبو الحسن البكري في تفسيره الوسيط قال السهيلي ويكره أن يقال لها أم الكتاب أي لما ورد لا يقولن أحدكم أم الكتاب وليقل فاتحة الكتاب قال الحافظ السيوطي رحمه الله ولا أصل له

في شيء من كتب الحديث وإنما أخرجه ابن الضريس بهذا اللفظ عن ابن سيرين وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة تسميتها بذلك هذا كلامه ولا يخفى أنه جاء في تسمية الفاتحة ذكر المضاف تارة وهو سورة كذا وإسقاطه أخرى وتارة جوزوا الأمرين معا وهو يشكل على أن تسمية السور توقيفي

ثم رأيت في الإتيان قال قال الزركشي في البرهان ينبغي البحث عن تعداد الأسامي هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات فإن كان الثاني فيمكن الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضى اشتقاق أسمائها وهو بعيد عن هذا كلامه ويلزم القول بأنها إنما نزلت في المدينة أن مدة إقامته صلى الله عليه وسلم بمكة كان يصلي بغير الفاتحة قال في أسباب النزول وهذا مما لا تقبله العقول أي لأنه لم يحفظ أنه كان في الإسلام صلاة بغير الفاتحة أي ويدل لذلك ما رواه الشيخان لا صلاة لمن يقرأ بفاتحة الكتاب وفي رواية لا تجزى صلاة لا يقرأ فيها الرجل بفاتحة الكتاب والمراد في كل ركعة لقوله صلى الله عليه وسلم للمسيء صلواته إذا استقبلت القبلة فكبر ثم اقرأ بأمر القرآن ثم اقرأ بما شئت إلى أن قال ثم اصنع ذلك أي القراءة بأمر القرآن في كل ركعة وجاء على شرط الشيخين أم القرآن عوض عن غيرها وليس غيرها منها عوضا ويدل لذلك أيضا وصف القول بأنها إنما نزلت بالمدينة بأنه هفوة من قائله لأنه تفرد بهذا القول والعلماء على خلافه أي لأن نزولها كان بعد فترة الوحي بعد نزول * (يا أيها المدثر) * ويلزم على كونها نزلت بعد المدثر أنه صلى الله عليه وسلم صلى بغير الفاتحة في مدة فترة الوحي أي لأن المدثر نزلت بعد فترة الوحي على ما سيأتي وقد يقال لا ينافيه ما تقدم من أنه لم يحفظ أنه لم يكن في الإسلام صلاة بغير الفاتحة لجواز أن يراد صلاة من الصلوات الخمس وما تقدم مما يدل على تعيين الفاتحة في الصلاة يجوز أن يكون صدر منه صلى الله عليه وسلم بعد فرض الصلوات الخمس وفي الإمتاع إنزال الملك يبشره بالفاتحة وبالأيتين من سورة البقرة يدل على أنه نزلت بالمدينة

فقد أخرج مسلم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نغيضا أو صوتا من فوقه فرفع رأسه فقال هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم

فسلم وقال أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما من قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة هذا كلامه فليتأمل وجه الدلالة من هذا على أنه سيأتي عن الكامل للهدلي ما يصرح بأن خواتيم البقرة نزلت عليه صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء بقاب قوسين ومما يدل على أن البسمة آية منها نزولها معها أي كما في بعض الروايات وإلا فالرواية المتقدمة تدل على أنها لم تنزل معها

ويدل لكون البسمة آية من الفاتحة أيضا ما أخرجه الدارقطني وصححه والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأتم الحمد لله فاقراءوا بسم الله الرحمن الرحيم إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها

وقد أخرج الدارقطني عن علي رضي الله تعالى عنه أنه سئل عن السبع المثاني فقال الحمد لله رب العالمين فليل له إنما هي ست آيات فقال بسم الله الرحمن الرحيم آية وقيل لها السبع المثاني لأنها سبع آيات وتثنى في الصلاة وقيل المثاني كل القرآن لأنه يثنى فيه صفات المؤمنين والكفار والمنافقين وقصص الأنبياء والوعد والوعيد قال بعضهم والوجه أن يقال المراد بالسبع المثاني السبع الطوال أي كما أنها المراد بقوله تعالى * (ولقد آتيناك سبعا من المثاني) * على ما تقدم وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والسابعة يونس وقيل براءة وقيل الكهف وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم عد البسمة آية من الفاتحة وبهذا يعلم ما في تفسير البيضاوي عن أم سلمة من أنه صلى الله عليه وسلم عد بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين آية فقد ذكر بعض الحفاظ أن هذا اللفظ لم يرد عن أم سلمة والذي رواه جماعة من الحفاظ عن أم سلمة بألفاظ تدل على أن بسم الله الرحمن الرحيم آية وحدها

منها أنها ذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي في بيتها فيقرأ * (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين) * وفي رواية عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الصلوات بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والاستدلال على أن البسمة آية من الفاتحة بكونها نزلت معها يقتضى أن البسمة ليست آية من * (اقرأ باسم ربك) *

ومن ثم قال الحافظ الدميّاطي نزول اقرأ بسملة يدل على أن البسملة ليست آية من كل سورة واستدل به أي بعدم نزولها في أول سورة اقرأ أيضا كما قال الإمام النووي من يقول إن البسملة ليست بقرآن في أوائل السور أي وإنما أنزلت وكتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها وهذا القول ينسب لقول إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه في القديم هو قول قدماء الحنفية

قال وجواب المثبتين أي لقرآنيتهما في ذلك أنها نزلت في وقت آخر كما نزل باقي السورة أي سورة اقرأ

وجوابهم أيضا بأن الإجماع من الصحابة والسلف على إثباتها في مصاحفهم مع مبالغتهم في تجريدها عن كتابة غير القرآن فيها حتى إنهم لم يكتبوا أمين فيها واستدل أيضا لعدم قرآنيتهما في أوائل السور بعدم تواترها في محلها

ورد بأن عدم تواترها في محلها لا يقتضى سلب القرآنية عنها ورد هذا الرد بأن الإمام الكافيجي قال المختار عند المحققين من علماء السنة وجوب التواتر أي في القرآن في محله ووضع وترتيبه أيضا كما يجب تواتره في أصله أي وفي الفتوحات البسملة من القرآن بلا شك عند العلماء بالله وتكرارها في السورة كتكرار ما تكرر في القرآن من سائر الكلمات وهو بظاهره يؤيد ما ذهب إليه إمامنا من أنها آية من أول كل سورة ومحتمل لما قاله السهيلي حيث قال نقول إنها آية من كتاب الله مقترنة مع السورة وفي كلام أبي بكر بن العربي وزعم الشافعي أنها آية من كل سورة وما سبقه إلى هذا القول أحد فإنه لم يعدها أحد آية من سائر السور

ونقل عن إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه أنها آية من أول الفاتحة دون بقية السور فعن الربيع قال سمعت الشافعي يقول أول الحمد بسم الله الرحمن الرحيم وأول البقرة ألم قال بعضهم وهو يدل على أن البسملة آية من أول الفاتحة دون بقية السور فإنها ليست آية من أولها بل هي آية في أولها إعادة لها وتكريرا لها وربما يوافق ذلك قول الجلال السيوطي في الخصائص الصغرى وخص صلى الله عليه وسلم بالبسملة والفتحة هذا كلامه وكونه خص بالبسملة يخالف قوله في الإتقان عن الدارقطني إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبعض أصحابه لأعلمنك آية لم تنزل على نبي بعد سليمان غيري بسم الله الرحمن الرحيم كما سيأتي وسيأتي ما فيه

قيل وإنما تركت البسملة أول براءة لعدم المناسبة بين الرحمة التي تدل عليها البسملة والتبري الذي يدل عليه أول براءة ورده في الفتوحات بأنها جاءت في أوائل السور المبدوءة بويل قال وأين الرحمة من الويل

وذكر بعضهم أن الأنفال وبراءة سورة واحدة أي فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال سألت عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه لم لم يكتبوا بين براءة والأنفال سطر بسم الله الرحيم فقال كانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل بالمدينة وكانت قصتها شبيهة بالأخرى فظننت أنهما سورة واحدة

وفي كلام بعض المفسرين عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان إن الضحى وألم نشرح سورة واحدة فكانا يقرآنهما في ركعة واحدة ولا يفصلان بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم وذلك لأنهما رأيا أن أولها مشبه لقوله * (ألم يجدك يتيما) * وليس كذلك لأن تلك حال إغتمه صلى الله عليه وسلم بإيذاء الكفار فهي حال محنة وضيق وهذه حال انشراح الصدر وتطيب القلب فكيف يجتمعان هذا كلامه

وذكر أئمتنا أنه يكفي في وجوب الإتيان بالبسملة في الفاتحة في الصلاة الظن المفيد له خبر الآحاد ولعدم التواتر بذلك لا يكفر من نفى كونها آية من الفاتحة بإجماع المسلمين وقد جهر بها صلى الله عليه وسلم كما رواه جمع من الصحابة قال ابن عبد البر بلغت عدتهم أحدا وعشرين صحابيا

وأما ما رواه مسلم عن أنس قال صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فلم أسمع أحدا منهم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم أجيب عنه بأنه لم ينف إلا السماع ويجوز أنهم تركوا الجهر بها في بعض الأوقات بيانا للجواز ويؤيده قول بعضهم كانوا يخفون البسملة

وأما ما رواه البخاري وأبو داود والترمذي وغيرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر كانوا يفتتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين فمعناه بسورة الحمد لا غيرها من القرآن لا يبعد هذا الحمل ما في رواية عبد الله بن مغفل أنه قال سمعني أبي وأنا أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم فقال أي بني إياك والحدث فإني صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ومع أبي بكر وعمر فلم أسمع أحدا منهم يقوله فإذا قرأت فقل الحمد لله رب العالمين فإنه لما لم يسمع فهم أنهم لم يأتوا بها رأسا فقال ذلك وكذا

يقال
 فيما روى

كانوا لا يقرءون بسم الله الرحمن الرحيم فعلى تقدير ثبوت تلك الرواية وصحتها يجوز أن يكون الراوي فهم مما تقدم ترك البسمة فروي بالمعنى فأخطأ ومما استدل به على أن البسمة ليست آية من الفاتحة ما جاء عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تبارك وتعالى قسمت الصلاة أي الفاتحة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى حمدني عبدي وإذا قال الرحمن الرحيم قال مجدني عبدي وإذا قال مالك يوم الدين قال فوض إلي عبدي وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال هذه بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل فيقول عبدي اهدنا الصراط المستقيم إلى آخرها

قال أبو بكر بن العربي المالكي فاتنقى بذلك أن تكون بسم الله الرحمن الرحيم آية منها من وجهين أحدهما أنه لم يذكرها في القسمة والثاني أنها إن صارت في القسمة لما كانت نصفين بل يكون ما لله فيها أكثر مما للعبد لأن بسم الله ثناء على الله تعالى لا شيء للعبد فيه ثم ذكر أن التعبير بالصلاة عن الفاتحة يدل على أن الفاتحة من فروضها وأطال في ذلك وسيأتي في الحديبية أنه صلى الله عليه وسلم كان يكتب باسم اللهم موافقة للجاهلية قيل كتب ذلك في أربعة كتب وأول من كتبها أمية بن أبي الصلت فلما نزل * (بسم الله مجراها ومرساها) * كتب بسم الله ثم لما نزل * (ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) * كتب بسم الله الرحمن ثم نزلت إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم كتب بسم الله الرحمن الرحيم كذا نقل عن الشعبي أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة النمل وهذا يفيد أن البسمة لم تنزل قبل ذلك في شيء من أوائل السور ويؤيده قول السهيلي ثم كان بعد ذلك أي بعد نزل * (وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) * ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام ببسم الله الرحمن الرحيم مع كل سورة أي تمييزا لها عن غيرها وقد ثبت في سواد المصحف الإجماع من الصحابة رضي الله تعالى عنهم على ذلك هذا كلامه فليتأمل ما فيه فإنه قد يدل للقول بأن البسمة ليست من أوائل السور وإنما هي للفصل فقد علمت أن البسمة نزلت أول الفاتحة على ما في بعض الروايات ونقل أبو بكر التونسي إجماع علماء كل أمة على أن الله سبحانه وتعالى افتتح جميع كتبه ببسم الله الرحمن الرحيم

وفي الإتقان عن الدارقطني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبعض الصحابة لأعلمنك آية لم تنزل على نبي بعد سليمان غيري بسم الله الرحمن الرحيم وبهذا يعلم ما في الخصائص الصغرى أن البسملة من خصائصه صلى الله عليه وسلم وقوله صلى الله عليه وسلم على نبي بعد سليمان غيري يشكل عليه أن عيسى بين سليمان وبينه صلى الله عليه وسلم وكتابه الإنجيل وهو من جملة كتب الله المنزلة وعن النقاش أن البسملة لما نزلت سبحت الجبال فقالت قريش سحر محمد الجبال قال السهيلي إن صح ما ذكره فإنما سبحت الجبال خاصة لأن البسملة إنما نزلت على آل داود وقد كان الجبال تسبح مع داود والله أعلم

ثم لم يلبث ورقة أن توفي قال سبط ابن الجوزي وهو آخر من مات في الفترة ودفن بالحجون فلم يكن مسلما ويؤيده ما جاء في الرواية في سندها ضعف عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه مات على نصرانيته وهذا يدل على أن من أدرك النبوة وصدق بنبوته صلى الله عليه وسلم ولم يدرك الرسالة بناء على تأخرها لا يكون مسلما بل من أهل الفترة فلما توفي ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد رأيت القس يعني ورقة في الجنة وعليه ثياب حرير أي والقس بكسر القاف رئيس النصارى وبفتحها تتبع الشيء

هذا وفي القاموس القس مثلث القاف تتبع الشيء وطلبه كالتقسس وبالفتح صاحب الإبل الذي لا يفارقها ورئيس النصارى في العلم وفي رواية أبصرته في بطنان الجنة وعليه السندس وفي رواية قد رأيت عليه ثيابا بيضا وأحسبه أي أظنه لو كان من أهل النار لم تكن عليه ثياب بيض

أقول صريح الرواية الثالثة أنه لم يره في الجنة فقد تعددت الرؤية وأما الرواية الثانية فلا تخالف الرواية الأولى لأن السندس من أفراد الحرير فلا دلالة في ذلك على التعدد والله أعلم وفي رواية لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين لأنه آمن بي وصدقني أي قبل الدعوة التي هي الرسالة وحينئذ يكون معنى قوله له جنة أو جنتين هيئت له جنة أو جنتين ولا مانع أن يكون بعض أهل الفترة من أهل الجنة إذ لو كان مسلما حقيقة بأن أدرك الدعوة وصدق به لم يقل فيه صلى الله عليه وسلم وأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض وجزم ابن كثير بإسلامه

قال بعضهم وهو الراجح عند جهاذة الأئمة أي بناء على أنه أدرك الدعوة إلى الله تعالى التي هي الرسالة
ففي الإمتاع أن ورقة مات في السنة الرابعة من المبعث ويوافقه ما يأتي عن سيرة ابن
إسحاق وعن كتاب الخميس وحينئذ يكون قوله صلى الله عليه وسلم لأنه آمن بي
وصدقني واضحا لكن ينازع في ذلك قوله وأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه
ثياب بيض وسيأتي عن الذهبي ما يخالفه
ويخالفه أيضا ما تقدم عن سبط ابن الجوزي أنه من أهل الفترة وعن يحيى بن بكير قال
سألت جابر بن عبد الله يعني عن ابتداء الوحي فقال لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال جاودة بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت
عن يميني فلم أر شيئا فنظرت عن يساري فلم أر شيئا فنظرت من خلفي فلم أر شيئا
فرفعت رأسي فرأيت شيئا بين السماء والأرض أي وفي رواية فإذا الملك الذي جاءني
بحراء جالس على كرسي زاد في رواية متربعا عليه وفي لفظ على عرش بين السماء
والأرض فرعبت منه فأتيت خديجة فقلت دثروني دثروني أي وفي رواية زملوني
زملوني وصبوا على ماء باردا فدثروني وصبوا علي ماء باردا فنزلت هذه الآية * (يا أيها
المدثر) * أي الملتف بثيابه * (قم فأندر وربك فكبر) * ولم يقل بعد فأندر وبشر لأنه
كما بعث بالندارة بعث بالبشارة لأن البشارة إنما تكون لمن آمن ولم يكن أحد آمن
قبل وهذا يدل على أن هذه الآية أول ما نزل أي قبل اقرأ وأن النبوة والرسالة مقترنان
قال الإمام النووي والقول بأن أول ما نزل * (يا أيها المدثر) * ضعيف باطل وإنما نزلت
بعد فترة الوحي أي ومما يدل على ذلك قوله فإذا الملك الذي جاءني بحراء ومما يدل
على ذلك أيضا ما في البخاري أن في رواية جابر أنه صلى الله عليه وسلم حدث عن
فترة الوحي أي لا عن ابتداء الوحي فما تقدم من قول بعضهم يعني عن ابتداء الوحي فيه
نظر وكذا في قول الراوي عن جابر جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت لأن
جواره بحراء كان قبل فترة الوحي إلا أن يقال جابر جاء عنه روايتان واحدة في ابتداء
الوحي وأخرى في فترة الوحي وبعض الرواة خلط فإن صدر الرواية يدل على أن ذلك
كان عند ابتداء الوحي وعجزها يدل على أن ذلك كان في فترة الوحي

هذا ويجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم جاور بحراء في مدة فترة الوحي ويؤيد ذلك ما في البيهقي عن مرسل عبيد بن عمير أنه صلى الله عليه وسلم كان يجاور في كل سنة شهراً وهو رمضان وكان ذلك في مدة فترة الوحي وسيأتي الجمع بين الروايات في أول ما نزل وعن إسماعيل بن أبي حكيم مولى الزبير أنه حدث عن خديجة رضي الله تعالى عنها أنه قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك قال نعم أي وذلك قبل أن يأتيه بالقرآن أي بشيء منه وهو * (اقرأ باسم ربك) * بناء على أنه أول ما نزل ولا ينافي ذلك قولها هذا الذي يأتيك إذا جاءك لأن المعنى الذي يتراءى لك إذا رأيته فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم يا خديجة هذا جبريل قد جاءني أي قد رأيته لكن سيأتي عن ابن حجر الهيتمي أن ذلك كان بعد البعثة قالت قم يا ابن عمي فاجلس على فخذي فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذهما قالت هل تراه قال نعم قالت فتحول فاجلس في حجري فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس في حجرها قالت هل تراه قال نعم فألقت خمارها و رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في حجرها ثم قالت هل تراه قال لا قالت يا ابن عمي أثبت وأبشر فوالله إنه لملك ما هذا بشيطان وإلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله

* وأتاه في بيتها جبرئيل

* ولذي اللب في الأمور ارتياء

* فأماطت عنها الخمار لتدرى

* أهو الوحي أم هو الإغماء

* فاختمى عند كشفها الرأس حبري

* ل فما عاد أو أعيد الغطاء

* فاستبان خديجة أنه الكن

* ز الذي حاولته والكيمياء

*

أي وأتاه قال ابن حجر أي بعد البعثة أي النبوة واجتماعه به في بيتها حامل الوحي جبريل ولصاحب العقل الكامل في الأحوال التي قد تشبهه استبصار فبسبب كمال استبصارها أزالته عن رأسها ما يغطي به الرأس لتعلم عين اليقين أن هذا الذي يعرض له صلى الله عليه وسلم هل هو حامل الوحي الذي كان يأتي به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله أو هو الإغماء الذي هو بعض الأمراض الجائزة عليهم الصلاة والسلام

وفيه أنه ينبغي أن يكون المراد به الإغماء الناشئ عن لمة الجن فيكون من الكهان لا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذي قال بسببه لخديجة لقد خشيت على نفسي وسيأتي

(ξ · e)

أنه كان يعتريه وهو بمكة قبل أن ينزل عليه القرآن ما كان يعتريه عند نزول الوحي عليه أي من الإغماء إلى آخره فبسبب إزالتها ما تغطي به رأسها عنها اختفى فلم يعد إلى أن أعادت غطاء رأسها عليه فاستبان علم اليقين أن ما يعرض له صلى الله عليه وسلم هو الوحي أي لا الجنى لأن الملك لا يرى الرأس المكشوف من المرأة بخلاف الجنى وشبه الناظم ذلك بالشيء النفيس والأمر العظيم لأن كلا من الكنز والكيمياء لا يظفر به إلا القليل من الناس لعزتهما

أقول وفي الخصائص الكبرى ما يدل لما قلناه من أن أول ما فعلته خديجة كان عند ترائيه له صلى الله عليه وسلم وقبل اجتماعه به

وقول بعضهم إن ذلك من خديجة كان بإرشاد من ورقة فإنه قال لها اذهبي إلى المكان الذي رأى فيه ما رأى فإذا رآه فتحسري فإن لم يكن من عند الله لا يراه أي فترأى له وهو في بيت خديجة ففعلت قالت فلما تحسرت تغيب جبريل فلم يره فرجعت فأخبرت ورقة فقال إنه ليأتيه الناموس الأكبر

وفي فتح الباري أن في سيرة ابن إسحاق أن ورقة كان يمر ببلال رضي الله تعالى عنه وهو يعذب وذلك يقتضى أنه تأخر إلى زمن الدعوة وإلى أن دخل بعض الناس في الإسلام أي وفي كلام صاحب كتاب الخميس في الصحيحين أن الوحي تتابع في حياة ورقة وأنه آمن به وتقدم أنه الموافق لما في الإمتاع من أنه مات في السنة الرابعة من البعثة وتقدم أنه مخالف لما تقدم عن سبط ابن الجوزي ومخالف أيضا لقول الذهبي الأظهر أنه مات بعد النبوة وقبل الرسالة أي بناء على تأخرها ويدل لتأخرها ما تقدم من قول ورقة يا ليتني فيها جذع فقد تقدم أن المراد يا ليتني أكون في زمن الدعوة أي ومن أدرك النبوة ولم يدرك البعثة لا يكون مسلما بل هو كما تقدم من أهل الفترة لأن الإيمان النافع عند الله تعالى الذي يصير به الشخص مستحقا لدخول الجنة ناجيا من الخلود في النار التصديق بالقلب بما علم بالضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم أي بما أرسل به وإن لم يقر بالشهادتين مع التمكن من ذلك حيث لم يطلب منه ذلك ويمتنع

وقيل لا بد مع ذلك من الإقرار بالشهادتين للتمكن من وحيث أدرك الرسالة فقد أسلم وحينئذ يكون صحابيا

ونقل بعضهم عن الحافظ ابن حجر أنه في الإصابة تردد في ثبوت الصحبة لورقة بن نوفل قال لكن المفهوم من كلامه في شرح النخبة ثبوتها وأنه يفرق بينه وبين بحيرا بأن ورقة أدرك البعثة وأنه لم يدرك الدعوة بخلاف بحيرا وهو ظاهر والتعريف السابق يشمل هذا كلامه

وتعريفه السابق للصحابي هو من اجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم مؤمنا وعبارة شرح النخبة هل يخرج أي من تعريف الصحابي من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنا به من لقيه مؤمنا بأنه سيبعث ولم يدرك البعثة محل نظر ولا يخفى عليك أن ما في شرح النخبة لا يدل لهذا البعض على أنه تقدم أن ابن حجر في الإصابة قال في بحيرا ما أدري أدرك البعثة أم لا

ولا يخفى عليك أن ما تقدم عن ابن حجر من أن ورقة أدرك البعثة وأنه لم يدرك الدعوة فإنه يقتضى أن البعثة عبارة عن النبوة لا عن الرسالة وأن الرسالة هي الدعوة لا البعثة وروى ابن إسحاق عن شيوخه أنه صلى الله عليه وسلم كان يرقى من العين وهو بمكة قبل أن ينزل عليه القرآن فلما نزل عليه القرآن أصابه نحو ما كان يصيبه قبل ذلك هذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يصيبه قبل نزول القرآن ما يشبه الإغماء بعد حصول الرعدة وتغميض عينيه وتردد وجهه ويغط كغطيط البكر فقالت له خديجة أوجه إليك من يرقىك قال أما الآن فلا ولم أقف على من كان يرقيه ولا على ما كان يرقى به واشتهر على بعض الألسنة أن آمنة يعنى أمه صلى الله عليه وسلم رقت النبي من العين ولعل مستند ذلك ما تقدم عن أمه أنها لما كانت حاملا به جاءها الملك وقال لها قولي إذا ولدته أعينه بالواحد من شر كل حاسد والظاهر أنها قالت ذلك وعن أسماء بنت عميس رضي الله تعالى عنها أنها قالت يا رسول الله إن ابني جعفر أي ولديها من جعفر بن أبي طالب تصيبهما العين أفنسترقى لهما قال نعم لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين

فإن قيل بهذه الأمور علم صلى الله عليه وسلم أن جبريل ملك لا جنى فمن أين علم أنه يتكلم عن الله تعالى أجيب بأنه على تسليم أن قول ورقة المذكور وما تقدم عنه لا يفيد العلم فقد يقال خلق الله تعالى فيه صلى الله عليه وسلم علما ضروريا بعد ذلك علم به أنه

جبريل وأنه يتكلم عن الله تعالى كما خلق في جبريل علما ضروريا بأن الموحى إليه هو الله

وقد ذكر بعض المفسرين أنه صلى الله عليه وسلم كان له عدو من شياطين الجن يقال له الأبيض كان يأتيه في صورة جبريل واعترض بأنه يلزم عليه عدم الوثوق بالوحي وأجيب عنه بمثل ما هنا وهو أن الله تعالى جعل في النبي صلى الله عليه وسلم علما ضروريا يميز به بين جبريل عليه السلام وبين هذا الشيطان ولعل هذا الشيطان غير قرينه الذي أسلم

وفي كلام ابن العماد وشيطان الأنبياء يسمى الأبيض والأنبياء معصومون منه وهذا الشيطان هو الذي أغوى به برصيصة الراهب العابد بعد عبادته خمسمائة سنة وهو المعنى بقوله تعالى * (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك) * هذا كلامه والله أعلم

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كان من الأنبياء من يسمع الصوت أي ولا يرى مصوتا فيكون بذلك نبيا قال بعضهم يحتمل أن يكون صوتا خلقه الله تعالى في الجو أي ليس من جنس الكلام وخلق لذلك النبي فهم المراد منه عند سماعه

ويحتمل أن يكون من جنس الكلام المعهود يتضمن كون ذلك الشخص صار نبيا قال صلى الله عليه وسلم وإن جبريل يأتيني فيكلمني كما يأتي أحدكم صاحبه فيكلمه ويصره من غير حجاب أي وفي رواية كنت أراه أحيانا كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغراب

ولا يخفى أن هاتين الحالتين كل منهما حالة من حالات الوحي وحينئذ إما أن يكون جبريل عليه السلام على صورة دحية الكلبي وهو بكسر الدال المهملة على المشهور وحكى فتحها أو على صورة غيره ومنه ما وقع في حديث عمر رضي الله تعالى عنه بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد الحديث ورواية البخاري تدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يعرفه إلا في آخر الأمر وورد ما جاءني يعني جبريل في صورة لم أعرفها إلا في هذه المرة

وفي صحيح ابن حبان والذي نفسي بيده ما اشتبه على منذ أتاني قبل مرته هذه وما عرفته حتى ولى وبهذا يعلم ما في كلام الإمام السبكي حيث قسم الوحي إلى ثلاثة أقسام حيث قال في تائيته

* ولازمك الناموس إما بشكله

* وإما بنفث أو بحلية دحية

* فليتأمل قيل وكان إذا أتاه على صورة الآدمي يأتيه بالوعد والبشارة

فإن قيل إذا جاء جبريل عليه السلام على صورة الآدمي دحية أو غيره هل هي الروح تتشكل بذلك الشكل وعليه هل يصير جسده الأصلي حيا من غير روح أو يصير ميتا أوجب بأن الجائي يجوز أن لا يكون هو الروح بل الجسد لأنه يجوز أن الله تعالى جعل في الملائكة قدرة على التطور والتشكل بأي شكل أرادوه كالجن فيكون الجسد واحدا ومن ثم قال الحافظ ابن حجر إن تمثل الملك رجلا ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلا بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيسا لم يخاطبه والظاهر أن القدر الزائد لا يزول ولا يفنى بل يخفى على الرائي فقط

وأخذ من ذلك بعض غلاة الشيعة أنه لا مانع ولا بعد أن الحق سبحانه وتعالى يظهر في صورة علي رضي الله تعالى عنه وأولاده أي الأئمة الإثني عشر وهم الحسن والحسين وابن الحسين زين العابدين وابنه محمد الباقر وابن محمد الباقر جعفر الصادق وابن جعفر الصادق موسى الكاظم وابن موسى الكاظم علي الرضا وابن علي الرضا محمد الجواد وابن محمد الجواد علي التقي والحادي عشر حسن العسكري والثاني عشر ولد حسن العسكري وهو المهدي صاحب الزمان وهو حي باق إلى أن يجتمع بسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام على ما فيه فقد قال عبد الله بن سبأ يوما لعلي رضي الله تعالى عنه أنت يعني أنت الإله فنفاه علي إلى المدائن وقال لا تساكني في بلد أبدا وكان عبد الله بن سبأ هذا يهوديا كان من أهل صنعاء وأمه يهودية سوداء ومن ثم كان يقال له ابن السوداء وكان أول من أظهر سب الشيخين ونسبهما للإفتيات على سيدنا علي رضي الله تعالى عنه

ولما قيل لسيدنا علي لولا أنك تضرر ما أعلن به هذا ما اجترأ على ذلك فقال علي معاذ الله أنى أضمر لهما ذلك لعن الله من أضمر لهما إلا الحسن الجميل فأرسل إلى ابن سبأ فأظهر الإسلام في أول خلافة عثمان وقيل في أول خلافة عمر وكان قصده بإظهار الإسلام بوار الإسلام وخذلان أهله

وكان يقول قبل إظهاره الإسلام في يوشع بن نون بمثل ما قال في علي وكان يقول في علي إنه حي لم يقتل وإن فيه الجزء الإلهي وإنه يحيى في السحاب والرعد صوته والبرق سوطه وإنه ينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلا كما ملئت جورا وظلما وعبد الله هذا كان يظهر أمر الرجعة أي أنه صلى الله عليه وسلم يرجع إلى الدنيا كما يرجع عيسى وكان يقول العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع إلى الدنيا ويكذب برجعة محمد وقد قال الله تعالى * (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) * فمحمد أحق بالرجوع من عيسى وأظهر أمر الوصية أي أن عليا رضي الله تعالى عنه أوصى له صلى الله عليه وسلم بالخلافة وكان هو السبب في إثارة الفتنة التي قتل فيها عثمان رضي الله تعالى عنه كما سيأتي

ومن غلاة الشيعة من قال بألوهية أصحاب الكساء الخمسة محمد صلى الله عليه وسلم وعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم ومنهم من قال بألوهية جعفر الصادق وألوهية آباءه وهم الحسين وابنه زين العابدين وابن زين العابدين محمد الباقر وهؤلاء الشيعة موافقون في ذلك لمن يقول بالحلول وهم الحلاجية أصحاب حسين بن منصور الحلاج كانوا إذا رأوا صورة جميلة زعموا أن معبودهم حل فيها

وممن زعم الحلول حتى ادعى الألوهية المقنع عطاء الخراساني وذلك في سنة ثلاث وستين ومائة ادعى أن الله عز وجل في صورة آدم ثم في صورة نوح ثم إلى أن حل في صورته هو فاقنتن به خلق كثير بسبب التمويهات التي أظهرها لهم فإنه كان يعرف شيئا من السحر والنيرنجيات فقد أظهر قمرا يراه الناس من مسافة شهرين من موضعه ثم يغيب ولما اشتهر أمره ثار عليه الناس وقصدوه ليقتلوه وجاءوا إلى القعلة التي كان متحصنا بها فلما علم ذلك أسقى أهله سما فماتوا ومات ودخل الناس تلك القعلة فقتلوا من بقي حيا بها من أتباعه

والقول بالاتحاد كفر فقد قال العز بن عبد السلام من زعم أن الإله يحل في شيء من أجسام الناس أو غيرهم فهو كافر وأشار إلى أنه كافر إجماعا من غير خلاف وأنه لا يجرى فيه الخلاف الذي جرى في تكفير المجسمة ومن ثم ذكر القاضي عياض في الشفاء أن من ادعى حلول الباري في أحد الأشخاص كان كافرا بإجماع المسلمين

وقول بعض العارفين وهو أبو يزيد البسطامي سبحانه ما أعظم شأنه وقوله * (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) * وقوله وأنا ربي الأعلى وقوله أنا الحق وهو أنا وأنا هو ليس من دعوى الحلول في شيء وإنما قوله سبحانه إني أنا الله محمول على الحكاية أي قال ذلك على لسان الحق من باب حديث إن الله تعالى قال على لسان عبده سمع الله لمن حمده وقوله أنا ربي الأعلى وأنا الحق الخ إنما قال ذلك لأنه انتهى سلوكه إلى الله تعالى بحيث استغرق في بحر التوحيد بحيث غاب عن كل ما سواه سبحانه وصار لا يرى في الوجود غيره سبحانه وتعالى الذي هو مقام الفناء ومحو النفس وتسليم الأمر كله له تعالى وترك الإرادة منه والاختيار فالعارف إذا إلى هذا المقام وصل ربما قصرت عبارته عن بيان ذلك الحال الذي نازله فصدرت عنه تلك العبارة الموهمة للحلول

وقد اصطالحوا على تسمية هذا المقام الذي هو مقام الفناء بالاتحاد ولا مشاحة في الاصطلاح لأنه اتحد مراده بمراد محبوبه فصار المرادان واحدا لفناء إرادة المحب في مراد المحبوب فقد فنى عن هوى نفسه وحظوظها فصار لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يوالى إلا لله ولا يعادي إلا لله ولا يعطى إلا لله ولا يمنع إلا لله ولا يرجو إلا لله ولا يستعين إلا بالله فيكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وفي كلام سيدي علي رضي الله تعالى عنه حيث أطلق القول بالاتحاد في كلام القوم في الصوفية فمرادهم فناء مرادهم في مراد الحق جل وعلا كما يقول بين فلان وفلان اتحاد إذا عمل كل منهما على وفق مراد الآخر * (ولله المثل الأعلى) * هذا كلامه رضي الله تعالى عنه ورضى عنا به وهذا مقام غير مقام الوحدة المطلقة الخارجة عن دائرة العقل التي ذكر السعد والسيد أن القول بها باطل وضلال أي لأنه يلزم عليها القول بالجمع بين الضدين

فقد قال بعض العلماء حضرة الجمع عبارة عن شهود اجتماع الرب والعبد في حال فناء العبد فيكون موجودا في آن واحد ولا يدرك ذلك إلا من أشهده الله بالجمع بين الضدين ومن لم يشهد ذلك أنكره ويجوز أن يكون الجسد للملك متعددا وعليه فمن الممكن أن يجعل الله لروح الملك قوة يقدر بها على التصرف في جسد آخر غير جسدها المعهود مع تصرفها في ذلك الجسد المعهود كما هو شأن الأبدال لأنهم يرحلون إلى مكان ويطبقون في مكانهم شيئا آخر مشبها لشبههم الأصلي بدلا عنه

وقد ذكر ابن السبكي في الطبقات أن كرامات الأولياء أنواع وعد منها أن يكون لهم أجساد متعددة قال وهذا الذي تسميه الصوفية بعالم المثل ومنه قصة قضيب البان وغيره أي كواقعة الشيخ عبد القادر الطحطوطي نفعا الله تعالى به فقد ذكر الجلال السيوطي رحمه الله تعالى أنه رفع إليه سؤال في رجل حلف بالطلاق أن ولي الله الشيخ عبد القادر الطحطوطي بات عنده ليلة كذا فحلف آخر بالطلاق أنه بات عنده تلك الليلة بعينها فهل يقع الطلاق على أحدهما قال فأرسلت قاصدي إلى الشيخ عبد القادر فسأله عن ذلك فقال ولو قال أربعة إني بت عندهم لصدقوا فأفنت أنه لا حث على واحد منهما لأن تعدد الصور بالتخييل والتشكل ممكن كما يقع ذلك للجان

وقد قيل في الأبدال إنهم إنما سموا أبدالا لأنهم قد يرحلون إلى مكان و يقيمون في مكانهم الأول شبحا آخر شبيها بشبهم الأصلي بدلا عنه ويقال عالم المثل كما تقدم فهو عالم متوسط بين عالم الأجساد وعالم الأرواح فهو الطف من عالم الأجساد وأكثر من عالم الأرواح فالأرواح تتجسد وتظهر في صور مختلفة من عالم المثل قال وهذا الجواب أولى مما تكلفه بعضهم في الجواب عن جبريل بأنه كان يندمج بعضه في بعض أي الذي أجاب به الحافظ ابن حجر

ومما يدل على وجود المثل رؤيته صلى الله عليه وسلم للجنة والنار في عرض الحائط وقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى * (لولا أن رأى برهان ربه) * بأنه مثل له يعقوب بمصر وهو بالشام

ومن ذلك ما اشتهر أن الكعبة شوهدت تطوف ببعض أولياء في غير مكانها وممن وقع له ذلك أبو يزيد البسطامي والشيخ عبد القادر الجيلي والشيخ إبراهيم المتبولي نفعا الله تعالى ببركاتهم ولعل مجيء جبريل على صورة دحية كان في المدينة بعد إسلام دحية وإسلامه كان بعد بدر فإنه لم يشهدها وشهد المشاهد بعدها إذ يبعد مجيئه على صورة دحية قبل إسلامه

قال الشيخ الأكبر رضي الله تعالى عنه دحية الكلبى كان أجمل أهل زمانه وأحسنهم صورة فكان الغرض من نزول جبريل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في صورته إعلاما من الله تعالى أنه ما بيني وبينك يا محمد سفير إلا صورة الحسن والجمال وهي التي لك عندي فيكون ذلك بشرى له ولا سيما إذا أتى بأمر الوعيد والزجر فتكون

تلك الصورة الجميلة تسكن منه ما يحركه ذلك الوعيد والزجر هذا كلامه وهو واضح لو كان لا يأتيه إلا على تلك الصورة الجميلة إلا أن يدعى أن من حين أتاه على صورة دحية لم يأتيه على صورة آدمي غيره وتكون واقعة سيدنا عمر سابقة على ذلك لكن تقدم أنه كان إذا أتاه على صورة الآدمي يأتيه بالوعد والبشارة أي لا بالوعيد والزجر فليتأمل

وفي البرهان للزركشي في التنزيل أي تلقى القرآن طريقان أحدهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه من جبريل أي لأن الأنبياء يحصل لهم الإنسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة الإلهية من غير اكتساب فيما هو أقرب من لمح البصر والثاني أن الملك من الملكية البشرية إلى حتى أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم منه هذا كلامه والراجح أن المنزل اللفظ والمعنى تلقفه جبريل من الله تعالى تلقفا روحانيا أو أن الله تعالى خلق تلك الألفاظ أي الأصوات الدالة عليها في الجو وأسمعها جبريل وخلق فيه علما ضروريا أنها دالة على ذلك المعنى القديم القائم بذاته تعالى وأوحاه إليه صلى الله عليه وسلم كذلك أو حفظه جبريل من اللوح المحفوظ ونزل به واعلم أن من حالات الوحي النفث أي أنه كان ينفث في روعه الكلام نفثا قال صلى الله عليه وسلم إن روح القدس أي المخلوق من الطهارة يعني جبريل نفث أي ألقى والنفث في الأصل النفخ اللطيف الذي لا ريق معه في روعي بضم الراء أي قلبي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها ورزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب أي عاملوا بالجميل في طلبكم وتتمته ولا يحملنكم إستبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله أي كالكذب فإن ما عند الله لن ينال إلا بطاعته

وفي كلام ابن عطاء الله الإجمال في الطلب يحتمل وجوها كثيرة منها أن لا يطلبه مكبا عليه مشتغلا عن الله تعالى به ومنها أن يطلبه من الله تعالى ولا يعين قدرا ولا وقتا لأن من طلب وعين قدرا أو وقتا فقد تحكّم على ربه وأحاطت الغفلة بقلبه ومنها أن يطلب وهو شاكر لله إن أعطى وشاهد حسن اختياره إذا منع ومنها أن يطلب من الله تعالى ما فيه رضاه ولا يطلب ما فيه حظوظ دنياه

ومنها أن يطلب ولا يستعجل الإجابة وفي حديث ضعيف اطلبوا الحوائج بعزة النفس
فإن الأمور تجرى بالمقادير
ومن حالات الوحي أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس وهي أشد الأحوال عليه صلى
الله عليه وسلم أي لما قيل إنه كان يأتيه في هذه الحالة بالوعيد والندارة
أقول روى الشيخان عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن الحارث بن هشام رضي الله
تعالى عنه وهو أخو أبو جهل لأبويه وكان يضرب به المثل في السوود حتى قال الشاعر
* أحسبت أن أباك حين تسبني
* في المجد كان الحارث بن هشام
* أولى قریش بالمكارم والندی
* في الجاهلية كان والإسلام
*

أسلم يوم الفتح وسيأتي أنه استجار في ذلك اليوم بأم هانئ أخت علي بن أبي طالب
وأراد علي قتله فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال قد أجرنا من أجرت يا أم
هانئ وحسن إسلامه وشهد حيننا وكان من المؤلفة كما سيأتي سأل رسول الله صلى
الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي أي حامله الذي هو جبريل قال أحيانا يأتيني مثل
صلصلة الجرس وهو أشده علي فيقضم بالفاء أي يقلع عني وقد وعيت ما قال وفي
رواية يأتيني أحيانا له صلصلة كصلصلة الجرس وأحيانا يتمثل لي الملك الذي هو حامل
الوحي رجلا أي يتصور بصورة الرجل وفي رواية في صورة الفتى فيكلمني فأعي ما
يقول وروى أنه في الحالة الثانية ينفلت منه ما يعيه بخلاف الحالة الأولى
ونص هذا الرواية كان الوحي يأتيني علي نحوين يأتيني جبريل فيلقيه علي كما يلقي
الرجل على الرجل فذلك ينفلت مني ويأتيني في شيء مثل صوت الجرس حتى يخالط
قلبي فذاك الذي لا ينفلت مني
قيل وإنما كان ينفلت منه في الحالة الأولى لشدة تأنسه بحامله لأنه يأتي إليه في صورة
يعهدا ويخاطبه بلسان يعهده فلا يثبت فيما ألقى إليه بخلافه في الحالة الثانية لأن
سماع مثل هذا الصوت الذي يفرع منه القلب مع عدم رؤية أحد يخاطبه إذا علم أنه
وحي واضطر إلى التثبيت في ذلك وقولنا أي حامله يخالف قول الحافظ ابن حجر
حيث ذكر أن قوله مثل صلصلة الجرس بين بها صفة الوحي لا صفة حامله
وفيه أن ذلك لا يناسب قوله وقد وعيت ما قال وقول بعضهم الصلصلة المذكورة

هي صوت الملك بالوحي وقوله يأتيني أحيانا له كصلصلة الجرس وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا وكان صلى الله عليه وسلم يجد ثقلا عند نزول الوحي ويتحدر جبينه عرقا في البرد كأنه الحمان وربما غط كغطيط البكر محمرة عيناه وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه كان إذا نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقل لذلك ومرة وقع فخذه على فخذي فوالله ما وجدت شيئا أثقل من فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما أوحى إليه وهو على راحلته فترعد حتى يظن أن ذراعها ينفصم وربما بركت أي وجاء أنه لما نزلت سورة المائدة عليه صلى الله عليه وسلم كان على ناقته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها وفي رواية فاندق كتف راحلته العضباء من ثقل السورة ولا يخالفه ما قبله لأنه جاز أن يكون حصل لها ذلك فكان سببا لنزوله ثم رأيت في رواية ما يصرح بذلك وجاء ما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسي تقبض منه وعن أسماء بنت عميس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي يكاد يغشى عليه وفي رواية يصير كهيئة السكران أقول أي يقرب من حال المغشى عليه لتغيره عن حالته المعهودة تغيرا شديدا حتى تصير صورته صورة السكران أي مع بقاء عقله وتمييزه ولا ينافي ذلك قول بعضهم ذكر العلماء أنه صلى الله عليه وسلم كان يؤخذ عن الدنيا لأنه يجوز أن يكون مع ذلك على عقله وتمييزه على خلاف العادة وهذا هو اللائق بمقامه صلى الله عليه وسلم وحينئذ لا ينتقض وضوؤه ثم رأيت صاحب الوفاء قال فإن قال قائل ما كان يجرى عليه صلى الله عليه وسلم من البرحاء حين نزول الوحي هل ينتقض وضوؤه والجواب لا لأنه صلى الله عليه وسلم كان محفوظا في منامه تنام عيناه ولا ينام قلبه فإن كان النوم الذي يسقط فيه الوكاء لا ينقض وضوؤه فالحالة التي أكرم فيها بالمسارة وإلقاء الهدى إلى قلبه أولى لكون طباعه فيها معصومة من الأذى هذا كلامه وما ذكرناه أولى لما تقرر أن الإغماء أبلغ من النوم فليتأمل وفي كلام الشيخ محيي الدين ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم وجميع من يأتيه الوحي

من الأنبياء كان إذا جاءه الوحي يستلقى على ظهره حيث قال سبب اضطجاع الأنبياء على ظهورهم عند نزول الوحي إليهم أن الوارد الإلهي الذي هو صفة القيومية إذا جاءهم اشتغل الروح الإنساني عن تدبيره فلم يبق للجسم من يحفظ عليه قيامه ولا قعوده فرجع إلى أصله وهو لصوقه بالأرض

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي صدع فيغلف رأسه بالحناء قيل وهو محمل قول بعض الصحابة إنه صلى الله عليه وسلم كان يخضب بالحناء وإلا فهو عليه الصلاة والسلام لم يخضب لأنه لم يبلغ سنا يخضب فيه

وفيه أنه أمر بالخضاب للشباب فقد جاء اختضبوا بالحناء فإنه يزيد في شبابكم وجمالكم ونكاحكم وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي لم يستطع أحد منا يرفع طرفه إليه حتى ينقضي الوحي وفي لفظ كان إذا نزل عليه صلى الله عليه وسلم الوحي استقبلته الرعدة وفي رواية كرب لذلك وتربد له وجهه وغمض عينيه وربما غط كغطيط البكر

وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه كان إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم السورة الشديدة أخذه من الشدة والكرب على قدر شدة السورة وإذا أنزل عليه السورة اللينة أصابه من ذلك على قدر لينها

وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كان إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي يسمع عند وجهه كدوى النحل

وذكر الحافظ ابن حجر أن دوى النحل لا يعارض صلصلة الجرس أي المتقدم ذكرها لأن سماع الدوى بالنسبة للحاضرين والصلصلة بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فالراوي شبه بدوي النحل والنبي صلى الله عليه وسلم شبه بصلصلة الجرس أي فالمراد بهما شيء واحد والله أعلم

ومن حالاته أي حالات الوحي أي حامله أنه كان يأتيه على صورته التي خلقه الله تعالى عليها له ستمائة جناح

أقول فيوحي إليه في تلك الحالة كما هو المتبادر وفيه أنه جاء عن عائشة وابن مسعود رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير جبريل على صورته التي خلقه الله

عليها إلا مرتين حين سأله أن يريه نفسه فقال وددت أني رأيتك في صورتك أي وذلك بحراء أوائل البعثة بعد فترة الوحي بالأفق الأعلى من الأرض وهذه المرة هي المعنية بقوله تعالى * (ولقد رآه بالأفق المبين) * وبقوله تعالى * (فاستوى وهو بالأفق الأعلى) * طلع جبريل من المشرق فسد الأفق إلى المغرب فخر النبي صلى الله عليه وسلم مغشياً عليه فنزل جبريل عليه السلام في صورة الأدميين وضمه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه الحديث والأخرى ليلة الإسراء المعنية بقوله تعالى * (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى) * وسيأتي الكلام على ذلك

وفي الخصائص الصغرى خص صلى الله عليه وسلم برؤيته جبريل في صورته التي خلقه الله عليها أي لم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا نبينا صلى الله عليه وسلم وذكر السهيلي أن المراد بالأجنحة في حق الملائكة صفة الملكية وقوة روحانية وليست كأجنحة الطير ولا ينافي ذلك وصف كل جناح منها بأنه يسد ما بين المشرق والمغرب هذا كلامه فليتأمل

ولعله لا ينافيه ما تقدم عن الحافظ ابن حجر من أن تمثل الملك رجلا ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلا بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيسا لمن يخاطبه والظاهر أن القدر الزائد لا يزول ولا يفنى بل يخفى على الرائي فقط والله أعلم ومن حالات الوحي أي نفسه أي الموحى به لا حامله الذي هو جبريل أن الله تعالى أوحى إليه صلى الله عليه وسلم بلا وساطة ملك بل من وراء حجاب يقظة أو من غير حجاب بل كفاحا وذلك ليلة المعراج واسم الإشارة يحتمل أن يكون لنوعين وقع كل منهما ليلة الإسراء

ويحتمل أن يكون نوعا واحدا وأن الأول بناء على القول بعدم الرؤية والثاني بناء على القول بالرؤية وحينئذ لا يناسب عد ذلك نوعين كما فعل الشامي ومن ثم نسب ابن القيم هذا النوع الثاني لبعضهم كالمتهرب منه حيث قال وقد زاد بعضهم مرتبة ثانية وهي تكليم الله تعالى له صلى الله عليه وسلم كفاحا بغير حجاب هذا كلامه لأن ابن القيم ممن لا يقول بوجود الرؤية فما زاده بعضهم بناء على القول بوجود الرؤية كما علمت وحينئذ يكون هذا ليلة المعراج وعلى هذا جاء قوله تعالى * (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا) *

وقول ابن القيم السادسة أي من حالات الوحي ما أوحاه الله تعالى إليه وهو فوق السماوات من فرض الصلوات وغيرها لأن ذلك إنما هو ليلة المعراج بغير واسطة ملك وهذا يحتمل لأن يكون من غير حجاب وأن يكون من وراء الحجاب فهي لم تخرج عما تقدم

وكذا قوله السابعة أي من حالات الوحي كلام الله تعالى منه إليه بلا واسطة ملك كما كلم موسى أي من وراء حجاب فهي لم تخرج عما تقدم وحينئذ يكون كلمه صلى الله عليه وسلم في ليلة المعراج بواسطة الملك وكلمه بغير واسطة الملك من وراء حجاب ومشافهة من غير حجاب وصاحب المواهب نقل عن الولي العراقي كلاما فيه الاعتراض على ابن القيم بغير ما ذكر والجواب عنه وأقره مع ما في ذلك الكلام من النظر الظاهر الذي لا يكاد يخفى والله أعلم

قال الحافظ السيوطي وليس في القرآن من هذا النوع أي مما شافهه به الحق تعالى من غير حجاب شيء فيما أعلم

نعم يمكن أن يعد منه آخر سورة البقرة أي آمن الرسول إلى آخر الآيات لأنها نزلت كما في الكامل للذهلي بقاب قوسين

وروى الديلمي قيل يا رسول الله أي آية في كتاب الله تحب أن تصيبك وأمتك قال آخر سورة البقرة فإنها من كنز الرحمن من تحت العرش ولم تترك خيرا في الدنيا والآخرة إلا اشتملت عليه ولعل هذا لا يعارض ما جاء في فضل آية الكرسي من قوله صلى الله عليه وسلم وقد قيل له يا رسول الله أي آية في كتاب الله تعالى أعظم قال آية الكرسي أعظم وما جاء عن الحسن رضي الله تعالى عنه مرسلا أفضل القرآن البقرة وأفضل آية الكرسي وفي رواية أعظم آية فيها آية الكرسي وفي الجامع الصغير آية الكرسي ربع القرآن

ونزل في ذلك الموطن الذي هو قاب قوسين بعض سورة الضحى وبعض سورة ألم نشرح قال صلى الله عليه وسلم سألت ربي مسألة وودت أني لم أكن سألته سألت ربي اتخذت إبراهيم خليلا وكلمت موسى تكليما فقال يا محمد ألم أجذك يتيما فأويتك وضالا فهديتك وعائلا فأغنيتك وشرحت لك صدرك ووضعت عنك وزرك ورفعت لك ذكرك فلا أذكر إلا وتذكر معي انتهى

أقول قد يقال لا يلزم من النزول في قاب قوسين أن يكون مشافهة من غير حجاب وقوله فقال يا محمد ألم أجذك إلى آخره ليس هذا نص التلاوة وإن هذا ظاهر في أن المتلو الدال على ما ذكر نزل قبل ذلك وأن هذا تذكير به والله أعلم

ومن حالات الوحي أنه أوحى إليه بلا واسطة ملك مناما كما في حديث معاذ أتاني ربي وفي لفظ رأيت ربي في أحسن صورة أي خلقة فقال فيما يختصم الملائكة الأعلى يا محمد قلت أنت أعلم أي رب فوضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي فعلمت ما في السماء والأرض أي وفي كلام الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه فهذا علم حاصل لا عن قوة من القوى الحسية أو المعنوية وهذا لا يبعد أن يقع مثله للأولياء بطريق الإرث أي تجلي له الحق بالتجلي الخاص الذي ما ذكر عبارة عنه وفي رواية فعلمت علم الأولين والآخرين أي ومن حالات الوحي رؤيا النوم قال صلى الله عليه وسلم رؤيا الأنبياء وحي كما تقدم

ومن حالاته العلم الذي يلقىه الله تعالى في قلبه عند الإجهاد في الأحكام بناء على ثبوته لا بواسطة ملك وبذلك فارق النفث في الروع

وبذكر هذه الأنواع للوحي يعلم أن ما تقدم من حصره في الحالتين المذكورتين عند سؤال الحارث له صلى الله عليه وسلم أغلبي أو أن ما عداهما وقع بعد سؤال الحارث له

وفي ينبوع الحياة عن ابن جرير ما نزل جبريل بوحي قط إلا وينزل معه من الملائكة حفظة يحيطون به وبالنبي الذي يوحى إليه يطردون الشياطين عنهما لئلا يسمعوا ما يبلغه جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من الغيب الذي يوحى إليه فيلقوه إلى أوليائهم ثم رأيت في الإتقان ذكر أن من القرآن ما نزل معه ملائكة مع جبريل تشيعه من ذلك سورة الأنعام شيعها سبعون ألف ملك و فاتحة الكتاب شيعها ثمانون ألف ملك وآية الكرسي شيعها ثمانون ألف ملك وسورة يس شيعها ثلاثون ألف ملك * (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) * شيعها عشرون ألف ملك ولعل هذا لا ينافي ما تقدم من أن الغرض من تساقط النجوم عند البعثة حراسة السماء من استراق الشياطين لما يوحى لجواز أن يكون هذا لحفظ ما يوحى من استراقه في الأرض وبين السماء والأرض

وعن النخعي إن أول سورة أنزلت عليه صلى الله عليه وسلم * (اقرأ باسم ربك) * قال الإمام النووي وهو الصواب الذي عليه الجماهير من السلف والخلف هذا كلامه ولا يخفى أن مراد النخعي بالسورة هنا القطعة من القرآن أي أول آيات أنزلت فلا ينافي ما تقدم من رواية عمرو بن شرحبيل مما يدل على أن أول سورة أنزلت فاتحة الكتاب لأن المراد أول سورة كاملة نزلت لا في شأن الإنذار فلا ينافي ما تقدم من رواية جابر ما يقتضى أن أول ما نزل * (يا أيها المدثر) * لأن المراد بذلك أول سورة كاملة نزلت في شأن الإنذار بعد فترة الوحي أي فإنها نزلت قبل تمام نزول سورة اقرأ وهذا الجمع تقدم الوعد به أي لكن يشكل عليه ما في الكشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نزل علي القرآن إلا آية آية وحرفا حرفا ما خلا سورة براءة وقل هو الله أحد فإنهما أنزلنا علي ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة فإن هذا السياق يدل على أنه لم ينزل عليه صلى الله عليه وسلم سورة كاملة إلا براءة * (قل هو الله أحد) * ويخالفه ما في الإتيان أن مما نزل جملة سورة الفاتحة وسورة الكوثر وسورة تبت وسورة لم يكن وسورة النصر والمرسلات والأنعام لكن ذكر ابن الصلاح أن هذا روى بسند فيه ضعف قال ولم أر له إسنادا صحيحا

وقد روى ما يخالفه ولم يذكر في الإتيان مما نزل جملة سورة براءة وذكر أن المعوذتين نزلتا دفعة واحدة وحينئذ يكون المراد بقوله صلى الله عليه وسلم إلا آية آية وحرفا حرفا أي كلمة والمراد بها ما قابل السورة وإلا فقد أنزل عليه ثلاث آيات وأربع آيات وعشر آيات كما أنزل آية وبعض آية فقد صح نزول * (غير أولي الضرر) * منفردة وهي بعض آية

وفي الإتيان عن جابر بن زيد قال أول ما أنزل الله تعالى من القرآن بمكة اقرأ * (باسم ربك) * ثم * (ن والقلم) * ثم * (يا أيها المزمل) * ثم * (يا أيها المدثر) * ثم الفاتحة إلى آخر ما ذكر

ثم قال قلت هذا السياق غريب وفي هذا الترتيب نظر وجابر بن زيد من علماء التابعين هذا كلامه وذكر بعض المفسرين أن سورة التين أول ما نزل من القرآن والله أعلم وما تقدم من أن نزول * (يا أيها المدثر) * كان في شأن الإنذار بعد فترة الوحي لأنه كان بعد نزول جبريل عليه باقرا باسم ربك مكث مدة لا يرى جبريل أي وإنما كان كذلك ليذهب ما كان يجده من الرعب وليحصل له التشوف إلى العود

ومن ثم حزن لذلك حزنا شديدا حتى غدا مرارا كي يتردى من رؤوس شواهد الجبال فكلما وافى بذروة كي يلقي نفسه منها تبدي له جبريل عليه السلام فقال يا محمد إنك رسول الله حقا فيسكن لذلك جأشه أي قلبه وتقر نفسه ويرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا وافى ذروة جبل تبدي له مثل ذلك قال وفي رواية أنه لما فتر الوحي عنه صلى الله عليه وسلم حزن حزنا شديدا حتى كان يغدو إلى ثبير مرة وإلى حراء مرة أخرى يريد أن يلقي نفسه منه فكلما وافى ذروة جبل منهما كي يلقي نفسه تبدي له جبريل فقال يا محمد أنت رسول الله حقا فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه ويرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي عاد لمثل ذلك وكانت تلك المدة أربعين يوما وقيل خمسة عشر يوما وقيل اثني عشر يوما وقيل ثلاثة أيام قال بعضهم وهو الأشبه بحاله عند الله تعالى انتهى

أقول ويعد هذا الأشبه قوله فإذا طالت عليه فترة الوحي والله أعلم وفي الأصل وهذه الفترة لم يذكر لها ابن إسحاق مدة معينة

أقول في فتح الباري أن ابن إسحاق جزم بأنها ثلاث سنين والله أعلم قال أبو القاسم السهيلي وقد جاء في بعض الأحاديث المسندة أن مدة الفترة كانت سنتين ونصف سنة أي وفي كلام الحافظ ابن حجر وهذا الذي اعتمده السهيلي لا يثبت وقد عارضه ما جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن مدة الفترة كانت أياما أي وأقلها ثلاثة أي وتقدم ما فيه قال قال بعض الحفاظ والظاهر والله أعلم أنها أي مدة الفترة كانت بين اقرأ * (يا أيها المدثر) * هي المدة التي اقترن معه فيها إسرئيل كما قال الشعبي انتهى

أقول ويوافق ذلك ما في الإستيعاب لابن عبد البر أن الشعبي قال أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين وقرن بنبوته إسرئيل عليه الصلاة والسلام ثلاث سنين وقد تقدم ذلك وفي الأصل عن الشعبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل به إسرئيل فكان يتراءى له ثلاث سنين ويأتيه بالكلمة من الوحي ولم ينزل القرآن أي شيء منه على لسانه ثم وكل به جبريل فجاءه بالوحي والقرآن وهو موافق في ذلك لما في سيرة شيخه الحافظ الدمياطي حيث قال قال بعض العلماء وقرن به إسرئيل ثم قرن به جبريل وهو

ظاهر في أن اقتران إسرائيل به كان بعد النبوة ويؤيده قوله ويأتيه بالكلمة من الوحي ومحمتم لأن يكون ذلك قبل النبوة فيوافق ما تقدم عن الماوردي لكن تقدم أنه كان يسمع حسه ولا يرى شخصه إلا أن يقال لا يلزم من كونه يتراءى له أن يراه وقوله يأتيه بالكلمة من الوحي هو معنى قوله يأتيه بالشيء بعد الشيء ثم رأيت الواقدي أنكر على الشعبي كون إسرائيل قرن به أولا وقال لم يقترن به من الملائكة إلا جبريل أي بعد النبوة ويحتمل مطلقا قال بعضهم ما قاله الشعبي هو الموافق لما هو المشهور المحفوظ الثابت في الأحاديث الصحيحة وخبر الشعبي مرسل أو معضل فلا يعارض ما في الأحاديث الصحيحة هذا كلامه

ثم رأيت الحافظ ابن حجر نظر في كلام الواقدي بأن المثبت مقدم على النافي إلا أن صحب النافي دليل نفيه فيقدم هذا كلامه

لا يقال قد وجد الدليل فقد جاء بينا النبي صلى الله عليه وسلم جالس وعنده جبريل إذ سمع نغيضا أي هذه من السماء فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال يا محمد هذا ملك قد نزل لم ينزل إلى الأرض قط قال جماعة من العلماء إن هذا الملك إسرائيل لأننا نقول هذا مجرد دعوى لا دليل عليها ولا يحسن أن يكون مستندهم في ذلك ما في الطبراني عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد هبط على ملك من السماء ما هبط على نبي قبلي ولا يهبط على أحد بعدي وهو إسرائيل فقال أنا رسول ربك الحديث

ومن ثم عد السيوطي من خصائصه صلى الله عليه وسلم هبوط إسرائيل عليه إذ ليس في ذلك دليل على أن إسرائيل لم يكن نزل إليه قبل ذلك حتى يكون دليلا على أن اقتران جبريل به سابق على اقتران إسرائيل به

هذا وفي كلام الحافظ السيوطي أن مجئ إسرائيل كان بعد ابتداء الوحي بسنتين قال كما يعرف ذلك من سائر طرق الأحاديث وهو بظاهره يرد ما في سفر السعادة أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغ تسع سنين أمر الله تعالى إسرائيل أن يقوم بملازمته ولما بلغ إحدى عشرة سنة أمر جبريل بملازمته صلى الله عليه وسلم فلأزمه تسعا وعشرين سنة فليتأمل

وعن يحيى بن بكير قال ما خلق الله خلقا في السماوات أحسن صوتا من إسرافيل فإذا قرأ في السماء يقطع على أهل السماء ذكرهم وتسيحهم
ثم رأيت في فتح الباري ليس المراد بفترة الوحي المقدرة بثلاث سنين أي على ما تقدم ما بين نزول اقرأ ويا أيها المدثر عدم مجئ جبريل إليه بل تأخر نزول القرآن عليه فقط هذا كلامه أي فكان جبريل يأتي إليه بغير قرآن بعد مجيئه إليه باقرا ولم يجئ إليه بالقرآن الذي هو يا أيها المدثر إلا بعد الثلاث سنين على ما تقدم ثم في تلك المدة مكث أياما لا يأتيه أصلا ثم جاءه بيا أيها المدثر فكان قبل تلك الأيام يختلف إليه هو وإسرافيل وهذا السياق كما لا يخفى يؤخذ منه عدم المنافاة بين كون مدة فترة الوحي ثلاث سنين كما يقول ابن إسحاق وسنتين ونصفا كما يقول السهيلي وسنتين كما يقول الحافظ السيوطي وبين كونها أياما أقلها ثلاثة وأكثرها أربعون كما تقدم عن ابن عباس لأن تلك الأيام هي التي كانت لا يرى فيها جبريل أصلا على ما تقدم أي ولا يرى فيها إسرافيل أيضا وفي غير تلك الأيام كان يأتيه بغير القرآن وحينئذ لا يحسن رد الحافظ فيما سبق على السهيلي وينبغي أن تكون تلك الأيام التي لا يرى فيها جبريل وإسرافيل هي التي يريد فيها أن يلقي نفسه من رؤوس شواهد الجبال وهذا السياق أيضا يدل على أن النبوة سابقة على الرسالة بناء على أن الرسالة كانت بيا أيها المدثر ويصرح به ما تقدم من قول بعضهم نبأه بقوله * (اقرأ باسم ربك) * وأرسله بقوله * (يا أيها المدثر قم فأندر وربك فكبر وثيابك فطهر) * وأن بينهما فترة الوحي وعليه أكثر الروايات وقيل النبوة والرسالة مقترنان ولعل من يقول بتلك يقول يا أيها المدثر دلت على طلب الدعوة إلى الله تعالى وهذا غير إظهار الدعوة والمفاجأة بها الذي دل عليه قوله تعالى * (فاصدع بما تؤمر) * فليتأمل
وذكر السهيلي أن من عادة العرب إذا قصدت الملاطفة أن تسمى المخاطب باسم مشتق من الحالة التي هو عليها فلاطفه الحق سبحانه وتعالى بقوله * (يا أيها المدثر) * فبذلك علم رضاه الذي هو غاية مطلوبه وبه كان يهون عليه تحمل الشدائد ومن هذه الملاطفة قوله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وقد نام وترب جنبه قم يا أبا تراب وقوله صلى الله عليه وسلم لحذيفة في غزوة أحد وقد نام إلى الإسفار قم يا نومان

وذكر الشيخ محيي الدين بن العربي في قوله تعالى * (يا أيها المدثر قم فأذر) * أعلم أن التدثر إنما يكون من البرودة التي تحصل عقب الوحي وذلك أن الملك إذا ورد على النبي صلى الله عليه وسلم بعلم أو حكم تلقى ذلك الروح الإنساني وعند ذلك تشتعل الحرارة الغريزية فيتغير الوجه لذلك وتنتقل الرطوبات إلى سطح البدن لاستيلاء الحرارة فيكون من ذلك العرق فإذا سرى عنه ذلك سكن المزاج وانقشعت تلك الحرارة وانفتحت تلك المام وقبل الجسم الهواء من خارج فيتحلل الجسم فيبرد المزاج فتأخذه القشعريرة فتزاد عليه الثياب ليسخن هذا ملخص كلامه

وذكر بعضهم في تفسير قوله تعالى * (وثيابك فطهر) * أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي نفعنا الله تعالى ببركاته قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقال يا أبا الحسن طهر ثيابك من الدنس تحظ بمدد الله تعالى في كل نفس فقلت يا رسول الله وما ثيابي قال إن الله كساك حلة التوحيد وحلة المحبة وحلة المعرفة قال ففهمت حينئذ قوله تعالى * (وثيابك فطهر) *

وجاء في وصف إسرائيل في بعض الأحاديث لا تفكروا في عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة فإن خلقا من الملائكة يقال له إسرائيل زاوية من زوايا العرش على كاهله وقدماه في الأرض السفلى وقد مرق رأسه من سبع سماوات وإنه ليتضاءل من عظمة الله تعالى حتى يصير كأنه الوضع فهو عند نزوله يكون حاملا لزاوية العرش أو يخلفه غيره من الملائكة في ذلك

باب ذكر وضوئه وصلاته صلى الله عليه وسلم أول البعثة
أي أول الإرسال إليه باقراً

أقول في المواهب أنه روى أن جبريل عليه الصلاة والسلام بدا له صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وأطيب رائحة فقال له يا محمد إن الله تعالى يقرئك السلام ويقول لك أنت رسول الله إلى الجن والإنس فادعهم إلى قول لا إله إلا الله ثم ضرب برجله

الأرض فنبعت عين ماء فتوضأ منها جبريل ثم أمره أن يتوضأ وقام جبريل يصلى وأمره أن يصلى معه فعلمه الوضوء والصلاة الحديث وقوله فعلمه الوضوء يحتمل أن يكون بفعله المذكور ويحتمل أن يكون علمه بقوله افعل كذا في وضوئك وصلاتك ويدل للأول ما سيأتي وفيه أن قول جبريل المذكور إنما كان عند أمره بإظهار الدعوة والمفاجأة بها إلى الله تعالى بعد فترة الوحي كما سيأتي فالجمع بينه وبين قوله ثم ضرب برجله الأرض إلى آخره لا يحسن لأنه سيأتي أن ذلك كان في يوم نزوله له * (اقرأ باسم ربك) * ولعله من تصرف بعض الرواة والله أعلم

فعن ابن إسحاق حدثني بعض أهل العلم أن الصلاة حين افترضت على النبي صلى الله عليه وسلم أي قبل الإسراء أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فهمز له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل و رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ليريه كيف الطهور أي الوضوء للصلاة أي فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ومسح برأسه وغسل رجليه إلى الكعبين كما في بعض الروايات أي وفي رواية فغسل كفيه ثلاثا ثم تمضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثم غسل يديه إلى المرفقين ثم مسح رأسه ثم غسل رجليه ثلاثا ثلاثا ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم فتوضأ مثل وضوئه

أقول وبهذه الرواية يرد قول بعضهم إن النبي صلى الله عليه وسلم زاد في الوضوء التسمية وغسل الكفين والمضمضة والاستنشاق ومسح جميع الرأس والتخليل ومسح الأذنين والتثليث إلا أن يقال مراد هذا البعض أن ما ذكر زاده على ما في الآية وفي كلام بعضهم كانت العرب في الجاهلية يغتسلون من الجنابة ويداومون على المضمضة والاستنشاق والسواك والله أعلم

ثم قام جبريل فصلى به صلى الله عليه وسلم ركعتين يحتمل أن تلك الصلاة كانت بالغداة قبل طلوع الشمس ويحتمل أنها كانت بالعشي أي قبل غروب الشمس وفي الإمتاع وإنما كانت الصلاة قبل الإسراء صلاة بالعشي أي قبل غروب الشمس ثم صارت صلاة بالغداة وصلاة بالعشي ركعتين أي ركعتين بالغداة وركعتين بالعشى والعشى هو العصر

ففي كلام بعض أهل اللغة العصر والعشاء والعصران الغداة والعشى وكانت صلاته

صلى الله عليه وسلم نحو الكعبة واستقبل الحجر الأسود أي جعل الحجر الأسود قبالة
وهذا يدل على أنه لم يستقبل في تلك الصلاة بيت المقدس لأنه لا يكون مستقبلاً لبيت
المقدس إلا إذا صلى بين الركنين الأسود واليماني كما كان يفعل بعد فرض الصلوات
الخمس وهو بمكة كما سيأتي أنه كان يصلي بين الركنين الركن اليماني والحجر
الأسود ويجعل الكعبة بينه وبين الشام أي بينه وبين بيت المقدس أي صخرته إلا أن
يقال يجوز أن يكون عند صلته إلى الكعبة كان بينهما إلا أنه كان إلى الحجر الأسود
أقرب منه إلى اليماني فقبل استقبال الحجر الأسود فلا مخالفة لكن سيأتي ما قد يفيد أنه
لم يستقبل بيت المقدس إلا في الصلوات الخمس أي بعد الإسراء وقبل ذلك كان
يستقبل الكعبة إلى أي جهة من جهاتها ولما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
بصلاة جبريل قال جبريل هكذا الصلاة يا محمد ثم انصرف جبريل فجاء رسول الله
صلى الله عليه وسلم خديجة وأخبرها فغشي عليها من الفرح فتوضأ لها ليربها كيف
الطهور للصلاة كما أراه جبريل فتوضأت كما توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم
صلى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صلى به جبريل عليه الصلاة والسلام
وفي سيرة الحافظ الدمياطي ما يفيد أن ذلك كان في يوم نزول جبريل عليه الصلاة
والسلام له ب * (اقرأ باسم ربك) * حيث قال بعث النبي صلى الله عليه وسلم يوم
الاثنين وصلى فيه وصلت خديجة آخر يوم الاثنين ويوافقه ظاهر ما جاء أتاني جبريل في
أول ما أوحى إلي فعلمني الوضوء والصلاة فلما فرغ الوضوء أخذ غرفة من الماء فنضح
بها فرجه أي رش بها فرجه أي محل الفرج من الإنسان بناء على أنه لا فرج له وكون
الملك لا فرج له لو تصور بصورة الإنسان استدل عليه بأنه ليس ذكر أو لا أنثى وفيه
نظر لأنه يجوز أن يكون له آلة ليست كآلة الذكر ولا كآلة الأنثى كما قيل بذلك في
الخنثى ويقال لذلك فرج
وبعض شراح الحديث حمل الفرج على ما يقابل الفرج من الإزار وبذلك استدلت أئمتنا
على أنه يستحب لمن استنجى بالماء أن يأخذ بعض الاستنجاء كفا من ماء ويرش في
ثيابه التي تحاذى فرجه حتى إذا خيل له أن شيئاً خرج ووجد بلللاً قدر أنه من ذلك
الماء ولعل هذا هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم علمني جبريل الوضوء وأمرني أن
أنضح تحت ثوبي مما يخرج من البول بعد الوضوء أي دفعا لتوهم خروج شيء من
البول بعد الوضوء لو وجد بلل بالمحل

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما كان ينضح سراويله حتى ييلها وما جاء أنه لما أقرأه باسم ربك قاله جبريل انزل عن الجبل فنزل معه إلى قرار الأرض قال فأجلسني عن درنوك بالبدال المهملة والراء والنون أي وهو نوع من البسط ذو حمل ثم ضرب برجله الأرض فنبعت عين ماء فتوضأ منها جبريل الحديث فمشروعية الوضوء كانت مع مشروعية الصلاة التي هي غير الخمس وإن ذلك كان في يوم نزول جبريل باقراً وهو مخالف لقول ابن حزم لم يشرع الوضوء إلا بالمدينة

ومما يرد ما قاله ابن حزم نقل ابن عبد البر اتفاق أهل السير على أنه لم يصل صلى الله عليه وسلم قط إلا بوضوء قال وهذا مما لا يجمله عالم هذا كلامه إلا أن يقال مراد ابن حزم أنه لم يشرع وجوباً إلا في المدينة وهو الموافق لقول بعض المالكية إنه كان قبل الهجرة مندوباً أي وإنما وجب بالمدينة بأية المائدة * (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم) * الآية

ويرده ما في الإتيان أن هذه الآية مما تأخر نزوله عن حكمه يعنى قوله تعالى * (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا) * إلى قوله * (لعلكم تشكرون) * فالآية مدنية إجماعاً وفرض الوضوء كان بمكة مع فرض الصلاة أي فالوضوء على هذا مكى بالفرض مدني بالتلاوة

قال والحكمة في ذلك أي في نزول الآية بعد تقدم العمل لما يدل عليه أن تكون قرآنيته متلوة هذا كلامه

وقوله مع فرض الصلاة يحتمل أن المراد صلاة الركعتين بناء على أنهما كانتا واجبتين عليه صلى الله عليه وسلم وهو الموافق لما تقدم عن ابن إسحاق ويحتمل أن المراد الصلاة الخمس أي ليلة الإسراء وهو الموافق لما اقتصر عليه شيخنا الشمس الرملي حيث قال وكان فرضه مع فرض الصلاة قبل الهجرة بسنة هذا كلامه وحينئذ يكون قبل ذلك مندوباً حتى في صلاة الليل

وقول صاحب المواهب ما ذكر من أن جبريل عليه الصلاة والسلام علمه الوضوء وأمره به يدل على أن فرضية الوضوء كانت قبل الإسراء فيه نظر ظاهر إذ لا دلالة في ذلك على الفرضية إذ يحتمل أي يكون اللفظ الصادر من جبريل له أمرتك أن تفعل كفعلي وصيغة أمره مشتركة بين الوجوب والندب

وذكر بعضهم أن الغرض من نزول آية المائدة بيان أن من لم يقدر على الوضوء والغسل لمرض أو لعدم الماء يباح له التيمم أي ففرضية الوضوء والغسل سابقة على نزولها ويؤيد ذلك قول عائشة رضي الله تعالى عنها في الآية فانزل الله تعالى آية التيمم ولم تقل آية الوضوء وهي هي لأن الوضوء كان مفروضاً قبل أن توجد تلك الآية ويوافقه ما ذكره ابن عبد البر من اتفاق أهل السير على أن الغسل من الجنابة فرض عليه صلى الله عليه وسلم وهو بمكة

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ما يقتضى أن فرض الغسل كان مع فرض الصلوات ليلة الإسراء فقد جاء عنه كانت الصلاة خمسين والغسل من الجنابة سبع مرات فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل حتى جعل الصلاة خمسا والغسل من الجنابة مرة قال بعض فقهاءنا رواه أبو داود ولم يضعفه وهو إما صحيح أو حسن قال ذلك البعض ويجوز أن يكون المراد بها أي الغرض من نزولها فرض غسل الرجلين في قراءة من قرأ * (وأرجلكم) * بالنصب فإن حديث جبريل ليس فيه إلا مسحهما أي وهو أن جبريل أول ما جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي توضأ فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ومسح رأسه ورجليه إلى الكعبين وسجد سجدتين أي ركع ركعتين مواجهة البيت ففعل النبي صلى الله عليه وسلم كما يرى جبريل يفعل هذا كلامه وفيه نظر لأن أكثر الروايات وغسل رجله كما تقدم فرجليه في هذه الرواية معطوفة على وجهه كما أن أرجلكم في الآية على قراءة الجر معطوفة على الوجوه وإنما جر للمجاورة وإن كان الجر للمجاورة في غير النعت قليلاً أو عبر عن الغسل الخفيف بالمسح

وفي كلام الشيخ محيي الدين مسح الرجلين في الوضوء بظاهر الكتاب وغسلهما بالسنة المبينة للكتاب قال ويحتمل العدول عن الظاهر بناء على أن المسح فيه يقال للغسل فيكون من الألفاظ المترادفة وفتح أرجلكم لا يخرجها عن الممسوح فإن هذه الواو قد تكون واو المعية

وجاء أنه صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ لكل صلاة أي عملاً بظاهر قوله تعالى * (إذا قمتم إلى الصلاة) * الآية فلما كان يوم الفتح صلى الصلوات الخمس بوضوء واحد فقال له سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه فعلت شيئاً لم تكن تفعله فقال عمداً فعلته

يا عمر أي للإشارة إلى جواز الاقتصار على وضوء واحد للصلوات الخمس وجواز ذلك ظاهر في نسخ وجوب الوضوء عليه لكل صلاة ويوافقه قول بعضهم قيل كان ذلك الوضوء لكل صلاة واجبا عليه ثم نسخ هذا كلامه أي ويؤيده ذلك ظاهر ما جاء أنه أمر بالوضوء لكل صلاة طاهرا كان أو غير طاهر فلما شق ذلك عليه صلى الله عليه وسلم وضع عنه الوضوء إلا من حدث أي ويكون وقت المشقة يوم فتح مكة لما علمت أنه لم يترك الوضوء لكل صلاة إلا حينئذ وهذا السياق يدل على أن وجوب الوضوء لكل صلاة كان من خصوصياته صلى الله عليه وسلم

ويدل لذلك ما روى عن أنس رضي الله تعالى عنه كان رسول الله عليه وسلم يتوضأ لكل صلاة قيل لهم كيف تصنعون أي هل كنتم تفعلون كفعله صلى الله عليه وسلم قال يجزى أحدنا الوضوء ما لم يحدث أي فوجب الوضوء لكل صلاة كان من خصوصياته صلى الله عليه وسلم وذكر فقهاؤنا أن الغسل كان واجبا عليه صلى الله عليه وسلم لكل صلاة فنسخ بالنسبة للحدث الأصغر تخفيفا فصار الوضوء بدلا عنه ثم نسخ الوضوء لكل صلاة فظاهر سياقهم يقتضي أن وجوب الغسل ثم الوضوء لكل صلاة كان عاما في حقه صلى الله عليه وسلم وحق أمته ويحتاج إلى بيان وقت نسخ وجوب الغسل في حقه صلى الله عليه وسلم وحق أمته وبيان وقت نسخ وجوب الوضوء لكل صلاة في حق الأمة ومنه يعلم أن نسخ وجوب الوضوء لكل صلاة يكون بالنسبة للأمة ثم بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم وحينئذ لا يشكل قول فقهاءنا الآية تقتضي وجوب الطهر بالماء أو التراب لكل صلاة خرج الوضوء بالسنة أي بما تقدم من فعله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح وبتجويزه صلى الله عليه وسلم للأمة أن يصلي الواحد منهم الصلوات بوضوء واحد وبقي التيمم على مقتضى الآية فقد وقع النسخ أولا بالنسبة للأمة ثم ثانيا بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم ولعل وجوب الغسل لكل صلاة كان بوحى غير قرآن أو باجتهااد

ولا يخفى أن كون ظاهر الآية يقتضي وجوب الوضوء والتيمم لكل صلاة إنما هو بقطع النظر عما نقله إمامنا رضي الله تعالى عنه عن زيد بن أسلم أن الآية فيها تقديم وحذف وأن التقدير * (إذا قمتم إلى الصلاة) * من النوم * (أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء) * * (فاغسلوا وجوهكم) * الآية والله أعلم

وعن مقاتل بن سليمان فرض الله تعالى في أول الإسلام الصلاة ركعتين بالغداة أي قبل طلوع الشمس وركعتين بالعشي أي قبل غروب الشمس أقول إن كان المراد بأول الإسلام نزول جبريل عليه بأقرأ يرد ما تقدم عن الإمتاع أن أول ما وجب ركعتان بالعشي ثم صارت صلاة بالغداة وصلاة بالعشي ركعتين إلا أن يراد الأولوية الإضافية وفي بعض الأحاديث ما يدل على أن وجوب الركعتين كان خاصا به صلى الله عليه وسلم دون أمته

منها قوله صلى الله عليه وسلم أول ما افترض الله على أمتي الصلوات الخمس وفيه أنه افترض عليها قبل ذلك صلاة الليل ثم نسخ بالصلوات الخمس وفي الإمتاع كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى الكعبة أول النهار فيصلى صلاة الضحى وكانت صلاة لا تنكرها قريش وكان صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذا جاء وقت العصر تفرقوا في الشعاب فرادى ومثنى أي فيصلون صلاة العشي وكانوا يصلون الضحى والعصر ثم نزلت الصلوات الخمس هذا كلامه وهو يفيد أن الركعتين الأوليين كان يصليهما وقت الضحى لا قبل الشمس فليتأمل والله أعلم ثم فرضت الخمس ليلة المعراج

وذهب جمع إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة أي لا عليه ولا على أمته إلا ما وقع الأمر به من صلاة الليل من غير تحديد أي بقوله تعالى * (فاقرؤوا ما تيسر (أي صلوا

أقول وهو الناسخ لما وجب قبل ذلك من التحديد في أول السورة الحاصل بقوله * (قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه) * وقد نسخ قيام الليل بالصلوات الخمس ليلة الإسراء ولم يذكر أئمتنا وجوب صلاة الركعتين عليه صلى الله عليه وسلم بل قالوا أول ما فرض عليه الإنذار والدعاء إلى التوحيد ثم فرض عليه قيام الليل المذكور في أول سورة المزمل ثم نسخ بما في آخرها ثم نسخ بالصلوات الخمس وهو مخالف لما تقدم عن ابن إسحاق من وجوب صلاة الركعتين عليه ويوافقه قول ابن كثير في قولهم ماتت خديجة قبل أن تفرض الصلوات مرادهم قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء

قال بعضهم وإنما قال ذلك لأن أصل الصلاة في حياة خديجة الركعتين بالغداة والركعتين بالعشي
وفي كلام ابن حجر الهيتمي لم يكلف الناس إلا بالتوحيد فقط ثم استمر على ذلك مدة
مديدة ثم فرض عليهم من الصلاة ما ذكر في سورة المزمل ثم نسخ ذلك كله
بالصلوات الخمس ثم لم تكثر الفرائض وتتابع إلا بالمدينة ولما ظهر الإسلام وتمكن في
القلوب وكان كلما زاد ظهوراً وتمكن ازدادت الفرائض وتتبع هذا كلامه
ولم أقف على ما كان يقرأ في صلاة الركعتين قبل فترة الوحي وبعدها وقبل نزول
الفاتحة بناء على تأخر نزولها عن ذلك كما هو الراجح ثم رأيت في الإتيان ذكر أن
جبريل حين حوت القبلة أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الفاتحة ركن في
الصلاة كما كانت بمكة هذا كلامه وينبغي حمله على الصلوات الخمس وحينئذ يكون
ما تقدم من قول بعضهم لم يحفظ أنه كان في الإسلام صلاة بغير الفاتحة محمولاً على
ذلك أيضاً وقد تقدم ذلك والله أعلم
باب ذكر أول الناس إيماناً به صلى الله عليه وسلم
أي بعد البعثة أي الرسالة وهي المرادة عند الإطلاق بناء على أنها مقارنة للنبوة
لا يخفى أنه صلى الله عليه وسلم لما بعث أخفى أمره وجعل يدعو إلى الله سرا وابتعه
ناس عامتهم ضعفاء من الرجال والنساء وإلى هذا الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم إن
هذا الدين بدا غريباً وسيعود كما بدا فطوبى للغرباء ولا يخفى أن أهل الأثر وعلماء
السير على أن أول الناس إيماناً به صلى الله عليه وسلم على الإطلاق خديجة رضي الله
تعالى عنها
أقول نقل الثعلبي المفسر اتفاق العلماء عليه وقال النووي إنه الصواب عند جماعة من
المحققين وقال ابن الأثير خديجة أول خلق الله تعالى أسلم بإجماع المسلمين لم
يتقدمها رجل ولا امرأة
وفيه أن بناته الأربع كن موجوداً عند البعثة ويبعد تأخر إيمانهن إلا أن يقال خديجة
تقدم لها إشراك بخلافهن أخذاً مما يأتي

وعن ابن إسحاق أن خديجة كانت أول من آمن بالله ورسوله وصدقت ما جاء به عن الله تعالى وكان لا يسمع شيئا يكرهه من قومه إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها فأخبرها به

ثم علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ففي المرفوع عن سلمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أول هذه الأمة ورودا على الحوض أولها إسلاما علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وجاء أنه لما زوجه فاطمة قال لها زوجتك سيدا في الدنيا والآخرة وإنه لأول صحابي إسلاما وأكثرهم علما وأعظمهم حلما وكان لم يبلغ الحلم كما سيأتي حكاية الإجماع عليه كان سنه ثمان سنين وكان عند النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحى إليه يطعمه ويقوم بأمره لأن قريشا كان أصابهم قحط شديد وكان أبو طالب كثير العيال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمة العباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال والناس فيما ترى من الشدة فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله تأخذ واحدا وأنا واحدا فجاء إليه وقالوا إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه فقال لهما أبو طالب إذا تركتما لي عقيلًا قيل وطالبا فاصنعا ما شئتما فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضي الله تعالى عنه فضمه إليه وأخذ العباس جعفرًا فضمه إليه وتركاه له عقيلًا وطالبا فلم يزل علي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

وفي خصائص العشرة للزمخشري أن النبي صل الله عليه وسلم تولى تسميته بعلي وتغذيته أياما من ريقه المبارك بمصه لسانه فعن فاطمة بنت أسد أم علي رضي الله تعالى عنها أنها قالت لما ولدته سماه عليا وبصق في فيه ثم إنه ألقمه لسانه فما زال يمصه حتى نام قالت فلما كان من الغد طلبنا له مرضعة فلم يقبل ثدي أحد فدعونا له محمدا صلى الله عليه وسلم فألقمه لسانه فنام فكان كذلك ما شاء الله عز وجل هذا كلامه فليتأمل وعنها رضي الله تعالى عنها أنها في الجاهلية أرادت أن تسجد لهبل وهي حامل بعلي فتقوس في بطنها فمنعها من ذلك وكان علي رضي الله تعالى عنه أصغر إخوته فكان بينه وبين أخيه جعفر عشر سنين وبين جعفر وبين أخيه عقيل كذلك وبين عقيل وأخيه طالب ذلك أيضا فكل أكبر من الذي بعده بعشر سنين فأكبرهم طالب ثم عقيل ثم جعفر ثم علي أي وكلهم أسلموا إلا طالبا فإنه اختطفته الجن فذهب ولم يعلم إسلامه وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال لعقيل لما أسلم يا أبا يزيد إنني أحبك حبين حبا لقرابتك مني وحبا لما كنت أعلم لحب عمي إياك

وكان عقيل أسرع الناس جوابا وأبلغهم في ذلك قال له معاوية يوما أين ترى عمك أبا لهب من النار فقال إذا دخلتها يا معاوية فهو على يسارك مفترضا عمك حمالة الحطب والراكب خير من المركوب

ولما وفد على معاوية وقد غضب من أخيه علي لما طلب منه عطاءه وقال له اصبر حتى يخرج عطاؤك مع المسلمين فأعطيك فقال له لأذهبن إلى رجل هو أوصل إلى منك فذهب إلى معاوية فأعطاه مائة ألف درهم ثم قال له معاوية اصعد المنبر فاذكر ما أولاك علي وما أوليتك فصعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس إني أخبركم

أني أردت عليا على دينه فاخترت دينه وإني أردت معاوية على دينه فاخترتني على دينه وفي رواية أن معاوية قال لجماعة يوما بحضرة عقيل هذا أبو يزيد يعني عقيلًا لولا علمه بأني خير له من أخيه لما أقام عندنا وتركه فقال عقيل أخي خير لي في ديني وأنت خير لي في دنياي وأسأل الله تعالى خاتمه الخير توفي عقيل في خلافة معاوية

قال وسبب إسلام علي كرم الله وجهه أنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه خديجة وهما يصليان سرا فقال ما هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دين الله الذي اصطفاه لنفسه وبعث به رسله فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته وإلى الكفر باللات والعزى فقال علي هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم فلست بقاض أمرا حتى أحدث أبا طالب وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره فقال له يا علي إذا لم تسلم فاكنتم هذا فمكث ليلته ثم إن الله تبارك وتعالى هداه للإسلام فأصبح غاديا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم اه

أقول وذلك في اليوم الثاني من صلواته صلى الله عليه وسلم هو وخديجة وهو يوم الثلاثاء كما في سيرة الدمياطي أي لأنه تقدم أن صلواته صلى الله عليه وسلم مع خديجة كانت آخر يوم الاثنين وهذا إنما يأتي على القول بأن النبوة والرسالة تقارنتا لا على أن الرسالة تأخرت عن النبوة وأن بينهما فترة الوحي على ما تقدم

وفي أسد الغابة أن أبا طالب رأى النبي صلى الله عليه وسلم وعليًا يصليان وعلي علي يمينه فقال لجعفر رضي الله تعالى عنه صل جناح ابن عمك فصلى عن يساره وكان إسلام جعفر بعد إسلام أخيه علي بقليل قال بعضهم وإنما صح إسلام علي أي مع أنهم أجمعوا على أنه لم يكن بلغ الحلم أي ومن نقل عنه أنه قال

* سبقتكمو إلى الإسلام طرا
* صغيرا ما بلغت أوان حملي
*

أي كان عمره ثمان سنين على ما سبق لأن الصبيان كانوا إذ ذاك مكلفين لأن القلم إنما رفع عن الصبي عام خبير وعن البيهقي أن الأحكام إنما تعلقت بالبلوغ في عام الخندق وفي لفظ في عام الحديبية وكانت قبل ذلك منوطة بالتمييز

هذا وقد ذكر أنه لم يحفظ عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال شعرا وقيل لم يقل إلا بيتين أي ولعل أحدهما ما تقدم ثم رأيت عن القاموس أن البيتين هما قوله
* تلکم قريش تمنانی لتقتلني

* فلا وربك ما بروا ولا ظفروا
* فإن هلكت فرهن مهجتي لهمو
* بذات ودقين لا تبقى ولا تذر
* وذات ودقين هي الداهية

وقد ذكر أن الزبير بن العوام أسلم وهو ابن ثمان سنين وقيل ابن خمس عشرة سنة وقيل ابن اثنتي عشرة سنة وقيل ابن ست عشرة سنة ومما يدل للأول ما جاء عن بعضهم كان علي والزبير وطلحة وسعد بن أبي وقاص ولدوا في عام واحد

ومن العجب أن الزمخشري في خصائص العشرة اقتصر على أن سن الزبير حين أسلم ست عشرة سنة وذكر بعد ذلك بأسطر أنه أول من سل سيفا في سبيل الله وهو ابن اثنتي عشرة سنة مقتصرًا على ذلك

ومما يدل للأول أيضا ما جاء في كلام بعض آخر أسلم علي بن أبي طالب والزبير ابن العوام وهما ابنا ثمان سنين وإجماعهم على أن عليا لم يكن بلغ الحلم يرد القول بأن عمره كان إذ ذاك عشر سنين أي بناء على أن سن إمكان الاحتلام تسع سنين كما تقول به أئمتنا

ويوافقه ما حكاه بعضهم أن الراشد بالله وهو الحادي والثلاثون من خلفاء بني العباس لما كان عمره تسع سنين وطئ جارية حبشية فحملت منه فولدت ولدا حسنا ويرد القول بأن سنه إذا كان ثلاث عشرة أو خمس عشرة أو ست عشرة سنة أقول قال بعض متأخري أصحابنا وإنما صححت عبادة الصبي المميز ولم يصح إسلامه لأن عبادته نفل والإسلام لا يتنفل به وعلى هذا مع ما تقدم يشكل ما في الإمتاع وأما

علي بن أبي طالب فلم يكن مشركا بالله أبدا لأنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في كفالته كأحد أولاده يتبعه في جميع أموره فلم يحتج أن يدعى للإسلام فيقال أسلم هذا كلامه فليتأمل فإن عليا كان تابعا لأبيه في دينه ولم يكن تابعا له صلى الله عليه وسلم كأولاده وقوله فلم يحتج أن يدعى للإسلام يردده ما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم له أدعوك إلى الله وحده إلى آخره

ثم رأيت في الحديث ما يدل لما في الإمتاع وهو ثلاثة ما كفروا بالله قط مؤمن آل يس وعلي بن أبي طالب وآسية امرأة فرعون والذي في العرائس روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين حزقيل مؤمن آل فرعون وحبيب النجار صاحب يس وعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم وهو أفضلهم إلا أن يراد بعدم كفرهم أنهم لم يسجدوا لصنم وفيه أنه قد يخالف ذلك قوله صلى الله عليه وسلم له وأدعوك إلى الكفر باللات والعزى وأنه قيل أيضا إن أبا بكر لم يسجد لصنم قط وقد عد ابن الجوزي من رفض عبادة الأصنام الجاهلية أي لم يأت بها أبا بكر الصديق وزيد بن عمرو بن نفيل وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل ورباب بن البراء وأسعد بن كريب الحميري وقس بن ساعدة الإيادي وأبا قيس ابن صرمة ولا يخفى أن عدم السجود للأصنام لا ينافي الحكم بالكفر على من لم يسجد لها

لكن في كلام السبكي الصواب أن يقال الصديق لم يثبت عنه حال كفر بالله تعالى فلعل حاله قبل البعث كحال زيد بن عمرو بن نفيل وأضرابه فلذلك خص الصديق بالذكر عن غيره من الصحابة هذا كلامه وهو واضح إذا لم يكن أحد من جميع من ذكر أسلم

وفي كلام الحافظ ابن كثير الظاهر أن أهل بيته صلى الله عليه وسلم آمنوا قبل كل أحد خديجة وزيد وزوجة زيد أم أيمن وعلي رضي الله تعالى عنهم فليتأمل قوله آمنوا قبل كل أحد وكذا يتأمل قول ابن إسحاق أما بناته صلى الله عليه وسلم فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وعن ابن إسحاق ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا

حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه على مستخفيا من قومه فيصليان
فيهما فإذا أمسيا رجعا كذلك ثم إن أبا طالب عثر أي اطلع عليهما يوما وهما يصليان
أي بنخلة المحل المعروف فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا ابن أخي ما هذا
الذي أراك تدين به فقال هذا دين الله ودين ملائكته ورساله ودين أبينا إبراهيم بعثني الله
به رسولا إلى العباد وأنت أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من
أجابني إلى الله تعالى وأعانني عليه فقال أبو طالب إنني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي
وما كانوا عليه وفي رواية أنه قال له ما بالذي تقول من بأس ولكن والله لا تعلقوني أستى
أبدا وهذا كما لا يخفى ينبغي أن يكون صدر منه قبل ما تقدم من قوله لابنه جعفر صل
جناح ابن عمك وصل على يساره لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصلي وعليها علي
يمينه لكن يروى أن عليا رضي الله تعالى عنه ضحك يوما وهو على المنبر فسئل عن
ذلك فقال تذكرت أبا طالب حين فرضت الصلاة ورآني أصلي مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم بنخلة فقال ما هذا الفعل الذي أرى فلما أخبرناه قال هذا حسن ولكن لا
أفعله أبدا إنني لا أحب أن تعلقوني أستى فلما تذكرت الآن قوله ضحكت وقوله حين
فرضت الصلاة يعني الركعتين بالغداة والركعتين بالعشي وهذا يؤيد القول بأن ذلك كان
واجبا

وذكر أن أبا طالب قال لعلي أي بني ما هذا الذي أنت عليه فقال يا أبت آمنت بالله
ورسوله وصدقت ما جاء به ودخلت معه واتبعته فقال له أما إنه لم يدعك إلا إلى خير
فالزمه

أي ويذكر أنه كان يقول إنني لأعلم أن ما يقوله ابن أخي لحق ولولا أنني أخاف أن
تعيرني نساء قريش لأتبعته

وعن عفيف الكندي رضي الله تعالى عنه قال كنت امرأ تاجرا قدمت للحج وأتيت
العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة وكان العباس لي صديقا وكان يختلف
إلى اليمن يشتري العطر ويبيعه أيام الموسم فبينما أنا عند العباس بمنى أي وفي لفظ
بمكة في المسجد إذا رجل مجتمع أي بلغ أشده خرج من خباء قريب منه فنظر إلى
الشمس فلما رآها مالت توضأ فأسبع الوضوء أي أكمله ثم قام يصلي أي إلى الكعبة
كما في بعض الروايات ثم خرج غلام مراهق أي قارب البلوغ فتوضأ ثم قام إلى جنبه

يصلي ثم جاءت امرأة من ذلك الخباء فقامت خلفهما ثم ركع الرجل وركع الغلام وركعت المرأة ثم خر الرجل ساجدا وخر الغلام وخرت المرأة فقلت ويحك يا عباس ما هذا الدين فقال هذا دين محمد بن عبد الله أخي يزعم أن الله بعثه رسولا وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب وهذه امرأته خديجة قال عفيف بعد أن أسلم يا ليتني كنت رابعا أي ولعل زيد بن حارثة لم يكن موجودا عندهم في ذلك الوقت فلا ينافي أنه كان يصلّي معهم أو أن ذلك كان قبل إسلامه لأنه سيأتي قريبا أن إسلامه بعد إسلام علي وكذا أبو بكر لم يكن موجودا عندهم بناء على أن إسلامه كان قبل إسلام علي ويؤيده ما قيل أول من صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر لكن في الإستيعاب لابن عبد البر أن العباس قال لعفيف الكندي لما قال له ما هذا الذي يصنع قال يصلّي وهو يزعم أنه نبي ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابن عمه هذا الغلام وفيه أن عليا قال لقد عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة خمس سنين أي ولعل المراد أنه عبده بغير الصلاة

وقوله في هذا الحديث فنظر إلى الشمس فلما رآها مالت توضأ وصلّى قد يخالف ما تقدم من أن فرض الصلاة كان ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي قبل غروب الشمس فقط

أقول قد يقال لا مخالفة لأنه يجوز أن تكون صلاته في الوقت ليست مما فرض عليه والجماعة في ذلك جائزة وقد فعلها صلى الله عليه وسلم في النفل المطلق وهذا يدل على أن الجماعة كانت مشروعة بمكة حتى في صدر الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس

وفي كلام بعض فقهاءنا أنها لم تشرع إلا في المدينة دون مكة لقهر الصحابة رضي الله تعالى عنهم إلا أن يقال المراد بمشروعيتها طلبها فكانت في المدينة مطلوبة استحبابا أو وجوبا كفاية أو عينا على الخلاف عندنا في ذلك وفي مكة كانت مباحة لكن في كلام بعض آخر من فقهاءنا أن الجماعة لم تفعل بمكة لقهر الصحابة وفيه أن القهر إنما ينافي إظهار الجماعة لا فعلها إلا أن يقال تركت حسما للباب وفيه أنه يبعد تركها وهم مستخفون في دار الأرقم فليتأمل والله أعلم

ثم بعد إسلام علي رضي الله تعالى عنه أسلم من الصحابة رضي الله تعالى عنهم زيد بن حارثة بن شرحبيل

وقال ابن هشام شرحبيل مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له خديجة أي لما تزوجها صلى الله عليه وسلم أي وكان اشتراه لها ابن أخيها حكيم بن حزام ممن سباه من الجاهلية أي فإن عمته خديجة أمرته أن يبتاع لها غلاما ظريفا عربيا فلما قدم سوق عكاظ وجد زيدا يباع أي وعمره ثمان سنين فإنه أسر من عند أخواله طي وعليه اقتصر السهيلي

فإن أمه لما خرجت به لتزيره أهلها فأصابته خيل فباعوه فاشتراه أي وقيل اشتراه من سوق حباشنة بأربعمائة درهم ويقال بستمائة درهم فلما رآته خديجة أعجبها فأخذته أي ولعل هذا مراد من قال فباعه من عمته خديجة أي اشتراه لها فلما تزوجها صلى الله عليه وسلم وهو عندها أعجب به فاستوهبه منها فوهبته له فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبناه قبل الوحي

أي وقيل اشتراه صلى الله عليه وسلم لها فإنه جاء إلى خديجة فقال رأيت غلاما بالبطحاء قد أوقفوه ليبيعه ولو كان لي ثمنه لأشتريته قالت وكم ثمنه قال سبعمائة درهم

قالت خذ سبعمائة درهم فاذهب فاشتره فاشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء به إليها وقال إنه لو كان لي لأعتقته قالت هو لك فأعتقه وقيل بل اشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشام لخديجة حيث توجه مع ميسرة فوهبته له فليتأمل ذلك وزعم أبو عبيدة أن زيد بن حارثة لم يكن اسمه زيدا ولكن النبي صلى الله عليه وسلم سماه بذلك باسم جده قصي حين تبناه

ثم إنه خرج في إبل لأبي طالب إلى الشام فمر بأرض قومه فعرفه عمه فقام إليه وقال من أنت يا غلام قال غلام من أهل مكة قال من أنفسهم قال لا قال فحر أنت أم مملوك قال مملوك قال عربي أنت أم أعجمي قال بل عربي قال من أهلك قال من كلب قال من أي كلب قال من بني عبد ود قال ويحك ابن من أنت قال ابن حارثة بن شرحبيل قال وأين أصبت قال في أخوالي قال ومن أخوالك قال طي قال ما اسم أمك قال سعدى فالتزمه وقال ابن حارثة

ودعا أباه فقال يا حارثة هذا ابنك فأتاه حارثة فلما نظر إليه عرفه قال كيف صنع مولاك إليك قال يؤثرني على أهله وولده ورزقت منه حبا فلا أصنع إلا ما شئت فركب معه أبوه وعمه وأخوه

وفي رواية أن ناسا من قومه حجوا فرأوا زيدا فعرفوه وعرفهم فانطلقوا وأعلموا أباه ووصفوا له مكانه فجاء أبوه وعمه وقد يقال لا مخالفة لجواز أن يكون اجتماعه بعمه وأبيه كان بعد إخبار أولئك الناس فلما جاء أهله في طلبه ليفدوه خيره النبي صلى الله عليه وسلم بين المكث عنده والرجوع إلى أهله فاختر المكث عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ذكر أنهم لما جاءوا للنبي صلى الله عليه وسلم قالوا يا بن عبد المطلب يا بن سيد قومه أي وفي لفظ لما قدم أبوه وعمه في فدائه سألوا عن النبي صلى الله عليه وسلم فقيل هو في المسجد فدخلا عليه فقالا يا بن عبد المطلب يا بن هاشم يا ابن سيد قومه أنتم أهل حرم الله وجيرانه تفكون الأسير العاني وتطعمون الجائع جئناك في ولدنا عندك فامن علينا وأحسن في فدائه فإننا سندفع لك فقال وما ذاك قال زيد بن حارثة فقال أو غير ذلك قالوا وما هو قال ادعوه فخيروه فإن اختركم فهو لكم من غير فداء وإن اخترني فوالله ما أنا بالذي أختار على الذي اخترني فداء فقالوا زدنا على النصف وفي لفظ زدنا على النصف وأحسن فدعا فقال تعرف هؤلاء قال نعم أبي وعمي ولعل سكوته عن أخيه لإستصغاره بالنسبة لأبيه وعمه على أن أكثر الروايات الاقتصار على مجيء أبيه وعمه

وفي كلام السهيلي أن زيدا لما جاء قال صلى الله عليه وسلم له من هذان فقال هذا أبي حارثة بن شرحبيل وهذا كعب بن شرحبيل عمي فعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم له أنا من علمت وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما فقال زيد ما أنا بالذي أختار عليك أحدا أنت مني مكان الأب والعم فقالا ويحك يا زيد تختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك قال نعم ما أنا بالذي أختار عليه أحدا فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ما رأى أخرجه إلى الحجر أي الذي هو محل جلوس قريش فقال إن زيدا ابني أرثه ويرثني فطابت أنفسهما وانصرفا وفي كلام ابن عبد البر أنه حين تبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم كان سنة ثمان

سنين وأنه حين تبناه طاف به على حلق قريش يقول هذا ابني وارثا وموروثا ويشهدهم على ذلك وكان الرجل في الجاهلية يعاقد الرجل فيقول دمي دمك وهدمي هدمك وثأري ثأرك وحربي حربك وسلمى سلمك ترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك وتعقل عني وأعقل عنك فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف أي من حالفه فنسخ ذلك وهذا الذي ذكره ابن عبد البر من أنه صلى الله عليه وسلم حين تبناه كان عمره ثمان سنين يدل على أن ذلك كان عقب ملكه صلى الله عليه وسلم له قبل الوحي وأن ذلك كان قبل مجيء أبيه وعمه وحينئذ يكون عتقه وتبنيه بعد مجيء أبيه وعمه إظهارا لما تقدم فليتأمل

وفي أسد الغابة أن حارثة أسلم وفي كلام بعضهم لم يثبت إسلام حارثة إلا المنذري ولما تبني رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا كان يقال له زيد بن محمد ولم يذكر في القرآن من الصحابة أحد بإسمه إلا هو كما سيأتي قال ابن الجوزي إلا ما يروى في بعض التفاسير أن السجل الذي في قوله تعالى * (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب) * اسم رجل كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم

أي وقد أبدى السهيلي حكمة لذكر زيد بإسمه في القرآن وهي أنه لما نزل قوله تعالى * (ادعوهم لآبائهم) * وصار يقال له زيد بن حارثة ولا يقال له زيد بن محمد ونزع منه هذا التشريف شرفه الله تعالى بذكر اسمه في القرآن دون غيره من الصحابة فصار اسمه يتلى في المحاريب

ولا يخفى أنه يأتي في زيد ما تقدم في علي ولم تذكر في القرآن امرأة باسمها إلا مريم ولزيد أخ اسمه جبلة أسن منه سئل جبلة من أكبر أنت أم زيد فقال زيد أكبر مني وأنا ولدت قبله أي لأن زيدا أفضل منه لسبقه للإسلام

ثم أسلم من الصحابة أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال بعضهم في سبب إسلامه إنه كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر غشيانه في منزله ومحادثته وكان سمع قول ورقة له لما ذهب معه إليه كما تقدم فكان متوقعا لذلك فهو مع حكيم بن حزام في بعض الأيام إذ جاءت مولاة لحكيم وقالت له إن عمك خديجة تزعم في هذا اليوم أن زوجها نبي مرسل مثل موسى فانسل أبو بكر حتى أتى رسول

الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن خبره فقص قصته المتضمنة لمجئ الوحي له بالرسالة فقال صدقت بأبي أنت وأمي وأهل الصدق أنت أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله فيقال إنه سماه يومئذ الصديق وهذا السياق ربما يدل على أن إسلام أبي بكر تأخر إلى نزل * (يا أيها المدثر) * بعد فترة الوحي بناء على ما تقدم وكونه سماه يومئذ الصديق لا ينافي ما سيأتي أنه سمي بذلك صبيحة الإسراء لما صدقه وقد كذبتة قريش لجواز أنه لم يشتهر بذلك إلا حينئذ

وقد جاء في تفسير قوله تعالى * (والذي جاء بالصدق وصدق به) * أن الذي جاء بالصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي صدق به أبو بكر قال ولما سمعت خديجة مقالة أبي بكر خرجت وعليها خمار أحمر فقالت الحمد لله الذي هداك يا بن أبي قحافة واسمه عبد الله أي سماه بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان اسمه قبل ذلك عبد الكعبة فأبو بكر رضي الله تعالى عنه أول من غير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه ولقبه عتيق لحسن وجهه أو لأنه عتق من الذم والعيب أي أو نظر إليه صلى الله عليه وسلم فقال هذا عتيق من النار فهو أول لقب وجد في الإسلام وقيل سمته بذلك أمه لأنه كان لا يعيش لها ولد فلما ولدته استقبلت به الكعبة ثم قالت اللهم هذا عتيقك من الموت فهبه لي فعاش قيل ويدل له ما ذكر بعضهم أن أمه كانت إذا هزته تقول عتيق وما عتيق ذو المنظر الأنيق

وفي كلام ابن حجر الهيتمي وصح أن الملقب له به النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل عليه في بيت عائشة وأنه غلب عليه من يومئذ قال وبه يندفع أن الملقب له أبوه وزعم أنه أمه هذا كلامه وليتأمل قوله في بيت عائشة مع ما تقدم وما في كلامه السهيلي وقيل وسمى عتيقا لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له حين أسلم أنت عتيق من النار

وكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه صدرا معظما في قريش على سعة من المال وكرم الأخلاق من رؤساء قريش ومحط مشورتهم وكان من أعف الناس كان رئيسا مكرما سخيا يبذل المال محببا في قومه حسن المجالسة وكان من أعلم الناس بتعبير الرؤيا ومن ثم قال ابن سيرين وهو المقدم في هذا العلم اتفقا كان أبو بكر أعبر هذه الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم وكان أعلم الناس بأنساب العرب

فقد جاء عن جبير بن مطعم البالغ النهاية في ذلك أنه قال إنما أخذت النسب من أبي بكر لا سيما أنساب قريش فإنه كان أعلم قريش بأنسابها وبما كان فيها من خير وشر وكان لا يعد مساويهم فمن ثم كان محببا فيهم بخلاف عقيل بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فإنه كان بعد أبي بكر أعلم قريش بأنسابها وبآبائها وما فيها من خير وشر لكن كان مبغضا إليهم لأنه كان يعد مساويهم وكان عقيل يجلس إليه في المسجد النبوي لأخذ علم الأنساب وأيام العرب ووقائعهم وفي كلام بعضهم كان أبو بكر عند أهل مكة من خيارهم يستعينون به فيما يأتيهم وكانت له بمكة ضيافات لا يفعلها أحد قال الزمخشري ولعله كنى بأبي بكر لإبتكاره الخصال الحميدة وكان نقش خاتمه نعم القادر الله وكان نقش خاتم عمر رضي الله تعالى عنه كفى بالموت واعظا يا عمر وكان نقش خاتم عثمان آمنت بالله مخلصا وكان نقش خاتم علي الملك لله وكان نقش خاتم أبي عبيدة بن الجراح الحمد لله وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت عند كبوة أي وقفة وتأخر وتردد إلا ما كان من أبي بكر وفي رواية ما كلمت أحدا في الإسلام إلا أبي علي وراجعني في الكلام إلا ابن أبي قحافة فإني لم أكلمه في شيء إلا قبله واستقام عليه أي ومن ثم كان أسد الصحابة رأيا وأكملهم عقلا لخبر تمام أتاني جبريل فقال لي إن الله أمرك أن تستشير أبا بكر ونزل فيه وفي عمر* (وشاورهم في الأمر)* كان أبو بكر رضي الله تعالى عنه بمكان الوزير من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يشاوره في أموره كلها وقد جاء إن الله تعالى أيديني بأربعة وزراء اثنين من أهل السماء جبريل ومكائيل واثنين من أهل الأرض أبي بكر وعمر وفي حديث رواه ثقات إن الله يكره أن يخطأ أبو بكر وفي رواية إن الله يكره في السماء أن يخطأ أبو بكر الصديق في الأرض وجاء الحسن بن علي وهو صغير إلى أبي بكر وهو يخطب على المنبر فقال له انزل عن مجلس أبي فقال مجلس أبيك والله لا مجلس أبي فأجلسه في حجره وبكى فقال علي والله ما هذا عن رأيي فقال والله ما اتهمتك ووقع نظير ذلك لسيدنا عمر رضي الله تعالى عنه مع سيدنا الحسين فإنه قال له

وهو يخطب انزل عن منبر أبي فقال له منبر أبيك لا منبر أبي من أمرك بهذا فقام علي فقال له ما أمره بهذا أحد ثم قال للحسين لأوجعك يا غدر فقال لا توجع ابن أخي صدق منبر أبيه

قال وسبب مبادرته إلى التصديق ما علمه من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم وبراہین صدق دعوته قبل دعوته ولرؤيا رآها قبل ذلك رأى القمر نزل إلى مكة فدخل في كل بيت منه شعبة ثم كان جميعه في حجره فقصها على بعض أهل الكتاب فعبها له بأنه يتبع النبي المنتظر الذي قد ظل زمانه وأنه يكون أسعد الناس به ولعل هذا الذي من أهل الكتاب هو بحيرا فقد رأيت أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه رأى رؤيا فقصها على بحيرا فقال له إن صدقت رؤياك فإنه سيبعث نبي من قومك تكون أنت وزيره في حياته وخليفته بعد مماته

أي وأخرج أبو نعيم عن بعض الصحابة أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة أي علم أنه النبي المنتظر لما مر عن بحيرا الراهب ولما سمعه من شيخ عالم من الأزدي قد قرأ الكتب نزل به في اليمن فقال له أحسبك حرميا فقال أبو بكر نعم فقال له أحسبك قرشيا قال نعم فقال له أحسبك تيميا قال نعم قال له بقيت لي فيك واحدة قال وما هي قال له تكشف لي عن بطنك فقال له لا أفعل أو تخبرني لم ذلك فقال أجد في العلم النجیح الصادق أن نبيا يبعث في الحرم يعاون على أمره فتى كهل فأما الفتى فخواص غمرات ودفاع معضلات وأما الكهل فأبيض نحيف على بطنه شامة وعلى فخذه اليسرى علامة أي مع كونه حرميا قرشيا تيميا بدليل قوله أحسبك حرميا أحسبك قرشيا أحسبك تيميا وما عليك أن تريني ما سألتك فقد تكاملت فيك الصفة أي كونه حرميا قرشيا تيميا أبيض نحيفا إلا ما خفى علي فقال أبو بكر فكشفت له عن بطني فرأى شامة بيضاء أو سواداء فوق سرتي أي ورأى العلامة على الفخذ الأيسر فقال أنت هو ورب الكعبة قال أبو بكر فلما قضيت أربى من اليمن أتيت لأودعه فقال أحافظ عني أبياتا من الشعر قلتها في ذلك النبي قلت نعم فذكر له أبياتا قال أبو بكر فقدمت مكة وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم فجاءني صناديد قريش كعقبة بن أبي معيط وشيبة بن ربيعة وأبي جهل وأبي البخري فقالوا يا أبا بكر يتيم أبي طالب يزعم أنه نبي ولولا إنتظارك ما إنتظرنا به فإذا قد جئت فأنت الغاية

والكفاية أي لأن أبا بكر كما تقدم كان صديقا له صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر
فصرفتهم علي أحسن شيء ثم جئته صلى الله عليه وسلم ففرغت عليه الباب فخرج إلي
وقال لي يا أبا بكر إني رسول الله إليك وإلى الناس كلهم فأمن بالله فقلت وما دليلك
علي ذلك قال الشيخ الذي أفادك الأبيات فقلت ومن أخبرك بهذا يا حبيبي قال الملك
العظيم الذي يأتي الأنبياء قبلي قلت مد يدك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله
قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه فانصرفت وما بين لابتئها أشد سرورا من رسول الله
صلى الله عليه وسلم بإسلامي وفي لفظ أشد سرورا مني بإسلامي ولا مانع من صدور
الأميرين منه رضي الله تعالى عنه

ويحتاج للجمع بين هذا وبين ما تقدم من أنه كان مع حكيم بن حزام يوما إلى آخره
علي تقدير صحة الروايتين وما جاء من شعر حسان رضي الله تعالى عنه من أن أبا بكر
أول الناس إسلاما حيث يقول فيه
* وأول الناس منهم صدق الرسلا

* وأنه صلى الله عليه وسلم سمع ذلك منه ولم ينكره بل قال صدقت بإحسان كما
سيأتي عند الكلام علي الهجرة

وقول بعض الحفاظ إن أبا بكر رضي الله تعالى عنه أول الناس إسلاما هو المشهور عند
الجمهور من أهل السنة لا ينافي ما تقدم من أن عليا أول الناس إسلاما بعد خديجة ثم
مولاه زيد بن حارثة لأن المراد أول رجل بالغ ليس من الموالي أسلم أبو بكر
أي وعبارة ابن الصلاح والأورع أن يقال أول من أسلم من الرجال الأحرار أي غير
الموالي أبو بكر ومن الصبيان علي ومن النساء خديجة ومن الموالي زيد بن حارثة وهذا
وما قبله يدل علي أن إسلام زيد بن حارثة كان بعد البلوغ وإلا فلا حاجة لزيادة ليس
من الموالي تأمل

أو أن مراد من قال إن أبا بكر سبق عليا في الإسلام أي في إظهار الإسلام لأنه حين
أسلم أظهر إسلامه بخلاف علي فقد جاء عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال إن أبا
بكر رضي الله تعالى عنه سبقني إلى أربع وعد منها إظهار الإسلام قال وأنا أخفيته ولعله
لا ينافي ذلك ما جاء بسند حسن أن أول من جهر بالإسلام عمر بن الخطاب لأن ذلك
كان عند اختفائه صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه في دار الأرقم كما سيأتي فالأولية
في إظهار الإسلام إضافية

قال ابن كثير وورد عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال أنا أول من أسلم

ولا يصح إسناد ذلك إليه قال وقد روى في هذا المعنى أحاديث أوردها ابن عساكر كثيرة منكرة كلها لا يصح شيء منها هذا كلامه وعلى تقدير صحتها مراده أول من أسلم من الصبيان فالأولية إضافية

ومما يؤثر عن علي رضي الله تعالى عنه لا تكن ممن يرجو بغير عمل ويؤخر التوبة لطول الأمل يحب الصالحين ولا يعلم بأعمالهم البشاشة فح المودة والصبر قبر العيوب والغالب بالظلم مغلوب العجب ممن يدعو ويستبطن الإجابة وقد سد طرقها بالمعاصي وأول من أسلم من النساء بعد خديجة رضي الله تعالى عنها أم الفضل زوج العباس وأسماء بنت أبي بكر وأم جميل فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب وينبغي أن تكون أم أيمن سابقة في الإسلام على أم الفضل على ما تقدم وقول السراج البلقيني موافقة للزين العراقي إن أول رجل أسلم ورقة بن نوفل لقوله للنبي صلى الله عليه وسلم أنا أشهد أنك الذي بشر بك عيسى ابن مريم وأنت على مثل ناموس موسى وأنت نبي مرسل قد علمت ما فيه وأنه إنما كان من أهل الفترة كما صرح به الحافظ الذهبي وهو يرد القول المتقدم بأن وفاة ورقة تأخرت عن البعثة فورقة ونحوه كبحيرا ونسطورا من أهل الفترة لا من أهل الإسلام ويؤيده ما تقدم أنه بإجماع المسلمين لم يتقدم خديجة في الإسلام لا رجل ولا امرأة لكن هؤلاء من القسم الذي تمسك بدين قبل نسخه وآمن وصدق بأنه صلى الله عليه وسلم الرسول المنتظر وذلك نافع له في الآخرة ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم لما توفى ورقة لقد رأيت القس يعني ورقة في الجنة وعليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدقني إلى آخر ما تقدم وعلى تسليم أنه لا يشترط في المسلم أن يؤمن ويصدق برسالته صلى الله عليه وسلم بعد وجودها بل يكفي ولو قبل ذلك فليس ورقة بصحابي لأن الصحابي من اجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد الرسالة مؤمنا بما جاء به عن الله تعالى أي محكوما بإيمانه

ومن ثم رد الحافظ الذهبي على ابن منده أي ومن وافقه كالزين العراقي في عده له من الصحابة أي كما عد منهم بحيرا ونسطورا بقوله الأظهر أن من مات بعد النبوة وقبل الرسالة فهو من أهل الفترة هذا كلام الحافظ الذهبي والمراد بالرسالة نزول * (يا أيها المدثر) * لإظهارها ونزول قوله تعالى * (فاصدع بما تؤمر) * بناء على تأخر الرسالة

وحين أسلم أبو بكر رضي الله تعالى عنه دعا إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من وثق به من قومه فأسلم بدعائه عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس

أي ولما أسلم عثمان رضي الله تعالى عنه أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية والد مروان فأوثقه كتفا وقال ترغب عن ملة آبائك إلى دين محمد والله لا أحلك أبدا حتى تدع ما أنت عليه فقال عثمان والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه فلما رأى الحكم صلابته في الحق تركه وقيل عذبه بالدخان ليرجع فما رجع

وفي كلام ابن الجوزي أن المعذب بالدخان ليرجع عن الإسلام الزبير بن العوام هذا كلامه ولا مانع من تعدد ذلك وجاء لكل نبي رقيق في الجنة ورفيقي فيها عثمان ابن عفان

وأسلم بدعاء أبي بكر أيضا الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه وكان عمره ثمان سنين على ما تقدم وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه أي وكان اسمه في الجاهلية عبد عمر وقيل عبد الكعبة وقيل عبد الحارث فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن قال وكان أمية بن خلف لي صديقا فقال لي يوما أرغبت عن اسم سماك به أبوك فقلت نعم فقال لي إني لا أعرف الرحمن ولكن أسميك بعبد الإله فكان يناديني بذلك

قال وسبب إسلام عبد الرحمن بن عوف ما حدث به قال سافرت إلى اليمن غير مرة وكنت إذا قدمت نزلت على عسكلان بن عواكف الحميري فكان يسألني هل ظهر فيكم رجل له نبأ له ذكر هل خالف أحد منكم عليكم في دينكم فأقول لا حتى كانت السنة التي بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمت اليمن فنزلت عليه إلى آخر القصة

وعن علي رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعبد الرحمن بن عوف أنت أمين في أهل الأرض أمين في أهل السماء وجاء أنه وصفه بالصادق الصالح البار

وأسلم بدعاية أبي بكر رضي الله تعالى عنه أيضا سعد بن أبي وقاص أي فإن أبا بكر لمادعاه إلى الإسلام لم يبعد وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن أمره فأخبره به فأسلم وكان عمره تسع عشرة سنة وهو رضي الله تعالى عنه من بني زهرة ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم وقد أقبل عليه سعد خالي فليرني امرؤ خاله

وفي كلام السهيلي أنه عم آمنة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم وكرهت أمه إسلامه وكان باراً بها فقالت له أأست تزعم أن الله يأمر بك بصلة الرحم وبر الولدين قال فقلت نعم فقالت والله لا أأكل طعاماً ولا شربت شراباً حتى تكفر بما جاء به محمد أي وتمس إسافاً ونائلة فكانوا يفتحون فاهما ثم يلقون فيه الطعام والشراب فأنزل الله تعالى * (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) * الآية وفي رواية أنها مكثت يوماً وليلة لا تأكل فأصبحت وقد خمدت ثم مكثت يوماً وليلة لا تأكل ولا تشرب قال سعد فلما رأيت ذلك قلت لها تعلمين والله يا أمه لو كان لك مائة نفس تخرج فسا ما تركت دين هذا النبي صلى الله عليه وسلم فكلتي إن شئت أو لا تأكلي فلما رأيت ذلك أأكلت

وفي الأنساب للبلاذري عن سعد قال أخبرت أمي أنني كنت أصلي العصر أي الركعتين اللتين كانوا يصلونهما بالعشي فجئت فوجدتها على بابها تصيح ألا أعوان يعينوني عليه من عشيرتي أو عشيرتي فأحبسه في بيت وأطبق عليه بابه حتى يموت أو يدع هذا الدين المحدث فرجعت من حيث جئت وقلت لا أعود إليك ولا أقرب منزلك فهجرتها حيناً ثم أرسلت إلى أن عد إلى منزلك ولا تتضيفن فيلزمنا عار فرجعت إلى منزلي فمرة تلقاني بالبشر ومرة تلقاني بالبشر وتعيرني بأخي عامر وتقول هي البر لا يفارق دينه ولا يكون تابعا فلما أسلم عامر لقي منها ما لم يلق أحد من الصياح والأذى حتى هاجر إلى الحبشة ولقد جئت والناس مجتمعون على أمي وعلى أخي عامر فقلت ما شأن الناس فقالوا هذه أمك قد أخذت أخاك عامراً وهي تعطى الله عهداً لا يظلمها نخل ولا تأكل طعاماً ولا تشرب شراباً حتى يدع صباه فقلت لها والله يا أمه لا تستظلين ولا تأكلين ولا تشربين حتى تتبؤئي مقعدك من النار

وجاء أنه صلى الله عليه وسلم أمر سعد بن أبي وقاص أن يأتي الحارث بن كلدة طبيب العرب ليستوصفه في مرض نزل بسعد وكان ذلك في حجة الوداع فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود عبد الرحمن بن عوف لمرض نزل به فوجد عند الحارث فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن إني لأرجو أن يشفيك الله حتى يضر بك قوم وينتفع بك آخرون ثم قال للحارث بن كلدة عالج سعداً مما به وكان سعد بالمجلس فقال والله إني لأرجو شفاءه فيما ينفعه من رجله هل معك من هذه الثمرة العجوة شيء قال نعم فخلط ذلك الثمر بحلبة ثم أوسعها سمناً ثم أحسأه إياها فكأنما نشط من عقال وهذا استدلال

به على إسلام الحارث بن كلدة لأن حجة الوداع لم يحج فيها مشرك فهو معدود من الصحابة وأنكر بعضهم إسلامه وجعله دليلاً على جواز استشارة أهل الكفر في الطب إذا كانوا من أهله

وممن أسلم بدعاية أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أيضاً طلحة بن عبد الله التيمي فجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استجاب له فأسلم أي ولما تظاهر أبو بكر وطلحة بالإسلام فأخذهما نوفل بن العدوية وكان يدعى أسد قريش فشدهما في حبل واحد ولم يمنعهما بنو تيمم ولذلك سمي أبو بكر وطلحة القرينين ولشدة ابن العدوية وقوة شكيمته كان صلى الله عليه وسلم يقول اللهم اكفنا شر ابن العدوية

أقول سبب إسلام طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه ما تقدم أنه قال حضرت سوق بصرى فإذا راهب في صومعته يقول سلوا أهل هذا الموسم هل ثم من أهل الحرم أحد فقلت نعم أنا قال هل ظهر أحد بعد قلت ومن أحمد قال ابن عبد الله بن عبد المطلب هذا شهره الذي يخرج فيه وهو آخر الأنبياء مخرجه من الحرم ومهاجره إلى أرض ذات نخل وسباخ فإياك أن تسبق إليه قال طلحة فوقع في قلبي ما قال فخرجت سريعاً حتى قدمت مكة فقلت هل كان من حدث قالوا نعم محمد بن عبد الله الأمين يدعو إلى الله وقد تبعه ابن أبي قحافة فخرجت حتى دخلت على أبي بكر رضي الله تعالى عنه فأخبرته بما قال الراهب فخرج أبو بكر حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فسر بذلك وأسلم طلحة

وطلحة هذا هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وقد شاركه رجل آخر في اسمه واسم أبيه ونسبه وهو طلحة بن عبيد الله التيمي وهو الذي نزل فيه قوله تعالى * (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه) * الآية لأنه قال لئن مات محمد رسول الله لأتزوجن عائشة وفي لفظ يتزوج محمد بنات عمنا ويحجبهن عنا لئن مات لأتزوجن عائشة من بعده فنزلت الآية

قال الحافظ السيوطي وقد كنت في وقفة شديدة من صحة هذا الخبر لأن طلحة أحد العشرة أجل مقاماً من أن يصدر عنه ذلك حتى رأيت أنه رجل آخر شاركه في اسمه واسم أبيه ونسبه هذا كلامه

والحاصل أن أبا بكر أسلم على يده خمسة من العشرة المبشرين بالجنة وهم عثمان وطلحة بن عبيد الله ويقال له طلحة الفياض وطلحة الجود والزبير وسعد ابن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وزاد بعضهم سادسا وهو أبو عبيدة بن الجراح وكان كل من أبي بكر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بزازا وكان الزبير جزارا وكان سعد بن أبي وقاص يصنع النبل والله أعلم ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء

وذكر في الأصل جماعة من السابقين للإسلام منهم عبد الله بن مسعود وأن سبب إسلامه ما حدث به قال كنت في غنم لآل عقبة بن أبي معيط فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر بن أبي قحافة فقال النبي صلى الله عليه وسلم هل عندك لبن فقلت نعم ولكني مؤتمن قال هل عندك من شاة لم ينز عليها الفحل قلت نعم فأتيته بشاة شصوص لا ضرع لها فمسح النبي صلى الله عليه وسلم مكان الضرع فإذا ضرع حافل مملوء لبنا كذا في الأصل وفي الصحاح كما في النهاية الشصوص التي ذهب لبنها وحينئذ يكون قول الأصل لا ضرع لها أي لا لبن لها ويدل لذلك قول ابن حجر الهيثمي في شرح الأربعين فمسح ضرعها وقول ابن مسعود فمسح مكان الضرع أي محل اللبن فأتي النبي صلى الله عليه وسلم بصخرة منقورة فاحتلب النبي صلى الله عليه وسلم فسقى أبا بكر وسقاني ثم شرب ثم قال للضرع اقلص فرجع كما كان أي لا وجود له على ظاهر ما في الأصل أو لا لبن فيه على ما في النهاية كالصحاح وإلى ذلك أشار الإمام السبكي في تائيته بقوله

* ورب عناق مانزا الفحل فوقها

* مسحت عليها باليمين فدرت

*

قال ابن مسعود فما رأيت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت يا رسول الله علمني فسمح رأسي وقال بارك الله فيك فإنك غلام معلم أقول فإن قيل قول ابن مسعود ولكني مؤتمن وعدوله صلى الله عليه وسلم عن ذات اللبن إلى غيرها يخالف ما سيأتي في حديث المعراج والهجرة أن العادة كان جارية بإباحة مثل ذلك اللبن لابن السبيل إذا احتاج إلى ذلك فكان كل راع مأذونا له في ذلك وإذا كان ذلك أمرا متعارفا مشهورا يبعد خفاؤه قلنا قد يقال لا مخالفة لأن ابن السبيل المسافر وجاز أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم

وأبو بكر رضي الله تعالى عنه لم يكونا مسافرين لجواز أن تكون تلك الغنم التي كان فيها ابن مسعود ببعض نواحي مكة القريبة منها التي لا يعد قاصدها مسافرا ولعله لا ينافي ذلك ما سيأتي أن من خصائصه صلى الله عليه وسلم أبيض له أخذ الطعام والشراب من مالكهما المحتاج إليهما إذا احتاج صلى الله عليه ولم إليهما وأنه يجب على مالكهما بذل ذلك له

وكان عبد الله بن مسعود يعرف بأمه وهي أم عبد وكان قصيرا جدا طوله نحو ذراع خفيف اللحم ولما ضحكت الصحابة رضي الله تعالى عنهم من دقة رجله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل عبد الله في الميزان أثقل من أحد وقال صلى الله عليه وسلم في حقه رضيت لأمتي ما رضيت لها ابن أم عبد وسخطت لها ما سخط لها ابن أم عبد

وقوله لرجل عبد الله في الميزان يدل للقول بأن الموزون الإنسان نفسه لا عمله وكان صلى الله عليه وسلم يكرمه ويدنيه ولا يحجبه فلذلك كان كثير الولوج عليه صلى الله عليه وسلم وكان يمشي أمامه صلى الله عليه وسلم ومعه ويستتره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام ويلبسه نعليه إذا قام فإذا جلس أدخلهما في ذراعيه ولذلك كان مشهورا بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم بأنه صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ولم أقف على أنه أسلم حين أجفلت الشاة لكن قول العلامة ابن حجر الهيتمي في شرح الأربعين أسلم قديما بمكة لما مر به صلى الله عليه وسلم وهو يرعى غنما إلى آخره يدل على أنه أسلم حينئذ ومما يؤثر عنه الدنيا كلها هموم فما كان فيها من سرور فهو ربح والله أعلم

وذكر في الأصل أن من السابقين أبا ذر الغفاري واسمه جندب بن جنادة بضم الجيم فيهما قال وسبب إسلامه ما حدث به قال صليت قبل أن ألقى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين لله أتوجه حيث يوجهني ربي فبلغنا أن رجلا خرج بمكة يزعم أنه نبي فقلت لأخي أنيس انطلق إلى هذا الرجل فكلمه وأتني بخبره فلما جاء أنيس قلت له ما عندك فقال والله رأيت رجلا يأمر بخير وينهى عن الشر وفي رواية رأيتك على دينه يزعم أن الله أرسله ورأيت أنه يأمر بمكارم الأخلاق قلت فما يقول الناس فيه قال يقولون شاعر كاهن ساحر والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون فقلت اكفني حتى أذهب فانظر قال نعم وكن على حذر من أهل مكة فحملت جرابا وعصا ثم

أقبلت حتى أتيت مكة فجعت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه فمكثت في المسجد ثلاثين ليلة ويوما وما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطني وما وجدت على بطني سحنة جوع والسحنة بالتحريك قيل حرارة يجدها الإنسان من الجوع ففي ليلة لم يطف بالبيت أحد وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه جاءا فطافا بالبيت ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قضى صلاته أتيته فقلت السلام عليك يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فرأيت الإستبشار في وجهه ثم قال من الرجل قلت من غفار بكسر المعجمة قال متى كنت قال كنت من ثلاثين ليلة ويوما ههنا قال فمن كان يطعمك قلت ما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطني وما أجد على بطني سحنة جوع قال مبارك إنها طعام طعم وشفاء سقم أي وجاء ماء زمزم لما شرب له إن شربته لتشفى شفاك الله وإن شربته لتشبع أشبعك الله وإن شربته لتقطع ظمأك قطعه الله وهي هزيمة جبريل وسقيا الله إسماعيل وجاء التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق وجاء آية ما بيننا وبين المنافق أنهم لا يتضلعون من ماء زمزم

وذكر أن أبا ذر أول من قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم السلام عليك التي هي تحية الإسلام فهو أول من حيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحية الإسلام وبأيع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يأخذه في الله لومة لائم وعلى أن يقول الحق ولو كان مرا ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أظلت الخضراء أي السماء ولا أقلت الغبراء أي الأرض أصدق من أبي ذر وقال صلى الله عليه وسلم في حقه أبو ذر يمشي في الأرض على زهد عيسى ابن مريم وفي الحديث أبو ذر أزهد أمتي وأصدقها وقد هاجر أبو ذر إلى الشام بعد وفاة أبي بكر واستمر بها إلى أن ولي عثمان فاستقدمه من الشام لشكوى معاوية منه وأسكنه الربرة فكان بها حتى مات فإن أبا ذر صار يغلظ القول لمعاوية ويكلمه بالكلام الخشن

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن لقياً أبي ذر لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان بدلالة علي رضي الله تعالى عنه وأنه قال له ما أقدمك هذه البلدة فقال له أبو ذر إن كتمت علي أخبرتك وفي رواية إن أعطيتني عهدا وميثاقا أن ترشدني أخبرتك ففعل قال أبو ذر فأخبرته فأرشدني وأوصلني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلمت

وفي الإمتاع أن عليا استضاف أبا ذر ثلاثة أيام لا يسأله عن شيء وهو لا يخبره ثم في الثالث قال له ما أمرك وما أقدمك هذه البلدة قال له إن كتبت علي أخبرتك قال فإني أفعل قال له بلغنا أنه خرج هنا رجل يزعم أنه نبي فأرسلت أخي ليكلمه فرجع ولم يشفني من الخبر فأردت أن ألقاه فقال له أما إنك قد رشدت هذا وجهي أي خروجي إليه فاتبعني أدخل حيث أدخل فإن رأيت أحدا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي وفي لفظ كأني أريق الماء فامض أنت قال أبو ذر فمضى ومضيت حتى دخل ودخلت معه على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له أعرض علي الإسلام فعرضه علي فأسلمت مكاني الحديث

وما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم له من كان يطعمك وجواب أبي ذر له صلى الله عليه وسلم بقوله ما كان لي طعام إلا ماء زمزم يبعد أن يكون علي رضي الله تعالى عنه أضاف أبا ذر ولم يأكل عنده وكذا يبعدة ما جاء أن أبا بكر قال يا رسول الله ائذن لي في إطعامه الليلة قال أبو ذر فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فانطلقت معهما ففتح أبو بكر بابا فجعل يفيض لنا من زبيب الطائف فكان ذلك أول طعام أكلته إلا أن يحمل الطعام على خصوص الزبيب

ويمكن التوفيق بين الروایتين أي رواية دخوله على النبي صلى الله عليه وسلم مع علي فأسلم ورواية اجتماعه به في الطواف فأسلم بأن يكون أبو ذر دخل عليه أولا مع علي ثم لقيه في الطواف ويكون المراد حينئذ بإسلامه الثاني الثبات عليه بتكرير الشهادتين وعذره في عدم اجتماعه به في المسجد مدة ثلاثين يوما عدم خلو المطاف كما يرشد لذلك قوله ففي ليلة لم يطف بالبيت أحد إلى آخره وإلا فيبعد أن يكون صلى الله عليه وسلم لم يدخل المسجد للطواف مدة ثلاثين يوما

ويبعد هذا الجمع قوله صلى الله عليه وسلم له من الرجل إلى آخره ثم قال صلى الله عليه وسلم لأبي ذر يا أبا ذر اكتب هذا الأمر وارجع إلى قومك فأخبرهم يأتوني فإذا بلغك ظهورنا فأقبل فقلت والذي بعثك بالحق لأصرخن بهذا بين ظهرانيهم قال وكنت في أول الإسلام خامسا وفي رواية رابعا ولعل المراد من الإعراب فلا ينافي ما يأتي في وصف خالد بن سعيد فلما اجتمعت قريش بالمسجد ناديت بأعلى صوتي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فقالوا قوموا إلى هذا الصابئ فضربت

لأموت وفي لفظ فمال علي أهل الوادي بكل مدرة وعظم حتى خررت مغشيا علي فأكب علي العباس ثم قال لهم ويلكم أستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم عليهم فخلوا عني قال فجئت زمزم فغسلت عني الدماء فلما أصبحت الغداة رجعت لمثل ذلك فصنع بي مثل ما صنع وأدركني العباس وكان منه كالأمس فخرجت وأتيت أنيسا فقال ما صنعت فقلت قد أسلمت وصدقت فقال ما لي رغبة عن دينك فإني قد أسلمت وصدقت فأتينا أمنا فقالت ما لي رغبة عن دينكما فإني أسلمت وصدقت ثم أتينا قومنا غفارا فأسلم نصفهم وقال نصفهم إذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أسلمنا فلما جاء المدينة أسلم نصفهم الثاني أي لأنه صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر إني وجهت إلى أرض ذات نخل لا أراها إلا يثرب فهل أنت مبلغ قومك عسى الله أن ينفعهم بك ويأجرك فيهم وجاءت أسلم القبيلة المعروفة فقالوا يا رسول الله نسلم على الذي أسلم عليه إخواننا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفار غفر الله لها وأسلم سالمها الله

أي وقد ذكر أن أبا ذر وقف يوما عند الكعبة أي في حجة حجها أو عمرة اعتمرها فأكتنفه الناس فقال لهم لو أن أحدكم أراد سفرا أليس يعد زادا فقالوا بلى فقال سفر القيامة أبعد مما تريدون فخذوا ما يصلحكم قالوا وما يصلحنا قال حجوا حجة لعظائم الأمور وصوموا يوما شديدا حره ليوم النشور وصلوا في ظلمة الليل لوحشة القبور وممن أسلم خالد بن سعيد بن العاص رضي لله تعالى عنه قيل كان حين أسلم رابعا وقيل خامسا وهو أول من أسلم من إخوته ويمكن أن يكون ذلك محمل قول ابنته أم خالد أول من أسلم أبي أي من إخوته

وسبب إسلامه أنه رأى في النوم النار ورأى من فظاعتها وأهوالها أمر مهولا ورأى أنه على شفيرها وأن أباه يريد أن يلقيه فيها ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذا بحجزته يمنع من الوقوع فيها فقام من نومه فزعا وقال أحلف بالله أن هذه الرؤيا حق وعلم أن نجاته من النار تكون على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى أبا بكر فذكر له ذلك فقال له أريد بك خير هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعه فأتاه فقال يا محمد إلام تدعو قال أدعو إلى الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده

ورسوله وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع
فأسلم خالد

وفي الوفاء عن أم خالد بنت خالد بن سعيد أنها قالت كان خالد بن سعيد ذات ليلة
نائما قبيل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رأيت كأنه غشيت مكة ظلما
حتى لا يبصر امرؤ كفه فبينما هو كذلك إذ خرج نور أي من زمزم ثم علا في السماء
فأضاء في البيت ثم أصاب مكة كلها ثم تحول إلى يثرب فأصابها حتى أنني لأنظر إلى
اليسر في النخل فاستيقظت فقصصتها على أخي عمرو بن سعيد وكان جزل الرأي فقال
يا أخي إن هذا الأمر يكون في بني عبد المطلب ألا ترى أنه خرج من حفر أبيهم ثم إنه
ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي بعد مبعثه فقال يا خالد أنا والله ذلك
النور وأنا رسول الله وقص عليه ما بعثه الله به فأسلم خالد وعلم أبوه بذلك أبوه وهو
سعيد أبو أجيحة وكان من عظماء قريش كان إذا أعتم لم يعتم قرشي إعظاما له ومن ثم
قال فيه القائل

* أبا أجيحة من يعتم عمته

* يضرب وإن كان ذا مال وذا عدد

*

وعند إسلام ولده خالد أرسل في طلبه فانتهره وضربه أي بمقرعة كانت في يده حتى
كسرها على رأسه ثم قال اتبعت محمدا وأنت ترى خلافه لقومه وما جاء به من عيب
آلتهم وعيب من مضى من آبائهم فقال والله تبعته على ما جاء به فغضب أبوه وقال
أذهب يا لكع حيث شئت وقال والله لأمنعك القوت قال إن منعتني فإن الله يرزقني ما
أعيش به فأخرجه وقال لبنيه ولم يكونوا أسلموا لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به
فانصرف خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يلزمه ويعيش معه ويغيب عن
أبيه في نواحي مكة حتى خرج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض
الحبشة في الهجرة الثانية فكان خالد أول من هاجر إليها

وذكر عن والده سعيد أنه مرض فقال إن رفعني الله من مرضي هذا لا يعبد إله ابن أبي
كبشة بمكة أبدا فقال خالد عند ذلك اللهم لا ترفعه فتوفى في مرضه ذلك وخالد هذا
أول من كتب بسم الله الرحمن الرحيم وأسلم أخوه عمرو بن سعيد بن العاص رضي
الله تعالى عنه

قيل وسبب إسلامه أنه رأى نورا خرج من زمزم أضاءت له منه نخل المدينة حتى

رأى البسر فيها فقصر رؤياه فقبل له هذه بئر بني عبد المطلب وهذا النور منهم يكون فكان سببا لإسلامه وتقدم قريبا أن هذا الرؤيا وقعت لخالد فكانت سبب إسلامه وأنه قصه على أخيه عمرو المذكورة فهو من خلط بعض الرواة إلا أن يقال لا مانع من تعدد هذه الرؤية لخالد ولأخيه عمرو وأنها كانت سببا لإسلامهما وأسلم من بني سعيد أيضا أبان والحكم الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله أي ومن السابقين للإسلام صهيب كان أبوه عاملا لكسرى أغارت الروم عليهم فسبت صهيبا وهو غلام صغير فنشأ في الروم حتى كبر ثم ابتاعه جماعة من العرب وجاءوا به إلى سوق عكاظ فابتاعه منهم بعض أهل مكة أي وهو عبدالله بن جدعان فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مر صهيب على دار رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عمار بن ياسر فقال له عمار بن ياسر أين تريد يا صهيب قال أريد أن أدخل إلى محمد فأسمع كلامه وما يدعو إليه قال عمار وأنا أريد ذلك فدخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرهما بالجلوس فجلسا وعرض عليهما الإسلام وتلا عليهما ما حفظ من القرآن فتشهدا ثم مكثا عنده يومهما ذلك حتى أمسيا خرجا مستخفين فدخل عمار على أمه وأبيه فسألاه أين كان فأخبرهما بإسلامه وعرض عليهما الإسلام وقرأ عليهما ما حفظ من القرآن في يومه ذلك فأعجبهما فأسلما على يده فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميه الطيب المطيب وأسلم أيضا حصين والد عمران بن حصين رضي الله تعالى عنهما بعد إسلام والده عمران

وسبب إسلامه أن قريشا جاءت إليه وكانت تعظمه وتجله فقالوا له كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبها فجاءوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبي صلى الله عليه وسلم ودخل حصين فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال أوسعوا للشيخ وعمران وولده في الصحابة فقال حصين ما هذا الذي بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرها فقال يا حصين كم تعبد من إله قال سبعة في الأرض وواحد في السماء فقال فإذا أصابك الضر لمن تدعو قال الذي في السماء قال فإذا هلك المال من تدعو قال الذي في السماء قال فيستجيب له وحده وتشرك معه أرضيته في الشرك يا حصين أسلم تسلم فأسلم فقام إليه ولده عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه فبكى

صلى الله عليه وسلم وقال بكيت من صنع عمران دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه عمران ولم يلتفت ناحيته فلما أسلم وفي حقه فدخلني من ذلك الرقة فلما أراد حصين الخروج قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه شيعوه إلى منزله فلما خرج من سدة الباب أي عتبه رأته قريش قالوا قد صبا وتفرقوا عنه

باب استخفائه صلى الله عليه وسلم وأصحابه في دار الأرقم ابن الأرقم رضي الله تعالى عنهما ودعائه صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام جهرة وكلام قريش لأبي طالب في أن يخلى بينهم وبينه وما لقي هو وأصحابه من الأذى وإسلام عمه حمزة رضي الله تعالى عنه

عن ابن إسحاق أن مدة ما أخفى صلى الله عليه وسلم أمره أي المدة التي صار يدعو الناس فيها خفية بعد نزول * (يا أيها المدثر) * ثلاث سنين أي فكان من أسلم إذا أراد الصلاة يذهب إلى بعض الشعاب يستخفى بصلاته من المشركين أي كما تقدم فينما سعد ابن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب من شعاب مكة إذا ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم وعابوا عليه ما يصنعون حتى قاتلوهم فضرب سعد بن أبي وقاص رجلا منهم بلحى بعير فشججه فهو أول دم أهرىق في الإسلام ثم دخل صلى الله عليه وسلم وأصحابه مستخفين في دار الأرقم أي بعد هذه الواقعة فإن جماعة أسلموا قبل دخوله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ودار الأرقم هي المعروفة الآن بدار الخيزران عند الصفا اشتراها الخليفة المنصور وأعطها ولده المهدي ثم أعطها المهدي للخيزران أم ولديه موسى الهادي وهارون الرشيد ولا يعرف امرأة ولدت خليفتين إلا هذه وولادة جارية عبد الملك بن مروان فإنه أم الوليد وسليمان

وقد روت الخيزران عن زوجها المهدي عن أبيه عن جده عن ابن عباس رضي الله

تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اتقى الله وقاه كل شيء
فكان صلى الله عليه وسلم وأصحابه يقيمون الصلاة بدار الأرقم ويعبدون الله تعالى فيها
إلى أن أمره الله تعالى بإظهار الدين

أي وهذا السياق يدل على أنه صلى الله عليه وسلم استمر مستخفيا هو وأصحابه في
دار الأرقم إلى أن أظهر الدعوة وأعلن صلى الله عليه وسلم في السنة الرابعة أي وقيل
مدة استخفائه صلى الله عليه وسلم أربع سنين وأعلن في الخامسة وقيل أقاموا في تلك
الدار شهرا وهم تسعة وثلاثون وقد يقال الإقامة شهرا مخصوصة بالعدد المذكور فلا
منافاة وإعلانه صلى الله عليه وسلم كان في الرابعة أو الخامسة بقوله تعالى * (فاصدع
بما تؤمر وأعرض عن المشركين) * وبقوله تعالى * (وأندر عشيرتك
الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) * أي أظهر ما تؤمر به من الشرائع
وادع إلى الله تعالى ولا تبال بالمشركين وخوف بالعقوبة عشيرتك الأقربين وهم بنو
هاشم وبنو المطلب أي وبنو عبد شمس وبنو نوفل أولاد عبد المطلب بدليل ما يأتي
قال بعضهم آية * (فاصدع بما تؤمر) * اشتملت على شرائط الرسالة وشرائعها
وأحكامها وحلالها وحرامها

وقال بعضهم إنما أمر بالصدع لغلبة الرحمة عليه صلى الله عليه وسلم قال ذكر بعضهم
أنه لما نزل عليه صلى الله عليه وسلم قوله تعالى * (وأندر عشيرتك الأقربين) * اشتد
ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وضاق به ذرعا أي عجز عن إحتماله فمكث شهرا
أو نحوه جالسا في بيته حتى ظن عماته أن شاك أي مريض فدخلن عليه عائدات فقال
صلى الله عليه وسلم ما اشتكيت شيئا لكن الله أمرني بقوله * (وأندر عشيرتك الأقربين)
* فأريد أن اجمع بني عبد المطلب لأدعوهم إلى الله تعالى قلن فادعهم ولا تجعل عبد
العزى فيهم يعني عمه أبا لهب فإنه غير مجيبك إلى ما تدعوه إليه وخرجن من عنده
صلى الله عليه وسلم أي وكنى عبد العزى بأبي لهب لجمال وجهه ونضاره لونه كأنه
وجهه وجبينه ووجنتيه لهب النار أي خلافا لما زعمه بعضهم أن ولده عقير الأسد أو
ولد آخر غيره كان اسمه لهبا

قال وفي الإتيان ليس في القرآن من الكنى غير أبي لهب ولم يذكر اسمه وهو عبد
العزى أي الصنم لأنه حرام شرعا هذا كلامه وفيه أن الحرام وضع ذلك لا استعماله
وفي كلام بعضهم ما يفيد أن الاستعمال حرام أيضا إلا أن يشتهر بذلك كما في
الأوصاف المنقصة كالأعمش

وفي كلام القاضي وإنما كناه والكنية تكرمه أي بالعدول عن الاسم إليها لإشتهاره بكنيته ولأن اسمه عبد العزى هو الصنم فاستكره ذكره ولأنه لما كان من أصحاب النار كانت الكنية أوفق بحاله في الآخرة فهي كنية تفيد الذم فاندفع ما يقال هذا يخالف قولهم ولا يكنى كافر وفاسق ومبتدع إلا لخوف فتنة أو تعريف لأن ذلك خاص بالكنية التي تفيد المدح لا الذم ولم يشتهر بها صاحبها قال فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى بني عبد المطلب فحضروا وكان فيهم أبو لهب فلما أخبرهم بما أنزل الله عليه أسمعهم ما يكره قال تبا لك ألهذا جمعنا أي وأخذ حجرا ليرميه به وقال له ما رأيت أحدا قط جاء بني أبيه وقومه بأشر ما جئتهم به فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتكلم في ذلك المجلس انتهى أي وفي الإمتاع أن أبا لهب ظن أنه صلى الله عليه وسلم يريد أن ينزع عما يكرهون إلى ما يحبون فقال له هؤلاء عمومتك وبنو عمومتك فتكلم بما تريد واترك الصبابة واعلم أنه ليس لقومك بالعرب طاقة وإن أحق من أخذك وحبسك أسرتك وبنوا أبيك إن أقيمت على أمرك فهو أسير عليك من أن تتب عليك بطون قريش وتمدها العرب فما رأيت يا ابن أخي أحدا قط جاء بني أبيه وقومه بشر ما جئتهم به وعند ذلك أنزل الله تعالى * (تبت) * أي خسرت وهلكت * (يدا أبي لهب وتب) * أي خسرت وهلكت بجملته أي والمراد بالأول جملته عبر عنها باليدين مجازا والمراد به الدعاء وبالثاني الخبر على حد قولهم أهلكه الله وقد هلك أي ولما قال أبو لهب عند نزول * (تبت يدا أبي لهب وتب) * إن كان ما يقوله محمد حقا افتديت منه بمالي وولدي نزل * (ما أغنى عنه ماله وما كسب) * أي وأولاده لأن الولد من كسب أبيه أي وفي رواية وهي في الصحيحين أنه دعا قريشا فاجتمعوا فخص وعم فقال يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار أي وفيه أنه إنما أمر بالإنذار لعشرته الأقربين ثم قال صلى الله عليه وسلم يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد زهرة أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة أنقذي نفسك من النار يا صفية عمة محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئا وفي لفظ لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من

الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله أي لا تبغوا على كفركم اتكالا على قرابتكم مني فهو حث لهم على صالح الأعمال وترك الإتكال غير أن لكم رحما سألها ببلالها أي أصلها بالدعاء أي والبلال بالفتح كقطام ما ييل الحلق من الماء أو اللبن وبل رحمه إذا وصلها وبلوا أرحامكم ندوها بالصلة وفي الحديث بلوا أرحامكم ولو بالسلام أي وصلوها أي وقد ذكر أئمتنا صابط الصلة

وفي تخصيصه صلى الله عليه وسلم فاطمة من بين بناته مع أنها أصغرهن وقيل أصغر بناته رقية وتخصيصه صلى الله عليه وسلم صفية من بين عماته حكمة لا تخفى ومن الغريب ما في الكشاف من زيادة يا عائشة بنت أبي بكر يا حفصة بنت عمر عندي أن ذكر عائشة وحفصة بل وفاطمة هنا من خلط بعض الرواة وأن هذا ذكره صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فذكره بعض الرواة هنا فإن المراد بالإنقاذ من النار الإتيان بالإسلام بدليل قوله صلى الله عليه وسلم إلى أن تقولوا لا إله إلا الله مع أنه تقدم أن بناته عليه الصلاة والسلام لم يكن كفارا فليتأمل

ثم مكث صلى الله عليه وسلم أياما ونزول عليه جبريل وأمره بإمضاء أمر الله تعالى فجمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانيا وخطبهم ثم قال لهم إن الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا والله يا بني عبد المطلب ما أعلم شابا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة فتكلم القوم كلاما لينا غير أبي لهب فإنه قال يا بني عبد المطلب هذه والله السوأة خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم فإن أسلمتموه حينئذ ذلتم وإن منعتموه قتلتم فقالت له أخته صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله تعالى عنها أي أخي أيحسن بك خذلان ابن أخيك فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضى أي أصل عبد المطلب نبي فهو هو قال هذا والله الباطل والأمانى وكلام النساء في الحجال إذا قامت بطون قريش وقامت معها العرب فما قوتنا بهم فوالله ما نحن عندهم إلا أكلة رأس فقال أبو طالب والله لنمنعنه ما بقينا ثم دعا النبي صلى الله عليه وسلم جميع قريش وهو قائم على الصفا وقال إن أخبرتكم

أن خيلا تخرج من سنح بالنون والحاء المهملة أي أصل وفي لفظ سفح بالفاء والحاء المهملة هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم تكذبوني قالوا ما جربنا عليك كذبا فقال يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإنني لا أغني عنكم من الله شيئا إني لكم نذير مبين بين يدي عذاب شديد أي وفي لفظ إنما مثلي ومثلكم كمثلي رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشى أن يسبقوه إلى أهله فجعل يهتف يا صباحاه يا صباحاه أتيتم

ومن أمثاله صلى الله عليه وسلم أنا النذير العريان أي الذي ظهر صدقه من قولهم عرى الأمر إذا ظهر وقولهم الحق عار أي ظاهر وقيل الذي جرده العدو فأقبل عريانا ينذر بالعدو وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه حفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل

واختلفت الروايات في محل وقوفه ففي رواية وقف على الصفا كما تقدم وفي رواية وقف على أضمة من جبل فعلا أعلاها حجرا يهتف يا صباحاه فقالوا من هذا الذي يهتف قالوا محمد فاجتمعوا إليه فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا الحديث وفي رواية صاح على أبي قبيس يا آل عبد مناف إني نذير وروى أنه لما نزل قوله تعالى * (وأنذر عشيرتك الأقربين) * جمع بني عبد المطلب في دار أبي طالب وهم أربعون وفي الإمتاع خمسة وأربعون رجلا وامرأتان فصنع لهم علي طعاما أي رجل شاة مع مد من البر وصاعا من لبن فقدمت فهم الجفنة وقال كلوا بسم الله فأكلوا حتى شبعوا وشربوا حتى نهلوا وفي رواية حتى رروا وفي رواية قال ادنوا عشرة عشرة فدنا القوم عشرة عشرة ثم تناول القعب الذي فيه اللبن فجزع منه ثم ناولهم وكان الرجل منهم يأكل الجذعة وفي رواية يشرب العس من الشراب في مقعد واحد فقهرهم ذلك فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلم بדרه أبو لهب بالكلام فقال لقد سحركم صاحبكم سحرا عظيما وفي رواية محمد وفي رواية ما رأينا كالسحر اليوم فتفرقوا ولم يتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان الغد قال يا علي عد لنا بمثل ما صنعت بالأمس من الطعام والشراب قال علي ففعلت ثم جمعتهم له صلى الله عليه وسلم فأكلوا حتى شبعوا وشربوا حتى نهلوا ثم قال لهم يا بني عبد المطلب إن الله قد بعثني إلى الخلق كافة وبعثني إليكم خاصة فقال * (وأنذر عشيرتك الأقربين) * وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين في الميزان شهادة أن لا إله

إلا الله وأني رسول الله فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويوازرنني أي يعاونني على القيام به قال علي أنا يا رسول الله وأنا أحدثهم سنا وسكت القوم زاد بعضهم في الرواية يكن أخي ووزيرا وورثي وخليفتي من بعدي فلم يجبه أحد منهم فقام علي وقال أنا يا رسول الله قال اجلس ثم أعاد القول على القوم ثانيا فصمتوا فقام علي وقال أنا يا رسول الله فقال اجلس ثم أعاد القول على القوم ثالثا فلم يجبه أحد منهم فقام علي فقال أنا يا رسول الله فقال اجلس فأنت أخي ووزير ووصيي ووارثي وخليفتي من بعدي قال الإمام أبو العباس بن تيمية أي في الزيادة المذكورة أنها كذب وحديث موضوع من له أدنى معرفة في الحديث يعلم ذلك وقد رواه أي الحديث مع زيادته المذكورة ابن جرير والبعثي بإسناد فيه أبو مريم الكوفي وهو مجمع على تركه وقال أحمد إنه ليس بثقة عامة أحاديثه بواطيل وقال ابن المديني كان يضع الحديث وفي رواية عن علي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر خديجة فصنعت له طعاما ثم قال لي ادع لي بني عبد المطلب فدعوت أربعين رجلا الحديث ولا مانع من تكرار فعل ذلك ويجوز أن يكون علي فعل ذلك عند خديجة وجاء به إلى بيت أبي طالب ولعل جمعهم هذا كان متأخرا عن جمعهم مع غيرهم المتقدم ذكره ويشهد له السياق فعل ذلك حرصا على إسلام أهل بيته فلما دعا قومه ولم يردوا عليه ولم يجيبوه أي وفي رواية صار كفار قريش غير منكرين لما يقول فكان صلى الله عليه وسلم إذ مر عليهم في مجالسهم يشيرون إليه إن غلام بني عبد المطلب ليكلم من السماء وكان ذلك دأبهم حتى عاب آلهتهم أي وسفه عقولهم وضلل آباءهم أي حتى أنه مر يوما وهم في المسجد الحرام يسجدون للأصنام فقال يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم فقالوا إنما نعبد الأصنام حبا لله لتقربنا إلى الله فانزل الله تعالى * (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) * فتناكروه وأجمعوا خلافة وعداوته إلا من عصم الله منهم وجاءوا إلى أبي طالب وقالوا يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا أي عقولنا ينسبنا إلى قلة العقل وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافة فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهر دين الله ويدعو إليه لا يردده عن ذلك شيء وإلى أشار صاحب الهمزية بقوله

* ثم قام النبي يدعو إلى الله
* وفي الكفر شدة وإباء
* أمما أشربت قلوبهم الكفر
* ر فداء الضلال فيهم عياء
*

أي ثم قام صلى الله عليه وسلم يدعو جماعتهم إلى الله تعالى بأن يقولوا لا إله إلا الله حسبما أمر فقد جاء أن جبريل تبنى له صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وأطيب رائحة وقال يا محمد إن الله يقرئك السلام ويقول لك أنت رسول الله إلى الجن والإنس فادعهم إلى قول لا إله إلا الله فدعاهم والحال أن في أهل الكفر قوة تامة وإمتناعا عن اتباعه اختلط الكفر بقلوبهم وتمكن فيها حبه حتى صارت لا تقبل غيره وبسبب ذلك صار داء الضلال أي داء هو الضلال فيهم عضال يعيب الأطباء مداواته وحصول شفائه ثم شرى الأمر أي الشين المعجمة وكسر الراء وفتح المثناة تحت كثر وتزايد وانتشر بينهم وبينه حتى تباعد الرجال وتضاغنوا أي أضمرُوا العداوة والحقد وأكثرت قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها وتذامروا عليه بالذال المعجمة وحض أي حث بعضهم بعضا على حربه وعداوته ومقاطعته ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنا وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا أي عقولنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا عنه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفسا بأن يخذل

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا فأبى علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمه خاذله وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه فقال له يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه ما تركته ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أي حصلت له العبرة التي هي دمع العين فبكى ثم قام فلما ولى ناداه أبو طالب فقال أقبل يا ابن أخي فأقبل عليه فقال اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك وأنشد أبياتا منها
* والله لن يصلوا إليك بجمعهم
* حتى أوسد في التراب دفينا
*

وحكمة تخصيص الشمس والقمر بالذكر وجعل الشمس في اليمين والقمر في اليسار لا تخفى لأن الشمس النير الأعظم واليمين أليق به والقمر النير المححو واليسار أليق به

وخص النيرين حيث ضرب المثل بهما لأن الذي جاء به نور قال تعالى * (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره) *
 ومن غريب التعبير أن رجلا كان عاملا لسيدنا عمر رضي الله تعالى عنه فقال لسيدنا عمر إنني رأيت في المنام كأن الشمس والقمر يقتتلان ومع كل واحد منهما نجوم فقال له عمر مع أيهما كنت قال مع القمر قال كنت مع الآية الممحوة اذهب فلا تعمل لي عملا فاتفق أن هذا الرجل كان مع معاوية يوم صفين وقتل ذلك اليوم فلما عرفت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد بن المغيرة أنهد أي أشد وأقوى فتى في قريش وأحمله فخذ له ولدا أي بأن تتبناه وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله فإنما هو رجل كرجل فقال لهم أبو طالب والله لبئس ما تسومونني أتعطوني إبنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه هذا والله لا يكون أبدا أي وقال أرأيتم ناقة تحن إلى غير فصيلها قال المطعم بن عدي والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا فقال له أبو طالب والله ما أنصفوني ولكن قد أجمعت أي قصدت خذلاني ومظاهرة القوم أي معاونتهم علي فاصنع ما بدالك أي وقد مات عمارة بن الوليد هذا على كفره بأرض الحبشة بعد أن سحر وتوحش وسار في البراري والقفار كما سيأتي ومات المطعم بن عدي المذكور على كفره أيضا فعند عدم قبول أبي طالب ما أرادوه اشتد الأمر ولما رأى أبو طالب من قريش ما رأى دعا بني هاشم وبني عبد المطلب إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام دونه فأجابوه غلى ذلك غير أبي لهب فكان من المجاهرين بالظلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكل من آمن به وتوالى الأذى من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى من أسلم معه فما وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذية ما حدث به عمه العباس رضي الله تعالى عنه قال كنت يوما في المسجد فأقبل أبو جهل فقال لله علي إن رأيت محمد ساجدا أن أظأ عنقه فخرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول أبي جهل فخرج غضبان حتى دخل المسجد فعجل أن يدخل من الباب فاقتحم من الحائط وقرأ * (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق) * حتى بلغ شأن أبي جهل كلا

* (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) * إلى أن بلغ آخر السورة سجد فقال إنسان لأبي جهل يا أبا الحكم هذا محمد قد سجد فأقبل إليه ثم نكص راجعا فقبل له ذلك فقال أبو جهل ألا ترون ما أرى لقد سد أفق السماء علي وفي رواية رأيت بيني وبينه خندقا من نار وسيأتي أن قوله تعالى * (أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى) * إلى آخر السورة نزل في أبي جهل

ومن ذلك ما حدث به بعضهم قال ذكر أن أبا جهل بن هشام قال يوما لقريش يا معشر قريش إن محمدا قد أتى إلى ما ترون من عيب دينكم وشتم أهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم إنني أعاهد الله لأجلس له يعنى النبي صلى الله عليه وسلم غدا بحجر لا أطيق حمله فإذا سجد في صلاته رضخت به رأسه فأسلموني عند ذلك أو امنعوني فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدالهم قالوا والله لا نسلمك لشيء أبدا فامض لما تريد فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا كما وصف ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يغدو إلى الصلاة أي وكانت قبلته صلى الله عليه وسلم إلى الشام إلى صخرة بيت المقدس فكان يصلى بين الركن اليماني والحجر الأسود ويجعل الكعبة بينه وبين الشام على ما تقدم وقريش جلوس في أنديتهم وهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه أي متغيرا بالصفرة مع الكدرة من الفزع وقد يبست يده على حجره حتى قذفه من يده أي بعد أن عالجوا فكه من يده فلم يقدرُوا كما سيأتي وقامت إليه رجال من قريش وقالوا مالك يا أبا الحكم قال قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة فلما دنوت منه عرض لي فحل من الإبل والله ما رأيت مثله قط هم بي أن يأكلني فلما ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذاك جبريل لودنا لأخذه وإلى ذلك يشير صاحب

الهمزية بقوله

* وأبو جهل إذ رأى عنق الفحل

* ل إليه كأنه العنقاء

*

أي وأبو جهل الذي هو أشد الأعداء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت أن هم أن يلقي الحجر عليه صلى الله عليه وسلم وهو ساجد أبصر عنق الفحل وقد برزت إليه كأنه الدهية العظيمة أي فرجع عن ذلك الرمي بذلك الحجر أي وفي رواية أن أبا جهل قال رأيت بيني وبينه كخندق من نار ولا مانع أن يكون وجد الأمرين معا

وذكر في سبب نزول قوله تعالى * (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون) * أي إنا جعلنا أيديهم متصلة بأعناقهم واصله إلى أذقانهم ملصقة بها رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها من أقمح البعير رفع رأسه * (وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) * أن الآية الأولى نزلت في أبي جهل لما حمل الحجر ليرضخ به رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع أثبتت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم فلم يفكوا الحجر من يده إلا بعد تعب شديد والآية الثانية نزلت في آخر لما رأى ما وقع لأبي جهل قال أنا ألقى هذا الحجر عليه فذهب إليه صلى الله عليه وسلم فلما قرب منه عمى بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه فرجع إليهم فأخبرهم بذلك

وعن الحكم بن أبي العاص أي ابن مروان بن الحكم أن ابنته قالت له ما رأيت قوما كانوا أسوأ رأيا وأعجز في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم منكم يا بني أمية فقال لها لا تلومينا يا بنية إني لا أحدثك إلا ما رأيت لقد أجمعنا ليلة على اغتياله صلى الله عليه وسلم فلما رأيناه يصلى ليلا جئنا خلفه فسمعنا صوتا ظننا أنه ما بقي بتهمامة جبل إلا تفتت علينا أي ظننا أنه يتفتت وأنه يقع علينا فما عقلنا حتى قضى صلاته صلى الله عليه وسلم ورجع إلى أهله ثم تواعدنا ليلة أخرى فلما جاء نهضنا إليه فرأينا الصفا والمروة التصقتا إحداهما على الأخرى فحالتا بيننا وبينه ويتأمل هذا لأن صلاته صلى الله عليه وسلم إنما تكون عند الكعبة وليست بين الصفا والمروة وفي رواية كان صلى الله عليه وسلم يصلى فجاءه أبو جهل فقال ألم أنهك عن هذا فأنزل الله تعالى * (أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى) * إلى آخر السورة وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم لما انصرف من صلاته زأره أبو جهل أي انتهره وقال إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني فأنزل الله تعالى * (فليدع ناديه سندع الزبانية) * قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لودعا ناديه لأخذته زبانية الله أي قال يوما ولقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي صلى الله عليه وسلم لقد علمت أنني أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم فأنزل الله تعالى فيه * (ذق إنك أنت العزيز الكريم) * كذا قاله الواحدي أي تقول له الزبانية عند إلقائه في النار ما ذكر توبيخا له ومن ذلك ما حدث به بعضهم قال لما أنزل الله تعالى سورة * (تبت يدا أبي لهب) *

جاءت امرأة أبي لهب وهي أم جميل واسمها العوراء وقيل اسمها أروى بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب ولها ولولة وفي يدها فهر أي بكسر الفاء وسكون الهاء حجر يملأ الكف فيه طول يدق به في الهاون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر رضي الله تعالى عنه فلما رآها قال يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها امرأة بذية أي تأتي بالفحش من القول فلو قمت لتؤذيك فقال صلى الله عليه وسلم إنها لن تراني فجاءت فقالت يا أبا بكر صاحبك هجاني أي وفي لفظ ما شأن صاحبك ينشد في الشعر قال لا وما يقول الشعر أي ينشئه وفي لفظ لا ورب هذا البيت ما هجاك والله ما صاحبي بشاعر وما يدري ما الشعر أي لا يحسن إنشاءه قال له أنت عندي تصدق وانصرفت أي وهي تقول ما علمت قريش أنني بنت سيدها أي تعني عبد مناف جد أبيها ومن كان عبد مناف أباه لا ينبغي لأحد أن يتجاسر على ذمه قلت يا رسول الله لم ترك قال لم يزل ملك يسترني بجناحه أي فقد جاء في رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر قل لها هل ترين عندي أحدا فسألها أبو بكر فقالت أتتهزأ بي والله ما أرى عندك أحدا

أقول وفي الإمتاع أنها جاءت وهو صلى الله عليه وسلم في المسجد معه أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وفي يدها فهر فلما وقفت على النبي صلى الله عليه وسلم أخذ الله على بصرها فلم تره ورأت أبا بكر وعمر فأقبلت على أبي بكر رضي الله تعالى عنه فقالت أين صاحبك قال وما تصنعين به قالت بلغني أنه هجاني والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فمه فقال عمر رضي الله تعالى عنه ويحك إنه ليس بشاعر فقالت إني لا أكلمك يا بن الخطاب أي لما تعلمه من شدته ثم أقبلت على أبي بكر لما تعلمه من لينه وتواضعه فقالت والثواقب أي النجوم إنه لشاعر وإني لشاعرة أي فكما هجاني لأهجونه وانصرفت فليل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنها لن تراك فقال إنها لن تراني جعل بيني وبينها حجاب أي لأنه قرأ قرآنا اعتصم به كما قال تعالى * (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) * وفي رواية أقبلت ومعها فهران وهي تقول

* مذمما أبينا

* ودينه قلينا

* وأمره عصينا

*

فقالت أين الذي هجاني وهجا زوجي والله لئن رأيت لأضربن أنثييه بهذين

الفهرين قال أبو بكر فقلت لها يا أم جميل والله ما هجأك ولا هجا زوجك قالت والله ما أنت بكذاب وإن الناس ليقولون ذلك ثم ولت ذاهبة فقلت يا رسول الله إنها لم ترك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حال بيني وبينها جبريل ولعل مجيئها قد تكرر فلا منافاة بين ما ذكر وكذا ما يأتي وكما يقال في الحمد محمد يقال في الذم مذمم لأنه لا يقال ذلك إلا لمن ذم مرة بعد أخرى كما أن محمدا لا يقال إلا لمن حمد مرة بعد أخرى كما تقدم وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال ألا تعجبون كيف يصرف الله تعالى عني شتم قريش ولعنهم يشتمون مذمما ويلعنون مذمما وأنا محمد وفي الدر المنثور أنها أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في الملاء فقالت يا محمد علام تهجونني قال إني والله ما هجوتك ما هجأك إلا الله قالت رأيتني أحمل حطبا أو رأيت في جيدي حبلا من مسد وهذا مما يؤيد ما قاله بعض المفسرين أن الحطب عبارة عن النميمة يقال فلان يحطب على أي ينم لأنها كانت تمشي بين الناس بالنميمة وتغرى زوجها وغيره بعداوته صلى الله عليه وسلم وتبلغهم عنه أحاديث لتحتهم بها على عداوته صلى الله عليه وسلم وأن الحبل عبارة عن حبل من نار محكم وعن عروة بن الزبير مسد النار سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعا والله أعلم وإلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله

* وأعدت حمالة الحطب الفهر وجاءت كأنها الورقاء
* ثم جاءت غضبي تقول أفي مثلي من أحمد يقال الهجاء
* وتولت وما رأته ومن أين ترى الشمس مقلة عمياء
*

أي وهيات حمالة الحطب الفهر ولقت بذلك كانت تحتطب أي تجمع الحطب وتحمله لبخلها ودناءة نفسها أو كانت تحمل الشوك والحسك وتطرحة في طريقه صلى الله عليه وسلم ولا مانع من اجتماع الأوصاف الثلاثة لكن استفهامها يبعد الوصفين الأخيرين والفهر الحجر الذي يملأ الكف كما تقدم لتضرب به النبي صلى الله عليه وسلم والحال أنها جاءت في غاية السرعة والعجلة كأنها في شدة السرعة الحمامة الشديدة الإسراع حالة كونها غضبي من شدة ما سمعت من ذمها في سورة تبت يدا أبي لهب نقول أفي مثلي وأنا بنت سيد بني عبد شمس يقال الهجاء والسب حالة كونه من أحمد وتولت والحال أنها ما رأته وكيف ترى الشمس عين عمياء

أقول في ينبوع الحياة أنها لما بلغها سورة * (تبت يدا أبي لهب) * جاءت إلى أخيها أبي سفيان في بيته وهي مضطربة أي منحرقة غضبي فقالت له ويحك يا أحمس أي يا شجاع أما تغضب أن هجاني محمد فقال سأكفيك إياه ثم أخذ سيفه وخرج ثم عاد سريعا فقالت هل قتلته فقال لها يا أحمية أيسرك أن رأس أخيك في فم ثعبان قالت لا والله قال فقد كان ذلك يكون الساعة أي فإنه رأى ثعبانا لو قرب منه صلى الله عليه وسلم لالتقم رأسه

ولما نزلت هذه السورة التي هي * (تبت يدا أبي لهب) * قال أبو لهب لأبنة عتبة أي بالتكبير رضي الله تعالى عنه فإنه أسلم يوم الفتح كما سيأتي رأسي من رأسك حرام إن لم تفارق ابنة محمد يعني رقية رضي الله تعالى عنها فإنه كان تزوجها ولم يدخل بها ففارقها ووقع في كلام بعضهم طلقها لما أسلم فليتأمل

وكان أخوه عتبة بالتصغير متزوجا ابنته صلى الله عليه وسلم أم كلثوم ولم يدخل بها فقال أي وقد أراد الذهاب إلى الشام لآتين محمدا فلأوذينه في ربه فأتاه فقال يا محمد هو كافر بالنجم أي وفي لفظ برب النجم إذا هوى وبالذي دنا فتدلى ثم بصق في وجه النبي صلى الله عليه وسلم ورد عليه ابنته وطلقها فقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم سلط وفي رواية الله ابعث عليه كلبا من كلابك وكان أبو طالب حاضرا فوجم لها أبو طالب وقال ما كان أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة فرجع عتيبة إلى أبيه أبي لهب فأخبره بذلك ثم خرج هو وأبوه إلى الشام في جماعة فنزلوا منزلا فأشرف عليهم راهب من دير فقال لهم إن هذه الأرض مسبعة فقال أبو لهب لأصحابه إنكم قد عرفتم نسبي وحقى فقالوا أجل يا أبا لهب فقال أعينونا يا معشر قريش هذه الليلة فإني أخاف على ابني دعوة محمد فأجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ثم افرشوا لابني عليه ثم افرشوا حوله ففعلوا ثم جمعوا جمالهم وأناخوها حولهم وأحدقوا بعتيبة فجاء الأسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتيبة فقتله وفي رواية فضخ رأسه وفي رواية ثنى ذنبه ووثب وضربه بذنبه ضربة واحدة فخدشه فمات مكانه وفي رواية فضغمه ضغمة فكانت إياها فقال وهو بأخر رمق ألم أقل لكم إن محمدا أصدق الناس لهجة ومات فقال أبوه قد عرفت والله ما كان ليفلت من دعوة محمد أقول وحلفه بالنجم إلى آخره يدل على ذلك كان بعد الإسراء والمعراج

ووقع مثل ذلك لجعفر الصادق قيل له هذا فلان ينشد الناس هجاءكم يعني أهل البيت بالكوفة فقال لذلك القائل هل علققت من قوله بشيء قال نعم قال فأنشد

* صلبنا كمو زيدا على رأس نخلة

* ولم أر مهديا على الجذع يصلب

* وقستم بعثمان عليا سفاهة

* وعثمان خير من علي وأطيب

*

فعند ذلك رفع جعفر يديه وقال اللهم إن كان كاذبا فسلط عليه كلبا من كلابك فخرج ذلك الرجل فافترسه الأسد وإنما سمي الأسد كلبا لأنه يشبه الكلب في أنه إذا بال رفع رجله ومن ثم قيل إن كلب أهل الكهف كان أسدا وقيل كان رجلا منهم جلس عند الباب طليعة لهم فسمى باسم الكلب لملازمته للحراسة ووصف ببسط الذراعين لأن ذلك من صفة الكلب الذي هو الحيوان وقد جاء أنه ليس في الجنة من الحيوان إلا كلب أهل الكهف وحمار العزير وناقة صالح والله أعلم

ومما وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذية ما حدث به عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وهو يصلى وقد نحر جزور وبقي فرثه أي روثه في كرشه فقال أبو جهل ألا رجل يقوم إلى هذا القدر يلقيه على محمد أي وفي رواية قال قائل ألا تنظرون إلى هذا المرائي أيكم يقوم إلى جزور بني فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها فيجئ به ثم يمهلها حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه وفي رواية أيكم يأخذ سلى جزور بني فلان لجزور ذبحت من يومين أو ثلاثة فيضعه بين كتفيه إذا سجد فقام شخص من المشركين وفي لفظ أشقى القوم وهو عقبة بن أبي معيط وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساجد أي فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض أي من شدة الضحك قال ابن مسعود فهنا أي خفنا أن نلقيه عنه صلى الله عليه وسلم وفي لفظ وأنا قائم أنظر لو كانت لي منعة لطرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءت فاطمة رضي الله تعالى عنها أي بعد أن ذهب إليها إنسان وأخبرها بذلك واستمر صلى الله عليه وسلم ساجدا حتى ألقته عنه واستمراره في الصلاة عند فقهائنا لعدم علمه بنجاسة ما ألقى عليه ولما ألقته عنه أقبلت عليهم تشتمهم فقام النبي صلى الله عليه وسلم

فسمعتة يقول وهو قائم يصلى اللهم اشدد وطأتك أي عقابك الشديد على مضر سنين كسنى يوسف اللهم عليك بأبي الحكم بن هشام يعني أبا جهل وعتبة بن ربيعة وعقبة ابن أبي معيط وأمّية بن خلف زاد بعضهم وشيبة بن أبي ربيعة والوليد بن عتبة بالمشناة فوق لا بالقاف كما وقع في رواية مسلم
فقد اتفق العلماء على أنه غلط لأنه لم يكن ذلك الوقت موجودا أو كان صغيرا جدا وعمارة بن الوليد أي وهو المتقدم ذكره الذي أرادوا أن يجعلوه عوضا عنه صلى الله عليه وسلم

أقول والذي في المواهب فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم عليك بقريش ثم سمي اللهم عليك بعمر بن هشام إلى آخر ما تقدم ذكره وفي الإمتاع فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلواته رفع يديه ثم دعا عليهم وكان إذا دعا دعا ثلاثا ثم قال اللهم عليك بقريش اللهم عليك بقريش فلما سمعوا صوته ذهب منهم الضحك وهاجوا دعوته ثم قال اللهم عليك بأبي جهل بن هشام الحديث وإن ابن مسعود قال والله لقد رأيتهم وفي رواية رأيت الذي سمي رسول الله صلى الله عليه وسلم صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر واعترض بأن عمارة بن الوليد مات بالحبشة كافرا كما تقدم ويأتي وبأن عقبة بن أبي معيط لم يقتل ببدر وإنما أخذ أسيرا منها وقتل بعرق الظبية كما سيأتي وبأن أمية بن خلف لم يطرح بالقليب وأجيب بأن قول ابن مسعود رأيتهم أي رأيت أكثرهم وقد يقال لا مانع أن يكون صلى الله عليه وسلم أتى بهذا الدعاء وهو قائم يصلى وبعد الفراغ من الصلاة فلا منافاة والله أعلم

والمراد بسنى يوسف بتخفيف الياء ويروى سنين بإثبات النون مع الإضافة القحط والجذب أي فاستجاب الله دعاءه فأصابتهم سنة أكلوا فيها الجيف والجلود والعظام والعلهز وهو الوبر والدم أي يخلط الدم بأوبار الإبل ويشوى على النار وصار الواحد منهم يرى ما بينه وبين السماء كالدخان من الجوع وجاءه صلى الله عليه وسلم جمع من المشركين فيهم أبو سفيان قالوا يا محمد إنك تزعم أنك بعثت رحمة وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقوا الغيث فاطبقت عليهم سبعا فشكا الناس كثرة المطر فقال اللهم حوالينا ولا علينا فانحدرت السحابة

وجاء أنهم قالوا * (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) * أي لا نعود لما كنا عليه فلما كشف عنهم ذلك عادوا أي وفيه أن هذا إنما كان بعد الهجرة فسيأتي أنه صلى الله عليه وسلم مكث شهرا إذا رفع رأسه من ركوع الركعة الثانية من صلاة الفجر بعد قوله سمع الله لمن حمده يقول اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين بمكة اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف وربما فعل ذلك بعد رفعه من الركعة الأخيرة من صلاة العشاء وسيأتي ما فيه

وقد يقال لا مانع أن يكون حصل لهم ذلك قبل الهجرة وبعد الهجرة مرة أخرى سيأتي الكلام عليها

ثم رأيت في الخصائص الكبرى ما يوافق ذلك حيث قال قال البيهقي قد روى في قصة أبي سفيان ما دل على أن ذلك كان بعد الهجرة ولعله كان مرتين أي وسيأتي في السرايا أن ثمامة لما منع عن قريش الميرة أن تأتي من اليمن حصل لهم مثل ذلك وكتبوا في ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم

وفي البخاري لما استعصمت قريش على النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسنى يوسف فبقيت السماء سبع سنين لا تمطر وفي رواية فيه أيضا لما أبطئوا على النبي صلى الله عليه وسلم بالإسلام قال اللهم اكفنيهم بسبع كسبع يوسف فأصابتهم سنة حصت كل شيء الحديث وفي رواية اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فأنزل الله تعالى * (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم) * فأتى أبو سفيان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله استسق لمضر فإنها قد هلكت فاستسقى صلى الله عليه وسلم فسقوا فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله * (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) * يعني يوم بدر

ومن ذلك ما حدث به عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالبيت ويده في يد أبي بكر وفي الحجر ثلاثة نفر جلوس عقبة ابن أبي معيط وأبو جهل بن هشام وأممية بن خلف فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

عليه فلما حاذاهم اسمعوه بعض ما يكره فعرف ذلك في وجه النبي صلى الله عليه وسلم فدنوت منه حتى وسطته أي جعلته وسطا فكان صلى الله عليه وسلم بين وبين أبي بكر وأدخل أصابعه في أصابعي وطفنا جميعا فلما حاذاهم قال أبو جهل والله لا نصالحك ما بل بحر صوفة وأنت تنهى أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا ذلك ثم مشى عنهم فصنعوا به في الشوط الثالث مثل ذلك حتى إذا كان الشوط الرابع ناهضوه أي قاموا له صلى الله عليه وسلم ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه صلى الله عليه وسلم فدفعت في صدره فوقع على أسته ودفع أبو بكر أمية بن خلف ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عقبة بن أبي معيط ثم انفرجوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف ثم قال أما والله لا تنتهون حتى يحل بكم عقابه أي ينزل عليكم عاجلا قال عثمان فوالله ما منهم رجل إلا وقد أخذته الرعدة فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بئس القوم أنتم لنبيكم ثم انصرف إلى بيته وتبعناه حتى انتهى إلى باب بيته ثم أقبل علينا بوجهه فقال أبشروا فإن الله عز وجل مظهر دينه ومتمم كلمته وناصر نبيه إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله على أيديكم عاجلا ثم انصرفنا إلى بيوتنا فوالله لقد ذبحهم الله بأيدينا يوم بدر أقول ولا يخالف ذلك كون عقبة بن أبي معيط حمل أسيرا من بدر وقتل بعرق الظبية صبيرا وهم راجعون من بدر ولا كون عثمان بن عفان لم يحضر بدرا والله أعلم وفي رواية أن عقبة بن أبي معيط وطئ على رقبته صلى الله عليه وسلم الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان

أي وفي رواية دخل عقبة بن أبي معيط الحجر فوجده صلى الله عليه وسلم يصلي فيه فوضع ثوبه على عنقه صلى الله عليه وسلم وخنقه خنقا شديدا فأقبل أبو بكر رضي الله تعالى عنه حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال * (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم) *

أي وفي البخاري عن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ

بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا فأقبل أبو بكر رضي الله تعالى عنه فأخذ بمنكبيه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث ولعل أشدية ذلك باعتبار ما بلغ عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما أو ما رآه

وعنه رضي الله تعالى عنه قال ما رأيت قريشا أصابت من عداوة أحد ما أصابت من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد حضرتهم يوما وقد اجتمع ساداتهم وكبرائهم في الحجر فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما صبرنا لأمر كصبرنا لأمر هذا الرجل قط ولقد سفه أحلامنا وشمم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا لقد صبرنا منه على أمر عظيم فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر طائفا بالبيت فلما مر بهم لمزوه ببعض القول فعرفنا ذلك من وجهه ثم مر بهم الثانية فلمزوه بمثلها فعرفنا ذلك من وجهه ثم مر بهم الثالثة فلمزوه فوقف عليهم وقال أتسمعون يا معشر قريش أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح فارتعبوا لكلمته صلى الله عليه وسلم تلك وما بقي رجل منهم إلا كأنما على رأسه طائرا واقع فصاروا يقولون يا أبا القاسم انصرف فوالله ما كنت جهولا فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان الغد اجتمعوا في الحجر وأما معهم فقال بعضهم لبعض ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا ناداكم بما تكرهون تركتموه فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتواثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به وهم يقولون أنت الذي تقول كذا وكذا يعني عيب آلهتم ودينهم فقال نعم أنا الذي أقول ذلك فأخذ رجل منهم بمجمع رداءه عليه الصلاة والسلام فقام أبو بكر دونه وهو يبكي ويقول * (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله) * فأطلقه الرجل ووقعت الهيئة في قلوبهم فانصرفوا عنه فذلك أشد ما رأيتهم نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رواية ألسنت تقول في آلهتنا كذا وكذا قال بلى فتشبهوا به بأجمعهم فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقبل له أدرك صاحبك فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس مجتمعون عليه فقال ويلكم * (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم) * فكفوا عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم وأقبلوا على أبي بكر يضربونه قالت بنته أسماء فرجع إلينا فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا أجابه وهو يقول تباركت يا ذا الجلال والإكرام وجاء أنهم جذبوا رأسه صلى الله عليه وسلم ولحيته حتى سقط أكثر شعره فقام أبو بكر دونه وهو يقول أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله أي وهو يبكي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعهم يا أبا بكر فوالذي نفسي بيده إني بعثت إليهم بالذبح ففرجوا عنه صلى الله عليه وسلم

وعن فاطمة رضي الله تعالى عنها قالت اجتمعت مشركو قريش في الحجر فقالوا إذا مر محمد فليضربه كل واحد منا ضربة فسمعت فدخلت على أبي فذكرت ذلك له أي قالت له وهي تبكي تركت الملاء من قريش قد تعاقدوا في الحجر فحلفوا باللات والعزى ومناة وإساف ونائلة إذا هم رأوك يقومون إليك فيضربونك بأسيا فهم فيقتلونك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بنية اسكتي وفي لفظ لا تبكي ثم خرج صلى الله عليه وسلم أي بعد أن توضأ فدخل عليهم المسجد فرفعوا رؤوسهم ثم نكسوا فاخذ قبضة من تراب فرمى بها نحوهم ثم قال شأهت الوجوه فما أصاب رجلاً منهم إلا قتل بيدر أي وكان بجواره صلى الله عليه وسلم جماعة منهم أبو لهب والحكم بن أبي العاص ابن أمية والد مروان وعقبة بن أبي معيط فكانوا يطرحون عليه صلى الله عليه وسلم الأذى فإذا طرحوه عليه أخذه وخرج به ووقف على بابهِ ويقول يا بني عبد مناف أي جوار هذا ثم يلقيه في الطريق ولم يسلم ممن ذكر إلى الحكم وكان في إسلامه شيء وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم نفاه إلى وج الطائف وأنه سيأتي السبب في نفيه وأشار صاحب الهمزية إلى أن هذه الأذية له صلى الله عليه وسلم لا يظن ظان أنها منقصة له صلى الله عليه وسلم بل هي رفعة له ودليل على فخامة قدره وعلو مرتبته وعظيم رفعتة ومكانته عند ربه لكثرة صبره وحلمه واحتماله مع علمه باستجابة دعائه ونفوذ كلمته عند الله تعالى وقد قال صلى الله عليه وسلم أشد الناس بلاء الأنبياء وذلك سنة من سنن النبيين السابقين عليهم الصلاة والسلام بقوله

* لا تخل جانب النبي مضاماً

* حين مسته منهم الأسواء

* كل أمر ناب النبيين فالشدة

* فيه محمودة والرخاء

* لو يسمى النضار هو من النا

* ر لما اختير للنضار الصلاة

*

أي لا تظن أن النبي صلى الله عليه وسلم حصل له الضيم وقت مسته الأذيات حالة كونها صادرة منهم لأن كل أمر من الأمور العظيمة أصاب النبيين فالشدة التي تحصل لهم منه محمودة لأنه لرفع الدرجات والضيقة التي تحصل لهم أيضا محمودة لأنه لو كان يمس الذهب هوان من إدخاله النار لما أختير له العرض على النار فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام كالذهب والشدائد التي تصيبهم كالنار التي يعرض عليها الذهب فإن ذلك لا يزيد الذهب إلا حسنا فكذلك الشدائد لا تزيد الأنبياء إلا رفعة

قال ومما وقع لأبي بكر رضي الله تعالى عنه من الأذية ما ذكره بعضهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل دار الأرقم ليعبد الله تعالى ومن معه من أصحابه فيها سرا أي كما تقدم وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا ألقى أبو بكر رضي الله تعالى عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظهور أي الخروج إلى المسجد فقال يا أبا بكر إنا قليل فلم يزل به حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من أصحابه إلى المسجد وقام أبو بكر في الناس خطيبا ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ودعا إلى الله ورسوله فهو أول خطيب دعا إلى الله تعالى وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين يضربونهم فضربوهم ضربا شديدا ووطئ أبو بكر بالأرجل وضرب ضربا شديدا وصار عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بنعلين مخصوفتين أي مطبقتين ويحرفهما إلى وجهه حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه فجاءت بنو تميم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر وحملوه في ثوب إلى أن أدخلوه منزله ولا يشكون في موته أي ثم رجعوا فدخلوا المسجد فقالوا والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة ثم رجعوا إلى أبي بكر وصار والده أبو قحافة وبنو تميم يكلمونه فلا يجيب حتى إذا كان آخر النهار تكلم وقال ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فعذلوه فصار يكرر ذلك فقالت أمه والله مالي علم بصاحبك فقال اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب أخت عمر ابن الخطاب أي فإنها كانت أسلمت رضي الله تعالى عنها كما تقدم وهي تخفى إسلامها فأسالها عنه فخرجت إليها وقالت لها إن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فقال لا أعرف محمدا ولا أبا بكر ثم قالت لها تريدان أن أخرج معك قالت نعم فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر رضي الله تعالى عنه فوجدته صريعا فصاحت وقالت إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وإني لأرجو أن ينتقم الله

منهم فقال لها أبو بكر ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له هذه أمك تسمع قال فلا عين عليك منها ألا أنها لا تفشي سرك قالت سالم فقال أين هو فقال في دار الأرقم فقال والله لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت أمه فأمهلهنا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس فخرجنا به يتكئ علي حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرق له رقة شديدة وأكب عليه يقبله وأكب عليه المسلمون كذلك فقال بأبي وأمي أنت يا رسول الله ما بي من بأس إلا ما نال الناس من وجهي وهذه أمي برة بولدها فعسى الله أن ينقذها بك من النار فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاها إلى الإسلام فأسلمت انتهى هذا وذكر الزمخشري في كتابه خصائص العشرة أن هذه الواقعة حصلت لأبي بكر لما أسلم وأخبر قريشا بإسلامه فليتأمل فإن تعدد الواقعة بعيد ومما وقع لابن مسعود رضي الله تعالى عنه من الأذية أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمعوا يوما فقال والله ما سمعت قريش القرآن جهرا إلا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فممن فيكم يسمعون القرآن جهرا فقال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أنا فقالوا نخشى عليك منهم إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم فقال دعوني فإن الله سيمنعني منهم ثم إنه قام عند المقام وقت الشمس وقريش في أندية فقال * (بسم الله الرحمن الرحيم) * رافعا صوته * (الرحمن علم القرآن) * واستمر فيها فتأملته قريش وقالوا ما بال ابن أم عبد فقال بعضهم يتلو بعض ما جاء به محمد ثم قاموا إليه يضربون وجهه وهو مستمر في قراءته حتى قرأ غالب السورة ثم انصرف إلى أصحابه وقد أدمت قريش وجهه فقال له أصحابه هذا الذي خشينا عليك منه فقال والله ما رأيت أعداء الله أهون على مثل اليوم ولو شئتم لأتيتهم بمثلها غدا قالوا لا قد أسمعتهم ما يكرهون ومما وقع له صلى الله عليه وسلم من الأذية أنه كان إذا قرأ القرآن تقف له جماعة من يمينه وجماعة من يساره ويصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار لأنهم تواصلوا * (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) * حتى كان من أراد منهم سماع القرآن أتى خفية واسترق السمع خوفا منهم

ومما وقع له صلى الله عليه وسلم من الأذية ما كان سببا لإسلام عمه حمزة رضي الله تعالى عنه وهو ما حدث به ابن إسحاق قال حدثني به رجل من أسلم أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا أي وقيل عند الحجون فأذاه وشتمه ونال منه ما يكرهه أي وقيل إنه صب التراب على رأسه أي وقيل ألقى عليه فرثا ووطئ برجله على عاتقه فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومولاة لعبد الله بن جدعان في سكن لها تسمع ذلك وتبصره ثم انصرف أبو جهل إلى نادي قريش أي محل تحدثهم في المسجد فجلس معهم فلم يلبث حمزة أن أقبل متوشحا بسيفه راجعا من قنصه أي من صيده وكان من عادته إذا رجع من قنصه لا يدخل إلى أهله إلا بعد أن يطوف بالبيت فمر على تلك المولاة فأخبرته الخبر أي فقالت له يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد صلى الله عليه وسلم أنفا من أبي الحكم بن هشام تعني أبا جهل وجده ههنا جالسا فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم أي وقيل الذي أخبرته مولاة أخته صفية بنت عبد المطلب قالت له إنه صب التراب على رأسه وألقى عليه فرثا ووطئ برجله على عاتقه وعلى إلقاء الفرث عليه اقتصر أبو حيان في النهر فقال لها حمزة أنت رأيت هذا الذي تقولين قالت نعم وفي رواية فلما رجع من صيده إذا امرأتان تمشيان خلفه فقالت إحدهما لو علم ما صنع أبو جهل بابن أخيه أقصر عن مشيئته فالتفت إليهما فقال ما ذاك قالت أبو جهل فعل بمحمد كذا وكذا ولا مانع من تعدد الأخبار من المرأتين والمولاتين فاحتمل حمزة الغضب ودخل المسجد فرأى أبا جهل جالسا في القوم فأقبل نحوه حتى قام على رأسه رفع القوس وضربه فشججه شجة منكرة ثم قال أتشتمه فأنا على دينه أقول ما يقول فرد على ذلك إن استطعت أي وفي لفظ أن حمزة لما قام على رأس أبي جهل بالقوس صار أبو جهل يتضرع إليه ويقول سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا قال ومن أسفه منكم تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فقامت رجال من بني مخزوم أي من عشيرة أبي جهل إلى حمزة لينصروا أبا جهل فقالوا ما نراك إلا قد صبأت فقال حمزة وما يمنعني وقد استبان لي منه أنا أشهد أنه رسول الله

وأن الذي يقوله حق والله لا أتزع فامنعوني إن كنت صادقين فقال لهم أبو جهل دعوا
 أبا عمارة أي ويكنى أيضا بأبي يعلى اسم ولد له أيضا فياني والله لقد أسمعت ابن أخيه
 شيئا قبيحا وتم حمزة على إسلامه أي استمر أي بعد أن وسوس له الشيطان فقال لنفسه
 لما رجع إلى بيته أنت سيد قريش اتبعت هذا الصابي وتركت دين آبائك الموت خير
 لك مما صنعت ثم قال اللهم إن كان رشدا فاجعل تصديقه في قلبي وإلا فاجعل لي مما
 وقعت فيه مخرجا فبات ليلة ثم لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان حتى أصبح فغذا
 إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا ابن أخي إن قد وقعت في أمر لا أعرف
 المخرج منه وإقامة مثلي على ما لا أدري أرشد هو أم غي شديد فأقبل عليه رسول الله
 صلى الله عليه وسلم فذكره ووعظه وخوفه وبشره فألقى الله تعالى في قلبه الإيمان بما
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أشهد أنك لصادق فأظهر يا بن أخي دينك
 وقد قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إن هذه الواقعة سبب لنزول قوله تعالى * (أو
 من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس) * يعني حمزة * (كمن مثله
 في الظلمات ليس بخارج منها) * يعني أبا جهل وسر رسول الله صلى الله عليه وسلم
 بإسلام حمزة سرورا كبيرا لأنه كان أعز فتى في قريش وأشدهم شكيمة أي أعظمهم
 في عزة النفس وشهامتها ومن ثم لما عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 قد عز كفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على بعض
 أصحابه بالأذية سيما المستضعفين منهم الذين لا جوار لهم أي لا ناصر لهم فإن كل
 قبيلة غدت على من أسلم منها تعذبه وتفتنه عن دينه بالحبس والضرب والجوع والعطش
 وغير ذلك أي حتى إن الواحد منهم ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضرب الذي
 به وكان أبو جهل يحرضهم على ذلك وكان إذا سمع بأن رجلا أسلم وله شرف ومنعة
 جاء إليه ووبخه وقال له ليغلبن رأيك وليضعفن شرفك وإن كان تاجرا قال والله
 لتكسدن تجارتك ويهلك مالك وإن كان ضعيفا أغرى به حتى أن منهم من فتن عن
 دينه ورجع إلى الشرك كالحارث بن ربيعة بن الأسود وأبي قيس بن الوليد بن المغيرة
 وعلي بن أمية بن خلف والعاص بن منبه بن الحجاج وكل هؤلاء قتلوا على كفرهم يوم
 بدر
 وممن فتن عن دينه وثبت عليه ولم يرجع للكفر بلال رضي الله تعالى عنه وكان مملوكا

لأمية بن خلف فعن بعضهم أن بلالا كان يجعل في عنقه حبل يدفع إلى الصبيان يلعبون به ويطفون به في شعاب مكة وهو يقول أحد أحد بالرفع والتنوين أو بغير تنوين أي الله أحد أو يا أحد فهو إشارة لعدم الإشراك وقد أثر الحبل ف عنقه وعن ابن إسحاق أن أمية بن خلف كان يخرج بلالا إذا حميت الظهيرة بعد أن يجيئه ويعطشه يوما وليلة فيطرحه على ظهره في الرمضاء أي الرمل إذا اشتدت حرارته لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول أحد أحد أي أنا لا أشرك بالله شيئا أنا كافر باللات والعزى أي وقيل كان بلال مولدا من مولدي مكة وكان لعبد الله بن جدعان التيمي وكان من جملة مائة مملوك مولدة له فلما بعث الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أمر بهم فأخرجوا من مكة أي خوف إسلامهم فأخرجوا إلا بلالا فإنه كان يرعى غنمه فأسلم بلال وكتم إسلامه فسلح بلال يوما على الأصنام التي حول الكعبة ويقال إنه صار يبصق عليها ويقول خاب وخسر من عبدكن فشعرت به قريش فشكوه إلى عبد الله وقالوا له أصبوت قال ومثلي يقال له هذا فقالوا له إن أسودك صنع كذا وكذا فأعطاهم مائة من الإبل ينحرونها للأصنام ومكنهم من تعذيب بلال فكانوا يعذبونه بما تقدم أي ويجوز أن يكون ابن جدعان بعد ذلك ملكه لأمية بن خلف فلا يخالفه ما تقدم من أن أمية بن خلف كان يتولى تعذيبه وما يأتي من أن أبا بكر رضي الله عنه اشتراه منه ويقال إنه صلى الله عليه وسلم مر عليه وهو يعذب فقال سينجيك أحد أحد أي وقيل مر عليه ورقة بن نوفل وهو يقول أحد أحد فقال نعم أحد أحد والله يا بلال ثم أتى إلى أمية وقال له والله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانا أي لأتخذن قبره منسكا ومسترحما لأنه من أهل الجنة وتقدم أن هذا يدل على أن ورقة أدرك البعثة التي هي الرسالة وتقدم ما فيه فكان بلال بقوله أحد أحد يمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان وقد وقع له رضي الله تعالى عنه أنه لما احتضر وسمع امرأته تقول واحزنه صار يقول واطرباه غدا ألقى الأحبة محمدا وحزبه فكان بلال يمزج مرارة الموت بحلاوة اللقاء وقد ذكر بعضهم أن هذا قاله أبو موسى الأشعري ومن معه لما وفدوا عليه صلى الله

عليه وسلم وهو في خير أي صاروا يقولون غدا نلقى الأحبة محمد وحزبه
ومر به أبو بكر رضي الله تعالى عنه يوما وهو ملقى على ظهره في الرمضاء وعلى ظهره
تلك الصخرة فقال لأمية بن خلف ألا تتقي الله تعالى في هذا المسكين حتى متى تعذبه
قال أنت أفسدته فأنقذه مما ترى قال أبو بكر عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى أي
على دينك أعطيكه به قال قبلت قال هو لك فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك وأخذ بلالا
فأعتقه

وفي تفسير البغوي قال سعيد بن المسيب بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر الصديق
رضي الله تعالى عنه في بلال حين قال أتبيعيه قال نعم أبيعك بقسطاس يعني عبدا لأبي
بكر رضي الله تعالى عنه كان صاحب عشرة آلاف دينار وغلما وجوار ومواش وكان
مشركا يأبى الإسلام فاشتراه أبو بكر به هذا كلامه

وفي الإمتاع لما ساوم أبو بكر أمية بن خلف في بلال قال أمية لأصحابه لألعبن بأبي
بكر لعبة ما لعبها أحد بأحد ثم تضاحك وقال له أعطني عبدك قسطاس فقال أبو بكر إن
فعلت تفعل قال نعم قال قد فعلت فتضاحك وقال لا والله حتى تعطيني معه امرأته قال
إن فعلت تفعل قال نعم قال قد فعلت ذلك فتضاحك وقال لا والله حتى تعطيني ابنته مع
امرأته قال إن فعلت تفعل قال نعم قال قد فعلت ذلك فتضاحك وقال لا والله حتى
تزيدني معه مائتي دينار فقال أبو بكر رضي الله عنه أنت رجل لا تستحي من الكذب
قال لا واللات والعزى لأن أعطيتني لأفعلن فقال هي لك فأخذه هذا كلامه
وقيل اشتراه بتسع وقيل بخمس أواق أي ذهبا أي وقيل ببردة وعشرة أواق من فضة وفي
رواية برطل من ذهب

ويروى أن سيده قال لأبي بكر لو أبيت إلا أوقية أي لو قلت لا أشتريه إلا بأوقية لبعناكه
فقال لو طلبت مائة أوقية لأخذته بها
ولما قال المشركون إنما أعتق أبو بكر بلالا ليد كانت له عنده ليكافئه بها انزل الله
تعالى * (والليل إذا يغشى) * السورة فالأتقى أبو بكر رضي الله تعالى عنه والأشقى أمية
بن خلف

قال الإمام فخر الدين أجمع المفسرون هنا على أن المراد بالأتقى أبو بكر وذهب

الشيعة إلى أن المراد به علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه ويرده وصف الأتقى بقوله تعالى * (وما لأحد عنده من نعمة تجزى) * لأن هذا الوصف لا يصدق علي رضي الله تعالى عنه لأنه كان في تربية النبي صلى الله عليه وسلم أي كما تقدم فكان صلى الله عليه وسلم منعما عليه نعمة يجب عليه جزاؤها أي نعمة دنيوية لأنها التي يجازى عليها بخلاف أبي بكر فإنه لم يكن له صلى الله عليه وسلم نعمة دنيوية وإنما كان له نعمة الهداية وهي نعمة لا يجازي عليها قال الله تعالى * (قل لا أسألكم عليه أجرا) * فتعين حمل الآية على أبي بكر رضي الله تعالى عنه فيلزم من ذلك أن يكون أبو بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل الخلق لأن الله تعالى يقول * (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) * والأكرم هو الأفضل وبين ذلك الفخر الرازي بأن الأمة مجمعة على أن أفضل الخلق بعد النبي صلى الله عليه وسلم إما أبو بكر وإما علي فلا يمكن حمل الآية على علي لما تقدم فتعين حملها على أبي بكر وذكر بعض أهل المعاني أي المبينين لمعاني القرآن كالزجاج والفراء والأخفش أن الراد بالأشقى والأتقى الشقي والتقى فأوقع أفعل التفضيل موضع فعيل فهو عام في أمية ابن خلف وأبي بكر وغيرهما وإن كان السبب خاصا والذي بخل واستغنى المراد به أبو سفيان لأنه كان عاتب أبا بكر في إنعامه وإعتاقه وقال له أضعت مالك والله لا تصيبه أبدا وقيل المراد به أمية بن خلف

ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن أبا بكر اشترى بلالا قال له الشركة يا أبا بكر فقال قد أعتقته يا رسول الله أي لأن بلالا قال لأبي بكر حين اشتراه إن كنت اشتريتني لنفسك فأمسكني وإن كنت إنما اشتريتني لله عز وجل فدعني لله فأعتقه هذا وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي أبا بكر رضي الله تعالى عنه فقال لو كان عندنا مال اشتريت بلالا فانطلق العباس رضي الله تعالى عنه فاشتراه فبعث به إلى أبي بكر أي ملكه له فاعتقه فليتأمل الجمع بين هذا وما تقدم وقد اشترى أبو بكر رضي الله تعالى عنه جماعة آخرين ممن كان يعذب في الله منهم حمامة أم بلال ومنهم عامر بن فهيرة فإنه كان يعذب في الله تعالى حتى لا يدري ما يقول وكان لرجل من بني تيم من ذوي قرابة أبي بكر رضي الله تعالى عنه ومنهم أبو فكيهة كان عبدا لصفوان بن أمية أسلم حين أسلم بلال فمر به أبو بكر رضي الله تعالى عنه وقد

أخذه أمية أبو صفوان وأخرجه نصف النهار في شدة الحر مقيدا إلى الرمضاء فوضع على بطنه صخرة فخرج لسانه وأخو أمية يقول له زده عذابا حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره فاشتراه أبو بكر رضي الله تعالى عنه ومنهم امرأة وهي زنيرة بزاي فنون مشددة مكسورتين فمثناة تحتية ساكنة وهي في اللغة الحصاة الصغيرة عذبت في الله تعالى حتى عميت قال لها يوما أب جهل إن اللات والعزى فعلا بك ما ترين فقالت له كلا والله لا تملك اللات والعزى نفعا ولا ضرا هذا أمر من السماء وربى قادر على أن يرد علي بصري فأصبحت تلك الليلة وقد رد الله تعالى عليها بصرها فقالت قريش إن هذا من سحر محمد صلى الله عليه وسلم فاشترها أبو بكر رضي الله تعالى عنه وأعتقها أي وكذا ابنتها

وفي السيرة الشامية أم عنيس بالنون أو الباء الموحدة فمثناة تحتية فسين مهملة أمة لبني زهرة كان الأسود بن عبد يغوث يعذبها ولم يصفها بأنها بنت زنيرة فاشترها أبو بكر رضي الله تعالى عنه وأعتقها وكذا النهديّة وابنتها وكانتا للوليد بن المغيرة وكذا امرأة يقال لها لطيفة وكذا أخت عامر بن فهيرة أو أمه كانت لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قبل أن يسلم

فقد جاء أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه مر على عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وهو يعذب جارية أسلمت استمر يضربها حتى مل قبل أن يسلم ثم قال لها إني أعتذر إليك فإنني لم أتركك حتى ملّيت فقالت له كذلك يعذبك ربك إن لم تسلم فاشترها منه وأعتقها

وفي السيرة الشامية وصفها بأنها جارية بني المؤمل بن حبيب وكان يقال لها لبينة فجملة هؤلاء تسعة

وممن فتن عن دينه فثبت عليه خباب بن الأرت بالمشناة فوق فإنه سبى في الجاهلية فاشترته أم أنمار أي وكان قينا أي حدادا وكان صلى الله عليه وسلم يألفه ويأتيه فلما أسلم وأخبرت بذلك مولاته صارت تأخذ الحديدية وقد أحمتها بالنار فتضعها على رأسه فشكا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم انصر خبابا فاشتكت مولاته رأسها فكانت تعوي مع الكلاب فقبل لها اکتوي فكان خباب يأخذ الحديدية وقد أحماها فيكوي رأسها

وفي البخاري عن خباب قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برده في ظل الكعبة ولقد لقينا معاشر المسلمين من المشركين شدة شديدة فقلت يا رسول الله ألا تدعو الله لنا فقعد صلى الله عليه وسلم محمرا وجهه فقال إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يصير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه

قال وعن خباب رضي الله تعالى عنه أنه حكى عن نفسه قال لقد رأيتني يوما وقد أوقدوا لي نارا ووضعوها على ظهري فما أطفأها إلا ودك ظهري أي دهنه وممن فتن عن دينه فثبت عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه كان يعذب بالنار وفي كلام ابن الجوزي كان صلى الله عليه وسلم يمر به وهو يعذب بالنار فيمر يده على رأسه ويقول يا نار كوني بردا وسلاما على عمار كما كنت على إبراهيم هذا كلامه ثم إن عمارا كشف عن ظهره فإذا هو قد برص أي صار أثر النار أبيض كالبرص ولعل حصول ذلك كان قبل دعائه صلى الله عليه وسلم بأن النار تكون بردا وسلاما عليه وعن أم هانئ رضي الله تعالى عنها أن عمار بن ياسر وأباه ياسر وأخاه عبد الله وسمية أم عمار رضي الله تعالى عنهم كانوا يعذبون في الله تعالى فمر بهم النبي صلى الله عليه وسلم صبورا آل ياسر صبورا آل ياسر فإن موعدكم الجنة أي وفي رواية صبورا يا آل ياسر اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت فمات ياسر في العذاب وأعطيت سمية لأبي جهل أي أعطاه له عمه أبو حذيفة بن المغيرة فإنها كانت مولاته فطعنها في قلبها فماتت أي بعد أن قال لها إن آمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم إلا لأنك عشقتيه لجماله ثم طعنها بالحربة في قلبها حتى قتلها فهي أو شهيدة في الإسلام اه أي وعن بعضهم كان أبو جهل يعذب عمار بن ياسر وأمه ويجعل لعمار درعا من حديد في اليوم الصائف فنزل قوله تعالى* (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون)*

وجاء أن عمار بن ياسر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقد بلغ منا العذاب

كل مبلغ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم صبوا أبا اليقظان ثم قال اللهم لا تعذب أحدا من آل عمار بالنار

قال بعضهم وحضر عمار بدرا ولم يحضرها من أبواه مؤمناه إلا هو أي من المهاجرين فلا ينافي أن بشر بن البراء بن معرور الأنصاري حضر بدرا وأبواه مؤمنان ومما أودى به أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ما روى عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت لما ابتلى المسلمون بأذى المشركين أي وحصروا بني هاشم والمطلب في شعب أبي طالب وأذن صلى الله عليه وسلم لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة وهي الهجرة الثانية خرج أبو بكر رضي الله تعالى عنه مهاجرا نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد بالغين المعجمة موضع بأقاصي هجر وقيل موضع وراء مكة بخمسة أميال أي وفي رواية حتى إذا سار يوما أو يومين لقيه ابن الدغنة بفتح الدال وكسر الغين المعجمة وتخفيف النون وهو سيد القارة أي وهو اسمه الحارث والقارة قبيلة مشهورة كان يضرب بهم المثل في قوة الرمي ومن ثم قيل لهم رماة الحدق لا سيما ابن الدغنة والقارة أكمة سوداء نزلوا عندها فسموا بها قال له أي تريد يا أبا بكر قال أبو بكر أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي قال ابن الدغنة فإن مثلك يا أبا بكر قال أبو بكر أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي قال ابن الدغنة فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق وأنا لك جار فارجع فأعبد ربك ببلدك فرجع مع ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة في أشراف قريش وقال لهم إن أبا بكر لا يخرج مثله أخرجون رجلا يكسب المعدوم ٦ ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق وهو في جوارى فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة أي لم يرد جواره وقالوا لابن الدغنة مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذنا بذلك ولا يستعلن به فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا فقال ابن الدغنة ذلك لأبي بكر رضي الله تعالى عنه فمكث أبو بكر يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ثم ابتنى مسجدا بفناء داره فكان يصلى فيه ويقرأ القرآن وكان رجلا بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن فكانت نساء قريش يزدحمن عليه فأفزع ذلك كثيرا من أشراف قريش أي مع المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا إنا اجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره فأعلن بالصلاة

والقراءة وإنا قد خشينا أن يفتن نساؤنا وأبناءنا بهذا فإن أحب أن يقتصر على عبادة ربه في داره فعل وإن رأى أن يعلن بذلك فاسأله أن يرد إليك ذمتك فأنا قد كرهنا أن نخفرك أي نزل خفارتك أي ننقض جوارك ونبطل عهدك فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال قد علمت الذي قد عاقدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلى ذمتي فإنني لا أحب أن تسمع العرب أنني أخفرت أي أزيلت خفارتي في رجل عقدت له فقال له أبو بكر فإنني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله تعالى قال ولما رد جوار ابن الدغنة لقيه بعض سفهاء قريش وهو عابر إلى الكعبة فحشى على رأسه ترابا فمر عليه بعض كبراء قريش من المشركين فقال له أبو بكر رضي الله تعالى عنه ألا ترى ما صنع هذا السفية فقال له أنت فعلت بنفسك فصار أبو بكر يقول رب ما أحلمك قال ذلك ثلاثا انتهى

أي وفي كلام بعضهم وينبغي لك أن تتأمل فيما وصف به ابن الدغنة أبا بكر بين أشرف قريش بتلك الأوصاف الجليلة المساوية لما وصفت به خديجة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يطعنوا فيها مع ما هم متلبسون به من عظيم بغضه ومعاداته بسبب اسلامه فإن هذا منهم اعتراف أي اعتراف بأن أبا بكر كان مشهورا بينهم بتلك الأوصاف شهرة تامة بحيث لا يمكن أحد أن ينازع فيها ولا أن يجحد شيئا منها وإلا لبادوا إلى جحدها بكل طريق أمكنهم لما تحلوا به من قبيح العداوة له بسبب ما كانوا يرون منه من صدق موالاته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعظيم محبته له ومما يؤثر عنه رضي الله عنه صنائع المعروف تقي مصارع السوء ثلاث من كن فيه كن عليه البغي والنكث والمكر

باب عرض قريش عليه صلى الله عليه وسلم أشياء من خوارق العادات وغير العادات ليكف عنهم لما رأوا المسلمين يزيدون ويكثرون وسؤالهم له أشياء من خوارق العادات معينات وغير معينات وبعثهم إلى أحبار يهود المدينة يسألونهم عن صفة النبي صلى الله عليه وسلم وعما جاء به ومن حديث الزبيدي وحديث المستهزئين به صلى الله عليه وسلم ومن حديثهم حديث الأراشي ومن قصد أذيته صلى الله عليه وسلم فرد خائبا حدث محمد بن كعب القرظي قال حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيدا مطاعا في قريش قال يوما وهو جالس في نادي قريش أي متحدثهم والنبي صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده يا معشر قريش ألا أقوم لمحمد صلى الله عليه وسلم وأكلمه وأعرض عليه أمور لعله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا قالوا يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه قال وفي رواية أخرى أن نفرا من قريش اجتمعوا وفي أخرى أشرف قريش من كل قبيلة اجتمعوا وقالوا ابعثوا إلى محمد حتى تعذروا فيه فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليات هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يريد فقالوا لا نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة انتهى فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة والمكان في النسب أي من الوسط أي الخيار حسبا ونسبا وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم قال زاد بعضهم أنه قال أيضا أنت خير أم عبد الله أنت خير أم عبد المطلب أي فسكت إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبدت وإن كنت تزعم أنك خير منهم فقل يسمع لقولك لقد أفضحتنا في العرب حتى طار فيهم أن في قريش ساحرا وأن في قريش كاهنا

ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى انتهى فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قل يا أبا الوليد أسمع فقال يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا أي فيصير لك الأمر والنهي فهو أخص ما قبله وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً من الجن تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع منه قال لقد فرغت يا أبا الوليد قال نعم قال فاسمع مني قال أفعل قال * (بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) * ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فقرأها عليه وقد أنصت عتبة لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قوله تعالى * (فإن أعرضوا فقل أذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) * فأمسك عتبة على فيه صلى الله عليه وسلم وناشده الرحم أن يكف عن ذلك ثم انتهى إلى السجدة فيها فسجد ثم قال قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض يحلف لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فلما جلس إليهم قالوا ما وراءك يا أبا الوليد قال ورائي أنني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة يا معشر قريش أطيعوني فاجعلوها لي خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأً فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه قال هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم قال وفي رواية أن عتبة لما قام من عند النبي صلى الله عليه وسلم أبعد عنهم ولم يعد عليهم فقال أبو جهل والله يا معشر قريش ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد صلى الله عليه وسلم وأعجبه كلامه فانطلقوا بنا إليه فأتوه فقال أبو جهل والله يا عتبة ما جئناك إلا أنك قد صبوت إلى محمد صلى الله عليه وسلم وأعجبك أمره فقص عليهم القصة فقال والله الذي

تصبها بنية يعني الكعبة ما فهمت شيئا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد
وتمود فأمسكت بفيه فأنشدته الرحم أن يكف وقد علمت أن محمدا صلى الله عليه
وسلم إذا قال شيئا لم يكذب فخفت أن ينزل عليكم العذاب فقالوا له ويلك يكلمك
الرجل بالعربية لا تدري ما قال قال والله ما سمعت مثله والله ما هو بالشعر إلى آخر ما
تقدم فقالوا والله سحرك يا أبا الوليد قال هذا رأيي فيكم فاصنعوا ما بدا لكم اه
وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن قريشا أي أشرفهم وشيختهم منهم الأسود بن
زمعة والوليد بن المغيرة وأميرة بن خلف والعاص بن وائل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة
وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأبو جهل
وفي الينبوع أتى الوليد بن المغيرة في أربعين رجلا من الملاء أي من السادات منزل أبي
طالب وسألوه أن يحضر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأمره بإشكائهم ما
يشكون منه أي أن يزيل شكواهم منه ويحيبهم إلى أمر فيه الألفة والإصلاح فأحضره
وقال يا بن أخي هؤلاء الملاء من قومك فأشكهم وتألفهم فعاتبوا النبي صلى الله عليه
وسلم على تسفيه أحلامهم وأحلام آبائهم وعيب آلهتهم الحديث أي قالوا له يا محمد
إنا بعثنا إليك لنكلمك فإننا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت
على قومك لقد شتمت الآباء وعيبت الدين وسببت الآلهة وسفهت الأحلام وفرقت
الجماعة ولم يبق أمر قبيح إلا أتته فيما بيننا وبينك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث
تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وإن كنت إنما تطلب
الشرف فينا فنحن نسودك ونشرفك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك تابعا من الجن قد
غلب عليك بذلنا أموالنا في طبك
وفي رواية أنهم لما اجتمعوا ودعوه صلى الله عليه وسلم فجاءهم مسرعا طمعا في
هدايتهم حتى جلس إليهم وعرضوا عليه الأموال والشرف والملك فقال صلى الله عليه
وسلم ما جئت بما جئتمكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن
الله بعثني إليكم رسولا وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم
رسالات ربي ونصحت لكم وأن تقبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة
وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم
وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما دعت قريش النبي صلى الله

عليه وسلم إلى أن يعطوه مالا فيكون به أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء ويكف عن شتم آلهتهم ولا يذكرها بسوء فقد ذكر أن عتبة بن ربيعة قال له إن كان أن ما بك الباءة فاختر أي نساء قريش فنزوجك عشرا وقالوا له ارجع إلى ديننا واعبد آلهتنا واترك ما أنت عليه ونحن نتكفل لك بكل ما تحتاج إليه في دنياك وآخرتك وقالوا له إن لم تفعل فإننا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح قال وما هي قال تعبد آلهتنا اللات والعزى سنة ونعبد إلهك سنة فنشترك نحن وأنت في الأمر فإن كان الذي تعبده خيرا مما نعبد كنت أخذت منه بحظك وإن كان الذي نعبد خيرا مما تعبد كما قد أخذنا منه بحظنا فقال لهم حتى أنظر ما يأتي من ربي فجاء الوحي بقوله تعالى * (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم)*
السورة

وعن جعفر الصادق أن المشركين قالوا له اعبد معنا آلهتنا يوما نعبد معك إلهك عشرة واعبد معنا آلهتنا شهرا نعبد معك إلهك سنة فنزلت اي لا أعبد ما تعبدون يوما ولا أنتم عابدون ما أعبد شهرا ولا أنا عابد ما عبدتم شهرا ولا أنتم عابدون ما أعبد سنة روى ذلك التقدير جعفر ردا على بعض الزنادقة حيث قالوا له طعنا في القرآن لو قال امرؤ القيس

* قفا نبك من ذكري حبيب منزل
* وكرر ذلك أربع مرات في نسق أما كان عيبا فكيف وقع في القرآن * (قل يا أيها الكافرون) * السورة وهي مثل ذلك وقوله * (لكم دينكم ولي دين) * نسخ بآية القتال وبقوله تعالى * (أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) * * (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) * ولما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله أنزل لما كرهتموه القرآن قالوا أتت بقرآن غير هذا فأنزل الله تعالى * (ولو تقول علينا) * الآيات وقد يقال المناسب للرد عليهم قوله تعالى * (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي) * الآية ثم رأيت في الكشاف ما يوافق ذلك وهو لما غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الأصنام والوعيد الشديد قالوا أتت بقرآن آخر ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك أو بدله بأن تجعل مكان آية عذاب رحمة وتسقط ذكر الآلهة ودم عبادتها نزل قوله تعالى * (قل ما يكون لي أن أبدله) * الآية
قال وجلس أي صلى الله عليه وسلم مجلسا فيه ناس من وجوه قريش منهم أبو جهل

ابن هشام وعتبة بن ربيعة أي وشيبة بن ربيعة وأميرة بن خلف والوليد بن المغيرة فقال لهم أليس حسنا ما جئت به فيقولون بلى والله وفي لفظ هل ترون بما أقول بأسا فيقولون لا فجاء عبد الله بن أم مكتوم وهو ابن خال خديجة أم المؤمنين وهو ممن أسلم بمكة قديما والنبى صلى الله عليه وسلم مشتغل بأولئك القوم وقد رأى منهم مؤانسة وطمع في إسلامهم فصار يقول يا رسول الله علمني مما علمك الله وأكثر عليه فشق عليه صلى الله عليه وسلم ذلك فأعرض عن ابن أم مكتوم ولم يكلمه انتهى أي وفي رواية أشار صلى الله عليه وسلم إلى قائد ابن أم مكتوم بأن يكفه عنه حتى يفرغ من كلامه فكفه القائد فدفعه ابن أم مكتوم فعبس صلى الله عليه وسلم وأعرض عنه مقبلا على من كان يكلمه فعاتبه الله تعالى في ذلك بقوله * (عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدرىك) * السورة أي والمعجى مع الأعمى ينشأ عن مزيد من الرغبة وتجشم الكلفة والمشقة في المعجى ومن كان هذا شأنه فحقه الإقبال عليه لا الإعراض عنه فكان بعد ذلك إذا جاءه يقول مرحبا بمن عاتبني فيه ربي وييسط له رداءه قال وبهذا يسقط ما للقاضي أبي بكر ابن العربي هنا انتهى أقول لعل الذي له هو ما ذكره تلميذه السهيلي وهو أن ابن أم مكتوم لم يكن أسلم حينئذ وإلا لم يسمعه بالاسم المشتق من العمر دون الاسم المشتق من الإيمان لو كان دخل في الإيمان قبل ذلك وإنما دخل فيه بعد نزول الآية ويدل على ذلك قوله للنبي صلى الله عليه وسلم استدني يا محمد وليم يقل استدني يا رسول الله ولعل في قوله تعالى * (لعله يزكى) * ما يعطى الترجى والإنتظار ولو كان إيمانه قد تقدم قبل هذا لخرج عن حد الترجى والإنتظار للتركي هذا كلامه وعن الشعبي قال دخل رجل على عائشة رضي الله تعالى عنها وعندها ابن أم مكتوم وهي تقطع له الأترج وتجعله في العسل وتطعمه فقيل لها في ذلك فقالت ما زال هذا له من آل محمد منذ عاتب الله عز وجل فيه نبيه صلى الله عليه وسلم والله أعلم وفي فتاوي الجلال السيوطي من جملة أسئلة رفعت إليه فأجاب عنها بأنها باطلة أن أبا جهل قال يا محمد إن أخرجت لنا طاوسا من صخرة في داري آمنت بك فدعا ربه عز وجل فصارت الصخرة تئن كأنين المرأة الحبلى ثم انشقت عن طاوس صدره من ذهب

ورأسه من زبرجد وجناحاه من ياقوتة ورجلاه من جوهر فلما رأى ذلك أبو جهل
أعرض ولم يؤمن
ومما سأله صلى الله عليه وسلم من الآيات غير المعينات على ما رواه الشيخان أو
معينة كما في رواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وسيأتي ما يعلم منه أنهم
سألوه صلى الله عليه وسلم أولاً آية غير معينة ثم عينوها فلا مخالفة
فقد ذكر ابن عباس أن قريشا سألت النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية
أي رواية عن ابن عباس اجتمع المشركون أي بمنى منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل
بن هشام والعاص بن وائل والعاص بن هشام والأسود بن عبد يغوث والأسود بن
المطلب وزمعة بن الأسود والنضر بن الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقالوا إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان
وقيل يكون نصفه بالمشرق ونصفه الآخر بالمغرب وكانت ليلة أربعة عشر أي ليلة بدر
فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إن فعلت تؤمنوا قالوا نعم فسأل رسول الله
صلى الله عليه وسلم ربه أن يعطيه ما سألوا فانشق القمر نصفاً على أبي قبيس ونصفاً
على قعيقعان وفي لفظ فانشق القمر فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه ولعل الفرقة التي
كانت فوق الجبل كانت جهة المشرق والتي كانت دون الجبل كانت جهة المغرب
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا اشهدوا ولا منافاة بين الروايتين ولا بينهما
وبين ما جاء في رواية فانشق القمر نصفين نصفاً على الصفا ونصفاً على المروة قدر ما
بين العصر إلى الليل ينظر إليه ثم غاب أي ثم إن كان الانشقاق قبل الفجر فواضح وإلا
فمعجزة أخرى لأن القمر ليلة أربعة عشر يستمر جميع الليل وسيأتي عن زين المعمر أنه
عاد بعد غروبه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشهدوا والفرقتان هما المرادتان
بالمرتين في بعض الروايات التي أخذ بظاهرها بعضهم كالزبير العراقي فقال إنه انشق
مرتين لأن المرة قد تستعمل في الأعيان وإن كان أصل وضعها الأفعال فقد قال ابن
القيم كون القمر انشق مرتين مرة بعد مرة في زمانين من له خبرة بأحوال الرسول صلى
الله عليه وسلم وسيرته يعلم أنه غلط وأنه لم يقع الانشقاق إلا مرة واحدة وعند ذلك
قال كفار قريش سحركم ابن أبي كبشة أي وهو أبو كبشة أحد أجداده صلى الله عليه
وسلم من قبل أمه لأن وهب بن عبد مناف

ابن زهرة جد أبي آمنة أمه يكنى أبا كبشة أو هو من قبل مرضعته حليلة لأن والدها أو جدّها كان يكنى بذلك أو كان لها بنت تسمى كبشة فكان زوجها الذي هو أبوه من الرضاعة يكنى بتلك البنت كما تقدم في الرضاع وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم فقال حدثني حاضني أبو كبشة أنهم لما أرادوا دفن سلول وكان سيّدا معظما حفروا له فوقعوا على باب مغلق ففتحوه فإذا سرير وعليه رجل وعليه حلل عدة وعند رأسه كتاب أنا أبو شهر ذو النون مأوى المساكين ومستفاد الغارمين أخذني الموت غصبا وقد أعبى الجبارة قيل قال صلى الله عليه وسلم كان ذو النون هذا هو سيف بن ذي يزن الحميري وقيل أبو كبشة جده صلى الله عليه وسلم لأبيه لأن أبا أم جده عبد المطلب كان يدعى أبا كبشة وكان يعبد النجم الذي يقال له الشعري وترك عبادة الأصنام مخالفة لقريش فهم يشيرون بذلك إلى أن له في مخالفته سلفا

وقيل الذي عبد الشعري وترك الأصنام رجل من خزاعة فشبّهه صلى الله عليه وسلم به في مخالفته لهم في عبادة الأصنام أي ومما قد يؤيد هذا الأخير ما في الإتيان حيث مثل بهذا الآية للنوع المسمى بالتنكيت وهو أن يخص المتكلم شيئا من بين الأشياء بالذكر لأجل نكتة كقوله تعالى * (وأنه هو رب الشعري) * خص الشعري بالذكر دون غيرها من النجوم وهو سبحانه وتعالى رب كل شيء لأن العرب كان ظهر فيهم رجل يعرف بابن أبي كبشة عبد الشعري ودعا خلقا إلى عبادتها فأنزل الله تعالى * (وأنه هو رب الشعري) * التي ادعيت فيها الربوبية هذا كلامه وكبشة ليس مؤنث كبش لأن مؤنث كبش ليس من لفظه فقال رجل منهم إن محمدا إن كان سحر القمر أي بالنسبة إليكم فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها أي جميع أهل الأرض وفي رواية لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم فاسألوه من يأتيكم من بلد آخر هل رأوا هذا فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك وفي رواية أن أبا جهل قال هذا سحر فسألوا أهل الآفاق وفي لفظ انظروا ما يأتيكم به السفار حتى تنظروا هل رأوا ذلك أم لا فأخبروا أهل الآفاق وفي لفظ فجاء السفار وقد قدموا من كل وجه فأخبروهم أنهم رأوه منشقا فعند ذلك قالوا هذا سحر مستمر أي مطرد فهو إشارة إلى ذلك وإلى ما قبله من الآيات وفي لفظ قالوا هذا سحر أسحر

السحرة فأنزل الله تعالى * (اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) * أي مطرد كما تقدم أو محكم أو قوي شديد أو مار ذاهب لا يبقى وهذا الكلام كما لا يخفى يدل على أنه لم يختص برؤية القمر منشقا أهل مكة بل جميع أهل الآفاق وبه يرد قول بعض الملاحدة لو وقع انشقاق القمر لاشتراك أهل الأرض كلهم في معرفته ولم يختص بها أهل مكة ولا يحسن الجواب عنه بأنه طلبه جماعة خاصة فاختصت رؤيته بمن اقترح وقوعه ولا بأنه قد يكون القمر حينئذ في بعض المنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض ولا بقول بعضهم إن انشقاق القمر آية ليلية جرى مع طائفة في جنح ليلة ومعظم الناس نيام وفي فتح الباري حنين الجذع وإنشقاق القمر نقل كلا منهما نقلا مستفيضا يفيد القطع عند من يطلع على طرق الحديث أقول وإلى انشقاق القمر أشار صاحب الهمزية بقوله * شق عن صدره وشق له البد * ر ومن شرط كل شرط جزاء *

أي شق عن صدره صلى الله عليه وسلم وفي نسخة قلبه وكل منهما صحيح لأنه شق صدره أولا ثم شق قلبه ثانيا وشق لأجله القمر ليلة أربعة عشر وإنما شق له صلى الله عليه وسلم لأن من شرط كل شرط جزاء لأنه لما شق صدره صلى الله عليه وسلم جوزي على ذلك بأعظم مشابه له في الصورة وهو شق القمر الذي هو من أظهر المعجزات بل أعظمها بعد القرآن وقد أشار إلى ذلك أيضا الإمام السبكي في تائيته بقوله * وبدر الدياتي انشق نصفين عندما * أرادت قريش منك إظهار آية *

أي فإنهم ائتمروا فيما بينهم فاتفقوا على أن يقترحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم انشقاق القمر الذي هو بعيد عن الأطماع في غاية الامتناع أي فقد سأله أولا آية غير معينة ثم عينوها وفي الإصابة عن بعضهم قال وأنا ابن تسع عشرة سنة سافرت مع أبي وعمي من خراسان إلى الهند في تجارة فلما بلغنا أوائل بلاد الهند وصلنا إلى شعبة من الضياع فخرج أهل القافلة نحوها فسألناهم عن ذلك فقالوا هذه ضيعة الشيخ زين الدين المعمر فرأينا شجرة خارج الضيعة تظل خلقا كثيرا وتحتها جمع عظيم من أهل تلك الضيعة فلما رأونا رحبوا بنا فرأينا زنبلا معلقا في بعض أغصان تلك الشجرة فسألناهم فقالوا في هذا

الزنبيل الشيخ زين الدين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بطول العمر ست مرات فبلغ ستمائة سنة كل دعوة بمائة سنة فسألناهم أن ينزلوا الشيخ لنسمع كلامه وحديثه فتقدم شيخ منهم فأنزل الزنبيل فإذا هو مملوء بالقطن والشيخ في وسط القطن وهو كالفرخ فوضع فمه على أذنه وقال يا جداه هؤلاء قوم قد قدموا من خراسان وقد سألوا أن تحدثهم كيف رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وماذا قال لك فعند ذلك تنفس الشيخ وتكلم بصوت كصوت النحل بالفارسية ونحن نسمع فقال سافرت مع أبي وأنا شاب من هذه البلاد إلى الحجاز في تجارة فلما بلغنا بعض أودية مكة وكان المطر قد ملأ الأودية فرأيت غلاما حسن الشمائل يرعى إبلا في تلك الأودية وقد حالت السيل بينه وبين إبله وهو يخشى من حوض الماء لقوة السيل فعلمت حاله فأتيت إليه وحملته وخضت به السيل إلى عند إبله من غير معرفة سابقة فلما وضعت عند إبله نظر إلي ودعا لي ثم عدنا إلى بلادنا وتناولت المدة ففي ليلة ونحن جلوس في ضيعتنا هذه في ليلة مقمرة ليلة البدر والبدر في كبد السماء إذ نظرنا إليه قد انشق نصفين فغرب نصف في المشرق ونصف في المغرب وأظلم الليل ساعة ثم طلع النصف من المشرق والثاني من المغرب إلى أن ألتقيا في وسط السماء كما كان أول مرة فتعجبنا من ذلك غاية العجب ولم نعرف لذلك سببا فسألنا الركبان عن سببه فأخبرونا أن رجلا هاشميا ظهر بمكة وادعى أنه رسول الله إلى كافة العالم وأن أهل مكة سألوه معجزة واقترحوا عليه أن يأمر لهم القمر فينشق في السماء ويغرب نصفه في المشرق ونصفه في المغرب ثم يعود إلى ما كان عليه ففعل لهم ذلك فاشتقت إلى رؤياه فذهبت إلى مكة وسألت عنه فدلوني على موضعه وأتيت إلى منزله واستأذنت فأذن لي في الدخول فدخلت عليه فلما سلمت عليه نظر إلي وتبسم وقال ادن مني وبين يديه طبق فيه رطب فتقدمت وجلست وأكلت من الرطب وصار يناولني إلى أن ناولني ست رطبات ثم نظر إلي وتبسم وقال لي ألم تعرفني قلت لا فقال ألم تحملي في عام كذا في السيل ثم قال امدد يدك فصافحني وقال قل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فقلت ذلك فسر أي وقال عند خروجي من عنده بارك الله في عمرك قال ذلك ست مرات فبارك الله لي عمري بكل دعوه مائة سنة فعمري اليوم ستمائة سنة أي في المائة السادسة مشرف على تمامها تأمل

وسئل الحافظ السيوطي عن مثل هذا الحديث وهو الحديث الذي رواه معمر الذي يزعم أنه صحابي وأنه يوم الخندق صار ينقل التراب بغلقين وبقية الصحابة بغلق واحد فضرب النبي صلى الله عليه وسلم بكفه الشريف بين كتفيه أربع ضربات وقال له عمر ك الله يا معمر فعاش بعد ذلك أربعمئة سنة ببركة الضربات التي ضربها بين كتفيه كل ضربة مائة سنة وقال له بعد أن صافحه من صافحك إلى ست أو سبع لم تمسه النار هل هو صحيح أم كذب وافترء لا تجوز روايته فأجاب بأنه باطل وأن معمرًا هذا كذاب دجال لأنه ثبت في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال قبل موته بشهر أرأيتم لي ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد وقد قال أهل الحديث وغيرهم إن من ادعى الصحبة بعد مائة سنة من وفاته صلى الله عليه وسلم فهو كذاب ومعلوم أن آخر الصحابة مطلقًا موتا أبو الطفيل مات سنة عشر ومائة من الهجرة ثبت ذلك في صحيح مسلم واتفق عليه العلماء فمن ادعى الصحبة بعد أبي الطفيل فهو كذاب

ومما سأله صلى الله عليه وسلم من الآيات المعينات ما حدث به بعضهم قال إن قريشا قالت له صلى الله عليه وسلم سل ربك يسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وييسط لنا بلادنا وليحرق فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن بعث لنا قصي بن كلاب فإنه كان شيخ صدق فنسأله عما تقول أحق هو أم باطل قال زاد في رواية فإن صدقك وصنعت ما سألتك صدقناك وعرفنا منزلتك من الله تعالى وأنه بعثك إلينا رسولا كما تقول فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهذا بعثت لكم إنما جئتمكم من الله بما بعثني به اه ثم قالوا له واسأل ربك يبعث معك ملكا يصدقك فيما تقول ويراجعنا عنك أي وفي لفظ قالوا له لم لا ينزل علينا الملائكة فتخبرنا بأن الله أرسلك أو نرى ربنا فيخبرنا بأنه أرسلك فنؤمن حينئذ بك وقال آخر يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبلا واسأله أن يجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه أي فلا بد أن تتميز عنا حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا أي وفي لفظ قالوا إن محمدا يأكل الطعام كما نحن نأكل ويمشي في الأسواق ويلتمس المعاش كما نلتمس نحن فلا يجوز

أن يمتاز عنا بالنبوة فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنا بالذي يسأل ربه هذا وأنزل الله تعالى * (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) * ولما قالوا الله أعظم أن يكون رسوله بشرا منا أنزل الله تعالى * (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس) * ثم قالوا وأسقط السماء علينا كسفا أي قطعنا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل وقد بلغنا أنك إنما تعلمك رجل باليمامة يقال له الرحمن وإنا والله لن نؤمن بالرحمن أبدا أي وقد عنوا بالرحمن مسيلمة وقيل عنوا كاهنا كان لليهود باليمامة وقد رد الله تعالى عليهم بأن الرحمن المعلم له هو الله تعالى بقوله * (قل هو) * أي الرحمن * (ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب) * أي توبتي ورجوعي وعند ذلك قام صلى الله عليه وسلم حزينا أسفا على ما فاتته من هدايتهم التي طمع فيها وقال له عبد الله بن عمته عاتكة بنت عبد المطلب قبل أن يسلم رضي الله تعالى عنه يا محمد قد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبل ثم سألك أن تعجل بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل والله لن نؤمن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ثم تأتي معك بصك أي كتاب معه أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول وأيم الله إنك لو فعلت ذلك ما ظننت أنني أصدقك فأنزل الله تعالى عليه الآيات التي فيها شرح هذه المقالات في سورة الإسراء وفيها الإشارة إلى أنه تعالى خيره بين أن يعطيه جميع ما سألوا وأنهم إن كفروا بعد ذلك استأصلهم بالعذاب كالأمم السابقة وبين أن يفتح لهم باب الرحمة والتوبة لعلمهم يتوبون وإليه يرجعون فاختر الثاني لأنه صلى الله عليه وسلم يعلم من كثير منهم العناد وأنهم لا يؤمنون وإن حصل ما سألوا فيستأصلون بالعذاب لأن الله تعالى يقول * (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) *

وعن محمد بن كعب ما حصله أن الملاء من قريش أقسموا للنبي صلى الله عليه وسلم بالله عز وجل أنهم يؤمنون به إذا صار الصفا ذهبا فقام يدعو الله تعالى أن يعطيهم ما سأله فأتاه جبريل فقال له إن شئت كان ذلك ولكني لم آت قوما بآية اقترحوها فلم يؤمنوا بها إلا أمرت بتعذيبهم وفيه أنه حينئذ يشكل رواية سؤالهم انشقاق القمر وفي رواية أتاه جبريل فقال يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول إن شئت

أن يصبح لهم الصفا ذهباً فإن لم يؤمنوا أنزلت عليهم العذاب عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين وإن شئت لا تصير الصفا ذهباً وفتحت لهم باب الرحمة والتوبة فقال لا بل أن تفتح لهم باب الرحمة والتوبة

وفي رواية وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم فقال صلى الله عليه وسلم بل حتى يتوب تائبهم وأيضاً وافق على فتح باب الرحمة والتوبة لأنه صلى الله عليه وسلم علم أن سؤالهم لذلك جهل لأنه خفيت عليهم حكمة إرسال الرسل وهي امتحان الخلق وتعبدهم بتصديق الرسل ليكون إيمانهم عن نظر واستدلال فيحصل الثواب لمن فعل ذلك ويحصل العقاب لمن أعرض عنه إذ مع كشف الغطاء يحصل العلم الضروري فلا يحتاج إلى إرسال الرسل ويفوت الإيمان بالغيب

وأيضاً لو يسألوا من تلك الآيات إلا تعنتا وإستهزاء لا على جهة الإسترشاد ودفع الشك وإلى سؤالهم تلك الآيات وإرتيابهم في القرآن وقولهم فيه إنه سحر وافتراء أي سحر يآثره أي يأخذه عن مثله وعن أهل بابل يفرق به بين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته * (إن هذا إلا قول البشر) * من قول أبي اليسر وهو عبد لبيبي الحضرمي كان النبي صلى الله عليه وسلم يجالسه وإلى قول أبي جهل أيضاً تزاحمنا نحن وبنو عبد المطلب الشرف حتى صرنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يوحى إليه والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فنزل قوله تعالى * (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) * وإلى هذا أشار صاحب الهمزية بقوله

* عجباً للكفار زادوا ضلالاً
* بالذي فيه للعقول اهتداء
* والذي يسألون منه كتاب
* منزل قد أتاهم وإرتقاء
*

أي أعجب عجباً من حال الكفار حالة كونهم زادوا ضلالاً بالقرآن الذي فيه إهتداء للعقول وأعجب عجباً أيضاً من الأمر الذي يطلبونه منه صلى الله عليه وسلم وهو كثير من جملته كتاب منزل معه عليهم من السماء وهو القرآن

* أو لم يكفهم من الله ذكر
* فيه للناس رحمة وشفاء
* أعجز الإنس آية منه والجن
* فهلاً يأتي به البلغاء
* كل يوم يهدى إلى سامعيه
* معجزات من لفظه القراء
* تتحلى به المسامع والأفواه

* فهو الحلى والحلواء *
*

(٤٩٧)

رِق لفظا وراق معنى فجاءت
 * في حلاها وحليها الخنساء
 * وأرتنا فيه غوامض فضل
 * رقة من زلاله وصفاء
 * إنما تجتلي الوجوه إذا ما
 * جلّيت عن مرآتها الأصداء
 * سور منه أشبهت صوراً منا
 * ومثل النظائر النظراء
 * والأقاويل عندهم كالتماثيل
 * فلا يوهمنك الخطباء
 * كم أبانت آياته عن علوم
 * من حروف أبان عنها الهجاء
 * فهي كالحب والنوى أعجب الزرا
 * ع منها سنابل وزكاء
 * فأطالوا فيه التردد والريب فقالوا سحر وقالوا افتراء
 * وإذا البيّنات لم تغن شيئاً
 * فالتماس الهدى بهن عناء
 * وإذا ضلت العقول على علم
 * فماذا تقوله الفصحاء
 *

أي أو لم يكفهم عما سألوه عنادا ذكر واصل إليهم حالة كونه من الله تعالى رحمة
 وشفاء للناس والجن والملائكة أعجز الإنس والجن آية منه فهلا يأتي بتلك الآية أهل
 البلاغة كل وقت يهدى قراؤه إلى سامعيه معجزات من لفظه ولذلك تتحلى بسماعه
 المسامع من التحلية التي هي لبس الحلي وتتحلى بألفاظه الأفواه من الحلواء فهو الحلي
 والحلواء حسن من جهة اللفظ وتصفي من شوائب النقص من جهة المعنى فأرتنارقة من
 زلاله وصفاء من ذلك الزلال خبايا فضل فيه وهي العلوم المستنبطة منه وإنما تظهر
 الوجوه ظهوراً واضحاً لا خفاء معه بوجه إذا قوبلت بمرآة وقت جلاء الأصداء عن تلك
 المرآة سور منه أشبهت صوراً منا من حيث اشتمال كل صورة منا على عقل وفهم
 وخلق لا يشاركه فيه غيره والأقاويل الصادرة من الكفار في القرآن كالصور التي
 يصورها المصورون فإنه لا وجود لها في الحقيقة فما قالوه في القرآن باطل قطعي
 البطلان فاحذر الخطباء أن توقع في وهمك أن ما تأتي به يقارب القرآن كم أوضحت
 آياته علوماً حالة كونها متولدة من حروف قليلة كشف عنها التهجي كالحب الذي
 يلقيه الزارع والنوى الذي يلقيه الغارس أعجب الزراع والغراس منها أي من تلك

الحبوب والنوى سنابل وثمار وتمر فاق الحصر فأطالوا في تلك السور الشك فقالوا
سحر وتمويه لا حقيقة له وقالوا مرة أخرى أساطير الأولين وإذا كانت الحجج والبراهين
لم تفدهم شيئاً من الهدى فطلب الهدى منهم بتلك الحجج تعب لا يفيد شيئاً وإذا
ضلت العقول

عن طرق الحق مع علم منها بتلك الطرق فأبي قول يقوله الفصحاء أي وقال الوليد ابن المغيرة يوما أنزل القرآن على محمد وأترك أنا وأنا كبير قريش وسيدنا ويترك أبو مسعود الثقفي سيد ثقيف ونحن عظماء القريتين أي مكة والطائف فأنزل الله تعال * (وقالوا لولا) * أي هلا * (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) * أي أعظم وأشرف من محمد صلى الله عليه وسلم فرد الله تعالى عليهم بقوله * (أهم يقسمون رحمة ربك) * الآية

وفي لفظ قال بعضهم كان الأحق بالرسالة الوليد بن المغيرة من أهل مكة أو عروة بن مسعود الثقفي من أهل الطائف ثم لا يخفى أن كفار قريش بعثوا مع النضر بن الحارث عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهما اسالاهم عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول أي التوراة لأنه قبل الإنجيل وعندهم علم ليس عندنا فخرجا حتى قدما المدينة وسألا أحبار يهود أي قالوا لهم أتيناكم لأمر حدث فينا منا غلام يتيم حقير يقول قولاً عظيماً يزعم أنه رسول الله وفي لفظ رسول الرحمن قالوا صفوا لنا صفته فوصفوا قالوا فمن يتبعه منكم قالوا سفلتنا فضحك حبر منهم وقالوا هذا النبي الذي نجد نعته ونجد قومه أشد الناس له عداوة

قالت لهم أحبار اليهود سلوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول أي وهم أهل الكهف ما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها أي وهو ذو القرنين ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هي فإذا أخبركم بذلك أي بحقيقة الأولين وبعارض من عوارض الثالث وهو كونها من أمر الله فاتبعوه فإنه نبي فرجع النضر وعقبة إلى قريش وقالوا لهم قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد وأخبراهم الخبر فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه عن ذلك فقال لهم عليه الصلاة والسلام أخبركم غدا ولم يستثن أي لم يقل إن شاء الله تعالى وانصرفوا فمكث صلى الله عليه وسلم خمسة عشرة يوماً وقيل ثلاثة أيام وقيل أربعة أيام لا يأتيه الوحي وتكلمت قريش في ذلك بما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا إن محمدا قلاه ربه وتركه أي ومن جملة من قال ذلك له صلى الله عليه وسلم أم جميل امرأة عمه أبي لهب قالت له ما أرى صاحبك إلا وقد ودعك وقلاك أي تركك

وبغضك وفي رواية قالت امرأة من قريش أبطأ عليه شيطانه وشق عليه صلى الله عليه وسلم ذلك منهم ثم جاءه جبريل بسورة الكهف وفيها خبر الفتية الذين ذهبوا وهم أهل الكهف

ويروى أنهم يكونون مع عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إذا نزل ويحجون البيت وخبر الرجل الطواف وهو ذو القرنين أي وهو إسكندر ذو القرنين كان له قرنان صغيران من لحم تواريهما العمامة

وفي لفظ كان له شبه القرنين في رأسه وقيل غدירתان من شعر وقيل لأنه قرن ما بين طلوع الشمس ومغربها أي بلغ قطري المشرق والمغرب وقيل ضرب على قرن رأسه فمات ثم أحيى ثم ضرب على قرنه الآخر فمات ثم أحيى وقيل لأنه ملك الروم وفارس وقيل لأنه انقرض في زمنه قرنان من الناس والقرن زمان مائة سنة وكان ذو القرنين رجلاً صالحاً من أهل مصر من ولد يونن وفي لفظ يونان بن يافث بن نوح وكان من الملوك العادلة وكان الخضر صاحب لوائه الأكبر وقيل كان نبياً قاله الضحاك

وجاءه صلى الله عليه وسلم جبريل بالجواب عن الروح المذكور ذلك في سورة الإسراء وهو أن الروح من أمر الله أي قل لهم الروح من أمر ربي أي من علمه لا يعلمه إلا هو أي وكان في كتبهم أن الروح من أمر الله أي مما استأثر الله تعالى بعلمه ولم يطلع عليه أحداً من خلقه ومن ثم جاء في بعض الروايات ما تقدم إن أجابكم عن حقيقة الروح فليس بنبي وإلا بأن أجابكم عنها بأنها من أمر الله فهو نبي ولعل هذا هو المراد كما جاء في بعض الروايات سلوه عن الروح مما استأثر الله تعالى بعلمه كيف يسألونه فيخبرهم بذلك إلا أن يقال المراد إن أجابكم بغير قوله من أمر ربي فاعلموا أنه غير نبي فإنه يحاول أن يخبركم عن حقيقتها وحقيقتها لا يعلمها إلا الله تعالى

ويوافقه ما في مآثور التفسير* (من أمر ربي)* من علم ربي لا علم لي به وفي بعض الروايات عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما سلوه عن الروح التي نفخ الله تعالى في آدم فإن قال لكم من الله تعالى فقولوا له كيف يعذب الله في النار شيئاً هو منه وحاصل الجواب الذي أشارت إليه الآية أن الروح أمر بمعنى مأمور أي مأمور

من مأموراته وخلق من خلقه لا أنها جزء منه والله أعلم أي وهذا يدل على أن المسؤول عنه روح الإنسان التي هي سبب في إفادة الحياة للجسد وفي كلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى أن الروح روحان حيواني وهي التي تسميه الأطباء المزاج وهو جسم لطيف بخاري معتدل سار في البدن الحامل لقواه من الحواس الظاهرة والقوى الجسمانية وهذه الروح تفنى بفناء البدن وتنعدم بالموت وروح روحاني وهي التي يقال لها النفس الناطقة ويقال لها اللطيفة الربانية ويقال لها العقل ويقال لها الروح ويقال لها القلب من الألفاظ الدالة على معنى واحد لها تعلق بقوى النفس الحيواني وهذه الروح لا تفنى بفناء البدن وتبقى بعد الموت هذا كلامه وفي كلام بعضهم والروح عند أكثر أهل السنة جسم لطيف مغاير للأجسام ماهية وهيئة متصرف في البدن حال فيه حلول الدهن في الزيتون يعبر عنه بأنا وأنت وإذا فارق البدن مات

وذهب جمع منهم الغزالي والإمام الرازي وفاقا للحكماء والصوفية إلى أنه جوهر مجرد غير حال بالبدن يتعلق به تعلق العاشق بالمعشوق يدبره أمره على وجه لا يعلمه إلا الله اه

ورأيت في كلام الشيخ الأكبر أن الإمام ركن الدين السمرقندي لما فتح المسلمون بلاد الهند خرج بعض علمائها ليناظر المسلمين فسأل عن العلماء فأشاروا إلى الإمام ركن الدين السمرقندي فقال له الهندي ما تعبدون قالوا نعبد الله بالغيب قال من أنبأكم قالوا محمد صلى الله عليه وسلم قال فما الذي قال في الروح قال هو من أمر ربي فقال صدقتم فأسلم وليس المراد بالروح خلق من الملائكة على صورة بني آدم أو ملك عظيم عرض شحمة أذنه خمسمائة عام إلى غير ذلك مما قيل قال بعضهم قلت كذا في هذه الرواية أنهم سألوه أي مشركو مكة عن الروح وحديث ابن مسعود يدل على أن السؤال عن الروح ونزول الآية كان بالمدينة أي من اليهود هذا كلامه وفيه أنه سيأتي جواز تكرار السؤال وتكرر نزول الآية إلى آخر ما يأتي وبه يعلم ما في الإتيان حيث تعقب حيث تعقب قول بعضهم إن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم سألوه عن الروح وعن ذي القرنين بقوله قلت السائل عن الروح وذي القرنين مشركو مكة أو اليهود كما في أسباب النزول لا الصحابة

وفي الإتقان قد يعدل عن الجواب أصلا إذا كان السائل قصده التعتن نحو *
(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) * قال صاحب الإفصاح إنما سأل اليهود
تعجيزا وتغليظا إذا كان الروح يقال بالاشترار على روح الانسان والقرآن وعيسى
وجبريل وملاك آخر وصنف من الملائكة فقصده اليهود أن يسألوه صلى الله عليه وسلم
فبأي مسمى أجابهم قالوا ليس هو فجاءهم الجواب مجملا وكان هذا الإجمال كيذا
يرد به كيدهم وفي سورة الكهف أيضا * (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن
يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت) * أي إذا أردت أن تقول سأفعل شيئا فيما يستقبل من
الزمان تقول إن شاء الله فإذا نسيت التعليق بذلك ثم تذكرت تأتي بها فذكرها بعد
النسيان كذكرها بعد القول قال جمع منهم حسن ما دام في المجلس أي وظاهره وإن
طال الفصل

وفي الخصائص الكبرى أن هذا أي الإتيان بالمشيئة بعد التذكر من خصائصه صلى الله
عليه وسلم ليس لأحد منا أن يستثنى أي يأتي بالمشيئة إلا في صلة يمينه
أقول كان ينبغي أن يقول في صلة إخباره لأن مساق الآية في الإخبار لافي الحلف
فإن قيل هي علامة في الخبر الحلف قلنا كان ينبغي أن يقول حينئذ في صلة كلامه
وحينئذ يقتضي كلامه أنا نشاركه في الخبر دون الحلف والله أعلم
ثم لا يخفى أنه قيل سبب احتباس الوحي أنه لم يقل إن شاء الله تعالى وهو مشهور
وقيل لأنه كان في بيته كلب وفي لفظ كان تحت سريره جرو ميت فقد جاء أنه لما
صلى الله عليه وسلم عاتب جبريل في احتباسه قال أما علمت أن الملائكة لا تدخل بيتا
فيه كلب أي أنه صلى الله عليه وسلم قال لخادمته خولة يا خولة ما حدث في بيت
رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل لا يأتيني قالت فقلت في نفسي لو كنت البيت
فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو الميت
أقول قال ابن كثير قد ثبت في الحديث المروي في الصحاح والسنن والمسانيد من
حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تدخل
الملائكة بيتا فيه صورة ولا كلب ولا جنب وقد أورد بعض الزنادقة سؤالا وهو

إذا كانت الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب أو صورة أي صورة التماثيل التي فيها الأرواح يلزم أن لا يموت من عنده كلب أو صورة وأن لا يكتب عمله وأجيب عنه بأن المراد لا تدخل الملائكة ذلك البيت دخول إكرام لصاحبه وتحصيل بركة فلا ينافي دخولهم لكتابة الأعمال وقبض الأرواح والله أعلم وقيل لأنه صلى الله عليه وسلم زجر سائلا ملحا وقد كان قبل ذلك يرد السائل بقوله آتاكم الله من فضله أي ربما سكت فقد روى الشيخان ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فقال لا قال الحافظ بن حجر المراد بذلك أنه لا ينطق بالرد بل إن كان عنده شيء أعطاه وإلا سكت وهذا هو المراد بما جاء أنه صلى الله عليه وسلم ما رد سائلا قط أي ما شافهه بالرد

وقد حكى بعضهم قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت يا رسول الله استغفر لي فسكت فقلت يا رسول الله إن ابن عيينة حدثنا عن جابر أنك ما سئلت شيئا قط فقلت لا فتبسم صلى الله عليه وسلم واستغفر لي أي فكان يأتي بالأول حيث لا يكون المقام يقتضي الاقتصار على السكوت ولعل هذا في غير رمضان فلا يخالف ما رواه البزار عن أنس رضي الله تعالى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل شهر رمضان اطلق كل أسير وأعطى كل سائل وبين الشيخ ابن الجوزي في النشر سبب إلحاح هذا السائل فقال إن النبي صلى الله عليه وسلم أهدى إليه قطف عنب قبل أوانه فهم أن يأكل منه فجاءه سائل فقال أطعموني مما رزقكم الله فسلم إليه ذلك القطف فلقية بعض أصحابه فاشتراه منه وأهداه للنبي صلى الله عليه وسلم فعاد السائل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله فأعطاه إياه فلقية رجل آخر من الصحابة فاشتراه منه وأهداه للنبي صلى الله عليه وسلم فعاد السائل فسأله فانتهره وقال إنك ملح قال وهذا سياق غريب جدا وهو معضل وقيل سبب ذلك غير ذلك من ذلك الغير أن جبريل عليه السلام لما قال له صلى الله عليه وسلم ما حبسك في قال كيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم و لا تنقون براجمكم ولا تأخذون شعوركم و لا تستاكون أقول واختلاف هذه الأسباب ظاهر في أن الواقعة متعددة ولا ينافيه قوله ونزلت أي سورة الضحى ردا عليهم في قولهم إن محمدا قلاه ربه وتركه وهي

* (ما ودعك ربك وما قلى) * أي ما قطعك قطع المودع وما أبغضك لأنه لا يجوز أن يكون مما تكرر نزوله لاختلاف سببه

ويمكن أن يقال يجوز أن تكون الواقعة واحدة وتعددت أسبابها ولا ينافيه إخبار جبريل عليه السلام تارة بأن سبب احتباسه عدم قص الأظفار وما ذكر معه وتارة بأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب وتارة بقوله * (وما ننزل إلا بأمر ربك) * كما يأتي قريبا وكما سيأتي في قصة الإفك لكن قال الحافظ بن حجر قصة إبطال جبريل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية أي * (ما ودعك ربك وما قلى) * غريب فالمعتمد ما في الصحيح هذا كلامه

أقول ومما يدل على أن واقعة الجرو كانت بالمدينة ما في بعض التفاسير أن هذا الجرو كان للحسن والحسين رضي الله عنهما وما رواه مسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت واعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام في ساعة أن يأتيه فجاء تلك الساعة ولم يأتها فيها قالت وكان بيده عصا فطرحها من يده وهو يقول ما يخلف الله وعده ولا رسله ثم التفت فإذا كلب تحت السرير فقال متى دخل هذا الكلب فقلت والله ما دريت به فأمر به فأخرج فجاء جبريل عليه الصلاة والسلام فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدتني فجلست لك ولم تأت فقال منعني الكلب الذي كان في بيتك إنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة

وفي زيادة الجامع الصغير أتاني جبريل فقال لي إني كنت أتيتك البارحة فلم يمنعني أن أكون دخلت عليك البيت الذي كنت فيه إلا أنه كان على الباب تماثيل وكان في البيت ستر فيه تماثيل وكان في البيت كلب فأمر صلى الله عليه وسلم برأس التمثال الذي في البيت فليقطع فيصير كهيئة الشجرة وأمر بالستر فليقطع فيجعل منه وسادتين منبوذتين توطآن وأمر بالكلب فأخرج ومعلوم أن مجيء جبريل له صلى الله عليه وسلم إكرام وتشريف له صلى الله عليه وسلم فلا ينافي ما تقدم فليتأمل

لما نزلت السورة المذكورة كبر صلى الله عليه وسلم فرحا بنزول الوحي واستمر صلى الله عليه وسلم لا يجاهر قومه بالدعوة حتى نزل * (وأما بنعمة ربك فحدث) * فعند ذلك كبر صلى الله عليه وسلم أيضا وكان ذلك سببا للتكبير في افتتاح السورة التي بعدها وفي ختمها إلى آخر القرآن

وعن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه أنه قرأ كذلك على النبي صلى الله عليه وسلم بعد أمره له بذلك وأنه كان كلما ختم سورة وقف وقفة ثم قال الله أكبر هذا وقيل ابتداء التكبير من أول ألم نشرح لا من أول والضحي وقيل إن التكبير إنما هو لآخر السورة وابتدأه من آخر سورة الضحي إلى آخر * (قل أعوذ برب الناس) * والإتيان بالتكبير في الأول والآخر جمع بين الروايتين والرواية التي جاءت بأنه كبر في أول السورة المذكورة والرواية الأخرى أنه كبر في آخرها ومما يدل على أن التكبير أول سورة الضحي ما جاء عن عكرمة بن سليمان قال قرأت على إسماعيل بن عبد ربه فلما بلغت الضحي قال كبر فإني قرأت على عبد الله بن كثير أحد القراء السبعة فلما بلغت والضحي قال لي كبر حتى تختتم وأخبرني ابن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك وأخبره أن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أمره بذلك وأخبره ابن عباس أن أبي بن كعب أمره بذلك أخبره أبي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بذلك قال بعضهم حديث غريب ونقل عن إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال لآخر إذا تركت التكبير من الضحي إلى الحمد في الصلاة وخارجها فقد تركت سنة من سنن نبيك صلى الله عليه وسلم لكن في كلام الحافظ ابن كثير ولم يرد ذلك أي التكبير عند نزول سورة الضحي باسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف وقد ذكر الشيخ أبو المواهب الشاذلي رضي الله تعالى عنه عن شيخه أبي عثمان أنه قال إنما نزلت سورة ألم نشرح عقب قوله * (وأما بنعمة ربك فحدث) * إشارة إلى أن من حدث بنعمة الله فقد شرح الله صدره قال كأنه تعالى يقول إذا حدثت بنعمتي ونشرتها بين عبادي فقد شرحت صدرك وعن ابن إسحاق ذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل لقد احتبست عني يا جبريل حتى سؤت ظنا وفي لفظ ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فقال له جبريل * (وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا) * أي لا تنتقل من مكان إلى مكان ولا تنزل في زمان دون زمان إلا بأمره ومشيئته على مقتضى حكمته وما كان ربك تاركاً لك كما زعم الكفار بل كان ذلك لحمكة رآها

وأما حديث الزبيدي فقد حدث بعضهم قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد ومعه من الصحابة إذا رجل من زبيد يطوف علي حلق قريش حلقة بعد أخرى وهو يقول يا معشر قريش كيف تدخل عليكم المارة أو يجلب إليكم جلب أو يحل بضم الحاء أي ينزل بساحتكم تاجر وأنتم تظلمون من دخل عليكم في حرمكم حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه فقال له صلى الله عليه وسلم ومن ظلمك فذكر أنه قدم بثلاث أجمال خيرة إبله أي أحسنها فسامه بها أبو جهل ثلث أثمانها ثم لم يسمه بها لأجله سائم قال فأكسد علي سلعتي فظلمني فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم وأين جمالك قال هذه هي بالحزورة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام أصحابه فنظروا إلى الجمال فرأى جمالا حسانا فساوم ذلك الرجل حتى ألحقه برضاه وأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فباع جميلين منها بالثمن وأفضل بغيرا باعه وأعطى أرامل بني عبد المطلب ثمنه وكل ذلك وأبو جهل جالس في ناحية من السوق ولم يتكلم ثم أقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له إياك يا عمرو أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الرجل فترى مني ما تكره فجعل يقول لا أعود يا محمد لا أعود يا محمد فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل علي أبي جهل أمية بن خلف ومن معه من القوم فقالوا له ذلت في يد محمد فإما أن تكون تريد أن تتبعه وإما رعب دخلك منه فقال لهم لا أتبعه أبدا إن الذي رأيتم مني لما رأيته رأيته معه رجلا عن يمينه ورجالا عن شماله معهم رماح يشرعونها إلي لو خالفتها لكانت إياها أي لأتوا علي نفسي

ونظير ذلك أن أبا جهل كان وصيا علي يتيم فأكل ماله وطرده فاستغاث اليتيم بالنبي صلى الله عليه وسلم علي أبي جهل فمشى معه إليه ورد عليه ماله فقيل له في ذلك فقال خفت من حربة عن يمينه وحربة عن شماله لو امتنعت أن أعطيه لطعنني

وأما حديث المستهزئين فمما استهزئ به علي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حدث به بعضهم أن أبا جهل بن هشام ابتاع من شخص يقال له الإراشي بكسر الهمزة نسبة إلى إراشة بطن من خثعم أجمالا فمطله بأثمانها فدلته قريش علي النبي صلى الله عليه وسلم لينصفه من أبي جهل استهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم لعلمهم بأنه لا قدرة له علي أبي جهل أي بعد أن وقف علي ناديم فقال يا معشر قريش من رجل يعينني علي أبي الحكم بن هشام فإني غريب وابن سبيل وقد غلبني علي حقي فقالوا له أترى ذلك

الرجل يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب إليه فهو يعينك عليه فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له حاله مع أبي جهل أي قال له يا أبا عبد الله إن أبا الحكم بن هشام غلبني على حق لي قبله وأنا غريب وابن سبيل وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذ لي بحقي منه فأشاروا إليك فخذ حقي منه يرحمك الله فخرج النبي صلى الله عليه وسلم مع الرجل إلى أبي جهل وضرب عليه بابه فقال من هذا قال محمد فخرج إليه وقد انتقع لونه أي تغير وصار كلون النقع الذي هو التراب وهو الصفرة مع كدرة كما تقدم فقال له أعط هذا حقه قال نعم لا تبرح حتى أعطيه الذي له فدفعه إليه قال ثم إن الرجل أقبل حتى وقف على ذلك المجلس فقال جزاه الله خيرا يعني النبي صلى الله عليه وسلم فقد والله أخذ لي بحقي وقد كانوا أرسلوا رجلا ممن كان معهم خلف النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا له انظر ماذا يصنع فقالوا لذلك الرجل ماذا رأيت قال رأيت عجبا من العجب والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه فقال أعط هذا حقه فقال نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه فدخل فخرج إليه بحقه فأعطاه إليه فعند ذلك قالوا لأبي جهل ويحك ما رأينا مثل ما صنعت قال ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب علي بابي وسمعت صوته فملئت رعبا ثم خرجت إليه وإن فوق رأسي فحلا من الإبل ما رأيت مثله قط لو أبيت أو تأخرت لأكلني وإلى هذه القصة أشار صاحب الهمزية بقوله

* واقتضاه النبي دين الإراشي

* وقد ساء بيعه والشراء

* ورأى المصطفى أتاه بما لم

* ينج منه دون الوفاء النجاء

* هو ما قد رآه من قبل لكن

* ما على مثله يعد الخطاء

*

أي وطلب صلى الله عليه وسلم من أبي جهل أن يؤدي دين الإراشي وقد ساء بيعه وشراؤه مع ذلك الرجل ورأى المصطفى صلى الله عليه وسلم وقد أتاه بفحل من الإبل لم ينج منه دون الوفاء لذلك الدين كثير النجاء وذلك الذي أتاه به هو الفحل الذي قد رآه من قبل أي لما أراد عدو الله أن يلقي عليه صلى الله عليه وسلم الحجر وهو ساجد كما تقدم لكن ما على مثله فضلا عنه يعد الخطأ لأن خطأه لا ينحصر أي ومن استهزاء أبي جهل بالنبي صلى الله عليه وسلم أنه في بعض الأوقات سار

خلف النبي صلى الله عليه وسلم يخلج بأنفه وفمه يسخر به فاطلع عليه صلى الله عليه وسلم فقال له كن كذلك فكان كذلك إلى أن مات

قال ابن عبد البر وكان من المستهزئين الذين قال الله تعالى فيهم * (إنا كفييناك المستهزئين) * أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أي معيط والحكم بن العاص بن أمية وهو والد مروان بن الحكم عم عثمان بن عفان والعاص بن وائل فمن استهزاء أبي جهل ما تقدم

ومن استهزاء أبي لهب به صلى الله عليه وسلم أنه كان يطرح القدر على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم ومر يوما من الأيام فرآه أخوه حمزة رضي الله تعالى عنه قد فعل ذلك فأخذه وطرحه على رأسه فجعل أبو لهب ينفض رأسه ويقول صابئ أحقق

ومن استهزاء عقبة بن أبي معيط به صلى الله عليه وسلم أنه كان يلقي القدر أيضا على بابه صلى الله عليه وسلم كما تقدم وقد قال صلى الله عليه وسلم كنت بين شر جارين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط إن كانا يأتيان بالفروث فيطرحانها على بابي كما تقدم ومن استهزائه أنه بصق في وجه النبي صلى الله عليه وسلم فعاد بصاقه على وجهه وصار برصا أي فإنه صلى الله عليه وسلم كان يكثر مجالسة عقبة بن أبي معيط فقدم عقبة يوما من سفر فصنع طعاما ودعا الناس من أشرف قريش ودعا النبي صلى الله عليه وسلم فلما قرب إليهم الطعام أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل فقال ما أنا بأكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله فقال عقبة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله فأكل صلى الله عليه وسلم من طعامه وانصرف الناس وكان عقبة صديقا لأبي بن خلف فأخبر الناس أبا بمقالة عقبة فأتى إليه وقال يا عقبة صبوت قال والله ما صبوت ولكن دخل منزلي رجل شريف فأبى أن يأكل طعامي إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له فطعم والشهادة ليست في نفسي فقال له أبي وجهي ووجهك حرام إن لقيت محمدا فلم تطأه وتبزق في وجهه وتلطم عينه فقال له عقبة لك ذلك ثم إن عقبة لقي النبي صلى الله عليه وسلم ففعل به ذلك قال الضحاك لما بزق عقبة لم تصل البزقة إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بل وصلت إلى وجهه هو كشهاب نار فاحترق مكانها وكان أثر الحرق في وجهه إلى الموت وحينئذ يكون المراد بقوله فيما تقدم فعاد بصاقه برصا في وجهه أي صار

كالبرص وأنزل الله تعالى في حقه * (ويوم يعرض الظالم على يديه) * أي في النار يأكل إحدى يديه إلى المرفق ثم يأكل الأخرى فتنبت الأولى فيأكلها وهكذا ومن استهزاء الحكم بن العاص أنه كان صلى الله عليه وسلم يمشى ذات يوم وهو خلفه يخلج بفمه وأنفه يسخر بالنبي صلى الله عليه وسلم فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال له كن كذلك فكان كذلك أي كما تقدم نظير ذلك لأبي جهل واستمر الحكم بن العاص يخلج بأنفه وفمه بعد أن مكث شهرا مغشيا عليه حتى مات أسلم يوم فتح مكة

وكان في إسلامه شيء اطلع على رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب بيته وهو عند بعض نسائه بالمدينة فخرج إليه صلى الله عليه وسلم بالعنزة أي وقيل بمدري في يده والمدري كالمسلة يفرق به شعر الرأس وقال من عذيري من هذه الوزغة لو أدركته لفقت عينه ولعنه وما ولد وغربه عن المدينة إلى وج الطائف فلم يزل حتى ولي ابن أخيه عثمان رضي الله تعالى عنه الخلافة فدخل المدينة بعد أن سأل عثمان أبا بكر في ذلك فقال لا أحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم سأل عمر لما ولي الخلافة فقال له مثل ذلك ولما أدخله عثمان نقم عليه الصحابة بسبب ذلك فقال أنا كنت شفعت فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعدني برده أي أنني أردت ولا ينافي ذلك سؤال عثمان لأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهم في ذلك كما لا يخفى لأنه يحتمل أن يرده عثمان إما بنفسه أو بسؤاله وسيأتي ذلك في جملة أمور نقمها عليه الصحابة

وعن هند ابن خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بالحكم فجعل يغمز بالنبي صلى الله عليه وسلم فرآه فقال اللهم اجعل به وزغا فرجف وأرتعش مكانه والوزغ الإرتعاش وفي رواية فما قام حتى ارتعش وعن الواقدي استأذن الحكم بن العاص على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرف صوته فقال ائذنوا له لعنه الله ومن يخرج من صلبه إلا المؤمنين منه وقليل ما هم ذو مكر وخديعة يعطون الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق وكان لا يولد لأحد ولد بالمدينة إلا أتى به النبي صلى الله عليه وسلم فأتى إليه بمروان لما ولد فقال هو الوزغ بن الوزغ الملعون ابن الملعون وعلى هذا فهو صحابي إن ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه لأنه يحتمل أنه أتى به إليه صلى الله عليه وسلم فلم يأذن بإدخاله عليه وربما يدل ذلك قوله هو الوزغ إلى آخره

وفي كلام بعضهم أن مروان ولد بمكة وفي كلام بعض آخر أنه ولد بالطائف بعد أن نفى أبوه إلى الطائف أي ولم يجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم فهو ليس بصحابي ومن ثم قال البخاري مروان بن الحكم لم ير النبي صلى الله عليه وسلم وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت لمروان نزل في أبيك * (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم) * وقالت له سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبيك وجدك الذي هو العاص بن أمية إنهم الشجرة الملعونة في القرآن ولي مروان الخلافة تسعة أشهر

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت لمروان بن الحكم حيث قال لأخيها عبد الرحمن بن أبي بكر لما بايع معاوية لولده قال مروان سنة أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما فقال عبد الرحمن بل سنة هرقل وقيصروا امتنع من البيعة ليزيد بن معاوية فقال له مروان أنت الذي أنزل الله فيك * (والذي قال لوالديه أف لكما) * فبلغ ذلك عائشة فقالت كذب والله ما هو به ثم قالت له أما أنت يا مروان فأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أباك وأنت في صلبه

وعن جبير بن مطعم كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمر الحكم بن العاص فقال للنبي صلى الله عليه وسلم ويل لأمتي مما في صلب هذا قال بعضهم وكون النبي صلى الله عليه وسلم مع ما هو عليه من الحلم والإغضاء على ما يكره فعل بالحكم ذلك يدل على أمر عظيم ظهر له في الحكم وأولاده

وعن حمران بن جابر الجعفي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ويل لبني أمية ثلاث مرات أي وقد ولي منهم الخلافة أربعة عشر رجلاً أولهم معاوية بن أبي سفيان وآخرهم مروان بن محمد وكان مدة ولايتهم ثنتين وثمانين سنة وهي ألف شهر وقال بعضهم لا يزيد ذلك يوماً ولا ينقص يوماً قال ابن كثير وهذا غريب جداً وفيه نظر لأن معاوية حين تسلم الخلافة من الحسن كان ذلك سنة أربعين أو إحدى وأربعين واستمر الأمر في بني أمية إلى أن انتقل إلى بني العباس سنة ثنتين وثلاثين ومائة ومجموع ذلك ثنتان وتسعون سنة وألف شهر تعدل ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر هذا كلامه

ومن استهزاء العاص بن وائل أنه كان يقول غر محمد نفسه وأصحابه أن وعدهم أن يحيوا بعد الموت والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث

أي ومن استهزائه أن خباب بن الأرت رضي الله تعالى عنه كان قينا بمكة أي حدادا يعمل السيوف وقد كان باع للعاص سيوفا فجاءه يتقاضى ثمنها فقال له يا خباب أليس يزعم محمد هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم أو ولد قال خباب بلى قال فانظرنى إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هناك حقك ووالله لا تكونن أنت وصاحبك آثر عند الله مني ولا أعظم حظا في ذلك

وفي لفظ أن العاص قال له لا أعطيك حتى تكفر بمحمد فقال والله لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله ثم يبعثك قال فذرني حتى أموت ثم أبعث فسوف أوتى مالا وولدا فأقضيك فأنزل الله تعالى فيه * (أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ونرثه ما يقول ويأتينا فردا) *

وفي كلام ابن حجر الهيتمي وفي البخاري من عدة طرق أن خبابا رضي الله تعالى عنه طلب من العاص بن وائل السهمي ديناه عليه قال لا أعطيك حتى تكفر بمحمد فقال لا أكفر به حتى يميتك الله ثم يبعثك

وفيه أن هذا تعليق للكفر بممكن أي وتعليق الكفر ولو بمحال عادي وكذا شرعي أو عقلي على احتمال كفر لأنه ينافي عقد التصميم الذي هو شرط في الإسلام وأجيب بأنه لم يقصد التعليق قطعا وإنما أراد تكذيب ذلك اللعين في إنكار البعث ولا ينافيه قوله حتى لأنها تأتي بمعنى إلا المنقطعة فتكون بمعنى لكن الذي صرحوا بأن ما بعدها كلام مستأنف وعليه خرج ابن هشام الخضرأوي حديث كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه أي لكن أبواه

وعد بعضهم من المستهزئين الحارث بن عيطلة ويقال ابن عيطل ينسب إلى أمه وكان من استهزائه ما تقدم عن العاص بن وائل وأبي جهل من الإختلاج خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم

وعد منهم الأسود بن عبد يغوث وهو ابن خال النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى المسلمين قال لأصحابه استهزاء بالصحابة قد جاءكم ملوك الأرض الذي يرثون كسرى

وقيصر أي لأن الصحابة كانوا متقشفين ثيابهم رثة وعيشهم خشن ويقول للنبي صلى الله عليه وسلم أما كلمت اليوم من السماء يا محمد وما أشبه هذا القول وعد منهم الأسود بن عبد المطلب ومن استهزائه أنه كان هو وأصحابه يتغامزون بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويصفرون إذا رأوهم وعد منهم النضر بن الحارث فهلك غالبهم قبيل الهجرة بضروب من البلاء أقول والذي ينبغي أن يكون المراد بالمستهزئين في الآية وهي * (إنا كفييناك المستهزئين) * الوليد بن المغيرة والد خالد وعم أبي جهل فإنه كان من عظماء قريش وكان في سعة من العيش ومكنة من السيادة كان يطعم الناس أيام منى حيسا وينهى أن توقد نار لأجل طعام غير ناره وينفق على الحاج نفقة واسعة وكان الأعراب تثنى عليه كانت له البساتين من مكة إلى الطائف وكان من جملةها بستان لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفا وبركته صلى الله عليه وسلم أصابته الجوائح والآفات في أمواله حتى ذهبت بأسرها ولم يبق له في أيام الحج ذكر وكان المقدم في قريش فصاحة وكان يقال له ربحانة قريش ويقال له الوحيد أي في الشرف والسودد والجاه والرياسة قال بعضهم بل هو وحيد في الكفر والخبث والعناد والعاص بن وائل والد عمرو بن العاص والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث والحارث بن عيطلة وفي لفظ ابن الطلائع في اللغة الداھية قال بعضهم وهو اشتباه لأن ابن الطلائع اسمه مالك لا حارث والحارث بن العيطلة كان أحد أشرف قريش في الجاهلية وإليه كانت الحكومة والأموال التي تجعل للآلهة وذكره ابن عبد البر في الصحابة قال في أسد الغابة لم أر أحدا ذكره في الصحابة إلا أبا عمرو يعني ابن عبد البر والصحيح أنه كان من المستهزئين وهؤلاء الخمسة هم الذين اقتصر عليهم القاضي البيضاوي لما يروى أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد أي يطوف بالبيت وقال له أمرت أن أكفيكهم فلما مر الوليد بن المغيرة قال له يا محمد كيف تجد هذا فقال بنس عبد الله فأوماً إلى ساق الوليد وقال كفيته ومر العاص بن وائل فقال كيف تجد هذا يا محمد قال عبد سوء فأشار إلى أحمصه وقال كفيته ثم مر الأسود بن المطلب فقال كيف تجد هذا يا محمد قال عبد سوء فأوماً إلى عينه وقال كفيته ثم مر الأسود بن عبد يغوث

فقال كيف تجد هذا يا محمد قال عبد سوء فأومأ إلى رأسه وقال كفيته ثم مر الحارث بن عيطلة فقال كيف تجد هذا يا محمد قال عبد سوء فأومأ إلى بطنه وقال كفيته وحينئذ يكون معنى كفاية هذا له صلى الله عليه وسلم أنه لم يسع ولم يتكلف في تحصيل ذلك وإلى هذا أشار الإمام السبكي في تائيته بقوله
* وجبريل لما استهزأت فرقة الردى
* أشار إلى كل بأقبح ميتة
* والله أعلم

قال وروى الزهري أن الأسود بن عبد يغوث خرج من عند أهله فاصابته السموم فاسود وجهه فأتى أهله فلم يعرفوه وأقفلوا دونه الباب وسلط عليه العطش فلا زال يشرب الماء حتى انشق بطنه وهذا يناسب ما سيأتي عن الهمزية ولا يناسب أن جبريل عليه الصلاة والسلام أشار إلى رأسه وف يكلام البلاذري عن عكرمة أن جبريل أخذ بعنق الأسود بن عبد يغوث فحنى ظهره حتى احقوقف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خالي خالي أي لأنه كما تقدم ابن خاله فهو إما على حذف المضاف أو لأجل مراعاة أبيه أي يراعى لأجل أبيه الذي هو خالي فقال جبريل يا محمد دعه وفي رواية قال له جبريل خل عنك ثم حثاه حتى قتله وهذا لا يناسب كون جبريل أشار إلى رأسه والمناسب لذلك ما ذكره بعضه أنه امتحض رأسه قيحا ثم لم يزل يضرب برأسه أصل شجرة حتى مات وكذا الحارث بن عيطلة أي وفي كلام القاضي حارث ابن قيس وفي تكملة الجلال السيوطي عدي بن قيس فقد أكل حوتا مملحا فلم يشرب عليه الماء حتى انقد بطنه وهذا المناسب لما ذكر هنا أن جبريل أشار إلى بطنه لكن لا يناسب ما قاله القاضي البيضاوي أنه أشار إلى أنفه فامتخض قيحا وأما الأسود بن المطلب فقد عمى بصره فقد ذكر أنه خرج ليستقبل ولده وقد قدم من الشام فلما كان ببعض الطريق جلس في ظل شجرة فنجعل جبريل يضرب وجهه وعينه بورقة من ورقها حتى عمى فجعل يستغيث بغلامه فقال له غلامه لا أحد يصنع بك شيئا أي وقيل ضربه بغصن فيه شوك فسالت حدقاته وصار يقول ها هو ذا طعن بالشوك في عيني فيقال له ما نرى شيئا وقيل أتى شجرة فجعل ينطح رأسه بها حتى خرجت عيناه أي وفعل ذلك لا ينافي ما ورد فأشار أي جبريل إلى وجهه فعمى بصره

في الحال لجواز أن يراد بالحال الزمن القريب وفي رواية أنه كان يقول دعا علي محمد بالعمى فاستجيب له ودعوت عليه بأن يكون طريدا شريدا فاستجيب لي وسيأتي عن بعضهم في غزوة بدر أنه صلى الله عليه وسلم دعا على الأسود بن المطلب بالعمى وفقد أولاده فعجل له العمى وفقد أولاده ببدر وأما الوليد بن المغيرة فمر بشخص يعمل النبل فتعلق بثوبه سهم فلم ينقلب لينحيه تعاظما فعدا فأصاب السهم عرقا في ساقه فقطعه فمات وأما العاص بن وائل فدخلت شوكة في أخمصه فانتفخت رجله حتى صارت كالرحا ومات وإلى الخمسة الذين ذكرنا أنهم المرادون بقوله تعالى * (إنا كفييناك المستهزئين) * أشار صاحب الهمزية بقوله

- * وكفاه المستهزئين وكم سا
- * ء نبيا من قومه استهزاء
- * خمسة كلهم أصيبوا بداء
- * والردى من جنوده الأدواء
- * فدهى الأسود بن مطلب
- * أي عمى ميت به الأحياء
- * ودهى الأسود بن عبد يغوث
- * أن سقاه كأس الردى استسقاء
- * وأصاب الوليد خدشة سهم
- * قصرت عنها الحية الرقطاء
- * وقضت شوكة على مهجة العا
- * ص فله النقعة الشوكاء
- * وعلى الحارث القيوح وقد سا
- * ل بها رأسه وسال الوعاء
- * خمسة طهرت بقطعهم الأر
- * ض فكف الأذى بهم شلاء
- *

أي وكفى الله رسوله صلى الله عليه وسلم المستهزئين به ومرات كثيرة أحزن نبينا صلى الله عليه وسلم كغيره من الأنبياء استهزاء قومه به وهؤلاء المستهزئون به صلى الله عليه وسلم خمسة كلهم أصيبوا بداء عظيم والهلاك من جملة جنوده الأمراض فأهلك الأسود بن المطلب عمى عظيم الأحياء أموات بسببه وهو المناسب لكون جبريل أشار إلى عينيه ودهى أيضا الأسود بن عبد يغوث استسقاء سقاه كأس الموت وهذا لا يناسب كون جبريل أشار إلى رأسه وأصاب الوليد أثر سهم في ساقه قصرت عنه الحية الرقطاء أي سمها وقضت شوكة على مهجة العاص دخلت في رجله فله هذا النقعة الخشنة للمس وقضت على الحارث القيوح والحال أنه قد سال رأسه وفسد ذلك

الوعاء لتلك القيوح وهذا هو المناسب لكون جبريل أشار إلى أنه

(٥١٤)

لا لقول بعضهم إنه أشار إلى بطنه خمسة طهرت بهلاكهم الأرض فكف الأذى بهم
شلاء فاقدة الحركة

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن هؤلاء الخمسة هلكوا في ليلة واحدة
فعلم أن هؤلاء هم المرادون بقوله تعالى * (إنا كفيناك المستهزيين) * كما ذكرنا وإن
كان المستهزون غير منحصرين فيهم فلا ينافي عد منبه ونبيه ابني الحجاج منهم
فقد قيل كانا ممن يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانا يليقياه فيقولان له أما
وجد الله من يبعثه غيرك إن ها هنا من هو أسن منك وأيسر فإن كنت صادقاً فأنتا بملك
ليشهد لك ويكون معك وإذا ذكر لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قال معلم
مجنون يعمله أهل الكتاب ما يأتي به ولا ينافي عد أبي جهل وغيره منهم كما تقدم
وفي سيرة ابن المحدث قال عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الهمزة أعطاه الله عشر
حسانات بعدد من استهزأ بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه
ومن استهزأ أبي جهل أيضاً بالنبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يوماً لقريش يا معشر
قريش يزعم محمد أن جنود الله الذي يقذفونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر
وأنتم أكثر الناس عدداً فيعجز كل مائة رجل منكم عن واحد منهم
أي وفي رواية أن بعض قريش وكان شديداً قوي البأس بلغ من شدته أنه كان يقف على
جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعه من تحت قدمه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه قال له
أنا أكفيك سبعة عشر واكفوني أنتم اثنين ويقال إن هذا دعا النبي صلى الله عليه وسلم
إلى المصارعة وقال له يا محمد إن صرعتني آمنت بك فصرعه اليب صلى الله عليه
وسلم مرارا فلم يؤمن

أي وفي رواية أن أبا جهل قال أنا أكفيكم عشرة فاكفوني تسعة فأنزل الله تعالى * (وما
جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) * أي لا يطاقون كما تتوهمون * (وما جعلنا عدتهم إلا
فتنة) * ضلالاً * (للذين كفروا) * الآيات أي بأن يقولوا ما ذكر أو يقولوا لم كانوا
تسعة عشرة وماذا أراد الله بهذا العدد أي وهذا العدد لحكمة استأثر الله تعالى بعلمها
وقد أبدى بعض المفسرين لذلك حكماً تراجع
وقد جاء في وصف تلك الملائكة أن أعينهم كالبرق الخاطف وأنيابهم كالصياصي

أي القرون ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة وفي رواية ما بين منكبي أحدهم كما بين
المشرق والمغرب لأحدهم قوة مثل قوة الثقلين نزع الرحمة منهم
وأخرج العتبي في عيون الأخبار عن طاوس إن الله خلق مالكا وخلق له أصابع على عدد
أهل النار فما من أهل النار معذب إلا ومالك يعذبه بأصبع من أصابعه فوالله لو وضع
مالك أصبعا من أصابعه على السماء لأذابها وهؤلاء التسعة عشرة هم الرؤساء ولكل
واحد أتباع لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى قال تعالى * (وما يعلم جنود ربك إلا هو) *
أي وهؤلاء الأتباع منهم
وأخرج هناد عن كعب قال يؤمر بالرجل إلى النار فيبتدره مائة ألف ملك أي والمتبادر
أن هؤلاء من خزنتها
وفي كلام بعضهم لم يثبت لملائكة النار عدد معين سوى ما في قوله تعالى * (عليها
تسعة عشر) * وإنما ذلك لسقر التي هي إحدى دركات النار لقوله تعالى قبل ذلك *
(سأصليه سقر) * وقد يكون على كل واحدة منها مثل هذا العدد أو أكثر قيل وبسم الله
الرحمن الرحيم عدد حروفها على عدد هؤلاء الزبانية التسعة عشر فمن قرأها وهو مؤمن
دفع الله تعالى عنه بكل حرف منها واحد منهم
أقول ومن استهزاء أبي جهل أيضا أنه قال يوما لقريش وهو يهزأ برسول الله صلى الله
عليه وسلم وبما جاء به من الحق يا معشر يخوفنا محمد بشجرة الزقوم يزعم أنها
شجرة في النار يقال لها شجرة الزقوم والنار تأكل الشجر إنما الزقوم التمر والزبد
وفي لفظ العجوة تترب بالزبد هاتوا تمرا وزبدا تزقموا فأنزل الله تعالى * (إنها شجرة
تخرج في أصل الجحيم) * أي منبتها في أصل جهنم ولا تسلط لجهنم عليها أما علموا
أن من قدر على خلق من يعيش في النار ويلتذ بها فهو أقدر على خلق الشجر في النار
وحفظه من الإحراق بها
وقد قال ابن سلام رضي الله تعالى عنه إنها تحيا باللهب كما يحيا شجر الدنيا بالمطر
وثمر تلك الشجرة مر له زفرة وأخرج الترمذي وصححه النسائي والبيهقي وابن حبان
والحاكم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم فكيف
بمن تكون

طعامه أي وقال يا محمد لتتركن سب آلهتنا أو لنسبن إلهك الذي تعبد فأنزله الله تعالى * (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) * فكف عن

سب آلهتهم وجعل يدعوهم إلى الله عز وجل ثم رأيت في الدر المنثور في تفسير * (إنا كفيناك المستهزئين) * قيل نزلت في جماعة من النبي صلى الله عليه وسلم بهم فجعلوا يغمزون في قفاه ويقولون هذا الذي يزعم أنه نبي ومعه جبريل فغمز جبريل عليه الصلاة والسلام بأصبعه في أجسادهم فصارت جروحا وأنتنت فلم يستطع أحد يدنو منهم حتى ماتوا فلينظر الجمع على تقدير الصحة وقد يدعى أنهم طائفة آخرون غير من ذكر لأنهم المستهزئون ذلك الوقت أي فقد تكرر نزول الآية والله أعلم

قال ومن استهزاء النضر بن الحارث أنه كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا يحدث فيه قومه ويحذرهم ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله تعالى خلفه في مجلسه ويقول لقريش هلموا فإني والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه يعني النبي صلى الله عليه وسلم ثم يحدثهم عن ملوك فارس لأنه كان يعلم أحاديثهم ويقول ما حديث محمد إلا أساطير الأولين

ويقال إنه الذي * (قال سأنزل مثل ما أنزل الله) * فانتهى أي لأنه ذهب إلى الحيرة واشترى منها أحاديث الأعاجم ثم قدم بها مكة فكان يحدث بها ويقول هذه كأحاديث محمد عن عاد وثمود وغيرهم ويقال إن ذلك كان سببا لنزول قوله تعالى * (ومن الناس من يشتري لهو الحديث) *

قال في الينبوع والمشهور أنها نزلت في شراء المغنيات وقال ولا بعد في أن تكون الآية نزلت فيهما ليتحقق العطف في قوله تعالى * (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا) * أي فإن هذا الوصف الثاني إنما يناسب النضر فليتأمل ولما تلا عليهم صلى الله عليه وسلم نبأ الأولين قال النضر بن الحارث لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين فأنزل الله تعالى تكديبا له * (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) * أي معينا له

وجاء أن جماعة من بني مخزوم منهم أبو جهل والوليد بن المغيرة تواصلوا على قتله صلى الله عليه وسلم فبينما النبي صلى الله عليه وسلم قائما يصلى سمعوا قراءته فأرسلوا

الوليد ليقتله فانطلق حتى أتى المكان الذي يصلى فيه فجعل يسمع قراءته ولا يراه فانصرف إليهم وأعلمهم بذلك فأتوه فلما سمعوا قراءته قصدوا الصوت فإذا الصوت من خلفهم فذهبوا إليه فسمعوه من أمامهم ولا زالوا كذلك حتى انصرفوا خائبين فانزل الله تعالى قوله * (وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) * وتقدم في سبب نزولها غير ذلك ويمكن أن يدعى أنها نزلت لوجود الأمرين فليتأمل وجاء أن النضر بن الحارث رأى النبي صلى الله عليه وسلم منفردا أسفل ثنية الحجون فقال لا أجده أبدا أخلى منه الساعة فاغتاله فدنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليغتاله فرأى أسود تضرب بأذناها على رأسه فاتحة أفواهها فرجع على عقبه مرعوبا فلقى أبا جهل فقال من أين فأخبره النضر الخبر فقال أبو جهل هذا بعض سحره ومما تعنتوا به أنه لما نزل قوله تعالى * (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) * أي وقودها وحصب بالزنجية حطب أي حطب جهنم وقد قرأتها عائشة رضي الله تعالى عنها كذلك * (أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون) * شق على كفار قريش وقالوا لعبد الله بن الزبيري قد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا حصب جهنم فقال ابن الزبيري أنا أخصم لكم محمدا ادعوه لي فدعوه له فقال يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصة أم لكل من عبد من دون الله فقال بل لكل من عبد من عبد دون الله فقال ابن الزبيري أخصمت ورب هذه البنية يعني الكعبة ألسنت زعم يا محمد أن عيسى عبد من دون الله وكذا عزيز والملائكة عبدت النصراني عيسى واليهود عزيرا وبنوا مليح الملائكة فضج الكفار وفرحوا فأنزل الله تعالى * (إن الذين سبقتم لهم منا الحسنی أولئك عنها مبعدون) * يعني عيسى وعزيرا والملائكة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تم بعون الله الجزء الأول ويليه الجزء الثاني وأوله
باب الهجرة الأولى